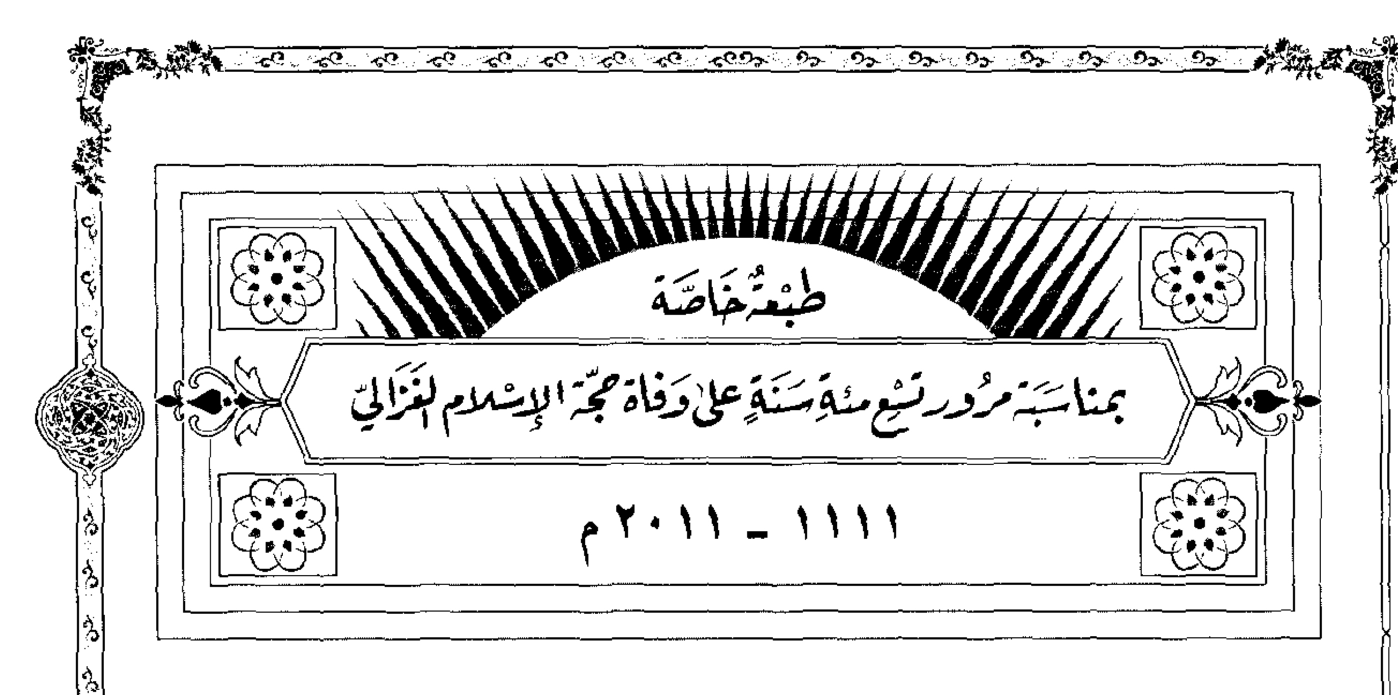
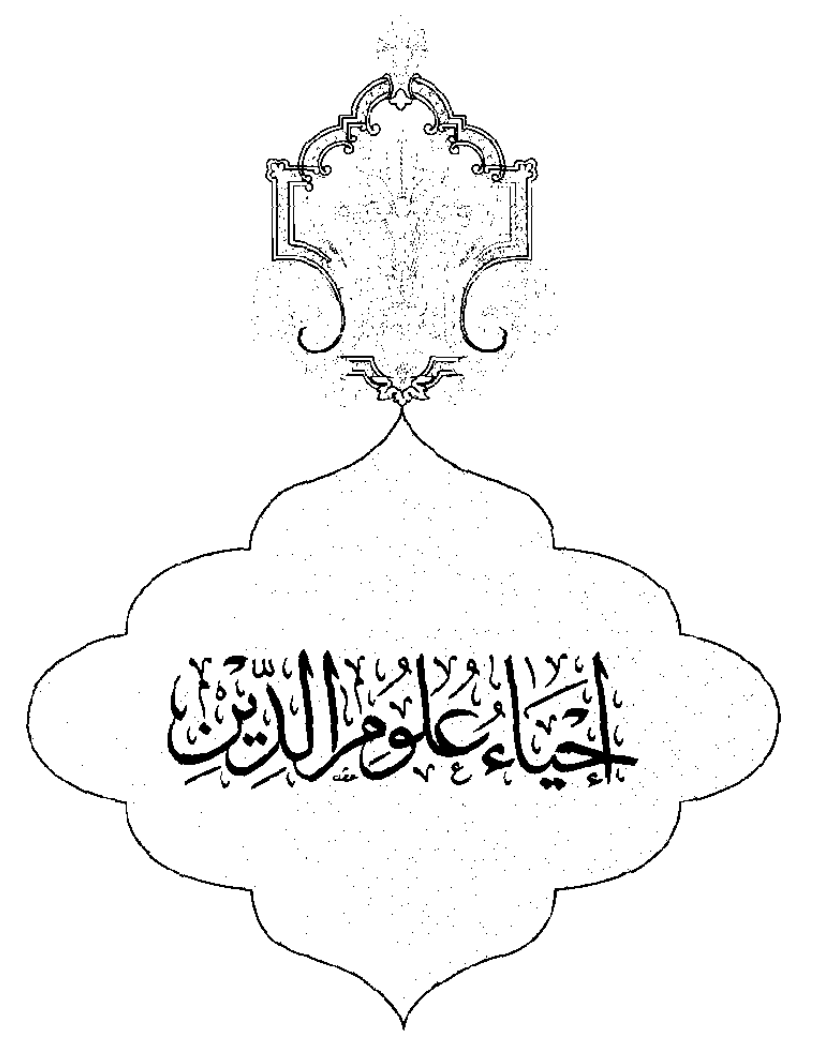
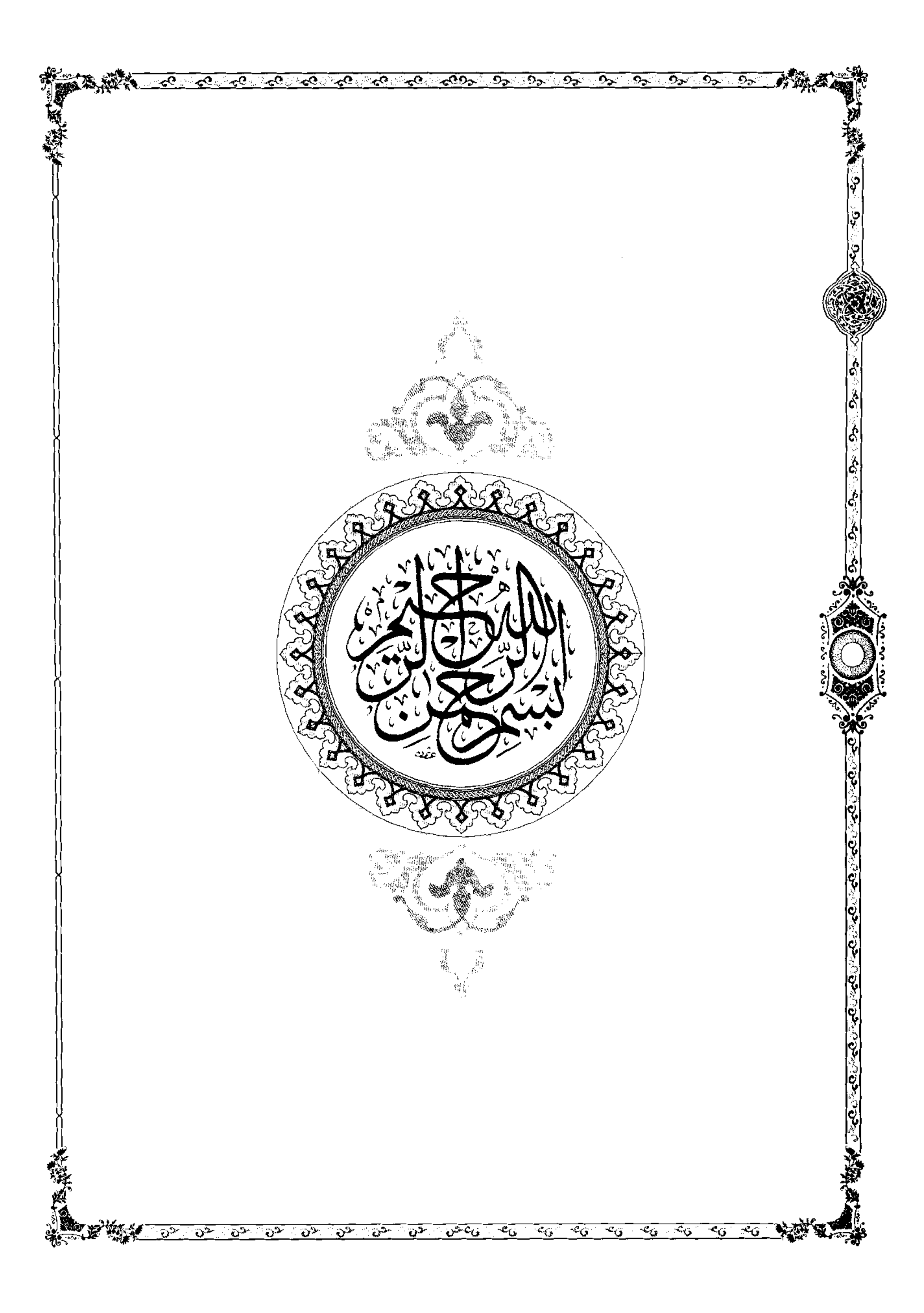

طبعة خاصة
بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي
١١١١ - ٢٠١١ م


إحياء علوم الدين


بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ـ (١٠٥٨ـ١١١١م)

ربع المنجيات / القسم الأول

كتاب

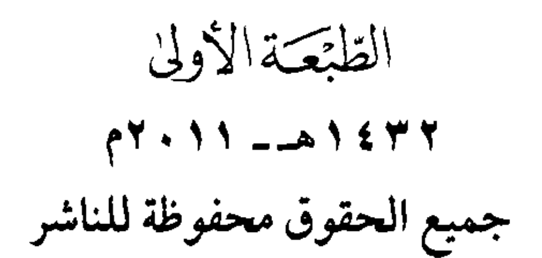
التوبة ـ الصبر والشكر

الرجاء والخوف

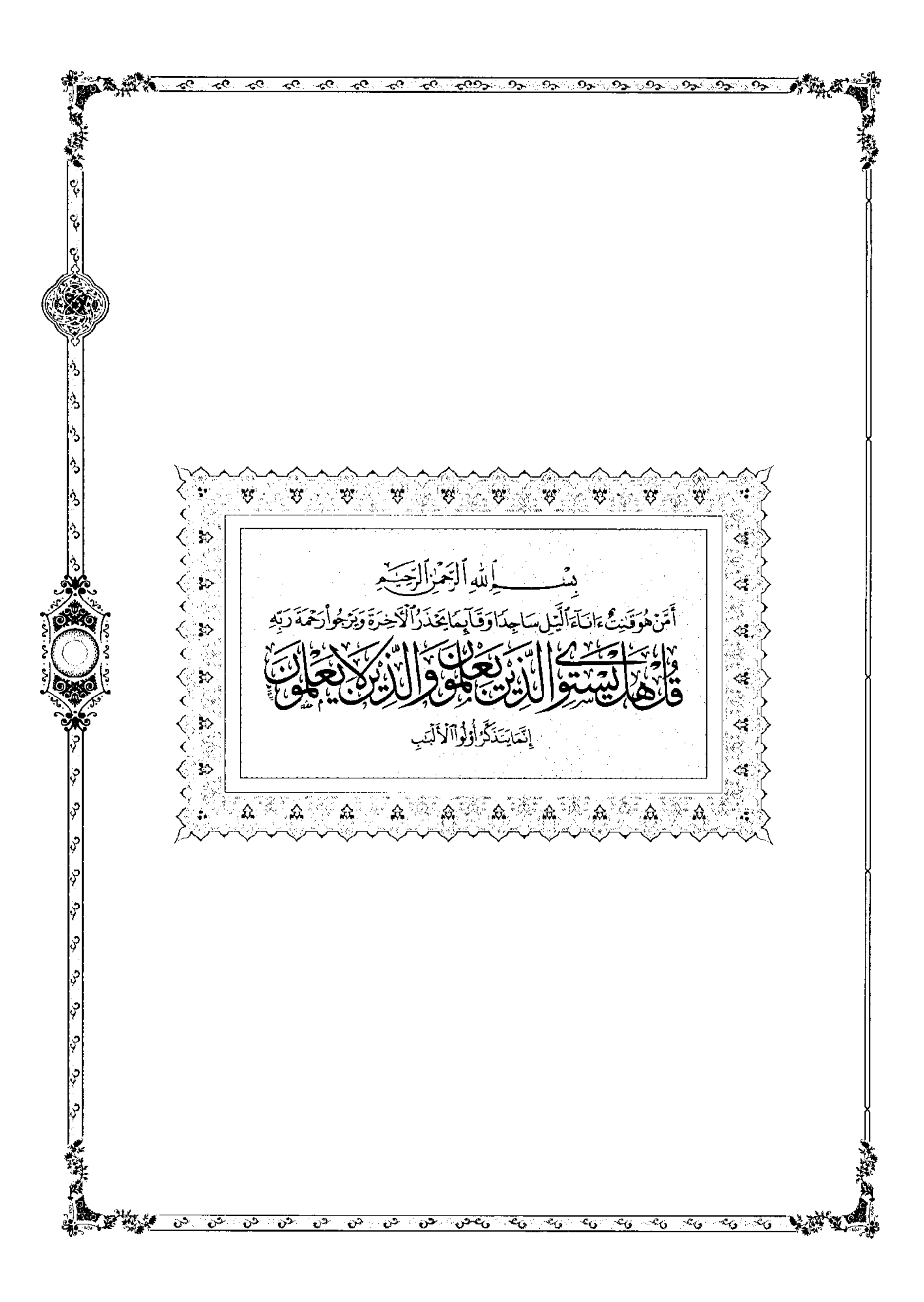


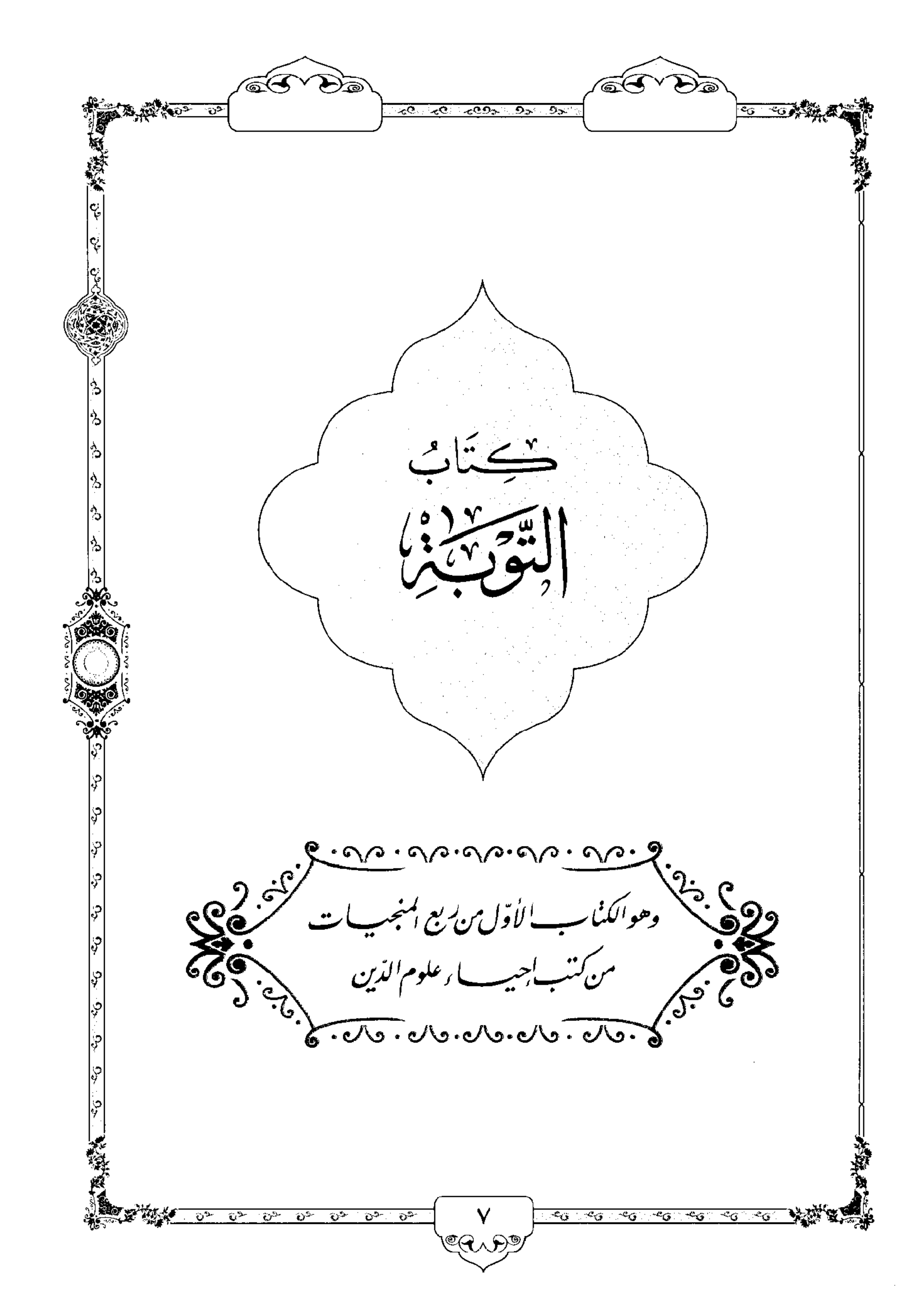
دار المنهاج

الطَّبْعَة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



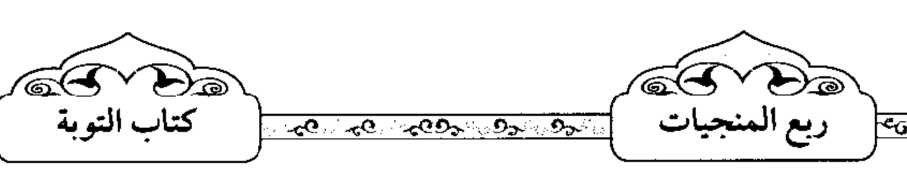
المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1


بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الْأَلْبَٰبِ



كِتَابُ التَّوْبَةِ

وهو الكتاب الأوّل من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدّين



كتاب التوبة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي بتحميدِهِ يُستفتحُ كلُّ كتابٍ ، وبذكرِهِ يُصدَّرُ كلُّ خطابٍ ، وبحمدِهِ يتنعَّمُ أهلُ النعيمِ في دارِ الثوابِ ، وباسمِهِ يتسلَّى الأشقياءُ وإنْ أرخىٰ دونَهُمُ الحجابَ ، وضربَ بينَهُمْ وبينَ السعداءِ بسورٍ لهُ بابٌ ، باطنُهُ فيهِ الرحمةُ وظاهرُهُ مِنْ قبلِهِ العذابُ .

ونتوبُ إليهِ توبةَ مَنْ يوقنُ أنَّهُ ربُّ الأربابِ ، ومسبِّبُ الأسبابِ ، ونرجوهُ رجاءَ مَنْ يعلمُ أنَّهُ الملكُ الرحيمُ الغفورُ التوَّابُ ، ونمزجُ برجائِنا الخوفَ مزْجَ مَنْ لا يرتابُ أنَّهُ معَ كونِهِ غافرَ الذنبِ وقابلَ التوبِ شديدُ العقابِ .

ونصلِّي علىٰ نبيِّهِ محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ الأكرمينَ صلاةً تنقذُنا مِنْ هولِ المُطَّلَعِ يومَ العرضِ والحسابِ[1] ، وتمهدُ لنا عندَ اللهِ زلفىٰ وحسنَ مآبٍ .

أمَّا بعدُ :

فإنَّ التوبةَ عنِ الذنوبِ بالرجوعِ إلىٰ ستَّارِ العيوبِ وعلاَّمِ الغيوبِ مبدأُ طريقِ السالكينَ ، ورأسُ مالِ الفائزينَ ، وأوَّلُ إقدامِ المريدينَ ، ومفتاحُ

---

(١) **المُطَّلَع** : ما يطلع عليه من أهوال الآخرة وشدائدها ، ولا يبعد أن تكون المَطْلَع موضع الطلوع ، أو بكسر اللام وقت الطلوع . انظر « مشارق الأنوار » (١/ ٣١٩) .

استقامةِ المائلينَ ، ومَطلَعُ الاصطفاءِ والاجتباءِ للمقرَّبينَ ، ولأبينا آدمَ صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ سائرِ الأنبياءِ أجمعينَ .

وما أجدرَ بالأولادِ الاقتداءَ بالآباءِ والأجدادِ ، فلا غروَ إنْ أذنبَ الآدميُّ واجترمَ ؛ فهيَ شِنْشِنَةٌ يعرفُها مِنْ أخزمَ ، ومَنْ أشبهَ أباهُ فما ظلمَ ، ولكنَّ الأبَ إذا جبرَ بعدَ أنْ كسرَ ، وعَمَرَ بعدَ أنْ هدمَ . . فليكنِ النزوعُ إليهِ في كلا طرفيِ النفيِ والإثباتِ ، والوجودِ والعدمِ ، ولقدْ قرعَ آدمُ عليهِ السلامُ سنَّ الندمِ ، وتندَّمَ علىٰ ما سبقَ منهُ وتقدَّمَ ، فمَنِ اتخذَهُ قدوةً في الذنبِ دونَ التوبةِ . . فقدْ زلَّتْ بهِ القدمُ .

بلِ التجرُّدُ لمحضِ الخيرِ دأبُ الملائكةِ المقرَّبينَ ، والتجرُّدُ للشرِّ دونَ التلافي سجيَّةُ الشياطينِ ، والرجوعُ إلى الخيرِ بعدَ الوقوعِ في الشرِّ ضرورةُ الآدميينَ ، فالمتجرِّدُ للخيرِ مَلَكٌ مقرَّبٌ عندَ الملكِ الديَّانِ ، والمتجرِّدُ للشرِّ شيطانٌ ، والمتلافي للشرِّ بالرجوعِ إلى الخيرِ بالحقيقةِ إنسانٌ ، فقدِ ازدوجَ في طينةِ الإنسانِ شائبتانِ ، واصطحبَ فيهِ سجيَّتانِ ، وكلُّ عبدٍ مصحِّحٌ نسبَهُ ؛ إمَّا إلى المَلَكِ ، أوْ إلىٰ آدمَ ، أوْ إلى الشيطانِ :

فالتائبُ قدْ أقامَ البرهانَ علىٰ صحَّةِ نسبهِ إلىٰ آدمَ عليهِ السلامُ بملازمةِ حدِّ الإنسانِ .

والمصرُّ على الطغيانِ مسجِّلٌ علىٰ نفسِهِ بنسبِ الشيطانِ[1] .

---

(١) في (ب) : (منتحل لنفسه) بدل (مسجل علىٰ نفسه) .

فأمَّا تصحيحُ النسبِ بالتجرُّدِ لمحضِ الخيرِ إلى الملائكةِ . . فخارجٌ عنْ حَيِّزِ الإمكانِ ؛ فإنَّ الشرَّ معجونٌ معَ الخيرِ في طينةِ آدمَ عليهِ السلامُ عجناً محكماً ، لا يخلِّصُهُ إلا إحدىٰ نارينِ ؛ نارِ الندمِ أوْ نارِ جهنَّمَ ، فالإحراقُ بالنارِ ضروريٌّ في تخليصِ جوهرِ الإنسانِ عنْ خبائثِ الشيطانِ .

وإليكَ الآنَ اختيارُ أهونِ الشرَّينِ ، والمبادرةُ إلىٰ أخفِّ النارينِ ، قبلَ أنْ يُطوىٰ بساطُ الاختيارِ ، ويُساقَ إلىٰ دارِ الاضطرارِ ، إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النارِ .

وإذا كانَتِ التوبةُ موقعُها مِنَ الدينِ هـٰذا الموقعُ . . وجبَ تقديمُها في صدْرِ ربعِ المنجياتِ ؛ بشرحِ حقيقتِها ، وشروطِها ، وسببِها ، وعلامتِها ، وثمرتِها ، والآفاتِ المانعةِ منها ، والأدويةِ الميسِّرةِ لها ، **ويتضحُ ذلكَ بذكرِ أربعةِ أركانٍ** :

الركنُ الأوَّلُ : في نفسِ التوبةِ ، وبيانِ حدِّها وحقيقتِها ، وأنَّها واجبةٌ على الفورِ ، وعلىٰ جميعِ الأشخاصِ ، وفي جميعِ الأحوالِ ، وأنَّها إذا صحَّتْ . . كانَتْ مقبولةً .

الركنُ الثاني : فيما عنهُ التوبةُ ؛ وهيَ الذنوبُ ، وبيانِ انقسامِها إلىٰ صغائرَ وكبائرَ ، وما يتعلَّقُ بالعبادِ وما يتعلَّقُ بحقِّ اللهِ تعالىٰ ، وبيانِ كيفيَّةِ توزُّعِ الدرجاتِ والدركاتِ على الحسناتِ والسيئاتِ ، وبيانِ الأسبابِ التي بها تعظمُ الصغائرُ .

الركنُ الثالثُ : في بيانِ شروطِ التوبةِ ودوامِها ، وكيفيَّةِ تداركِ ما مضىٰ مِنَ المظالمِ ، وكيفيةِ تكفيرِ الذنوبِ ، وبيانِ أقسامِ التائبينَ في دوامِ التوبةِ .

الركنُ الرابعُ : في السببِ الباعثِ على التوبةِ ، وكيفيةِ العلاجِ في حلِّ عقدةِ الإصرارِ مِنَ المذنبينَ .

ويتمُّ المقصودُ بهـٰذه الأركانِ الأربعةِ إنْ شاءَ الله تعالىٰ .

❋ ❋ ❋

الرُّكنُ الأوَّلُ
في نفسِ التَّوبةِ

بيانُ حقيقةِ التَّوبةِ وحدِّها

اعلمْ : أنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ معنىً ينتظمُ ويلتئمُ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ مرتَّبةٍ : علمٍ ، وحالٍ ، وفعلٍ ، فالعلمُ أوَّلُ ، والحالُ ثانٍ ، والفعلُ ثالثٌ ، والأوَّلُ موجِبٌ للثاني ، والثاني موجِبٌ للثالثِ إيجاباً اقتضاهُ اطرادُ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ في الملكِ والملكوتِ .

أمَّا العلمُ . . فهوَ معرفةُ عظَمِ ضررِ الذنوبِ ، وكونِها حجاباً بينَ العبدِ وبينَ كلِّ محبوبٍ .

فإذا عرفَ ذلكَ معرفةً محقَّقةً بيقينٍ غالبٍ علىٰ قلبِهِ . . ثارَ مِنْ هـٰذهِ المعرفةِ تألُّمٌ للقلبِ بسببِ فواتِ المحبوبِ ؛ فإنَّ القلبَ مهما شعرَ بفواتِ محبوبِهِ . . تألَّمَ .

فإنْ كانَ فواتُهُ بفعلِهِ . . تأسَّفَ على الفعلِ المفوِّتِ ، فيُسمَّىٰ تألُّمُهُ بسببِ فعلِهِ المفوِّتِ لمحبوبِهِ ندماً .

فإذا غلبَ هـٰذا الألمُ على القلبِ واستولىٰ . . انبعثَ مِنْ هـٰذا الألمِ في

القلبِ حالةٌ أخرىٰ تسمَّىٰ إرادةً وقصداً إلىٰ فعلٍ لهُ تعلُّقٌ بالحالِ ، وبالماضي ، وبالاستقبالِ :

أمَّا تعلُّقهُ بالحالِ . . فبالتركِ للذنبِ الذي كانَ ملابساً لهُ .

وأمَّا بالاستقبالِ . . فبالعزمِ علىٰ تركِ الذنبِ المفوِّتِ للمحبوبِ إلىٰ آخرِ العمرِ .

وأمَّا بالماضي . . فبتلافي ما فاتَ بالجبْرِ والقضاءِ إنْ كانَ قابلاً للجبْرِ .

فالعلمُ هوَ الأوَّلُ ، وهوَ مطلَعُ هٰذهِ الخيراتِ ، وأعني بهٰذا العلمِ الإيمانَ واليقينَ ؛ فإنَّ الإيمانَ عبارةٌ عنِ التصديقِ بأنَّ الذنوبَ سمومٌ مهلكةٌ ، واليقينَ عبارةٌ عنْ تأكُّدِ هٰذا التصديقِ ، وانتفاءِ الشكِّ عنهُ ، واستيلائِهِ على القلبِ ، فيثمرُ نورُ هٰذا الإيمانِ مهما أشرقَ على القلبِ نارَ الندمِ ، فيتألَّمُ بها القلبُ حيثُ يبصرُ بإشراقِ نورِ الإيمانِ أنَّهُ صارَ محجوباً عنْ محبوبِهِ ؛ كمَنْ يشرقُ عليهِ نورُ الشمسِ وقدْ كانَ في ظلمةٍ ، فسطعَ النورُ عليهِ بانقشاعِ سحابٍ أوِ انحسارِ حجابٍ ، فرأىٰ محبوبَهُ قدْ أشرفَ على الهلاكِ ، فتشتعلُ نيرانُ الحبِّ في قلبِهِ ، فتنبعثُ بتلكَ النيرانِ إرادتُهُ للانتهاضِ للتداركِ .

فالعلمُ ، والندمُ ، والقصدُ المتعلِّقُ بالتركِ في الحالِ والاستقبالِ والتلافي للماضي . . ثلاثةُ معانٍ مرتبةٍ في الحصولِ ، يُطلقُ اسمُ التوبةِ علىٰ مجموعِها .

وكثيراً ما يُطلقُ اسمُ التوبةِ علىٰ معنى الندمِ وحدَهُ ، ويُجعلُ العلمُ كالسابقِ والمقدمةِ ، والتركُ كالثمرةِ والتابعِ المتأخِّرِ ، وبهـٰذا الاعتبارِ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الندمُ توبةٌ »[1] ؛ إذْ لا يخلو الندمُ عنْ علمٍ أوجبَهُ وأثمرَهُ ، وعنْ عزمٍ يتبعُهُ ويتلوهُ ، فيكونُ الندمُ محفوفاً بطرفيهِ ؛ أعني : ثمرتَهُ ومثمرَهُ[2] .

وبهـٰذا الاعتبارِ قيلَ في حدِّ التوبةِ : إنَّهُ ذوبانُ الحشا لما سبقَ مِنَ الخطا[3] ، فإنَّ هـٰذا يعرضُ لمجرَّدِ الألمِ .

وكذلكَ قيلَ : هوَ نارٌ في القلبِ تلتهبُ ، وصدعٌ في الكبدِ لا ينشعبُ .

وباعتبارِ معنى التركِ قيلَ في حدِّ التوبةِ : إنَّهُ خلعُ لباسِ الجفاءِ ، ونشرُ بساطِ الوفاءِ[4] .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التستريُّ : (التوبةُ : تبديلُ الحركاتِ المذمومةِ بالحركاتِ المحمودةِ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بالخلوةِ ، والصمتِ ، وأكلِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) .

(٢) فالمثمر هو العلم ، والثمرة هي العزم .

(٣) والحشا داخل البطن ، وذوبانه بتأثير ألم فيه عن الزلات السابقة . « إتحاف » (٨/٥٠٣) .

(٤) والمراد بخلع لباس الجفاء ألا يعود إلىٰ ما يبعده عن حضرة الله ، وينشر لباس الوفاء بأن يستقيم عليه ، فلا يمر بباله الجفاء حتىٰ ذكره ؛ إذ ذكر الجفاء حال الصفاء جفاء . انظر « الإتحاف » (٨/٥٠٣) .

الحلالِ)[1] ، وكأنَّهُ أشارَ إلى المعنى الثالثِ مِنَ التوبةِ .

والأقاويلُ في حدودِ التوبةِ لا تنحصرُ ، وإذا فهمتَ هـٰذهِ المعانيَ الثلاثةَ وتلازمَها وترتيبَها . . عرفتَ أنَّ جميعَ ما قيلَ في حدودِها قاصرٌ عنِ الإحاطةِ بجميعِ معانيها ، وطلبُ العلمِ بحقائقِ الأمورِ أهمُّ مِنْ طلبِ الألفاظِ المجرَّدةِ .

* * *

(١) تفسير التستري (ص٧٤) ، وأورده له صاحب « القوت » (١/ ١٨١) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٤٧) .

بيان وجوب التّوبة وفضلها

اعلمْ : أنَّ وجوبَ التوبةِ ظاهرٌ بالأخبارِ والآياتِ ، وهوَ واضحٌ بنورِ البصيرةِ عندَ مَنِ انفتحَتْ بصيرتُهُ ، وشرحَ اللهُ بنورِ الإيمانِ صدرَهُ ، حتَّى اقتدرَ علىٰ أنْ يسعىٰ بنورِهِ الذي بينَ يديهِ في ظلماتِ الجهلِ ، مستغنياً عنْ قائدٍ يقودُهُ في كلِّ خطوةٍ ، فالسالكُ إمَّا **أعمىٰ** لا يستغني عنِ القائدِ في خطوِهِ ، وإمَّا **بصيرٌ** يُهدىٰ إلىٰ أوَّلِ الطريقِ ثمَّ يهتدي بنفسِهِ .

وكذلكَ الناسُ في طريقِ الدينِ ينقسمونَ هٰذا الانقسامَ ؛ فمِنْ **قاصرٍ** لا يقدرُ علىٰ مجاوزةِ التقليدِ في خطوِهِ ، فيفتقرُ إلىٰ أنْ يسمعَ في كلِّ قدمٍ نصّاً مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ أوْ سنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وربَّما يعوزُهُ ذلكَ فيتحيَّرُ ، فسيرُ هٰذا وإنْ طالَ عمرُهُ وعظمَ جِدُّهُ مختصرٌ ، وخطاهُ قاصرةٌ ، ومِنْ **سعيدٍ** شرحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ ، فهوَ علىٰ نورٍ مِنْ ربِّهِ ، يتنبَّهُ بأدنىٰ إشارةٍ لسلوكِ طريقٍ معوصةٍ ، وقطعِ عقباتٍ متعبةٍ ، فيشرقُ في قلبِهِ نورُ القرآنِ ونورُ الإيمانِ ، وهوَ لشدَّةِ نورِ باطنِهِ يجتزىءُ بأدنىٰ بيانٍ[1] ، وكأنَّهُ يكادُ زيتُهُ يضيءُ ولوْ لمْ تمسسْهُ نارٌ ، فإذا مسَّتْهُ نارٌ . . فهوَ نورٌ علىٰ نورٍ ، يهدي اللهُ لنورِهِ مَنْ يشاءُ ، فهٰذا لا يحتاجُ إلىٰ نصٍّ منقولٍ في كلِّ واقعةٍ .

فمَنْ هٰذا حالُهُ إذا أرادَ أنْ يعرفَ وجوبَ التوبةِ . . فينظرُ أوَّلاً بنورِ

---

(١) **يجتزىء** : يكتفي .

البصيرةِ إلى التوبةِ ما هيَ ، ثمَّ إلى الوجوبِ ما معناهُ ، ثمَّ يجمعُ بينَ معنى الوجوبِ والتوبةِ ، فلا يشكُّ في ثبوتِهِ لها ؛ وذلكَ بأنْ يعلمَ أنَّ معنى الواجبِ ما هوَ واجبٌ في الوصولِ إلىٰ سعادةِ الأبدِ ، والنجاةِ مِنْ هلاكِ الأبدِ ، وأنَّهُ لولا تعلُّقُ السعادةِ والشقاوةِ بفعلِ الشيءِ وتركِهِ . . لمْ يكنْ لوصفِهِ بكونِهِ واجباً معنىً معقولٌ ، وقولُ القائلِ : (صارَ واجباً بالإيجابِ) حديثٌ محضٌ ؛ فإنَّ ما لا غرضَ لنا عاجلاً وآجلاً في فعلِهِ وتركِهِ فلا معنىٰ لاشتغالِنا بهِ ، أوجبَهُ علينا غيرُنا أوْ لمْ يوجبْهُ .

فإذا عرفَ معنى الوجوبِ ، وأنَّهُ الوسيلةُ إلىٰ سعادةِ الأبدِ ، وعلمَ أنَّهُ لا سعادةَ في دارِ البقاءِ إلا في لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ كلَّ محجوبٍ عنهُ يشقىٰ لا محالةَ ، مَحولٌ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ، محترقٌ بنارِ الفراقِ ونارِ جهنَّمَ ، وعلمَ أنَّهُ لا مبعِدَ عنْ لقاءِ اللهِ إلا اتباعُ الشهواتِ ، والأنسُ بهـٰذا العالمِ الفاني ، والإكبابُ علىٰ حبِّ ما لا بدَّ مِنْ فراقِهِ قطعاً ، وعلمَ أنَّهُ لا مقرِّبَ مِنْ لقاءِ اللهِ إلا قطعُ علاقةِ القلبِ عنْ زخرفِ هـٰذا العالمِ ، والإقبالُ بالكليَّةِ على اللهِ ؛ طلباً للأنسِ بهِ بدوامِ ذكرِهِ ، وللمحبةِ لهُ بمعرفةِ جلالِهِ وجمالِهِ علىٰ قدْرِ طاقتِهِ ، وعلمَ أنَّ الذنوبَ التي هيَ إعراضٌ عنِ اللهِ واتباعٌ لمحابِّ الشياطينِ أعداءِ اللهِ المبعدينَ عنْ حضرتِهِ سببُ كونِهِ محجوباً مبعَداً عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا يشكُّ في أنَّ الانصرافَ عنْ طريقِ البعدِ واجبٌ للوصولِ إلى القربِ ، وإنَّما يتمُّ الانصرافُ بالعلمِ والندمِ والعزمِ ، فإنَّهُ ما لمْ يعلمْ أنَّ الذنوبَ أسبابٌ للبعدِ عنِ المحبوبِ . . لمْ يتندَّمْ ولمْ يتوجَّعْ بسببِ سلوكِهِ في

طريقِ البعدِ، وما لمْ يتوجَّعْ . . فلا يرجعُ ، ومعنى الرجوعِ : التركُ والعزمُ ، فلا يشكُّ في أنَّ المعانيَ الثلاثةَ ضروريةٌ في الوصولِ إلى المحبوبِ .

فهكذا يكونُ الإيمانُ الحاصلُ عنْ نورِ البصيرةِ .

وأمَّا مَنْ لمْ يترشَّحْ لمثلِ هـٰذا المقامِ المرتفعِ ذروتُهُ عنْ حدودِ أفهامِ أكثرِ الخلقِ . . ففي التقليدِ والاتباعِ لهُ مجالٌ رحبٌ ، يتوصَّلُ بهِ إلى النجاةِ مِنَ الهلاكِ ، فليلاحظْ فيهِ قولَ اللهِ تعالىٰ ، وقولَ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقولَ السلفِ الصالحينَ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، وهـٰذا أمرٌ على العمومِ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . . ﴾ الآيةَ ، ومعنى النصوحِ : الخالصُ للهِ تعالىٰ خالياً عنِ الشوائبِ ، مأخوذٌ مِنَ النُّصْحِ .

ويدلُّ علىٰ فضْلِ التوبةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ حبيبُ اللهِ ، والتائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ »[1] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٧٩) ، وقوله : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) ، وصدر الحديث نصَّت عليه الآية المتقدمة ، وقد روى ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٨٣) عن الشعبي أنه ذكر حديث ابن ماجه وتلا هـٰذه الآية ، وروىٰ أيضاً (١٨٤) مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه : « إن الله يحب الشاب التائب » .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ المؤمنِ مِنْ رجلٍ نزلَ في أرضٍ دَوِيَّةٍ مهلكةٍ ، معَهُ راحلتُهُ عليها طعامُهُ وشرابُهُ ، فوضعَ رأسَهُ ، فنامَ نومةً ، فاستيقظَ وقدْ ذهبَتْ راحلتُهُ ، فطلبَها ، حتَّىٰ إذا اشتدَّ عليهِ الحرُّ والعطشُ أوْ ما شاءَ اللهُ . . قالَ : أرجعُ إلىٰ مكاني الذي كنتُ فيهِ فأنامُ حتَّىٰ أموتَ ، فوضعَ رأسَهُ علىٰ ساعدِهِ ليموتَ ، فاستيقظَ ، فإذا راحلتُهُ عندَهُ عليها زادُهُ وشرابُهُ ، فاللهُ تعالىٰ أشدُّ فرحاً بتوبةِ العبدِ المؤمنِ مِنْ هٰذا براحلتِهِ »[1] ، وفي بعضِ الألفاظِ قالَ مِنْ شدَّةِ فرحِهِ إذْ أرادَ شكْرَ اللهِ : « اللهمَّ ؛ أنا ربُّكَ وأنتَ عبدي »[2] .

ويروىٰ عنِ الحسنِ قالَ : لمَّا تابَ اللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ آدمَ عليهِ السلامُ . . هنَّأَتْهُ الملائكةُ ، وهبطَ عليهِ جبريلُ وميكائيلُ ودرديائيلُ فقالوا : يا آدمُ ؛ قرَّتْ عينُكَ بتوبةِ اللهِ عليكَ ، فقالَ آدمُ عليهِ السلامُ : يا جبريلُ ؛ فإنْ كانَ بعدَ هٰذهِ التوبةِ سؤالٌ . . فأينَ مقامي ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا آدمُ ؛ ورَّثْتَ ذرِّيتكَ التعبَ والنصبَ ، وورَّثْتُهُمُ التوبةَ ، فمَنْ دعاني منهُمْ بدعوتِكَ . . لبَّيتُهُ كما لبَّيتُكَ ، ومَنْ سألَني المغفرةَ . . لمْ أبخلْ عليهِ ؛ لأنِّي قريبٌ مجيبٌ يا آدمُ ، وأحشرُ التائبينَ مِنَ القبورِ مستبشرينَ ضاحكينَ ، ودعاؤُهُمْ مستجابٌ[3] .

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) واللفظ له .

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٧) بتقديم وتأخير .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٤٩) .

والأخبارُ والآثارُ في ذلكَ لا تُحصىٰ ، والإجماعُ منعقدٌ مِنَ الأمَّةِ علىٰ وجوبِها ؛ إذْ معناهُ العلمُ بأنَّ الذنوبَ والمعاصيَ مهلكاتٌ ومبعِداتٌ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا داخلٌ في وجوبِ الإيمانِ ، ولكنْ قدْ تدهشُ الغفلةُ عنهُ ، فمعنىٰ هـٰذا العلمِ إزالةُ هـٰذهِ الغفلةِ ، ولا خلافَ في وجوبِها .

ومِنْ معانيها : تركُ المعاصي في الحالِ ، والعزمُ علىٰ تركِها في الاستقبالِ ، وتداركُ ما سبقَ مِنَ التقصيرِ في سابقِ الأحوالِ ، وذلكَ لا يُشكُّ في وجوبِهِ .

وأمَّا التندُّمُ علىٰ ما سبقَ والتحزُّنُ عليهِ . . فواجبٌ ، وهوَ روحُ التوبةِ ، وبهِ تمامُ التلافي ، فكيفَ لا يكونُ واجباً ؟! بلْ هوَ نوعُ ألمٍ يحصلُ ـ لا محالةَ ـ عَقيبَ حقيقةِ المعرفةِ بما فاتَ مِنَ العمرِ وضاعَ في سخطِ اللهِ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : تألُّمُ القلبِ أمرٌ ضروريٌّ لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، فكيفَ يُوصفُ بالوجوبِ ؟[1] .

فاعلمْ : أنَّ سببَهُ تحقيقُ العلمِ بفواتِ المحبوبِ ، ولهُ سبيلٌ إلىٰ تحصيلِ سببِهِ ، وبمثلِ هـٰذا المعنىٰ دخلَ العلمُ تحتَ الوجوبِ ، لا بمعنىٰ أنَّ العلمَ يخلقُهُ العبدُ ويحدثُهُ في نفسِهِ ، فإنَّ ذلكَ محالٌ ، بلِ العلمُ والندمُ والفعلُ

---

(١) أي : كيف يوصف بوجوب الإيجاد وهو موجود بالضرورة لعلمنا بأن من فعل كذا . . فقد عصى الله تعالىٰ ، ومن عصاه . . فقد فاته محبوبه ونأىٰ عن سعادته ؟

والإرادةُ والقدرةُ والقادرُ والمقدورُ والكلُّ[1] مِنْ خلقِ اللهِ وفعلِهِ ، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

هٰذا هوَ الحقُّ عندَ ذوي البصائرِ ، وما سوىٰ هٰذا ضلالٌ .

* * *

فإنْ قلتَ : أفليسَ للعبدِ اختيارٌ في الفعلِ والتركِ ؟

قلنا : نعمْ ، وذلكَ لا يناقضُ قولَنا : (إنَّ الكلَّ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ) ، بلِ الاختيارُ أيضاً مِنْ خلقِ اللهِ ، والعبدُ مضطرٌّ في الاختيارِ الذي لهُ ؛ فإنَّ اللهَ إذا خلقَ اليدَ الصحيحةَ ، وخلقَ الطعامَ اللذيذَ ، وخلقَ الشهوةَ للطعامِ في المعدةِ ، وخلقَ العلمَ في القلبِ بأنَّ هٰذا الطعامَ مسكِّنٌ للشهوةِ ، وخلقَ الخواطرَ المتعارضةَ في أنَّ هٰذا الطعامَ هلْ فيهِ مضرَّةٌ معَ أنَّهُ يسكِّنُ الشهوةَ ، وهلْ دونَ تناولِهِ مانعٌ يتعذَّرُ معَهُ تناولُهُ أمْ لا ، ثمَّ خلقَ العلمَ بأنَّهُ لا مانعَ . . فعندَ اجتماعِ هٰذهِ الأسبابِ تنجزمُ الإرادةُ الباعثةُ على التناولِ ، فانجزامُ الإرادةِ بعدَ تردُّدِ الخواطرِ المتعارضةِ وبعدَ قوَّةِ الشهوةِ للطعامِ يسمَّى اختياراً ، ولا بدَّ مِنْ حصولِهِ عندَ تمامِ أسبابِهِ ، فإذا حصلَ انجزامُ الإرادةِ بخلْقِ اللهِ تعالىٰ إيَّاها . . تحرَّكتِ اليدُ الصحيحةُ إلىٰ جهةِ الطعامِ لا محالةَ ؛ إذْ بعدَ تمامِ الإرادةِ والقدرةِ يكونُ حصولُ الفعلِ ضرورياً ، فتحصلُ

---

(١) كذا في جميع النسخ : (والكل) بإثبات الواو ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ٥٠٨) بإسقاطها .

الحركةُ ، فتكونُ الحركةُ بخلْقِ اللهِ تعالىٰ بعدَ حصولِ القدرةِ وانجزامِ الإرادةِ ، وهما أيضاً مِنْ خلقِ اللهِ ، وانجزامُ الإرادةِ يحصلُ بعدَ صدقِ الشهوةِ والعلمِ بعدمِ الموانعِ ، وهما أيضاً مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ بعضُ هـٰذهِ المخلوقاتِ يترتَّبُ على البعضِ ترتباً جرَتْ بهِ سنَّةُ اللهِ تعالىٰ في خلقِهِ ، ولنْ تجدَ لسنَّةِ اللهِ تبديلاً ، فلا يخلقُ اللهُ حركةَ اليدِ بكتابةٍ منظومةٍ ما لمْ يخلقْ فيها صفةً تسمَّىٰ قدرةً ، وما لمْ يخلقْ فيها حياةً ، وما لمْ يخلقْ إرادةً مجزومةً ، ولا يخلقُ الإرادةَ المجزومةَ ما لمْ يخلقْ شهوةً وميلاً في النفسِ ، ولا ينبعثُ هـٰذا الميلُ انبعاثاً تاماً ما لمْ يخلقْ علماً بأنَّهُ موافقٌ للنفسِ ؛ إمَّا في الحالِ أوْ في المآلِ ، ولا يخلقُ العلمَ أيضاً إلا بأسبابٍ أخرَ ترجعُ إلىٰ حركةٍ وإرادةٍ وعلمٍ .

فالعلمُ والميلُ الطبيعيُّ أبداً يستتبعُ الإرادةَ الجازمةَ ، والإرادةُ والقدرةُ أبداً تستردفُ الحركةَ ، وهـٰكذا الترتيبُ في كلِّ فعلٍ ، والكلُّ مِنِ اختراعِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ بعضُ مخلوقاتِهِ شرطٌ لبعضٍ ، فلذلكَ يجبُ تقدُّمُ البعضِ وتأخُّرُ البعضِ ؛ كما لا تُخلقُ الإرادةُ إلا بعدَ العلمِ ، ولا يُخلقُ العلمُ إلا بعدَ الحياةِ ، ولا تُخلقُ الحياةُ إلا بعدَ الجسمِ ، فيكونُ خلقُ الجسمِ شرطاً لحدوثِ الحياةِ ، لا أنَّ الحياةَ تتولَّدُ مِنَ الجسمِ ، ويكونُ خلقُ الحياةِ شرطاً لخلقِ العلمِ ، لا أنَّ العلمَ يتولَّدُ مِنَ الحياةِ ، ولكنْ لا يستعدُّ المحلُّ لقبولِ العلمِ إلا إذا كانَ حيّاً ، ويكونُ خلقُ العلمِ شرطاً لجزمِ الإرادةِ ، لا أنَّ العلمَ يولِّدُ الإرادةَ ، ولكنْ لا يقبلُ الإرادةَ إلا جسمٌ حيٌّ عالمٌ .

ولا يدخلُ في الوجودِ إلا ممكنٌ ، وللإمكانِ ترتيبٌ لا يقبلُ التغييرَ ؛ لأنَّ تغييرَهُ محالٌ ، فمهما وُجدَ شرطُ الوصفِ . . استعدَّ المحلُّ بهِ لقبولِ الوصفِ ، فحصلَ ذلكَ الوصفُ مِنَ الجودِ الإلهيِّ والقدرةِ الأزليَّةِ عندَ حصولِ الاستعدادِ ، ولمَّا كانَ للاستعدادِ بسببِ الشروطِ ترتيبٌ . . كانَ لحصولِ الحوادثِ بفعلِ اللهِ تعالىٰ ترتيبٌ ، والعبدُ مجرىٰ هٰذهِ الحوادثِ المرتَّبةِ ، وهيَ مرتَّبةٌ في قضاءِ اللهِ تعالى الذي هوَ واحدٌ كلمحِ البصرِ ، ترتيباً كلِّيّاً لا يتغيَّرُ ، وظهورُها بالتفصيلِ مقدرٌ بقدَرٍ لا يتعداهُ ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وعنِ القضاءِ الكلِّيِّ الأزليِّ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ .

وأمَّا العبادُ . . فإنَّهُمْ مسخَّرونَ تحتَ مجاري القضاءِ والقدرِ ، ومِنْ جملةِ القدرِ خلقُ حركةٍ في يدِ الكاتبِ بعدَ خلقِ صفةٍ مخصوصةٍ في يدِهِ تُسمَّى القدرةَ ، وبعدَ خلقِ ميلٍ قويٍّ جازمٍ في نفسِهِ يُسمَّى القصْدَ ، وبعدَ علمٍ بما إليهِ ميلُهُ يُسمَّى الإدراكَ والمعرفةَ .

فإذا ظهرَتْ مِنْ باطنِ الملكوتِ هٰذهِ الأمورُ الأربعةُ علىٰ جسمِ عبدٍ مسخَّرٍ تحتَ قهْرِ التقديرِ . . سبقَ أهلُ عالمِ الملكِ والشهادةِ المحجوبونَ عنْ عالمِ الغيبِ والملكوتِ وقالوا : أيُّها الرجلُ ؛ قدْ تحرَّكتَ وكتبتَ ورميتَ ، ونُوديَ مِنْ وراءِ حُجُبِ الغيبِ ، وسرادقاتِ الملكوتِ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ

رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ، وما قتلتَ إذْ قتلتَ ولكنَّ اللهَ قتلهُمُ ، ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ .

وعندَ هٰذا تتحيَّرُ عقولُ القاعدينَ في بحبوحةِ عالمِ الشهادةِ :

فمِنْ قائلٍ : إنَّهُ جبْرٌ محضٌ .

ومِنْ قائلٍ : إنَّهُ اختراعٌ صرْفٌ[1] .

ومِنْ متوسِّطٍ مائلٍ إلىٰ أنَّهُ كسبٌ[2] .

ولوْ فُتِحَتْ لهمْ أبوابُ السماءِ ، فنظروا إلىٰ عالمِ الغيبِ والملكوتِ . . لظهرَ لهُمْ أنَّ كلَّ واحدٍ صادقٌ مِنْ وجهٍ ، وأنَّ القصورَ شاملٌ لجميعِهِمْ[3] ، فلمْ يدركْ واحدٌ منهُمْ كنْهَ هٰذا الأمرِ ، ولمْ يحطْ علمُهُ بجوانبِهِ ، وتمامُ علمِهِ يُنالُ بإشراقِ النورِ مِنْ كوَّةٍ نافذةٍ إلىٰ عالمِ الغيبِ ، وأنَّهُ تعالىٰ عالمُ الغيبِ والشهادةِ لا يظهرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلا مَنِ ارتضىٰ منْ رسولٍ ، وقدْ يُطلعُ على الشهادةِ مَنْ لمْ يدخلْ في حيِّزِ الارتضاءِ .

---

(١) أي : من فعل العبد ، وهٰؤلاء هم القدرية . « إتحاف » (٨/ ٥١٠) .

(٢) فيسندون الفعل إلى الله ويثبتون للعبد كسباً في الفعل ، وهٰؤلاء هم الأشاعرة من أهل السنة والجماعة ومن وافقهم في هٰذه المسألة من الماتريدية ، إلا أنهم سمَّوه جزءاً اختيارياً ، وهٰؤلاء هم المتوسطة . « إتحاف » (٨/ ٥١٠) .

(٣) علىٰ تفاوت بينهم ، فقصور المتوسط في إدراك كنه هٰذا الأمر وتمام علمه ، والطرفان قصورهم في مناقضتهم للتلفيق بين ظواهر النصوص ومقتضيات العقول فضلاً عن ذلك ، وسيبين المصنف هٰذا بمثال في التحريجة الآتية .

ومَنْ حرَّكَ سلسلةَ الأسبابِ والمسبَّباتِ ، وعلمَ كيفيَّةَ تسلسلِها ، ووجهَ ارتباطِ مناطِ سلسلتِها بمسبِّبِ الأسبابِ . . انكشفَ لهُ سرُّ القدَرِ ، وعلمَ علماً يقيناً أنْ لا خالقَ إلا اللهُ ، ولا مبدعَ سواهُ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ قضيتَ علىٰ كلِّ واحدٍ مِنَ القائلينَ بالجبْرِ والاختراعِ والكسبِ بأنَّهُ صادقٌ مِنْ وجهٍ ، وهوَ معَ صدقِهِ قاصرٌ ، وهـٰذا متناقضٌ ، فكيفَ يمكنُ فهْمُ ذلكَ ؟ وهلْ يمكنُ إيصالُ ذلكَ إلى الأفهامِ بمثالٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ جماعةً مِن العميانِ سمعوا أنَّهُ قدْ حُمِلَ إلى البلدةِ حيوانٌ عجيبٌ يُسمَّى الفيلَ ، وما كانوا قطُّ شاهدوا صورتَهُ ، ولا سمعوا اسمَهُ ، فقالوا : لا بدَّ لنا مِنْ مشاهدتِهِ ومعرفتِهِ باللمسِ الذي نقدرُ عليهِ ، فطلبوهُ ، فلما وصلوا إليهِ . . لمسوهُ ، فوقعَتْ يدُ بعضِ العميانِ علىٰ رجلِهِ ، ووقعَتْ يدُ بعضِهِمْ علىٰ نابِهِ ، ووقعَتْ يدُ بعضِهِمْ علىٰ أذنِهِ ، فقالوا : قدْ عرفناهُ ، فلما انصرفوا . . سألَهُمْ بقيَّةُ العميانِ ، فاختلفَ أجوبتُهُمْ :

فقالَ الذي لمسَ الرجْلَ : إنَّ الفيلَ ما هوَ إلا مثلُ أُسطوانةٍ خشنةِ الظاهرِ ، إلا أنَّهُ ألينُ منها .

وقالَ الذي لمسَ النابَ : ليسَ كما يقولُ ، بلْ هوَ صلْبٌ لا لينَ فيهِ ، وأملسُ لا خشونةَ فيهِ ، وليسَ في غلظِ الأسطوانةِ أصلاً ، بلْ هوَ مثلُ عمودٍ .

وقالَ الذي لمسَ الأُذُنَ : لعمري هوَ ليِّنٌ وفيهِ خشونةٌ ، فصدَّقَ أحدَهُمَا فيهِ ، ولكنْ قالَ : ما هوَ مثلَ عمودٍ ، ولا هو مثلَ أُسطوانةٍ ، وإنَّما هوَ مثلُ جلدٍ عريضٍ غليظٍ .

فكلُّ واحدٍ مِنْ هؤلاءِ صدقَ مِنْ وجهٍ ، إذْ أخبرَ كلُّ واحدٍ عمَّا أصابَهُ مِنْ معرفةِ الفيلِ ، ولمْ يخرجْ واحدٌ في خبرِهِ عنْ وصفِ الفيلِ ، ولكنَّهُمْ بجملتِهِمْ قصَّروا عنِ الإحاطةِ بكُنْهِ صورةِ الفيلِ .

فاستبصرْ بهٰذا المثالِ واعتبرْ بهِ ، فإنَّهُ مثالُ أكثرِ ما اختلفَ الناسُ فيهِ .

وإذا كانَ هٰذا كلاماً يناطحُ علومَ المكاشفةِ ويحرِّكُ أمواجَها ، وليسَ ذلكَ مِنْ غرضِنا . فلنرجعْ إلىٰ ما كنَّا بصددِهِ ، وهوَ بيانُ أنَّ التوبةَ واجبةٌ بجميعِ أجزائِها الثلاثةِ : العلمِ ، والندمِ ، والتركِ ، وأنَّ الندمَ داخلٌ في الوجوبِ ؛ لكونِهِ واقعاً في جملةِ أفعالِ اللهِ المحصورةِ بينَ علمِ العبدِ وإرادتِهِ وقدرتِهِ المتخللةِ بينهُما ، وما هٰذا وصفُهُ فٱسمُ الوجوبِ يشملُهُ .

* * *

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أمَّا وجوبُها على الفورِ . . فلا يسترابُ فيهِ[١] ؛ إذْ معرفةُ كونِ المعاصي مهلكاتٍ مِنْ نفسِ الإيمانِ ، وهوَ واجبٌ على الفورِ ، والمتفصِّي عنْ وجوبهِ هوَ الذي عرفَهُ معرفةً زجرَهُ ذلكَ عنِ الفعلِ المكروهِ[٢] ، فإنَّ هـٰذهِ المعرفةَ ليسَتْ مِنْ علومِ المكاشفاتِ التي لا تتعلَّقُ بعملٍ ، بلْ هيَ مِنْ علومِ المعاملةِ ، وكلُّ علمٍ يرادُ ليكونَ باعثاً علىٰ عملٍ . . فلا يقعُ التفصِّي عنْ عهدتِهِ ما لمْ يصرْ باعثاً عليهِ ، فالعلمُ بضررِ الذنوبِ إنَّما أُريدَ ليكونَ باعثاً علىٰ تركِها ، فمَنْ لمْ يترُكْها . . فهوَ فاقدٌ لهـٰذا الجزْءِ مِنَ الإيمانِ .

وهوَ المرادُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يزني الزاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ »[٣] ، وما أرادَ بهِ نفيَ الإيمانِ الذي يرجعُ إلىٰ علومِ المكاشفةِ ؛ كالعلمِ باللهِ ، ووحدانيتِهِ وصفاتِهِ ، وكتبِهِ ، ورسلِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ لا ينافيهِ الزنا والمعاصي ، وإنَّما أرادَ بهِ نفيَ الإيمانِ بكونِ الزنا مبعداً عنِ اللهِ جلَّ جلالُهُ

---

(١) وحاصل ما سيذكره في السياق الآتي : هو أن المعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة بالأبدان ، فمن تناول سمّاً بغير علم وأدركه الأسف علىٰ بدنه أترىٰ يخرجه من بدنه بالقيء وغيره على الفور تلافياً لبدنه أو يتراخىٰ في ذلك ؟ فإذا كان خوفه علىٰ بدنه يوجب إخراج ما فيه من المهلك . . فالرجوع على الفور من سمائم الذنوب المفوِّتة لسعادة الأبد أولىٰ . « إتحاف » (٨/ ٥١١) .

(٢) **المتفصي** : كذا بالفاء والصاد المهملة ؛ أي : المتخلص . « إتحاف » (٨/ ٥١١) .

(٣) رواه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

موجباً للمقتِ ؛ كما إذا قالَ الطبيبُ : (هـٰذا سمٌّ فلا تتناولْهُ) ، فإذا تناولَهُ . . يُقالُ : (تناولَ وهوَ غيرُ مؤمنٍ) ، لا بمعنىٰ أنَّهُ غيرُ مؤمنٍ بوجودِ الطبيبِ وكونِهِ طبيباً، وغيرُ مصدِّقٍ بهِ، بلِ المرادُ أنَّهُ غيرُ مصدِّقٍ بقولِهِ : (إنَّهُ سمٌّ مهلكٌ)، فإنَّ العالمَ بالسمِّ لا يتناولُهُ أصلاً ، فالعاصي بالضرورةِ ناقصُ الإيمانِ .

وليسَ الإيمانُ باباً واحداً ، بلْ هوَ نيِّفٌ وسبعونَ باباً ، أعلاها شهادةُ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، وأدناها إماطةُ الأذىٰ عنِ الطريقِ[1] ، ومثالُهُ : قولُ القائلِ : ليسَ الإنسانُ موجوداً واحداً ، بلْ هوَ نيِّفٌ وسبعونَ موجوداً ، أعلاها القلبُ والروحُ ، وأدناها إماطةُ الأذىٰ عنِ البشرةِ ؛ بأنْ يكونَ مقصوصَ الشاربِ ، مقلومَ الأظفارِ ، نقيَّ البشرةِ عنِ الخبثِ ، حتَّىٰ يتميَّزَ عنِ البهائمِ المرسلَةِ الملوثةِ بأرواثِها ، المستكرهةِ الصورِ بطولِ مخالبِها وأظلافِها .

وهـٰذا مثالٌ مطابقٌ ؛ فالإيمانُ كالإنسانِ ، وفقدُ شهادةِ التوحيدِ يوجبُ البطلانَ بالكليَّةِ كفقدِ الروحِ ، والذي ليسَ لهُ إلا شهادةُ التوحيدِ والرسالةِ هوَ كإنسانٍ مقطوعِ الأطرافِ ، مفقوءِ العينِ ، فاقدٍ لجميعِ أعضائِهِ الظاهرةِ والباطنةِ إلاَّ أصلَ الروحِ .

وكما أنَّ مَنْ هـٰذا حالُهُ قريبٌ مِنْ أنْ يموتَ ، فتزايلُهُ الروحُ الضعيفةُ المنفردةُ التي تخلَّفَ عنها الأعضاءُ التي تمدُّها وتقوِّيها . . فكذلكَ مَنْ ليسَ لهُ إلا أصلُ الإيمانِ ، وهوَ مقصِّرٌ في الأعمالِ ، قريبٌ مِنْ أنْ تُقتلعَ شجرةُ إيمانِهِ

---

(١) رواه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) .

إذا صدمَتْها الرياحُ العاصفةُ المحرِّكةُ للإيمانِ في مقدمةِ قدومِ ملكِ الموتِ ووروده ، فكلُّ إيمانٍ لمْ يثبتْ في اليقينِ أصلُهُ ، ولمْ تنتشرْ في الأعمالِ فروعُهُ . . لمْ يثبتْ علىٰ عواصفِ الأهوالِ عندَ ظهورِ ناصيةِ ملكِ الموتِ ، وخيفَ عليهِ سوءُ الخاتمةِ ، إلاَّ ما سُقِي بماءِ الطاعاتِ علىٰ توالي الأيامِ والساعاتِ حتَّىٰ رسخَ وثبتَ .

وقولُ العاصي للمطيعِ : إنِّي مؤمنٌ كما أنَّكَ مؤمنٌ . . كقولِ شجرةِ القرعِ لشجرةِ الصنوبرِ : إنِّي شجرةٌ وأنتِ شجرةٌ ، وما أحسنَ جوابَ شجرةِ الصنوبرِ إذْ قالَتْ : ستعرفينَ اغترارَكِ بشمولِ الاسمِ إذا عصفَتْ رياحُ الخريفِ ، فعندَ ذلكَ تنقلعُ أصولُكِ ، وتتناثرُ أوراقُكِ ، وينكشفُ غرورُكِ بالمشاركةِ في اسمِ الشجرِ معَ الغفلةِ عنْ أسبابِ ثباتِ الأشجارِ .

وَسَوْفَ تَرَىٰ إِذا ٱنْجَلَى ٱلْغُبارُ أَفَـرَسٌ تَحْتَـكَ أَمْ حِمـارُ[1]

فهٰذا أمرٌ يظهرُ عندَ الخاتمةِ ، وإنَّما انقطعَ نياطُ العارفينَ خوفاً مِنْ دواهي الموتِ ومقدماتِهِ الهائلةِ[2] ، التي لا يثبتُ عليها إلا الأقلُّونَ ، فالعاصي إذا كانَ لا يخافُ الخلودَ في النارِ بسببِ معصيتِهِ كالصحيحِ المنهمكِ في الشهواتِ المضرَّةِ للأبدانِ إذا كانَ لا يخافُ الموتَ بسببِ صحتِهِ ، وإنَّ الموتَ غالباً لا يقعُ فجأةً ، فيُقالُ لهُ : الصحيحُ يخافُ

---

(١) الواو أول البيت عاطفة وليست منه ، وهو من الرجز لبديع الزمان الهمذاني . انظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٤٥) ، و« معجم الأدباء » (١/ ٤٠٠ـ٤٠٤) .

(٢) **النياط** : الفؤاد ، أو هو عرق علِّق به القلب من الوتين ، فإذا قطع . . مات صاحبه .

المرضَ ، ثمَّ إذا مرضَ . . خافَ الموتَ ؛ فكذلكَ العاصي يخافُ سوءَ الخاتمةِ ، ثمَّ إذا خُتِمَ لهُ بالسوءِ والعياذُ باللهِ . . وجبَ الخلودُ في النارِ ، فالمعاصي للإيمانِ كالمأكولاتِ المضرَّةِ للأبدانِ ، فلا تزالُ تجتمعُ في الباطنِ وتغيِّرُ مزاجَ الأخلاطِ وهوَ لا يشعرُ بها إلىٰ أنْ يفسدَ المزاجُ ، فيمرضَ دفعةً ، ثمَّ يموتَ دفعةً ؛ فكذلكَ المعاصي .

فإنْ كانَ الخائفُ مِنَ الهلاكِ في هٰذهِ الدنيا المنقضيةِ يجبُ عليه تركُ السمومِ وما يضرُّهُ مِنَ المأكولاتِ في كلِّ حالٍ وعلى الفورِ . . فالخائفُ مِنْ هلاكِ الأبدِ أولىٰ بأنْ يجبَ عليهِ ذلكَ ، وإنْ كانَ متناولُ السمِّ إذا ندمَ . . يجبُ عليهِ أنْ يتقيَّأَ ويرجعَ عنْ تناولِهِ بإبطالِهِ وإخراجِهِ عنِ المعدةِ علىٰ سبيلِ الفورِ والمبادرةِ ؛ تلافياً لبدنِهِ المشرفِ علىٰ هلاكٍ لا يفوِّتُ عليهِ إلا هٰذهِ الدنيا الفانيةَ . . فمتناولُ سمومِ الدينِ وهيَ الذنوبُ أولىٰ بأنْ يجبَ عليهِ الرجوعُ عنها بالتداركِ الممكنِ ما دامَ يبقىٰ للتداركِ مهلةٌ وهوَ العمرُ ، فإنَّ المخوفَ مِنْ هٰذا السمِّ فواتُ الآخرةِ الباقيةِ ، التي فيها النعيمُ المقيمُ والملكُ العظيمُ ، وفي فواتِها نارُ الجحيمِ والعذابُ المقيمُ ، الذي تتصرَّمُ أضعافُ أعمارِ الدنيا دونَ عشْرِ عَشِيرِ مدَّتِهِ ؛ إذْ ليسَ لمدَّتِهِ آخرٌ ألبتةَ .

فالبدارَ البدارَ إلى التوبةِ قبلَ أنْ تعملَ سمومُ الذنوبِ بروحِ الإيمانِ عملاً يجاوزُ الأمرُ فيهِ اختيارَ الأطباءِ ، ولا ينفعُ بعدَهُ الاحتماءُ ، فلا ينجعُ بعدَ ذلكَ نصحُ الناصحينَ ووعظُ الواعظينَ ، وتحقُّ الكلمةُ عليهِ بأنَّهُ مِنَ الهالكينَ ، ويدخلُ تحتَ عمومِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ

إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ولا يغرَّنَّكَ لفظُ الإيمانِ ، فتقولَ : المرادُ بهِ الكافرونَ ؛ إذْ بُيِّنَ لكَ أنَّ الإيمانَ بضعٌ وسبعونَ باباً ، وأنَّ الزانيَ لا يزني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ ، فالمحجوبُ عنِ الإيمانِ الذي هوَ شُعَبٌ وفروعٌ سيحجبُ في الخاتمةِ عنِ الإيمانِ الذي هوَ أصلٌ ، كما أنَّ الشخصَ الفاقدَ لجميعِ الأطرافِ التي هيَ حروفٌ وفروعٌ . . سيُساقُ إلى الموتِ المعدمِ للروحِ التي هيَ أصلٌ ، فلا بقاءَ للأصلِ دونَ الفرعِ ، ولا وجودَ للفرعِ دونَ الأصلِ ، ولا فرقَ بينَ الأصلِ والفرعِ إلا في شيءٍ واحدٍ ، وهوَ أنَّ وجودَ الفرعِ وبقاءَهُ جميعاً يستدعي وجودَ الأصلِ ، وأمَّا وجودُ الأصلِ . . فلا يستدعي وجودَ الفرعِ ، ولكنْ بقاؤُهُ يستدعي وجودَ الفرعِ ، فبقاءُ الأصلِ بالفرعِ[1] ، ووجودُ الفرعِ بالأصلِ .

فعلومُ المكاشفةِ وعلومُ المعاملةِ متلازمةٌ كتلازمِ الفرعِ والأصلِ ، فلا يستغني أحدُهُما عنِ الآخرِ وإنْ كانَ أحدُهُما في رتبةِ الأصلِ والآخرُ في رتبةِ التابعِ ، وعلومُ المعاملةِ إذا لمْ تكنْ باعثةً على العملِ . . فعدمُها خيرٌ مِنْ وجودِها ؛ فإنَّها لمْ تعملْ عملَها الذي تُرادُ لهُ ، ثمَّ قامَتْ مؤكِّدةً للحجَّةِ علىٰ صاحبِها ، ولذلكَ يُزادُ في عذابِ العالمِ الفاجرِ علىٰ عذابِ الجاهلِ الفاجرِ كما أوردنا مِنَ الأخبارِ في كتابِ العلمِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) أي : قوّته به . « إتحاف » (٨/ ٥١٤) .

بيان أن وجوب التوبة عامٌّ في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحدٌ ألبتة

اعلمْ : أنَّ ظاهرَ الكتابِ قدْ دلَّ علىٰ هـٰذا ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فعمَّمَ الخطابَ .

ونورُ البصيرةِ أيضاً يرشدُ إليهِ ؛ إذْ معنى التوبةِ : الرجوعُ عنِ الطريقِ المبعِدِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، المقرِّبِ إلى الشيطانِ ، ولا يُتصوَّرُ ذلكَ إلا مِنْ عاقلٍ ، ولا تكملُ غريزةُ العقلِ إلا بعدَ كمالِ غريزةِ الشهوةِ والغضبِ وسائرِ الصفاتِ المذمومةِ التي هيَ وسائلُ الشيطانِ إلىٰ إغواءِ الإنسانِ ؛ إذْ كمالُ العقلِ إنَّما يكونُ عندَ مقاربةِ الأربعينَ ، وأصلُهُ إنَّما يتمُّ عندَ مراهقةِ البلوغِ ، ومباديهِ تظهرُ بعدَ سبعِ سنينَ .

والشهواتُ جنودُ الشيطانِ ، والعقولُ جنودُ الملائكةِ ، فإذا اجتمعا . . قامَ القتالُ بينَ الجندينِ بالضرورةِ ؛ إذْ لا يثبتُ أحدُهُما للآخرِ ؛ فإنَّهما ضدَّانِ ، فالتطاردُ بينَهُما كالتطاردِ بينَ الليلِ والنهارِ ، والنورِ والظلمةِ ، فمهما غلبَ أحدُهُما . . أزعجَ الآخرَ بالضرورةِ .

وإذا كانَتِ الشهواتُ تكملُ في الصبا والشبابِ قبلَ كمالِ العقلِ . . فقدْ سبقَ جندُ الشيطانِ ، واستولىٰ على المكانِ ، ووقعَ للقلبِ بهِ أنسٌ ، وألفَ ـ لا محالةَ ـ مقتضياتِ الشهواتِ بالعادةِ ، وغلبَ ذلكَ عليهِ ، وتعسَّرَ عليهِ النزوعُ عنهُ .

ثمَّ يلوحُ العقلُ الذي هوَ حزبُ اللهِ وجندُهُ ، ومنقذُ أوليائِهِ مِنْ أيدي أعدائِهِ شيئاً فشيئاً على التدريجِ ؛ فإنْ لمْ يقوَ ولمْ يكملْ . . سلمَتْ مملكةُ القلبِ للشيطانِ[1] ، وأنجزَ اللعينُ موعودَهُ حيثُ قالَ : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وإنْ كَمُلَ العقلُ وقويَ . . كانَ أوَّلَ شغلِهِ قمعُ جنودِ الشيطانِ بكسرِ الشهواتِ ، ومفارقةِ العاداتِ ، وردِّ الطبعِ علىٰ سبيلِ القهرِ إلى العباداتِ ، ولا معنىٰ للتوبةِ إلا هـٰذا ، وهوَ الرجوعُ عنْ طريقٍ دليلُهُ الشهوةُ وخفيرُهُ الشيطانُ إلىٰ طريقِ اللهِ تعالىٰ .

وليسَ في الوجودِ آدميٌّ إلا وشهوتُهُ سابقةٌ علىٰ عقلِهِ ، وغريزتُهُ التي هيَ عُدَّةُ الشيطانِ متقدمةٌ علىٰ غريزتِهِ التي هيَ عُدَّةُ الملائكةِ ، فكانَ الرجوعُ عمَّا سبقَ إليهِ علىٰ مساعدةِ الشهواتِ ضرورياً في حقِّ كلِّ إنسانٍ ، نبياً كانَ أوْ غبياً ، فلا تظنَّنَّ أنَّ هـٰذهِ الضرورةَ اختصَّتْ بآدمَ عليهِ السلامُ ، وقدْ قيلَ[2] : [من الطويل]

فَلا تَحْسَبَنْ هِنْداً لَها ٱلْغَدْرُ وَحْدَها ... سَجِيَّةَ نَفْسٍ كُلُّ غانِيَةٍ هِنْدُ

بلْ هوَ حكْمٌ أزليٌّ مكتوبٌ علىٰ جنسِ الإنسِ ، لا يمكنُ فرضُ خلافِهِ ما لمْ تتبدَّلِ السنةُ الإلـٰهيَّةُ التي لا مطمعَ في تبديلِها .

---

(١) فاستولىٰ عليها بما فيها من العجائب والخزائن ، وصار ما في البدن رعايا له . « إتحاف » (٨/ ٥١٥) .

(٢) البيت لأبي تمام في « ديوانه بشرح التبريزي » (٢/ ٨١) .

فإذاً ؛ كلُّ مَنْ بلغَ كافراً جاهلاً فعليهِ التوبةُ مِنْ كفرِهِ وجهلِهِ ، فإذا بلغَ مسلماً تبعاً لأبويهِ ، غافلاً عنْ حقيقةِ إسلامِهِ . . فعليهِ التوبةُ عنْ غفلتِهِ بتفهُّمِ معنى الإسلامِ ، فإنَّهُ لا يغني عنهُ إسلامُ أبويهِ شيئاً ما لمْ يسلمْ بنفسِهِ .

فإنْ فهمَ ذلكَ . . فعليهِ الرجوعُ عنْ عادتِهِ وإلْفِهِ للاسترسالِ وراءَ الشهواتِ مِنْ غيرِ صارفٍ ؛ بالرجوعِ إلىٰ قالبِ حدودِ اللهِ في المنعِ والإطلاقِ ، والانكفافِ والاسترسالِ ، وهوَ مِنْ أشقِّ أبوابِ التوبةِ ، وفيهِ هلكَ الأكثرونَ ؛ إذْ عجزوا عنهُ ، وكلُّ هـٰذا رجوعٌ وتوبةٌ .

فدلَّ أنَّ التوبةَ فرضُ عينٍ في حقِّ كلِّ شخصٍ ، لا يُتصوَّرُ أنْ يستغنيَ عنها أحدٌ مِنَ البشرِ ، كما لمْ يستغنِ عنها آدمُ عليهِ السلامُ ، فخلقةُ الولدِ لا تتسعُ لما لمْ يتسعْ لهُ خلقةُ الوالدِ أصلاً .

وأمَّا بيانُ وجوبِها على الدوامِ وفي كلِّ حالٍ : فهوَ أنَّ كلَّ بشرٍ لا يخلُو عنْ معصيةٍ بجوارحِهِ ؛ إذْ لمْ يخلُ عنهُ الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ ، كما وردَ في القرآنِ والأخبارِ مِنْ خطايا الأنبياءِ وتوبتِهِمْ ، وبكائِهِمْ علىٰ خطاياهُم .

فإنْ خلا في بعضِ الأحوالِ عنْ معصيةِ الجوارحِ . . فلا يخلو عنِ الهمِّ بالذنوبِ بالقلبِ[1] .

---

(١) وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٢٥٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « ما من أحد إلا وقد أخطأ أو همَّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا » .

فإنْ خلا في بعضِ الأحوالِ عنِ الهمِّ . . فلا يخلو عنْ وساوسِ الشيطانِ بإيرادِ الخواطرِ المتفرقةِ المذهلةِ عنْ ذكرِ اللهِ .

فإنْ خلا عنهُ . . فلا يخلو عنْ غفلةٍ وقصورٍ في العلمِ باللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ .

وكلُّ ذلكَ نقصٌ ، ولهُ أسبابٌ ، وتركُ أسبابِهِ بالتشاغلِ بأضدادِهِ رجوعٌ عنْ طريقٍ إلىٰ ضدِّهِ ، والمرادُ بالتوبةِ الرجوعُ ، ولا يُتصوَّرُ الخلوُّ في حقِّ الآدميِّ عنْ هـٰذا النقصِ ، وإنَّما يتفاوتونَ في المقاديرِ ، فأمَّا الأصلُ . . فلا بدَّ منهُ .

ولهـٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليُغانُ علىٰ قلبي ، فأستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلةِ سبعينَ مرَّةً »[1] ، ولذلكَ أكرمَهُ اللهُ تعالىٰ بأنْ قالَ : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، وإذا كانَ هـٰذا حالَهُ . . فكيفَ حالُ غيرِهِ ؟!

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : لا يخفىٰ أنَّ ما يطرأُ على القلبِ مِنَ الهمومِ والخواطرِ نقصٌ ، وأنَّ الكمالَ في الخلوِّ عنهُ ، وأنَّ القصورَ عنْ معرفةِ كنْهِ جلالِ اللهِ نقصٌ ، وأنَّهُ كلَّما زادَتِ المعرفةُ . . زادَ الكمالُ ، وأنَّ الانتقالَ إلى الكمالِ

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داوود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ، وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

مِنْ أسبابِ النقصانِ رجوعٌ ، والرجوعُ توبةٌ ؛ ولكنْ هـٰذهِ فضائلُ لا فرائضُ ، وقدْ أطلقتَ القولَ بوجوبِ التوبةِ في كلِّ حالٍ ، والتوبةُ عنْ هـٰذهِ الأمورِ ليسَتْ بواجبةٍ ؛ إذْ دَرْكُ الكمالِ غيرُ واجبٍ في الشرعِ ، فما المرادُ بقولِكَ : (التوبةُ واجبةٌ في كلِّ حالٍ) ؟

فاعلمْ : أنَّهُ قدْ سبقَ أنَّ الإنسانَ لا يخلو في مبدأِ خلقتِهِ عنِ اتباعِ الشهواتِ أصلاً ، وليسَ معنى التوبةِ تركَها فقطْ ، بلْ تمامُ التوبةِ بتداركِ ما مضىٰ ، وكلُّ شهوةٍ اتبعَها الإنسانُ ارتفعَ منها ظلمةٌ إلىٰ قلبِهِ كما يرتفعُ مِنْ نَفَسِ الإنسانِ ظلمةٌ إلىٰ وجهِ المرآةِ الصقيلةِ ، فإنْ تراكمَتْ ظلمةُ الشهواتِ . . صارَتْ رَيْناً ؛ كما يصيرُ بخارُ النَّفَسِ في وجهِ المرآةِ عندَ تراكمِهِ خبثاً ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، فإذا تراكمَ الرينُ . . صارَ طَبْعاً ، فيُطبعُ علىٰ قلبِهِ ؛ كالخبثِ علىٰ وجهِ المرآةِ إذا تراكمَ وطالَ زمانُهُ . . غاصَ في جرمِ الحديدِ وأفسدَهُ ، وصارَ لا يقبلُ الصقلَ بعدَهُ ، وصارَ كالمطبوعِ مِنَ الخبثِ .

ولا يكفي في تداركِ اتباعِ الشهواتِ تركُها في المستقبلِ ، بلْ لا بدَّ مِنْ محوِ تلكَ الآثارِ التي انطبعَتْ في القلبِ ، كما لا يكفي في ظهورِ الصورِ في المرآةِ قطعُ الأنفاسِ والبخاراتِ المسوِّدةِ لوجهِها في المستقبلِ ما لمْ يشتغلْ بمحوِ ما انطبعَ فيها مِنَ الآثارِ .

وكما يرتفعُ إلى القلبِ ظلمةٌ مِنَ المعاصي والشهواتِ . . فيرتفعُ إليهِ نورٌ مِنَ الطاعاتِ وتركِ الشهواتِ ، فتنمحي ظلمةُ المعصيةِ بنورِ الطاعةِ ، وإليهِ

الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها »[1] .

فإذاً ؛ لا يستغني العبدُ في حالٍ مِنْ أحوالِهِ عنْ محوِ آثارِ السيئاتِ عنْ قلبِهِ بمباشرةِ حسناتٍ تضادُّ آثارُها آثارَ تلكَ السيئاتِ .

هـٰذا في قلبٍ حصلَ أوَّلاً صفاؤُهُ وجلاؤُهُ ، ثمَّ أظلمَ بأسبابٍ عارضةٍ ، فأمَّا التصقيلُ الأوَّلُ . . ففيهِ يطولُ الشغلُ ؛ إذْ ليسَ شغْلُ الصَّيقَلِ في إزالةِ الصدأِ عنِ المرآةِ كشغْلِهِ في عملِ أصْلِ المرآةِ[2] ، فهـٰذهِ أشغالٌ طويلةٌ لا تنقطعُ أصلاً ، وكلُّ ذلكَ يرجعُ إلى التوبةِ .

فأمَّا قولُكَ : (إنَّ هـٰذا لا يُسمَّىٰ واجباً ، بلْ هوَ فضْلٌ وطلبُ كمالٍ) . . فاعلمْ أنَّ الواجبَ لهُ معنيانِ :

أحدُهُما : ما يدخلُ في فتوى الشرعِ ، ويشتركُ فيهِ كافَّةُ الخلقِ ، وهوَ القدْرُ الذي لوِ اشتغلَ كافَّةُ الخلقِ بِهِ . . لمْ يخربِ العالمُ ، ولوْ كلِّفَ الناسُ كلُّهُمْ أنْ يتقوا اللهَ حقَّ تقاتِهِ . . لتركوا المعايشَ ، ورفضوا الدنيا بالكليَّةِ ، ثمَّ يؤدِّي ذلكَ إلىٰ بطلانِ التقوىٰ بالكليَّةِ ؛ فإنَّهُ مهما فسدتِ المعايشُ . . لمْ يتفرَّغْ أحدٌ للتقوىٰ ، بلْ شغْلُ الحياكةِ والحراثةِ والخَبْزِ يستغرقُ جميعَ عُمُرِ كلِّ واحدٍ فيما يحتاجُ إليهِ ، فجميعُ هـٰذهِ الدرجاتِ ليسَتْ واجبةً بهـٰذا الاعتبارِ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٥) .

(٢) **الصيقل** : الذي يشحذ السيوف ويجلوها ، وهو ما يعمله صانع المرايا .

والواجبُ الثاني : هوَ الذي لا بدَّ منهُ للوصولِ بهِ إلى القرْبِ المطلوبِ مِنْ ربِّ العالمينَ ، والمقامِ المحمودِ بينَ الصديقينَ ، والتوبةُ عنْ جميعِ ما ذكرناهُ واجبةٌ في الوصولِ إليهِ ، كما يُقالُ : الطهارةُ واجبةٌ في صلاةِ التطوُّعِ ؛ أيْ : لمَنْ يريدُها ، فإنَّهُ لا يُوصلُ إليها إلا بها .

فأمَّا مَنْ رضيَ بالنقصانِ والحرمانِ عنْ فضْلِ صلاةِ التطوُّعِ . . فالطهارةُ ليسَتْ واجبةً عليهِ لأجلِها ؛ كما يُقالُ : العينُ والأذنُ واليدُ والرجْلُ شرطٌ في وجودِ الإنسانِ ؛ يعني أنَّهُ شرطٌ لمَنْ يريدُ أنْ يكونَ إنساناً كاملاً ينتفعُ بإنسانيتِهِ ، ويتوصَّلُ بها إلىٰ درجاتِ العلا في الدنيا ، فأمَّا مَنْ قنعَ بأصلِ الحياةِ ، ورضيَ بأنْ يكونَ كلحْمٍ علىٰ وَضَمٍ[1] ، وكخرقةٍ مطروحةٍ . . فليسَ يشترطُ لمثلِ هٰذهِ الحياةِ عينٌ ويدٌ ورجْلٌ .

فأصلُ الواجباتِ الداخلةِ في فتوى العامَّةِ لا يُوصلُ إلا إلىٰ أصلِ النجاةِ ، وأصلُ النجاةِ كأصلِ الحياةِ ، وما وراءَ أصلِ النجاةِ مِنَ السعاداتِ التي بها تتهيَّأُ الحياةُ يجري مَجرى الأعضاءِ والآلاتِ التي بها تتهيَّأُ الحياةُ ، وفيهِ سَعْيُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ والأمثلِ فالأمثلِ ، وعليهِ كانَ حرصُهُمْ ، وحوالَيْهِ كانَ تطوافُهُمْ ، ولأجلِهِ كانَ رفضُهُمْ لملاذِّ الدنيا بالكليّةِ ، حتَّى انتهىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ إلىٰ أنْ توسَّدَ حجراً في منامِهِ ، فجاءَ إليهِ الشيطانُ وقالَ : أما

---

(١) الوضم : الخشبة التي يفرىٰ عليها اللحم ، أو ما يوضع عليه من خشبة أو خصفة ليوقىٰ ، وقوله : (لحم علىٰ وضم) هو مثل يضرب للضعيف والذليل .

كنتَ تركتَ الدنيا للآخرةِ ؟ فقالَ : نعمْ ، وما الذي حدثَ ؟ فقالَ : توسُّدُكَ لهٰذا الحجرِ تنعُّمٌ بالدنيا ، فلمَ لا تضعُ رأسَكَ على الأرضِ ؟ فرمىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ بالحجرِ ، ووضعَ رأسَهُ على الأرضِ[1] ، وكانَ رميُهُ الحجرَ توبةً عنْ ذلكَ التنعُّمِ ، أفترىٰ أنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ لمْ يعلمْ أنَّ وضعَ الرأسِ على الأرضِ لا يسمَّىٰ واجباً في فتاوى العامَّةِ ؟!

أفترىٰ أنَّ نبيَّنا محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا شغلَهُ الثوبُ الذي كانَ عليهِ عَلَمٌ في صلاتِهِ حتَّىٰ نزعَهُ[2] ، وشغلَهُ شِراكُ نعلِهِ الذي جدَّدَهُ حتَّىٰ أعادَ الشِّراكَ الخليعَ[3] . . ما علمَ أنَّ ذلكَ ليسَ واجباً في شرعِهِ الذي شرعَهُ لكافَّةِ العبادِ ؟! فإذا علمَ ذلكَ . . فلمَ تابَ عنهُ بتركِهِ ؟ وهلْ كانَ ذلكَ إلاّ لأنَّهُ رآهُ مؤثِّراً في قلبِهِ أثراً يمنعُهُ عنْ بلوغِ المقامِ المحمودِ الذي قدْ وُعِدَ بهِ ؟

أوَترىٰ أنَّ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ بعدَ أنْ شربَ اللبنَ ، وعرفَ أنَّهُ مِنْ غيرِ وجهِهِ ، أدخلَ إصبعَهُ في حلقِهِ ليخرجَهُ ، حتَّىٰ كادَ أنْ يخرجَ معَهُ روحُهُ . . ما علمَ مِنَ الفقهِ هٰذا القدْرَ وهوَ أنَّ ما أكلَهُ عنْ جهلٍ فهوَ غيرُ آثمٍ بهِ ، ولا يجبُ في فتوى الفقهِ إخراجُهُ ؟! فلِمَ تابَ عنْ شربِهِ بالتداركِ علىٰ حسَبِ إمكانِهِ بتخليةِ المعدةِ عنهُ ؟[4] وهلْ كانَ ذلكَ إلا لسرٍّ وقرَ في

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (ص٤٩٣) عن إسماعيل بن أبي خالد .

(٢) رواه البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦/٦٢) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٠٢) .

(٤) رواه البخاري (٣٨٤٢) .

صدرِه[1] ، عرَّفَهُ ذلكَ السرُّ أنَّ فتوى العامَّةِ حديثٌ آخرُ ، وأنَّ خطرَ طريقِ الآخرةِ لا يعرفُهُ إلا الصدِّيقونَ ؟

فتأمَّلْ أحوالَ هؤلاءِ الذينَ همْ أعرفُ خلْقِ اللهِ باللهِ ، وبطريقِ اللهِ ، وبمكْرِ اللهِ ، وبمكامنِ الغرورِ باللهِ ، وإيَّاكَ مرَّةً واحدةً أنْ تغرَّكَ الحياةُ الدنيا ، وإيَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ ألفَ مرَّةٍ أنْ يغرَّكَ باللهِ الغَرورُ .

فهـٰذهِ أسرارٌ مَنِ استنشقَ مباديَ روائحِها . . علمَ أنَّ لزومَ التوبةِ النصوحِ ملازمٌ للعبدِ السالكِ في طريقِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِهِ ، ولوْ عُمِّرَ عمرَ نوحٍ ، وأنَّ ذلكَ واجبٌ على الفورِ مِنْ غيرِ مهلةٍ .

ولقدْ صدقَ أبو سليمانَ الدارانيُّ حيثُ قالَ : (لوْ لمْ يبكِ العاقلُ فيما بقيَ مِنْ عمرِهِ إلا علىٰ فوْتِ ما مضىٰ منهُ في غيرِ الطاعةِ . . لكانَ خَليقاً أنْ يحزنَهُ ذلكَ إلى المماتِ ، فكيفَ مَنْ يستقبلُ ما بقيَ مِنْ عمرِهِ بمثلِ ما مضىٰ مِنْ جهلِهِ ؟!)[2] .

وإنَّما قالَ هـٰذا لأنَّ العاقلَ إذا ملكَ جوهرةً نفيسةً فضاعَتْ منهُ بغيرِ فائدةٍ . . بكىٰ عليها لا محالةَ ، وإنْ ضاعَتْ منهُ وصارَ ضياعُها سببَ هلاكِهِ . . كانَ بكاؤُهُ منها أشدَّ ، وكلُّ ساعةٍ مِنَ العمرِ بلْ كلُّ نَفَسٍ جوهرةٌ

---

(1) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١١٨) ، وأبو داوود في « الزهد » (٣٧) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣١) ، و« ختم الأولياء » (ص٤٤٢) موقوفاً علىٰ بكر بن عبد الله المزني .

(2) قوت القلوب (١/١٧٩) .

نفيسةٌ ، لا خَلَفَ لها ، ولا بدلَ منها ؛ فإنَّها صالحةٌ لأَنْ توصلَكَ إلىٰ سعادةِ الأبدِ ، وتنقذَكَ مِنْ شقاوةِ الأبدِ ، وأيُّ جوهرٍ أنفسُ مِنْ هـٰذا ؟

فإذا ضيَّعتَها في الغفلةِ . . فقدْ خسرتَ خُسراناً مبيناً ، وإنْ صرفتَها إلىٰ معصيةٍ . . فقدْ هلكتَ هلاكاً فاحشاً .

فإنْ كنتَ لا تبكي علىٰ هـٰذهِ المصيبةِ . . فذلكَ لجهلِكَ ، ومصيبتُكَ بجهلِكَ أعظمُ مِنْ كلِّ مصيبةٍ ، لكنَّ الجهلَ مصيبةٌ لا يعرفُ المصابُ بها أنَّهُ صاحبُ مصيبةٍ ، فإنَّ نومَ الغفلةِ يحولُ بينَهُ وبينَ معرفتِهِ ، والناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا ، فعندَ ذلكَ ينكشفُ لكلِّ مفلسٍ إفلاسُهُ ، ولكلِّ مصابٍ مصيبتُهُ ، وقدْ وقعَ اليأسُ عنِ التداركِ .

قالَ بعضُ العارفينَ : إنَّ ملكَ الموتِ عليهِ السلامُ إذا ظهرَ للعبدِ . . أعلمَهُ أنَّهُ قدْ بقيَ مِنْ عمرِكَ ساعةٌ ، وإنَّكَ لا تستأخرُ عنها طرفةَ عينٍ ، فيبدو للعبدِ مِنَ الأسفِ والحسرةِ ما لوْ كانَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها . . لخرجَ منها علىٰ أنْ يضمَّ إلىٰ تلكَ الساعةِ ساعةً أخرىٰ ، ليستعتبَ فيها ويتداركَ تفريطَهُ ، فلا يجدُ إليهِ سبيلاً[1] .

وهوَ أوَّلُ ما يظهرُ مِنْ معاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٠) .

أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ ، فقيلَ : الأجلُ القريبُ الذي يطلبُهُ العبدُ معناهُ : أنَّهُ يقولُ عندَ كشْفِ الغطاءِ : يا ملكَ الموتِ ؛ أخِّرْني يوماً أعتذرُ فيهِ إلىٰ ربِّي وأتوبُ وأتزوَّدُ صالحاً لنفسي ، فيقولُ : فنيَتِ الأيامُ فلا يومَ ، فيقولُ : فأخِّرْني ساعةً ، فيقولُ : فنيَتِ الساعاتُ فلا ساعةَ ، فيغلقُ عليهِ بابَ التوبةِ ، فيغرغرُ بروحِهِ ، وتتردَّدُ أنفاسُهُ في شراسيفِهِ[1] ، ويتجرَّعُ غصَّةَ اليأسِ عنِ التداركِ ، وحسرةَ الندامةِ علىٰ تضييعِ العمرِ ، فيضطربُ أصلُ إيمانِهِ في صدماتِ تلكَ الأهوالِ ، فإذا زهقَتْ نفسُهُ ؛ فإنْ كانَ قدْ سبقَتْ لهُ مِنَ اللهِ الحسنىٰ . . خرجَتْ روحُهُ على التوحيدِ ، فذلكَ حسنُ الخاتمةِ ، وإنْ سبقَ لهُ القضاءُ بالشقوةِ والعياذُ باللهِ . . خرجَتْ روحُهُ على الشكِّ والاضطرابِ ، وذلكَ سوءُ الخاتمةِ ، ولمثلِ هـٰذا يُقالُ : ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ ، بلِ ﴿ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ ، ومعناهُ : عنْ قربِ عهدٍ بالخطيئةِ ؛ بأنْ يتندَّمَ عليها ، ويمحوَ أثرَها بحسنةٍ يردفُها بها قبلَ أنْ يتراكمَ الرينُ على القلبِ فلا يقبلَ المحوَ[2] .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها »[3] .

---

(1) الشراسيف : أطراف الأضلاع مما يلي البطن .

(2) قوت القلوب (٢/ ١٨٠) .

(3) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٥) .

ولذلكَ قالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تؤخرِ التوبةَ ؛ فإنَّ الموتَ يأتي بغتةً)[1] .

ومَنْ تركَ المبادرةَ إلى التوبةِ بالتسويفِ . . كانَ بينِ خطرينِ عظيمينِ :

أحدُهُما : أنْ تتراكمَ الظلمةُ علىٰ قلبِهِ مِنَ المعاصي حتَّىٰ يصيرَ ريناً وطبْعاً ، فلا يقبلُ المحوَ .

والثاني : أنْ يعاجلَهُ المرضُ أوِ الموتُ ، فلا يجدُ مهلةً للاشتغالِ بالمحوِ .

ولذلكَ وردَ في الخبرِ : (إنَّ أكثرَ صياحِ أهلِ النارِ مِنَ التسويفِ)[2] .

فما هلكَ مَنْ هلكَ إلا بالتسويفِ ، فيكونُ تسويدُهُ للقلبِ نقداً ، وجلاؤُهُ بالطاعةِ نسيئةً ، إلىٰ أنْ يختطفَهُ الأجلُ ، فيأتي اللهَ بقلبٍ غيرِ سليمٍ ، ولا ينجو إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ، فالقلبُ أمانةُ اللهِ تعالىٰ عندَ عبدِهِ ، والعمرُ أمانةُ اللهِ عندَهُ ، وكذا سائرُ أسبابِ الطاعةِ ، فمَنْ خانَ في الأمانةِ ولمْ يتداركْ خيانتَهُ . . فأمرُهُ مخطرٌ .

قالَ بعضُ العارفينَ : إنَّ للهِ تعالىٰ إلىٰ عبدِهِ سرَّينِ يسرُّهُما إليهِ علىٰ سبيلِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٩) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٩٠) عن عثمان بن زائدة يذكر الوصية .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢١٧) عن عبد الله بن المبارك بلفظ : (بلغني أن أكثر تلاقع أهل النار : أفٌّ لسوفَ ، أف لسوف) .

الإلهامِ ؛ أحدُهُما : إذا خرجَ مِنْ بطنِ أمِّهِ يقولُ لهُ : عبدي ؛ قدْ أخرجتُكَ إلى الدنيا طاهراً نظيفاً ، واستودعتُكَ عمرَكَ وأْتمنتُكَ عليهِ ، فانظرْ كيفَ تحفظُ الأمانةَ ، وانظرْ كيفَ تلقاني ، والثاني : عندَ خروجِ روحِهِ يقولُ : عبدي ؛ ماذا صنعتَ في أمانتي عندَكَ ؟ هلْ حفظتَها حتَّىٰ تلقاني على العهدِ فألقاكَ على الوفاءِ ؟ أوْ أضعتَها فألقاكَ بالمطالبةِ والعقابِ ؟[1] .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ .

* * *

(١) قوت القلوب (١/ ١٨١) ، والسياق عنده .

بيان أنّ التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة[1]

اعلمْ : أنَّكَ إذا فهمتَ معنى القبولِ . . لمْ تشكَّ في أنَّ كلَّ توبةٍ صحيحةٍ فهيَ مقبولةٌ .

فالناظرونَ بنورِ البصائرِ المستمدُّونَ مِنْ أنوارِ القرآنِ علموا أنَّ كلَّ قلبٍ سليمٍ مقبولٌ عندَ اللهِ ، ومتنعِّمٌ في الآخرةِ في جوارِ اللهِ تعالىٰ ، ومستعدٌّ لأنْ ينظرَ بعينِهِ الباقيةِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، وعلموا أنَّ القلبَ خُلِقَ سليماً في الأصلِ ، فكلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ ، وإنَّما تفوتُهُ السلامةُ بكدورةٍ ترهقُ وجهَهُ مِنْ غَبَرَةِ الذنوبِ وظلمتِها ، وعلموا أنَّ نارَ الندمِ تحرقُ تلكَ الغبرةَ ، وأنَّ نورَ الحسنةِ يمحو عنْ وجهِ القلبِ ظلمةَ السيئةِ ، وأنَّهُ لا طاقةَ لظلامِ المعاصي معَ نورِ الحسناتِ ؛ كما لا طاقةَ لظلامِ الليلِ معَ نورِ النهارِ ، بلْ كما لا طاقةَ لكدورةِ الوسخِ معَ بياضِ الصابونِ ، وكما أنَّ الثوبَ الوسخَ لا يقبلُهُ الملكُ لأنْ يكونَ لباسَهُ . . فالقلبُ المظلمُ لا يقبلُهُ اللهُ تعالىٰ لأنْ يكونَ في جوارِهِ ، وكما أنَّ استعمالَ الثوبِ في الأعمالِ الخسيسةِ يوسِّخُ الثوبَ ، وغسلُهُ بالصابونِ والماءِ الحارِّ ينظِّفُهُ لا محالةَ . . فاستعمالُ القلبِ

---

(١) بفضل الله تعالىٰ ، لا بطريق الوجوب ؛ إذ لا يجب شيء على الخالق ؛ لأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ ، هٰذا حاصل ما ذكره المصنف في هٰذا الفصل ، وقد أخَّر تلك الشرائط وكان الأولىٰ تقديمها حتىٰ يكون ما في هٰذا الفصل كالمتمم له ، والإيمان بهٰذا واجب ؛ لأنه من عقود الإيمان بالله تعالىٰ . « إتحاف » (٨/ ٥٢٢) .

في الشهواتِ يوسِّخُ القلبَ ، وغسلُهُ بماءِ الدموعِ وحرقةِ الندمِ ينظِّفُهُ ويطهِّرُهُ ويزكِّيهِ ، وكلُّ قلبٍ زكيٍّ طاهرٍ فهوَ مقبولٌ ؛ كما أنَّ كلَّ ثوبٍ نظيفٍ فهوَ مقبولٌ ، فإنَّما عليكَ التزكيةُ والتطهيرُ ، فأمَّا القبولُ . . فمبذولٌ قدْ سبقَ بهِ القضاءُ الأزليُّ الذي لا مردَّ لهُ ، وهوَ المسمَّىٰ فلاحاً في قولِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ .

ومَنْ لمْ يعرفْ علىٰ سبيلِ التحقيقِ معرفةً أقوىٰ وأجلىٰ مِنَ المشاهدةِ بالبصرِ أنَّ القلبَ يتأثَّرُ بالمعاصي والطاعاتِ تأثُّراً متضادّاً ؛ يُستعار لأحدِهما لفظُ الظلمةِ كما يُستعارُ للجهلِ ، ويُستعارُ للآخرِ لفظُ النورِ كما يُستعارُ للعلمِ ، وأنَّ بينَ النورِ والظلمةِ تضادّاً ضرورياً لا يُتصوَّرُ الجمعُ بينهُما . . فكأنَّهُ لمْ يعرفْ مِنَ الدينِ إلا قشورَهُ ، ولمْ يعلقْ بهِ إلا أسماؤُهُ ، وقلبُهُ في غطاءٍ كثيفٍ عنْ حقيقةِ الدينِ ، بلْ عنْ حقيقةِ نفسِهِ وصفاتِ نفسِهِ ، ومَنْ جهلَ نفسَهُ . . فهوَ بغيرِهِ أجهلُ ، وأعني بهِ قلبَهُ ؛ إذْ بقلبِهِ يعرفُ غيرَ قلبِهِ ، فكيفَ يعرفُ غيرَهُ وهوَ لا يعرفُ قلبَهُ ؟!

فمَنْ يتوهَّمُ أنَّ التوبةَ تصحُّ ولا تُقبلُ كمَنْ يتوهَّمُ أنَّ الشمسَ تطلعُ والظلامُ لا يزولُ ، والثوبَ يغسلُ بالصابونِ والوسخُ لا يزولُ ، إلا أنْ يغوصَ الوسخُ لطولِ تراكمِهِ في تجاويفِ الثوبِ وخَللِهِ ، فلا يقوى الصابونُ علىٰ قلعِهِ ، فمثالُ ذلكَ أنْ تتراكمَ الذنوبُ حتَّىٰ تصيرَ طبعاً وريناً على القلبِ ، فمثلُ هٰذا القلبِ لا يرجعُ ولا يتوبُ .

نعمْ ، قدْ يقولُ باللسانِ : (تبتُ) ، فيكونُ ذلكَ كقولِ القصارِ بلسانِهِ : (قدْ غسلتُ الثوبَ) ، وذلك لا ينظِّفُ الثوبَ أصلاً ، ما لمْ يغيِّرْ صفةَ الثوبِ باستعمالِ ما يضادُّ الوصفَ المتمكِّنَ منهُ .

فهـٰذا حالُ امتناعِ أصلِ التوبةِ ، وهوَ غيرُ بعيدٍ ، بلْ هوَ الغالبُ علىٰ كافَّةِ الخلقِ المقبلينَ على الدنيا ، المعرضينَ عنِ اللهِ بالكليَّةِ .

فهـٰذا البيانُ كافٍ عندَ ذوي البصائرِ في قبولِ التوبةِ ، ولكنَّا نعضدُ جناحَهُ بنقلِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ ، فكلُّ استبصارٍ لا يشهدُ لهُ الكتابُ والسنَّةُ لا يوثقُ بهِ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ المؤمنِ » الحديثَ[1] ، والفرحُ وراءَ القبولِ ، فهوَ دليلٌ على القبولِ وزيادةٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يبسطُ يدَهُ بالتوبةِ لمسيءِ الليلِ إلى النهارِ ، ولمسيءِ النهارِ إلى الليلِ ، حتَّىٰ تطلعَ الشمسُ مِنْ مغربِها »[2] ، وبسطُ اليدِ كنايةٌ عنْ طلبِ التوبةِ[3] ، والطالبُ وراءَ القابلِ ،

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩) بنحوه .

(٣) وقبولها ، وهو في حقه تعالىٰ عبارة عن التوسع في الجود ، والتنزيه عن المنع عند اقتضاء الحكمة . « إتحاف » (٨/ ٥٢٤) .

فربَّ قابلٍ ليسَ بطالبٍ ، ولا طالبَ إلا وهوَ قابلٌ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ عملتُمُ الخطايا حتَّىٰ تبلغَ السماءَ ، ثمَّ ندمتُمْ . . لتابَ اللهُ عليكُمْ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « إنَّ العبدَ ليذنبُ الذنبَ فيدخلُ بهِ الجنَّةَ » ، قيلَ : كيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « يكونُ نصبَ عينِهِ تائباً منهُ فارّاً حتَّىٰ يدخلَ الجنَّةَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفارةُ الذنبِ الندامةُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ »[4] .

ويُروىٰ أنَّ حبشيّاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي كنتُ أعملُ الفواحشَ ، فهلْ لي مِنْ توبةٍ ؟ قالَ : « نعمْ » ، فولَّىٰ ثمَّ رجعَ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أكانَ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٨) ولفظه : « لو أخطأتم حتىٰ تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم . . لتاب عليكم » ، وسيأتي شاهده الذي رواه الترمذي (٣٥٤٠) ، وفيه : « يا بن آدم ؛ لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني . . غفرت لك ولا أبالي . . . » الحديث .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٦٢) عن الحسن مرسلاً ، وبنحوه رواه الطبراني في « الأوسط » (٢١٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، ولفظه : « إن العبد ليذنب ذنباً ، فإذا ذكره . . أحزنه ما صنع ، فإذا نظر الله إليه قد أحزنه ما صنع . . غفر له » ، وعند ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه » .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٢٨٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٧٢) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

يراني وأنا أعملُها ؟ قالَ : « نعمْ » ، فصاحَ الحبشيُّ صيحةً خرجَتْ فيها نفسُهُ[1] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمَّا لعنَ إبليسَ . . سألَهُ النَّظِرةَ ، فأنظرَهُ إلىٰ يومِ القيامةِ ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا خرجتُ مِنْ قلبِ ابنِ آدمَ ما دامَ فيهِ الروحُ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : وعزَّتي وجلالي ؛ لا حجبتُ عنهُ التوبةَ ما دام فيه الروحُ[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ كما يذهبُ الماءُ الوسخَ »[3] .

والأخبارُ في هٰذا لا تُحصىٰ .



---

(١) رواه أبو طاهر بن العلاف في « زهر الرياض » كما ذكر ذلك ابن الجوزي في « تنوير الغبش في فضل السودان والحبش » (ص١٤٧) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٨٤) عن أبي قلابة بلفظ المصنف هنا ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٢٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٣٩٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الشيطان قال : وعزتك يا رب ؛ لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، قال الرب : وعزتي وجلالي ؛ لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ ، وهو صحيح المعنىٰ ، وهو بمعنىٰ : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » رواه الترمذي وتقدم قريباً) ، وعلق عليه الحافظ الزبيدي بقوله : (بل روىٰ أبو نعيم في « الحلية » [١/ ٢٧٠] من حديث شداد بن أوس : « إن التوبة تغسل الحوبة ، وإن الحسنات يذهبن السيئات » الحديث ، فلعل المصنف أشار إلىٰ هٰذا) . « إتحاف » (٨/ ٥٢٥) .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : (أُنزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ في الرجلِ يذنبُ ثمَّ يتوبُ ، ثمَّ يذنبُ ثمَّ يتوبُ)(١) .

وقالَ الفضيلُ : (قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : بشِّرِ المذنبينَ بأنَّهُمْ إنْ تابوا . . قبلتُ منهُمْ ، وحذِّرِ الصديقينَ أنِّي إنْ وضعتُ عليهِمْ عدلي . . عذَّبتُهُمْ)(٢) .

وقالَ طلْقُ بنُ حبيبٍ : (إنَّ حقوقَ اللهِ أعظمُ مِنْ أنْ يقومَ بها العبدُ ، ولكنْ أصبحوا تائبينَ وأمسوا تائبينَ)(٣) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (مَنْ ذكرَ خطيئةً ألمَّ بها ، فوجلَ منها قلبُهُ . . محيَتْ عنهُ في أمِّ الكتابِ)(٤) .

ويُروىٰ أنَّ نبيّاً مِنْ أنبياءِ بني إسرائيلَ أذنبَ ذنباً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : وعزَّتي وجلالي ؛ لئنْ عدتَ . . لأعذِّبَنَّكَ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، وعزَّتِكَ لئنْ لمْ تعصمْني . . لأعودَنَّ ، فعصمَهُ اللهُ تعالىٰ(٥) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٩٤) .
(٢) روىٰ نحوه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٩٥) عن عبد العزيز بن أبي رواد .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٦٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١١٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بنحوه .
(٥) الخبر بنحوه في « القوت » (٢/ ٦٥) عن آصف ابن خالة سيدنا موسىٰ عليه السلام ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٩٣٦) عن جابر رضي الله عنه قال : رأىٰ =

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّ العبدَ ليذنبُ الذنبَ ، فلا يزالُ نادماً حتَّىٰ يدخلَ الجنَّةَ ، فيقولُ إبليسُ : ليتَني لمْ أوقعْهُ في الذنبِ) .

وقالَ حبيبُ بنُ أبي ثابتٍ : (تُعرضُ على الرجلِ ذنوبُهُ يومَ القيامةِ ، فيمرُّ بالذنبِ فيقولُ : أما إنِّي قدْ كنتُ مشفقاً منكَ ، فيُغفرُ لهُ)[1] .

ويُروىٰ أنَّ رجلاً سألَ ابنَ مسعودٍ عنْ ذنبٍ ألمَّ بهِ : هلْ لهُ مِنْ توبةٍ ؟ فأعرضَ عنهُ ابنُ مسعودٍ ، ثمَّ التفتَ إليهِ ، فرأىٰ عينيهِ تذرفانِ ، فقالَ لهُ : إنَّ للجنةِ ثمانيةَ أبوابٍ ، كلُّها تفتحُ وتغلقُ إلا بابَ التوبةِ ، فإنَّ عليهِ ملكاً موكلاً بهِ لا يغلقُ ، فاعملْ ولا تيئسْ[2] .

وقالَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ أبي القاسمِ : تذاكرنا معَ عبدِ الرحيمِ توبةَ الكافرِ وقولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ ، فقالَ : إنِّي لأرجو أنْ يكونَ المسلمُ أحسنَ حالاً عندَ اللهِ ، ولقدْ بلغَني أنَّ توبةَ المسلمِ كإسلامٍ بعدَ إسلامٍ[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ : (لا أحدِّثُكُمْ إلا عنْ نبيٍّ مرسلٍ أوْ كتابٍ

= رجل جمجمة ، فحدث نفسه بشيء ، قال : فخرَّ ساجداً تائباً مكانه ، قال : فقيل له : ارفع رأسك ، فإنك أنت أنت ، وأنا أنا .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٠٥) عن عروة بن عامر .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٤٢) .

(٣) وعبد الرحيم هو ابن يحيى المعروف بالأسود ، كذا نص عليه في « الإتحاف » (٨/ ٥٢٦) ، وفي (ب) : (وقد بلغني أن العبد إذا عمل عملاً من أعمال البرِّ . . دخل به الجنة ، ولقد بلغني . . .) .

منزلٍ ، إنَّ العبدَ إذا عملَ ذنباً ثمَّ ندمَ عليهِ طرفةَ عينٍ . . سقطَ عنهُ أسرعَ مِنْ طرفةِ عينٍ)[١] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (اجلسوا إلى التوَّابينَ ؛ فإنَّهُمْ أرقُّ أفئدةً)[٢] .

وقالَ بعضُهُمْ : أنا أعلمُ متَّىٰ يغفرُ اللهُ لي ، قيلَ : ومتى ؟ قالَ : إذا تابَ عليَّ[٣] .

وقالَ آخرُ : (أنا مِنْ أنْ أُحرمَ التوبةَ أخوفُ مِنْ أَنْ أُحرمَ المغفرةَ)[٤] أي : المغفرةُ مِنْ لوازمِ التوبةِ وتوابِعها لا محالةَ .

ويُروىٰ أنَّهُ كانَ في بني إسرائيلَ شابٌّ عبدَ اللهَ تعالىٰ عشرينَ سنةً ، ثمَّ عصاهُ عشرينَ سنةً ، ثمَّ نظرَ في المرآةِ فرأى الشيبَ في لحيتِهِ ، فساءَهُ ذلكَ ، فقالَ : إلـٰهي ؛ أطعتُكَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ عصيتُكَ عشرينَ سنةً ، فإنْ رجعتُ إليكَ أتقبلُني ؟ فسمعَ قائلاً يقولُ ولا يرىٰ شخصاً : أحببتَنا فأحببناكَ ، وتركتَنا فتركناكَ ، وعصيتَنا فأمهلناكَ ، وإنْ رجعتَ إلينا . . قبلناكَ[٥] .

---

(١) رواه بنحوه الطبراني كما نص عليه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢٠١) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٦) ، وأحمد في « الزهد » (٦٣١) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٨١) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٨١) .
(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٢٣) عن إبراهيم بن شيبان ، يحكي هـٰذا عن شاب كان عندهم بنحوه .

وقالَ ذو النونِ المصريُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إنَّ للهِ عباداً نصبوا أشجارَ الخطايا نصْبَ روامقِ القلوبِ ، وسقوها بماءِ التوبةِ ، فأثمرَتْ ندماً وحزناً ، فجُنُّوا مِنْ غيرِ جنونٍ ، وتبلَّدوا مِنْ غيرِ عيٍّ ولا بَكَمٍ ، وإنَّهُمْ لهُمُ البلغاءُ الفصحاءُ ، العارفونَ باللهِ ورسولِهِ ، ثمَّ شربوا بكأسِ الصفاءِ ، فورثوا الصبرَ علىٰ طولِ البلاءِ ، ثمَّ تولَّهَتْ قلوبُهُمْ في الملكوتِ ، وجالَ فكرُهُمْ بينَ سرايا حُجبِ الجبروتِ ، واستظلُّوا تحتَ رِواقِ الندمِ ، وقرؤوا صحيفةَ الخطايا ، فأورثوا أنفسَهُمُ الجزعَ ، حتَّىٰ وصلوا إلىٰ عُلْوِ الزهدِ بسلَّمِ الورعِ ، فاستعذبوا مرارةَ التركِ للدنيا ، واستلانوا خشونةَ المضجعِ ، حتَّىٰ ظفروا بحبلِ النجاةِ وعروةِ السلامةِ ، فسرحَتْ أرواحُهُمْ في العلا ، حتَّىٰ أناخوا في رياضِ النعيمِ ، وخاضوا في بحرِ الحياةِ ، وردموا خنادقَ الجزعِ ، وعبروا جسورَ الهوىٰ ، حتَّىٰ نزلوا بفناءِ العلمِ ، واستقوا مِنْ غديرِ الحكمةِ ، وركبوا سفينةَ الفطنةِ ، وأقلعوا بريحِ النجاةِ في بحرِ السلامةِ ، حتَّىٰ وصلوا إلىٰ رياضِ الراحةِ ، ومعدنِ العزِّ والكرامةِ)[١] .

فهـٰذا القدْرُ كافٍ في بيانِ أنَّ كلَّ توبةٍ صحيحةٍ فمقبولةٌ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٤) واللفظ له ، وبنحوه عند أبي نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٣٢) .

فإنْ قلتَ : أفتقولُ ما قالَهُ المعتزلةُ مِنْ أنَّ قبولَ التوبةِ واجبٌ على اللهِ ؟[1] .

فأقولُ : لا أعني بما ذكرتُهُ مِنْ وجوبِ قبولِ التوبةِ على اللهِ إلا ما يريدُهُ القائلُ بقولِهِ : (إنَّ الثوبَ إذا غُسِلَ بالصابونِ . . وجبَ زوالُ الوسخِ ، وإنَّ العطشانَ إذا شربَ الماءَ . . وجبَ زوالُ العطشِ ، وإنَّهُ إذا مُنِعَ الماءَ مدَّةً . . وجبَ العطشُ ، وإنَّهُ إذا دامَ العطشُ . . وجبَ الموتُ) ، وليسَ في شيءٍ مِنْ ذلكَ ما يريدُهُ المعتزلةُ بالإيجابِ على اللهِ تعالىٰ .

بلْ أقولُ : خلقَ اللهُ تعالى الطاعةَ مكفِّرةً للمعصيةِ والحسنةَ ماحيةً للسيئةِ كما خلقَ الماءَ مزيلاً للعطشِ ، والقدرةُ متسعةٌ بخلافِهِ لوْ سبقَتْ بهِ المشيئةُ ، فلا واجبَ على اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ ما سبقتْ بهِ إرادتُهُ الأزليَّةُ فواجبٌ كونُهُ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما مِنْ تائبٍ إلا وهوَ شاكٌّ في قبولِ توبتِهِ ، والشاربُ للماءِ لا يشكُّ في زوالِ عطشِهِ ، فلِمَ يشكُّ في قبولِ التوبةِ ؟

فأقولُ : شكُّهُ في القبولِ كشكِّهِ في وجودِ شرائطِ الصحَّةِ ، فإنَّ للتوبةِ أركاناً وشروطاً دقيقةً كما سيأتي ، وليسَ يتحقَّقُ وجودُ جميعِ شروطِها ، كالذي يشكُّ في دواءٍ شربَهُ للإسهالِ في أنَّهُ هلْ يسهلُ ، وذلكَ لشكِّهِ في

---

(١) انظر « الإرشاد » (ص٤٠٣) .

حصولِ شروطِ الإسهالِ في الدواءِ ؛ باعتبارِ الحالِ والوقتِ ، وكيفيةِ خلْطِ الدواءِ وطبخِهِ ، وجودةِ عقاقيرِه وأدويتِهِ .

فهٰذا وأمثالُهُ موجبٌ للخوفِ بعدَ التوبةِ ، وموجبٌ للشكِّ في قبولِها لا محالةَ ، علىٰ ما سيأتي في شروطِها إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

* * *

الرُّكنُ الثَّاني
فيما عنه التّوبة ، وهي الذّنوب صغائرها وكبائرها

اعلمْ : أنَّ التوبةَ تركُ الذنبِ ، ولا يمكنُ تركُ الشيءِ إلا بعدَ معرفتِهِ ، وإذا كانَتِ التوبةُ واجبةً . . كانَ ما لا يتوصَّلُ إليها إلا بهِ واجباً ، فمعرفةُ الذنوبِ إذاً واجبةٌ .

والذنبُ : عبارةٌ عنْ كلِّ ما هوَ مخالفٌ لأمرِ اللهِ مِنْ تركٍ أوْ فعلٍ ، وتفصيلُ ذلكَ يستدعي شرحَ التكليفاتِ مِنْ أوَّلِها إلىٰ آخرِها ، وليسَ ذلكَ مِنْ غرضِنا ، ولكنَّا نشيرُ إلىٰ مجامعِها وروابطِ أقسامِها ، واللهُ الموفقُ للصوابِ برحمتِهِ .

بيان أقسام الذّنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلمْ : أنَّ للإنسانِ أخلاقاً وأوصافاً كثيرةً ، علىٰ ما عُرِفَ شرحُهُ في كتابِ عجائبِ القلبِ وعوالمِهِ[1] ، ولكنْ تنحصرُ مثاراتُ الذنوبِ في أربعِ صفاتٍ : صفاتٍ ربوبيَّةٍ ، وصفاتٍ شيطانيَّةٍ ، وصفاتٍ بهيميةٍ ، وصفاتٍ سبعيةٍ ، وذلكَ لأنَّ طينةَ الإنسانِ عُجنَتْ مِنْ أخلاطٍ مختلفةٍ ، فاقتضىٰ كلُّ واحدٍ مِنَ الأخلاطِ في المعجونِ منهُ أثراً مِنَ الآثارِ ، كما يقتضي السكَّرُ

(١) في (ن) : (وغوائله) بدل (وعوالمه) .

والخلُّ والزعفرانُ في السكنجبينِ آثاراً مختلفةً[1] .

فأمَّا ما يقتضيهِ النزوعُ إلى الصفاتِ الربوبيةِ : فمثلُ الكبرِ ، والفخرِ ، والجبروتِ[2] ، وحبِّ المدحِ والثناءِ والعزِّ والغنىٰ ، وحبِّ دوامِ البقاءِ ، وطلبِ الاستعلاءِ على الكافَّةِ ، حتَّىٰ كأنَّهُ يريدُ أنْ يقولَ : (أنا ربُّكُمُ الأعلىٰ).

وهٰذا يتشعَّبُ منهُ جملةٌ مِنْ كبائرِ الذنوبِ ، غفلَ عنها الخلْقُ ولمْ يعدُّوها ذنوباً ، وهيَ المهلكاتُ العظيمةُ التي هيَ كالأمَّهاتِ لأكثرِ المعاصي ، كما استقصيناهُ في ربعِ المهلكاتِ .

الثانيةُ : هيَ الصفةُ الشيطانيَّةُ : التي منها يتشعَّبُ الحسدُ ، والبغيُ ، والحيلةُ ، والخداعُ ، والأمرُ بالفسادِ والمنكرِ ، وفيهِ يدخلُ الغشُّ ، والنفاقُ ، والدعوةُ إلى البدعِ والضلالِ .

الثالثةُ : الصفةُ البهيميَّةُ : ومنها يتشعَّبُ الشرهُ ، والكَلَبُ ، والحرْصُ علىٰ قضاءِ شهوةِ البطنِ والفرجِ ، ومنهُ يتشعَّبُ الزنا ، واللواطُ ، والسرقةُ ، وأكلُ مالِ الأيتامِ ، وجمعُ الحطامِ لأجلِ الشهواتِ .

الرابعةُ : الصفةُ السبعيَّةُ : ومنها يتشعَّبُ الغضبُ ، والحقدُ ، والتهجُّمُ على الناسِ بالضربِ والشتمِ والقتلِ واستهلاكِ الأموالِ ، ويتفرَّعُ عنها جملٌ مِنَ الذنوبِ .

---

(١) السكنجبين : هو مخلوط العسل والخل والسكر لدفع الصفراء ، كلمة فارسية معربة ، أصلها سِكَنْكُبين .

(٢) في غير (أ) : (والجبرية) بدل (والجبروت) ، وهما بمعنىً .

وهٰذهِ الصفاتُ لها تدريجٌ في الفطرةِ ، فالصفةُ البهيميَّةُ هيَ التي تغلبُ أوَّلاً ، ثمَّ تتلوها الصفةُ السبعيَّةُ ثانياً ، ثمَّ إذا اجتمعَتا . استعملَتا العقلَ في الخداعِ والمكرِ والحيلةِ ، وهيَ الصفةُ الشيطانيَّةُ ، ثمَّ بالآخرةِ تغلبُ الصفاتُ الربوبيَّةُ ، وهيَ الفخرُ والعزُّ والعلُوُّ ، وطلبُ الكبرياءِ ، وقصدُ الاستيلاءِ علىٰ جميعِ الخلقِ .

فهٰذهِ أمَّهاتُ الذنوبِ ومنابعُها ، ثمَّ تتفجَّرُ الذنوبُ مِنْ هٰذهِ المنابعِ على الجوارحِ ؛ فبعضُها على القلبِ خاصَّةً ؛ كالكفرِ والبدعةِ والنفاقِ وإضمارِ السوءِ للناسِ ، وبعضُها على العينِ والسمعِ ، وبعضُها على اللسانِ ، وبعضُها على البطنِ والفرجِ ، وبعضُها على اليدينِ والرجلينِ ، وبعضُها علىٰ جميعِ البدنِ ، ولا حاجةَ إلىٰ بيانِ تفصيلِ ذلكَ ، فإنَّهُ واضحٌ .

❀ ❀ ❀

قسمةٌ ثانيةٌ :

اعلمْ : أنَّ الذنوبَ تنقسمُ إلىٰ ما بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وإلىٰ ما يتعلَّقُ بحقوقِ العبادِ .

فما يتعلَّقُ بالعبدِ خاصَّةً كتركِ الصلاةِ ، والصومِ ، والواجباتِ الخاصَّةِ بهِ .

وما يتعلَّقُ بحقوقِ العبادِ كتركِهِ الزكاةَ ، وقتلِهِ النفسَ ، وغصبِهِ الأموالَ ، وشتمِهِ الأعراضَ .

وكلُّ متناوَلٍ مِنْ حقِّ الغيرِ فإمَّا نفسٌ ، أوْ طرفٌ ، أوْ مالٌ ، أوْ عرضٌ ، أوْ دِينٌ ، أوْ جاهٌ .

وتناولُ الدِّينِ بالإغواءِ ، والدعاءِ إلى البدعةِ ، والترغيبِ في المعاصي ، وتهييجِ أسبابِ الجراءةِ على اللهِ تعالىٰ ، كما يفعلُهُ بعضُ الوعَّاظِ بتغليبِ جانبِ الرجاءِ علىٰ جانبِ الخوفِ .

وما يتعلَّق بالعبادِ فالأمرُ فيهِ أغلظُ ، وما بينَ العبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ إذا لمْ يكنْ شركاً . . فالعفوُ فيهِ أرجىٰ وأقربُ ، وقدْ جاءَ في الخبرِ : « الدواوينُ ثلاثةٌ : ديوانٌ يُغفرُ ، وديوانٌ لا يُغفرُ ، وديوانٌ لا يتركُ ، فالديوانُ الذي يُغفرُ ذنوبُ العبادِ بينَهُمْ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الديوانُ الذي لا يُغفرُ . . فالشركُ باللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الديوانُ الذي لا يُتركُ . . فمظالمُ العبادِ »[1] أيْ : لا بدَّ أنْ يطالبَ بها حتَّىٰ يتفصَّىٰ عنها .

❊ ❊ ❊

قسمةٌ ثالثةٌ :

اعلمْ : أنَّ الذنوبَ تنقسمُ إلىٰ صغائرَ وكبائرَ ، وقدْ كثرَ اختلافُ الناسِ فيها ، فقالَ قائلونَ : (لا صغيرةَ ، بلْ كلُّ مخالفةٍ للهِ فهيَ كبيرةٌ)[2] ،

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٦/ ٢٤٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٢) وسيأتي قريباً قول ابن عباس رضي الله عنهما : (كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة) ، وقال القشيري في « لطائف الإشارات » (٣/ ٤٨٧) : (الذنوب كلها كبائر ؛ لأنها مخالفة =

وهٰذا ضعيفٌ[1] ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ تكفِّرُ ما بينَهُنَّ إنِ اجتنبَتِ الكبائرُ »[2] .

وفي لفظٍ آخرَ : « كفاراتٌ لما بينَهُنَّ إلا الكبائرَ »[3] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ : « الكبائرُ : الإشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدينِ ، وقتْلُ النفسِ ، واليمينُ الغموسُ »[4] .

= لأمر الله ، ولكن بعضها أكبر من بعض ، ولا شيء أعظم من الشرك) ، ونقل أبو حيان في « البحر المحيط » (٣/٢٣٣) هٰذا إذ قال : (وقد اختلفوا في ذلك ، فذهب الجمهور إلى انقسام الذنوب إلىٰ كبائر وصغائر . . . ، وذهب جماعة من الأصوليين منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وأبو المعالي وأبو نصر عبد الرحيم القشيري إلىٰ أن الذنوب كلها كبائر ، وإنما يقال لبعضها : صغيرة بالإضافة إلىٰ ما هو أكبر منها ؛ كما يقال : الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر) .

(١) انظر « المستصفىٰ » (٢/٢١٣) ، و« الإتحاف » (٨/ ٥٣٠) .

(٢) رواه مسلم (٢٣٣) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٤٧) ، ورواه أحمد في « مسنده » (٢/٣٥٩) : « كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » .

(٤) رواه البخاري (٦٦٧٥) .

واختلفَ الصحابةُ والتابعونَ في عددِ الكبائرِ مِنْ أربعٍ ، إلىٰ سبعٍ ، إلىٰ تسعٍ ، إلىٰ إحدىٰ عشرةَ ، فما فوقَ ذلكَ .

فقالَ ابنُ مسعودٍ : (هُنَّ أربعٌ)[1] .

وقالَ ابنُ عمرَ : (هُنَّ سبعٌ)[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : (هُنَّ تسعٌ)[3] .

وكانَ ابنُ عباسٍ إذا بلغَهُ قولُ ابنِ عمرَ : (الكبائرُ سبعٌ) .. يقولُ : (هُنَّ إلىٰ سبعينَ أقربُ منها إلىٰ سبعٍ)[4] .

وقالَ مرَّةً : (كلُّ ما نهى اللهُ عنهُ فهوَ كبيرةٌ)[5] .

---

(١) روى الطبراني في « الكبير » (٩/١٥٦) عنه قال : (أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله) ، وسياق المصنف هنا تبع لصاحب « القوت » (٢/١٤٨) ، وجمع غالبها الطبري في « تفسيره » (٤/٥/٥٢) .

(٢) روى الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٢٤٨) عنه قال : (الكبائر : الإشراك بالله ، وقذف المحصنة ـ قال الراوي : أقبلَ الدم ؟ قال : نعم ، ورغماً ـ وقتل النفس ، والفرار يوم الزحف ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وعقوق الوالدين) .

(٣) روى البخاري في « الأدب المفرد » (٨) عن ابن عمر لا ابن عمرو رضي الله عنهم جميعاً : (هن تسع : الإشراك بالله ، وقتل نسمة ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وإلحاد في المسجد ، والذي يستسحر ، وبكاء الوالدين من العقوق . . .) الحديث .

(٤) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٧) .

(٥) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) .

وقالَ غيرُهُ : (كلُّ ما أوعدَ اللهُ عليهِ بالنارِ فهوَ مِنَ الكبائرِ)[١] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (كلُّ ما أوجبَ الحدَّ في الدنيا فهوَ كبيرةٌ)[٢] .

وقيلَ : (إنَّها مبهمةٌ لا يُعرفُ عددُها ، كليلةِ القدْرِ ، وساعةِ يومِ الجمعةِ)[٣] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ لمَّا سُئِلَ عنها : (اقرأْ مِنْ أوَّلِ « سورةِ النساءِ » إلىٰ رأسِ ثلاثينَ آيةً منها عندَ قولِهِ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ ، فكلُّ ما نهى اللهُ عنهُ في هـٰذهِ السورةِ إلىٰ هـٰهنا فهوَ كبيرةٌ)[٤] .

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : (الكبائرُ سبعَ عشرةَ ، جمعتُها مِنْ جملةِ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٤٨) ، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن سعيد بن جبير كذلك عند الطبري في « تفسيره » (٤/٥/٥٩) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٤/٥/٥٩) عن الضحاك ومجاهد والحسن .

(٣) كذا في « القوت » (٢/١٤٨) ، وقال الشيخ ابن حجر الهيتمي في « الزواجر » (١/١٥) : (واعتمده الواحدي من أصحابنا في « بسيطه » ، فقال : الصحيح : أن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العباد به ، وإلا . . لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها ، ولكن الله عز وجل أخفىٰ ذلك عن العباد ليجتهدوا في اجتناب المنهي عنه رجاء أن تجتنب الكبائر ، ونظائره إخفاء الصلاة الوسطىٰ وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك) ، ولم يرتضه ، والمصنف رحمه الله تعالىٰ أورد هـٰذا ولم يستبعده ، بشرط أن يكون قسماً من الأقسام ، لا علىٰ إطلاقه ، وكتاب ابن حجر الهيتمي « الزواجر عن اقتراف الكبائر » أجمع كتاب في هـٰذا الباب كما ذكر الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/٥٣٥) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٤/٥/٥٢) .

الأخبارِ، وجملةُ ما اجتمعَ مِنْ قولِ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ وابنِ عمرَ وغيرِهِمْ:

أربعةٌ في القلبِ : وهيَ الشركُ باللهِ ، والإصرارُ علىٰ معصيتِهِ ، والقنوطُ مِنْ رحمتِهِ ، والأمنُ مِنْ مَكْرِهِ .

وأربعةٌ في اللسانِ : وهي شهادةُ الزورِ ، وقذفُ المحصنِ ، واليمينُ الغموسُ ؛ وهيَ التي يحقُّ بها باطلاً أوْ يبطلُ بها حقّاً ، وقيلَ : هيَ التي يقتطعُ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ باطلاً ولوْ سواكاً مِنْ أراكٍ ، وسمِّيتْ غموساً لأنَّها تغمسُ صاحبَها في النارِ ، والسحرُ ؛ وهوَ كلُّ كلامٍ يغيِّرُ الإنسانَ وسائرَ الأجسامِ عنْ موضوعاتِ الخلْقةِ .

وثلاثٌ في البطنِ : وهيَ شربُ الخمرِ والمسكرِ مِنْ كلِّ شرابٍ ، وأكلُ مالِ اليتيمِ ظلماً ، وأكلُ الربا وهوَ يعلمُ .

واثنتانِ في الفرجِ : وهما الزنا ، واللواطُ .

واثنتانِ في اليدينِ ؛ وهما القتلُ ، والسرقةُ .

وواحدةٌ في الرجلينِ : وهيَ الفرارُ مِنَ الزحفِ ، الواحدُ مِن اثنينِ ، والعشرةُ مِنْ عشرينَ .

وواحدةٌ في جميعِ الجسدِ : وهيَ عقوقُ الوالدينِ ، قالَ : وجملةُ عقوقِهِما أنْ يُقسما عليهِ في حقٍّ فلا يبرَّ قسمَهُما ، وأنْ يسألاهُ حاجةً فلا يعطيَهُما ، وأن يسبَّاهُ فيضربَهُما ، ويجوعانِ فلا يطعمُهما)[1] .

---

(١) « قوت القلوب » (٢/ ١٤٨) .

هٰذا ما قالَهُ ، وهوَ قريبٌ ، ولكنْ ليسَ يحصلُ بهِ تمامُ الشفاءِ ؛ إذْ يمكنُ الزيادةُ عليهِ والنقصانُ منهُ ، فإنَّهُ جعلَ أكلَ الربا ومالِ اليتيمِ مِنَ الكبائرِ ، وهيَ جنايةٌ على الأموالِ ، ولمْ يذكرْ في كبائرِ النفوسِ إلا القتلَ ، فأمَّا فقءُ العينينِ وقطعُ اليدينِ وغيرُ ذلكَ مِنْ تعذيبِ المسلمينَ بالضربِ وأنواعِ العذابِ . فلمْ يتعرَّضْ لهُ ، وضربُ اليتيمِ وتعذيبُهُ وقطعُ أطرافِهِ لا شكَّ في أنَّهُ أكبرُ مِنْ أكلِ مالِهِ .

كيفَ وفي الخبرِ : « مِنَ الكبائرِ السبَّتانِ بالسَّبَّةِ ، ومِنَ الكبائرِ استطالةُ الرجلِ في عرضِ أخيهِ المسلمِ »[1] ، وهٰذا زائدٌ علىٰ قذْفِ المحصنِ ؟!

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ وغيرُهُ مِنَ الصحابةِ : (إنَّكُمْ لتعملونَ أعمالاً هيَ أدقُّ في أعينِكُمْ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكبائرِ)[2] .

وقالَتْ طائفةٌ : (كلُّ عمدٍ كبيرةٌ)[3] ، (وكلُّ ما نهى اللهُ عنهُ فهوَ كبيرةٌ)[4] .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٧٧) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفيه : (من الموبقات) بدل (من الكبائر) ، وعنده (٣/ ٢٨٥) بلفظه من حديث أنس رضي الله عنه .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٤٨) .
(٤) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) .

وكشفُ الغطاءِ عنْ هـٰذا : أنَّ نظرَ الناظرِ في السرقةِ أهيَ كبيرةٌ أمْ لا . . لا يصحُّ ما لمْ يفهمْ معنى الكبيرةِ والمرادَ بها ؛ كقولِ القائلِ : (السرقةُ حرامٌ أمْ لا) لا مطمعَ في معرفتِهِ إلا بعدَ تقريرِ معنى الحرامِ أولاً ، ثمَّ البحثِ عنْ وجودِهِ في السرقةِ .

فالكبيرةُ مِنْ حيثُ اللفظُ مبهمٌ ، ليسَ لهُ موضوعٌ خاصٌّ في اللغةِ ولا في الشرعِ ، وذلكَ لأنَّ الكبيرَ والصغيرَ مِنَ المضافاتِ ، وما مِنْ ذنبٍ إلا وهوَ كبيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما دونَهُ ، وصغيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما فوقَهُ ؛ فالمضاجعةُ معَ الأجنبيةِ كبيرةٌ بالإضافةِ إلى النظرِ ، صغيرةٌ بالإضافةِ إلى الزنا ، وقطعُ يدِ المسلمِ كبيرةٌ بالإضافةِ إلىٰ ضربِهِ ، صغيرةٌ بالإضافةِ إلىٰ قتلِهِ .

نعمْ ، للإنسانِ أنْ يطلقَ علىٰ ما تُوعِّدَ بالنارِ علىٰ فعلِهِ خاصَّةً اسمَ الكبيرةِ ، ونعني بوصفِهِ بالكبيرةِ : أنَّ العقوبةَ بالنارِ عظيمةٌ ، ولهُ أنْ يطلقَ علىٰ ما أُوجبَ الحدُّ عليهِ مصيراً إلىٰ أنَّ ما عُجِّلَ عليهِ في الدنيا عقوبةٌ واجبةٌ . . عظيمٌ ، ولهُ أنْ يطلقَ علىٰ ما وردَ في نصِّ الكتابِ النهيُ عنهُ ، فيقولُ : تخصيصُهُ بالذكرِ في القرآنِ يدلُّ علىٰ عظمِهِ ، ثمَّ يكونُ عظيماً وكبيراً ـ لا محالةَ ـ بالإضافةِ ؛ إذْ منصوصاتُ القرآنِ أيضاً تتفاوتُ درجاتُها .

فهـٰذهِ الإطلاقاتُ لا حرجَ فيها ، وما نقلَ مِنْ ألفاظِ الصحابةِ يتردَّدُ بينَ هـٰذهِ الجهاتِ ، ولا يبعدُ تنزيلُها علىٰ شيءٍ مِنْ هـٰذهِ الاحتمالاتِ .

نعمْ ، مِنَ المهمَّاتِ أنْ تعلمَ معنىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ ، وقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلواتُ الخمسُ كفَّاراتٌ لما بينَهُنَّ إلا الكبائرَ »[1] ؛ فإنَّ هـٰذا إثباتُ حكمٍ للكبائرِ .

والحقُّ في ذلكَ : أنَّ الذنوبَ منقسمةٌ في نظرِ الشرعِ إلىٰ ما يعلمُ استعظامُهُ إيَّاها ، وإلىٰ ما يعلم أنَّها معدودةٌ في الصغائرِ ، وإلىٰ ما يشكُّ فيهِ فلا يُدرىٰ حكمُهُ .

فالطمعُ في معرفةِ حدٍّ حاصرٍ أوْ عددٍ جامعٍ مانعٍ طلبٌ لما لا يمكنُ ؛ فإنَّ ذلكَ لا يمكنُ إلا بالسماعِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، بأنْ يقولَ : إنِّي أردتُ بالكبائرِ عشراً ، أوْ خمساً ، ويفصِّلُها ، فإنْ لمْ يردْ هـٰذا ، بلْ وردَ في بعضِ الألفاظِ : « ثلاثٌ مِنَ الكبائرِ »[2] ، وفي بعضِها : « سبعٌ مِنَ الكبائرِ »[3] ، ثمَّ وردَ أنَّ السَّبتينِ بالسَّبَّةِ الواحدةِ مِنَ الكبائرِ[4] ، وهوَ خارجٌ عنِ السبعِ والثلاثِ . . علمَ أنَّهُ لمْ يقصدْ بهِ العددَ والحصرَ ، فكيفَ يطمعُ في عددِ ما لمْ يعدِّدْهُ الشرعُ ؟! وربَّما قصدَ الشرعُ إبهامَهُ ؛ ليكونَ العبادُ منهُ علىٰ وَجَلٍ ، كما أبهمَ ليلةَ القدْرِ ليعظمَ جدُّ الناسِ في طلبِها .

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣) .
(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .
(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٧٠٥) .
(٤) رواه أبو داوود (٤٨٧٧) .

نعمْ ، لنا سبيلٌ كلِّيٌّ يمكنُنا أنْ نعرفَ بهِ أجناسَ الكبائرِ وأنواعَها بالتحقيقِ ، وأمَّا أعيانُها . . فنعرفُها بالظنِّ والتقريبِ ، ونعرفُ أيضاً أكبرَ الكبائرِ ، فأمَّا أصغرُ الصغائرِ . . فلا سبيلَ إلىٰ معرفتِهِ .

وبيانُهُ : أنَّا نعلمُ بشواهدِ الشرعِ وأنوارِ البصائرِ جميعاً أنَّ مقصودَ الشرائعِ كلِّها سياقةُ الخلْقِ إلىٰ جوارِ اللهِ تعالىٰ وسعادةِ لقائِهِ ، وأنَّهُ لا وصولَ لهُمْ إلىٰ ذلكَ إلا بمعرفةِ اللهِ ومعرفةِ صفاتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أيْ : ليكونوا عبيداً لي ، ولا يكونُ العبدُ عبداً ما لمْ يعرفْ ربَّهُ بالربوبيَّةِ ونفسَهُ بالعبوديَّةِ ، فلا بدَّ أنْ يعرفَ نفسَهُ وربَّهُ ، فهـٰذا هوَ المقصودُ الأقصىٰ ببعثةِ الأنبياءِ .

ولكنْ لا يتمُّ هـٰذا إلا في الحياةِ الدنيا ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الدنيا مزرعةُ الآخرةِ »[1] ، فصارَ حفظُ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدينِ ؛ لأنَّهُ وسيلةٌ إليهِ .

والمتعلِّقُ مِنَ الدنيا بالآخرةِ شيئانِ ؛ النفوسُ والأموالُ ، فكلُّ ما يسدُّ بابَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ فهوَ أكبرُ الكبائرِ ، ويليهِ ما يسدُّ بابَ حياةِ النفوسِ ،

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ مرفوعاً ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » [٣/ ٨٤٣] ، وأبو بكر بن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث طارق بن أشيم : « نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته » الحديث ، وإسناده ضعيف) . « إتحاف » (٨/ ٥٣٩) .

ويلي ذلكَ ما يسدُّ بابَ المعايشِ التي بها حياةُ النفوسِ ، فهٰذهِ ثلاثُ مراتبَ.

فحفظُ المعرفةِ على القلوبِ ، والحياةِ على الأبدانِ ، والأموالِ على الأشخاصِ . . ضروريٌّ في مقصودِ الشرائعِ كلِّها ، وهٰذهِ ثلاثةُ أمورٍ لا يُتصوَّرُ أنْ يختلفَ فيها المللُ ، فلا يجوزُ أن يبعثَ اللهُ نبيّاً يريدُ ببعثتِهِ إصلاحَ الخلْقِ في دينِهِمْ ودنياهم ثمَّ يأمرُهُمْ بما يمنعُهُمْ عنْ معرفتِهِ ومعرفةِ رسلِهِ ، أوْ يأمرُهُمْ بإهلاكِ النفوسِ وإهلاكِ الأموالِ .

❁ ❁ ❁

فحصلَ مِنْ هٰذا أنَّ الكبائرَ علىٰ ثلاثِ مراتبَ :

المرتبةُ الأولىٰ : ما يمنعُ مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ رسلِهِ : وهوَ الكفرُ ، فلا كبيرةَ فوقَ الكفرِ ؛ إذِ الحجابُ بينَ العبدِ وبين اللهِ هوَ الجهلُ ، والوسيلةُ المقرِّبةُ لهُ إليهِ هيَ العلمُ والمعرفةُ ، وقربُهُ بقدْرِ معرفتِهِ ، وبعدُهُ بقدْرِ جهلهِ .

ويتلو الجهلَ الذي يسمَّىٰ كفراً الأمنُ مِنْ مكرِ اللهِ ، والقنوطُ مِنْ رحمتِهِ ، فإنَّ هٰذا أيضاً عينُ الجهلِ ، فمَنْ عرفَ اللهَ . . لمْ يُتصوَّرْ أنْ يكونَ آمناً ، ولا أنْ يكونَ آيساً .

ويتلو هٰذهِ الرتبةَ البدعُ كلُّها المتعلِّقةُ بذاتِ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، وتفاوتُها علىٰ حسَبِ تفاوتِ الجهلِ بها ، وعلىٰ حسَبِ تعلُّقِها بذاتِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ ، وبأفعالِهِ وشرائعِهِ ، وبأوامرِهِ

ونواهيهِ ، ومراتبُ ذلكَ لا تنحصرُ ، وهيَ تنقسمُ إلىٰ ما يعلمُ أنَّها داخلةٌ تحتَ ذكرِ الكبائرِ المذكورةِ في القرآنِ ، وإلىٰ ما يُعلمُ أنَّهُ لا يدخلُ ، وإلىٰ ما يُشكُّ فيهِ ، وطلبُ رفعِ الشكِّ في القسمِ المتوسطِ طمعٌ في غيرِ مطمعٍ .

❀ ❀ ❀

المرتبةُ الثانيةُ : النفوسُ : إذْ ببقائِها وحفظِها تدومُ الحياةُ ، وتحصلُ المعرفةُ باللهِ ، فقتلُ النفسِ ـ لا محالةَ ـ مِنَ الكبائرِ ، وإنْ كانَ دونَ الكفرِ ؛ لأنَّ ذلكَ يصدمُ عينَ المقصودِ ، وهـٰذا يصدمُ وسيلةَ المقصودِ ؛ إذِ الحياةُ الدنيا لا تُرادُ إلا للآخرةِ ، والتوصلُ إليها بمعرفةِ اللهِ تعالىٰ .

ويتلو هـٰذهِ الكبيرةَ قطعُ الأطرافِ ، وكلُّ ما يفضي إلى الهلاكِ ، حتَّى الضربُ ، وبعضُها أكبرُ مِنْ بعضٍ .

ويقعُ في هـٰذهِ الرتبةِ تحريمُ الزنا واللواطِ ؛ لأنَّهُ لوِ اجتمعَ الناسُ على الاكتفاءِ بالذكورِ في قضاءِ الشهواتِ . . انقطعَ النسلُ ، ورفعُ الوجودِ[1] قريبٌ مِنْ قطعِ الوجودِ ، وأمَّا الزنا . . فإنَّهُ لا يفوِّتُ أصلَ الوجودِ ، ولكنْ يشوِّشُ الأنسابَ ، ويبطلُ التوارثَ والتناصرَ ، وجملةً مِنَ الأمورِ التي لا ينتظمُ العيشُ إلا بها ، بلْ كيفَ يتمُّ النظامُ معَ إباحةِ الزنا ولا ينتظمُ أمورُ البهائمِ ما لمْ يتميَّزِ الفحلُ منها بإناثٍ يختصُّ بها عنْ سائرِ الفحولِ ؟! ولذلكَ لا يتصوَّرُ أنْ يكونَ الزنا مباحاً في شرعٍ قُصِدَ بهِ الإصلاحُ .

---

(١) في غير (أ ، س) : (ودفع الوجود) بدل (ورفع الوجود) .

وينبغي أنْ يكونَ الزنا في الرتبةِ دونَ القتلِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يفوِّتُ دوامَ الوجودِ ، ولا يمنعُ أصلَهُ ، ولكنْ يفوِّتُ تمييزَ الأنسابِ ، ويحرِّكُ مِنَ الأسبابِ ما يكادُ يفضي إلى التقاتلِ ، وينبغي أنْ يكونَ أشدَّ مِنَ اللواطِ ؛ لأنَّ الشهوةَ داعيةٌ إليهِ مِنَ الجانبينِ ، فيكثرُ وقوعُهُ ، ويعظمُ أثرُ الضررِ بكثرتِهِ .

❁ ❁ ❁

المرتبةُ الثالثةُ : الأموالُ : فإنَّها معايشُ الخلْقِ ، فلا يجوزُ تسليطُ الناسِ علىٰ تناولِها كيفَ شاؤوا حتَّىٰ بالاستيلاءِ والسرقةِ وغيرِهما ، بلْ ينبغي أنْ تحفظَ لتبقىٰ ببقائِها النفوسُ ، إلا أنَّ الأموالَ إذا أُخذَتْ . . أمكنَ استردادُها ، وإنْ أُكلَتْ . . أمكنَ تغريمُها ، فليسَ يعظمُ الأمرُ فيها .

نعمْ ، إذا جرىٰ تناولُها بطريقٍ يعسرُ التداركُ لهُ . . فينبغي أنْ يكونَ ذلكَ مِنَ الكبائرِ ، وذلكَ بأربعِ طرقٍ :

أحدُها : الخفيةُ ، وهيَ السرقةُ ، فإنَّهُ إذا لمْ يطلعْ عليهِ غالباً . . فكيفَ يتداركُ ؟

الثاني : أكلُ مالِ اليتيمِ ، وهٰذا أيضاً مِنَ الخفيةِ ، وأعني بهِ في حقِّ الوليِّ والقيِّمِ ، فإنَّهُ مؤتمنٌ فيهِ ، وليسَ لهُ خصمٌ سوى اليتيمِ ، وهوَ صغيرٌ لا يعرفُهُ ، فتعظيمُ الأمرِ فيهِ واجبٌ ، بخلافِ الغصْبِ ؛ فإنَّهُ ظاهرٌ يعرفُ ، وبخلافِ الخيانةِ في الوديعةِ ؛ فإنَّ المودِعَ خصمٌ فيهِ ينتصفُ لنفسِهِ .

الثالثُ : تفويتُها بشهادةِ الزورِ .

الرابعُ : أخذُ الوديعةِ وغيرِها باليمينِ الغموسِ .

فإنَّ هٰذهِ طرقٌ لا يمكنُ فيها التداركُ ، ولا يجوزُ أنْ تختلفَ الشرائعُ في تحريمِها أصلاً ، وبعضُها أشدُّ مِنْ بعضٍ ، وكلُّها دونَ الرتبةِ الثانيةِ المتعلِّقةِ بالنفوسِ .

وهٰذهِ الأربعةُ جديرةٌ بأنْ تكونَ مرادةً بالكبائرِ ، وإنْ لمْ يُوجبِ الشرعُ الحدَّ في بعضِها ، ولكنْ كثَّرَ الوعيدَ عليها ، وعظَّمَ في مصالحِ الدنيا تأثيرَها .

وأمَّا أكلُ الربا . . فليسَ فيهِ إلا أكلُ مالِ الغيرِ بالتراضي ، معَ الإخلالِ بشرطٍ وضعَهُ الشرعُ ، ولا يبعدُ أنْ تختلفَ الشرائعُ في مثلِهِ ، وإذا لمْ يُجعلِ الغصبُ الذي هوَ أكلُ مالِ الغيرِ بغيرِ رضاهُ وبغيرِ رضا الشرعِ مِنَ الكبائرِ . . فأكلُ الربا أكلٌ برضا المالكِ ، ولكنْ دونَ رضا الشرعِ ، وإنْ عظَّمَ الشرعُ الربا بالزجرِ عنهُ . . فقدْ عظَّمَ أيضاً الظلمَ بالغصبِ وغيرِهِ وعظَّمَ الخيانةَ ، والمصيرُ إلىٰ أنَّ أكلَ دانقٍ بالخيانةِ أوِ الغصبِ مِنَ الكبائرِ فيهِ نظرٌ ، وذلكَ واقعٌ في مظِنَّةِ الشكِّ ، وأكثرُ ميلِ الظنِّ إلىٰ أنَّهُ غيرُ داخلٍ تحتَ الكبائرِ ، بلْ ينبغي أنْ تختصَّ الكبيرةُ بما لا يجوزُ اختلافُ الشرائعِ فيهِ ؛ ليكونَ ضرورياً في الدينِ .

❁ ❁ ❁

فيبقىٰ ممَّا ذكرَهُ أبو طالبٍ المكيُّ : القذفُ ، والشربُ ، والسحرُ ،

والفرارُ مِنَ الزحفِ ، وعقوقُ الوالدينِ :

أمَّا الشربُ لما يزيلُ العقلَ : فهوَ جديرٌ بأنْ يكونَ مِنَ الكبائرِ ، وقدْ دلَّ عليهِ تشديداتُ الشرعِ وطريقُ النظرِ أيضاً ؛ لأنَّ العقلَ محفوظٌ كما أنَّ النفسَ محفوظةٌ ، بلْ لا خيرَ في النفسِ دونَ العقلِ ، فإزالةُ العقلِ مِنَ الكبائرِ ، ولكنْ هٰذا لا يجري في قطرةٍ مِنَ الخمرِ ، ولا شكَّ في أنَّهُ لوْ شربَ ماءً فيهِ قطرةٌ مِنَ الخمرِ . . لمْ يكنْ ذلكَ كبيرةً ، وإنَّما هوَ شربُ ماءٍ نجسٍ ، فالقطرةُ وحدَها في محلِّ الشكِّ ، وإيجابُ الشرعِ الحدَّ بهِ يدلُّ علىٰ تعظيمِ أمرِهِ ، فيُعدُّ ذلكَ مِنَ الكبائرِ بالشرعِ ، وليسَ في القوَّةِ البشريَّةِ الوقوفُ علىٰ جميعِ أسرارِ الشرعِ ، فإنْ ثبتَ إجماعٌ في أنَّهُ كبيرةٌ . . وجبَ الاتباعُ ، وإلا . . فللتوقفِ فيهِ مجالٌ[1] .

❀ ❀ ❀

وأمَّا القذفُ : فليسَ فيهِ إلا تناولُ الأعراضِ ، والأعراضُ دونَ الأموالِ في الرتبةِ ولتناولِها مراتبُ ، وأعظمُها التناولُ بالقذفِ بالإضافةِ إلىٰ فاحشةِ الزنا ، وقدْ عظَّمَ الشرعُ أمرَهُ ، وأظنُّ ظنّاً غالباً أنَّ الصحابةَ كانوا يعدُّونَ كلَّ ما يجبُ الحدُّ به كبيرةً ، فهوَ بهٰذا الاعتبارِ لا تكفِّرُهُ الصلواتُ الخمسُ ، وهوَ الذي نريدُهُ بالكبيرةِ الآنِ ، ولكنْ مِنْ حيثُ إنَّهُ يجوزُ أنْ تختلفَ فيهِ

---

(١) وقال ابن حجر الهيتمي في « الزواجر » (٢/ ٣١١) : (أما شرب الخمر ولو قطرة منها . . فكبيرة إجماعاً) .

الشرائعُ فالقياسُ بمجرَّدِهِ لا يدلُّ علىٰ كبرِهِ وعظمِهِ ، بلْ كانَ يجوزُ أنْ يردَ الشرعُ بأنَّ العدلَ الواحدَ إذا رأىٰ إنساناً يزني . . فلهُ أنْ يشهدَ عليهِ ، ويُجلدُ المشهودُ عليهِ بمجرَّدِ شهادتِهِ ، فإنْ لمْ تُقبلْ شهادتُهُ . . فحدُّهُ ليسَ ضرورياً في مصالحِ الدنيا ، وإنْ كانَ على الجملةِ مِنَ المصالحِ الظاهرةِ الواقعةِ في رتبةِ الحاجاتِ .

فإذاً ؛ هـٰذا أيضاً يلتحقُ بالكبائرِ في حقِّ مَنْ عرفَ حكْمَ الشرعِ ، فأمَّا مَنْ ظنَّ أنَّ لهُ أنْ يشهدَ وحدَهُ ، أوْ ظنَّ أنَّهُ يساعدُهُ على الشهادةِ غيرُهُ . . فلا ينبغي أنْ يُجعلَ في حقِّهِ مِنَ الكبائرِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا السحرُ : فإنْ كانَ فيهِ كفرٌ . . فكبيرةٌ ، وإلا . . فعظمُهُ بحسَبِ الضررِ الذي يتولَّدُ منهُ ؛ مِنْ هلاكِ نفسٍ ، أوْ مرضٍ ، أوْ غيرِهِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الفرارُ مِنَ الزحفِ وعقوقُ الوالدينِ : فهـٰذا أيضاً ينبغي أنْ يكونَ مِنْ حيثُ القياسُ في محلِّ التوقُّفِ ، وإذا قُطِعَ بأنَّ سبَّ الناسِ بكلِّ شيءٍ سوى الزنا وضرْبَهُمْ والظلمَ لهُمْ بغصْبِ أموالِهِمْ وإخراجِهِمْ مِنْ مساكنِهِمْ وبلادِهِمْ وإجلائِهِمْ مِنْ أوطانِهِمْ ليسَ مِنَ الكبائرِ ؛ إذْ لمْ يُنقلْ ذلكَ في السبعَ عشرةَ كبيرةً ، وهوَ أكثرُ ما قيلَ فيهِ . . فالتوقُّفُ في هـٰذا أيضاً غيرُ بعيدٍ ، ولكنَّ الحديثَ يدلُّ علىٰ تسميتِهِما كبيرةً ، فلتُلحقْ بالكبائرِ .

فإذاً ؛ رجعَ حاصلُ الأمرِ إلىٰ أنَّا نعني بالكبيرةِ : ما لا تكفِّرُهُ الصلواتُ الخمسُ بحكمِ الشرعِ ، وذلكَ ممَّا انقسمَ إلىٰ ما عُلِمَ أنَّهُ لا تكفِّرُهُ قطعاً ، وإلىٰ ما ينبغي أنْ تكفِّرَهُ ، وإلىٰ ما يُتوقَّفُ فيهِ ، والمتوقَّفُ فيهِ بعضُهُ مظنونٌ بالنفي والإثباتِ ، وبعضُهُ مشكوكٌ فيهِ ، وهوَ شكٌّ لا يزيلُهُ إلا نصُّ كتابٍ أو سنَّةٍ ، وإذْ لا مطمعَ فيهما . . فطلبُ رفعِ الشكِّ فيهما محالٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهـٰذا إقامةُ برهانٍ على استحالةِ معرفةِ حدِّها ، فكيفَ يَرِدُ الشرعُ بما يستحيلُ معرفةُ حدِّهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ كلَّ ما لا يتعلَّقُ بهِ حكْمٌ في الدنيا فيجوزُ أنْ يتطرَّقَ إليهِ الإبهامُ ؛ لأنَّ دارَ التكليفِ هيَ دارُ الدنيا ، والكبيرةُ على الخصوصِ لا حكمَ لها في الدنيا مِنْ حيثُ إنَّها كبيرةٌ ، بلْ كلُّ موجباتِ الحدودِ معلومةٌ بأسمائِها ؛ كالسرقةِ والزنا وغيرِهِما ، وإنَّما حكمُ الكبيرةِ أنَّ الصلواتِ الخمسَ لا تكفِّرُها ، وهـٰذا أمرٌ يتعلَّقُ بالآخرةِ ، والإبهامُ أليقُ بهِ ؛ حتَّىٰ يكونَ الناسُ علىٰ وَجَلٍ وحذرٍ ، فلا يتجرؤونَ على الصغائرِ اعتماداً على الصلواتِ الخمسِ ، وكذلكَ اجتنابُ الكبائرِ يكفِّرُ الصغائرَ بموجبِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ .

ولكنَّ اجتنابَ الكبيرةِ إنَّما يكفِّرُ الصغيرةَ إذا اجتنبَها معَ القدرةِ والإرادةِ ، كمَنْ يتمكَّنُ مِنِ امرأةٍ ومِنْ مواقعتِها ، فيكفُّ نفسَهُ عنِ الوقاعِ ويقتصرُ علىٰ

نظرٍ أو لمسٍ ؛ فإنَّ مجاهدةَ نفسِهِ في الكفِّ عنِ الوقاعِ أشدُّ تأثيراً في تنويرِ قلبِهِ مِنْ إقدامِهِ على النظرِ في إظلامِهِ ، فهٰذا معنىٰ تكفيرِهِ ، فإنْ كانَ عنِّيناً ، أو لمْ يكنِ امتناعُهُ إلا بالضرورةِ للعجزِ ، أوْ كانَ قادراً ولكنِ امتنعَ لخوفِ أمرٍ آخرَ . . فهٰذا لا يصلحُ للتكفيرِ أصلاً .

وكلُّ مَنْ لا يشتهي الخمرَ بطبعِهِ ، ولوْ أُبيحَ لهُ . . لما شربَهُ ؛ فاجتنابُهُ لا يكفِّرُ عنهُ الصغائرَ التي هيَ مِنْ مقدِّماتِهِ ؛ كسماعِ الملاهي والأوتارِ .

نعمْ ، مَنْ يشتهي الخمرَ وسماعَ الأوتارِ ، فيمسكُ نفسَهُ بالمجاهدةِ عنِ الخمرِ ، ويطلقُها في السماعِ . . فمجاهدةُ النفسِ بالكفِّ ربَّما تمحو عنْ قلبِهِ الظلمةَ التي ارتفعَتْ إليهِ مِنْ معصيةِ السماعِ .

وكلُّ هٰذهِ أحكامٌ أخرويَّةٌ يجوزُ أنْ يبقىٰ بعضُها في محلِّ الشكِّ ، وتكونَ مِنَ المتشابهاتِ ، ولا يُعرفُ تفصيلُها إلا بالنصِّ ، ولمْ يردِ النصُّ بعددٍ ولا حدٍّ جامعٍ ، بلْ وردَ بألفاظٍ متفرِّقةٍ مختلفةٍ ، فقدْ روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « الصلاةُ إلى الصلاةِ كفارةٌ ، ورمضانُ إلىٰ رمضانَ كفارةٌ ، إلا مِنْ ثلاثٍ : إشراكٍ باللهِ ، وتركِ السنَّةِ ، ونكثِ الصفقةِ » ، قيلَ : وما تركُ السنَّةِ ؟ قالَ : « الخروجُ مِنَ الجماعةِ ، ونكثُ الصفقةِ أنْ يبايعَ رجلاً ثمَّ يخرجَ عليهِ بالسيفِ يقاتلُهُ »[1] ، فهٰذا

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٢٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٥٩) .

وأمثالُهُ مِنَ الألفاظِ لا يحيطُ بالعددِ كلِّهِ ، ولا يدلُّ علىٰ حدٍّ جامعٍ ، فيبقىٰ ـ لا محالةَ ـ مبهماً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : الشهادةُ لا تُقبلُ إلا ممَّنْ يجتنبُ الكبائرَ ، والورعُ عنِ الصغائرِ ليسَ شرطاً في قبولِ الشهادةِ ، وهـٰذا مِنْ أحكامِ الدنيا .

فاعلمْ : أنَّا لا نخصِّصُ ردَّ الشهادةِ بالكبائرِ ، فلا خلافَ في أنَّ مَنْ يسمعُ الملاهيَ ، ويلبسُ الديباجَ ، ويتختَّمُ بخاتمِ الذهبِ ، ويشربُ مِنْ أواني الذهبِ والفضةِ . . لا تقبلُ شهادتُهُ ، ولمْ يذهبْ أحدٌ إلىٰ أنَّ هـٰذهِ الأمورَ مِنَ الكبائرِ .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا شربَ الحنفيُّ النبيذَ . . حددتُهُ ولمْ أردَّ شهادتَهُ) ، فقدْ جعلَهُ كبيرةً بإيجابِ الحدِّ عليهِ ، ولمْ يردَّ بهِ الشهادةَ ، فدلَّ علىٰ أنَّ الشهادةَ نفياً وإثباتاً لا تدورُ على الصغائرِ والكبائرِ .

بلْ كلُّ الذنوبِ تقدحُ في العدالةِ ، إلا ما لا يخلو الإنسانُ عنهُ غالباً بضرورةِ مجاري العاداتِ ؛ كالغيبةِ ، والتجسُّسِ ، وسوءِ الظنِّ ، والكذبِ في بعضِ الأقوالِ ، وسماعِ الغيبةِ ، وتركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، وأكلِ الشبهاتِ ، وسبِّ الولدِ والغلامِ ، وضربِهِما بحكمِ الغضبِ زائداً علىٰ حدِّ المصلحةِ ، وإكرامِ السلاطينِ الظلمةِ ، ومصادقةِ الفجَّارِ ، والتكاسلِ عنْ تعليمِ الأهلِ والولدِ جميعَ ما يحتاجونَ إليهِ مِنْ أمرِ الدينِ ؛

فهٰذهِ ذنوبٌ لا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ الشاهدُ عنْ قليلِها أوْ كثيرِها إلا بأنْ يعتزلَ الناسَ ، ويتجرَّدَ لأمرِ الآخرةِ ، ويجاهدَ نفسَهُ مدَّةً ، بحيثُ يبقىٰ علىٰ سجيتِهِ[1] معَ المخالطةِ بعدَ ذلكَ ، ولوْ لمْ يُقبلْ إلا قولُ مثلِهِ . . لعزَّ وجودُهُ ، وبطلَتِ الأحكامُ والشهاداتُ ، وليسَ لبسُ الحريرِ ، وسماعُ الملاهي ، واللعبُ بالنردِ ، ومجالسةُ أهلِ الشَّرْبِ في وقتِ الشربِ ، والخلوةُ بالأجنبياتِ ، وأمثالُ هٰذهِ الصغائرِ . . مِنْ هٰذا القبيلِ ، فإلىٰ مثلِ هٰذا المنهاجِ ينبغي أنْ يُنظرَ في قبولِ الشهادةِ وردِّها ، لا إلى الكبيرةِ والصغيرةِ .

ثمَّ آحادُ هٰذهِ الصغائرِ التي لا تُردُّ الشهادةُ بها . . لوْ واظبَ عليها لأثَّرَتْ في ردِّ الشهادةِ ؛ كمنِ اتخذَ الغيبةَ وثلْبَ الناسِ عادةً ، وكذلكَ مجالسةُ الفجَّارِ ومصادقتُهُمْ .

والصغيرةُ تكبرُ بالمواظبةِ ؛ كما أنَّ المباحَ يصيرُ صغيرةً بالمواظبةِ ، كاللعبِ بالشطرنجِ ، والترنُّمِ بالغناءِ على الدوامِ ، وغيرِهِ .

فهٰذا بيانُ حكمِ الصغائرِ والكبائرِ .

* * *

---

(١) في غير (أ) : (سمته) بدل (سجيته) .

بيان كيفيّة توزّع الدّرجات والدّركات في الآخرة على الحسنات والسّيئات في الدّنيا

اعلمْ : أنَّ الدنيا مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، والآخرةَ مِنْ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، وأعني بالدنيا : حالتَكَ قبلَ الموتِ ، وبالآخرةِ : حالتَكَ بعدَ الموتِ ، فدنياكَ وآخرتُكَ صفاتُكَ وأحوالُكَ ، يسمَّى القريبُ الداني منها دنيا ، والمتأخِّرُ آخرةً .

ونحنُ الآنَ نتكلَّمُ مِنَ الدنيا في الآخرةِ ، فإنَّا الآنَ في الدنيا وهيَ عالمُ الملكِ ، وغرضُنا شرحُ الآخرةِ وهيَ عالمُ الملكوتِ ، ولا يُتصوَّرُ شرحُ عالمِ الملكوتِ في عالمِ الملكِ إلا بضربِ الأمثالِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ ، وهٰذا لأنَّ عالمَ الملكِ نومٌ بالإضافةِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا »[1] ، وما سيكونُ في اليقظةِ لا يتبيَّنُ لكَ في النومِ إلا بضربِ الأمثالِ المحوجةِ إلى التعبيرِ ، فكذلكَ ما سيكونُ في

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما يعزىٰ إلىٰ علي بن أبي طالب) ، قال الحافظ الزبيدي : (وهكذا أورده الشريف الموسوي في « نهج البلاغة » من كلام أمير المؤمنين ، وذكره أبو نعيم في « الحلية » [٧/٥٢] في ترجمة سفيان الثوري) . « إتحاف » (٨/٥٤٨) .

يقظةِ الآخرةِ لا يتبيَّنُ في نومِ الدنيا إلا في كسوةِ الأمثالِ ، وأعني بكسوةِ الأمثالِ : ما تعرفهُ مِنْ علمِ التعبيرِ[١] .

ويكفيكَ منهُ إنْ كنتَ فطناً ثلاثةُ أمثلةٍ :

فقدْ جاءَ رجلٌ إلى ابنِ سيرينَ[٢] فقالَ : رأيتُ كأنَّ في يدي خاتماً أختمُ بهِ أفواهَ الرجالِ وفروجَ النساءِ ، فقالَ : إنَّكَ مؤذِّنٌ تؤذِّنُ في رمضانَ قبلَ طلوعِ الفجرِ ، قالَ : صدقتَ .

وجاءَ رجلٌ آخرُ فقالَ : رأيتُ كأنِّي أصبُّ الزيتَ في الزيتونِ ، فقالَ : إنْ كانَ تحتكَ جاريةٌ اشتريتَها . . ففتِّشْ عنْ حالِها ؛ فإنَّها أمُّكَ سُبيَتْ في صغرِكَ ؛ لأنَّ الزيتونَ أصلُ الزيتِ ، فهوَ ردٌّ إلى الأصلِ ، فنظرَ ، فإذا جاريتُهُ كانَتْ أمَّهُ وقدْ سبيَتْ في صغرِهِ .

وقالَ لهُ آخرُ : رأيتُ كأنِّي أقلِّدُ الدرَّ في أعناقِ الخنازيرِ ، فقالَ : إنَّكَ تعلِّمُ الحكمةَ غيرَ أهلِها ، فكانَ كما قالَ .

والتعبيرُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ مثالٌ يعرِّفُكَ طريقَ ضربِ الأمثالِ ، وإنَّما نعني بالمثالِ أداءَ المعنىٰ في صورةٍ إنْ نُظِرَ إلىٰ معناهُ . . وُجِدَ صادقاً ، وإن نُظِرَ إلىٰ صورتِهِ . . وُجِدَ كاذباً ، فالمؤذِّنُ إنْ نظرَ إلىٰ صورةِ الخاتمِ والختْمِ بهِ على

---

(١) انظر للمصنف « مشكاة الأنوار » (ص٥٢) .

(٢) التابعي البصري الثقة ، رأس المعبرين رحمه الله تعالىٰ ، وكان يضاهي الحسن في علمه وورعه ، وفيه القول المشهور الذي يستدل به علىٰ (أو) للتخيير : جالس الحسن أو ابن سيرين . « إتحاف » (٨/٥٤٨) .

الفروجِ . . رآهُ كاذباً ؛ فإنَّهُ لمْ يختمْ بهِ قطُّ ، وإنْ نظرَ إلىٰ معناهُ . . وجدَهُ صادقاً ؛ إذْ قدْ صدرَ منهُ روحُ الختمِ ومعناهُ ، وهوَ المنعُ الذي يرادُ الختمُ لهُ .

وليسَ للأنبياءِ أنْ يتكلَّموا معَ الخلْقِ إلا بضربِ الأمثالِ ؛ لأنَّهُمْ كُلِّفوا أنْ يكلِّموا الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، وقدْرُ عقولِهِمْ أنَّهُمْ في النومِ ، والنائمُ لا يُكشفُ لهُ عنْ شيءٍ إلا بمثالٍ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا وعرفوا أنَّ المثلَ صادقٌ .

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ »[1] ، وهوَ مِنَ المثالِ الذي لا يعقلُهُ إلا العالمونَ ، فأمَّا الجاهلُ . . فلا يجاوزُ قدْرُهُ ظاهرَ المثالِ ؛ لجهلِهِ بالتفسيرِ الذي يُسمَّىٰ تأويلاً ؛ كما يُسمَّىٰ تفسيرُ ما يُرىٰ مِنَ الأمثلةِ في النومِ تعبيراً ، فيثبتُ للهِ تعالىٰ يداً وإصبعاً ، تعالى اللهُ عنْ قولِهِ علوّاً كبيراً .

وكذلكَ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ »[2] ، فإنَّه لا يفهمُ مِنَ الصورةِ إلا اللونَ والشكلَ والهيئةَ ، فيثبتُ للهِ تعالىٰ مثلَ ذلكَ ، تعالى اللهُ عنْ قولِهِ علوّاً كبيراً .

ومِنْ هـٰهنا زلَّ مَنْ زلَّ في صفاتِ الإلـٰهيَّةِ ، حتَّىٰ في الكلامِ ، وجعلوهُ صوتاً وحرفاً ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الصفاتِ ، والقولُ فيهِ يطولُ .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٦١٢/١١٥) ، وبيَّن بعض سرِّه في « مشكاة الأنوار » (ص٥٩) ، وسيأتي قريباً الحديث عنه .

وكذلكَ قدْ يردُ في أمرِ الآخرةِ ضربُ أمثلةٍ يكذِّبُ بها الملحدُ ؛ لجمودِ نظرِهِ علىٰ ظاهرِ المثالِ ، وتناقضِهِ عندَهُ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ بالموتِ يومَ القيامةِ في صورةِ كبشٍ أملحَ فيذبحُ »[1] ، فيثورُ الملحدُ الأحمقُ ويكذِّبُ بهِ ، ويستدلُّ بهِ علىٰ كذبِ الأنبياءِ ، ويقولُ : يا سبحانَ اللهِ ! الموتُ عرضٌ ، والكبشُ جسمٌ ، فكيفَ ينقلبُ العرضُ جسماً ؟ وهلْ هٰذا إلا محالٌ ؟!

ولكنَّ اللهَ تعالىٰ عزلَ هؤلاءِ الحمقىٰ عنْ معرفةِ أسرارِهِ فقالَ : ﴿ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ ولا يدري المسكينُ أنَّ مَنْ قالَ : رأيتُ في منامي أنَّهُ جِيءَ بكبشٍ ، وقيلَ : هٰذا هوَ الوباءُ الذي في البلدِ ، وذبحَ ، فقالَ المعبِّرُ : صدقتَ ، والأمرُ كما رأيتَ ، وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ هٰذا الوباءَ ينقطعُ ولا يعودُ قطُّ ؛ لأنَّ المذبوحَ وقعَ اليأسُ عنهُ .

فإذاً ؛ المعبِّرُ صادقٌ في تعبيرِهِ[2] ، وهوَ صادقٌ في رؤيتِهِ ، وترجعُ حقيقتُهُ إلىٰ أنَّ الملكَ الموكَّلَ بالرؤيا ـ وهوَ الذي يُطْلِعُ الأرواحَ عندَ النومِ علىٰ ما في اللوحِ المحفوظِ ـ عرَّفَهُ ما في اللوحِ المحفوظِ بمثالٍ ضربَهُ لهُ ؛ لأنَّ النائمَ إنَّما يحتملُ المثالَ ، فكانَ مثالُهُ صادقاً ، وكانَ معناهُ صحيحاً .

فالرسلُ أيضاً إنَّما يكلِّمونَ الناسَ في الدنيا ، وهيَ بالإضافةِ إلى الآخرةِ

---

(1) رواه البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) .

(2) في غير (د ، س) : (في تصديقه) بدل (في تعبيره) .

نومٌ ، فيوصلونَ المعانيَ إلىٰ أفهامِهِمْ بالأمثلةِ ؛ حكمةً مِنَ اللهِ ، ولطفاً بعبادِهِ ، وتيسيراً لإدراكِ ما يعجزونَ عنْ إدراكِهِ دونَ ضربِ المثلِ ، فقولُهُ : « يُؤتىٰ بالموتِ في صورةِ كبشٍ أملحَ » مثالٌ ضربَهُ ليوصلَ إلى الأفهامِ حصولَ اليأسِ مِنَ الموتِ ، وقدْ جُبلَتِ القلوبُ على التأثُّرِ بالأمثلةِ ، وثبوتِ المعاني فيها بواسطتِها ، ولذلكَ عبَّرَ القرآنُ بقولِهِ : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ عنْ نهايةِ القدرةِ ، وعبَّرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « قلبُ المؤمنِ بين إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ »[1] عنْ سرعةِ التقليبِ ، وقدْ أشرنا إلىٰ حكمةِ ذلكَ في كتابِ قواعدِ العقائدِ مِنْ ربعِ العباداتِ ، فلنرجعِ الآنَ إلى الغرضِ .

فالمقصودُ : أنَّ تعريفَ توزُّعِ الدرجاتِ والدركاتِ على الحسناتِ والسيئاتِ لا يمكنُ أنْ يفهمَ إلا بضربِ الأمثالِ ، فليُفهمْ مِنَ المثالِ الذي نضربُهُ معناهُ لا صورتُهُ ، فنقولُ :

الناسُ في الآخرةِ ينقسمونَ أصنافاً ، وتتفاوتُ درجاتُهُمْ ودركاتُهُمْ في السعادةِ والشقاوةِ تفاوتاً لا يدخلُ تحتَ الحصرِ ، كما تفاوتوا في سعادةِ الدنيا وشقاوتِها ، ولا تفارقُ الآخرةُ الدنيا في هـٰذا المعنىٰ أصلاً ألبتةَ ؛ فإنَّ مدبِّرَ الملكِ والملكوتِ واحدٌ لا شريكَ لهُ ، وسنَّتُهُ الصادرةُ عنْ إرادتِهِ الأزليَّةِ مطردةٌ لا تبديلَ لها ، إلا أنَّا إنْ عجزنا عنْ إحصاءِ آحادِ الدرجاتِ . . فلا نعجزُ عنْ إحصاءِ الأجناسِ ، فنقولُ :

---

(١) تقدم قريباً .

الناسُ في الآخرةِ ينقسمونَ بالضرورةِ إلىٰ أربعةِ أقسامٍ : هالكينَ ، ومعذَّبينَ ، وناجينَ ، وفائزينَ[1] .

ومثالُهُ في الدنيا : أنْ يستوليَ مَلكٌ مِنَ الملوكِ علىٰ إقليمٍ ، فيقتلَ بعضَهُمْ فهُمُ الهالكونَ ، ويعذِّبَ بعضَهُمْ مدَّةً ولا يقتلَهُمْ فهُمُ المعذَّبونَ ، ويخليَ بعضَهُمْ فهُمُ الناجونَ ، ويخلعَ علىٰ بعضِهِمْ فهُمُ الفائزونَ .

فإنْ كانَ الملكُ عادلاً . . لمْ يقسمْهُمْ كذلكَ إلا باستحقاقٍ ، فلا يقتلُ إلا جاحداً لاستحقاقِهِ الملكَ ، معانداً لهُ في أصلِ الدولةِ ، ولا يعذِّبُ إلا مَنْ قصَّرَ في خدمتِهِ معَ الاعترافِ بملكِهِ وعلوِّ درجتِهِ ، ولا يخلي إلا معترفاً لهُ برتبةِ الملكِ لكنَّهُ لمْ يقصِّرْ ليعذَّبَ ولمْ يخدمْ ليخلعَ عليهِ ، ولا يخلعُ إلا علىٰ مَنْ أبلىٰ عذْرَهُ في الخدمةِ والنصرةِ[2] .

ثمَّ ينبغي أنْ تكونَ خِلَعُ الفائزينَ متفاوتةَ الدرجاتِ بحسَبِ درجاتِ خدمتِهِمْ ، وإهلاكُ الهالكينَ إمَّا تخفيفاً بحزِّ الرقبةِ ، أوْ تنكيلاً بالمُثْلةِ بحسَبِ

---

(١) لأنهم لا يخلون عن سعادة أو شقاوة ، والشقاوة إن كانت بالشرك والكفر وجحود صفات الربوبية . . فهم الهالكون ، فإن كان مع وجود الإقرار بالربوبية نوع عصيان ومخالفة . . فهم المعذبون ، والسعادة إن كانت بالإيمان بالله وبما جاء به الرسل . . فهم الناجون ، فإن كان مع ذلك نبذ الدنيا وإقبال على الله بالكلية . . فهم الفائزون ، فهـٰذا وجه الحصر في الأقسام المذكورة . « إتحاف » (٨/ ٥٥١) .

(٢) أبلىٰ في قوله : (أبلىٰ عذره) بمعنىٰ أظهر ؛ كما يقال : فلان أبلىٰ في الحرب ؛ أي : أظهر بأسه ، وقال المطرّزي في « المغرب » (ب ل ي) : (وقوله : أبلىٰ عذره إلا أنه مجارف ؛ أي : اجتهد في العمل إلا أنه مجدود غير مرزوق) .

درجاتِ معانداتِهِمْ ، وتعذيبُ المعذَّبينَ في الخفَّةِ والشدَّةِ ، وطولِ المدَّةِ وقصرِها ، واتحادِ أنواعِها واختلافِها . . بحسبِ درجاتِ تقصيرِهِمْ ، فتنقسمُ كلُّ رتبةٍ مِنْ هٰذهِ الرتبِ إلىٰ درجاتٍ لا تحصىٰ ولا تنحصرُ ، فكذلكَ فافهمْ أنَّ الناسَ في الآخرةِ هٰكذا يتفاوتونَ ؛ فمِنْ هالكٍ ، ومِنْ معذَّبٍ مدَّةً ، ومِنْ ناجٍ يحلُّ في دارِ السلامةِ ، ومِنْ فائزٍ .

والفائزونَ ينقسمونَ إلىٰ مَنْ يحلونَ في جناتِ عدنٍ ، أوْ جناتِ المأوىٰ ، أوْ جناتِ الفردوسِ ، والمعذَّبونَ ينقسمونَ إلىٰ مَنْ يُعذَّبُ قليلاً ، وإلىٰ مَنْ يُعذَّبَ ألفَ سنةٍ إلىٰ سبعةِ آلافِ سنةٍ ، وذلكَ آخرُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ كما وردَ في الخبرِ[1] ، وكذلكَ الهالكونَ الآيسونَ مِنْ رحمةِ اللهِ تتفاوتُ دركاتُهُمْ ، وهٰذهِ الدرجاتُ والدركاتُ بحسَبِ اختلافِ الطاعاتِ والمعاصي ، فلنذكرْ كيفيَّةَ توزُّعِها عليها .



---

(1) هٰذا المعنىٰ عند صاحب « القوت » (٢/ ١٥٠) ولفظه : (وقد جاء في الخبر : « آخر من يخرج من النار وهو أيضاً آخر من يدخل الجنة » ، فلعله ـ والله أعلم ـ بعد سبعة آلاف سنة) ، وكان قد روىٰ قبله خبراً عن أبي سعيد الخدري أو غيره من الصحابة كما ذكر : (والله ؛ لا يخرج عبد من النار بعد أن دخلها حتىٰ يقيم فيها سبعة آلاف سنة) .
وحديث « آخر من يدخل الجنة » دون ذكر المدة عند مسلم (١٨٧) ، وجاء عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلىٰ يوم أفنيت ، وذلك سبعة آلاف سنة » .

أمّا الرتبةُ الأولىٰ : وهيَ الهُلاَّكُ :

ونعني بالهُلاَّكِ : الآيسينَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ؛ إذِ الذي قتلَهُ الملكُ في المثالِ الذي ضربناهُ أيسَ مِنْ رضا الملكِ وإكرامِهِ ، فلا تغفُلْ عنْ معاني المثالِ .

وهـٰذهِ الدرجةُ لا تكونُ إلا للجاحدينَ والمعرضينَ ، المتجرِّدينَ للدنيا ، المكذِّبينَ باللهِ ورسلِهِ وكتبِهِ ؛ فإنَّ السعادةَ الأخرويَّةَ في القرْبِ مِنَ اللهِ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ ، وذلكَ لا يُنالُ أصلاً إلا بالمعرفةِ التي يعبَّرُ عنها بالإيمانِ والتصديقِ ، والجاحدونَ همُ المنكرونَ ، والمكذِّبونَ همُ الآيسونَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ أبدَ الآبادِ ، وهمُ الذينَ يكذِّبونَ بربِّ العالمينَ وبأنبيائِهِ المرسلينَ ، وهمْ عنْ ربِّهِمْ يومئذٍ محجوبونَ لا محالةَ ، وكلُّ محجوبٍ عنْ محبوبِهِ فمحولٌ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ، فهوَ ـ لا محالةَ ـ يكونُ محترقاً معَ جهنَّمَ بنارِ الفراقِ .

ولذلكَ قالَ العارفونَ : (ليسَ خوفُنا مِنْ نارِ جهنَّمَ ، ولا رجاؤُنا للحورِ العينِ ، وإنَّما مطلبُنا اللقاءُ ، ومهربُنا مِنَ الحجابِ فقطْ)[1] .

وقالوا : مَنْ يعبدُ اللهَ لعوضٍ . . فهوَ لئيمٌ ؛ كأنْ يعبدَهُ لطلبِ جنَّتِهِ أوْ

---

(١) وهـٰذا كقول علي بن الموفق الذي رواه البيهقي في « الشعب » (٤٢٧) : (اللهمَّ ؛ إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك ، فعذبني بها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك حبّاً مني لجنتك وشوقاً إليها . . فاحرمنيها ، وإن كنت تعلم أني إنما أعبدك حبّاً مني لك وشوقاً إلىٰ وجهك الكريم . . فأبحنيه مرّة واصنع ما شئت) .

لخوفِ نارِهِ ، بلِ العارفُ يعبدُهُ لذاتِهِ ، فلا يطلبُ إلا ذاتَهُ فقطْ ، فأمَّا الحورُ العينُ والفواكهُ . . فقدْ لا يشتهيها ، وأمَّا النارُ . . فقدْ لا يتَّقيها ؛ إذْ نارُ الفراقِ إذا استولَتْ . . ربَّما غلبَتِ النارَ المحرقةَ للأجسامِ ، فإنَّ نارَ الفراقِ هيَ نارُ اللهِ الموقدةُ ، التي تطلعُ على الأفئدةِ ، ونارُ جهنَّمَ لا شغلَ لها إلا معَ الأجسامِ، وألمُ الأجسامِ يستحقرُ معَ ألمِ الفؤادِ ، ولذلكَ قيلَ[1] : [من المنسرح]

فَفِي فُؤادِ ٱلْمُحِبِّ نارُ جَوىً أَحَرُّ نارِ ٱلْجَحِيمِ أَبْرَدُها

ولا ينبغي أنْ تنكرَ هٰذا في عالمِ الآخرةِ ؛ إذْ لهُ نظيرٌ مشاهدٌ في عالمِ الدنيا ، فقدْ رُئِيَ مَنْ غلبَ عليهِ الوجدُ فعدا على النارِ ، وعلىٰ أصولِ القصبِ الجارحةِ للقدمِ ، وهوَ لا يحسُّ بهِ لفرطِ غلبةِ ما في قلبِهِ[2] ، وترى الغضبانَ يستولي عليهِ الغضبُ في القتالِ ، فتصيبُهُ جراحاتٌ وهوَ لا يشعرُ بها في الحالِ ؛ لأنَّ الغضبَ نارٌ في القلبِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الغضبُ قطعةٌ مِنَ النارِ »[3] .

واحتراقُ الفؤادِ أشدُّ مِنِ احتراقِ الأجسادِ ، والأشدُّ يبطلُ الإحساسَ بالأضعفِ كما تراهُ ، فليس التألُّمُ مِنَ النارِ والسيفِ إلا مِنْ حيثُ إنَّهُ يفرِّقُ بينَ

---

(١) البيت للمتنبي ، في « ديوانه بشرح العكبري » (١/ ٢٩٦) .

(٢) وهو أبو الحسين النوري ، وقد روىٰ قصته الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/ ٣٤٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٤) ، وأوردها الطوسي في « اللمع » (ص ٣٦٣) .

(٣) رواه الترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم . . . » .

جزأينِ يرتبطُ أحدُهُما بالآخرِ برابطةِ التأليفِ الممكنِ في الأجسامِ ، فالذي يفرِّقُ بينَ القلبِ وبينَ محبوبِهِ المرتبطِ بهِ برابطةِ تأليفٍ أشدَّ إحكاماً مِنْ تأليفِ الأجسامِ . . فهوَ أشدُّ إيلاماً إنْ كنتَ مِنْ أربابِ البصائرِ وأربابِ القلوبِ .

ولا يبعدُ ألا يدركَ مَنْ لا قلبَ لهُ شدَّةَ هـٰذا الألمِ ، ويستحقرَهُ بالإضافةِ إلىٰ ألمِ الجسمِ ، فالصبيُّ لوْ خيِّرَ بينَ ألمِ الحرمانِ عنِ الكرةِ والصولجانِ وبينَ ألمِ الحرمانِ عنْ رتبةِ السلطانِ . . لمْ يحسَّ بألمِ الحرمانِ عنْ رتبةِ السلطانِ أصلاً ، ولمْ يعدَّ ذاكَ ألماً ، بلْ قالَ : العدْوُ في الميدانِ معَ الصولجانِ أحبُّ إليَّ مِنْ سريرِ ألفِ سلطانٍ معَ الجلوسِ عليهِ ، بلْ مَنْ تغلبُهُ شهوةُ البطنِ لوْ خيِّرَ بينَ الهريسةِ والحلواءِ وبينَ فعلٍ جميلٍ يقهرُ بهِ الأعداءَ ويفرِحُ بهِ الأصدقاءَ . . لآثرَ الهريسةَ والحلواءَ .

وهـٰذا كلُّهُ لفقدِ المعنى الذي بوجودِهِ يصيرُ الجاهُ محبوباً ، ووجودِ المعنى الذي بوجودِهِ يصيرُ الطعامُ لذيذاً ، وذلكَ لمَنِ استرقَّتْهُ صفاتُ البهائمِ والسباعِ ، ولمْ تظهرْ فيهِ صفاتُ الملائكةِ التي لا يناسبُها ولا يلذُّ لها إلا القربُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، ولا يؤلمُها إلا البعدُ والحجابُ .

وكما لا يكونُ الذوقُ إلا في اللسانِ والسمعُ إلا في الآذانِ . . فلا تكونُ هـٰذهِ الصفةُ إلا في القلبِ ، فمَنْ لا قلبَ لهُ ليسَ لهُ هـٰذا الحسُّ ، كمَنْ لا سمعَ لهُ ولا بصرَ ليسَ لهُ لذَّةُ الألحانِ ، وحسنُ الصورِ والألوانِ .

وليسَ لكلِّ إنسانٍ قلبٌ ، ولوْ كانَ . . لما صحَّ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ ، فجعلَ مَنْ لمْ يتذكَّرْ بالقرآنِ مفلساً مِنَ القلبِ ، ولستُ أعني بالقلبِ هٰذا الذي تكتنفُهُ عظامُ الصدرِ مِنْ عالمِ الخلقِ ، بلْ أعني بهِ السرَّ الذي هوَ مِنْ عالمِ الأمرِ ، وهٰذا اللحمُ الذي هوَ مِنْ عالمِ الخلقِ عرشُهُ ، والصدرُ كرسيُّهُ[1] ، وسائرُ الأعضاءِ عالمُهُ ومملكتُهُ ، وللهِ الخلْقُ والأمرُ جميعاً ، ولكنَّ ذلكَ السرَّ الذي قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ هوَ الملكُ والأميرُ ؛ لأنَّ بينَ عالمِ الأمرِ وبينَ عالمِ الخلقِ ترتيباً ، وعالمُ الأمرِ أميرٌ علىٰ عالمِ الخلقِ ، وهيَ اللطيفةُ التي إذا صلحَتْ . . صلحَ لها سائرُ الجسدِ ، مَنْ عرفَها . . فقدْ عرفَ نفسَهُ ، ومَنْ عرفَ نفسَهُ . . فقدْ عرفَ ربَّهُ ، وعندَ ذلكَ يشَمُّ العبدُ مباديَ روائحِ المعنى المطويِّ تحتَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ علىٰ صورتِهِ »[2] ، ونظرَ بعينِ الرحمةِ إلى الجامدينَ علىٰ ظاهرِ لفظِهِ ، وإلى المتعسِّفينَ في طرقِ تأويلِهِ ، وإنْ كانَتْ رحمتُهُ على الجامدِ على اللفظِ أكثرَ مِنْ رحمتِهِ على المتعسِّفِ في التأويلِ ؛ لأنَّ الرحمةَ علىٰ قدْرِ المصيبةِ ، ومصيبةُ أولئكَ أكثرُ وإنِ اشتركوا في مصيبةِ الحرمانِ عنْ حقيقةِ الأمرِ ، فالحقيقةُ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ ، وهيَ حكمتُهُ يختصُّ بها مَنْ يريدُ ، ومَنْ يؤتَ الحكمةَ فقدْ أوتيَ خيراً كثيراً .

---

(١) تقدم هٰذا من قول سهل بن عبد الله ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ٢٣١) .
(٢) رواه مسلم (٢٦١٢/ ١١٥) .

ولنعدْ إلى الغرضِ ، فقدْ أرخينا الطِّوَلَ[1] ، وطوَّلْنا النَّفسَ في أمرٍ هوَ أعلىٰ مِنْ علومِ المعاملةِ التي نقصدُها في هـٰذا الكتابِ ، فقدْ ظهرَ أنَّ رتبةَ الهُلاَّكِ ليسَتْ إلا للجهَّالِ المكذِّبينَ ، وشهادةُ ذلكَ مِنْ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا تدخلُ تحتَ الحصرِ ، فلذلكَ لمْ نوردْها .

❀ ❀ ❀

الرتبةُ الثانيةُ : رتبةُ المعذَّبينَ :

وهـٰذهِ رتبةُ مَنْ تحلَّىٰ بأصلِ الإيمانِ ، ولكنْ قصَّرَ في الوفاءِ بمقتضاهُ ، فإنَّ رأسَ الإيمانِ هوَ التوحيدُ ، وهوَ ألا يعبدَ إلا اللهَ ، ومَنِ اتبعَ هواهُ . . فقدِ اتخذَ إلـٰهَهُ هواهُ ، فهوَ موحِّدٌ بلسانِهِ لا بالحقيقةِ ، بلْ معنىٰ قولِكَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، وهوَ أنْ تذرَ بالكليَّةِ غيرَ اللهِ ، ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ ، ولمَّا كانَ الصراطُ المستقيمُ الذي لا يكملُ التوحيدُ إلا بالاستقامةِ عليهِ أدقَّ مِنَ الشعرِ ، وأحدَّ مِنَ السيفِ ، مثلَ الصراطِ الموصوفِ في الآخرةِ ، فلا ينفكُّ بشرٌ عنْ ميلٍ عنِ الاستقامةِ ولوْ في أمرٍ يسيرٍ ، ولا يخلو عنِ اتباعِ الهوىٰ ولوْ في فعلٍ قليلٍ ، وذلكَ قادحٌ في كمالِ التوحيدِ بقدْرِ ميلِهِ عنِ الصراطِ المستقيمِ . . فذلكَ يقتضي ـ لا محالةَ ـ نقصاناً في درجةِ القربِ ، ومعَ كلِّ نقصانٍ نارانِ ؛ نارُ الفراقِ لذلكَ الكمالِ الفائتِ

---

(١) الطِّوَل : الحبل يطوَّل للدابة توسيعاً لمجال رعيها ، وهو مجاز عن تطويل الكلام هنا .

بالنقصانِ ، ونارُ جهنَّمَ كما وصفَها القرآنُ ، فيكونُ كلُّ مائلٍ عنِ الصراطِ المستقيمِ معذَّباً مرَّتينِ مِنْ وجهينِ ، ولكنَّ شدَّةَ ذلكَ العذابِ وخفَّتَهُ وتفاوتَهُ بحسَبِ طولِ المدَّةِ إنَّما يكونُ بسببِ أمرينِ :

أحدُهما : قوَّةُ الإيمانِ وضعفُهُ .

والثاني : كثرةُ اتباعِ الهوىٰ وقلَّتُهُ .

وإذْ لا يخلو بشرٌ في غالبِ الأمرِ عنْ واحدٍ مِنَ الأمرينِ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ، ولذلك قالَ الخائفونَ مِنَ السلفِ : (إنَّما خوفُنا لأنَّا تيقَّنَّا أنَّا على النارِ واردونَ ، وشكَّكنا في النجاةِ)[1] .

ولمَّا روى الحسنُ الخبرَ الورادَ فيمَنْ يخرجُ مِنَ النارِ بعدَ ألفِ عامٍ ، وأنَّهُ ينادي : يا حنَّانُ ، يا منَّانُ . . قالَ الحسنُ : (يا ليتني كنتُ ذلكَ الرجلَ)[2] .

---

(١) فقد روى ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٩) عن بكر بن عبد الله المزني قال : لما نزلت هٰذه الآية : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ . . ذهب عبد الله بن رواحة إلىٰ بيته فبكىٰ ، فجاءت امرأته فبكت ، فجاءت الخادم فبكت ، وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون ، فلما انقطعت عبرته . . قال : يا أهلاه ؛ ما الذي أبكاكم ؟ قالوا : لا ندري ، ولكن رأيناك بكيت فبكينا ، قال : إنه أنزلت علىٰ رسول الله آية ينبئني فيها ربي عز وجل أني وارد النار ، ولم ينبئني أني صادر عنها ، فذلك الذي أبكاني .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٠) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ولم يذكر قول الحسن ، وساق قول الحسن من رواية أبي بكر الآجري ابنُ حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص٣٥) .

واعلمْ : أنَّ في الأخبارِ ما يدلُّ علىٰ أنَّ آخرَ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ بعدَ سبعةِ آلافِ سنةٍ[1] ، وأنَّ الاختلافَ في المدَّةِ بينَ اللحظةِ وبينَ سبعةِ آلافِ سنةٍ ، حتَّىٰ قدْ يجوزُ بعضُهُمْ على النارِ كبرقٍ خاطفٍ ، ولا يكونُ لهُ فيها لبثٌ[2] ، وبينَ اللحظةِ وسبعةِ آلافِ سنةٍ درجاتٌ متفاوتةٌ ، مِنَ اليومِ ، والأسبوعِ ، والشهرِ ، وسائرِ المُدَدِ ، وإنَّ الاختلافَ بالشدَّةِ لا نهايةَ لأعلاهُ ، وأدناهُ التعذيبُ بالمناقشةِ في الحسابِ ؛ كما أنَّ الملكَ قدْ يعذِّبُ بعضَ المقصِّرينَ في الأعمالِ بالمناقشةِ في الحسابِ ، ثمَّ يعفو ، وقدْ يضربُ بالسياطِ ، وقدْ يعذِّبُ بأنواعٍ أخرَ مِنَ العذابِ .

ويتطرَّقُ إلى العذابِ اختلافٌ ثالثٌ في غيرِ المدَّةِ والشدَّةِ ، وهوَ اختلافُ الأنواعِ ؛ إذْ ليسَ مَنْ يعذَّبُ بمصادرةِ المالِ فقطْ كمَنْ يُعذَّبُ بأخذِ المالِ ، وقتلِ الولدِ ، واستباحةِ الحريمِ ، وتعذيبِ الأقاربِ ، والضربِ ، وقطعِ اللسانِ واليدِ والأنفِ والأذنِ وغيرِهِ ، فهٰذهِ الاختلافاتُ ثابتةٌ في عذابِ الآخرةِ ، دلَّ عليها قواطعُ الشرعِ ، وهيَ بحسَبِ اختلافِ قوَّةِ الإيمانِ

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ١٣٩) .

(٢) روىٰ أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٢٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « يمر الناس علىٰ جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تخطف الناس يميناً وشمالاً ، وعلىٰ جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، فمن الناس من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الفرس ، ومنهم من يسعىٰ سعياً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم من يزحف زحفاً . . . » الحديث .

وضعفِهِ ، وكثرةِ الطاعاتِ وقلَّتِها ، وكثرةِ السيئاتِ وقلَّتِها .

أمَّا شدَّةُ العذابِ . . فبشدَّةِ قبْحِ السيئاتِ وكبرِها ، وأمَّا كثرتُهُ . . فبكثرتِها ، وأمَّا اختلافُ أنواعِهِ . . فباختلافِ أنواعِ السيئاتِ ، وقدِ انكشفَ هـٰذا لأربابِ القلوبِ معَ شواهدِ القرآنِ بنورِ الإيمانِ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، وبقولِهِ سبحانَهُ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا وردَ في الكتابِ والسنةِ ؛ مِنْ كونِ العقابِ والثوابِ جزاءً على الأعمالِ .

وكلُّ ذلكَ بعدْلٍ لا ظلمَ فيهِ ، وجانبُ العفوِ والرحمةِ أرجحُ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ فيما حكىٰ عنهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبقَتْ رحمتي غضبي »[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فإذاً ؛ هـٰذهِ الأمورُ الكليَّةُ مِنِ ارتباطِ الدرجاتِ والدركاتِ بالحسناتِ والسيئاتِ معلومةٌ بقواطعِ الشرعِ ونورِ المعرفةِ ، فأمَّا التفصيلُ . . فلا يُعرفُ إلا ظنّاً ، ومستندُهُ ظواهرُ الأخبارِ ونوعُ حدسٍ يُستمدُّ مِنْ أنوارِ الاستبصارِ بعينِ الاعتبارِ .

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥١) بلفظه هنا ، وأصله عند البخاري كذلك (٣١٩٤) .

فنقولُ : كلُّ مَنْ أحكمَ أصلَ الإيمانِ ، واجتنبَ جميعَ الكبائرِ ، وأحسنَ جميعَ الفرائضِ ؛ أعني : الأركانَ الخمسةَ ، ولمْ يكنْ منهُ إلا صغائرُ متفرقةٌ لمْ يصرَّ عليها . . فيشبهُ أنْ يكونَ عذابُهُ بالمناقشةِ في الحسابِ فقطْ ، فإنَّهُ إذا حُوسبَ . . رجحَتْ حسناتُهُ علىٰ سيئاتِهِ ؛ إذْ وردَ في الأخبارِ : أنَّ الصلواتِ الخمسَ ، والجمعةَ ، وصومَ رمضانَ . . كفارةٌ لما بينهنَّ[1] ، وكذلكَ اجتنابُ الكبائرِ بحكمِ نصِّ القرآنِ مكفِّرٌ للصغائرِ[2] ، وأقلُّ درجاتِ التكفيرِ أنْ يُدفعَ العذابُ إنْ لمْ يُدفعِ الحسابُ ، وكلُّ مَنْ هـٰذا حالُهُ فقدْ ثقلَتْ موازينُهُ ، فينبغي أنْ يكونَ بعدَ ظهورِ الرجحانِ في الميزانِ ، وبعدَ الفراغِ مِنَ الحسابِ . . في عيشةٍ راضيةٍ .

نعمِ ، التحاقُهُ بأصحابِ اليمينِ أوْ بالمقربينَ ، ونزولُهُ في جناتِ عدْنٍ أوْ في الفردوسِ الأعلىٰ . . فذلكَ يتبعُ أصنافَ الإيمانِ ؛ لأنَّ الإيمانَ إيمانانِ :

إيمانٌ تقليديٌّ كإيمانِ العوامِّ ؛ يصدِّقونَ بما يسمعونَ ويستمرُّونَ عليهِ .

وإيمانٌ كشفيٌّ يحصلُ بانشراحِ الصدْرِ بنورِ اللهِ ، حتَّىٰ ينكشفَ فيهِ الوجودُ كلُّهُ علىٰ ما هوَ عليهِ ، فيتضحَ أنَّ الكلَّ إلى اللهِ مرجعُهُ ومصيرُهُ ؛ إذْ

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣/١٦) .

(٢) وهو قوله عز من قائل : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ .

ليسَ في الوجودِ إلا اللهُ تعالىٰ وصفاتُهُ وأفعالُهُ(١) .

فهٰذا الصنفُ همُ المقرَّبونَ النازلونَ في الفردوسِ الأعلىٰ ، وهمْ علىٰ غايةِ القرْبِ مِنَ الملأِ الأعلىٰ ، وهمْ أيضاً علىٰ أصنافٍ ؛ فمنهُمُ السابقونَ ، ومنهُمْ مَنْ دونَهُمْ ، وتفاوتُهُمْ بحسَبِ تفاوتِ معرفتِهِمْ باللهِ تعالىٰ ، ودرجاتُ العارفينَ في المعرفةِ باللهِ تعالىٰ لا تنحصرُ ؛ إذِ الإحاطةُ بكنْهِ جلالِ اللهِ غيرُ ممكنةٍ ، وبحرُ المعرفةِ ليسَ لهُ ساحلٌ وعمقٌ ، وإنَّما يغوصُ فيهِ الغوَّاصونَ بقدْرِ قواهُمْ ، وبقدْرِ ما سبقَ لهُمْ مِنَ اللهِ تعالىٰ في الأزلِ ، فالطريقُ إلى اللهِ تعالىٰ لا نهايةَ لمنازلِهِ ، فالسالكونَ لسبيلِ اللهِ لا نهايةَ لدرجاتِهِمْ .

وأمَّا المؤمنُ إيماناً تقليدياً . . فهوَ مِنْ أصحابِ اليمينِ ، ودرجتُهُ دونَ درجةِ المقرَّبينَ ، وهمْ أيضاً علىٰ درجاتٍ ، فالأعلىٰ مِنْ درجاتِ أصحابِ اليمينِ تقاربُ رتبتُهُ رتبةَ الأدنىٰ مِنْ درجاتِ المقرَّبينَ .

هٰذا حالُ مَنِ اجتنبَ كلَّ الكبائرِ ، وأدَّى الفرائضَ كلَّها ؛ أعني : الأركانَ الخمسةَ التي هيَ النطقُ بكلمةِ الشهادةِ باللسانِ ، والصلاةُ ، والزكاةُ ، والصومُ ، والحجُّ .

---

(١) وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، لا أنه يصير هالكاً من الأوقات ، بل هو هالك أزلاً وأبداً لا يتصور إلا كذلك ، فإن كل شيء سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته . . فهو عدم محض ، وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأزل . . فيكون الموجود وجه الله فقط ، ولكل شيء وجهان ؛ وجه إلىٰ نفسه ، ووجه إلىٰ ربه ، فهو باعتبار وجه نفسه عدم ، وباعتبار وجه الله موجود ؛ إذ لا موجود إلا الله ووجهه) . « إتحاف » (٨/ ٥٥٦) ، وهو من كلام المصنف في « مشكاة الأنوار » (ص ٤٠) .

فأمَّا مَنِ ارتكبَ كبيرةً أوْ كبائرَ ، أوْ أهملَ بعضَ أركانِ الإسلامِ ؛ فإنْ تابَ توبةً نصوحاً قبلَ قرْبِ الأجلِ .. التحقَ بمَنْ لمْ يرتكبْ ؛ لأنَّ التائبَ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ ، والثوبُ المغسولُ كالذي لمْ يتوسَّخْ أصلاً .

وإنْ ماتَ قبلَ التوبةِ .. فهـٰذا أمرٌ مخطرٌ عندَ الموتِ ؛ إذْ ربَّما يكونُ موتُهُ على الإصرارِ سبباً لتزلزلِ إيمانِهِ ، فيُختمُ لهُ بسوءِ الخاتمةِ ، لا سيما إذا كانَ إيمانُهُ تقليدياً .

فإنَّ التقليدَ وإنْ كانَ جزماً فهوَ قابلٌ للانحلالِ بأدنىٰ شكٍّ وخيالٍ ، والعارفُ البصيرُ أبعدُ مِنْ أنْ يُخافَ عليهِ سوءُ الخاتمةِ ، وكلاهما إنْ ماتا على الإيمانِ يعذَّبانِ ـ إلا أنْ يعفوَ اللهُ ـ عذاباً يزيدُ علىٰ عذابِ المناقشةِ في الحسابِ ، وتكونُ كثرةُ العقابِ مِنْ حيثُ المدَّةُ بحسَبِ كثرةِ مدَّةِ الإصرارِ ، ومِنْ حيثُ الشدَّةُ بحسَبِ قبحِ الكبائرِ ، ومِنْ حيثُ اختلافُ النوعِ بحسَبِ اختلافِ أصنافِ السيئاتِ .

وعندَ انقضاءِ مدَّةِ العقابِ ينزلُ البُلْهُ المقلِّدونَ في درجاتِ أصحابِ اليمينِ ، والعارفونَ المستبصرونَ في أعلىٰ علِّيِّينَ ، ففي الخبرِ : « آخرُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ يُعطىٰ مثلَ الدنيا كلِّها عشرةَ أضعافٍ »[1] .

ولا تظنَّنَّ أنَّ المرادَ بهِ تقديرُهُ بالمساحةِ لأطرافِ الأجسامِ ، بأنْ يُقابلَ فرسخٌ بفرسخينِ أوْ عشرةٍ ، فإنَّ هـٰذا جهلٌ بطريقِ ضَرْبِ الأمثالِ ،

(1) رواه البخاري (٦٥٧١) ، ومسلم (١٨٦) .

بلْ هـٰذا كقولِ القائلِ : (أخذَ منهُ جملاً وأعطاهُ عشرةَ أمثالِهِ) ، وكانَ الجملُ يساوي عشرةَ دنانيرَ ، فأعطاهُ مئةَ دينارٍ ، فإنْ لمْ يفهمْ مِنَ المثلِ إلا المثلَ في الوزنِ والثقلِ . . فلا تكونُ مئةُ دينارٍ لوْ وُضعَتْ في كفَّةِ الميزانِ والجملُ في الكفَّةِ الأخرىٰ عشرَ عَشِيرِهِ ، بلْ هوَ موازنةُ معاني الأجسامِ وأرواحِها ، دونَ أشخاصِها وهياكلِها ، فإنَّ الجملَ لا يُقصدُ لثقلِهِ وطولِهِ وعرضِهِ ومساحتِهِ ، بلْ لماليَّتِهِ ، فروحُهُ الماليَّةُ ، وجسمُهُ اللحمُ والدمُ ، ومئةُ دينارٍ عشرةُ أمثالِهِ بالموازنةِ الروحانيَّةِ ، لا بالموازنةِ الجسمانيَّةِ ، وهـٰذا صادقٌ عندَ مَنْ يعرفُ روحَ الماليَّةِ مِنَ الذهبِ والإبلِ ، بلْ لوْ أعطاهُ جوهرةً وزنُها مثقالٌ ، وقيمتُها مئةُ دينارٍ ، وقالَ : (أعطيتُهُ عشرةَ أمثالِهِ) . . كانَ صادقاً ، ولكنْ لا يدركُ صدقَهُ إلا الجوهريُّ ؛ فإنَّ روحَ الجوهريَّةِ لا تُدركُ بمجرَّدِ البصرِ ، بلْ بفطنةٍ أخرىٰ وراءَ البصرِ ، فلذلكَ يكذِّبُ بهِ الصبيُّ بلِ القرويُّ والبدويُّ ، ويقولُ : (ما هـٰذهِ الجوهرةُ إلا حجرٌ وزنُهُ مثقالٌ ، ووزنُ الجملِ ألفُ ألفِ مثقالٍ ، فقدْ كذبَ في قولِهِ : إنِّي أعطيتُهُ عشرةَ أمثالِهِ) ، والكاذبُ بالتحقيقِ هوَ الصبيُّ ، ولكنْ لا سبيلَ إلىٰ تحقيقِ ذلكَ عندَهُ إلا بأنْ يُنتظرَ بهِ البلوغُ والكمالُ ، وأنْ يحصلَ في قلبِهِ النورُ الذي بهِ يدركُ أرواحَ الجواهرِ وسائرِ الأموالِ ، فعندَ ذلكَ ينكشفُ لهُ الصدقُ .

والعارفُ عاجزٌ عنْ تفهيمِ المقلِّدِ القاصرِ صدقَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هـٰذهِ الموازنةِ ؛ إذْ يقولُ : « الجنةُ في السماواتِ » ، كما وردَ في

الأخبارِ[1] ، والسماواتُ مِنَ الدنيا ، فكيفَ يكونُ عشرةُ أمثالِ الدنيا في الدنيا ؟ وهٰذا كما يعجزُ البالغُ عنْ تفهيمِ الصبيِّ تلكَ الموازنةَ ، وكذلكَ تفهيمِ البدويِّ .

وكما أنَّ الجوهريَّ مرحومٌ إذا بُلِيَ بالبدويِّ والقرويِّ في تفهيمِ تلكَ الموازنةِ . . فالعارفُ أيضاً مرحومٌ إذا بُلِيَ بالبليدِ الأبلهِ في تفهيمِ هٰذهِ الموازنةِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ارحموا ثلاثةً : عالماً بينَ الجهَّالِ ، وغنيَّ قومٍ افتقرَ ، وعزيزَ قومٍ ذلَّ »[2] .

والأنبياءُ مرحومونَ بينَ الأمَّةِ بهٰذا السببِ ، ومقاساتُهُمْ لقصورِ عقولِ الأممِ فتنةٌ لهُمْ ، وامتحانٌ وابتلاءٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وبلاءٌ موكلٌ بهِمْ سبقَ بتوكيلِهِ القضاءُ الأزليُّ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البلاءُ موكلٌ بالأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ فالأمثلِ »[3] .

---

(١) وليس المراد اللفظ بعينه ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٠٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (الجنة في السماء السابعة العليا) ، ثم قرأ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ .

(٢) رواه ابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٩٨) بتقديم وتأخير ، من طريق عيسى بن طهمان عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وقد ضعَّف فيه عيسىٰ ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٥٥٩) : (لكن وجد بخط الحافظ ابن حجر ما نصه : عيسىٰ ثقة ، لم يتكلم فيه غير ابن حبان ، وقد احتج به البخاري والنسائي والأمة ممن دونه) ، وانظر « تهذيب التهذيب » (٣/ ٣٥٩) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٩٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٧٤٣٩) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) .

فلا تظنَّنَّ أنَّ البلاءَ بلاءُ أيوبَ عليهِ السلامُ ، وهوَ الذي ينزلُ بالبدنِ ، فإنَّ بلاءَ نوحٍ عليهِ السلامُ أيضاً مِنَ البلاءِ العظيمِ ؛ إذْ بُلِيَ بجماعةٍ كانَ لا يزيدُهُمْ دعاؤُهُ إلى اللهِ إلا فراراً ، ولذلكَ لمَّا تأذَّىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بكلامٍ بعضِ الناسِ قالَ : « رحمَ اللهُ أخي موسىٰ ؛ لقدْ أُوذيَ بأكثرَ مِنْ هٰذا فصبرَ »[1] .

فإذاً ؛ كما لا يخلو الأنبياءُ عنِ الابتلاءِ بالجاحدينَ . . فلا يخلو الأولياءُ والعلماءُ عنِ الابتلاءِ بالجاهلينَ ، ولذلكَ قلَّما انفكَّ الأولياءُ عنْ ضروبٍ مِنَ الإيذاءِ وأنواعِ البلاءِ ؛ بالإخراجِ مِنَ البلادِ ، والسعايةِ بهِمْ إلى السلاطينِ ، والشهادةِ عليهِمْ بالكفرِ والخروجِ عنِ الدينِ .

وواجبٌ أنْ يكونَ أهلُ المعرفةِ عندَ أهلِ الجهلِ مِنَ الكافرينَ ؛ كما يجبُ أنْ يكونَ المعتاضُ عنِ الجملِ الكبيرِ جوهرةً صغيرةً عندَ الجاهلينَ مِنَ المبذِّرينَ المضيِّعينَ .

فإذا عرفتَ هٰذهِ الدقائقَ . . فآمِنْ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّهُ يُعطىٰ آخرُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ مثلَ الدنيا عشرَ مرَّاتٍ ، وإيَّاكَ أنْ يقتصرَ تصديقُكَ علىٰ ما يدركُهُ البصرُ والحواسُّ فقطْ ، فتكونَ حماراً برِجْلينِ ؛ لأنَّ الحمارَ يشاركُكَ في الحواسِّ الخمسِ ، وإنَّما أنتَ مفارقٌ للحمارِ بسرٍّ إلٰهيٍّ عُرِضَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أنْ يحملْنَهُ وأشفقنَ منهُ ، فإدراكُ

---

(1) رواه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

ما يخرجُ عنْ عالمِ الحواسِّ الخمسِ لا يُصادفُ إلا في عالمِ ذلكَ السرِّ الذي بهِ فارقتَ الحمارَ وسائرَ البهائمِ ، فمَنْ ذهلَ عنْ ذلكَ ، وعطَّلَهُ وأهملَهُ ، وقنعَ بدرجةِ البهائمِ ، ولمْ يجاوزِ المحسوساتِ . . فهوَ الذي أهلكَ نفسَهُ بتعطيلِها ، ونسيَها بالإعراضِ عنها ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، فكلُّ مَنْ لمْ يعرفْ إلا المدرَكَ بالحواسِّ . . فقدْ نسيَ اللهَ ؛ إذْ ليسَ ذاتُ اللهِ مدركاً في هٰذا العالمِ بالحواسِّ الخمسِ[1] ، وكلُّ مَنْ نسيَ اللهَ . . أنساهُ اللهُ ـ لا محالةَ ـ نفسَهُ ، ونزلَ إلىٰ رتبةِ البهائمِ ، وتركَ الترقيَ إلىٰ أفقِ الملأِ الأعلىٰ ، وخانَ في الأمانةِ التي أودعَهُ اللهُ تعالىٰ إيَّاها وأنعمَ بها عليهِ ، كافراً لنعمتِهِ ومتعرضاً لنقمتِهِ ، إلا أنَّهُ أسوأُ حالاً مِنَ البهيمةِ ؛ فإنَّ البهيمةَ تتخلَّصُ بالموتِ ، وأمَّا هٰذا . . فعندَهُ أمانةٌ سترجعُ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ مودِعِها ، فإليهِ مرجعُ الأمانةِ ومصيرُها .

وتلكَ الأمانةُ كالشمسِ الزاهرةِ ، وإنَّما هبطَتْ إلىٰ هٰذا القالبِ الفاني وغربَتْ فيهِ ، وستطلعُ هٰذهِ الشمسُ عندَ خرابِ القالبِ مِنْ مغربِها ، وتعودُ إلىٰ بارئِها وخالقِها ؛ إمَّا مظلمةً منكسفةً ، وإمَّا زاهرةً مشرقةً ، والزاهرةُ المشرقةُ غيرُ محجوبةٍ عنِ حضرةِ الربوبيَّةِ ، والمظلمةُ أيضاً راجعةٌ إلى الحضرةِ ؛ إذِ المرجعُ والمصيرُ للكلِّ إليهِ ، إلا أنَّها ناكسةٌ رؤوسَها عنْ جهةِ أعلىٰ عليينَ إلىٰ جهةِ أسفلِ السافلينَ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ :

---

(١) في (أ) : (في هٰذا العالم المحبوس بالحواس الخمس) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، فبيَّنَ أنَّهُمْ عندَ ربِّهِمْ ، إلا أنَّهُمْ منكوسونَ منحوسونَ ، قدِ انقلبَتْ وجوهُهُمْ إلىٰ أقفيتِهِمْ ، وانتكسَتْ رؤوسُهُمْ عنْ جهةِ فوقٍ إلىٰ جهةِ أسفلَ ، وذلكَ حكمُ اللهِ تعالىٰ فيمَنْ حرمَهُ توفيقَهُ ، ولمْ يهدِهِ طريقَهُ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الضلالِ ، والنزولِ إلىٰ منازلِ الجهَّالِ .

فهٰذا حكمُ انقسامِ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ ، ويُعطىٰ مثلَ عشرةِ أمثالِ الدنيا أوْ أكثرَ ، ولا يخرجُ مِنَ النارِ إلا موحِّدٌ ، ولستُ أعني بالتوحيدِ أنْ يقولَ بلسانِهِ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ) ، فإنَّ اللسانَ مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، فلا ينفعُ إلا في عالمِ الملكِ ، فيدفعُ السيفَ عنْ رقبتِهِ ، وأيديَ الغانمينَ عنْ مالِهِ[1] ، ومدَّةُ الرقبةِ والمالِ مدَّةُ الحياةِ ، فحيثُ لا تبقىٰ رقبةٌ ولا مالٌ . . لا ينفعُ القولُ باللسانِ ، وإنَّما ينفعُ الصدْقُ في التوحيدِ ، **وكمالُ التوحيدِ** : ألا يرى الأمورَ كلَّها إلا مِنَ اللهِ ، **وعلامتُهُ** : ألا يغضبَ علىٰ أحدٍ مِنَ الخلقِ بما يجري عليهِ ؛ إذْ لا يرى الوسائطَ ، وإنَّما يرىٰ مسبِّبَ الأسبابِ كما سيأتي تحقيقُهُ في كتابِ التوكُّلِ .

وهٰذا التوحيدُ متفاوتٌ ؛ فمِنَ الناسِ مَنْ لهُ مِنَ التوحيدِ مثلُ الجبالِ ،

---

(١) وذلك قوله صلى الله عليه وسلم ـ الذي رواه البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢٢) ـ : « أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا : لا إلٰه إلا الله ، فإذا قالوها . . عصموا مني دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وحسابهم على الله عز وجل » . « إتحاف » (٨/ ٥٦١) ، ويؤكد التخصيص بالقلب حديث الشعيرة والبرة والذرة الآتي تعليقاً .

ومنهُمْ مَنْ لهُ مثقالٌ ، ومنهُمْ مَنْ لهُ مقدارُ خردلةٍ وذرَّةٍ ، فمَنْ في قلبِهِ مثقالُ دينارٍ مِنْ إيمانٍ . . فهوَ أوَّلُ مَنْ يخرجُ مِنَ النارِ ، وفي الخبرِ : « يُقالُ : أخرجوا مِنَ النارِ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ دينارٍ مِنْ إيمانٍ »[1] ، وآخرُ مَنْ يخرجُ مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ إيمانٍ ، وما بينَ المثقالِ والذرَّةِ علىٰ قدرِ تفاوتِ درجاتِهِمْ يخرجونَ بينَ طبقةِ المثقالِ وبينَ طبقةِ الذرَّةِ[2] ، والموازنةُ بالمثقالِ والذرَّةِ علىٰ سبيلِ ضربِ المثلِ ؛ كما ذكرناهُ في الموازنةِ بينَ أعيانِ الأموالِ وبينَ النقودِ .

وأكثرُ ما يُدخلُ الموحدينَ النارَ مظالمُ العبادِ ، فديوانُ العبادِ هوَ الديوانُ الذي لا يُتركُ[3] ، فأمَّا بقيَّةُ السيئاتِ . . فيتسارعُ العفوُ والتكفيرُ إليها ، ففي الأثرِ : (إنَّ العبدَ ليوقفُ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ولهُ مِنَ الحسناتِ أمثالُ الجبالِ ، لوْ سلمَتْ لهُ . . لكانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ، فيقومُ أصحابُ المظالمِ ، فيكونُ قدْ سبَّ عرضَ هـٰذا ، وأخذَ مالَ هـٰذا ، وضربَ هـٰذا ، فيقتصُّ لهُمْ مِنْ حسناتِهِ حتَّىٰ لا تبقىٰ لهُ حسنةٌ ، فتقولُ الملائكةُ : يا ربِّ ؛ هـٰذا قدْ فنيَتْ

---

(١) هو جزء من حديث طويل رواه البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) .

(٢) ففي حديث الشفاعة المشهور ، وهو عند البخاري (٧٤١٠) ، ومسلم (١٩٣) : « يخرج من النار من قال : لا إلـه إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إلـه إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إلـه إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة » .

(٣) فقد روىٰ ذلك مرفوعاً عن السيدة عائشة رضي الله عنها أحمد في « المسند » (٦/ ٢٤٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٥) .

حسناتُهُ ، وبقيَ طالبونَ كثيرٌ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ألقوا مِنْ سيئاتِهِمْ علىٰ سيئاتِهِ ، وصكُّوا لهُ صكّاً إلى النارِ)[1] .

وكما يهلَكُ هوَ بسيئةِ غيرِهِ بطريقِ القصاصِ فكذلكَ ينجو المظلومُ بحسنةِ الظالمِ ؛ إذْ ينقلُ إليهِ عوضاً عمَّا ظلمَهُ بهِ ، وقدْ حُكِيَ عنِ ابنِ الجلاءِ أنَّ بعضَ إخوانِهِ اغتابَهُ ، ثمَّ أرسلَ إليهِ يستحلُّهُ ، فقالَ : لا أفعلُ ، ليسَ في صحيفتي حسنةٌ أفضلَ منها ، فكيفَ أمحوها ؟![2] .

وقالَ هوَ وغيرُهُ : (ذنوبُ إخواني مِنْ حسناتي ، أريدُ أنْ أزيِّنَ بها صحيفتي)[3] .

فهٰذا ما أردنا أنْ نذكرَهُ مِنِ اختلافِ أحوالِ العبادِ في المعادِ في درجاتِ السعادةِ والشقاوةِ ، وكلُّ ذلكَ حكمٌ بظاهرِ الأسبابِ ، يضاهي حكْمَ الطبيبِ علىٰ مريضٍ بأنَّهُ يموتُ ـ لا محالةَ ـ ولا يقبلُ العلاجَ ، وعلىٰ مريضٍ آخرَ بأنَّ عارضَهُ خفيفٌ وعلاجَهُ هيِّنٌ ، فإنَّ ذلكَ ظنٌّ يصيبُ في أكثرِ الأحوالِ ، ولكنْ قدْ يثوبُ إلى المشرفِ على الهلاكِ نفسُهُ مِنْ حيثُ لا يشعرُ الطبيبُ ، وقدْ يُساقُ إلىٰ ذي العارضِ الخفيفِ أجلُهُ مِنْ حيثُ لا يطَّلعُ عليهِ ، وذلكَ لأسرارِ اللهِ تعالى الخفيَّةِ في أرواحِ الأحياءِ ، وغموضِ الأسبابِ التي رتَّبَها

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٤٩) ، وهو بنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٠٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو قريب من حديث المفلس المشهور .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٥٠) .

(٣) هو من تتمة قول ابن الجلاء السابق كما في « القوت » (٢/ ١٥٠) .

مسبِّبُ الأسبابِ بقدَرٍ معلومٍ ؛ إذْ ليسَ في قوَّةِ البشرِ الوقوفُ علىٰ كنهِها ، فكذلكَ النجاةُ والفوزُ في الآخرةِ لهما أسبابٌ خفيَّةٌ ، ليسَ في قوَّةِ البشرِ الاطلاعُ عليها ، يعبَّرُ عنْ ذلكَ السببِ الخفيِّ المفضي إلى النجاةِ بالعفوِ والرضا ، وعمَّا يفضي إلى الهلاكِ بالغضبِ والانتقامِ ، ووراءَ ذلكَ سرُّ المشيئةِ الإلـٰهيةِ الأزليَّةِ التي لا يطلعُ الخلقُ عليها ، فلذلكَ يجبُ علينا أنْ نجوِّزَ العفوَ عنِ العاصي وإنْ كثرَتْ سيئاتُهُ الظاهرةُ ، والغضبَ على المطيعِ وإنْ كثرَتْ طاعاتُهُ الظاهرةُ ؛ فإنَّ الاعتمادَ على التقوىٰ ، والتقوىٰ في القلبِ ، وهوَ أغمضُ مِنْ أنْ يطلعَ عليهِ صاحبُهُ ، فكيفَ غيرُهُ ؟!

ولكنْ قدِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ أنَّهُ لا عفوَ عنْ عبدٍ إلا بسببٍ خفيٍّ فيهِ يقتضي العفوَ ، ولا غضبَ إلا بسببٍ باطنٍ يقتضي البعدَ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ولولا ذلكَ . . لمْ يكنِ العفوُ والغضبُ جزاءً على الأعمالِ والأوصافِ ، ولوْ لمْ يكنْ جزاءً . . لمْ يكنْ عدْلاً ، ولوْ لمْ يكنْ عدلاً . . لمْ يصحَّ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، ولا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ، وكلُّ ذلكَ صحيحٌ ، فليسَ للإنسانِ إلا ما سعىٰ ، وسعيُهُ هوَ الذي يُرىٰ ، وكلُّ نفسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ ، فلمَّا زاغوا . . أزاغَ اللهُ قلوبَهُمْ ، ولمَّا غيَّروا ما بأنفسِهِمْ . . غيَّرَ اللهُ ما بهِمْ ؛ تحقيقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

وهـٰذا كلُّهُ قدِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ انكشافاً أوضحَ مِنَ المشاهدةِ بالبصرِ ؛ إذِ البصرُ يمكنُ الغلطُ فيهِ ، إذْ قدْ يرى البعيدَ قريباً ، والكبيرَ

صغيراً ، ومشاهدةُ القلبِ لا يمكنُ الغلطُ فيها ، وإنَّما الشأنُ في انفتاحِ بصيرةِ القلبِ ، وإلا . . فما يرىٰ بها بعدَ الانفتاحِ فلا يتصوَّرُ فيهِ الكذبُ[1] ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾[2] .

❁ ❁ ❁

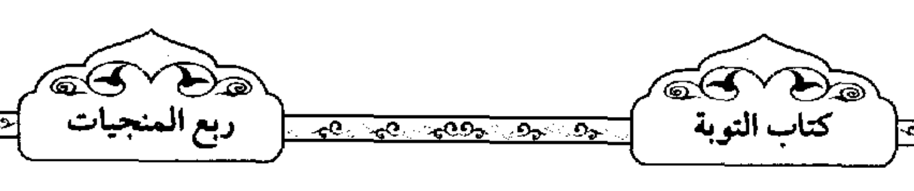
الرتبةُ الثالثةُ : رتبةُ الناجينَ :

وأعني بالنجاةِ : السلامةَ فقطْ ، دونَ السعادةِ والفوزِ ، وهُمْ قومٌ لمْ يخدموا ليُخلعَ عليهِمْ ، ولمْ يقصِّروا فيعذَّبوا ، ويشبهُ أنْ يكونَ هٰذا حالَ المجانينِ ، والصبيانِ مِنَ الكفارِ ، والمعتوهينَ ، والذينَ لمْ تبلغهُمُ الدعوةُ في أطرافِ البلادِ وعاشوا على البَلَهِ وعدمِ المعرفةِ ، فلمْ يكنْ لهُمْ معرفةٌ ، ولا جحودٌ ، ولا طاعةٌ ، ولا معصيةٌ ، ولا وسيلةٌ تقرِّبُهُمْ ، ولا جنايةٌ تبعدُهُمْ ، فما همْ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ولا مِنْ أهلِ النارِ ، بلْ ينزلونَ في منزلةٍ بينَ المنزلتينِ ، ومقامٍ بينَ المقامينِ ، عبَّرَ الشرعُ عنهُ بالأعرافِ ، وحلولُ طائفةٍ

---

(١) **فإن قلت** : نرىٰ جماعة من أرباب العقول يغلطون في نظرهم . . **فاعلم** : أن فيهم خيالات وأوهاماً واعتقادات يظنون أن أحكامها أحكام العقل ، فالغلط منسوب إليها ، فأما العقل المجرد إذا تجرَّد عن غشاوة الوهم والخيال . . لم يتصور أن يغلط ، بل يرى الأشياء علىٰ ما هي عليه ، وفي تجرده عسر . « إتحاف » (٨/ ٥٦٣) .

(٢) أي : من عجائب الملكوت الأعلىٰ ، وذلك لأن البصر من عالم الشهادة والحس ، والبصيرة من عالم الملكوت ، لا ترىٰ بالأبصار ، وإنما تشاهد ببصيرة القلب . « إتحاف » (٨/ ٥٦٤) .



وكما تتضاعفُ أوزارُهُمْ على الذنوبِ فكذلكَ يتضاعفُ ثوابُهُمْ على الحسناتِ إذا اتُّبِعوا .

فإذا تركَ التجمُّلَ والميلَ إلى الدنيا ، وقنعَ منها باليسيرِ ، ومِنَ الطعامِ بالقوتِ ، ومِنَ الكسوةِ بالخلَقِ ، فيُتَّبَعُ عليهِ ، ويقتدي بهِ العلماءُ والعوامُّ ، فيكونُ لهُ مثلُ ثوابِهِمْ ، وإنْ مالَ إلى التجمُّلِ .. مالَتْ طباعُ مَنْ دونَهُ إلى التشبُّهِ بهِ ، ولا يقدرونَ على التجمُّلِ إلا بخدمةِ السلاطينِ ، وجمعِ الحطامِ مِنَ الحرامِ ، ويكونُ هوَ السببَ في جميعِ ذلكَ ، فحركاتُ العلماءِ في طوريِ الزيادةِ والنقصانِ تتضاعفُ آثارُها ؛ إمَّا بالربحِ ، وإمَّا بالخسرانِ .

وهـٰذا القدْرُ كافٍ في تفاصيلِ الذنوبِ التي التوبةُ توبةٌ عنها .

* * *

والقدْرُ الممكنُ ذكرُهُ ما فصَّلَهُ القرآنُ ، فليسَ بعدَ بيانِ اللهِ بيانٌ ، والذي لا يمكنُ التعبيرُ عنهُ في هٰذا العالمِ فهوَ الذي أجملَهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : « أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأَتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[1] .

والعارفونَ مطلبُهُمْ تلكَ الحالةُ التي لا يُتصوَّرُ أنْ تخطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ في هٰذا العالمِ ، فأمَّا الحورُ والقصورُ ، والفواكهُ واللبنُ والعسلُ والخمرُ ، والحليُّ والأساورُ . . فإنَّهُمْ لا يحرصونَ عليها ، ولوْ أُعطوها . . لمْ يقنعوا بها ، ولا يطلبونَ إلا لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ ، فهيَ غايةُ السعاداتِ ، ونهايةُ اللذَّاتِ .

ولذلكَ لمَّا قيلَ لرابعةَ العدويَّةِ رحمةُ اللهِ عليها : كيفَ رغبتُكِ في الجنَّةِ ؟ فقالَتْ : الجارُ ثمَّ الدارُ .

فهؤلاءِ قومٌ شغلَهُمْ حبُّ ربِّ الدارِ عنِ الدارِ وزينتِها ، بلْ عنْ كلِّ شيءٍ سواهُ ، حتَّىٰ عنْ أنفسِهِمْ ، ومثالُهُمْ مثالُ العاشقِ المستهترِ بمعشوقِهِ ، المستوفي همَّهُ بالنظرِ إلىٰ وجهِهِ والفكرِ فيهِ ، فإنَّهُ في حالِ الاستغراقِ غافلٌ عنْ نفسِهِ ، لا يحسُّ بما يصيبُهُ في بدنِهِ ، ويُعبَّرُ عنْ هٰذهِ الحالةِ بأنَّهُ فنيَ عنْ نفسِهِ ، ومعناهُ : أنَّهُ صارَ مستغرقاً بغيرِهِ ، وصارَتْ همومُهُ همّاً واحداً وهوَ

---

(١) حديث قدسي رواه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

محبوبُهُ ، ولمْ يبقَ فيهِ متسعٌ لغيرِ محبوبِهِ حتَّىٰ يلتفتَ إليهِ ، لا إلىٰ نفسِهِ ولا إلىٰ غيرِهِ .

وهٰذهِ الحالةُ هيَ التي توصلُ في الآخرةِ إلىٰ قرَّةِ عينٍ لا يُتصوَّرُ أنْ تخطرَ في هٰذا العالمِ علىٰ قلبِ بشرٍ ، كما لا يُتصوَّرُ أنْ تخطرَ صورةُ الألوانِ والألحانِ علىٰ قلبِ الأصمِّ والأكمَهِ ، إلا أنْ يُرفعَ الحجابُ عنْ سمعِهِ وبصرِهِ ، فعندَ ذلكَ يدركُ حالَةً يعلمُ قطعاً أنَّهُ لمْ يُتصوَّرْ أنْ تخطرَ ببالِهِ قبلَ ذلكَ صورتُها ، فالدنيا حجابٌ على التحقيقِ ، وبرفعِهِ ينكشفُ الغطاءُ ، فعندَ ذلكَ يدركُ ذوقَ الحياةِ الطيبةِ ، وأنَّ الدارَ الآخرةَ لهيَ الحيوانَ لوْ كانوا يعلمونَ .

فهٰذا القدْرُ كافٍ في بيانِ توزُّعِ الدرجاتِ على الحسناتِ ، والدركاتِ على السيئاتِ ، واللهُ الموفِّقُ بلطفِهِ .

* * *

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلمْ : أنَّ الصغيرةَ تكبرُ بأسبابٍ :

منها الإصرارُ والمواظبةُ : ولذلكَ قيلَ : « لا صغيرةَ معَ إصرارٍ ، ولا كبيرةَ معَ استغفارٍ »[1] ، فكبيرةٌ واحدةٌ تنصرمُ ولا يتبعُها مثلُها لوْ تُصوِّرَ ذلكَ . . لكانَ العفوُ عنها أرجىٰ مِنْ صغيرةٍ يواظبُ العبدُ عليها .

ومثالُ ذلكَ مثالُ قطراتٍ مِنَ الماءِ تقعُ على الحجرِ علىٰ توالٍ فتؤثِّرُ فيهِ ، وذلكَ القدْرُ مِنَ الماءِ لوْ صُبَّ عليهِ دفعةً واحدةً . . لمْ يؤثِّرْ .

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأعمالِ أدومُها وإنْ قلَّ »[2] ، والأشياءُ تُستبانُ بأضدادِها ، فإنْ كانَ النافعُ مِنَ العملِ هوَ الدائمَ وإنْ قلَّ ، والكثيرُ المتصرِّمُ قليلُ النفعِ في تنويرِ القلبِ وتطهيرِهِ . . فكذلكَ القليلُ مِنَ السيئاتِ إذا دامَ . . عظمَ تأثيرُهُ في إظلامِ القلبِ .

إلا أنَّ الكبيرةَ قلَّما يُتصوَّرُ الهجومُ عليها بغتةً مِنْ غيرِ سوابقَ ولواحقَ مِنْ جملةِ الصغائرِ ، فقلَّما يزني الزاني بغتةً مِنْ غيرِ مراودةٍ ومقدِّماتٍ ، وقلَّما يقتلُ القاتلُ بغتةً مِنْ غيرِ مشاحنةٍ سابقةٍ ومعاداةٍ ، فكلُّ كبيرةٍ تكتنفُها صغائرُ

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .
(2) رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٢) بنحوه .

سابقةٌ ولاحقةٌ ، ولوْ تُصوِّرتْ كبيرةٌ وحدَها بغتةً ولمْ يتفقْ إليها عَوْدٌ . . ربَّما كانَ العفوُ فيها أرجىٰ مِنْ صغيرةٍ واظبَ الإنسانُ عليها عمرَهُ .

❁ ❁ ❁

ومنها أنْ يستصغرَ الذنبَ : فإنَّ الذنبَ كلَّما استعظمَهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ . . صغرَ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وكلَّما استصغرَهُ . . كبرَ عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ استعظامَهُ يصدرُ عنْ نفورِ القلبِ عنهُ ، وكراهيتِهِ لهُ ، وذلكَ النفورُ يمنعُ مِنْ شدَّةِ تأثُّرِهِ بهِ ، واستصغارُهُ يصدرُ عنِ الإلفِ بهِ ، وذلكَ يوجبُ شدَّةَ الأثرِ في القلبِ ، والقلبُ هوَ المطلوبُ تنويرُهُ بالطاعاتِ ، والمحذورُ تسويدُهُ بالسيئاتِ ، ولذلكَ لا يؤاخذُ بما يجري عليهِ في الغفلةِ ، فإنَّ القلبَ لا يتأثَّرُ بما يجري في الغفلةِ .

وقدْ جاءَ في الخبرِ : « المؤمنُ يرىٰ ذنبَهُ كالجبلِ فوقَهُ يخافُ أنْ يقعَ عليهِ ، والمنافقُ يرىٰ ذنبَهُ كذبابٍ مرَّ علىٰ أنفِهِ فأطارَهُ »[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (الذنبُ الذي لا يُغفرُ قولُ العبدِ : ليتَ كلَّ شيءٍ عملتُهُ مثلُ هـٰذا)[2] .

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) عن الحارث بن سويد قال : حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين ؛ أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه ، وذكره أوَّلاً ، وذُكر بعد حديث : « لله أفرح بتوبة العبد » ، ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وصرح أحمد في « المسند » (١/ ٣٨٣) برواية بوقفه .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٨١) .

وإنَّما يعظمُ الذنبُ في قلبِ المؤمنِ لعلمِهِ بجلالِ اللهِ ، فإذا نظرَ إلىٰ عظمِ مَنْ عصىٰ بذلكَ الذنبِ. . رأى الصغيرةَ كبيرةً ، وقدْ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : (لا تنظرْ إلىٰ قلَّةِ الهديةِ ، وانظرْ إلىٰ عظمِ مهديها ، ولا تنظرْ إلىٰ صغرِ الخطيئةِ ، وانظرْ إلىٰ كبرياءِ مَنْ واجهتَهُ بها)[1] .

وبهٰذا الاعتبارِ قالَ بعضُ العارفينَ : (لا صغيرةَ ، بلْ كلُّ مخالفةٍ فهيَ كبيرةٌ)[2] .

ولذلكَ قالَ بعضُ الصحابةِ للتابعينَ : (إنَّكُمْ لتعملونَ أعمالاً هيَ في أعينِكُمْ أدقُّ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الموبقاتِ)[3] إذْ كانَتْ معرفةُ الصحابةِ بجلالِ اللهِ تعالىٰ أتمَّ ، فكانَتِ الصغائرُ عندَهُمْ بالإضافةِ إلىٰ جلالِ اللهِ تعالىٰ كبائرَ .

وبهٰذا السببِ يعظمُ مِنَ العالمِ ما لا يعظمُ مثلُهُ مِنَ الجاهلِ ، ويُتجاوزُ عنِ العاميِّ في أمورٍ لا يُتجاوزُ في أمثالِها عنِ العارفِ ؛ لأنَّ الذنبَ والمخالفةَ يكبرُ بمعرفةِ قدْرِ المخالَفِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٢) .

(٢) رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (١٩١٦) بنحوه ، واختار ذلك القول أبو إسحاق الإسفرايني وأبو بكر الباقلاني وإمام الحرمين في « الإرشاد » والقشيري في « المرشدة » ، بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة واختاره في « تفسيره » واعتمد عليه التقي السبكي . « إتحاف » (٨/ ٥٧١) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣) .

ومنها السرورُ بالصغيرةِ : والفرحُ والتبجُّحُ بها ، واعتدادُ التمكُّنِ مِنْ ذلكَ نعمةً ، والغفلةُ عنْ كونِهِ سببَ الشقاوةِ ، فكلَّما غلبَتْ حلاوةُ الصغيرةِ عندَ العبدِ . . كبرَتِ الصغيرةُ ، وعظمَ أثرُها في تسويدِ قلبِهِ ، حتَّىٰ إنَّ مِنَ المذنبينَ مَنْ يتمدَّحُ بذنبِهِ ويتبجَّحُ بهِ ؛ لشدَّةِ فرحِهِ بمقارفتِهِ إيَّاهُ ، كما يقولُ : أما رأيتَني كيفَ مزَّقتُ عرضَهُ ؟ ويقولُ المناظرُ في مناظرتِهِ : أما رأيتَني كيفَ فضحتُهُ ؟ وكيفَ ذكرتُ مساوئَهُ حتَّىٰ أخجلتُهُ ؟ وكيفَ استخففتُ بهِ ؟ وكيفَ لبَّستُ عليهِ ؟ ويقولُ المعاملُ في التجارةِ : أما رأيتَ كيفَ روَّجتُ عليهِ الزائفَ ؟ وكيفَ خدعتُهُ ؟ وكيفَ غبنْتُهُ في مالِهِ ؟ وكيفَ استحمقتُهُ ؟

فهٰذا وأمثالُهُ تكبرُ بهِ الصغائرُ ، فإنَّ الذنوبَ مهلكاتٌ ، وإذا دُفعَ العبدُ إليها ، وظفرَ الشيطانُ بهِ في الحملِ عليها . . فينبغي أنْ يكونَ في مصيبةٍ وتأسُّفٍ بسببِ غلبةِ العدوِّ عليه ، وبسببِ بعدِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فالمريضُ الذي يفرحُ بأنْ ينكسرَ إناؤُهُ الذي فيهِ دواؤُهُ حتَّىٰ يتخلَّصَ مِنْ ألمِ شربِهِ . . لا يُرجىٰ شفاؤُهُ .

❊ ❊ ❊

ومنها أنْ يتهاونَ بسترِ اللهِ عليهِ وحلمِهِ عنهُ وإمهالِهِ إيَّاهُ : ولا يدري أنَّهُ إنَّما يُمهَلُ مقتاً ليزدادَ بالإمهالِ إثماً ، فيظنُّ أنَّ تمكُّنَهُ مِنَ المعاصي عنايةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ بهِ ، فيكونُ ذلكَ لأمنِهِ مِنْ مكرِ اللهِ ، وجهلِهِ بمكامنِ الغرورِ باللهِ ، كما

قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

❁ ❁ ❁

ومنها أنْ يأتيَ الذنبَ ويظهرَهُ : بأنْ يذكرَهُ بعدَ إتيانِهِ ، أوْ يأتيَهُ علىٰ ملأٍ ومشهدٍ مِنْ غيرِهِ ، فإنَّ ذلكَ منهُ جنايةٌ علىٰ سترِ اللهِ الذي أسدلَهُ عليهِ ، وتحريكٌ لرغبةِ الشرِّ فيمَنْ أسمعَهُ ذنبَهُ أوْ أشهدَهُ فعلَهُ ، فهما جنايتانِ انضمتا إلىٰ جنايتِهِ . . فغلظَتْ بهِ .

فإنِ انضافَ إلىٰ ذلكَ الترغيبُ للغيرِ فيهِ ، والحملُ عليهِ ، وتهيئةُ الأسبابِ لهُ . . صارَتْ جنايةً رابعةً ، وتفاحشَ الأمرُ ، وفي الخبرِ : « كلُّ الناسِ معافىً إلا المجاهرينَ ، يبيتُ أحدُهُمْ علىٰ ذنبٍ قدْ سترَهُ اللهُ عليهِ ، فيصبحُ فيكشفُ سترَ اللهِ ويتحدَّثُ بذنبِهِ »[1] ، وهـٰذا لأنَّ مِنْ صفاتِ اللهِ ونعمِهِ أنَّهُ يظهرُ الجميلَ ويسترُ القبيحَ ، ولا يهتكُ السترَ ، فالإظهارُ كفرانٌ لهـٰذهِ النعمةِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (لا تذنبْ ، فإنْ كانَ ولا بدَّ . . فلا ترغِّبْ غيرَكَ فيهِ فتذنبَ ذنبينِ)[2] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٣) ، ورواه بنحوه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٨٣) .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما انتهكَ المرءُ مِنْ أخيهِ حرمةً أعظمَ مِنْ أنْ يساعدَهُ علىٰ معصيةٍ ثمَّ يهوِّنَها عليهِ)[1] .

❀ ❀ ❀

ومنها أنْ يكونَ المذنبُ عالماً يُقتدىٰ بهِ : فإذا فعلَهُ بحيثُ يُرىٰ ذلكَ منهُ . . كبرَ ذنبُهُ ؛ كلبسِ العالمِ الإبريسمَ ، وركوبِهِ مراكبَ الذهبِ والفضةِ ، وأخذِهِ مالَ الشبهةِ مِنْ أموالِ السلاطينِ ، ودخولِهِ على السلاطينِ ، وتودُّدِهِ إليهمْ[2] ، ومساعدتِهِ إيَّاهُمْ بتركِ الإنكارِ عليهِمْ ، وإطلاقِهِ اللسانَ في الأعراضِ ، وتعديهِ باللسانِ في المناظرةِ ، وقصدِهِ الاستخفافَ ، واشتغالِهِ مِنَ العلومِ بما لا يُقصدُ منهُ إلا الجاهُ ؛ كعلمِ الجدلِ والمناظرةِ ، فهـٰذهِ ذنوبٌ يُتبعُ العالمُ عليها ، فيموتُ العالمُ ويبقىٰ شرُّهُ مستطيراً في العالمِ آماداً متطاولةً ، فطوبىٰ لمَنْ إذا ماتَ . . ماتَتْ معَهُ ذنوبُهُ .

وفي الخبرِ : « مَنْ سنَّ سنَّةً سيئةً . . فعليهِ وزرُها ووزرُ مَنْ عملَ بها لا ينقصُ مِنْ أوزارِهِمْ شيئاً »[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٣) .
(٢) في (ب ، ج) : (وتردده إليهم) بدل (وتودده إليهم) .
(٣) رواه مسلم (١٠١٧) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ ، والآثارُ : ما يلحقُ مِنَ الأعمالِ بعدَ انقضاءِ العملِ والعاملِ .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ويلٌ للعالمِ مِنَ الأتباعِ ، يزلُّ زلَّةً فيرجعُ عنها ، ويحتملُها الناسُ فيذهبونَ بها في الآفاقِ)[1] .

وقال بَعضُهُمْ : (مثلُ زلَّةِ العالمِ مثلُ انكسارِ السفينةِ ، تغرقُ ويغرقُ أهلُها)[2] .

وفي الإسرائيلياتِ : أنَّ عالماً كانَ يُضلُّ الناسَ بالبدعةِ ، ثمَّ أدركتْهُ توبةٌ ، فعملَ في الإصلاحِ دهراً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قُلْ لهُ : إنَّ ذنبَكَ لوْ كانَ فيما بيني وبينَكَ . . لغفرتُهُ لكَ ، ولكنْ كيفَ بمَنْ أضللتَ مِنْ عبادي فأدخلتَهُمُ النارَ ؟ ![3] .

فبهٰذا يتضحُ أنَّ أمرَ العلماءِ مخطرٌ ، فعليهِمْ وظيفتانِ :

إحداهُما : تركُ الذنبِ .

والأخرىٰ : إخفاؤُهُ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٣) .

(٢) القول لعبد الله بن المعتز ، رواه عنه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٦٤٦) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣١٣) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٠٤٦) عن خالد الربعي ، وقد نقل الخبر صاحب « القوت » (١/ ١٨٤) وقال عقبه : (فأما استحلال المعصية وإحلالها للغير . . فليس من هٰذه الأبواب في شيء ، إنما ذلك خروج عن الملة وتبديل للشريعة ، وهو الكفر بالله تعالىٰ) .

وكما تتضاعفُ أوزارُهُمْ على الذنوبِ فكذلكَ يتضاعفُ ثوابُهُمْ على الحسناتِ إذا اتُّبِعوا .

فإذا تركَ التجمُّلَ والميلَ إلى الدنيا ، وقنعَ منها باليسيرِ ، ومِنَ الطعامِ بالقوتِ ، ومِنَ الكسوةِ بالخلَقِ ، فيُتَّبَعُ عليهِ ، ويقتدي بهِ العلماءُ والعوامُّ ، فيكونُ لهُ مثلُ ثوابِهِمْ ، وإنْ مالَ إلى التجمُّلِ . . مالَتْ طباعُ مَنْ دونَهُ إلى التشبُّهِ بهِ ، ولا يقدرونَ على التجمُّلِ إلا بخدمةِ السلاطينِ ، وجمعِ الحطامِ مِنَ الحرامِ ، ويكونُ هوَ السببَ في جميعِ ذلكَ ، فحركاتُ العلماءِ في طوريِ الزيادةِ والنقصانِ تتضاعفُ آثارُها ؛ إمَّا بالربحِ ، وإمَّا بالخسرانِ .

وهـٰذا القدْرُ كافٍ في تفاصيلِ الذنوبِ التي التوبةُ توبةٌ عنها .

* * *

الرُّكنُ الثَّالِثُ

في تمام التوبة وشروطها في دوامها إلى آخر العمر

قدْ ذكرنا أنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ ندمٍ يورثُ عزماً وقصداً ، وذلكَ الندمُ أورثَهُ العلمُ بكونِ المعاصي حائلاً بينَهُ وبينَ محبوبِهِ .

ولكلٍّ واحدٍ مِنَ العلمِ والندمِ والعزمِ دوامٌ وتمامٌ ، ولتمامِها علامةٌ ، ولدوامِها شرطٌ ، فلا بدَّ مِنْ بيانِها .

أمَّا العلمُ : فالنظرُ فيهِ نظرٌ في سببِ التوبةِ ، وسيأتي .

وأمَّا الندمُ : فهوَ توجُّعُ القلبِ عندَ شعورِهِ بفواتِ المحبوبِ ، وعلامتُهُ : طولُ الحسرةِ والحزنِ ، وانسكابُ الدمعِ وطولُ البكاءِ والفكرِ ، فمَنِ استشعرَ عقوبةً نازلةً بولدِهِ أوْ ببعضِ أعزَّتِهِ . . طالَ عليهِ بكاؤُهُ لمصيبتِهِ ، وأيُّ عزيزٍ أعزُّ عليهِ مِنَ نفسِهِ ؟! وأيُّ عقوبةٍ أشدُّ مِنَ النارِ ؟! وأيُّ سببٍ أدلُّ علىٰ نزولِ العقوبةِ مِنَ المعاصي ؟! وأيُّ مخبرٍ أصدقُ مِنَ اللهِ ورسولِهِ ؟!

ولوْ حدَّثَهُ إنسانٌ واحدٌ يسمَّىٰ طبيباً أنَّ ولدَهُ المريضَ لا يبرأُ ، وأنَّهُ سيموتُ منهُ . . طالَ في الحالِ حزنُهُ ، فليسَ ولدُهُ بأعزَّ مِنْ نفسِهِ ، ولا الطبيبُ بأعلمَ ولا أصدقَ مِنَ اللهِ ورسولِهِ ، ولا الموتُ بأشدَّ مِنَ النارِ ، ولا المرضُ بأدلَّ على الموتِ مِنَ المعاصي علىٰ سخطِ اللهِ تعالىٰ ، والتعرضِ بها للنارِ .

فألمُ الندمِ كلَّما كانَ أشدَّ . . كانَ تكفيرُ الذنوبِ بهِ أرجىٰ ، فعلامةُ صحَّةِ الندمِ رقَّةُ القلبِ ، وغزارةُ الدمعِ ، وفي الخبرِ : (جالسوا التوَّابينَ ؛ فإنَّهُمْ أرقُّ أفئدةً)[1] .

ومِنْ علامتِهِ : أنْ تتمكَّنَ مرارةُ تلكَ الذنوبِ في قلبِهِ بدلاً مِنْ حلاوتِها ، فيستبدلُ بالميلِ كراهيةً ، وبالرغبةِ نفرةً .

وفي الإسرائيلياتِ : أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ قالَ لبعضِ أنبيائِهِ وقدْ سألَهُ قبولَ توبةِ عبدٍ بعدَ أنِ اجتهدَ سنينَ في العبادةِ ولمْ يرَ قبولَ توبتِهِ فقالَ : وعزَّتي وجلالي ؛ لوْ شفعَ فيهِ أهلُ السماواتِ والأرضِ ما قبلتُ توبتَهُ وحلاوةُ ذلكَ الذنبِ الذي تابَ منهُ في قلبِهِ[2] .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فالذنوبُ هيَ أعمالٌ مشتهاةٌ بالطبعِ ، فكيفَ يجدُ مرارتَها ؟

فأقولُ : مَنْ تناولَ عسلاً كانَ فيهِ سمٌّ ولمْ يدركْهُ بالذوقِ واستلذَّهُ ، ثمَّ مرضَ وطالَ مرضُهُ وألمُهُ ، وتناثرَ شعرُهُ ، وفُلِجَتْ أعضاؤُهُ ، فإذا قدِّمَ إليهِ عسلٌ فيهِ مثلُ ذلكَ السمِّ وهوَ في غايةِ الجوعِ والشهوةِ للحلاوةِ . . فهلَ تنفرُ نفسُهُ عنْ ذلكَ العسلِ أمْ لا ؟

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٦) ، وأحمد في « الزهد » (٦٣١) موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٨١) .

فإنْ قلتَ : لا ، فهوَ جحدٌ للضرورةِ والمشاهدةِ ، بلْ ربَّما تنفرُ عنِ العسلِ الذي ليسَ فيهِ سمٌّ أيضاً ؛ لشبهِهِ بهِ !

فوجدانُ التائبِ مرارةَ الذنبِ كذلكَ يكونُ ، وذلكَ لعلمِهِ بأنَّ كلَّ ذنبٍ فذوقُهُ ذوقُ العسلِ ، وعملُهُ عملُ السمِّ .

ولا تصحُّ التوبةُ ولا تصدقُ إلا بمثلِ هـٰذا الإيمانِ ، ولمَّا عزَّ مثلُ هـٰذا الإيمانِ . . عزَّتِ التوبةُ والتائبونَ ، فلا ترىٰ إلا معرضاً عنِ اللهِ تعالىٰ ، متهاوناً بالذنوبِ ، مصرّاً عليها .

فهـٰذا شرطُ تمامِ الندمِ .

وينبغي أنْ يدومَ إلى الموتِ ، وينبغي أنْ يجدَ هـٰذهِ المرارةَ في جميعِ الذنوبِ وإنْ لمْ يكنْ قدِ ارتكبها مِنْ قبلُ ؛ كما يجدُ متناولُ السمِّ في العسلِ النفرةَ مِنَ الماءِ الباردِ مهما علمَ أنَّ فيهِ مثلَ ذلكَ السمِّ ؛ إذْ لمْ يكنْ ضررُهُ مِنَ العسلِ ، بلْ ممَّا فيهِ ، ولمْ يكنْ ضررُ التائبِ مِنْ سرقتِهِ وزناهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ سرقةٌ وزناً ، بلْ مِنْ حيثُ مخالفتُهُ أمرَ اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ جارٍ في كلِّ ذنبٍ .

وأمَّا القصدُ الذي ينبعثُ منهُ ، وهوَ إرادةُ التداركِ : فلهُ تعلُّقٌ بالحالِ ؛ وهوَ موجِبٌ تركَ كلِّ محظورٍ هوَ ملابسٌ لهُ ، وأداءَ كلِّ فرضٍ هوَ متوجِّهٌ عليهِ في الحالِ ، **ولهُ تعلُّقٌ بالماضي ؛** وهوَ تداركُ ما فرطَ ، **وله تعلُّقٌ بالمستقبلِ ؛** وهوَ دوامُ الطاعةِ ودوامُ تركِ المعصيةِ إلى الموتِ .

وشرطُ صحتِهِ فيما يتعلَّقُ بالماضي : أنْ يردَّ فكرَهُ إلىٰ أوَّلِ يومٍ بلغَ فيهِ

بالسنِّ أوِ الاحتلامِ ، ويفتِّشَ عمَّا مضىٰ مِنْ عمرِهِ سنةً سنةً ، وشهراً شهراً ، ويوماً يوماً ، ونَفَساً نَفَساً ، وينظرَ إلى الطاعاتِ ما الذي قصَّرَ فيهِ منها ، وإلى المعاصي ما الذي قارفَهُ منها .

فإنْ كانَ قدْ تركَ صلاةً ، أوْ صلاَّها في ثوبٍ نجسٍ ، أوْ صلاَّها بنيَّةٍ غيرِ صحيحةٍ لجهلِهِ بشرطِ النيَّةِ . . فيقضيها عنْ آخرِها ، فإنْ شكَّ في عددِ ما فاتَهُ منها . . حسبَ مِنْ مدَّةِ بلوغِهِ وتركَ القدْرَ الذي يستيقنُ أنَّهُ أدَّاهُ ، ويقضي الباقيَ ، ولهُ أنْ يأخذَ فيهِ بغالبِ الظنِّ ، ويصلُ إليهِ علىٰ سبيلِ التحرِّي والاجتهادِ .

وأمَّا الصومُ . . فإنْ كانَ قدْ تركَهُ في سفرٍ ولمْ يقضِهِ ، أوْ أفطرَ عمداً ، أوْ نسيَ النيَّةَ بالليلِ ولمْ يقضِ . . فيتعرَّفُ مجموعَ ذلكَ بالتحرِّي والاجتهادِ ، ويشتغلُ بقضائِهِ .

وأمَّا الزكاةُ . . فيحسبُ جميعَ مالِهِ ، وعددَ السنينَ مِنْ أوَّلِ ملكِهِ ، لا مِنْ زمانِ البلوغِ ؛ فإنَّ الزكاةَ واجبةٌ في مالِ الصبيِّ ، فيؤدِّي ما علمَ بغالبِ الظنِّ أنَّهُ في ذمَّتِهِ ، فإنْ أدَّاهُ لا علىٰ وجهٍ يوافقُ مذهبَهُ ؛ بأنْ لمْ يُصرفْ إلى الأصنافِ الثمانيةِ ، أوْ أخرجَ البدلَ وهوَ علىٰ مذهبِ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ . . فيقضي جميعَ ذلكَ ، فإنَّ ذلكَ لا يجزئُهُ أصلاً ، وحسابُ الزكاةِ ومعرفةُ ذلكَ يطولُ ، ويحتاجُ فيهِ إلىٰ تأمُّلٍ شافٍ ، ويلزمُهُ أنْ يسألَ عنْ كيفيَّةِ الخروجِ عنْهُ العلماءَ .

وأمَّا الحجُّ . . فإنْ كانَ قدِ استطاعَ في بعضِ السنينَ ولمْ يتفقْ لهُ الخروجُ وهوَ الآنَ قدْ أفلسَ . . فعليهِ الخروجُ ، فإنْ لمْ يقدرْ معَ الإفلاسِ . . فعليهِ أنْ يكتسبَ مِنَ الحلالِ قدْرَ الزادِ ، فإنْ لمْ يكنْ لهُ كسبٌ ولا مالٌ . . فعليهِ أنْ يسألَ الناسَ ليُصرفَ إليهِ مِنَ الزكواتِ أوِ الصدقاتِ ما يحجُّ بهِ ؛ فإنَّهُ إنْ ماتَ قبلَ الحجِّ . . ماتَ عاصياً ، قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ ماتَ ولمْ يحجَّ . . فليمتْ إنْ شاءَ يهودياً وإنْ شاءَ نصرانياً »[1] ، والعجزُ الطارىءُ بعدَ القدرةِ لا يُسقطُ عنهُ الحجَّ .

فهٰذا طريقُ تفتيشِهِ عنِ الطاعاتِ وتداركِها .

وأمَّا المعاصي . . فينبغي أنْ يفتِّشَ مَنْ أوَّلِ بلوغِهِ عنْ سمعِهِ ، وبصرِهِ ، ولسانِهِ ، وبطنِهِ ، ويدِهِ ، ورجلِهِ ، وفرجِهِ ، وسائرِ جوارحِهِ ، ثمَّ ينظرَ في جميعِ أيَّامِهِ وساعاتِهِ ، ويفصِّلَ عندَ نفسِهِ ديوانَ معاصيهِ ، حتَّىٰ يطَّلعَ علىٰ جميعِها ؛ صغائرِها وكبائرِها ، ثمَّ ينظرَ فيها : فما كانَ مِنْ ذلكَ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ لا يتعلَّقُ بمظلمةِ العبادِ ؛ كنظرٍ إلىٰ غيرِ محرمٍ ، وقعودٍ في مسجدٍ معَ الجنابةِ ، ومسِّ مصحفٍ بغيرِ وضوءٍ ، واعتقادِ بدعةٍ ، وشربِ خمرٍ ، وسماعِ ملاهٍ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا لا يتعلَّقُ بمظالمِ العبادِ . . فالتوبةُ عنها بالندمِ والتحسُّرِ عليها ، وبأنْ يحسبَ مقدارَها مِنْ حيثُ الكثرةُ ومِنْ حيثُ

---

(1) رواه الترمذي (٨١٢) ، والدارمي في « سننه » (١٨٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٥١/٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣٣٤/٤) وقال : (وهٰذا وإن كان إسناده غير قوي . . فله شاهد من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه) وذكره .

المدَّةُ ، ويطلبَ لكلِّ معصيةٍ منها حسنةً تناسبُها ، فيأتيَ مِنَ الحسناتِ بمقدارِ تلكَ السيئاتِ ، أخذاً مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقِ اللهَ حيثُ كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها »[1] ، بلْ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ .

فيكفِّرُ سماعَ الملاهي بسماعِ القرآنِ وبمجالسِ الذكرِ ، ويكفِّرُ القعودَ في المسجدِ جنباً بالاعتكافِ فيهِ معَ الاشتغالِ بالعبادةِ ، ويكفِّرُ مسَّ المصحفِ محدثاً بإكرامِ المصحفِ ، وكثرةِ قراءةِ القرآنِ منهُ ، وكثرةِ تقبيلِهِ[2] ، وبأنْ يكتبَ مصحفاً ويجعلَهُ وقفاً ، ويكفِّرُ شربَ الخمرِ بالتصدُّقِ بكلِّ شرابٍ حلالٍ هوَ أطيبُ منهُ وأحبُّ إليهِ .

وعدُّ جميعِ المعاصي غيرُ ممكنٍ ، وإنَّما المقصودُ سلوكُ طريقِ المضادَّةِ ، فإنَّ المرضَ يعالجُ بضدِّهِ ، فكلُّ ظلمةٍ ارتفعَتْ إلى القلبِ بمعصيةٍ فلا يمحوها إلا نورٌ يرتفعُ إليها بحسنةٍ تضادُّها ، والمتضادَّاتُ هيَ المتناسباتُ ، فلذلكَ ينبغي أنْ يمحوَ كلَّ سيئةٍ بحسنةٍ مِنْ جنسِها لكيْ تضادَّها ، فإنَّ البياضَ يزالُ بالسوادِ ، لا بالحرارةِ والبرودةِ .

وهٰذا التجريدُ والتحقيقُ مِنَ التلطُّفِ في طريقِ المحوِ ، فالرجاءُ فيهِ أصدقُ ، والثقةُ بهِ أكثرُ مِنْ أنْ يواظبَ علىٰ نوعٍ واحدٍ مِنَ العباداتِ ، وإنْ كانَ ذلكَ أيضاً مؤثراً في المحوِ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٤٥) .

(٢) ووضعه على العينين ، ورفعه في أشرف المواضع . « إتحاف » (٨/ ٥٧٦) .

فهٰذا حكمُ ما بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ الشيءَ يكفَّرُ بضدِّهِ أنَّ حبَّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وأثرُ اتباعِ الدنيا في القلبِ السرورُ بها ، والإلْفُ لها ، والحنينُ إليها ، فلا جرمَ كانَ كلُّ أذىً يصيبُ المسلمَ ينبو بسببِهِ قلبُهُ عنِ الدنيا يكونُ كفارةً لهُ ؛ إذِ القلبُ يتجافىٰ بالهمومِ والغمومِ عنْ دارِ الهمومِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنَ الذنوبِ ذنوبٌ لا يكفِّرُها إلا الهمومُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « إلا الهمُّ بطلبِ المعيشةِ »[1] .

وفي حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « إذا كثرَتْ ذنوبُ العبدِ ولمْ تكنْ لهُ أعمالٌ تكفِّرُها . أدخلَ اللهُ تعالىٰ عليهِ الهمومَ ، فتكونُ كفَّارةً لذنوبِهِ »[2] .

ويُقالُ : (إنَّ الهمَّ الذي يدخلُ على القلبِ والعبدُ لا يعرفُهُ هوَ ظلمةُ الذنوبِ والهمُّ بها ، وشعورُ القلبِ بوقفةِ الحسابِ وهولِ المطَّلَعِ)[3] .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : همُّ الإنسانِ غالباً بمالِهِ وولدِهِ وجاهِهِ ، وهوَ خطيئةٌ ، فكيفَ يكونُ كفَّارةً ؟

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٢٠٠) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٥٧) بنحوه .

(٣) بنحوه عند صاحب « القوت » (١/ ١٨٦) .

فاعلمْ : أنَّ الحبَّ لهُ خطيئةٌ ، والحرمانَ عنهُ كفَّارةٌ ، ولوْ تمتَّعَ بهِ . . لتمَّتِ الخطيئةُ ، فقدْ رُوِيَ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ دخلَ علىٰ يوسفَ عليهِ السلامُ في السجنِ ، فقالَ لهُ : كيفَ تركتَ الشيخَ الكئيبَ ؟ فقالَ : قدْ حزنَ عليكَ حزنَ مئةِ ثكلىٰ ، قالَ : فما لهُ عندَ اللهِ ؟ قالَ : أجرُ مئةِ شهيدٍ[1] .

فإذاً ؛ الهمومُ أيضاً مكفِّراتٌ حقوقَ اللهِ .

فهٰذا حكمُ ما بينَهُ وبينَ اللهِ .

وأمَّا مظالمُ العبادِ . . ففيها أيضاً معصيةٌ وجنايةٌ علىٰ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ نهىٰ عنْ ظلمِ العبادِ أيضاً ، فما يتعلَّقُ منهُ بحقِّ اللهِ تعالىٰ تداركَهُ بالندمِ والتحسُّرِ ، وتركِ مثلِهِ في المستقبلِ ، والإتيانِ بالحسناتِ التي هيَ أضدادُها ، فيقابلُ إيذاءَهُ الناسَ بالإحسانِ إليهِمْ ، ويكفِّرُ غصْبَ أموالِهِمْ بالتصدُّقِ بملكِهِ الحلالِ ، ويكفِّرُ تناولَ أعراضِهِمْ بالغيبةِ والقدحِ فيهِمْ بالثناءِ علىٰ أهلِ الدينِ وإظهارِ ما يعرفُ مِنْ خصالِ الخيرِ مِنْ أقرانِهِ وأمثالِهِ ، ويكفِّرُ قتْلَ النفوسِ بإعتاقِ الرقابِ ؛ لأنَّ ذلكَ إحياءٌ ؛ إذِ العبدُ مفقودٌ لنفسِهِ ، موجودٌ لسيِّدِهِ ، فالإعتاقُ إيجادٌ لا يقدرُ الإنسانُ علىٰ أكثرَ منهُ ، فيقابلُ الإعدامَ بالإيجادِ ، وبهٰذا تعرفُ أنَّ ما ذكرناهُ مِنْ سلوكِ طريقِ المضادةِ في التكفيرِ والمحوِ مشهودٌ لهُ في الشرعِ ، حيثُ كفَّرَ القتلَ بإعتاقِ رقبةٍ ، ثمَّ إذا فعلَ ذلكَ كلَّهُ . . لمْ ينجِهِ ولمْ يكفِهِ ما لمْ يخرجْ عنْ مظالمِ العبادِ ، ومظالمُ

---

(1) كذا في « القوت » (١/ ١٨٦) ، وبنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ٦٠) .

العبادِ إمَّا في النفوسِ ، أوِ الأموالِ ، أوِ الأعراضِ ، أوِ القلوبِ ؛ أعني بهِ : الإيذاءَ المحضَ .

أمَّا النفوسُ : فإنْ جرىٰ عليهِ قتلُ خطأٍ . . فتوبتُهُ بتسليمِ الديةِ ووصولِها إلى المستحقِّ ؛ إمَّا منهُ أوْ مِنْ عاقلتِهِ ، وهوَ في عهدةِ ذلكَ قبلَ الوصولِ ، وإنْ كانَ عمداً موجباً للقصاصِ . . فبالقصاصِ ، فإنْ لمْ يُعرفْ . . فيجبُ عليهِ أنْ يعترفَ عندَ وليِّ الدمِ ، ويحكِّمَهُ في روحِهِ ، فإنْ شاءَ عفا عنهُ ، وإنْ شاءَ . . قتلَهُ ، ولا تسقطُ عهدتُهُ إلا بهـٰذا ، ولا يجوزُ لهُ الإخفاءُ .

وليسَ هـٰذا كما لوْ زنىٰ ، أوْ شربَ ، أوْ سرقَ ، أوْ قطعَ الطريقَ ، أوْ باشرَ ما يجبُ فيهِ حدٌّ للهِ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ لا يلزمُهُ في التوبةِ أنْ يفضحَ نفسَهُ ، ويهتكَ سترَهُ ، ويلتمسَ مِنَ الوالي استيفاءَ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، بلْ عليهِ أنْ يتسترَ بسترِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويقيمَ حدَّ اللهِ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ بأنواعِ المجاهدةِ والتعذيبِ ، فالعفوُ في محضِ حقوقِ اللهِ تعالىٰ قريبٌ مِنَ التائبينَ النادمينَ .

فإنْ رفعَ أمرَهُ إلى الوالي حتَّىٰ أقامَ عليهِ الحدَّ . . وقعَ موقعَهُ ، وتكونُ توبتُهُ صحيحةً مقبولةً عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ بدليلِ ما رُوِيَ أنَّ ماعزَ بنَ مالكٍ أتىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي قدْ ظلمتُ نفسي وزنيتُ ، وإنِّي أريدُ أنْ تطهِّرَني ، فردَّهُ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . أتاهُ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي قدْ زنيتُ ، فردَّهُ الثانيةَ والثالثةَ ، فلمَّا كانَ في الرابعةِ . . أمرَ بهِ فحُفرَ لهُ حفيرةٌ ، ثمَّ أمرَ بهِ فرُجمَ ، فكانَ الناسُ فيهِ فرقتينِ ؛ قائلٌ يقولُ : لقدْ هلكَ ، لقدْ أحاطَتْ بهِ خطيئتُهُ ، وقائلٌ يقولُ : ما توبةٌ أفضلَ مِنْ

توبةِ ماعزٍ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ تابَ توبةً لوْ قسمَتْ بينَ أمَّةٍ . . لوسعَتْهُمْ »[١] .

وجاءتِ الغامديَّةُ فقالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي قدْ زنيتُ فطهِّرْني ، فردَّها ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . قالَتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ لِمَ تردُّني ؟ لعلَّكَ تريدُ أنْ تردِّدَني كما ردَّدْتَ ماعزاً ، فواللهِ ؛ إنِّي لحبلىٰ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إمَّا لا . . فاذهبي حتَّىٰ تلدي » ، فلمَّا ولدَتْ . . أتَتْ بالصبيِّ في خرقةٍ ، فقالَتْ : هٰذا قدْ ولدتُهُ ، قالَ : « اذهبي فأرضعيهِ حتَّىٰ تفطميهِ » ، فلمَّا فطمَتْهُ . . أتَتْ بالصبيِّ وفي يدهِ كسرةُ خبزٍ ، وقالَتْ : هٰذا يا نبيَّ اللهِ قدْ فطمتُهُ ، وقدْ أكلَ الطعامَ ، فدفعَ الصبيَّ إلىٰ رجلٍ مِنَ المسلمينَ ، ثمَّ أمرَ بها ، فحفرَ لها إلىٰ صدرِها ، وأمرَ الناسَ فرجموها ، فأقبلَ خالدُ بنُ الوليدِ بحجرٍ ، فرمىٰ رأسَها ، فتنضَّحَ الدمُ علىٰ وجهِهِ ، فسبَّها ، فسمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سبَّهُ إيَّاها ، فقالَ : « مهلاً يا خالدُ ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لقدْ تابَتْ توبةً لوْ تابَها صاحبُ مكسٍ . . لغفرَ لهُ » ، ثمَّ أمرَ بها فصُلِّيَ عليها ودفنَتْ[٢] .

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٥) .

(٢) رواه مسلم (١٦٩٥) متابعة للحديث السابق ، ومفرداً كما هو هنا ، وقوله : « إما لا » : هو بكسر الهمز وتشديد الميم وبالإمالة ، وفي غير (ب ، س) : (أما الآن) بدل (إما لا) ، وهو غلط كما قاله الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٥٨٠) ، قال الإمام النووي في « شرح مسلم » (١١/ ٢٠٣) ، (ومعناه : إذا أبيت أن تستري علىٰ نفسك وتتوبي وترجعي عن قولك . . فاذهبي حتىٰ تلدي فتُرجمين بعد ذلك) .

وأمَّا القصاصُ وحدُّ القذفِ . . فلا بدَّ مِنْ تحكيمِ المستحقِّ فيهِ[1] ، وإنْ كانَ المتناولُ مالاً قدْ تناولَهُ بغصْبٍ أوْ خيانةٍ أوْ غبنٍ في معاملةٍ بنوعِ تلبيسٍ ؛ كترويجِ زائفٍ ، أوْ سَترِ عيبٍ مِنَ المبيعِ ، أوْ نقصِ أجرةِ أجيرٍ ، أوْ منعِ أجرتِهِ ، فكلُّ ذلكَ يجبُ أنْ يفتشَ عنهُ ، لا مِنْ حدِّ بلوغِهِ ، بلْ مِنْ أوَّلِ حدِّ وجودِهِ ، فإنَّ ما يجبُ في مالِ الصبيِّ يجبُ على الصبيِّ إخراجُهُ بعدَ البلوغِ إنْ كانَ الوليُّ قدْ قصَّرَ فيهِ ، فإنْ لمْ يفعلْ كانَ ظالماً مطالباً بهِ ؛ إذْ يستوي في الحقوقِ الماليّةِ الصبيُّ والبالغُ ، وليحاسبْ نفسَهُ على الحبَّاتِ والذرَّاتِ مِنْ أوَّلِ يومِ حياتِهِ إلىٰ يومِ توبتِهِ قبلَ أنْ يُحاسبَ في القيامةِ ، وليناقشْ نفسَهُ قبلَ أنْ يُناقشَ ، فمَنْ لمْ يُحاسبْ نفسَهُ في الدنيا . . طالَ في الآخرةِ حسابُهُ .

فإذا حصلَ مجموعُ ما عليهِ بظنٍّ غالبٍ ونوعٍ مِنَ الاجتهادِ ممكنٍ . . فليكتبْهُ ، وليكتبْ أساميَ أصحابِ المظالمِ واحداً واحداً ، وليطفْ في نواحي العالمِ وليطلبْهُمْ ، وليستحلَّهُمْ أوْ ليؤدِّ حقوقَهُمْ .

وهٰذهِ التوبةُ تشقُّ على الظلمةِ وعلى التجَّارِ ، فإنَّهُمْ لا يقدرونَ علىٰ طلبِ المعاملينَ كلِّهِمْ ، ولا علىٰ طلبِ ورثتِهِمْ ، ولكنْ علىٰ كلِّ واحدٍ منهُمْ أنْ يفعلَ منهُ ما يقدرُ عليهِ ، فإنْ عجزَ . . فلا يبقىٰ لهُ طريقٌ إلا أنْ يكثرَ مِنَ الحسناتِ حتَّىٰ تفيضَ منهُ يومَ القيامةِ ، فتؤخذُ حسناتُهُ وتُوضعُ في موازينِ أربابِ المظالمِ ، ولتكنْ كثرةُ حسناتِهِ بقدْرِ كثرةِ مظالمِهِ ، فإنَّهُ إنْ لمْ تفِ بها

---

(١) فإن شاء . . اقتصَّ ، وإن شاء . . عفا ، وكذا في حدِّ القذف . « إتحاف » (٨/ ٥٨٢) .

حسناتُهُ . . حُمِّلَ مِنْ سيِّئاتِ أربابِ المظالمِ ، فيهلكُ بسيِّئاتِ غيرِهِ .

فهٰذا طريقُ كلِّ تائبٍ في ردِّ المظالمِ ، وهٰذا يوجبُ استغراقَ العمرِ في الحسناتِ لوْ طالَ العمرُ بحسَبِ طولِ مدَّةِ المظالمِ ، فكيفَ وذلكَ ممَّا لا يُعرفُ وربَّما يكونُ الأجلُ قريباً ؟! فينبغي أنْ يكونَ تشمُّرُهُ للحسناتِ والوقتُ ضيِّقٌ أشدَّ مِنْ تشمُّرِهِ الذي كانَ في المعاصي في متَّسعِ الأوقاتِ .

هٰذا حكْمُ المظالمِ الثابتةِ في ذمَّتِهِ .

أمَّا أموالُهُ الحاضرةُ . . فليردَّ إلى المالكِ ما يعرفُ لهُ مالكاً معيَّناً ، وما لا يعرفُ لهُ مالكاً . . فعليهِ أنْ يتصدَّقَ بهِ ، فإنِ اختلطَ الحرامُ بالحلالِ . . عرفَ قدْرَ الحرامِ بالاجتهادِ ، وتصدَّقَ بذلكَ المقدارِ كما سبقَ تفصيلُهُ في كتابِ الحلالِ والحرامِ .

وأمَّا الجنايةُ على القلوبِ بمشافهةِ الناسِ بما يسوءُهُمْ أوْ يعيبُهُمْ في الغيبةِ . . فليطلبْ كلَّ مَنْ تعرَّضَ لهُ بلسانِهِ ، أوْ آذىٰ قلبَهُ بفعلٍ مِنْ أفعالِهِ ، وليستحلَّ واحداً واحداً منهُمْ ، ومَنْ ماتَ أوْ غابَ . . فقدْ فاتَ أمرُهُ ، ولا تداركَ لهُ إلا بتكثيرِ الحسناتِ ، لتُؤخذَ منهُ عوضاً في القيامةِ ، وأمَّا مَنْ وجدَهُ وأحلَّهُ بطيبةِ قلبٍ منهُ . . فذلكَ كفَّارتُهُ ، وعليهِ أنْ يعرِّفَهُ قدْرَ جنايتِهِ وتعرُّضَهُ لهُ ، فالاستحلالُ المبهمُ لا يكفي ، وربَّما لوْ عرفَ ذلكَ وكثرةَ تعدِّيهِ عليهِ . . لمْ تطبْ نفسُهُ بالإحلالِ ، وادخرَ ذلكَ في القيامةِ ذخيرةً يأخذُها مِنْ حسناتِهِ ، أوْ يحمِّلُهُ مِنْ سيئاتِهِ .

فإنْ كانَ في جملةِ جنايتِهِ على الغيرِ ما لوْ ذكرَهُ وعرفَهُ لتأذَّىٰ بمعرفتِهِ ؛ كزناهُ بجاريتِهِ أوْ أهلِهِ ، أوْ نسبتِهِ باللسانِ إلىٰ عيبٍ مِنْ خفايا عيوبِهِ يعظمُ أذاهُ مهما شوَّفَهُ بهِ . . فقدِ انسدَّ عليهِ طريقُ الاستحلالِ ، فليسَ لهُ إلا أنْ يستحلَّ مبهماً ، ثمَّ تبقىٰ لهُ مظلمةٌ فليجبرْها بالحسناتِ كما يجبرُ مظلمةَ الميتِ والغائبِ ، فأمَّا الذكرُ والتعريفُ . . فهوَ سيئةٌ جديدةٌ يجبُ الاستحلالُ منها ، ومهما ذكرَ جنايتَهُ وعرَّفَهُ المجنيَّ عليهِ فلمْ تسمحْ نفسُهُ بالإحلالِ . . بقيتِ المظلمةُ عليهِ ؛ فإنَّ هـٰذا حقُّهُ ، فعليهِ أنْ يتلطَّفَ بهِ ، ويسعىٰ في مهمَّاتِهِ وأغراضِهِ ، ويظهرَ مِنْ حبِّهِ والشفقةِ عليهِ ما يستميلُ بهِ قلبَهُ ، فإنَّ الإنسانَ عبدُ الإحسانِ ، وكلُّ مَنْ نفرَ بسيئةٍ . . مالَ بحسنةٍ ، فإذا طابَ قلبُهُ بكثرةِ تودُّدِهِ وتلطُّفِهِ . . سمحَتْ نفسُهُ بالإحلالِ ، فإنْ أبىٰ إلاَّ الإصرارَ . . فيمكنُ أنْ يكونَ تلطُّفُهُ بهِ واعتذارُهُ إليهِ مِنْ جملةِ حسناتِهِ التي يمكنُ أنْ يجبرَ بها في القيامةِ جنايتَهُ .

وليكنْ قدْرُ سعيِهِ في فرحِهِ وسرورِ قلبِهِ بتودُّدِهِ وتلطُّفِهِ كقدْرِ سعيِهِ في إيذائِهِ ؛ حتَّىٰ إذا قاومَ أحدُهُما الآخرَ أوْ زادَ عليهِ . . أُخِذَ ذلكَ منهُ عوضاً في القيامةِ بحكمِ اللهِ بهِ عليهِ ؛ كمَنْ أتلفَ في الدنيا مالاً ، فجاءَ بمثلِهِ ، فامتنعَ مَنْ لهُ المالُ عنِ القبولِ وعنِ الإبراءِ ، فإنَّ الحاكمَ يحكمُ عليهِ بالقبضِ منهُ شاءَ أمْ أبىٰ ، فكذلكَ يحكمُ في صعيدِ القيامةِ أحكمُ الحاكمينَ وأعدلُ المقسطينَ .

وفي المتفقِ عليهِ مِنَ « الصحيحينِ » عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ أنَّ نبيَّ اللهِ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « كانَ فيمَنْ كانَ قبلَكُمْ رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفساً ، فسألَ عنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ ، فدُلَّ علىٰ راهبٍ ، فأتاهُ فقالَ : إنَّهُ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفساً ، فهلْ لهُ مِنْ توبةٍ ؟ فقالَ : لا ، فقتلَهُ ، فكمَّلَ بهِ مئةً ، ثمَّ سألَ عنْ أعلمِ أهلِ الأرضِ ، فدُلَّ علىٰ رجلٍ عالمٍ ، فقالَ لهُ : إنَّهُ قتلَ مئةَ نفسٍ ، فهلْ لهُ مِنْ توبةٍ ؟ فقالَ : نعمْ ، ومَنْ يحولُ بينَهُ وبينَ التوبةِ ؟ انطلقْ إلىٰ أرضِ كذا وكذا ، فإنَّ بها أناساً يعبدونَ اللهَ عزَّ وجلَّ ، فاعبدِ اللهَ معَهُمْ ولا ترجعْ إلىٰ أرضِكَ ، فإنَّها أرضُ سوءٍ ، فانطلقَ ، حتَّىٰ إذا نَصَفَ الطريقُ . . أتاهُ الموتُ ، فاختصمَتْ فيهِ ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ ، فقالَتْ ملائكةُ الرحمةِ : جاءَ تائباً مقبلاً بقلبِهِ إلى اللهِ ، وقالَتْ ملائكةُ العذابِ : إنَّهُ لمْ يعملْ خيراً قطُّ ، فأتاهُمْ ملكٌ في صورةِ آدميٍّ ، فجعلوهُ حَكماً بينَهُمْ ، فقالَ : قيسوا ما بينَ الأرضينِ ، فإلىٰ أيتِهما كانَ أدنىٰ . . فهوَ لها ، فقاسوا ، فوجدوهُ أدنىٰ إلى الأرضِ التي أرادَ ، فقبضَتْهُ ملائكةُ الرحمةِ » ، وفي روايةٍ : « فكانَ إلى القريةِ الصالحةِ أقربَ منها بشبرٍ ، فجُعِلَ مِنْ أهلِها » ، وفي روايةٍ : « فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ هـٰذهِ أنْ تباعدي ، وإلىٰ هـٰذهِ أنْ تقرَّبي ، وقالَ : قيسوا ما بينَهُما ، فوجدوهُ إلىٰ هـٰذهِ أقربَ بشبرٍ ، فغُفِرَ لهُ »[1] .

فبهـٰذا تعرفُ أنَّهُ لا خلاصَ إلا برجحانِ ميزانِ الحسناتِ ولوْ بمثقالِ ذرَّةٍ ، فلا بدَّ للتائبِ مِنْ تكثيرِ الحسناتِ .

---

(١) هو كما قال المصنف رحمه الله تعالىٰ عند البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ والروايات له .

هـٰذا حكمُ القصدِ المتعلِّقِ بالماضي .

فأمَّا العزمُ المرتبطُ بالاستقبالِ : فهوَ أنْ يعقدَ معَ اللهِ عقداً مؤكَّداً ، ويعاهدَهُ بعهدٍ وثيقٍ ألا يعودَ إلىٰ تلكَ الذنوبِ ، ولا إلىٰ أمثالِها ؛ كالذي يعلمُ في مرضِهِ أنَّ الفاكهةَ تضرُّهُ مثلاً ، فيعزمُ عزماً جزْماً أنَّهُ لا يتناولُ الفاكهةَ ما لمْ يزلْ مرضُهُ ، فإنَّ هـٰذا العزمَ يتأكَّدُ في الحالِ وإنْ كانَ يُتصوَّرُ أنْ تغلبَهُ الشهوةُ في ثاني الحالِ ، ولكنْ لا يكونُ تائباً ما لمْ يتأكَّدْ عزمُهُ في الحالِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يتمَّ ذلكَ للتائبِ في أوَّلِ أمرِهِ إلا بالعزلةِ ، والصمتِ ، وقلَّةِ الأكلِ والنومِ ، وإحرازِ قوتٍ حلالٍ .

فإنْ كانَ لهُ مالٌ موروثٌ حلالٌ ، أوْ كانَتْ لهُ حرفةٌ يكتسبُ بها قدْرَ الكفايةِ . . فليقتصرْ عليهِ ، فإنَّ رأسَ المعاصي أكلُ الحرامِ ، فكيفَ يكونُ تائباً معَ الإصرارِ عليهِ ؟!

ولا يكتفي بالحلالِ وتركِ الشبهاتِ مَنْ لا يقدرُ علىٰ تركِ الشهواتِ في المأكولاتِ والملبوساتِ .

وقالَ بعضُهُمْ : (مَنْ صدقَ في تركِ شهوةٍ ، وجاهدَ نفسَهُ للهِ سبعَ مرَّاتٍ . . لمْ يبتلَ بها)[1] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٨) ، وقريب منها كلمة أبي يزيد البسطامي المشهورة التي رواها القشيري في « رسالته » (ص٦٧) : (ومن صدق في ترك شهوة . . ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالىٰ أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له) .

وقالَ آخرُ : (مَنْ تابَ مِنْ ذنبٍ واستقامَ عليهِ سبعَ سنينَ . . لمْ يعدْ إليهِ أبداً)[1] .

ومِنْ مهمَّاتِ التائبِ إذا لمْ يكنْ عالماً : أنْ يتعلَّمَ ما يجبُ عليهِ في المستقبلِ وما يحرمُ عليهِ ؛ حتَّىٰ يمكنَهُ الاستقامةُ ، وإنْ لمْ يؤثِرِ العزلةَ . . لمْ تتمَّ لهُ الاستقامةُ المطلقةُ ، إلا أنْ يتوبَ عنْ بعضِ الذنوبِ ؛ كالذي يتوبُ عنِ الشربِ والزنا والغصْبِ مثلاً ، وليسَتْ هـٰذهِ توبةً مطلقةً ، وقدْ قالَ بعضُ الناسِ : (إنَّ هـٰذهِ التوبةَ لا تصحُّ)[2] .

وقالَ قائلونَ : (تصحُّ)[3] .

ولفظُ الصحَّةِ في هـٰذا المقامِ مجملٌ ، بلْ نقولُ لمَنْ قالَ : (لا تصحُّ) : إنْ عنيتَ بهِ أنَّ تركَهُ بعضَ الذنوبِ لا يفيدُ أصلاً ، بلْ وجودُهُ كعدمِهِ . . فما أعظمَ خطأَكَ ، فإنَّا نعلمُ أنَّ كثرةَ الذنوبِ سببٌ لكثرةِ العقابِ ، وقلَّتَها سببٌ لقلَّتِهِ .

ونقولُ لمَنْ قَالَ : (تصحُّ) : إنْ أردتَ بهِ أنَّ التوبةَ عنْ بعضِ الذنوبِ توجبُ قبولاً يوصلُ إلى النجاةِ والفوزِ . . فهـٰذا أيضاً خطأٌ ، بلِ النجاةُ والفوزُ بتركِ الجميعِ .

---

(1) قوت القلوب (١/ ١٨٨) ، وقوله : (واستقام عليه) أي : علىٰ توبته من ذلك الذنب ، وسقطت (عليه) من « القوت » وهو المناسب للسياق .

(2) وهو المحكي عن المعتزلة . « إتحاف » (٨/ ٥٨٤) .

(3) وهو المحكي عن أهل السنة والجماعة . « إتحاف » (٨/ ٥٨٤) .

هـٰذا حكْمُ الظاهرِ ، ولسنا نتكلَّمُ في خفايا أسرارِ عفوِ اللهِ .

وإنْ قالَ مَنْ ذهبَ إلىٰ أنَّها لا تصحُّ : إنِّي أردتُ بهِ أنَّ التوبةَ عبارةٌ عنِ الندمِ ، وإنَّما يندمُ على السرقةِ مثلاً لكونِها معصيةً ، لا لكونِها سرقةً ، ويستحيلُ أنْ يندمَ عليها دونَ الزنا إنْ كانَ توجُّعُهُ لأجلِ المعصيةِ ؛ فإنَّ العلَّةَ شاملةٌ لهما ؛ إذْ مَنْ يتوجَّعُ علىٰ قتلِ ولدِهِ بالسيفِ يتوجَّعُ علىٰ قتلِهِ بالسكينِ ؛ لأنَّ توجُّعَهُ بفواتِ محبوبِهِ سواءٌ كانَ بالسيفِ أوْ بالسكينِ ، فكذلكَ توجُّعُ العبدِ بفواتِ محبوبِهِ ، وذلكَ بالمعصيةِ سواءً عصىٰ بالسرقةِ أوْ بالزنا ، فكيفَ يتوجَّعُ على البعضِ دونَ البعضِ ؟! فالندمُ حالةٌ يوجبُها العلمُ بكونِ المعصيةِ مفوتةً للمحبوبِ مِنْ حيثُ إنَّها معصيةٌ ، فلا يتصوَّرُ أنْ يكونَ علىٰ بعضِ المعاصي دونَ بعضٍ ، ولوْ جازَ هـٰذا . لجازَ أنْ يتوبَ مَنْ شربَ الخمرَ مِنْ أحدِ الدَّنَّينِ دونَ الآخرِ ، فإنِ استحالَ ذلكَ مِنْ حيثُ إنَّ المعصيةَ في الخمرينِ واحدةٌ ، وإنَّما الدِّنانُ ظروفٌ . . فكذلكَ أعيانُ المعاصي آلاتٌ للمعصيةِ ، والمعصيةُ مِنْ حيثُ مخالفةُ الأمرِ واحدةٌ .

فإذاً ؛ معنىٰ عدمِ الصحَّةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ وعدَ التائبينَ رتبةً ، وتلكَ الرتبةُ لا تُنالُ إلا بالندمِ ، ولا يُتصوَّرُ الندمُ علىٰ بعضِ المتماثلاتِ ، فهوَ كالمِلْكِ المرتَّبِ على الإيجابِ والقبولِ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يتمَّ الإيجابُ والقبولُ . . يُقالُ : إنَّ العقدَ لمْ يصحَّ ؛ أيْ : لا تترتَّبُ عليهِ الثمرةُ ، وهوَ المِلْكُ .

وتحقيقُ هـٰذا : أنَّ ثمرةَ مجرَّدِ التركِ أنْ ينقطعَ عنهُ عقابُ ما تركَهُ ،

وثمرةَ الندمِ تكفيرُ ما سبقَ ، فتركُ السرقةِ لا يكفِّرُ السرقةَ ، بلِ الندمُ عليها يكفِّرُها ، ولا يُتصوَّرُ الندمُ إلا لكونِها معصيةً ، وذلكَ يعمُّ جميعَ المعاصي .

وهـٰذا كلامٌ مفهومٌ واقعٌ ، يستنطقُ المنصِفَ بتفصيلٍ بهِ ينكشفُ الغطاءُ ، فنقولُ : التوبةُ عنْ بعضِ الذنوبِ لا تخلو : إمَّا أنْ تكونَ عنِ الكبائرِ دونَ الصغائرِ ، أوْ عنِ الصغائرِ دونَ الكبائرِ ، أوْ عنَ كبيرةٍ دونَ كبيرةٍ .

❀ ❀ ❀

أمَّا التوبةُ عنِ الكبائرِ دونَ الصغائرِ : فأمرٌ ممكنٌ ؛ لأنَّهُ يعلمُ أنَّ الكبائرَ أعظمُ عندَ اللهِ ، وأجلبُ لسخطِ اللهِ ومقتِهِ ، والصغائرَ أقربُ إلىٰ تطرُّقِ العفوِ إليها ، فلا يستحيلُ أنْ يتوبَ عنِ الأعظمِ ويتندَّمَ عليهِ ؛ كالذي يجني علىٰ أهلِ الملكِ وحرمِهِ ، ويجني علىٰ دابَّتِهِ ، فيكونُ خائفاً مِنَ الجنايةِ على الأهلِ ، مستحقراً للجنايةِ على الدابَّةِ ، والندمُ بحسَبِ استعظامِ الذنبِ ، واعتقادِ كونِهِ مبعِداً عنِ اللهِ تعالىٰ .

وهـٰذا ممكنٌ وجودُهُ في الشرعِ ، فقدْ كثرَ التائبونَ في الأعصارِ الخاليةِ ولمْ يكنْ أحدٌ منهُمْ معصوماً ، فلا تستدعي التوبةُ العصمةَ ، والطبيبُ قدْ يحذِّرُ المريضَ العسلَ تحذيراً شديداً ، ويحذِّرُهُ السكَّرَ تحذيراً أخفَّ منهُ ، علىٰ وجهٍ يشعرُ معَهُ بأنَّهُ ربَّما لا يظهرُ ضررُ السكَّرِ أصلاً ، فيتوبُ المريضُ بقولِهِ عنِ العسلِ دونَ السكَّرِ ، فهـٰذا غيرُ محالٍ وجودُهُ ، وإنْ أكلَهُما جميعاً بحكْمِ شهوتِهِ . . ندمَ علىٰ أكلِ العسلِ دونَ السكَّرِ .

❀ ❀ ❀

الثاني : أنْ يتوبَ عنْ بعضِ الكبائرِ دونَ بعضٍ : وهـٰذا أيضاً ممكنٌ ؛ لاعتقادِهِ أنَّ بعضَ الكبائرِ أشدُّ وأغلظُ مِنْ بعضٍ عندَ اللهِ ؛ كالذي يتوبُ عنِ القتلِ والنهبِ والظلمِ ومظالمِ العبادِ لعلمِهِ أنَّ ديوانَ العبادِ لا يُترَكُ ، وما بينَهُ وبينَ اللهِ يتسارعُ العفوُ إليهِ .

فهـٰذا أيضاً ممكنٌ ، كما في تفاوتِ الكبائرِ والصغائرِ ؛ لأنَّ الكبائرَ أيضاً متفاوتةٌ في أنفسِها وفي اعتقادِ مرتكبِيها .

وكذلكَ قدْ يتوبُ عنْ بعضِ الكبائرِ التي لا تتعلَّقُ بالعبادِ ، كما يتوبُ عنْ شربِ الخمرِ دونَ الزنا مثلاً ؛ إذْ يتضحُ لهُ أنَّ الخمرَ مفتاحُ الشرورِ ، وأنَّهُ إذا زالَ عقلُهُ . . ارتكبَ جميعَ المعاصي وهوَ لا يدري ، فبحسَبِ ترجُّحِ شربِ الخمرِ عندَهُ ينبعثُ منهُ خوفٌ يوجبُ ذلكَ تركاً في المستقبلِ وندماً على الماضي .

❀ ❀ ❀

الثالثُ : أنْ يتوبَ عنْ صغيرةٍ أوْ صغائرَ وهوَ مصرٌّ علىٰ كبيرةٍ يعلمُ أنَّها كبيرةٌ : كالذي يتوبُ عنِ الغيبةِ أوْ عنِ النظرِ إلىٰ غيرِ المحرمِ أوْ ما يجري مَجراهُ وهوُ مصرٌّ علىٰ شربِ الخمرِ ، وهوَ أيضاً ممكنٌ ، ووجهُ إمكانِهِ : أنَّهُ ما مِنْ مؤمنٍ إلا وهوَ خائفٌ علىٰ معاصيهِ[1] ، ونادمٌ علىٰ فعلِهِ ندماً إمَّا ضعيفاً وإمَّا قوياً ، ولكنْ تكونُ لذَّةُ نفسِهِ في تلكَ المعصيةِ أقوىٰ مِنْ ألمِ قلبِهِ

---

(١) كذا (علىٰ معاصيه) ، ومن معاني (على) التعليل ؛ أي : خائف لوجود معاصيه .

في الخوفِ منها لأسبابٍ توجبُ ضعفَ الخوفِ ؛ مِنَ الجهلِ والغفلةِ ، وأسبابٍ توجبُ قوّةَ الشهوةِ ، فيكونُ الندمُ موجوداً ، ولكنْ لا يكونُ مليئاً بتحريكِ العزمِ[1] ، ولا قوياً عليهِ ، فإنْ سلمَ عنْ شهوةٍ أقوىٰ منهُ ؛ بأنْ لمْ يعارضْهُ إلا ما هوَ أضعفُ . . قهرَ الخوفُ الشهوةَ وغلبَها ، وأوجبَ ذلكَ تركَ المعصيةِ .

وقدْ تشتدُّ ضراوةُ الفاسقِ بالخمرِ ، فلا يقدرُ على الصبرِ عنها ، وتكونُ لهُ ضراوةٌ ما بالغيبةِ وثلبِ الناسِ والنظرِ إلىٰ غيرِ المحرمِ ، وخوفُهُ مِنَ اللهِ قدْ بلغَ مبلغاً يقمعُ هـٰذهِ الشهوةَ الضعيفةَ دونَ القويّةِ ، فيوجبُ غلبةُ جندِ الخوفِ انبعاثَ العزمِ للتركِ ، بلْ يقولُ هـٰذا الفاسقُ في نفسِهِ : (إنْ قهرَني الشيطانُ بواسطةِ غلبةِ الشهوةِ في بعضِ المعاصي . . فلا ينبغي أنْ أخلعَ العذارَ وأرخي العِنانَ بالكليَّةِ ، بلْ أجاهدُهُ في بعضِ المعاصي ، فعساني أغلبُهُ ، فيكونُ قهري لهُ في البعضِ كفارةً لبعضِ ذنوبي) ، ولوْ لمْ يُتصوَّرْ هـٰذا . . لما تُصوِّرَ مِنَ الفاسقِ أنْ يصلِّيَ ويصومَ ، ولقيلَ لهُ : (إنْ كانَتْ صلاتُكَ لغيرِ اللهِ . . فلا تصحُّ ، وإنْ كانَتْ للهِ . . فاتركِ الفسقَ للهِ ، فإنَّ أمرَ اللهِ فيهِ واحدٌ ، فلا يُتصوَّرُ أنْ تقصدَ بصلاتِكَ التقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ ما لمْ تتقرَّبْ بتركِ الفسقِ) ، وهـٰذا محالٌ ، بلْ يقولُ : (للهِ تعالىٰ عليَّ أمرانِ ، ولي على المخالفةِ فيهما عقوبتانِ ، وأنا مليءٌ في أحدِهما بقهْرِ الشيطانِ ، عاجزٌ عنهُ في الآخرةِ ،

---

(١) المليء : بوزن فعيل هنا ، وفي سياقات آتية بمعنىٰ : قادر .

فأنا أقهرُهُ فيما أقدرُ عليهِ ، وأرجو بمجاهدتي فيهِ أنْ يُكفِّرَ عني بعضُ ما عجزتُ عنهُ لفرطِ شهوتي) ، فكيفَ لا يُتصوَّرُ هـٰذا وهوَ حالُ كلِّ مسلمٍ ؟! إذْ لا مسلمَ إلا وهوَ جامعٌ بينَ طاعةِ اللهِ ومعصيتِهِ ، ولا سببَ لهُ إلا هـٰذا .

وإذا فهمَ هـٰذا . . فهمَ أنَّ غلبةَ الخوفِ للشهوةِ في بعضِ الذنوبِ ممكنٌ وجودُها ، والخوفُ إذا كانَ مِنْ فعلٍ ماضٍ أورثَ الندمَ ، والندمُ يورثُ العزمَ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الندمُ توبةٌ »[1] ، ولمْ يشترطِ الندمَ علىٰ كلِّ ذنبٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ مِنَ الذنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ »[2] ، ولمْ يقلِ : التائبُ مِنَ الذنوبِ كلِّها .

وبهـٰذهِ المعاني تبيَّنَ سقوطُ قولِ القائلِ : إنَّ التوبةَ عنْ بعضِ الذنوبِ غيرُ ممكنةٍ ؛ لأنَّها متماثلةٌ في حقِّ الشهوةِ ، وفي حقِّ التعرُّضِ لسخطِ اللهِ تعالىٰ .

نعمْ ، يجوزُ أنْ يتوبَ عنْ شربِ الخمرِ دونَ النبيذِ ؛ لتفاوتِهما في اقتضاءِ السخطِ ، ويتوبَ عنِ الكثيرِ دونَ القليلِ ؛ لأنَّ لكثرةِ المعصيةِ تأثيراً في كثرةِ العقوبةِ ، فيساعدُ الشهوةَ بالقدْرِ الذي يعجزُ عنهُ ، ويتركُ بعضَ شهوتِهِ للهِ تعالىٰ ، كالمريضِ الذي حذَّرَهُ الطبيبُ الفاكهةَ ، فإنَّهُ قدْ يتناولُ قليلَها ، ولكنْ لا يستكثرُ منها .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) .

فقدْ حصلَ مِنْ هـٰذا : أنَّهُ لا يمكنُ أنْ يتوبَ عنْ شيءٍ ولا يتوبَ عنْ مثلِهِ ، بلْ لا بدَّ وأنْ يكونَ ما تابَ عنهُ مخالفاً لما بقيَ عليهِ ؛ إمَّا في شدَّةِ المعصيةِ ، وإمَّا في غلبةِ الشهوةِ ، وإذا حصلَ هـٰذا التفاوتُ في اعتقادِ التائبِ . . تُصوِّرَ اختلافُ حالِهِ في الخوفِ والندمِ ، فيُتصوَّرُ اختلافُ حالِهِ في التركِ ، فندمُهُ علىٰ ذلكَ الذنبِ ووفاؤُهُ بعزمِهِ على التركِ يلحقُهُ بمَنْ لمْ يذنبْ ، وإنْ لمْ يكنْ قدْ أطاعَ اللهَ في جميعِ الأوامرِ والنواهي .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فهلْ تصحُّ توبةُ العنِّينِ مِنَ الزنا الذي قارفَهُ قبلَ طريانِ العنَّةِ ؟

فأقولُ : لا ؛ لأنَّ التوبةَ عبارةٌ عنْ ندمٍ يبعثُ العزمَ على التركِ فيما يقدرُ علىٰ فعلِهِ ، وما لا يقدرُ علىٰ فعلِهِ فقدِ انعدمَ بنفسِهِ ، لا بتركِهِ إيَّاهُ .

ولكنِّي أقولُ : لوْ طرأَ عليهِ بعدَ العنَّةِ كشفٌ ومعرفةٌ تحقَّقَ بهِ ضررَ الزنا الذي قارفَهُ ، وثارَ منهُ احتراقٌ وتحسُّرٌ وندمٌ ؛ بحيثُ لوْ كانَتْ شهوةُ الوقاعِ باقيةً لكانَتْ حرقةُ الندمِ تقمعُ تلكَ الشهوةَ وتغلبُها . . فإنِّي أرجو أنْ يكونَ ذلكَ مكفِّراً لذنبِهِ ، وماحياً عنهُ سيِّئتَهُ ؛ إذْ لا خلافَ في أنَّهُ لوْ تابَ قبلَ طريانِ العنَّةِ وماتَ عَقيبَ التوبةِ . . كانَ مِنَ التائبينَ وإنْ لمْ تطرأْ عليهِ حالةٌ تهيجُ فيها الشهوةُ ، وتتيسَّرُ فيها أسبابُ القضاءِ للشهوةِ ، ولكنَّهُ تائبٌ باعتبارِ أنَّ ندمَهُ بلغَ مبلغاً أوجبَ صرْفَ قصدِهِ عنِ الزنا لوْ ظهرَ قصدُهُ .

فإذاً ؛ لا يستحيلُ أنْ تبلغَ قوَّةُ الندمِ في حقِّ العنِّينِ هـٰذا المبلغَ ، إلا أنَّهُ

لا يعرفُهُ مِنْ نفسِهِ ، فإنَّ كلَّ مَنْ لا يشتهي شيئاً يقدِّرُ نفسَهُ قادراً علىٰ تركِهِ بأدنىٰ خوفٍ ، واللهُ تعالىٰ مطلعٌ علىٰ ضميرِهِ وعلىٰ مقدارِ تندُّمِهِ ، فعساهُ يقبلُهُ منهُ ، بلِ الظاهرُ أنَّهُ يقبلُهُ .

والحقيقةُ في هـٰذا كلِّهِ ترجعُ إلىٰ أنَّ ظلمةَ المعصيةِ تنمحي عنِ القلبِ بشيئينِ :

أحدُهُما : حرقةُ الندمِ .

والآخرُ : شدَّةُ المجاهدةِ بالتركِ في المستقبلِ .

وقدِ امتنعَتِ المجاهدةُ بزوالِ الشهوةِ ، ولكنْ ليسَ محالاً أنْ يقوى الندمُ بحيثُ يقوىٰ علىٰ محوِها دونَ المجاهدةِ ، ولولا هـٰذا.. لقلنا : إنَّ التوبةَ لا تُقبلُ ما لمْ يعشِ التائبُ بعدَ التوبةِ مدَّةً يجاهدُ نفسَهُ في عينِ تلكَ الشهوةِ مرَّاتٍ كثيرةً ، وذلكَ ممَّا لا يدلُّ ظاهرُ الشرعِ على اشتراطِهِ أصلاً .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : إذا فرضْنا تائبينِ ؛ أحدُهُما : سكنتْ نفسُهُ عنِ النزوعِ إلى الذنبِ ، والآخرُ : بقيَ في نفسِهِ نزوعٌ إليهِ وهوَ يجاهدُها ويمنعُها ، فأيُّهُما أفضلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا ممَّا اختلفَ العلماءُ فيهِ :

فقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ وأصحابُ أبي سليمانَ الدارانيِّ : إنَّ المجاهدَ أفضلُ ؛ لأنَّ لهُ معَ التوبةِ فضلَ الجهادِ .

وقالَ علماءُ البصرةِ : ذلكَ الآخرُ أفضلُ ؛ لأنَّهُ لوْ فترَ في توبتِهِ . . كانَ أقربَ إلى السلامةِ مِنَ المجاهدِ الذي هوَ في عرضةِ القصورِ عنِ المجاهدةِ .

وما قالَهُ كلُّ واحدٍ مِنَ الفريقينِ لا يخلو عنْ حقٍّ وعنْ قصورٍ عنْ كمالِ الحقيقةِ .

والحقُّ فيهِ : أنَّ الذي انقطعَ نزوعُ نفسِهِ لهُ حالتانِ :

إحداهُما : أنْ يكونَ انقطاعُ نزوعِهِ إليهِ لفتورٍ في نفسِ الشهوةِ فقطْ ، فالمجاهدةُ أفضلُ مِنْ هـٰذا ؛ إذْ تركُهُ بالمجاهدةِ قدْ دلَّ علىٰ قوَّةِ يقينِهِ ، واستيلاءِ دينِهِ علىٰ شهوتِهِ ، فهوَ دليلٌ قاطعٌ علىٰ قوَّةِ اليقينِ ، وعلىٰ قوَّةِ الدينِ ، وأعني بقوَّةِ الدينِ : قوَّةَ الإرادةِ التي تنبعثُ بإشارةِ اليقينِ ، وتقمعُ الشهوةَ المنبعثةَ بإشارةِ الشياطينِ ، فهاتان قوَّتانِ تدلُّ المجاهدةُ عليهِما قطعاً .

وقولُ القائلِ : (إنَّ هـٰذا أسلمُ ؛ إذْ لوْ فترَ . . لا يعودُ إلى الذنبِ) ، فهـٰذا صحيحٌ ، ولكنِ استعمالُ لفظِ الأفضلِ فيهِ خطأٌ ، وهوَ كقولِ القائلِ : (العنينُ أفضلُ مِنَ الفحلِ ؛ لأنَّهُ في أمنٍ مِنْ خطرِ الشهوةِ ، والصبيُّ أفضلُ مِنَ البالغِ ؛ لأنَّهُ أسلمُ ، والمفلسُ أفضلُ مِنَ الملكِ القاهرِ القامعِ لأعدائِهِ ؛ لأنَّ المفلسَ لا عدوَّ لهُ والملكُ ربَّما يُغلبُ مرَّةً وإنْ غلبَ مرَّاتٍ) ، وهـٰذا كلامُ رجلٍ سليمِ القلبِ ، قاصرِ النظرِ على الظواهرِ ، غيرِ عالمٍ بأنَّ العزَّ في الأخطارِ ، وأنَّ العلوَّ شرطُهُ اقتحامُ الأغرارِ ، بلْ هوَ كقولِ القائلِ : (الصيَّادُ

الذي ليسَ لهُ فرسٌ ولا كلبٌ أفضلُ في صناعةِ الاصطيادِ وأعلىٰ رتبةً مِنْ صاحبِ الكلبِ والفرسِ ؛ لأنَّهُ آمنٌ مِنْ أنْ يجمحَ بهِ فرسُهُ فتنكسرَ أعضاؤُهُ عندَ السقوطِ على الأرضِ ، وآمنٌ مِنْ أنْ يعضَّهُ الكلبُ ويعتديَ عليهِ) ، وهـٰذا خطأٌ ، بلْ صاحبُ الفرسِ والكلبِ إذا كانَ قويّاً عالماً بطريقِ تأديبِهما أعلىٰ رتبةً وأحرىٰ بدرْكِ سعادةِ الصيدِ .

الحالةُ الثانيةُ : أنْ يكونَ بطلانُ النزوعِ بسببِ قوَّةِ اليقينِ ، وصدقِ المجاهدةِ السابقةِ ، إذْ بلغَ مبلغاً قمعَ هيجانَ الشهوةِ ، حتَّىٰ تأدبَتْ بأدبِ الشرعِ ، فلا تهيجُ إلا بإشارةِ الدينِ ، وقدْ سكنَ بسببِ استيلاءِ الدينِ عليهِ ، فهـٰذا أعلىٰ رتبةً مِنَ المجاهدِ المقاسي لهيجانِ الشهوةِ وقمعِها .

وقولُ القائلِ : (لذلكَ فضلُ الجهادِ) قصورٌ عنِ الإحاطةِ بمقصودِ الجهادِ ؛ فإنَّ الجهادَ ليسَ مقصوداً لعينِهِ ، بلِ المقصودُ قطعُ ضراوةِ العدوِّ حتَّىٰ لا يستجرَّكَ إلىٰ شهواتِهِ ، وإنْ عجزَ عنِ استجرارِكَ.. فلا يصدُّكَ عنْ سلوكِ طريقِ الدينِ ، فإذا قهرتَهُ وحصَّلْتَ المقصودَ.. فقدْ ظفرتَ ، وما دمتَ في المجاهدةِ.. فأنتَ بعدُ في طلبِ الظفرِ .

ومثالُهُ كمثالِ مَنْ قهرَ العدوَّ واسترقَّهُ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ هوَ مشغولٌ بالجهادِ في صفِّ القتالِ ولا يدري كيفَ يسلمُ .

ومثالُهُ أيضاً مثالُ مَنْ علَّمَ كلبَ الصيدِ وراضَ الفرسَ ، فهما نائمانِ عندَهُ بعدَ تركِ الكلبِ الضراوةَ والفرسِ الجماحَ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ هوَ مشغولٌ بمقاساةِ التأديبِ بعدُ .

ولقدْ زلَّ في هٰذا فريقٌ ، فظنُّوا أنَّ الجهادَ هوَ المقصودُ الأقصىٰ ، ولمْ يعلموا أنَّ ذلكَ طلبٌ للخلاصِ مِنْ عوائقِ الطريقِ ، وظنَّ آخرونَ أنَّ قمعَ الشهواتِ وإماطتَها بالكليَّةِ مقصودٌ ، حتَّىٰ جرَّبَ بعضُهُمْ نفسَهُ فعجزَ عنهُ ، فقالَ : (هٰذا محالٌ) ، فكذَّبَ بالشرعِ ، وسلكَ سبيلَ الإباحةِ ، واسترسلَ في اتباعِ الشهواتِ ، وكلُّ ذلكَ جهلٌ وضلالٌ ، وقدْ قرَّرْنا ذلكَ في كتابِ رياضةِ النفسِ مِن ربعِ المهلكاتِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما قولُكَ في تائبينِ : أحدُهُما نسيَ الذنبَ ولمْ يشتغلْ بالتفكُّرِ فيهِ ، والآخرُ جعلَهُ نصبَ عينِهِ فلا يزالُ يتفكَّرُ فيهِ ويحترقُ ندماً عليهِ ، أيُّهُما أفضلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا أيضاً قدِ اختلفوا فيه :

فقالَ بعضُهُمْ : (حقيقةُ التوبةِ أنْ تنصبَ ذنبكَ بينَ عينيكَ) .

وقالَ آخرونَ : (حقيقةُ التوبةِ أنْ تنسىٰ ذنبَكَ) .

وكلُّ واحدٍ مِنَ المذهبينِ عندَنا حقٌّ ، ولكنْ بالإضافةِ إلىٰ حالينِ .

وكلامُ المتصوِّفةِ أبداً يكونُ قاصراً ، فإنَّ عادةَ كلِّ واحدٍ منهُمْ أنْ يخبرَ عنْ حالِ نفسِهِ فقطْ ، ولا يهمُّهُ حالُ غيرِهِ ، فتختلفُ الأجوبةُ لاختلافِ الأحوالِ ، وهٰذا نقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ درجةِ العلمِ ، فإنَّ معرفةَ الأشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ أفضلُ وأعلىٰ ، ولكنَّهُ كمالٌ بالإضافةِ إلى الهمَّةِ والإرادةِ

والجدِّ ، حيثُ يكونُ صاحبُهُ مقصورَ النظرِ علىٰ حالِ نفسِهِ ، لا يهمُّهُ أمرُ غيرِهِ ؛ إذْ طريقُهُ إلى اللهِ نفسُهُ ، ومنازلُهُ أحوالُهُ ، وقدْ يكونُ طريقُ العبدِ إلى اللهِ العلمَ والتعليمَ ، فالطرقُ إلى اللهِ تعالىٰ كثيرةٌ وإنْ كانَتْ مختلفةً في القربِ والبعدِ ، واللهُ أعلمُ بمَنْ هوَ أهدىٰ سبيلاً ، معَ الاشتراكِ في أصلِ الهدايةِ .

فأقولُ : تصوُّرُ الذنبِ وذكرُهُ والتفجُّعُ عليهِ كمالٌ في حقِّ المبتدئِ المريدِ ؛ لأنَّهُ إذا نسيَهُ . . لمْ يكثرِ احتراقُهُ ، فلا تقوىٰ إرادتُهُ وانبعاثُهُ لسلوكِ الطريقِ ، ولأنَّ ذلكَ يستخرجُ منهُ الحزنَ والخوفَ الوازعَ عنِ الرجوعِ إلىٰ مثلِهِ ، فهوَ بالإضافةِ إلى الغافلِ كمالٌ ، ولكنَّهُ بالإضافةِ إلىٰ سالكِ الطريقِ نقصانٌ ؛ فإنَّهُ شغلٌ مانعٌ عنْ سلوكِ الطريقِ ، بلْ سالكُ الطريقِ ينبغي ألا يعرِّجَ علىٰ غيرِ السلوكِ ، فإنْ ظهرَتْ لهُ مبادي الوصولِ ، وانكشفَتْ لهُ أنوارُ المعرفةِ ولوامعُ الغيبِ . . استغرقَهُ ذلكَ ، ولمْ يبقَ فيهِ متسعٌ للالتفاتِ إلىٰ ما سبقَ مِنْ أحوالِهِ ، وهوَ الكمالُ .

بلْ لوْ عاقَ المسافرَ عنِ الطريقِ إلىٰ بلدٍ مِنَ البلادِ نهرٌ حاجزٌ . . طالَ تعبُ المسافرِ في عبورِهِ مدةً ، مِنْ حيثُ إنَّهُ كانَ قدْ خرَّبَ جسرَهُ مِنْ قبلُ ، فلوْ جلسَ علىٰ شاطئِ النهرِ بعدَ عبورِهِ يبكي متأسِّفاً علىٰ تخريبِهِ الجسرَ . . كانَ هٰذا مانعاً آخرَ اشتغلَ بهِ بعدَ الفراغِ عنْ ذلكَ المانعِ .

نعمْ ، إنْ لمْ يكنِ الوقتُ وقتَ الرحيلِ ، بأنْ كانَ ليلاً فتعذَّرَ السلوكُ ،

أوْ كانَ علىٰ طريقِهِ أنهارٌ وهوَ يخافُ علىٰ نفسِهِ أنْ يمرَّ بها[1] . . فليطلْ بالليلِ بكاؤُهُ وحزنُهُ علىٰ تخريبِ الجسرِ ؛ ليتأكَّدَ بطولِ الحزنِ عزمُهُ علىٰ ألا يعودَ إلىٰ مثلِهِ ، فإنْ حصلَ لهُ مِنَ التنبُّهِ ما وثقَ بنفسِهِ أنَّهُ لا يعودُ إلىٰ مثلِهِ . . فسلوكُ الطريقِ أولىٰ بهِ مِنَ الاشتغالِ بذكرِ تخريبِ الجسرِ والبكاءِ عليهِ ، وهـٰذا لا يعرفُهُ إلا مَنْ عرفَ الطريقَ والمقصدَ ، والعائقَ وطريقَ السلوكِ ، وقدْ أشرنا إلىٰ تلويحاتٍ منهُ في كتابِ العلمِ وفي ربعِ المهلكاتِ .

بلْ نقولُ : شرطُ دوامِ التوبةِ أنْ يكونَ كثيرَ الفكرِ في النعيمِ في الآخرةِ لتزيدَ رغبتُهُ ، ولكنْ إنْ كانَ شاباً . . فلا ينبغي أنْ يطيلَ فكرَهُ في كلِّ ما لهُ نظيرٌ في الدنيا ؛ كالحورِ والقصورِ ، فإنَّ ذلكَ الفكرَ ربَّما يحرِّكُ رغبتَهُ ، فيطلبُ العاجلةَ ولا يرضىٰ بالآجلةِ ، بلْ ينبغي أنْ يتفكَّرَ في لذَّةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ فقطْ ، فذلكَ لا نظيرَ لهُ في الدنيا ، فكذلكَ تذكُّرُ الذنبِ قدْ يكونُ محرِّكاً للشهوةِ ، فالمبتدىءُ أيضاً قدْ يستضرُّ بهِ ، فيكونُ النسيانُ أفضلَ لهُ عندَ ذلكَ .

ولا يصدَّنَّكَ عنِ التصديقِ بهـٰذا التحقيقِ ما يُحكىٰ لكَ مِنْ بكاءِ داوودَ عليهِ السلامُ ونياحتِهِ[2] ، فإنَّ قياسَكَ نفسَكَ على الأنبياءِ قياسٌ في غايةِ الاعوجاجِ ؛ لأنَّهُمْ قدْ ينزلونَ في أقوالِهِمْ وأفعالِهِمْ إلى الدرجاتِ اللائقةِ

---

(١) في (أ) : (أن يخرجها) ، وفي (ب) : (أن يجريها) ، وفي بقية النسخ : (أن يخربها) بدل (أن يمر بها) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

(٢) تقدم في ذلك أخبار ، والاعتراض وجوابه أورده كذلك صاحب « القوت » (١/ ١٨٢) ، وجواب المصنف هنا قريب منه .

بأممِهِمْ ، فإنَّهُمْ ما بُعثوا إلا لإرشادِهِمْ ، فعليهِمُ التلبُّسُ بما تنتفعُ أممُهُمْ بمشاهدتِهِ ، وإنْ كانَ ذلكَ نازلاً عنْ ذروةِ مقامِهِمْ ، فقدْ كانَ في الشيوخِ مَنْ لا يشيرُ علىٰ مريدِهِ بنوعِ رياضةٍ إلا ويخوضُ معَهُ فيها ، وقدْ كانَ مستغنياً عنها ؛ لفراغِهِ عنِ المجاهدةِ وتأديبِ النفسِ ، ولكنْ تسهيلاً للأمرِ على المريدِ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما إنِّي لا أنسىٰ ، ولكنِّي أُنسَّىٰ لأشرِّعَ »[1] ، وفي لفظٍ : « إنَّما أسهو لأسنَّ » .

ولا تعجبْ مِنْ هٰذا ؛ فإنَّ الأممَ في كنفِ شفقةِ الأنبياءِ كالصبيانِ في كنفِ شفقةِ الآباءِ ، وكالمواشي في كنفِ الرعاةِ ، أما ترى الأبَ إذا أرادَ أنْ يستنطقَ ولدَهُ الصغيرَ كيفَ ينزلُ إلىٰ درجةِ نطقِ الصبيِّ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ : « كِخْ كِخْ » لمَّا أخذَ تمرةً مِنْ تمْرِ الصدقةِ ووضعَها في فيهِ[2] ، وما كانَتْ فصاحتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تقصُرُ عنْ أنْ

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ١٠٠) بلاغاً ، قال ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٤/ ٣٧٥) : (أما هٰذا الحديث بهٰذا اللفظ . . فلا أعلمه يروىٰ عن النبي صلى الله عليه وسلم بوجه من الوجوه مسنداً ولا مقطوعاً من غير هٰذا الوجه والله أعلم ، وهو أحد الأحاديث الأربعة في « الموطأ » التي لا توجد في غيره مسندة ولا مرسلة والله أعلم ، ومعناه صحيح في الأصول) ، وقال أبو الطاهر الأنماطي : (وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه الأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به ، وادّعىٰ بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسنداً) . « إتحاف » (٨/ ٥٩٢) .

(٢) رواه البخاري (١٤٩١) ، ومسلم (١٠٦٩) وقد تقدم ، وكِخْ : كلمة ردع للطفل مثل : يَعْ ، قيل : هي لفظة فارسية ، وبكونها فارسية جاء التصريح في « البخاري » =

يقولَ : ارمِ هـٰذهِ التمرةَ ؛ فإنَّها حرامٌ ، ولكنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ علمَ أنَّهُ لا يفهمُ منطقَهُ تركَ فصاحتَهُ ونزلَ إلىٰ لُكْنتِهِ ، بلِ الذي يعلِّمُ شاةً أوْ طائراً يصوِّتُ بهِ رغاءً أوْ صفيراً تشبُّهاً بالبهيمةِ والطائرِ ، وتلطُّفاً في تعليمِهِ ، فإيَّاكَ أنْ تغفُلَ عنْ أمثالِ هـٰذهِ الدقائقِ ، فإنَّها مزلَّةُ أقدامِ العارفينَ فضلاً عنِ الغافلينَ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

* * *

= (٣٠٧٢) ، وأصلها في الفارسية : كِخْكِخْ مركبة ، وتستعمل عندهم كاستعمال (يَعْ) عند العرب .

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

اعلمْ : أنَّ التائبينَ في التوبةِ علىٰ أربعِ طبقاتٍ :

الطبقةُ الأولىٰ : أنْ يتوبَ العاصي ويستقيمَ على التوبةِ إلىٰ آخرِ عمرِهِ ، فيتداركُ ما فرطَ مِنْ أمرِهِ ، ولا يحدِّثُ نفسَهُ بالعودِ إلىٰ ذنوبِهِ ، إلا الزلاتِ التي لا ينفكُّ البشرُ عنها في العاداتِ مهما لمْ يكنْ في رتبةِ النبوَّةِ .

فهـٰذهِ هيَ الاستقامةُ في التوبةِ ، وصاحبُها هوَ السابقُ بالخيراتِ ، المستبدِلُ بالسيئاتِ حسناتٍ .

واسمُ هـٰذهِ التوبةِ التوبةُ النصوحُ ، واسمُ هـٰذهِ النفسِ الساكنةِ **النفسُ المطمئنةُ** ، التي ترجعُ إلىٰ ربِّها راضيةً مرضيةً ، وهؤلاءِ هُمُ الذينَ إليهِمُ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبقَ المفردونَ ، المستهتَرونَ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وضعَ الذكرُ عنهُمْ أوزارَهُمْ ، فوردُوا القيامةَ خفافاً »[1] ، فإنَّ فيهِ إشارةً إلىٰ أنَّهُمْ كانوا تحتَ أوزارٍ وضعَها الذكرُ عنهُمْ .

وأهلُ هـٰذهِ الطبقةِ علىٰ رتبٍ مِنْ حيثُ النزوعُ إلى الشهواتِ ؛ فمِنْ تائبٍ سكَنَتْ شهواتُهُ تحتَ قهْرِ المعرفةِ ففترَ نزاعُها ، ولمْ يشغلْهُ عنِ السلوكِ

---

(1) رواه مسلم (٢٦٧٦) مقتصراً علىٰ أوله ، وفيه : « سبق المفردون » ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ، قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ، وعند الترمذي (٣٥٢٠) وفيه : « المستهترون في ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفافاً » .

صراعُها ، وإلىٰ مَنْ لا ينفكُّ عنْ منازعةِ النفسِ ، ولكنَّهُ مليءٌ بمجاهدتِها وردِّها .

ثمَّ تتفاوتُ درجاتُ النزاعِ أيضاً بالكثرةِ والقلَّةِ وباختلافِ المدَّةِ وباختلافِ الأنواعِ ، وكذلكَ يختلفونَ مِنْ حيثُ طولُ العمرِ ؛ فمِنْ مختطفٍ يموتُ قريباً مِنْ توبتِهِ ، يُغبطُ علىٰ ذلكَ لسلامتِهِ وموتِهِ قبلَ الفترةِ ، ومِنْ ممهلٍ طالَ جهادُهُ وصبرُهُ ، وتمادَتِ استقامتُهُ وكثرَتْ حسناتُهُ ، وحالُ هـٰذا أعلىٰ وأفضلُ ؛ إذْ كلُّ سيئةٍ فإنَّما تمحوها حسنةٌ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ العلماءِ : (إنَّما يكفِّرُ الذنبَ الذي ارتكبَهُ العاصي عشرَ مرَّاتٍ أنْ يتمكَّنَ منهُ عشرَ مراتٍ معَ صدْقِ الشهوةِ ، ثمَّ يصبرَ عنهُ ويكسرَ شهوتَهُ خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ) ، واشتراطُ هـٰذا بعيدٌ ، وإنْ كانَ لا يُنكرُ عظمُ أثرِهِ لوْ فرضَ ، ولكنْ لا ينبغي للمريدِ الضعيفِ أنْ يسلكَ هـٰذا الطريقَ فيهيِّجَ الشهوةَ ، ويحضرَ الأسبابَ حتَّىٰ يتمكَّنَ ، ثمَّ يطمعَ في الانكفافِ ؛ فإنَّهُ لا يؤمنُ خروجُ عِنانِ الشهوةِ عنِ اختيارِهِ ، فيقدمَ على المعصيةِ وينقضَ توبتَهُ ، بلْ طريقُهُ الفرارُ مِنِ ابتداءِ أسبابِهِ الميسِّرةِ لهُ ، حتَّىٰ يسدَّ طرقَها علىٰ نفسِهِ ، ويسعىٰ معَ ذلكَ في كسرِ شهوتِهِ بما يقدرُ عليهِ ، فبهِ تسلمُ توبتُهُ في الابتداءِ .

❊ ❊ ❊

الطبقةُ الثانيةُ : تائبٌ سلَكَ طريقَ الاستقامةِ في أمَّهاتِ الطاعاتِ وتركِ كبائرِ الفواحشِ كلِّها ، إلا أنَّهُ ليسَ ينفكُّ عنْ ذنوبٍ تعتريهِ ، لا عنْ عمدٍ

وتجريدِ قصدٍ ، ولكنْ يُبتلىٰ بها في مجاري أحوالِهِ مِنْ غيرِ أنْ يقدمَ عزماً على الإقدامِ عليها ، ولكنَّهُ كلَّما أقدمَ عليها . . لامَ نفسَهُ وندمَ وتأسَّفَ ، وجدَّدَ عزمَهُ علىٰ أنْ يتشمَّرَ للاحترازِ مِنْ أسبابِها التي تعرِّضُهُ لها .

وهـٰذهِ النفسُ جديرةٌ بأنْ تكونَ هيَ **النفسَ اللوَّامةَ** ؛ إذ تلومُ صاحبَها علىٰ ما يستهدفُ لهُ مِنَ الأحوالِ الذميمةِ ، لا عنْ تصميمِ عزمٍ وتخميرِ رأيٍ وقصدٍ ، وهـٰذهِ أيضاً رتبةٌ عاليةٌ وإنْ كانَتْ نازلةً عنِ الطبقةِ الأولىٰ ، وهيَ أغلبُ أحوالِ التائبينَ ؛ لأنَّ الشرَّ معجونٌ بطينةِ الآدميِّ قلَّما ينفكُّ عنهُ ، وإنَّما غايةُ سعيهِ أنْ يغلبَ خيرُهُ شرَّهُ حتَّىٰ يثقلَ ميزانُهُ ، فترجحَ كفَّةُ الخيراتِ ، فأمَّا أنْ تخلوَ بالكليَّةِ كفَّةُ السيئاتِ . . فذلكَ في غايةِ البعدِ .

وهؤلاءِ لهُمْ حسنُ الوعدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ .

فكلُّ إلمامٍ يقعُ بصغيرةٍ لا عنْ توطينِ نفسِهِ عليهِ فهوَ جديرٌ بأنْ يكونَ مِنَ اللممِ المعفوِّ عنهُ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، فأثنىٰ عليهِمْ معَ ظلمِهِمْ لأنفسِهِمْ ؛ لتندُّمِهِمْ ولومِهِمْ أنفسَهُمْ عليهِ .

وإلىٰ مثلِ هـٰذهِ الرتبةِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : « خيارُكُمْ كلُّ مفتَّنٍ توَّابٍ »[1] .

---

(1) رواه البزار في « مسنده » (٧٠٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٧١) ، =

وفي خبرٍ آخرَ : « المؤمنُ كالسنبلةِ ، تفيء أحياناً وتميلُ أحياناً »[1] .

وفي الخبرِ : « لا بدَّ للمؤمنِ مِنْ ذنبٍ يأتيهِ الفينةَ بعدَ الفينةِ »[2] أيِ : الحينَ بعدَ الحينِ .

فكلُّ ذلكَ أدلَّةٌ قاطعةٌ علىٰ أنَّ هـٰذا القدْرَ لا ينقضُ التوبةَ ، ولا يلحقُ صاحبَها بدرجةِ المصرِّينَ .

ومَنْ يُؤْيسُ مثلَ هـٰذا عنْ درجةِ التائبينَ كالطبيبِ الذي يُؤْيسُ الصحيحَ عنْ دوامِ الصحةِ بما يتناولُهُ مِنَ الفواكِهِ والأطعمةِ الحارَّةِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ مِنْ غيرِ مداومةٍ واستمرارٍ ، وكالفقيهِ الذي يُؤْيسُ المتفقِّهَ عنْ نيلِ درجةِ الفقهاءِ بفتورِهِ عنِ التكرارِ والتعليقِ في أوقاتٍ نادرةٍ غيرِ متطاولةٍ ولا كثيرةٍ[3] ، وذلكَ يدلُّ علىٰ نقصانِ الطبيبِ والفقيهِ ، بلِ الفقيهُ في الدينِ هوَ الذي لا يُؤْيسُ الخلقَ

= والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٩) ، ورواه موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه ابنُ أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٧) .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٨٧) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « مثل المؤمن مثل السنبلة ، تستقيم مرة وتخرُّ مرة ، ومثل الكافر مثل الأرزة ، لا تزال مستقيمة حتىٰ تخرَّ ولا تشعر » ، ورواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٥/ ٢٨٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٠٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « مثل المؤمن مثل السنبلة تميل أحياناً وتقوم أحياناً » .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٠٤) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٢٢) .

(٣) **والمراد بالتكرار** : إعادة ما يحصله في درسه مرة بعد أخرىٰ حتىٰ يرسخ في الذهن ، **والتعليق** : أن يعلق ما يسمع من فوائد الشيوخ في أوراق . « إتحاف » (٨/ ٥٩٦) .

عنْ درجاتِ السعاداتِ بما يتفقُ لهُمْ مِنَ الفتراتِ ومقارفةِ السيئاتِ المختطفاتِ .

قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ بني آدمَ خطَّاءٌ ، وخيرُ الخطَّائينَ التوَّابونَ المستغفرونَ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « المؤمنُ واهٍ راقعٌ ، فخيرُهُمْ مَنْ ماتَ علىٰ رقعِهِ »[2] أيْ : واهٍ بالذنوبِ ، راقعٌ بالتوبةِ والندمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ، فما وصفَهُمْ بعدمِ السيئةِ أصلاً .

❊ ❊ ❊

الطبقةُ الثالثةُ : أنْ يتوبَ ويستمرَّ على الاستقامةِ مدَّةً ، ثمَّ تغلبُهُ شهوتُهُ في بعضِ الذنوبِ ، فيقدمُ عليها عنْ قصدٍ وصدقِ شهوةٍ ؛ لعجزِهِ عنْ قهرِ الشهوةِ ، إلا أنَّهُ معَ ذلكَ مواظبٌ على الطاعاتِ ، وتاركٌ جملةً مِنَ الذنوبِ معَ القدرةِ والشهوةِ ، وإنَّما قهرَتْهُ هـٰذهِ الشهوةُ الواحدةُ أوِ الشهوتانِ وهوَ يودُّ لوْ أقدرَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ قمعِها وكفاهُ شرَّها ، هـٰذا أمنيتُهُ في حالِ قضاءِ

---

(1) كذا في « القوت » (١/ ١٨٨) ، ورواه الترمذي (٢٤٩٩) ، وابن ماجه (٤٢٥١) ، وعند ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٧٨) بلفظ المصنف ولكن من كلام عون العقيلي .

(2) كذا في « القوت » (١/ ١٨٨) ، ورواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٦٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٢١) .

النفسِ ، فكما لا يصلحُ لمنصبِ الرئاسةِ والقضاءِ والتقدُّمِ بالعلمِ إلا نفسٌ صارَتْ فقيهةً بطولِ التفقيهِ . . فلا يصلحُ لملكِ الآخرةِ ونعيمِها ولا للقربِ مِنْ ربِّ العالمينَ إلا قلبٌ سليمٌ صارَ طاهراً بطولِ التزكيةِ والتطهيرِ .

هكذا سبقَ في الأزلِ بتدبيرِ ربِّ الأربابِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ، فمهما وقعَ العبدُ في ذنبٍ ، فصارَ الذنبُ نقداً والتوبةُ نسيئةً . . كانَ هـٰذا مِنْ علاماتِ الخذلانِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ سبعينَ سنةً ، حتَّىٰ يقولَ الناسُ : إنَّهُ مِنْ أهلِها ، ولا يبقىٰ بينَهُ وبينَ الجنةِ إلا شبرٌ ، فيسبقُ عليهِ الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيدخلُها »[1] .

فإذاً ؛ الخوفُ مِنَ الخاتمةِ قبلَ التوبةِ ، وكلُّ نَفَسٍ فهوَ خاتمةُ ما قبلَهُ ؛ إذْ يمكنُ أنْ يكونَ الموتُ متصلاً بهِ ، فليراقبِ الأنفاسَ ، وإلا . . وقعَ المحذورُ ، ودامَتِ الحسراتُ حينَ لا ينفعُ التحسُّرُ .

* * *

الطبقةُ الرابعةُ : أنْ يتوبَ ويجريَ مدَّةً على الاستقامةِ ، ثمَّ يعودَ إلىٰ مقارفةِ الذنبِ أوِ الذنوبِ مِنْ غيرِ أنْ يحدِّثَ نفسَهُ بالتوبةِ ، ومِنْ غيرِ أنْ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) ، وليس فيه لفظ : (سبعين سنة) ، وهو عند ابن راهويه في « مسنده » (١٤٧) ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ٧٥) .

يتأسَّفَ علىٰ فعلِهِ ، بلْ ينهمكُ انهماكَ الغافلِ في اتباعِ شهوتِهِ .

فهـٰذا مِنْ جملةِ المصرِّينَ ، وهـٰذهِ النفسُ هيَ النفسُ **الأمَّارةُ بالسوءِ** الفرَّارةُ مِنَ الخيرِ ، ويُخافُ علىٰ هـٰذا سوءُ الخاتمةِ ، وأمرُهُ في مشيئةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ ختمَ لهُ بالسوءِ . . شقيَ شقاوةً لا آخرَ لها ، وإنْ ختمَ لهُ بالحسنىٰ حتَّىٰ ماتَ على التوحيدِ . . فيُنتظرُ لهُ الخلاصُ مِنَ النارِ ولوْ بعدَ حينٍ ، ولا يستحيلُ أنْ يشملَهُ عمومُ العفوِ بسببٍ خفيٍّ لا يُطلعُ عليهِ ؛ كما لا يستحيلُ أنْ يدخلَ الإنسانُ خراباً ليجدَ كنزاً فيتفقَ أنْ يجدَهُ ، ولا أنْ يجلسَ في البيتِ ليجعلَهُ اللهُ عالماً بالعلومِ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ كما كانَ للأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهمْ ، فطلبُ المغفرةِ بالطاعاتِ كطلبِ العلمِ بالجهدِ والتكرارِ ، وطلبِ المالِ بالتجارةِ وركوبِ البحارِ ، وطلبُها بمجرَّدِ الرجاءِ معَ خرابِ الأعمالِ كطلبِ الكنوزِ في المواضعِ الخربةِ ، وطلبِ العلومِ مِنْ تعليمِ الملائكةِ ، وليتَ مَنِ اجتهدَ وتعبَ . . تعلَّمَ ، وليتَ مَنِ اتجرَ وركبَ البحارَ . . استغنىٰ ، وليتَ مَنْ صامَ وصلَّىٰ . . غفرَ لهُ ، فالناسُ كلُّهُمْ محرومونَ إلا العالمونَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ محرومونَ إلا العاملونَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ محرومونَ إلا المخلصونَ ، والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ[1] .

وكما أنَّ مَنْ خرَّبَ بيتَهُ وضيَّعَ مالَهُ وتركَ نفسَهُ وعيالَهُ جياعاً يزعمُ أنَّهُ

---

(١) سبق هـٰذا القول أثراً ، وبيان جواز الإبدال في الاستثناء الموجب علىٰ لغة أو تأويل ، وانظر « الدر المصون » (٢/ ٥٢٨) .

ينتظرُ فضْلَ اللهِ بأنْ يرزقَهُ كنزاً يجدُهُ تحتَ الأرضِ في بيتِهِ الخربِ يُعدُّ عندَ ذوي البصائرِ مِنَ الحمقىٰ والمغرورينَ وإنْ كانَ ما ينتظرُهُ غيرَ مستحيلٍ في قدرةِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ . . فكذلكَ مَنْ ينتظرُ المغفرةَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ وهوَ مقصِّرٌ عَنِ الطاعةِ مصرٌّ على الذنوبِ غيرُ سالكٍ سبيلَ المغفرةِ ، معدودٌ عندَ أربابِ القلوبِ مِنَ المعتوهينَ .

والعجبُ مِنْ عقلِ هـٰذا المعتوهِ ، وترويجِهِ حماقتَهُ في صيغةٍ حسنةٍ ؛ إذْ يقولُ : (إنَّ اللهَ كريمٌ وجنتُهُ ليسَتْ تضيقُ عنْ مثلي[1] ، ومعصيتي ليسَتْ تضرُّهُ) ، ثمَّ تراهُ يركبُ البحارَ ، ويقتحمُ الأخطارَ في طلبِ الدينارِ ، وإذا قيلَ لهُ : (إنَّ اللهَ كريمٌ ، ودنانيرُ خزائنِهِ ليسَتْ تقصرُ عنْ فقرِكَ ، وكسلُكَ بتركِ التجارةِ ليسَ يضرُّهُ ، فاجلسْ في بيتِكَ ، فعساهُ يرزقُكَ مِنْ حيثُ لا تحتسبُ) ، فيستحمقُ قائلَ هـٰذا الكلامِ ويستهزىءُ بهِ ، ويقولُ : (ما هـٰذا الهوسُ ؟! السماءُ لا تمطرُ ذهباً ولا فضةً ، وإنَّما يُنالُ ذلكَ بالكسبِ ، هـٰكذا قدَّرَهُ ربُّ الأربابِ وأجرىٰ بهِ سنَّتَهُ ولا تبديلَ لسنَّةِ اللهِ) .

ولا يعلمُ المغرورُ أنَّ ربَّ الآخرةِ وربَّ الدنيا واحدٌ ، وأنَّ سنتَهُ لا تبديلَ لها فيهِما جميعاً ، وأنَّهُ قدْ أخبرَ إذْ قالَ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فكيفَ يعتقدُ أنَّهُ كريمٌ في الآخرةِ وليسَ بكريمٍ في الدنيا ؟! وكيفَ يقولُ : ليسَ مقتضى الكرمِ الفتورَ عنْ كسبِ المالِ ، ومقتضاهُ الفتورُ عنِ العملِ

(١) في (أ) : (ورحمته واسعة) بدل (وجنته) .

للملكِ المقيمِ والنعيمِ الدائمِ ، وأنَّ ذلكَ بحكْمِ الكرمِ يعطيهِ مِنْ غيرِ جهدٍ في الآخرةِ ، وهـٰذا يمنعُهُ معَ شدَّةِ الاجتهادِ في غالبِ الأمرِ في الدنيا ، وينسىٰ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ؟!

فنعوذُ باللهِ مِنَ العمىٰ والضلالِ ، فما هـٰذا إلا انتكاسٌ علىٰ أمِّ الراسِ ، وانغماسٌ في ظلماتِ الجهلِ ، وصاحبُهُ جديرٌ بأنْ يكونَ داخلاً تحتَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ أيْ : أبصرنا أنَّكَ صدقْتَ إذْ قلتَ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فارجعْنا نسعىٰ ، وعندَ ذلكَ لا يمكَّنُ مِنَ الانقلابِ ، ويحقُّ عليهِ العذابُ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ دواعي الجهلِ والشكِّ والارتيابِ السائقِ بالضرورةِ إلىٰ سوءِ المنقلبِ والمآبِ .

* * *

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إمّا عن قصدٍ وشهوةٍ غالبته ، أو عن إلمامٍ بحكم الاتّفاق

اعلمْ : أنَّ الواجبَ عليهِ التوبةُ والندمُ والاشتغالُ بالتكفيرِ بحسنةٍ تضادُّهُ كما ذكرنا طريقَهُ ، فإنْ لمْ تساعدْهُ النفسُ على العزمِ على التركِ لغلبةِ الشهوةِ . . فقدْ عجزَ عنْ أحدِ الواجبينِ ، فلا ينبغي أنْ يتركَ الواجبَ الثاني ، وهوَ أنْ يدرأَ بالحسنةِ السيئةَ لتمحوَها ، فيكونَ ممَّنْ خلطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً .

والحسناتُ المكفِّرةُ للسيئاتِ : إمَّا بالقلبِ ، وإمَّا باللسانِ ، وإمَّا بالجوارحِ ، ولتكنِ الحسنةُ في محلِّ السيئةِ ، وفيما يتعلَّقُ بأسبابِها .

فأما بالقلبِ : فليكفِّرْهُ بالتضرُّعِ إلى اللهِ تعالىٰ في سؤالِ المغفرةِ والعفوِ ، ويتذلَّلْ تذلُّلَ العبدِ الآبقِ ، ويكونُ ذلُّهُ بحيثُ يظهرُ لسائرِ العبادِ ، وذلكَ بنقصانِ كبْرِهِ فيما بينَهُمْ ، فما للعبدِ الآبقِ المذنبِ وجهٌ للتكبُّرِ على سائرِ العبادِ[1] ، وكذلكَ يضمرُ بقلبِهِ الخيراتِ للمسلمينَ والعزمَ على الطاعاتِ .

وأمَّا باللسانِ : فبالاعترافِ بالظلمِ والاستغفارِ ، فيقولُ : (ربِّ ؛ ظلمتُ نفسي وعملتُ سوءاً ، فاغفرْ لي ذنوبي) ، وكذلكَ يكثرُ مِنْ ضروبِ الاستغفارِ ، كما أوردناهُ في كتابِ الدعواتِ والأذكارِ .

---

(١) والكبر والمعصية لا يجتمعان في قلب مؤمن . « إتحاف » (٨/ ٦٠٢) .

وأمَّا بالجوارحِ : فبالطاعاتِ ، والصدقاتِ ، وأنواعِ العباداتِ ، وفي الآثارِ ما يدلُّ علىٰ أنَّ الذنبَ إذا أُتبِعَ بثمانيةِ أعمالٍ كانَ العفوُ عنهُ مرجوّاً ، أربعةٌ مِنْ أعمالِ القلوبِ وهيَ التوبةُ أوِ العزمُ على التوبةِ ، وحبُّ الإقلاعِ عنِ الذنبِ ، وخوفُ العقابِ عليهِ ، ورجاءُ المغفرةِ لهُ ، وأربعةٌ مِنْ أعمالِ الجوارحِ ، وهيَ أنْ يصلِّيَ عَقيبَ الذنبِ ركعتينِ[1] ، ثمَّ يستغفرَ اللهَ تعالىٰ بعدَهُما سبعينَ مرَّةً[2] ، ويقولَ : سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ مئةَ مرَّةٍ ، ثمَّ يتصدَّقَ بصدقةٍ ، ثمَّ يصومَ يوماً[3] .

وفي بعضِ الآثارِ : «يسبغُ الوضوءَ، ويدخلُ المسجدَ ويصلِّي ركعتينِ»[4] .

وفي بعضِ الأخبارِ : « يصلِّي أربعَ ركعاتٍ »[5] .

---

(١) وذلك بعد أن يتوضأ ، وإن اغتسل . . كان أكمل ، وإن أمكنه أن يغسل الثياب التي عصى الله فيها . . كان أكمل ؛ فإن طهارة الظاهر عنوان طهارة الباطن ، وإذا كانت الصلاة في موضع خال عن اشتغال وعن توهم الرياء والسمعة في بال . . كان أكمل . « إتحاف » (٨/ ٦٠٢) .

(٢) مع البكاء إن أمكن ، وإلا . . فبالتباكي وقلب حزين علىٰ ما سبق له من المعصية ، ويجعلها نصب عينيه . « إتحاف » (٨/ ٦٠٢) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٩٠) .

(٤) فقد روى الترمذي (٤٠٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠١٧٥ ، ١٠١٧٧) مرفوعاً وموقوفاً ، وابن ماجه (١٣٩٥) من حديث الصديق الأكبر رضي الله عنه نحوه ، ولم يذكر المسجد ، وعند البيهقي في « الشعب » (٦٦٨٠) من حديث الحسن مرسلاً : « ما أذنب عبد ذنباً ، ثم توضأ ، فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلىٰ براز من الأرض ، فصلىٰ ركعتين ، واستغفر الله من ذلك الذنب . . إلا غفر له » .

(٥) إذ روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٧/ ٤٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٦٨٣) =

وفي الخبرِ : « إذا عملتَ سيئةً . . فأتبعْها حسنةً تكفِّرْها ، السرُّ بالسرِّ والعلانيةُ بالعلانيةِ »[1] .

ولذلكَ قيلَ : (صدقةُ السرِّ تكفِّرُ ذنوبَ الليلِ ، وصدقةُ الجهرِ تكفِّرُ ذنوبَ النهارِ)[2] .

وفي الخبرِ الصحيحِ : أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنِّي عالجتُ امرأةً ، فأصبتُ منها كلَّ شيءٍ إلا المسيسَ ، فاقضِ عليَّ بحكْمِ اللهِ تعالىٰ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَما صلَّيتَ معنا صلاةَ الغداةِ ؟ » قالَ : بلىٰ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ »[3] .

= من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة ، فكان ذات يوم جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة ، فأذن له ، فخرج في يوم مطير ، فإذا هو بامرأة علىٰ غدير تغتسل ، فلما رآها . . جلس منها مجلس الرجل من امرأته ، وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة ، فقام نادماً ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع ركعات » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ .

(١) هو من وصيته صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٦٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٥٩) .

(٢) هو عند صاحب « القوت » (١/ ١٩٠) بلفظ : (صدقة الليل تكفر ذنوب النهار ، وصدقة السر تكفر ذنوب الليل) .

(٣) رواه البخاري (٥٢٦) ، ومسلم (٢٧٦٣) واللفظ أقرب له ، والمسيس في الحديث كناية عن الجماع .

وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ ما دونَ الزنا مِنْ معالجةِ النساءِ صغيرةٌ ؛ إذْ جعلَ الصلاةَ كفارةً لهُ بمقتضىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلواتُ الخمسُ كفارةٌ لما بينهُنَّ إلا الكبائرَ » .

فعلى الأحوالِ كلِّها ينبغي أنْ يحاسبَ نفسَهُ كلَّ يومٍ ، ويجمعَ سيئاتِهِ ، ويجتهدَ في دفعِها بالحسناتِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فكيفَ يكونُ الاستغفارُ نافعاً مِنْ غيرِ حلِّ عقدةِ الإصرارِ وفي الخبرِ : « المستغفرُ مِنَ الذنبِ وهوَ مصرٌّ عليهِ كالمستهزىءِ بآياتِ اللهِ »[1] ، وكانَ بعضُهُمْ يقولُ : (أستغفرُ اللهَ مِنْ قولي : أستغفرُ اللهَ)[2] ، وقيلَ : (الاستغفارُ باللسانِ توبةُ الكذابينَ)[3] ، وقالَتْ رابعةُ العدويَّةُ : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ)[4] .

فاعلمْ : أنَّهُ قدْ وردَ في فضلِ الاستغفارِ أخبارٌ خارجةٌ عنِ الحصرِ ، ذكرناها في كتابِ الأذكارِ والدعواتِ ، حتَّىٰ قرنَ اللهُ الاستغفارَ ببقاءِ الرسولِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٨٥) من حديث ابن عباس مرفوعاً .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٨٩) ، وذكر الكلاباذي في « التعرُّف » (ص٩٣) أنه من قول رابعة .

(٣) ذكره الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٤٩) لرابعة ، ونحوه ذكره القشيري في « رسالته » (ص١٨٤) لذي النون المصري .

(٤) كذا في « القوت » (١/ ١٨٩) ، وعند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٤٩): (توبتنا تحتاج إلىٰ توبة) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فكانَ بعضُ الصحابةِ يقولُ : (كانَ لنا أمانانِ ، ذهبَ أحدُهُما وهوَ كونُ الرسولِ فينا ، وبقيَ الاستغفارُ معنا ، فإنْ ذهبَ . . هلكنا)[1] .

فنقولُ : الاستغفارُ الذي هوَ توبةُ الكذابينَ : هوَ الاستغفارُ بمجرَّدِ اللسانِ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ للقلبِ فيهِ شِرْكةٌ ؛ كما يقولُ الإنسانُ بحكْمِ العادةِ وعنْ رأسِ الغفلةِ : (أستغفرُ اللهَ) ، وكما يقولُ إذا سمعَ صفةَ النارِ : (نعوذُ باللهِ منها) مِنْ غيرِ أنْ يتأثَّرَ بهِ قلبُهُ ، وهـٰذا يرجعُ إلىٰ مجرَّدِ حركةِ اللسانِ ، ولا جدوىٰ لهُ .

فأمَّا إذا انضافَ إليهِ تضرُّعُ القلبِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وابتهالُهُ في سؤالِ المغفرةِ عنْ صدقِ إرادةٍ وخلوصِ نيَّةٍ ورغبةٍ ، فهـٰذهِ حسنةٌ في نفسِها ، فتصلحُ لأنْ تُدفعَ بها السيئةُ ، وعلىٰ هـٰذا تحملُ الأخبارُ الواردةُ في فضلِ الاستغفارِ ، حتَّىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أصرَّ مَنِ استغفرَ ولوْ عادَ في اليومِ سبعينَ مرَّةً »[2] ، وهوَ عبارةٌ عنِ الاستغفارِ بالقلبِ .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/٣٩٣) من قول أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، كما روي أيضاً عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم ، وروى الترمذي (٣٠٨٢) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعاً : « أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فإذا مضيت . . تركت فيهم الاستغفار إلىٰ يوم القيامة » .

(٢) رواه أبو داوود (١٥١٤) ، والترمذي (٣٥٥٩) .

وللتوبةِ والاستغفارِ درجاتٌ ، وأوائلُها لا تخلو عنِ الفائدةِ وإنْ لمْ تنتهِ إلىٰ أواخرِها ، ولذلكَ قالَ سهلٌ : (لا بدَّ للعبدِ في كلِّ حالٍ مِنْ مولاهُ ، فأحسنُ أحوالِهِ أنْ يرجعَ إليهِ في كلِّ شيءٍ ، فإنْ عصىٰ . . قالَ : يا ربِّ ؛ استرْ عليَّ ، فإذا فرغَ مِنَ المعصيةِ . . قالَ : يا ربِّ ؛ تبْ عليَّ ، فإذا تابَ . . قالَ : يا ربِّ ؛ ارزقني العصمةَ ، وإذا عملَ . . قالَ : يا ربِّ ؛ تقبلْ منِّي)[١] .

وسُئِلَ أيضاً عنِ الاستغفارِ الذي يكفِّرُ الذنوبَ ، فقالَ : (أوَّلُ الاستغفارِ الاستجابةُ ، ثمَّ الإنابةُ ، ثمَّ التوبةُ ، فالاستجابةُ أعمالُ الجوارحِ ، والإنابةُ أعمالُ القلوبِ ، والتوبةُ إقبالُهُ علىٰ مولاهُ بأنْ يتركَ الخلْقَ ، ثمَّ يستغفرُ اللهَ مِنْ تقصيرِهِ الذي هوَ فيهِ ، ومِنَ الجهلِ بالنعمةِ وتركِ الشكرِ ، فعندَ ذلكَ يُغفرُ لهُ ، ويكونُ عندَهُ مأواهُ ، ثمَّ التنقُّلُ إلى الانفرادِ ، ثمَّ الثباتُ ، ثمَّ البيانُ ، ثمَّ القرْبُ ، ثمَّ المعرفةُ ، ثمَّ المناجاةُ ، ثمَّ المصافاةُ ، ثمَّ الموالاةُ ، ثمَّ محادثةُ السرِّ وهوَ الخلَّةُ ، ولا يستقرُّ هٰذا في قلبِ عبدٍ حتَّىٰ يكونَ العلمُ غذاءَهُ ، والذكرُ قوامَهُ ، والرضا زادَهُ ، والتوكُّلُ صاحبَهُ ، ثمَّ ينظرُ اللهُ إليهِ ، فيرفعُهُ إلى العرشِ ، فيكونُ مقامُهُ مقامَ حملةِ العرشِ)[٢] .

وسُئِلَ أيضاً عنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « التائبُ حبيبُ اللهِ »[٣] ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٩٠) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٩٠) ، وقد زاد في المعطوفات : (والتفويض مراده ، والتوكل صاحبه . . .) .

(٣) هٰذا الحديث قد نصَّ عليه قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ، =

فقالَ : (إنَّما يكونُ حبيباً إذا كانَ فيهِ جميعُ ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ . . . ﴾ الآيـةَ) ، وقـالَ : (الحبيـبُ هـوَ الـذي لا يدخلُ فيما يكرهُهُ حبيبُهُ) .

والمقصودُ : أنَّ للتوبةِ ثمرتينِ :

إحداهُما : تكفيرُ السيئاتِ ، حتَّىٰ يصيرَ كمَنْ لا ذنبَ لهُ .

والثانيةُ : نيلُ الدرجاتِ ، حتَّىٰ يصيرَ حبيباً .

وللتكفيرِ أيضاً درجاتٌ ، فبعضُهُ محوٌ لأصلِ الذنبِ بالكليَّةِ ، وبعضُهُ تخفيفٌ لهُ ، ويتفاوتُ ذلكَ بتفاوتِ درجاتِ التوبةِ ، فالاستغفارُ بالقلبِ والتداركُ بالحسناتِ وإنْ خلا عنْ حلِّ عقدةِ الإصرارِ مِنْ أوائلِ الدرجاتِ فليسَ يخلو عنِ الفائدةِ أصلاً ، فلا ينبغي أنْ يُظنَّ أنَّ وجودَها كعدمِها ، بلْ عرفَ أهلُ المشاهدةِ وأربابُ القلوبِ معرفةً لا ريبَ فيها أنَّ قولَ اللهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ صدقٌ ، وأنَّهُ لا تخلو ذرَّةٌ مِنَ الخيرِ عنْ أثرٍ ، كما لا تخلو شعيرةٌ تطرحُ في الميزانِ عنْ أثرٍ ، ولوْ خلَتِ الشعيرةُ الأولىٰ عنْ أثرٍ . . لكانَتِ الثانيةُ مثلَها ، ولكانَ لا يترجَّحُ الميزانُ بأحمالِ الذرّاتِ ، وذلكَ بالضرورةِ محالٌ ، بلْ ميزانُ الحسناتِ يترجَّحُ بذراتِ الخيراتِ إلىٰ أنْ يثقلَ فتُشيلَ كفَّةَ السيئاتِ ، فإيَّاكَ أنْ تستصغرَ ذرَّاتِ الطاعاتِ

= وروى ابن أبي الدنيا في « التوبة » (١٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله يحب الشاب التائب » .

فلا تأتيَها ، وذراتِ المعاصي فلا تتقيَها ؛ كالمرأةِ الخرقاءِ ، تكسلُ عنِ الغزلِ تعلُّلاً بأنَّها لا تقدرُ في كلِّ ساعةٍ إلا علىٰ خيطٍ واحدٍ وتقولُ : (أيُّ غنىً يحصلُ بخيطٍ ؟ وما وقْعُ ذلكَ في الثيابِ ؟!) ، ولا تدري المعتوهةُ أنَّ ثيابَ الدنيا اجتمعَتْ خيطاً خيطاً ، وأنَّ أجسامَ العالمِ معَ اتساعِ أقطارِهِ اجتمعَتْ ذرَّةً ذرَّةً .

فإذاً ؛ التضرُّعُ والاستغفارُ بالقلبِ حسنةٌ لا تضيعُ عندَ اللهِ أصلاً ، بلْ أقولُ : الاستغفارُ باللسانِ أيضاً حسنةٌ ؛ إذْ حركةُ اللسانِ بها عنْ غفلةٍ خيرٌ منْ حركةِ اللسانِ في تلكَ الساعةِ بغيبةِ مسلمٍ أوْ فضولِ كلامٍ ، بلْ هوَ خيرٌ مِنَ السكوتِ عنهُ ، فيظهرُ فضلُهُ بالإضافةِ إلى السكوتِ عنهُ ، وإنَّما يكونُ نقصاناً بالإضافةِ إلىٰ عملِ القلبِ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ لشيخِهِ أبي عثمانَ المغربيِّ : إنَّ لساني في بعضِ الأحوالِ[1] يجري بالذكرِ والقرآنِ وقلبي غافلٌ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ إذِ استعملَ جارحةً مِنْ جوارحِكَ في الخيرِ ، وعوَّدَهُ الذكرَ ، ولمْ يستعملْهُ في الشرِّ ، ولمْ يعوِّدْهُ الفضولَ .

وما ذكرَهُ حقٌّ ، فإنَّ تعوُّدَ الجوارحِ للخيراتِ حتَّىٰ يصيرَ لها ذلكَ كالطبعِ يدفعُ جملةً مِنَ المعاصي ، فمَنْ تعوَّدَ لسانُهُ الاستغفارَ إذا سمعَ مِنْ غيرِهِ كذباً . . سبقَ لسانُهُ إلىٰ ما تعوَّدَهُ فقالَ : (أستغفرُ اللهَ) ، ومَنْ تعوَّدَ الفضولَ . . سبقَ لسانُهُ إلىٰ أنْ يقولَ : (ما أحمقَكَ ، وما أقبحَ كذبَكَ !) ، ومَنْ تعوَّدَ الاستعاذةَ إذا حُدِّثَ بظهورِ مبادي الشرِّ مِنْ شريرٍ . . قالَ بحكمِ

---

(١) في (س) : (الأوقات) بدل (الأحوال) .

سبقِ اللسانِ : (نعوذُ باللهِ) ، وإذا تعوَّدَ الفضولَ.. قالَ : (لعنَهُ اللهُ) ، فيعصي في إحدى الكلمتينِ ويسلمُ في الأخرىٰ ، وسلامتُهُ أثرُ اعتيادِ لسانِهِ الخيرَ ، وهوَ مِنْ جملةِ معاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ومعاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فانظرْ كيفَ ضاعفَها إذْ جعلَ الاستغفارَ في الغفلةِ عادةَ اللسانِ حتَّىٰ دفعَ بتلكَ العادةِ شرَّ العصيانِ بالغيبةِ واللعنِ والفضولِ ، هـٰذا تضعيفٌ في الدنيا لأدنى الطاعاتِ ، وتضعيفُ الآخرةِ أكبرُ ، لوْ كانوا يعلمونَ .

فإيَّاكَ وأنْ تلمحَ في الطاعاتِ مجرَّدَ الآفاتِ ، فتفترَ رغبتُكَ عنِ العباداتِ ، فإنَّ هـٰذهِ مكيدةٌ روَّجَها الشيطانُ بلعنتِهِ على المغرورينَ ، وخيَّلَ إليهِمْ : إنَّكُمْ أربابُ البصائرِ ، وأهلُ التفطُّنِ للخفايا والسرائرِ ، فأيُّ خيرٍ في ذكرٍ باللسانِ معَ غفلةِ القلبِ ؟!

فانقسمَ الخلقُ في هـٰذهِ المكيدةِ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : ظالمٌ لنفسِهِ ، ومقتصدٌ ، وسابقٌ بالخيراتِ .

أمَّا السابقُ : فقالَ : (صدقتَ يا ملعونُ ، ولكنْ هيَ كلمةُ حقٍّ أردتَ بها باطلاً ، فلا جرمَ أعذِّبُكَ مرَّتينِ ، وأرغمُ أنفَكَ مِنْ وجهينِ ، فأضيفُ إلىٰ حركةِ اللسانِ حركةَ القلبِ) ، فكانَ كالذي داوىٰ جرْحَ الشيطانِ بنثرِ الملحِ عليهِ .

وأمَّا الظالمُ المغرورُ : فاستشعرَ في نفسِهِ خيلاءَ الفطنةِ لهـٰذهِ الدقيقةِ ،

ثمَّ عجزَ عنِ الإخلاصِ بالقلبِ ، فتركَ معَ ذلكَ تعويدَ اللسانِ بالذكرِ ، فأسعفَ الشيطانَ بمرادِهِ ، وتدلَّىٰ بحبلِ غرورِهِ ، فتمَّتْ بينَهُما المشاكلةُ والموافقةُ ، كما قيلَ : (وافقَ شنٌّ طبقَهْ ، وافقَهُ فاعتنقَهُ)[1] .

وأمَّا **المقتصدُ** : فلمْ يقدرْ علىٰ إرغامِهِ بإشراكِ القلبِ في العملِ ، وتفطَّنَ لنقصانِ حركةِ اللسانِ بالإضافةِ إلى القلبِ ، ولكنِ اهتدىٰ إلىٰ كمالِهِ بالإضافةِ إلى السكوتِ والفضولِ ، فاستمرَّ عليهِ ، وسألَ اللهَ تعالىٰ أنْ يشركَ القلبَ معَ اللسانِ في اعتيادِ الخيرِ .

فكانَ السابقُ كالحائكِ الذي ذُمَّتْ حياكتُهُ فتركَها وأصبحَ كاتباً ، والظالمُ المتخلِّفُ كالذي تركَ الحياكةَ أصلاً وأصبحَ كنَّاساً ، والمقتصدُ كالذي عجزَ عنِ الكتابةِ فقالَ : (لا أنكرُ مذمَّةَ الحياكةِ ، ولكنَّ الحائكَ مذمومٌ بالإضافةِ إلى الكاتبِ ، لا بالإضافةِ إلى الكنَّاسِ ، فإذا عجزتُ عنِ الكتابةِ . . فلا أتركُ الحياكةَ) .

ولذلكَ قالَتْ رابعةُ العدويَّةُ : (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ) ، فلا تظنَّ أنَّها تذمُّ حركةَ اللسانِ مِنْ حيثُ إنَّهُ ذكرُ اللهِ ، بلْ تذمُّ غفلةَ القلبِ ، فهوَ

---

(١) مثل مشهور يضرب لاثنين جمعتهما حالة واحدة فاتفقا بها ، ومنهم من يجعله رجزاً مجزوءاً ، وشنٌّ وطبقٌ اسمان لرجلين على الراجح ، أو علمان علىٰ قبيلتين ، أو علىٰ رجل وامرأة ، وقيل غير ذلك ، والهاء في (طبقه) للسكت لموافقة السجعة في الأوليين ، وانظر « مجمع الأمثال » (٣/ ٤٨٨) ، وقال فيه الميداني : (وزاد المتأخرون فيه : وافقه فاعتنقه) .

يحتاجُ إلى الاستغفارِ مِنْ غفلةِ قلبِهِ ، لا مِنْ حركةِ لسانِهِ ، فإنْ سكتَ عنِ الاستغفارِ باللسانِ أيضاً . . احتاجَ إلى استغفارينِ ، لا إلى استغفارٍ واحدٍ .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ ذمَّ ما يُذمُّ ، وحمدَ ما يُحمدُ ، وإلا . . جهلتَ معنىٰ ما قالَ القائلُ الصادقُ : (حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبينَ)[1] ، فإنَّ هٰذهِ أمورٌ تثبتُ بالإضافةِ ، فلا ينبغي أنْ تُؤخذَ مِنْ غيرِ إضافةٍ[2] ، بلْ ينبغي ألا تستحقرَ ذرَّاتِ الطاعاتِ والمعاصي ، ولذلكَ قالَ جعفرٌ الصادقُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ خبَّأَ ثلاثاً في ثلاثٍ ؛ رضاهُ في طاعتِهِ ، فلا تحْقِروا منها شيئاً ؛ فلعلَّ رضاهُ فيهِ ، وخبَّأَ غضبَهُ في معاصيهِ ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعلَّ غضبَهُ فيهِ ، وخبَّأَ ولايتَهُ في عبادِهِ ، فلا تحقروا منهُمْ أحداً ، فلعلَّهُ وليُّ اللهِ تعالىٰ) ، وزادَ : (وخبَّأَ إجابتَهُ في دعائِهِ ، فلا تتركوا الدعاءَ ، فربَّما كانتِ الإجابةُ فيهِ)[3] .

* * *

---

(١) كلمة مشهورة لأبي سعيد الخرّاز ، تقدمت للمصنف غير مرة .

(٢) في (ب) هنا زيادة : (فلا ينبغي أن توجد وحدها) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٠٧) ، ورواه البيهقي في « الزهد » (٧٥٩) من كلام ذي النون المصري رحمه الله تعالىٰ .

الرُّكنُ الرَّابعُ
في دواء التَّوبة وطريق العلاج لحلّ عقدة الإصرار

اعلمْ : أنَّ الناسَ قسمانِ :

ـ شابٌّ لا صبوةَ لهُ ، نشأَ على الخيرِ واجتنابِ الشرِّ ، وهوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يعجبُ ربُّكَ مِنْ شابٍّ ليسَتْ لهُ صبوةٌ »[1] ، وهـٰذا عزيزٌ نادرٌ .

ـ القسمُ الثاني : هوَ الذي لا يخلو عنْ مقارفةِ الذنوبِ ، ثمَّ همُ ينقسمونَ إلىٰ مصرِّينَ وإلىٰ تائبينَ ، وغرضُنا أنْ نبيِّنَ العلاجَ في حلِّ عقدةِ الإصرارِ ، ونذكرَ الدواءَ فيهِ .

فاعلمْ : أنَّ شفاءَ التوبةِ لا يحصلُ إلا بالدواءِ ، ولا يقفُ على الدواءِ مَنْ لا يقفُ على الداءِ ؛ إذْ لا معنىٰ للدواءِ إلا مناقضةُ أسبابِ الداءِ ، فكلُّ داءٍ حصلَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٥١) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/ ٣٠٩) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه موقوفاً عليه ابنُ المبارك في « الزهد » (٣٤٩) ، **والعجب** : كون الشيء خارجاً عن نظائره من جنسه حتىٰ يكون نظره في صفة ويكون استعظام الشيء واستكباره لخروجه عن العادة وبعده ، وذلك مما ينزه عن مثله الباري تعالىٰ ، فيؤول بمعنىٰ يعظم قدره عنده فيحيز له أجره ، وإنما عبر بذلك تقريباً لأفهام العرب . « إتحاف » (٨/ ٦٠٨) .

مِنْ سببٍ فدواؤُهُ حلُّ ذلكَ السببِ ورفعُهُ وإبطالُهُ ، ولا يبطلُ الشيءُ إلا بضدِّهِ .

ولا سببَ للإصرارِ إلا الغفلةُ والشهوةُ ، ولا يضادُّ الغفلةَ إلا العلمُ ، ولا يضادُّ الشهوةَ إلا الصبرُ علىٰ قطعِ الأسبابِ المحرِّكةِ للشهوةِ ، والغفلةُ رأسُ الخطايا ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ .

فلا دواءَ إذاً للتوبةِ إلا معجونٌ يعجنُ مِنْ حلاوةِ العلمِ ومرارةِ الصبرِ ؛ كما يجمعُ السَّكَنْجَبينُ بينَ حلاوةِ السكرِ وحموضةِ الخلِّ ، ويُقصدُ بكلِّ واحدٍ منهُما غرضٌ آخرُ في العلاجِ بمجموعِهِما ، بقمعِ الأسبابِ المهيِّجةِ للصفراءِ ؛ فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ علاجَ القلبِ عمَّا بهِ مِنْ مرضِ الإصرارِ .

فإذاً ؛ لهٰذا الدواءِ أصلانِ : أحدُهُما : العلمُ ، والآخرُ : الصبرُ ، فلا بدَّ مِنْ بيانِهِما .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : أينفعُ كلُّ علمٍ لحلِّ الإصرارِ أمْ لا بدَّ مِنْ علمٍ مخصوصٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ العلومَ بجملتِها أدويةٌ لأمراضِ القلوبِ ، ولكنْ لكلِّ مرضٍ علمٌ يخصُّهُ ؛ كما أنَّ علمَ الطبِّ نافعٌ في علاجِ الأمراضِ بالجملةِ ، ولكنْ يخصُّ كلَّ علَّةٍ علمٌ مخصوصٌ ؛ فكذلكَ داءُ الإصرارِ .

فلنذكرْ خصوصَ ذلكَ العلمِ علىٰ موازنةِ مرضِ الأبدانِ ؛ ليكونَ أقربَ إلى الفهمِ ، فنقولُ :

يحتاجُ المريضُ إلىٰ التصديقِ بأمورٍ أربعةٍ :

الأوّلُ : أنْ يصدِّقَ على الجملةِ بأنَّ للمرضِ والصحَّةِ أسباباً يتوصَّلُ إليها بالاختيارِ ، علىٰ ما رتَّبَهُ مسبِّبُ الأسبابِ ، وهـٰذا هوَ الإيمانُ بأصلِ الطبِّ ، فإنَّ مَنْ لا يؤمنُ بهِ . . لا يشتغلُ بالعلاجِ ، ويحقُّ عليهِ الهلاكُ .

وهـٰذا وِزانُهُ ممَّا نحنُ فيهِ الإيمانُ بأصلِ الشرعِ ، وهوَ أنَّ للسعادةِ في الآخرةِ سبباً هوَ الطاعةُ ، وللشقاوةِ سبباً هوَ المعصيةُ ، وهـٰذا هوَ الإيمانُ بأصلِ الشرائعِ ، وهـٰذا لا بدَّ مِنْ حصولِهِ إمَّا عنْ تحقيقٍ أوْ تقليدٍ ، وكلاهُما مِنْ جملةِ الإيمانِ .

الثاني : أنَّهُ لا بدَّ أنْ يعتقدَ المريضُ في طبيبٍ معيَّنٍ أنَّهُ عالمٌ بالطبِّ ، حاذقٌ فيهِ ، صادقٌ فيما يعبِّرُ عنهُ ، لا يلبِّسُ ولا يكذبُ ، فإنَّ إيمانَهُ بأصلِ الطبِّ لا ينفعُهُ بمجرَّدِهِ دونَ هـٰذا الإيمانِ .

ووِزانُهُ ممَّا نحنُ فيهِ العلمُ بصدْقِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والإيمانُ بأنَّ كلَّ ما يقولُهُ حقٌّ وصدْقٌ ، لا كذبَ فيهِ ولا خُلْفَ .

الثالثُ : أنَّهُ لا بدَّ أنْ يصغيَ إلى الطبيبِ فيما يحذِّرُهُ مضرَّتَهُ ؛ مِنْ تناولِ الفواكهِ ، والأسبابِ المضرَّةِ على الجملةِ ، حتَّىٰ يغلبَ عليهِ الخوفُ في تركِ الاحتماءِ ، فتكونَ شدَّةُ الخوفِ باعثةً لهُ على الاحتماءِ .

ووِزانُهُ مِنَ الدينِ الإصغاءُ إلى الآياتِ والأخبارِ المشتملةِ على الترغيبِ في التقوىٰ والتحذيرِ مِنِ ارتكابِ الذنوبِ واتباعِ الهوىٰ ، والتصديقُ بجميعِ

ما يُلقىٰ إلىٰ سمعِهِ مِنْ ذلكَ مِنْ غيرِ شكٍّ واسترابةٍ ، حتَّىٰ ينبعثَ بهِ الخوفُ المقوِّي على الصبرِ ، الذي هوَ الركنُ الآخرُ في العلاجِ .

الرابعُ : أنْ يصغيَ إلى الطبيبِ فيما يخصُّ مرضَهُ ، وفيما يلزمُهُ في نفسِهِ الاحتماءُ عنهُ ؛ ليعرِّفَهُ أوَّلاً تفصيلَ ما يضرُّهُ مِنْ أفعالِهِ وأحوالِهِ ، ومأكولِهِ ومشروبِهِ ، فليسَ علىٰ كلِّ مريضٍ الاحتماءُ عنْ كلِّ شيءٍ ، ولا ينفعُهُ كلُّ دواءٍ ، بلْ لكلِّ علَّةٍ خاصَّةٍ علمٌ خاصٌّ ، وعلاجٌ خاصٌّ .

ووِزانُهُ مِنَ الدينِ أنَّ كلَّ عبدٍ فليسَ يُبتلىٰ بكلِّ شهوةٍ ، وارتكابِ كلِّ ذنبٍ ، بلْ لكلِّ مؤمنٍ ذنبٌ مخصوصٌ أوْ ذنوبٌ مخصوصةٌ ، وإنَّما حاجتُهُ في الحالِ مرهقةٌ إلى العلمِ بأنَّها ذنوبٌ ، ثمَّ إلى العلمِ بآفاتِها وقدْرِ ضررِها في الدينِ ، ثمَّ إلى العلمِ بكيفيةِ التوصُّلِ إلى الصبرِ عنها ، ثمَّ إلى العلمِ بكيفيةِ تكفيرِ ما سبقَ منها ، فهٰذهِ علومٌ يختصُّ بها أطباءُ الدينِ ، وهمُ العلماءُ الذينَ هُمْ ورثةُ الأنبياءِ .

فالعاصي إنْ علمَ عصيانَهُ . . فعليهِ طلبُ العلاجِ مِنَ الطبيبِ ، وهوَ العالمُ ، فإنْ كانَ لا يدري أنَّ ما يرتكبُهُ ذنبٌ . . فعلى العالمِ أنْ يعرِّفَهُ ذلكَ ، وذلكَ بأنْ يتكفَّلَ كلُّ عالمٍ بإقليمٍ أوْ بلدةٍ أوْ محلَّةٍ أوْ مسجدٍ أوْ مشهدٍ فيعلِّمَ أهلَهُ دينَهُمْ ، ويميِّزَ ما يضرُّهُمْ عمَّا ينفعُهُمْ ، وما يشقيهِمْ عمَّا يسعدُهُمْ ، ولا ينبغي أنْ يصبرَ إلىٰ أنْ يُسألَ عنهُ ، بلْ ينبغي أنْ يتصدَّىٰ لدعوةِ الناسِ إلىٰ نفسِهِ ، فإنَّهُمْ ورثةُ الأنبياءِ ، والأنبياءُ ما تركوا الناسَ علىٰ جهلِهِمْ ، بلْ كانوا

ينادونَهُمْ في مجامعِهِمْ ، ويدورونَ علىٰ أبوابِ دورِهِمْ في الابتداءِ ، ويطلبونَ واحداً واحداً فيرشدونَهُمْ ، فإنَّ مرضى القلوبِ لا يعرفونَ مرضَهُمْ ؛ كما أنَّ الذي ظهرَ علىٰ وجهِهِ برصٌ ولا مرآةَ معَهُ لا يعرفُ برصَهُ ما لمْ يعرِّفْهُ غيرُهُ ، وهٰذا فرضُ عينٍ على العلماءِ كافةً .

وعلى السلاطينِ كافةً أنْ يرتِّبوا في كلِّ قريةٍ وكلِّ محلَّةٍ فقيهاً متديِّناً ، يعلِّمُ الناسَ دينَهُمْ ، فإنَّ الخلقَ لا يُولدونَ إلا جهَّالاً ، فلا بدَّ مِنْ تبليغِ الدعوةِ إليهِمْ في الأصلِ والفرعِ ، فالدنيا دارُ المرضىٰ ؛ إذ ليسَ في بطنِ الأرضِ إلا ميِّتٌ ، ولا علىٰ ظهرِها إلا سقيمٌ ، ومرضُ القلوبِ أكثرُ مِنْ مرضِ الأبدانِ ، والعلماءُ أطباءُ القلوبِ ، والسلاطينُ قُوَّامُ دارِ المرضىٰ ، فكلُّ مريضٍ لمْ يقبلِ العلاجَ بمداواةِ العالمِ يُسلَّمُ إلى السلطانِ ليكفَّ شرَّهُ ، كما يُسلِّمُ الطبيبُ المريضَ الذي لا يحتمي أوِ الذي غلبَ عليهِ الجنونُ إلى القيِّمِ ليقيِّدَهُ بالسلاسلِ والأغلالِ ويكفَّ شرَّهُ عنْ نفسِهِ وعنْ سائرِ الناسِ .

وإنَّما صارَ مرضُ القلوبِ أكثرَ مِنْ مرضِ الأبدانِ لثلاثِ عللٍ :

إحداها : أنَّ المريضَ بهِ لا يدري أنَّهُ مريضٌ .

والثانيةُ : أنَّ عاقبتَهُ غيرُ مشاهدةٍ في هٰذا العالمِ ، بخلافِ مرضِ البدنِ ، فإنَّ عاقبتَهُ موتٌ مشاهدٌ ، تنفرُ الطباعُ منهُ ، وما بعدَ الموتِ غيرُ مشاهدٍ ، وعاقبةُ الذنوبِ موتُ القلبِ ، وهوَ غيرُ مشاهدٍ في هٰذا العالمِ ، فقلَّتِ النفرةُ عنِ الذنوبِ وإنْ علمَها مرتكبُها ، فلذلكَ تراهُ يتكلُ علىٰ فضلِ اللهِ في مرضِ

القلبِ ويجتهدُ في علاجِ مرضِ البدنِ مِنْ غيرِ اتكالٍ .

والثالثةُ ـ وهيَ الداءُ العضالُ ـ : فقدُ الطبيبِ ، فإنَّ الأطباءَ همُ العلماءُ ، وقدْ مرضوا في هـٰذهِ الأعصارِ مرضاً شديداً عجزوا عنْ علاجِهِ ، وصارَتْ لهُمْ سلوةٌ في عمومِ المرضِ حتَّىٰ لا يظهرَ نقصانُهُمْ ، فاضطروا إلىٰ إغواءِ الخلقِ ، والإشارةِ عليهمْ بما يزيدُهُمْ مرضاً ؛ لأنَّ الداءَ المهلكَ هوَ حبُّ الدنيا ، وقدْ غلبَ هـٰذا الداءُ على الأطباءِ ، فلمْ يقدروا علىٰ تحذيرِ الخلقِ منهُ ؛ استنكافاً مِنْ أنْ يُقالَ لهُمْ : فما بالُكُمْ تأمرونَ بالعلاجِ وتنسونَ أنفسَكُمْ ؟! فبهـٰذا السببِ عمَّ على الخلقِ الداءُ ، وعظمَ الوباءُ ، وانقطعَ الدواءُ ، وهلكَ الخلقُ لفقدِ الأطباءِ ، بلِ اشتغلَ الأطباءُ بفنونِ الإغواءِ ، فليتَهُمْ إذْ لمْ ينصحوا . . لمْ يغشُّوا ، وإذْ لمْ يصلحوا . . لمْ يفسدوا ، وليتَهُمْ سكتوا وما نطقوا ، فإنَّهُمْ إذا تكلموا . . لمْ يهمَّهُمْ في مواعظِهِمْ إلا ما يرغِّبُ العوامَّ[1] ، ويستميلُ قلوبَهُمْ ، ولا يتوصَّلونَ إلىٰ ذلكَ إلا بالإرجاءِ وتغليبِ أسبابِ الرجاءِ ، وذكرِ دلائلِ الرحمةِ ؛ لأنَّ ذلكَ ألذُّ في الأسماعِ ، وأخفُّ على الطباعِ ، فتنصرفُ الخلقُ عنْ مجالسِ الوعظِ وقدِ استفادوا مزيدَ جرأةٍ على المعاصي ، ومزيدَ ثقةٍ بفضْلِ اللهِ .

ومهما كانَ الطبيبُ جاهلاً أوْ خائناً . . أهلكَ بالدواءِ حيثُ يضعُهُ في غيرِ موضعِهِ ، فالرجاءُ والخوفُ دواءانِ ، ولكنْ لشخصينِ متضاديِ العلَّةِ ؛ أمَّا

---

(١) في (د) : (يذعن العوام) ، وفي بقية النسخ : (يزعق العوام) بدل (يرغب العوام) ، والمثبت من (ق) .

الذي غلبَ عليهِ الخوفُ حتَّىٰ هجرَ الدنيا بالكليَّةِ ، وكلَّفَ نفسَهُ ما لا تطيقُ ، وضيَّقَ العيشَ علىٰ نفسِهِ بالكليَّةِ . . فتكسرُ سَوْرةُ إسرافِهِ في الخوفِ بذكرِ أسبابِ الرجاءِ ؛ ليعودَ إلى الاعتدالِ .

وكذا المصرُّ على الذنوبِ المشتهي للتوبةِ الممتنعُ عنها بحكْمِ القنوطِ واليأسِ استعظاماً لذنوبِهِ التي سبقَتْ . . يُعالجُ أيضاً بأسبابِ الرجاءِ ؛ حتَّىٰ يطمعَ في قبولِ التوبةِ فيتوبَ .

فأمَّا معالجةُ المغرورِ المسترسلِ في المعاصي بذكرِ أسبابِ الرجاءِ . . فيضاهي معالجةَ المحرورِ بالعسلِ طلباً للشفاءِ ، وذلكَ مِنْ دأبِ الجهَّالِ والأغبياءِ .

فإذاً ؛ فسادُ الأطباءِ هوَ الداءُ المعضلُ الذي لا يقبلُ الدواءَ أصلاً .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فاذكرِ الطريقَ الذي ينبغي أنْ يسلكَهُ الواعظُ في وعظِهِ معَ الخلقِ .

فاعلمْ : أنَّ ذلكَ يطولُ ولا يمكنُ استقصاؤُهُ .

❀ ❀ ❀

نعمْ ، نشيرُ إلى الأنواعِ النافعةِ في حلِّ عقدةِ الإصرارِ ، وحملِ الناسِ علىٰ تركِ الذنوبِ ، وهيَ أربعةُ أنواعٍ :

النوعُ الأوَّلُ : أنْ يذكرَ ما في القرآنِ مِنَ الآياتِ المخوفةِ للمذنبينَ والعاصينَ ، وكذلكَ ما وردَ مِنَ الأخبارِ والآثارِ :

مثلَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ يومٍ طلعَ فجرُهُ ولا ليلةٍ غابَ شفقُها إلا وملكانِ يتجاوبانِ بأربعةِ أصواتٍ ؛ يقولُ أحدُهُما : يا ليتَ هاذا الخلْقَ لمْ يُخلقوا ، ويقولُ الآخرُ : يا ليتَهُمْ إذْ خُلقوا . . علموا لماذا خُلقوا ، فيقولُ الآخرُ : يا ليتَهُمْ إذْ علموا لماذا خُلقوا . . عملوا بما علموا ـ وفي بعضِ الرواياتِ : تجالسوا فتذاكروا ما علموا ـ ويقولُ الآخرُ : يا ليتَهُمْ إذْ لمْ يعملوا بما علموا . . تابوا ممَّا عملوا »[1] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (إذا أذنبَ العبدُ . . أمرَ صاحبُ اليمينِ صاحبَ الشمالِ وهوَ أميرٌ عليهِ أنْ يرفعَ القلمَ عنهُ ستَّ ساعاتٍ ، فإنْ تابَ واستغفرَ . . لمْ يكتبْها عليهِ ، وإنْ لمْ يستغفرْ . . كتبَها)[2] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٩٠) ، ووقع في النسخ : (إذ لم يعلموا) بدل (علموا) ، وصحح من « القوت » ، وقد قال الإمام أبو طالب في هاذا : (وفي أخبار متفرقة جمعناها) ، وقال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده هاكذا ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث ابن عمر : « إن ملكاً ينادي في كل يوم وليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده » الحديث ، وفيه : « ليت الخلائق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا . . علموا لماذا خلقوا ، فتجالسوا بينهم فتذاكروا . . . » الحديث) . « إتحاف » (٨/ ٦١٢) ، وانظر « تفسير الثعلبي » (٨/ ٩٢) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٣٤) ، و« حلية الأولياء » (٦/ ١٤٢) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٩٠) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٦٤٨) من حديث أبي أمامة مرفوعاً .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما مِنْ عبدٍ يعصي إلا استأذنَ مكانُهُ مِنَ الأرضِ أنْ يخسفَ بهِ ، واستأذنَ سقفُهُ مِنَ السماءِ أنْ يسقطَ عليهِ كسفاً ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ للأرضِ والسماءِ : كُفَّا عنْ عبدي وأمهلاهُ ، فإنَّكُما لمْ تخلقاهُ ، ولوْ خلقتماهُ . . لرحمتماهُ ، ولعلَّهُ يتوبُ إليَّ فأغفرَ لهُ ، ولعلَّهُ يستبدلُ صالحاً فأبدلَهُ لهُ حسناتٍ ، فذلكَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾)[1] .

وفي حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (الطابعُ معلقٌ بقائمةِ العرشِ ، فإذا انتهكَتِ الحرماتُ واستحلَّتِ المحارمُ . . أرسلَ اللهُ الطابعَ ، فيطبعُ على القلوبِ بما فيها)[2] .

وفي حديثِ مجاهدٍ : (القلبُ مثلُ الكفِّ المفتوحةِ ، كلَّما أذنبَ العبدُ ذنباً . . انقبضَتْ إصبعٌ حتَّىٰ تنقبضَ الأصابعُ كلُّها ، فيُسدُّ على القلبِ ، فذلكَ هوَ القفلُ)[3] .

وقالَ الحسنُ : (إن بينَ العبدِ وبينَ اللهِ حدّاً مِنَ المعاصي معلوماً ، إذا بلغَهُ العبدُ . . طبعَ اللهُ علىٰ قلبِهِ ، فلمْ يوفِّقْهُ بعدَها لخيرٍ)[4] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٨٧) .

(٢) الخبر في جميع النسخ عن عمر الفاروق رضي الله عنه ، وهو في « القوت » (١/ ١٨٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وكذا رواه عنه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٢٣) مرفوعاً .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .

(٤) نسبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/ ٦١٣) لصاحب « القوت » .

والأخبارُ والآثارُ في ذمِّ المعاصي ومدحِ التائبينَ لا تحصىٰ ، فينبغي أنْ يستكثرَ الواعظُ منها إنْ كانَ وارثَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُ ما خلَّفَ ديناراً ولا درهماً ، إنَّما خلَّفَ العلمَ والحكمةَ ، وورَّثَهُ كلَّ عالمٍ بقدْرِ ما أصابَهُ .

❁ ❁ ❁

النوعُ الثاني : حكاياتُ الأنبياءِ والسلفِ الصالحينَ ، وما جرىٰ عليهِمْ مِنَ المصائبِ بسببِ ذنوبِهِمْ :

فذلكَ شديدُ الوقعِ ظاهرُ النفعِ في قلوبِ الخلقِ ، مثلَ أحوالِ آدمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في عصيانِهِ ، وما لقيَهُ مِنَ الإخراجِ مِنَ الجنةِ ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّهُ لمَّا أكلَ مِنَ الشجرةِ . . تطايرَتِ الحللُ عنْ جسدِهِ ، وبدَتْ عورتُهُ ، فاستحيا التاجُ والإكليلُ مِنْ وجهِهِ أنْ يرتفعا عنهُ ، فجاءَهُ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فأخذَ التاجَ عنْ رأسِهِ ، وحلَّ الإكليلَ عنْ جبينِهِ ، ونُودِيَ مِنْ فوقِ العرشِ : اهبطا مِنْ جواري ؛ فإنَّهُ لا يجاورُني مَنْ عصاني ، قالَ : فالتفتَ آدمُ إلىٰ حوَّاءَ باكياً وقالَ : هٰذا أوَّلُ شؤمِ المعصيةِ ، أُخرجنا مِنْ جوارِ الحبيبِ[1] .

ورُوِيَ أنَّ سليمانَ بنَ داوودَ عليهِما السلامُ لمَّا عُوقبَ علىٰ خطيئتِهِ لأجلِ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٨٤) ، وبنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١١٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧/ ٤٠٩) عن مجاهد .

التمثالِ الذي عُبدَ في دارِهِ أربعينَ يوماً[1] ، وقيلَ : لأنَّ المرأةَ سألَتْهُ أنْ يحكمَ لأبيها ، فقالَ : نعمْ ، ولمْ يفعلْ ، وقيلَ : بلْ أحبَّ بقلبِهِ أنْ يكونَ الحكْمُ لأبيها علىٰ خصمِهِ لمكانِها منهُ ؛ فسُلبَ ملكُهُ أربعينَ يوماً ، فهربَ تائهاً علىٰ وجهِهِ ، فكانَ يسألُ بكفِّهِ فلا يطعمُ ، فإذا قالَ : أطعموني فإنِّي سليمانُ بنُ داوودَ . . شُجَّ وضربَ ، وحُكِيَ أنَّهُ استطعمَ مِنْ بيتٍ لامرأةٍ ، فطردَتْهُ وبزقَتْ في وجهِهِ ، وفي روايةٍ فأخرجَتْ عجوزٌ جرَّةً فيها بولٌ فصبَّتْهُ علىٰ رأسِهِ ، إلىٰ أنْ أُخرجَ الخاتمُ مِنْ بطنِ الحوتِ ، فلبسَهُ بعدَ انقضاءِ الأربعينَ أيامِ العقوبةِ ، قالَ : فجاءَتِ الطيرُ فعكفَتْ علىٰ رأسِهِ ، وجاءَتِ الجنُّ والشياطينُ والوحوشُ فاجتمعَتْ حولَهُ ، واعتذرَ إليهِ بعضُ مَنْ كانَ جنىٰ عليهِ ، فقالَ : لا ألومُكُمْ فيما فعلتُمْ مِنْ قبلُ ، ولا أحمدُكُمْ في عذرِكُم ؛ لأنَّ هاذا أمرٌ كانَ مِنَ السماءِ ولا بدَّ منهُ[2] .

ورُوِيَ في الإسرائيلياتِ أنَّ رجلاً تزوَّجَ امرأةً مِنْ بلدةٍ أخرىٰ ، وأرسلَ عبدَهُ ليحملَها إليهِ ، فراودَتْهُ نفسُهُ وطالبَتْهُ بها ، فجاهدَها واستعصمَ ، قالَ : فنبَّأَهُ اللهُ تعالىٰ ببركةِ تقواهُ ، فكانَ نبياً في بني إسرائيلَ[3] .

---

(١) والخبر مبسوط عند الطبري في « تاريخه » (١/ ٤٩٦) من رواية وهب بن منبه ، وكان ذلك من زوجه جرادة ، ولم يكن اتخاذ التماثيل محرماً في شريعته ، كما أن هاذا التمثال عُبد بغير علمه ، فتسمية ذلك خطيئة لرفيع مقامه عليه الصلاة والسلام .

(٢) كذا برواياته في « القوت » (١/ ١٨٤) ، وقد رواه بنحوه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٩٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٨٧) .

وفي قصصِ موسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ للخضرِ عليهِ السلامُ : بِمَ أطلعَكَ اللهُ علىٰ علمِ الغيبِ ؟ قالَ : بتركِ المعاصي لأجلِ اللهِ تعالىٰ[1] .

ورُوِيَ أنَّ الريحَ كانَتْ تسيرُ بسليمانَ عليهِ السلامُ ، فنظرَ إلىٰ قميصِهِ نظرةً ، وكانَ عليهِ قميصٌ جديدٌ ، فكأنَّهُ أعجبَهُ ، قالَ : فوضعَتْهُ الريحُ ، فقالَ : لِمَ فعلتِ ولمْ آمرْكِ ؟ قالَتْ : إنَّما نطيعُكَ إذا أطعتَ اللهَ[2] .

ورُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ يعقوبَ عليهِ السلامُ : أتدري لِمَ فرَّقتُ بينَكَ وبينَ ولدِكَ يوسفَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : لقولِكَ لإخوتِهِ : ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ ، لِمَ خفتَ عليهِ الذئبَ ولمْ ترجُني ؟! ولِمَ نظرتَ إلىٰ غفلةِ إخوتِهِ ولمْ تنظرْ إلىٰ حفظي لهُ ؟! وتدري لِمَ رددتُهُ عليكَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : لأنكَ رجوتني وقلتَ : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ ، وبما قلتَ : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾[3] .

وكذلكَ لمَّا قالَ يوسفُ لصاحبِ الملكِ : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٧) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٨٤) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٩١) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٩١) .

وأمثالُ هـٰذهِ الحكاياتِ لا تنحصرُ ، ولمْ يردْ بها القرآنُ والأخبارُ ورودَ الأسمارِ ، بلِ الغرضُ بها الاعتبارُ والاستبصارُ ؛ لتعلمَ أنَّ الأنبياءَ عليهِمُ السلامُ لمْ يُتجاوزْ عنهُمْ في الذنوبِ الصغارِ ، فكيفَ يُتجاوزُ عنْ غيرِهِمْ في الذنوبِ الكبارِ ؟!

نعمْ ، كانَتْ سعادتُهُمْ في أنْ عُوجلوا بالعقوبةِ ولمْ يُؤخَّروا إلى الآخرةِ ، والأشقياءُ يُمهلونَ ليزدادوا إثماً ، ولأنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ وأكبرُ ، فهـٰذا أيضاً ممَّا ينبغي أنْ يكثرَ جنسُهُ علىٰ أسماعِ المصرِّينَ ؛ فإنَّهُ نافعٌ في تحريكِ دواعي التوبةِ .

❁ ❁ ❁

النوعُ الثالثُ : أنْ يقرِّرَ عندَهُمْ أنَّ تعجيلَ العقوبةِ في الدنيا متوقَّعٌ على الذنبِ ، وأنَّ كلَّ ما يصيبُ العبدَ مِنَ المصائبِ فهوَ بسببِ جناياتِهِ :

فربَّ عبدٍ يتساهلُ في أمرِ الآخرةِ ، ويخافُ مِنْ عقوبةِ اللهِ في الدنيا أكثرَ ؛ لفرطِ جهلِهِ ، فينبغي أنْ يُخوَّفَ بهِ ؛ فإنَّ الذنوبَ كلَّها يُتعجَّلُ في الدنيا شؤمُها في غالبِ الأمرِ ، كما حُكِيَ في قصَّةِ داوودَ وسليمانَ عليهما السلامُ ، حتَّىٰ إنَّهُ قدْ يضيقُ على العبدِ رزقُهُ بسببِ ذنوبِهِ ، وقدْ تسقطُ منزلتُهُ مِنَ القلوبِ ويستولي عليهِ أعداؤُهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليُحرمُ الرزقَ بالذنبِ يصيبُهُ »[1] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٢٢) ضمن خبر مرفوع أوله : « لا يزيد في العمر إلا البر » ، وهو =

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إنِّي لأحسبُ أنَّ العبدَ ينسى العلمَ بالذنبِ يصيبُهُ)[1] ، وهوَ معنىٰ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قارفَ ذنباً . . فارقَهُ عقلٌ لا يعودُ إليهِ أبداً »[2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ليسَتِ اللعنةُ سواداً في الوجهِ ، ونقصاً في المالِ ، إنَّما اللعنةُ ألا تخرجَ مِنْ ذنبٍ إلا وقعتَ في مثلِهِ أوْ شرٍّ منهُ)[3] .

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ اللعنةَ هيَ الطردُ والإبعادُ ، فإذا لمْ يُوفَّقْ للخيرِ ، ويُسِّرَ لهُ الشرُّ . . فقدْ أُبعِدَ ، والحرمانُ مِنْ رزقِ التوفيقِ أعظمُ حرمانٍ ، وكلُّ ذنبٍ فإنَّهُ يدعو إلىٰ ذنبٍ آخرَ ويتضاعفُ ، فيُحرمُ العبدُ بهِ عنْ رزقِهِ النافعِ مِنْ مجالسةِ العلماءِ المنكرينَ للذنوبِ ، ومِنْ مجالسةِ الصالحينَ ، بلْ يمقتُهُ اللهُ تعالىٰ فيمقتُهُ الصالحونَ .

وحُكِيَ عنْ بعضِ العارفينَ أنَّهُ كانَ يمشي في وسطِ الوحْلِ جامعاً ثيابَهُ محترزاً ، إذْ زلقَتْ رجلُهُ وسقطَ ، فقامَ فجعلَ يمشي في وسطِ الوحْلِ ويبكي

= مفرداً مرفوعاً رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٦) ، وهو في « القوت » (١/ ١٨٤) .

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٤) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٢٣١) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٣٢) ، وكذا هو عند صاحب « القوت » (١/ ١٨٥) .

ويقولُ : هـٰذا مثلُ العبدِ ، لا يزالُ يتوقَّى الذنوبَ ويجانبُها حتَّىٰ يقعُ في ذنبٍ وذنبينِ ، فعندَها يخوضُ في الذنوبِ خوضاً[1] .

وهوَ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الذنبَ تُعجَّلُ عقوبتُهُ بالانجرارِ إلىٰ ذنبٍ آخرَ ، ولذلكَ قالَ الفضيلُ : (ما أنكرتَ مِنْ تغيُّرِ الزمانِ وجفاءِ الإخوانِ فذنوبُكَ ورَّثتْكَ ذلكَ)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنِّي لأعرفُ عقوبةَ ذنبي في سوءِ خلقِ حماري)[3] .

وقالَ آخرُ : (أعرفُ العقوبةَ حتَّىٰ في فأرِ بيتي)[4] .

وقالَ بعضُ صوفيةِ الشامِ : نظرتُ إلىٰ غلامٍ نصرانيٍّ حسنِ الوجهِ ، فوقفتُ أنظرُ إليهِ ، فمرَّ بي ابنُ الجلاءِ الدمشقيُّ ، فأخذَ بيدي ، فاستحييتُ منهُ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ سبحانَ اللهِ ! تعجبتُ منْ هـٰذهِ الصورةِ الحسنةِ وهـٰذهِ الصنعةِ المحكمةِ كيفَ خُلقَتْ للنارِ ، فغمزَ يدي وقالَ : لتجدنَّ عقوبتَها بعدَ حينٍ ، قالَ : فعوقبتُ بها بعدَ ثلاثينَ سنةً[5] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الاحتلامُ عقوبةٌ)[6] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٧) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠٩) عن الفضيل بن عياض .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٦٦) .

وقالَ : (لا تفوتُ أحداً صلاةُ جماعةٍ إلا بذنبٍ يذنبُهُ)[1] .

وفي الخبرِ : (ما أنكرتُمْ مِنْ زمانِكُمْ فبما غيَّرتُمْ مِنْ أعمالِكُمْ)[2] .

وفي الخبرِ : (يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعبدِ إذا آثرَ شهوتَهُ علىٰ طاعتي . . أنْ أحرمَهُ لذيذَ مناجاتي)[3] .

وحُكِيَ عنْ أبي عمرِو بنِ علوانَ في قصَّةٍ تطولُ قالَ فيها : كنتُ قائماً أصلِّي ذاتَ يومٍ ، فخامرَ قلبي هوىً طاولتُهُ بفكرتي ، حتَّىٰ تولَّدَ منهُ شهوةُ الرجالِ ، فوقعتُ إلى الأرضِ واسودَّ جسدي كلُّهُ ، فاستترتُ في البيتِ ، فلمْ أخرجْ ثلاثةَ أيامٍ ، وكنتُ أعالجُ غسلَهُ في الحمامِ بالصابونِ فلا يزدادُ إلا سواداً ، حتَّى انكشفَ بعدَ ثلاثٍ ، فلقيتُ الجنيدَ وكانَ قدْ وجَّهَ إليَّ فأشخصَني مِنَ الرقَّةِ ، فلمَّا أتيتُهُ . . قالَ لي : أما استحييتَ مِنَ اللهِ تعالىٰ كنتَ قائماً بينَ يديهِ فسامرتَ نفسَكَ بشهوةٍ حتَّى استولَتْ عليكَ[4] وأخرجَتْكَ مِنْ بينِ يديِ اللهِ تعالىٰ ؟! فلولا أنِّي دعوتُ اللهَ لكَ وتبتُ إليهِ عنكَ . . للقيتَ اللهَ تعالىٰ بذلكَ اللونِ ، قالَ : فعجبتُ كيفَ علمَ ذلكَ وهوَ ببغدادَ وأنا بالرقَّةِ ![5] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٤٩) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٧٠٩) من قول أبي الدرداء رضي الله عنه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٨٥) .
(٤) في (ج ، د ، س) : (استولت عليك برقة) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٨٦) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣/ ١٧) .

واعلمْ : أنَّهُ لا يذنبُ العبدُ ذنباً إلا ويسودُّ وجهُ قلبهِ ، فإنْ كانَ سعيداً . . ظهرَ السوادُ علىٰ ظاهرِهِ لينزجرَ ، وإنْ كانَ شقيّاً . . أُخفي عنهُ حتَّىٰ ينهمكَ ويستوجبَ النارَ .

والأخبارُ كثيرةٌ في آفاتِ الذنوبِ في الدنيا ؛ مِنَ الفقرِ ، والمرضِ ، وغيرِهِ ، بلْ مِنْ شؤمِ الذنبِ في الدنيا على الجملةِ : أنْ يكتسبَ ما بعدَهُ صفتَهُ ، فإنِ ابتليَ بشيءٍ . . كانَ عقوبةً لهُ ، ويُحرمُ جميلَ الرزقِ حتَّىٰ يتضاعفَ شقاؤُهُ ، وإنْ أصابتْهُ نعمةٌ . . كانَتِ استدراجاً لهُ ، ويُحرمُ جميلَ الشكرِ حتَّىٰ يُعاقبَ علىٰ كفرانِهِ .

وأمَّا المطيعُ . . فمِنْ بركةِ طاعتِهِ أنْ تكونَ كلُّ نعمةٍ في حقِّه جزاءً علىٰ طاعتِهِ ، ويُوفَّقُ لشكرِها ، وكلُّ بليَّةٍ كفارةً لذنوبِهِ ، وزيادةً في درجاتِهِ .

❁ ❁ ❁

النوعُ الرابعُ : ذكرُ ما وردَ مِنَ العقوباتِ علىٰ آحادِ الذنوبِ :

كالخمرِ ، والزنا ، والسرقةِ ، والقتلِ ، والغيبةِ ، والكبرِ ، والحسدِ ، وذلكَ ممَّا لا يمكنُ حصرُهُ ، وذكرُهُ معَ غيرِ أهلِهِ وضعٌ للدواءِ في غيرِ موضعِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ العالمُ كالطبيبِ الحاذقِ ؛ ليستدلَّ أوَّلاً بالنبضِ ، والسحنةِ ووجوهِ الحركاتِ على العللِ الباطنةِ ، ويشتغلَ بعلاجِها ، فليستدلَّ بقرائنِ الأحوالِ علىٰ خفايا الصفاتِ ، وليتعرَّضْ لما وقفَ عليهِ اقتداءً برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ حيثُ قالَ له رجلٌ : أوصني

يا رسولَ اللهِ ولا تكثرْ عليَّ ، فقالَ : « لا تغضبْ »[1] .

وقالَ لهُ آخرُ : أوصني يا رسولَ اللهِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عليكَ باليأسِ ممَّا في أيدي الناسِ ؛ فإنَّ ذلكَ هوَ الغنىٰ ، وإيَّاكَ والطمعَ ؛ فإنَّهُ الفقرُ الحاضرُ ، وصلِّ صلاةَ مودِّعٍ ، وإيَّاكَ وما يُعتذرُ منهُ »[2] .

وقالَ رجلٌ لمحمدِ بنِ واسعٍ : أوصني ، فقالَ : أوصيكَ أنْ تكونَ ملكاً في الدنيا والآخرةِ ، فقالَ : كيفَ لي بذلكَ ؟ قالَ : الزمِ الزهدَ في الدنيا[3] .

فكأنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ توسَّمَ في السائلِ الأوَّلِ مخايلَ الغضبِ فنهاهُ عنهُ ، وفي السائلِ الآخرِ مخايلَ الطمعِ في الناسِ وطولِ الأملِ ، وتخيَّلَ محمدُ بنُ واسعٍ في السائلِ مخايلَ الحرصِ على الدنيا .

وقالَ رجلٌ لمعاذٍ : أوصني ، فقالَ : (كنْ رحيماً أكنْ لكَ بالجنَّةِ زعيماً)[4] .

فكأنَّهُ تفرَّسَ فيهِ آثارَ الفظاظةِ والغلظةِ .

وقالَ رجلٌ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ : أوصني ، فقالَ : إيَّاكَ والناسَ ، وعليكَ بالناسِ ، ولا بدَّ مِنَ الناسِ ، فإنَّ الناسَ همُ الناسُ ، وليسَ كلُّ الناسِ

---

(١) رواه البخاري (٦١١٦) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٠) .

(٤) عزاه الحافظ الزبيدي إلىٰ صاحب « القوت » . « إتحاف » (٨/ ٦٢٠) .

بالناسِ ، ذهبَ الناسُ ، وبقيَ النسناسُ ، وما أراهُمْ بالناسِ ، بلْ غُمسوا في ماءِ الناسِ[1] .

فكأنَّهُ تفرَّسَ فيهِ آفةَ المخالطةِ ، وأخبرَ عمَّا كانَ هوَ الغالبَ علىٰ حالِهِ في وقتِهِ ، وكانَ الغالبُ أذاهُ بالناسِ ، والكلامُ علىٰ قدْرِ حالِ السائلِ أولىٰ مِنْ أنْ يكونَ بحسَبِ حالِ القائلِ .

وكتبَ معاويةُ إلىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهما أنِ اكتبي لي كتاباً توصيني فيهِ ولا تكثري ، فكتبَتْ إليهِ : (مِنْ عائشةَ إلىٰ معاويةَ ، سلامٌ عليكَ ، أمَّا بعدُ : فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنِ التمسَ رضا الناسِ بسخطِ اللهِ . . وكلَهُ اللهُ إلى الناسِ ، ومَنِ التمسَ رضا اللهِ بسخطِ الناسِ . . كفاهُ اللهُ مؤونةَ الناسِ » ، والسلامُ عليكَ)[2] .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٣١٤) ، وقال : (قال إبراهيم : أما قولي : « عليك بالناس ». . بمجالسة العلماء ، وأما قولي : « وإياك والناس ». . إياك ومجالسة السفهاء ، وأما قولي : « لا بد من الناس ». . لا بد من الصلوات الخمس والجمعة والحج والجهاد واتباع الجنائز والشراء والبيع ونحوه ، وأما قولي : « الناس هم الناس ». . الفقهاء والحكماء ، وأما قولي : « ليس الناس بالناس ». . أهل الأهواء والبدع ، وأما قولي : « ذهب الناس ». . ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأما قولي : « وبقي النسناس ». . يعني من يروي عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأما قولي : « وما أراهم بالناس ، إنما هم غمسوا في ماء الناس ». . نحن وأمثالنا) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤١٤) ولفظه : « من التمس رضا الله بسخط الناس. . كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله. . وكله الله إلى الناس » .

فانظرْ إلىٰ فقهِها كيفَ تعرَّضَتْ للآفةِ التي تكونُ الولاةُ بصددِها ، وهيَ مراعاةُ الناسِ وطلبُ مرضاتِهِمْ .

وكتبَتْ إليهِ مرَّةً أخرىٰ : (أمَّا بعدُ : فاتقِ اللهَ ؛ فإنَّكَ إذا اتقيتَ اللهَ . . كفاكَ الناسَ ، وإذا اتقيتَ الناسَ . . لمْ يغنوا عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً ، والسلامُ)(1) .

فإذاً ؛ علىٰ كلِّ ناصحٍ أنْ تكونَ عنايتُهُ مصروفةً إلىٰ تفرُّسِ الصفاتِ الخفيَّةِ ، وتوسُّمِ الأحوالِ اللائقةِ ؛ ليكونَ اشتغالُهُ بالمهمِّ ، فإنَّ حكايةَ جميعِ مواعظِ الشرعِ معَ كلِّ واحدٍ غيرُ ممكنةٍ ، والاشتغالُ بوعظِ مَنْ هوَ مستغنٍ عنِ الوعظِ فيهِ تضييعُ زمانٍ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فإنْ كانَ الواعظُ يتكلَّمُ في جمعٍ ، أوْ سألَهُ مَنْ لا يدري باطنَ حالِهِ أنْ يعظَهُ . . فكيفَ يفعلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ طريقَهُ في ذلكَ أنْ يعظَهُ بما يشتركُ كافَّةُ الخلقِ في الحاجةِ إليهِ ؛ إمَّا على العمومِ ، وإمَّا على الأكثرِ ، فإنَّ في علومِ الشرعِ أغذيةً وأدويةً ، فالأغذيةُ للكافَّةِ ، والأدويةُ لأربابِ العللِ .

ومثالُهُ : ما رُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ لأبي سعيدٍ الخدريِّ : أوصني ، فقالَ : (عليكَ بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّها رأسُ كلِّ خيرٍ ، وعليكَ بالجهادِ ؛ فإنَّهُ

---

(1) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٩١) .

رهبانيةُ الإسلامِ ، وعليكَ بالقرآنِ ؛ فإنَّهُ نورٌ لكَ في أهلِ الأرضِ وذكرٌ لكَ في أهلِ السماءِ ، وعليكَ بالصمتِ إلا مِنْ خيرٍ ؛ فإنَّكَ بذلكَ تغلبُ الشيطانَ)[1] .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : أوصني ، فقالَ : (أعزَّ أمرَ اللهِ يعزَّكَ اللهُ)[2] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ زاحمِ العلماءَ بركبتيكَ ، ولا تجادلْهُمْ فيمقتوكَ ، وخذْ مِنَ الدنيا بلاغَكَ ، وأنفقْ فضولَ كسبِكَ لآخرتِكَ ، ولا ترفضِ الدنيا كلَّ الرفضِ فتكونَ عيالاً ، وعلىٰ أعناقِ الرجالِ كلاًّ ، وصمْ صوماً يكسرُ شهوتَكَ ، ولا تصمْ صوماً يضرُّ بصلاتِكَ ؛ فإنَّ الصلاةَ أفضلُ مِنَ الصومِ ، ولا تجالسِ السفيهَ ، ولا تخالطْ ذا الوجهينِ)[3] .

وقالَ أيضاً لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا تضحكْ مِنْ غيرِ عجبٍ ، ولا تمشِ في غيرِ أربٍ ، ولا تسألْ عمَّا لا يعنيكَ ، ولا تضيِّعْ مالَكَ وتصلحَ مالَ غيرِكَ ؛ فإنَّ مالَكَ ما قدمتَ ، ومالَ غيرِكَ ما تركتَ ، يا بنيَّ ؛ إنَّ مَنْ يرحمْ . . يُرحمْ ، ومَنْ يصمتْ . . يسلمْ ، ومَنْ يقلِ الخيرَ . . يغنمْ ، ومَنْ يقلِ الشرَّ . . يأثمْ ، ومَنْ لا يملكْ لسانَهُ . . يندمْ) .

وقالَ رجلٌ لأبي حازمٍ : أوصني ، فقالَ : (كلُّ ما لوْ جاءَكَ الموتُ عليهِ رأيتَهُ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٤٠) ، ورواه أحمد في « المسند » (٣/ ٨٢) من حديثه مرفوعاً .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٨) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩١) عن الربيع الخولاني بنحوه .

غنيمةً . . فالزمْهُ ، وكلُّ ما لوْ جاءَكَ الموتُ عليهِ رأيتَهُ مصيبةً . . فاجتنبْهُ)[1] .

وقالَ موسىٰ للخضرِ عليهما السلامُ : أوصني ، فقالَ : (كُنْ بسَّاماً ولا تكنْ غضَّاباً ، وكُنْ نفَّاعاً ولا تكنْ ضرَّاراً ، وانزعْ عنِ اللجاجةِ ، ولا تمشِ في غيرِ حاجةٍ ، ولا تضحكْ مِنْ غيرِ عجبٍ ، ولا تعيِّرِ الخطائينَ بخطاياهُمْ ، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ يا بنَ عمرانَ)[2] .

وقالَ رجلٌ لمحمدِ بنِ كرَّامٍ : أوصني ، فقالَ : (اجتهدْ في رضا خالقِكَ بقدْرِ ما تجتهدُ في رضا نفسِكَ) .

وقالَ رجلٌ لحامدٍ اللفافِ : أوصني ، فقالَ : اجعلْ لدينِكَ غلافاً كغلافِ المصحفِ كي لا تدنسَهُ الآفاتُ ، فقالَ : وما غلافُ الدينِ ؟ قالَ : تركُ طلبِ الدنيا إلا ما لا بدَّ منهُ ، وتركُ كثرةِ الكلامِ إلا فيما لا بدَّ منه ، وتركُ مخالطةِ الناسِ إلا فيما لا بدَّ منهُ .

وكتبَ الحسنُ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمهُما اللهُ تعالىٰ : (أمَّا بعدُ : فخفْ ما خوَّفَكَ اللهُ ، واحذرْ ما حذَّرَكَ اللهُ ، وخذْ ممَّا في يديكَ لما بينَ يديكَ ، فعندَ الموتِ يأتيكَ الخبرُ اليقينُ ، والسلامُ) .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الحسنِ يسألُهُ أنْ يعظَهُ ، فكتبَ إليهِ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الهولَ الأعظمَ والأمورَ المفظعاتِ أمامَكَ ، ولا بدَّ لكَ مِنْ مشاهدةِ

---

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣١٧) بنحوه ، والسائل المستوصي هو عمر بن عبد العزيز .

(2) رواه أحمد في « الزهد » (٣٤٠) .

ذلكَ ؛ إمَّا بالنجاةِ ، وإمَّا بالعطبِ ، واعلمْ أنَّ مَنْ حاسبَ نفسَهُ . . ربحَ ، ومَنْ غفلَ عنها . . خسرَ ، ومَنْ نظرَ في العواقبِ . . نجا ، ومَنْ أطاعَ هواهُ . . ضلَّ ، ومَنْ حلمَ . . غنمَ ، ومَنْ خافَ . . أمِنَ ، ومَنْ أمِنَ . . اعتبرَ ، ومَنِ اعتبرَ . . أبصرَ ، ومَنْ أبصرَ . . فهمَ ، ومَنْ فهمَ . . علمَ ، فإذا زللتَ . . فارجعْ ، وإذا ندمتَ . . فأقلعْ ، وإذا جهلتَ . . فاسألْ ، وإذا غضبتَ . . فأمسكْ) .

وكتبَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللهُ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الدنيا دارُ عقوبةٍ ، ولها يجمعُ مَنْ لا عقلَ لهُ ، وبها يغترُّ مَنْ لا علمَ عندَهُ ، فكُنْ فيها يا أميرَ المؤمنينَ كالمداوي جرحَهُ ، يصبرُ علىٰ شدَّةِ الدواءِ لما يخافُ مِنْ عاقبةِ الداءِ)[1] .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ عديِّ بنِ أرطاةَ : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الدنيا عدوَّةُ أولياءِ اللهِ ، وعدوَّةُ أعداءِ اللهِ ، أمَّا أولياؤُهُ : فغمَّتْهُمْ ، وأمَّا أعداؤُهُ : فغرَّتْهُمْ)[2] .

وكتبَ أيضاً إلىٰ بعضِ عمَّالِهِ : (أمَّا بعدُ : فقدْ أمكنتْكَ القدرةُ مِنْ ظلمِ العبادِ ، فإذا هممْتَ بظلمِ أحدٍ . . فاذكرْ قدرةَ اللهِ عليكَ ، واعلمْ أنَّكَ لا تأتي إلى الناسِ شيئاً إلا كانَ زائلاً عنهُمْ باقياً عليكَ ، واعلمْ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ آخذٌ للمظلومينَ مِنَ الظالمينَ ، والسلامُ) .

---

(١) تقدم صدره مرفوعاً ، والخبر هنا عن مطرف أورده المسعودي في « مروج الذهب » (٤/ ٢٠) نقلاً عن المدائني .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٤٣) .

فهكذا ينبغي أنْ يكونَ وعظُ العامَّةِ ، ووعظُ مَنْ لا يدري خصوصَ واقعتِهِ ، فهٰذهِ المواعظُ مثلُ الأغذيةِ التي يشتركُ الكافَّةُ في الانتفاعِ بها ، ولأجلِ فقْدِ مثلِ هؤلاءِ الوعَّاظِ انحسمَ بابُ الاتعاظِ ، وغلبتِ المعاصي ، واستشرى الفسادُ ، وبُلِيَ الخلقُ بوعَّاظٍ يزخرفونَ أسجاعاً ، وينشدونَ أبياتاً ، ويتكلَّفونَ ذكرَ ما ليسَ في سعةِ علمِهِمْ ، ويتشبَّهونَ بحالِ غيرِهِمْ ، فسقطَ عنْ قلوبِ العامَّةِ وقارُهُمْ ، ولمْ يكنْ كلامُهُمْ صادراً مِنَ القلبِ ليصلَ إلى القلبِ ، بلِ القائلُ متصلِّفٌ ، والمستمعُ متكلِّفٌ ، وكلٌّ واحدٍ منهُما مدبرٌ ومتخلِّفٌ .

وإذا كانَ طلبُ الطبيبِ أوَّلَ علاجِ المرضىٰ . . فطلبُ العلماءِ أوَّلُ علاجِ العاصينَ ، **فهٰذا أحدُ أركانِ العلاجِ وأصولِهِ** .

الأصلُ الثاني : الصبرُ ، ووجهُ الحاجةِ إليهِ أنَّ المريضَ إنَّما يطولُ مرضُهُ لتناولِهِ ما يضرُّهُ ، وإنَّما يتناولُ ذلكَ إمَّا لغفلتِهِ عنْ مضرَّتِهِ ، وإمَّا لشدَّةِ غلبةِ شهوتِهِ ، فلهُ سببانِ ، فما ذكرناهُ هوَ علاجُ الغفلةِ ، فيبقىٰ علاجُ الشهوةِ ، وطريقُ علاجِها قدْ ذكرناهُ في كتابِ رياضةِ النفسِ .

وحاصلُهُ : أنَّ المريضَ إذا اشتدَّتْ ضراوتُهُ لمأكولٍ مضرٍّ . . فطريقُهُ أنْ يستشعرَ عظمَ ضررِهِ ، ثمَّ يُغيِّبُ ذلكَ عنْ عينِهِ فلا يُحضِرُهُ ، ثمَّ يتسلَّىٰ عنهُ بما يقربُ منهُ في صورتِهِ ولا يكثرُ ضررُهُ ، ثمَّ يصبرُ بقوَّةِ الخوفِ على الألمِ الذي ينالُهُ في تركِهِ ، فلا بدَّ علىٰ كلِّ حالٍ مِنْ مرارةِ الصبرِ ؛ فكذلكَ يعالجُ

الشهوةَ في المعاصي ، كالشابِّ مثلاً إذا غلبَتْهُ الشهوةُ ، فصارَ لا يقدرُ علىٰ حفظِ عينِهِ ، أوْ حفظِ قلبِهِ ، أوْ حفظِ جوارحِهِ في السعيِ وراءَ شهوتِهِ . . فينبغي أنْ يستشعرَ ضررَ ذنبِهِ ؛ بأنْ يستقرئَ المخوفاتِ التي جاءَتْ فيهِ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإذا اشتدَّ خوفُهُ . . تباعدَ مِنَ الأسبابِ المهيِّجةِ لشهوتِهِ ، ومهيِّجُ الشهوةِ مِنْ خارجٍ هوَ حضورُ المشتهىٰ والنظرُ إليهِ ، وعلاجُهُ : الهربُ والعزلةُ ، ومِنْ داخلٍ تناولُ لذائذِ الأطعمةِ ، وعلاجُهُ : الجوعُ والصومُ الدائمُ ، وكلُّ ذلكَ لا يتمُّ إلا بصبرٍ ، ولا يصبرُ إلا عنْ خوفٍ ، ولا يخافُ إلا عنْ علمٍ ، ولا يعلمُ إلا عنْ بصيرةٍ وافتكارٍ أوْ عنْ سماعٍ وتقليدٍ .

فأوَّلُ الأمرِ حضورُ مجالسِ الذكرِ ، ثمَّ الاستماعُ مِنْ قلبٍ مجرَّدٍ عنْ سائرِ الشواغلِ ، مصروفٍ إلى السماعِ ، ثمَّ التفكُّرُ فيهِ لتمامِ الفهمِ ، وينبعثُ مِنْ تمامِهِ ـ لا محالةَ ـ خوفُهُ ، وإذا قويَ الخوفُ . . تيسَّرَ بمعونتِهِ الصبرُ ، وانبعثَتِ الدواعي لطلبِ العلاجِ ، وتوفيقُ اللهِ وتيسيرُهُ مِنْ وراءِ ذلكَ .

فمَنْ أعطىٰ مِنْ قلبِهِ حسنَ الإصغاءِ ، واستشعرَ الخوفَ فاتقىٰ ، وانتظرَ الثوابَ وصدَّقَ بالحسنىٰ . . فسييسرُهُ اللهُ تعالىٰ لليسرىٰ ، وأمَّا مَنْ بخلَ واستغنىٰ وكذَّبَ بالحسنىٰ . . فسييسرُهُ اللهُ للعسرىٰ ، ثمَّ لا يغني عنهُ ما اشتغلَ بهِ مِنْ ملاذِّ الدنيا مهما هلكَ وتردىٰ ، وما على الأنبياءِ إلا شرحُ طرقِ الهدىٰ ، وإنَّما للهِ الآخرةُ والأولىٰ .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ رجعَ الأمرُ كلُّهُ إلى الإيمانِ ؛ لأنَّ تركَ الذنبِ لا يمكنُ إلا بالصبرِ ، والصبرُ لا يمكنُ إلا بمعرفةِ الخوفِ ، والخوفُ لا يحصلُ إلا بالعلمِ ، والعلمُ لا يحصلُ إلا بالتصديقِ بعظمِ ضررِ الذنوبِ ، والتصديقُ بعظمِ ضررِ الذنوبِ هوَ تصديقُ اللهِ ورسولِهِ ، وهوَ الإيمانُ ، فكأنَّ مَنْ أصرَّ على الذنبِ . . لمْ يصرَّ إلا لأنَّهُ غيرُ مؤمنٍ !

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا لا يكونُ لفقدِ الإيمانِ ، بلْ يكونُ لضعفِ الإيمانِ ؛ إذْ كلُّ مؤمنٍ مصدِّقٌ بأنَّ المعصيةَ سببُ البعدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وسببُ العقابِ في الآخرةِ ، **ولكنْ سببُ وقوعِهِ في الذنبِ أمورٌ** :

أحدُها : أنَّ العقابَ الموعودَ غيبٌ ليسَ بحاضرٍ ، والنفسُ جبلَتْ متأثرةً بالحاضرِ ، فتأثُرها بالموعودِ ضعيفٌ بالإضافةِ إلىٰ تأثُّرِها بالحاضرِ .

الثاني : أنَّ الشهواتِ الباعثةَ على الذنوبِ لذَّاتُها ناجزةٌ ، وهيَ في الحالِ آخذةٌ بالمُخَنَّقِ (١) ، وقدْ قويَ ذلكَ واستولىٰ بسببِ الاعتيادِ والإلفِ ، والعادةُ طبيعةٌ خامسةٌ ، والنزوعُ عنِ العاجلِ لخوفِ الآجلِ شديدٌ على النفسِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وقدْ عبَّرَ عنْ شدَّةِ الأمرِ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حُفَّتِ

---

(١) المخنَّق : موضع الخنق من العنق .

الجنَّةُ بالمكارِهِ ، وحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ »[1] .

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ خلقَ النارَ ، فقالَ لجبريلَ عليهِ السلامُ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ إليها ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا يسمعُ بها أحدٌ فيدخلُها ، فحفَّها بالشهواتِ ثمَّ قالَ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لقدْ خشيتُ ألا يبقىٰ أحدٌ إلا دخلَها ، وخلقَ الجنَّةَ ، فقالَ لجبريلَ عليهِ السلامُ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا يسمعُ بها أحدٌ إلا دخلَها ، فحفَّها بالمكارهِ ثمَّ قالَ : اذهبْ فانظرْ إليها ، فذهبَ فنظرَ إليها ، فقالَ : وعزَّتِكَ ؛ لقدْ خشيتُ ألا يدخلَها أحدٌ »[2] .

فإذاً ؛ كونُ الشهوةِ مرهقةً في الحالِ وكونُ العقابِ متأخراً إلى المآلِ سببانِ ظاهرانِ في الاسترسالِ معَ حصولِ أصلِ الإيمانِ .

فليسَ كلُّ مَنْ شربَ في مرضِهِ ماءَ الثلجِ لشدَّةِ عطشِهِ مكذِّباً بأصلِ الطبِّ ، ولا مكذِّباً بأنَّ ذلكَ مضرٌّ في حقِّهِ ، ولكنَّ الشهوةَ تغلبُهُ ، وألمُ الصبرِ عنهُ ناجزٌ ، فيهونُ عليهِ الألمُ المنتظرُ .

الثالثُ : أنَّهُ ما مِنْ مذنبٍ مؤمنٍ إلا وهوَ في الغالبِ عازمٌ على التوبةِ ، وتكفيرِ السيئاتِ بالحسناتِ ، وقدْ وُعِدَ بأنَّ ذلكَ يجبرُهُ ، إلا أنَّ طولَ الأملِ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٢٣) ، وبنحوه هو عند البخاري كذلك (٦٤٨٧) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٧٤٤) ، والترمذي (٢٥٦٠) ، والنسائي (٧/ ٣) .

غالبٌ على الطباعِ ، فلا يزالُ يسوِّفُ التوبةَ والتكفيرَ ، فمِنْ حيثُ رجاؤُهُ التوفيقَ للتوبةِ ربَّما يقدمُ عليهِ معَ الإيمانِ .

الرابعُ : أنَّهُ ما مِنْ مؤمنٍ موقنٍ إلا وهوَ معتقدٌ أنَّ الذنبَ لا يوجبُ العقوبةَ إيجاباً لا يمكنُ العفوُ عنها ، فهوَ يذنبُ وينتظرُ العفوَ ؛ اتكالاً علىٰ فضْلِ اللهِ تعالىٰ .

فهٰذهِ أسبابٌ أربعةٌ موجبةٌ للإصرارِ على الذنبِ معَ بقاءِ أصلِ الإيمانِ .

نعمْ ، قدْ يقدمُ المذنبُ بسببٍ خامسٍ يقدحُ في أصلِ إيمانِهِ ، وهوَ كونُهُ شاكاً في صدقِ الرسلِ ، وهٰذا هوَ الكفرُ ؛ كالذي يحذِّرُهُ الطبيبُ عنْ تناولِ ما يضرُّهُ في المرضِ ، وكانَ المحذِّرُ ممَّنْ لا يَعتقدُ فيهِ أنَّهُ عالمٌ بالطبِّ ، فيكذِّبُهُ أوْ يشكُّ فيهِ ، فلا يبالي بهِ ، فهٰذا هوَ الكفرُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما علاجُ الأسبابِ الخمسةِ ؟

فأقولُ : هوَ الفكرُ ، وذلكَ بأنْ يقرِّرَ علىٰ نفسِهِ في السببِ الأوَّلِ ـ وهوَ تأخُّرُ العقابِ ـ أنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ آتٍ ، وأنَّ غداً لناظرِهِ قريبٌ ، وأنَّ الموتَ أقربُ إلىٰ كلِّ أحدٍ مِنْ شراكِ نعلِهِ ، فما يدريهِ لعلَّ الساعةَ قريبٌ ، والمتأخِّرُ إذا وقعَ . . صارَ ناجزاً ، ويذكِّرَ نفسَهُ أنَّهُ أبداً في دنياهُ يتعبُ في الحالِ لخوفِ أمرٍ في الاستقبالِ ؛ إذْ يركبُ البحارَ ويقاسي الأسفارَ لأجلِ الربحِ الذي يظنُّ أنَّهُ قدْ يحتاجُ إليهِ في ثاني الحالِ ، بلْ لوْ مرضَ فأخبرَهُ نصرانيٌّ طبيبٌ بأنَّ

شربَ الماءِ البارِدِ يضرُّهُ ويسوقُهُ إلى الموتِ ، وكانَ الماءُ البارِدُ ألذَّ الأشياءِ عندَهُ . . تركَهُ معَ أنَّ الموتَ ألمُهُ لحظةٌ إذا لمْ يخفْ ما بعدَهُ ، ومفارقتُهُ للدنيا لا بدَّ منها ، فكمْ نسبةُ وجودِهِ في الدنيا إلىٰ عدمِهِ أزلاً وأبداً ؟!

فلينظرْ كيفَ يبادرُ إلىٰ تركِ ملاذِّهِ بقولِ ذمِّيٍّ لمْ تقمْ معجزةٌ علىٰ طبِّهِ ، فيقولُ : كيفَ يليقُ بعقلي أنْ يكونَ قولُ الأنبياءِ المؤيدينَ بالمعجزاتِ عندي دونَ قولِ نصرانيٍّ يدَّعي الطبَّ لنفسِهِ بلا معجزةٍ علىٰ طبِّهِ ، ولا يشهدُ لهُ إلا عوامُّ الخلقِ ؟!

وكيفَ يكونُ عذابُ النارِ أخفَّ عندي مِنْ عذابِ المرضِ وكلُّ يومٍ في الآخرةِ بمقدارِ خمسينَ ألفَ سنةٍ مِنْ أيامِ الدنيا ؟!

وبهـٰذا التفكُّرِ بعينِهِ يعالجُ اللذَّةَ الغالبةَ عليهِ ، ويكلِّفُ نفسَهُ تركَها ، ويقولُ : إذا كنتُ لا أقدرُ علىٰ تركِ لذَّاتي أيامَ العمرِ وهيَ أيامٌ قلائلُ . . فكيفَ أقدرُ علىٰ ذلكَ أبدَ الآبادِ ؟!

وإذا كنتُ لا أطيقُ ألمَ الصبرِ . . فكيفَ أطيقُ ألمَ النارِ ؟!

وإذا كنتُ لا أصبرُ عنْ زخارفِ الدنيا معَ كدوراتِها وتنغُّصِها وامتزاجِ صفوِها بكدرِها . . فكيفَ أصبرُ عنْ نعيمِ الآخرةِ ؟!

وأمَّا تسويفُ التوبةِ . . فيعالجُهُ بالفكرِ في أنَّ أكثرَ صياحِ أهلِ النارِ مِنَ التسويفِ ؛ لأنَّ المسوِّفَ يبني الأمرَ علىٰ ما ليسَ إليهِ ، وهوَ البقاءُ ، فلعلَّهُ لا يبقىٰ ، وإنْ بقيَ . . فلا يقدرُ على التركِ غداً كما لا يقدرُ عليهِ اليومَ .

فليتَ شعري ؛ هلْ عجزَ في الحالِ إلا لغلبةِ الشهوةِ ، والشهوةُ ليسَتْ تفارقُهُ غداً بلْ تتضاعفُ ؛ إذْ تتأكَّدُ بالاعتيادِ ، فليسَتِ الشهوةُ التي أكَّدَها الإنسانُ بالعادةِ كالتي لمْ يؤكِّدْها ، وعنْ هـٰذا هلكَ المسوِّفونَ ؛ لأنَّهُمْ يظنُّونَ الفرقَ بينَ المتماثلينِ ، ولا يظنُّونَ أنَّ الأيامَ متشابهةٌ في أنَّ تركَ الشهواتِ فيها أبداً شاقٌّ ، وما مثالُ المسوِّفِ إلا مثالُ مَنِ احتاجَ إلىٰ قلْعِ شجرةٍ ، فرآها قويَّةً لا تنقلعُ إلا بمشقَّةٍ شديدةٍ ، فقالَ : (أؤخِّرُها سنةً ثمَّ أعودُ إليها) ، وهوَ يعلمُ أنَّ الشجرةَ كلَّما بقيَتْ ازدادَ رسوخُها ، وهوَ كلَّما طالَ عمرُهُ.. ازدادَ ضعفُهُ ، فلا حماقةَ في الدنيا أعظمُ مِنْ حماقتِهِ ؛ إذْ عجزَ معَ قوَّتِهِ عنْ مقاومةِ ضعيفٍ ، فأخذَ ينتظرُ الغلبةَ عليهِ إذا ضعفَ هوَ في نفسِهِ وقويَ الضعيفُ .

وأمَّا المعنى الرابعُ ـ وهوَ انتظارُ عفوِ اللهِ تعالىٰ ـ فعلاجُهُ ما سبقَ ، فمَنْ ينفقُ جميعَ أموالِهِ ويتركُ نفسَهُ وعيالَهُ فقراءَ ، منتظراً مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يرزقَهُ العثورَ علىٰ كنزٍ في أرضٍ خربةٍ.. فإنَّ إمكانَ العفوِ عنِ الذنبِ مثلُ هـٰذا الإمكانِ ، وهوَ مثلُ مَنْ وقعَ النهبُ مِنَ الظلمةِ في بلدِهِ ، وذخائرُ أموالِهِ في صحنِ دارِهِ وقدرَ علىٰ دفنِها وإخفائِها ، فلمْ يفعلْ ، وقالَ : أنتظرُ مِنْ فضْلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يسلِّطَ غفلةً أوْ عقوبةً على الظالمِ الناهبِ حتَّىٰ لا يتفرَّغَ إلىٰ داري ، أوْ إذا انتهىٰ إلىٰ داري.. ماتَ علىٰ بابِ الدارِ ، فإنَّ الموتَ ممكنٌ ، والغفلةَ ممكنةٌ ، وقدْ حُكِيَ في الأسمارِ أنَّ مثلَ ذلكَ وقعَ ، فأنا أنتظرُ مِنْ فضْلِ اللهِ مثلَهُ !

فمنتظرُ هـٰذا منتظرُ أمرٍ ممكنٍ ، ولكنَّهُ في غايةِ الحماقةِ والجهلِ ؛ إذْ قدْ لا يمكنُ ولا يكونُ .

وأمَّا الخامسُ ـ وهوَ الشكُّ ـ فهـٰذا كفرٌ ، وعلاجُهُ الأسبابُ التي تعرِّفُهُ صدقَ الرسلِ ، وذلكَ يطولُ ، ولكنْ يمكنُ أنْ يُعالجَ بعلمٍ قريبٍ يليقُ بحدِّ عقلِهِ ، فيُقالُ لهُ : ما قالَهُ الأنبياءُ المؤيَّدونَ بالمعجزاتِ هلْ صدقُهُ ممكنٌ أوْ تقولُ : أعلمُ أنَّهُ محالٌ كما أعلمُ استحالةَ كونِ شخصٍ واحدٍ في مكانينِ في حالةٍ واحدةٍ ؟

فإنْ قالَ : (أعلمُ استحالتَهُ كذلكَ) . . فهوَ أخرقُ معتوهٌ ، وكأنَّهُ لا وجودَ لمثلِ هـٰذا في العقلاءِ .

وإنْ قالَ : (أنا شاكٌّ فيهِ) . . فيُقالُ : لوْ أخبركَ شخصٌ واحدٌ مجهولٌ عندَ تركِكَ طعامَكَ في البيتِ لحظةً أنَّهُ قدْ ولغَتْ فيهِ حيَّةٌ وألقَتْ سمَّها فيهِ ، وجوزتَ صدقَهُ . . فهلْ تأكلُهُ أوْ تتركُهُ وإنْ كانَ ألذَّ الأطعمةِ ؟ فيقولُ : (أتركُهُ لا محالةَ ؛ لأنيِّ أقولُ : إنْ كذبَ . . فلا يفوتُني إلا هـٰذا الطعامُ ، والصبرُ عنهُ وإنْ كانَ شديداً فهوَ قريبٌ ، وإنْ صدقَ . . فتفوتُني الحياةُ ، والموتُ بالإضافةِ إلىٰ ألمِ الصبرِ عنِ الطعامِ وإضاعتِهِ شديدٌ) ، فيُقالُ لهُ : يا سبحانَ اللهِ ! كيفَ تؤخِّرُ صدقَ الأنبياءِ كلِّهِمْ معَ ما ظهرَ لهُمْ مِنَ المعجزاتِ وصدقِ كافَّةِ العلماءِ والأولياءِ والحكماءِ بلْ جميعِ أصنافِ العقلاءِ ولستُ أعني بهِمْ جهَّالَ العوامِّ ، بلْ ذوي الألبابِ . . عنْ صدقِ رجلٍ واحدٍ مجهولٍ لعلَّ لهُ غرضاً فيما يقولُ ؟!

فليسَ في العقلاءِ إلا مَنْ صدَّقَ باليومِ الآخرِ ، وأثبتَ ثواباً وعقاباً ، وإنِ اختلفوا في كيفيتِهِ ، فإنْ صدقوا . . فقدْ أشرفتَ علىٰ عذابٍ يبقىٰ أبدَ الآبادِ ، وإنْ كذبوا . . فلا يفوتُكَ إلا بعضُ شهواتِ هـٰذهِ الدنيا الفانيةِ المكدرةِ .

فلا يبقىٰ لهُ توقُّفٌ إنْ كانَ عاقلاً معَ هـٰذا الفكرِ ؛ إذْ لا نسبةَ لمدَّةِ العمرِ إلىٰ أبدِ الآبادِ ، بلْ لوْ قدَّرْنا أنَّ الدنيا مملوءةٌ بالذُّرَةِ ، وقدَّرْنا طائراً يلتقطُ في كلِّ ألفِ ألفِ سنةٍ حبَّةً واحدةً منها . . لفنيَتِ الذُّرةُ ، ولمْ ينقصْ من أبدِ الآبادِ شيءٌ ، فكيفَ يفترُ رأيُ العاقلِ في الصبرِ عنِ الشهواتِ مئةَ سنةٍ مثلاً لأجلِ سعادةٍ تبقىٰ أبدَ الآبادِ وذلكَ لا منتهىٰ لهُ ؟!

ولذلكَ قالَ أبو العلاءِ المعرِّيُّ[1] : [من الكامل]

قالَ ٱلْمُنَجِّمُ وَٱلطَّبِيبُ كِلاهُما ... لا تُبْعَثُ ٱلأَمْواتُ قُلْتُ إِلَيْكُما

إِنْ صَحَّ قَوْلُكُما فَلَسْتُ بِخاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَٱلْخَسارُ عَلَيْكُما

ولذلكَ قالَ أميرُ المؤمنينَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لبعضِ مَنْ قصرَ عقلُهُ عنْ فهمِ تحقيقِ الأمورِ وكانَ شاكّاً : (إنْ صحَّ ما قلتُ . . فقدْ تخلصنا جميعاً ، وإلا . . فقدْ تخلصنا وهلكتَ)[2] أي : العاقلُ يسلكُ طريقَ الأمنِ في جميعِ الأحوالِ .

* * *

---

(١) شرح اللزوميات (٣/ ١٣٣) .

(٢) أورده الشريف في « نهج البلاغة » . « إتحاف » (٨/ ٤٣٢) .

فإنْ قلتَ : هٰذهِ الأمورُ جليَّةٌ ، ولكنَّها ليسَتْ تُنالُ إلا بالفكرِ ، فما بالُ القلوبِ هجرَتِ الفكرَ فيها واستثقلَتْهُ ؟ وما علاجُ القلوبِ لردِّها إلى الفكرِ لا سيما مَنْ آمنَ بأصلِ الشرعِ وتفصيلِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ المانعَ مِنَ الفكرِ أمرانِ :

أحدُهُما : أنَّ الفكرَ النافعَ هوَ الفكرُ في عقابِ الآخرةِ ، وأهوالِها وشدائِدِها ، وحسراتِ العاصينَ في الحرمانِ عنِ النعيمِ المقيمِ ، وهٰذا فكرٌ لدَّاغٌ مؤلمٌ للقلبِ ، فينفرُ القلبُ عنهُ ، ويتلذَّذُ بالفكرِ في أمورِ الدنيا علىٰ سبيلِ التفرُّجِ والاستراحةِ .

والثاني : أنَّ الفكرَ شغلٌ في الحالِ مانعٌ مِنْ لذائذِ الدنيا وقضاءِ الشهواتِ ، وما مِنْ إنسانٍ إلا ولهُ في كلِّ حالةٍ مِنْ أحوالِهِ ونَفَسٍ مِنْ أنفاسِهِ شهوةٌ قدْ تسلطَتْ عليهِ واسترقَّتْهُ ، فصارَ عقلُهُ مسخَّراً لشهوتِهِ ، فهوَ مشغولٌ بتدبيرِ حيلتِهِ ، وصارَتْ لذَّتُهُ في طلبِ الحيلةِ فيهِ أوْ في مباشرةِ قضاءِ الشهوةِ ، والفكرُ يمنعُهُ مِنْ ذلكَ .

وأمَّا علاجُ هٰذينِ المانعينِ :

فهو أنْ يقولَ لقلبِهِ : ما أشدَّ غباوتَكَ في الاحترازِ مِنَ الفكرِ في الموتِ وما بعدَهُ تألُّماً بذكرِهِ معَ استحقارِ ألمِ مواقعتِهِ ! فكيفَ تصبرُ علىٰ مقاساتِهِ إذا وقعَ وأنتَ عاجزٌ عنِ الصبرِ علىٰ تقديرِ الموتِ وما بعدَهُ ومتألِّمٌ بهِ ؟!

وأمَّا الثاني وهوَ كونُ الفكرِ مفوِّتاً للذَّاتِ الدنيا . . فهوَ أنْ يتحقَّقَ أنَّ فواتَ

لذَّاتِ الآخرةِ أشدُّ وأعظمُ ، فإنَّها لا آخرَ لها ، ولا كدورةَ فيها ، ولذَّاتُ الدنيا سريعةُ الدثورِ[١] ، وهيَ مشوبةٌ بالمكدِّراتِ ، فما فيها لذَّةٌ صافيةٌ عنْ كدرٍ ، وكيفَ وفي التوبةِ عنِ المعاصي والإقبالِ على الطاعةِ تلذُّذٌ بمناجاةِ اللهِ تعالىٰ ، واستراحةٌ بمعرفتِهِ وطاعتِهِ وطولِ الأنسِ بهِ ؟! ولوْ لمْ يكنْ للمطيعِ جزاءٌ علىٰ عملِهِ إلا ما يجدُهُ مِنْ حلاوةِ الطاعةِ ، وروحِ الأنسِ بمناجاةِ اللهِ تعالىٰ . . لكانَ ذلكَ كافياً ، فكيفَ بما ينضافُ إليهِ مِنْ نعيمِ الآخرةِ ؟!

نعمْ ، هٰذهِ اللذَّةُ لا تكونُ في ابتداءِ التوبةِ ، ولكنَّها بعدَما يصبرُ عليها مدةً مديدةً[٢] ، وقدْ صارَ الخيرُ ديدناً كما كانَ الشرُّ ديدناً ، فالنفسُ قابلةٌ ما عوَّدتَها تتعوَّدُ ، والخيرُ عادةٌ ، والشرُّ لجاجةٌ .

فإذاً ؛ هٰذهِ الأفكارُ هيَ المهيِّجةُ للخوفِ المهيِّجِ لقوَّةِ الصبرِ عنِ اللذَّاتِ ، ومهيِّجُ هٰذهِ الأفكارِ وعظُ الوعَّاظِ ، وتنبيهاتٌ تقعُ للقلبِ بأسبابٍ تتفقُ لا تدخلُ في الحصرِ ، فيصيرُ الفكرُ موافقاً للطبعِ ، فيميلُ القلبُ إليهِ ، ويعبَّرُ عنِ السببِ الذي أوقعَ الموافقةَ بينَ الطبعِ وبينَ الفكرِ الذي هوَ سببُ الخيرِ بالتوفيقِ ؛ إذِ التوفيقُ هوَ التأليفُ بينَ الإرادةِ وبينَ المعنى الذي هوَ طاعةٌ نافعةٌ في الآخرةِ .

وقدْ رُوِيَ في حديثٍ طويلٍ أنَّهُ قامَ عمَّارُ بنُ ياسرٍ فقالَ لعليِّ بنِ

---

(١) أي : الذهاب والانطماس . « إتحاف » (٨/ ٦٢٩) .
(٢) في النسخ : (ولكنه يصبر عليه مديدة) ، والمثبت من (ق) .

أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أخبِرْنا عنِ الكفرِ علىٰ ماذا بُنِيَ ؟ فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : علىٰ أربعِ دعائمَ : على الجفاءِ ، والعمىٰ ، والغفلةِ ، والشكِّ ، فمَنْ جفا . . احتقرَ الحقَّ ، وجهرَ بالباطلِ ، ومقتَ العلماءَ ، ومَنْ عميَ . . نسيَ الذكرَ ، ومَنْ غفلَ . . حادَ عنِ الرشدِ ، وغرَّتْهُ الأمانيُّ ، فأخذَتْهُ الحسرةُ والندامةُ ، وبدا لهُ مِنَ اللهِ ما لمْ يكنْ يحتسبُ (1) .

فما ذكرناهُ بيانٌ لبعضِ آفاتِ الغفلةِ عنِ التفكُّرِ ، وهـٰذا القدْرُ في التوبةِ كافٍ ، وإذا كانَ الصبرُ ركناً مِنْ أركانِ دوامِ التوبةِ . . فلا بدَّ مِنْ بيانِ الصبرِ ، فنذكرُهُ في كتابٍ مفردٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

تم كتاب التوبة

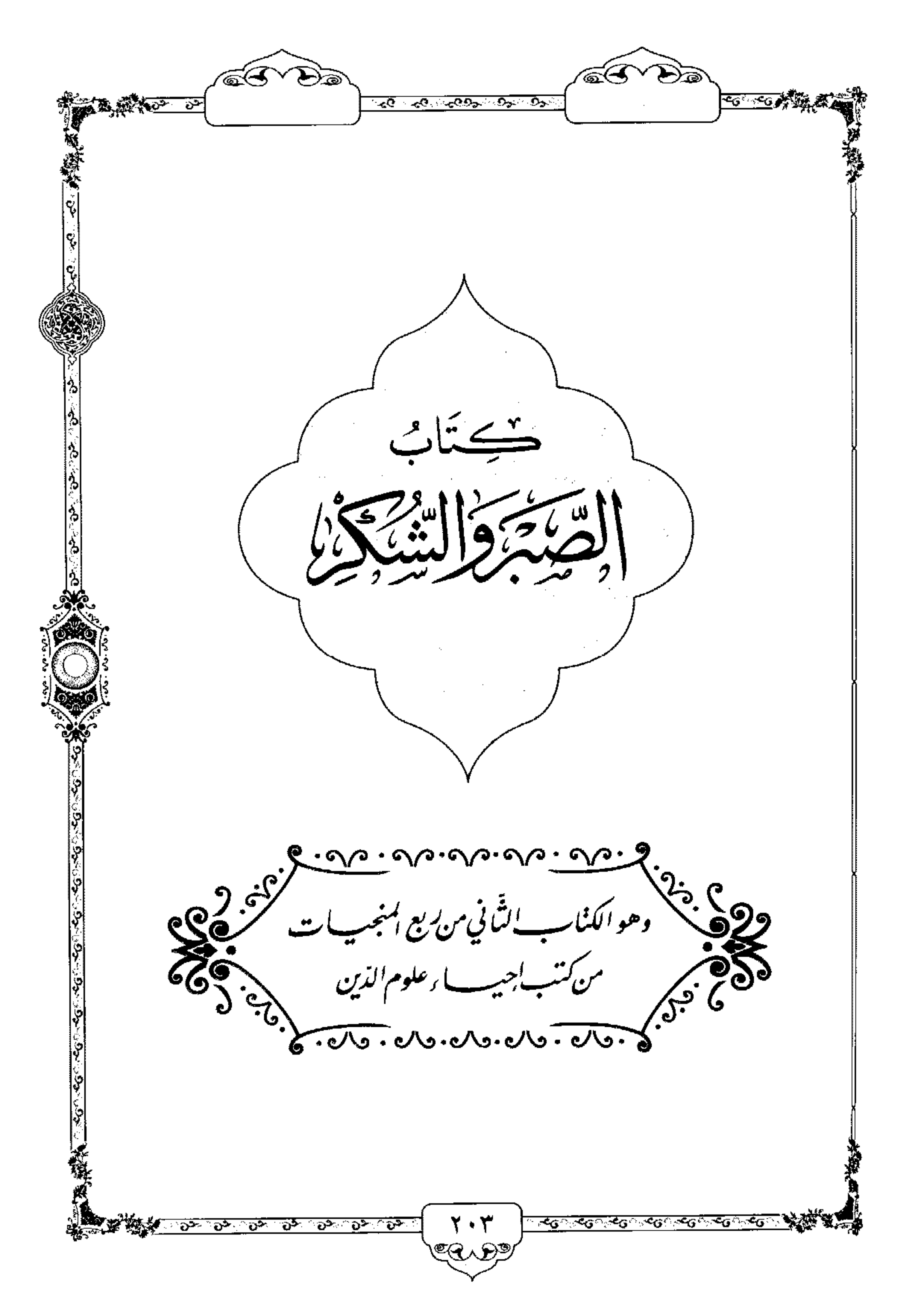
وهو الكتاب الأوّل من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله حق حمده ، وصلاته على النبي محمد وآله أجمعين وسلامه

يتلوه كتاب الصبر والشكر

---

(1) كذا في « القوت » (١/ ١٨٨) ، وزاد : (ومن شكَّ . . تاه في الضلالة) .



كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الصبر والشكر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ أهلِ الحمدِ والثناءِ ، المتفرِّدِ برداءِ الكبرياءِ ، المتوحِّدِ بصفاتِ المجدِ والعلاءِ ، المؤيِّدِ صفوةَ الأولياءِ ، بقوَّةِ الصبرِ على السرَّاءِ والضرَّاءِ ، والشكرِ على البلاءِ والنعماءِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ الأنبياءِ ، وعلىٰ أصحابهِ سادةِ الأصفياءِ ، وعلىٰ آلِهِ قادةِ البررةِ الأتقياءِ ، صلاةً محروسةً بالدوامِ عنِ الفناءِ ، ومصونةً بالتعاقبِ عنِ التصرُّمِ والانقضاءِ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإنَّ الإيمانَ نصفانِ ، نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ ؛ كما وردَتْ بهِ الآثارُ ، وشهدَتْ لهُ الأخبارُ[1] ، وهما أيضاً وصفانِ مِنْ أوصافِ اللهِ تعالىٰ ، واسمانِ مِنْ أسمائِهِ الحسنىٰ ؛ إذْ سمَّىٰ نفسَهُ صبوراً وشكوراً ، فالجهلُ بحقيقةِ الصبرِ والشكرِ جهلٌ بكلا شطريِ الإيمانِ ، ثمَّ هوَ غفلةٌ عنْ وصفينِ مِنْ أوصافِ

(1) فقد روى البيهقي في « الشعب » (٩٢٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الإيمان نصفان ، نصف في الصبر ونصف في الشكر » ، وروى الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان) .

الرحمـٰنِ ، ولا سبيلَ إلى الوصولِ إلى القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ إلا بالإيمانِ ، وكيفَ يُتصوَّرُ سلوكُ سبيلِ الإيمانِ دونَ معرفةِ ما بهِ الإيمانُ ومَنْ بهِ الإيمانُ ؟! والتقاعدُ عنْ معرفةِ الصبرِ والشكرِ تقاعدٌ عنْ معرفةِ مَنْ بهِ الإيمانُ ، وعنْ إدراكِ ما بهِ الإيمانُ ، فما أحوجَ كلا الشطرينِ إلى الإيضاحِ والبيانِ ، ونحنُ نوضحُ كلا الشطرينِ في كتابٍ واحدٍ لارتباطِ أحدِهما بالآخرِ إنْ شاءَ اللهُ .

* * *

الشَّطرُ الأوّلُ
في الصّبر

وفيهِ بيانُ فضيلةِ الصبرِ ، وبيانُ حدِّهِ وحقيقتِهِ ، وبيانُ كونِهِ نصفَ الإيمانِ ، وبيانُ اختلافِ أساميهِ باختلافِ متعلَّقاتِهِ ، وبيانُ أقسامِهِ ، بحسَبِ اختلافِ القوّةِ والضعفِ ، وبيانُ مظانِّ الحاجةِ إلى الصبرِ ، وبيانُ دواءِ الصبرِ وما يُستعانُ بهِ عليهِ .

فهيَ سبعةُ فصولٍ تشتملُ علىٰ جميعِ مقاصدِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

بيان فضيلة الصّبر

قدْ وصفَ اللهُ تعالى الصابرينَ بأوصافٍ ، وذكرَ الصبرَ في القرآنِ في نيّفٍ وسبعينَ موضعاً ، وأضافَ أكثرَ الخيراتِ والدرجاتِ إلى الصبرِ ، وجعلَها ثمرةً لهُ .

فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، فما مِنْ قربةٍ إلا وأجرُها بتقديرٍ وحسابٍ إلا الصبرَ .

ولأجلِ كونِ الصومِ مِنَ الصبرِ ـ فإنَّهُ نصفُ الصبرِ[1] ـ قالَ اللهُ تعالىٰ : « الصومُ لي وأنا أجزي بهِ »[2] ، فأضافَهُ إلىٰ نفسِهِ مِنْ بينِ سائرِ العباداتِ .

ووعدَ الصابرينَ بأنَّهُ معَهُمْ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ .

وعلَّقَ النصرَ على الصبرِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ .

وجمعَ للصابرينَ بينَ أمورٍ لمْ يجمعْها لغيرِهِمْ فقالَ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ ، فالهدىٰ والصلواتُ والرحمةُ مجموعةٌ للصابرينَ .

واستقصاءُ جميعِ الآياتِ في مقامِ الصبرِ يطولُ .

* * *

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ »[3] ، علىٰ ما سيأتي وجهُ كونِهِ نصفاً .

---

(١) هو جزء من حديث مرفوع رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

(٢) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٢٢٧) ، وأوقفه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٤) علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ ، ومَنْ أُعطيَ حظَّهُ منهُما . . لمْ يبالِ بما فاتَهُ مِنْ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، ولأَنْ تصبروا علىٰ مثلِ ما أنتُمْ عليهِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يوافيَني كلُّ امرىءٍ منكُمْ بمثلِ عملِ جميعِكُمْ ، ولكنِّي أخافُ أنْ تُفتحَ عليكُمُ الدنيا بعدي ، فينكرَ بعضُكُمْ بعضاً ، وينكرَكُمْ أهلُ السماءِ عندَ ذلكَ ، فمَنْ صبرَ واحتسبَ . . ظفرَ بكمالِ ثوابِهِ » ، ثمَّ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وروىٰ جابرٌ أنَّهُ سُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الإيمانِ ، فقالَ : « الصبرُ والسماحةُ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً : « الصبرُ كنزٌ مِنْ كنوزِ الجنَّةِ »[3] .

---

(١) كذا أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (١/ ١٩٤) من حديث شهر بن حوشب الأشعري عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٦١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، ورواه أحمد في « المسند » (٤/ ٣٨٥) من حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه .

(٣) قال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده) ، وروى الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص١٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٧) من حديث أنس مرفوعاً : « ثلاث من كنوز البر : إخفاء الصدقة ، وكتمان الشكوىٰ ، وكتمان المصيبة . . . » الحديث .

وسُئِلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مرَّةً : ما الإيمانُ ؟ فقالَ : « الصبرُ »[1] ، وهٰذا يشبهُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجُّ عرفةُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « أفضلُ الأعمالِ ما أُكرهَتْ عليهِ النفوسُ »[3] .

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : تخلَّقْ بأخلاقي ، وإنَّ مِنْ أخلاقي أنِّي أنا الصبورُ[4] .

وفي حديثِ عطاءٍ عنِ ابنِ عباسٍ : لمَّا دخلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على الأنصارِ فقالَ : « أمؤمنونَ أنتُمْ ؟ » فسكتوا ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : نعمْ يا رسولَ اللهِ ؛ فقالَ : « وما علامةُ إيمانِكُمْ ؟ » فقالوا : نشكرُ على الرخاءِ ، ونصبرُ على البلاءِ ، ونرضىٰ بالقضاءِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مؤمنونَ وربِّ الكعبةِ »[5] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « في الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ »[6] .

---

(١) روى الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٨٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » .

(٢) رواه أبو داوود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٥/ ٢٥٦) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ١٩٥)، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١٣).

(٤) الرسالة القشيرية (ص٣٢٧) .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٢٣) بنحوه ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/ ١٩٤) .

(٦) رواه الضياء في « المختارة » (١٤) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٣٠٧) .

وقالَ المسيحُ عليهِ السلامُ : (إنَّكُمْ لا تدركونَ ما تحبُّونَ إلا بصبرِكُمْ علىٰ ما تكرهونَ)[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ الصبرُ رجلاً . . لكانَ كريماً ، واللهُ يحبُّ الصابرينَ »[2] .

والأخبارُ في هٰذا ممَّا لا يُحصىٰ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ وُجِدَ في رسالةِ عمرَ بنِ الخطابِ إلىٰ أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُما : (عليكَ بالصبرِ ، واعلمْ أنَّ الصبرَ صبرانِ ، أحدُهُما أفضلُ مِنَ الآخرِ ، الصبرُ في المصيباتِ حسنٌ ، وأفضلُ منهُ الصبرُ عمَّا حرَّمَ اللهُ تعالىٰ ، واعلمْ أنَّ الصبرَ مِلاكُ الإيمانِ ، وذلكَ بأنَّ التقوىٰ أفضلُ البرِّ ، والتقوىٰ بالصبرِ)[3] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (بُنِيَ الإيمانُ علىٰ أربعِ دعائمَ :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٨٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/٦) : (رواه إبراهيم بن بشار الرمادي عن سفيان عن والد إدريس بن عبد الله عن سعيد بن أبي بردة بن أبي موسىٰ عن أبيه ، وكان أبو موسىٰ قد أوصىٰ إلى ابنه أبي بردة رسائل عمر التي كان يكتبها إليه) ، ورواه مختصراً ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٨٨٢٧) .

اليقينُ ، والصبرُ ، والجهادُ ، والعدْلُ)[١] .

وقالَ أيضاً : (الصبرُ مِنَ الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ مِنَ الجسدِ ، ولا جسدَ لِمَنْ لا رأسَ لهُ ، ولا إيمانَ لِمَنْ لا صبرَ لهُ)[٢] .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (نعمَ العِدْلانِ ونعمتِ العِلاوةُ للصابرينَ) ؛ يعني بالعدلينِ : الصلاةَ والرحمةَ ، وبالعلاوةِ : الهدىٰ ، والعِلاوةُ ما يُحملُ فوقَ العدلينِ على البعيرِ ، وأشارَ بهِ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[٣] .

وكانَ حبيبُ بنُ أبي حبيبٍ إذا قرأَ هٰذهِ الآيةَ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ . . بكىٰ وقالَ : (وا عجباهُ ! أعطىٰ وأثنىٰ) أيْ : هوَ المعطي للصبرِ وهوَ المثنىٰ عليهِ[٤] .

وقالَ أبو الدرداءِ : (ذروةُ الإيمانِ الصبرُ للحكمِ ، والرضا بالقدَرِ)[٥] .

---

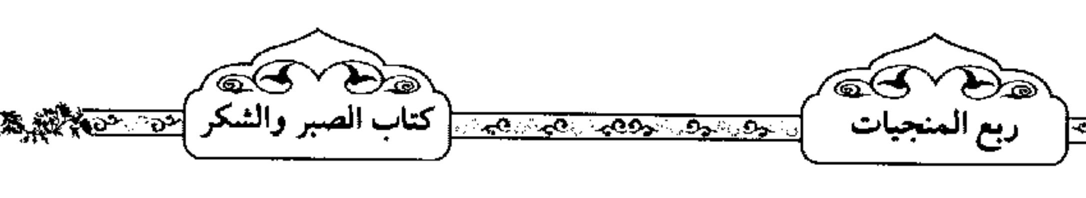
(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨) ، وهو في « القوت » (١/ ١٩٤) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٧٩) ، وهو في « القوت » (١/ ١٩٤) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ١٩٤) ، وقد رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢٧٠) .

(٤) أورده الطرطوشي في « سراج الملوك » (١/ ٣٩٧) ، والرب إذا أثنىٰ علىٰ أعمال عباده . . فقد أثنىٰ علىٰ فعل نفسه ؛ لأن أعمالهم من خلقه . « إتحاف » (٩/ ٧) ، وسيؤكد هٰذا المعنى المصنف ، والمثنىٰ بالمقصورة ، لا بالياء ، كما سيُوضَّح في بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالىٰ .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١٦) ، وزاد : (والإخلاص في التوكل ، والاستسلام للرب عز وجل) .



هـٰذا بيانُ فضيلةِ الصبرِ مِنْ حيثُ النقلُ .

وأمَّا مِنْ حيثُ النظرُ بعينِ الاعتبارِ . . فلا تفهمُهُ إلا بعدَ فهمِ حقيقةِ الصبرِ ومعناهُ ؛ إذْ معرفةُ الفضيلةِ والرتبةِ معرفةُ صفةٍ ، فلا تحصلُ قبلَ معرفةِ الموصوفِ ، فلنذكرْ حقيقتَهُ ومعناهُ ، وباللهِ التوفيقُ .

* * *

بيان حقيقة الصّبر ومعناه

اعلمْ : أنَّ الصبرَ مقامٌ مِنْ مقاماتِ الدينِ ، ومنزلٌ مِنْ منازلِ السالكينَ ، وجميعُ مقاماتِ الدينِ إنَّما تنتظمُ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ : معارفُ، وأحوالٌ، وأعمالٌ.

فالمعارفُ هيَ الأصولُ ، وهيَ التي تورثُ الأحوالَ ، والأحوالُ تثمرُ الأعمالَ ، فالمعارفُ كالأشجارِ ، والأحوالُ كالأغصانِ ، والأعمالُ كالثمارِ ، وهـٰذا مطردٌ في جميعِ منازلِ السالكينَ إلى اللهِ تعالىٰ .

واسمُ الإيمانِ تارةً يختصُّ بالمعارفِ ، وتارةً يُطلقُ على الكلِّ ؛ كما ذكرناهُ في اختلافِ اسمِ الإيمانِ والإسلامِ في كتابِ قواعدِ العقائدِ ، وكذلكَ الصبرُ لا يتمُّ إلا بمعرفةٍ سابقةٍ ، وبحالةٍ قائمةٍ ، فالصبرُ على التحقيقِ عبارةٌ عنها ، والعملُ هوَ كالثمرةِ يصدرُ عنها ، ولا يُعرفُ هـٰذا إلا بمعرفةِ كيفيَّةِ الترتيبِ بينَ الملائكةِ والإنسِ والبهائمِ ؛ فإنَّ الصبرَ خاصِّيَّةُ الإنسِ ، ولا يُتصوَّرُ ذلكَ في البهائمِ والملائكةِ ؛ أمَّا في البهائمِ . . فلنقصانِها ، وأمَّا في الملائكةِ . . فلكمالِها .

وبيانُهُ : أنَّ البهائمَ سُلِّطَتْ عليها الشهواتُ ، وصارَتْ مسخَّرةً لها ، فلا باعثَ لها على الحركةِ والسكونِ إلا الشهوةُ ، وليسَ فيها قوَّةٌ تصادمُ الشهوةَ وتردُّها عنْ مقتضاها حتَّىٰ يُسمَّىٰ ثباتُ تلكَ القوَّةِ في مقابلةِ مقتضى الشهوةِ صبراً .

وأمَّا الملائكةُ عليهمُ السلامُ . . فإنَّهُمْ جُرِّدوا للشوقِ إلى الحضرةِ الربوبيةِ ، والابتهاجِ بدرجةِ القرْبِ منها ، ولمْ تُسلَّطْ عليهِمْ شهوةٌ صارفةٌ صادَّةٌ عنها حتَّىٰ تحتاجَ إلىٰ مصادمةِ ما يصرفُها عنْ حضرةِ الجلالِ بجندٍ آخرَ يغلبُ الصوارفَ .

وأمَّا الإنسانُ . . فإنَّهُ خُلِقَ في ابتداءِ الصبَا ناقصاً مثلَ البهيمةِ ، لمْ يُخلقْ فيهِ إلا شهوةُ الغذاءِ الذي هوَ محتاجٌ إليهِ ، ثمَّ تظهرُ فيهِ شهوةُ اللعبِ والزينةِ ، ثمَّ شهوةُ النكاحِ على الترتيبِ[1] ، وليسَ لهُ قوَّةُ الصبرِ ألبتةَ ؛ إذِ الصبرُ عبارةٌ عنْ ثباتِ جندٍ في مقابلةِ جندٍ آخرَ قامَ القتالُ بينَهُما لتضادِّ مقتضياتِهما ومطالبِهما ، وليسَ في الصبيِّ إلا جندُ الهوىٰ كما في البهائمِ .

ولكنَّ اللهَ تعالىٰ بفضلِهِ وسعةِ جودِهِ أكرمَ بني آدمَ ، ورفعَ درجتَهُمْ عنْ درجةِ البهائمِ ، فوكلَ بهِ عندَ كمالِ شخصِهِ بمقاربةِ البلوغِ ملكينِ ؛ أحدُهُما يهديهِ ، والآخرُ يقوِّيهِ ، فتميَّزَ بمعونةِ الملكينِ عنِ البهائمِ ، واختُصَّ بصفتينِ ؛ إحداهُما معرفةُ اللهِ تعالىٰ ومعرفةُ رسولِهِ ، ومعرفةُ المصالحِ المتعلِّقةِ بالعواقبِ ، وكلُّ ذلكَ حاصلٌ مِنَ الملكِ الذي إليهِ الهدايةُ والتعريفُ ، فالبهيمةُ لا معرفةَ لها ولا هدايةَ إلىٰ مصلحةِ العواقبِ ، بلْ إلىٰ مقتضىٰ شهوتِها في الحالِ فقطْ ، فلذلكَ لا تطلبُ إلا اللذيذَ ، فأمَّا الدواءُ النافعُ معَ كونِهِ مضرّاً في الحالِ . . فلا تطلبُهُ ولا تعرفُهُ .

---

(١) إلىٰ أن يظهر فيه الرغبة في طلب الكمال ، والنظر للعاقبة ، وعصيان مقتضىٰ تلك الشهوات . « إتحاف » (٩/٩) .

فصارَ الإنسانُ بنورِ الهدايةِ يعرفُ أنَّ اتباعَ الشهواتِ لهُ مغبَّاتٌ مكروهةٌ في العاقبةِ ، ولكنْ لمْ تكنْ هـٰذهِ الهدايةُ كافيةً ما لمْ تكنْ لهُ قدرةٌ علىٰ تركِ ما هوَ مضرٌّ ، فكمْ مِنْ مضرٍّ يعرفُهُ الإنسانُ ـ كالمرضِ النازلِ بهِ مثلاً ـ ولكنْ لا قدرةَ لهُ علىٰ دفعِهِ ، فافتقرَ إلىٰ قدرةٍ وقوَّةٍ يدفعُ بها في نحرِ الشهواتِ فيجاهدُها بتلكَ القوَّةِ حتَّىٰ يقطعَ عداوتَها عنْ نفسِهِ ، فوكلَ اللهُ تعالىٰ بهِ ملكاً آخرَ يسدِّدُهُ ويؤيِّدُهُ ويقوِّيهِ بجنودٍ لمْ ترَوها ، وأمرَ هـٰذا الجندَ بقتالِ جندِ الشهوةِ ، فتارةً يضعفُ هـٰذا الجندُ ، وتارةً يقوىٰ ، وذلكَ بحسَبِ إمدادِ اللهِ تعالىٰ عبدَهُ بالتأييدِ ؛ كما أنَّ نورَ الهدايةِ أيضاً يختلفُ في الخلقِ اختلافاً لا ينحصرُ ، فلنسمِّ هـٰذهِ الصفةَ التي بها فارقَ الإنسانُ البهائمَ في قمعِ الشهواتِ وقهرِها : باعثاً دينيّاً ، ولنسمِّ مطالبةَ الشهواتِ بمقتضياتِها : باعثَ الهوىٰ .

وليُفهمْ أنَّ القتالَ قائمٌ بينَ باعثِ الدينِ وباعثِ الهوىٰ ، والحربُ بينَهُما سجالٌ ، ومعركةُ هـٰذا القتالِ قلبُ العبدِ ، ومددُ باعثِ الدينِ مِنَ الملائكةِ الناصرينَ لحزبِ اللهِ تعالىٰ ، ومددُ باعثِ الشهوةِ مِنَ الشياطينِ الناصرينَ لأعداءِ اللهِ تعالىٰ[1] ، **فالصبرُ : عبارةٌ عنْ ثباتِ باعثِ الدينِ في مقابلةِ باعثِ الشهوةِ** ، فإنْ ثبتَ حتَّىٰ قهرَهُ واستمرَّ علىٰ مخالفةِ الشهوةِ . فقدْ نصرَ

---

(١) ومعرفة هـٰذا من الإيمان بالله تعالىٰ ، وهو تصديق الله تعالىٰ فيما أخبر به من عداوة النفس والشيطان والشهوات للعقل والمعرفة والملك الملهِم للخير ، وأن الشهوات والنفس من حزب الشيطان ، والمعرفة والعقل والملائكة من جند الله وحزبه ، وهـٰذا الإيمان واجب لا يستغني عنه سالك لطريق الله تعالىٰ . « إتحاف » (٩/٩) .

حزبَ اللهِ والتحقَ بالصابرينَ ، وإنْ تخاذلَ وضعفَ حتَّىٰ غلبَتِ الشهوةُ ولمْ يصبرْ في دفعِها . . التحقَ بأتباعِ الشياطينِ .

فإذاً ؛ تركُ الأفعالِ المشتهاةِ عملٌ يثمرُهُ حالٌ يُسمَّى الصبرَ ، وهوَ ثباتُ باعثِ الدينِ الذي هوَ في مقابلةِ باعثِ الشهوةِ ، وثباتُ باعثِ الدينِ حالٌ تثمرُها المعرفةُ بعداوةِ الشهواتِ ومضادَّتِها لأسبابِ السعاداتِ في الدنيا والآخرةِ ، فإذا قويَ يقينُهُ ـ أعني المعرفةَ التي تُسمَّىٰ إيماناً ـ وهوَ اليقينُ بكونِ الشهوةِ عدوّاً قاطعاً لطريقِ اللهِ تعالىٰ . . قويَ ثباتُ باعثِ الدينِ ، وإذا قويَ ثباتُهُ . . تمَّتِ الأفعالُ علىٰ خلافِ ما تتقاضاهُ الشهوةُ ، فلا يتمُّ تركُ الشهوةِ إلا بقوَّةِ باعثِ الدينِ المضادِّ لباعثِ الشهوةِ ، وقوَّةُ المعرفةِ والإيمانِ تقبِّحُ مغبَّةَ الشهواتِ وسوءَ عاقبتِها ، وهـٰذانِ الملكانِ هما المتكفِّلانِ بهـٰذينِ الجندينِ بإذنِ اللهِ تعالىٰ وتسخيرِهِ إيَّاهُما ، وهما مِنَ الكرامِ الكاتبينَ ، وهما الملكانِ الموكلانِ بكلِّ شخصٍ مِنَ الآدميينَ .

وإذا عرفتَ أنَّ رتبةَ الملكِ الهادي أعلىٰ مِنْ رتبةِ الملكِ المقوِّي . . لمْ يخفَ عليكَ أنَّ جانبَ اليمينِ الذي هوَ أشرفُ الجانبينِ مِنْ جنبتي الدَّسْتِ ينبغي أنْ يكونَ مسلماً لهُ[1] ، فهوَ إذاً صاحبُ اليمينِ ، والآخرُ صاحبُ الشمالِ .

---

(١) الدَّسْت : لفظة فارسية ، لها معان عديدة ، أشهرها اليد ، ويطلق على المجلس الذي يتصدره الكبراء .

وللعبدِ طورانِ في الغفلةِ والفكرِ ، وفي الاسترسالِ والمجاهدةِ ، فهوَ بالغفلةِ معرضٌ عنْ صاحبِ اليمينِ ومسيءٌ إليهِ ، فيكتبُ إعراضَهُ سيئةً ، وبالفكرِ مقبلٌ عليهِ ليستفيدَ منهُ الهدايةَ ، فهوَ بهِ محسنٌ ، فيكتبُ إقبالَهُ لهُ حسنةً ، وكذا بالاسترسالِ هوَ معرضٌ عنْ صاحبِ الشمالِ تاركٌ للاستمدادِ منهُ ، فهوَ بهِ مسيءٌ إليهِ ، فيثبتُ عليهِ سيئةً ، وبالمجاهدةِ مستمدٌّ مِنْ جنودِهِ ، فيثبتُ لهُ بهِ حسنةً .

وإنَّما ثبتَتْ هـٰذهِ الحسناتُ والسيئاتُ بإثباتِهما ، فلذلكَ سُمِّيا كراماً كاتبينَ ، أمَّا (الكرامَ).. فلانتفاعِ العبدِ بكرمِهما ، ولأنَّ الملائكةَ كلَّهُمْ كرامٌ بررةٌ ، وأمَّا (الكاتبينَ).. فلإثباتِهما الحسناتِ والسيئاتِ ، وإنَّما يكتبانِ في صحائفَ مطويَّةٍ في سرِّ القلبِ ومطويةٍ عنْ سرِّ القلبِ ؛ حتَّىٰ لا يُطلعَ عليهِ في هـٰذا العالمِ ، فإنَّهُما وكتبَتَهُما وخطَّهُما وصحائفَهُما وجملةَ ما يتعلَّقُ بهِما مِنْ جملةِ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، لا مِنْ عالمِ الشهادةِ ، وكلُّ شيءٍ مِنْ عالمِ الملكوتِ لا تدركُهُ الأبصارُ في هـٰذا العالمِ[1] .

ثمَّ تُنشرُ هـٰذهِ الصحائفُ المطويَّةُ عنهُ مرَّتينِ ؛ مرَّةً في القيامةِ الصغرىٰ ، ومرَّةً في القيامةِ الكبرىٰ ، وأعني بالقيامةِ الصغرىٰ : حالةَ الموتِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ.. فقدْ قامَتْ قيامتُهُ »[2] ، وفي هـٰذهِ

---

(١) والعبارة في (ج) : (وسرُّ عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هـٰذا العالم) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » والديلمي في « مسند الفردوس » (١١١٧) من حديث أنس رضي الله عنه .

القيامةِ يكونُ العبدُ وحدَهُ ، وعندَها يُقالُ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، وفيها يُقال : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، أمَّا في القيامةِ الكبرى الجامعةِ لكافةِ الخلقِ . . فلا يكونُ وحدَهُ ، بلْ ربَّما يُحاسبُ علىٰ ملأٍ مِنَ الخلقِ ، وفيها يُساقُ المتقونَ إلى الجنَّةِ والمجرمونَ إلى النارِ زمراً لا آحاداً .

والهولُ الأوَّلُ هوَ هولُ القيامةِ الصغرىٰ ، ولجميعِ أهوالِ القيامةِ الكبرىٰ نظيرٌ في القيامةِ الصغرىٰ ؛ مثلُ زلزلةِ الأرضِ مثلاً ، فإنَّ أرضَكَ الخاصَّةَ بكَ تزلزلُ في الموتِ ؛ فإنَّكَ تعلمُ أنَّ الزلزلةَ إذا نزلَتْ ببلدةٍ . . صدقَ أنْ يُقالَ : (قدْ زُلزلَتْ أرضُهُمْ) وإنْ لمْ تُزلزلِ البلادُ المحيطةُ بها ، بلْ لوْ زُلزلَ مسكنُ الإنسانِ ودارُهُ . . فقدْ حصلَتِ الزلزلةُ في حقِّهِ ؛ لأنَّهُ إنَّما يتضرَّرُ عندَ زلزلةِ جميعِ الأرضِ بزلزلةِ مسكنِهِ لا بزلزلةِ مسكنِ غيرِهِ ، فحصَّتُهُ مِنَ الزلزلةِ قدْ توفَّرَتْ مِنْ غيرِ نقصانٍ .

واعلمْ : أنَّكَ أرضيٌّ مخلوقٌ مِنَ الترابِ ، وحظُّكَ الخاصُّ مِنَ الترابِ

= ورویٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٢٥) عن ابن بشار السلمي قال : خطب عمر الناس فقال : أيها الناس ؛ لا يبعدن عليكم ولا يطولن يوم القيامة ؛ فإنه من وافته منيته . . فقد قامت عليه قيامته .

وروى الدولابي في « الكنىٰ » (٢/ ٨٩) عن أبي قيس عبد الرحمـٰن بن ثروان قال : صلىٰ علقمة علىٰ جنازة فقال : (أما هـٰذا . . فقد قامت قيامته) ، ومن حديثه عن زياد بن علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : (يقولون : القيامة القيامة ، وإنما قيامة أحدكم موته) .

بدنُكَ فقطْ ، فأمَّا بدنُ غيرِكَ . . فليسَ بحظِّكَ ، والأرضُ التي أنتَ جالسٌ عليها بالإضافةِ إلىٰ بدنِكَ ظرفٌ ومكانٌ ، وإنَّما تخافُ مِنْ تزلزلِهِ أنْ يتزلزلَ بدنُكَ بسببِهِ ، وإلا . . فالهواءُ أبداً متزلزلٌ وأنتَ لا تخشاهُ ؛ إذْ ليسَ يتزلزلُ بِهِ بدنُكَ ، فحظُّكَ مِنْ زلزلةِ الأرضِ كلِّها زلزلةُ بدنِكَ فقطْ ، فهوَ أرضُكَ وترابُكَ الخاصُّ بكَ ، وعظامُكَ جبالُ أرضِكَ ، ورأسُكَ سماءُ أرضِكَ ، وقلبُكَ شمسُ أرضِكَ ، وسمعُكَ وبصرُكَ وسائرُ حواسِّكَ نجومُ سمائِكَ ، ومفيضُ العرقِ مِنْ بدنِكَ بحرُ أرضِكَ ، وشعورُكَ نباتُ أرضِكَ ، وأطرافُكَ أشجارُ أرضِكَ ، وهٰكذا إلىٰ جميعِ أجزائِكَ ، فإذا انهدمَ بالموتِ أركانُ بدنِكَ . . فقدْ زُلزلتِ الأرضُ زلزالَها ، فإذا انفصلَتِ العظامُ مِنَ اللحومِ . . فقدْ حُملَتِ الأرضُ والجبالُ فدُكتا دكَّةً واحدةً ، فإذا رَمَّتِ العظامُ . . فقدْ نُسفَتِ الجبالُ نسفاً ، فإذا أظلمَ قلبُكَ عندَ الموتِ . . فقدْ كُورَتِ الشمسُ تكويراً ، فإذا بطلَ سمعُكَ وبصرُكَ وسائرُ حواسِّكَ . . فقدِ انكدرتِ النجومُ انكداراً ، فإذا انشقَّ دماغُكَ . . فقدِ انشقَّتِ السماءُ انشقاقاً ، فإذا انفجرَ مِنْ هولِ الموتِ عرقُ جبينِكَ . . فقدْ فُجِّرَتِ البحارُ تفجيراً ، فإذا التفَّتْ إحدىٰ ساقيكَ بالأخرىٰ وهما مطيَّاكَ . . فقدْ عُطِّلَتِ العشارُ تعطيلاً ، فإذا فارقَتِ الروحُ الجسدَ . . فقدْ حُملَتِ الأرضُ فمُدَّتْ حتَّىٰ ألقَتْ ما فيها وتخلَّتْ .

ولستُ أطوِّلُ بموازنةِ جميعِ الأحوالِ والأهوالِ ، ولكنِّي أقولُ : بمجرَّدِ الموتِ تقومُ عليكَ هٰذهِ القيامةُ الصغرىٰ ، ولا يفوتُكَ مِنَ القيامةِ الكبرىٰ شيءٌ ممَّا يخصُّكَ ، بلْ ما يخصُّ غيرَكَ ، فإنَّ بقاءَ الكواكبِ في حقِّ غيرِكَ

ماذا ينفعُكَ وقدِ انتثرَتْ حواسُّكَ التي بها تنتفعُ بالنظرِ إلى الكواكبِ ، والأعمىٰ يستوي عندَهُ الليلُ والنهارُ ، وكسوفُ الشمسِ وانجلاؤُها ؛ لأنَّها قدْ كسفَتْ في حقِّه دفعةً واحدةً ، وهوَ حصتُهُ منها ، فالانجلاءُ بعدَ ذلكَ حصَّةُ غيرِهِ ، ومَنِ انشقَّ رأسُهُ . . فقدِ انشقَّتْ سماؤُهُ ؛ إذِ السماءُ عبارةٌ عمَّا يلي جهةَ الرأسِ ، فمَنْ لا رأسَ لهُ لا سماءَ لهُ ، فمِنْ أينَ ينفعُهُ بقاءُ السماءِ لغيرِهِ ؟!

فهٰذهِ هيَ القيامةُ الصغرىٰ ، والخوفُ بعدُ أسفلَ ، والهولُ بعدُ مدَّخرٌ ، وذلكَ إذا جاءَتِ الطامَّةُ الكبرىٰ ، وارتفعَ الخصوصُ ، وبطلَتِ السماواتُ والأرضُ ، ونُسفَتِ الجبالُ ، وتمَّتِ الأهوالُ .

واعلمْ : أنَّ هٰذهِ الصغرىٰ وإنْ طوَّلنا في وصفِها فإنَّا لمْ نذكرْ عُشْرَ عَشيرِ أوصافِها ، وهيَ بالنسبةِ إلى القيامةِ الكبرىٰ كالولادةِ الصغرىٰ بالنسبةِ إلى الولادةِ الكبرىٰ ، فإنَّ للإنسانِ ولادتينِ ؛ إحداهُما الخروجُ مِنَ الصلبِ والترائبِ إلىٰ مستودعِ الأرحامِ ، فهوَ في الرحمِ في قرارٍ مكينٍ إلىٰ قدَرٍ معلومٍ ، ولهُ في سلوكِهِ إلى الكمالِ منازلُ وأطوارٌ ؛ مِنْ نطفةٍ ، وعلقةٍ ، ومضغةٍ ، وغيرِها ، إلىٰ أنْ يخرجَ مِنْ مضيقِ الرحمِ إلىٰ فضاءِ العالمِ ، فنسبةُ عمومِ القيامةِ الكبرىٰ إلىٰ خصوصِ القيامةِ الصغرىٰ كنسبةِ سَعَةِ فضاءِ العالمِ إلىٰ سعةِ فضاءِ الرحمِ ، ونسبةُ سعةِ العالمِ الذي يقدمُ عليهِ العبدُ بالموتِ إلىٰ سعةِ فضاءِ الدنيا كنسبةِ فضاءِ الدنيا أيضاً إلى الرحمِ ، بلْ أوسعُ وأعظمُ ، فقسِ الآخرةَ بالأولىٰ ، فما خلقُكُمْ ولا بعثُكُمْ إلا كنفسٍ واحدةٍ ، وما النشأةُ الثانيةُ إلا علىٰ قياسِ النشأةِ الأولىٰ ، بلْ أعدادُ النشآتِ ليسَتْ محصورةً في

اثنتينِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فالمقرُّ بالقيامتينِ مؤمنٌ بعالمِ الغيبِ والشهادةِ ، وموقنٌ بالمُلْكِ والملكوتِ ، والمقرُّ بالقيامةِ الصغرىٰ دونَ الكبرىٰ ناظرٌ بالعينِ العوراءِ إلىٰ أحدِ العالمينِ ، وذلكَ هوَ الجهلُ والضلالُ ، والاقتداءُ بالأعورِ الدجَّالِ ، فما أعظمَ غفلتَكَ يا مسكينُ ـ وكلُّنا ذلكَ المسكينُ ـ وبينَ يديكَ هٰذهِ الأهوالُ ، فإنْ كنتَ لا تؤمنُ بالقيامةِ الكبرىٰ للجهلِ والضلالِ . . أفلا تكفيكَ دلالةُ القيامةِ الصغرىٰ ؟!

أوَما سمعتَ قولَ سيِّدِ الأنبياءِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفىٰ بالموتِ واعظاً » ؟![1] .

أوَما سمعتَ بكربِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ الموتِ حتَّىٰ قالَ : « اللهمَّ ؛ هوِّنْ علىٰ محمدٍ سكراتِ الموتِ » ؟![2] .

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) .

(٢) رواه الترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : « اللهم ؛ أعني علىٰ غمرات الموت أو سكرات الموت » .
وروى البخاري (٤٤٤٦) ، والنسائي (٤/ ٦) واللفظ له ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : (مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي ، فلا أكره شدة الموت لأحد بعدما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

أوَما تستحي مِنِ استبطائِكَ هجومَ الموتِ اقتداءً برعاعِ الغافلينَ الذينَ لا ينظرونَ إلا صيحةً واحدةً تأخذُهُمْ وهُمْ يخصِّمونَ ، فلا يستطيعونَ توصيةً ولا إلىٰ أهلِهِمْ يرجعونَ ، فيأتيهِمُ المرضُ نذيراً مِنَ الموتِ فلا ينزجرونَ ، ويأتيهِمُ الشيبُ رسولاً منهُ فما يعتبرونَ ؟!

فيا حسرةً على العبادِ ، ما يأتيهِمْ مِنْ رسولٍ إلا كانوا بهِ يستهزئونَ ، أفيظنُّونَ أنَّهُمْ في الدنيا خالدونَ ؟!

أوَلمْ يرَوا كمْ أهلكنا قبلَهُمْ مِنَ القرونِ أنَّهُمْ إليهِمْ لا يرجعونَ ؟!

أمْ يحسبونَ أنَّ الموتىٰ سافروا مِنْ عندِهِمْ فهمْ معدومونَ ؟!

كلا ، إنْ كلٌّ لمَّا جميعٌ لدينا محضرونَ ، ولكنْ ما تأتيهِمْ مِنْ آيةٍ مِنْ آياتِ ربِّهِمْ إلا كانوا عنها معرضينَ ، وذلكَ لأنَّا جعلنا مِنْ بينِ أيديهِمْ سدّاً ومِنْ خلفِهِمْ سدّاً ، فأغشيناهُمْ فهُمْ لا يبصرونَ ، وسواءٌ عليهِمْ أأنذرتَهُمْ أمْ لمْ تنذرْهُمْ لا يؤمنونَ .

ولنرجعْ إلى الغرضِ ، فإنَّ هـٰذهِ تلويحاتٌ تشيرُ إلىٰ أمورٍ هيَ أعلىٰ مِنْ علومِ المعاملةِ ، فنقولُ :

قدْ ظهرَ أنَّ الصبرَ عبارةٌ عنْ ثباتِ باعثِ الدينِ في مقاومةِ باعثِ الهوىٰ ، وهـٰذهِ المقاومةُ مِنْ خاصَّةِ الآدميينَ ؛ لما وُكِلَ بهِمْ مِنَ الكرامِ الكاتبينَ ، ولا يكتبانِ شيئاً على الصبيانِ والمجانينِ ؛ إذْ قدْ ذكرنا أنَّ الحسنةَ في الإقبالِ على الاستفادةِ منهما ، والسيئةَ في الإعراضِ عنهما ، وما للصبيانِ

والمجانينِ سبيلٌ إلى الاستفادةِ ، فلا يُتصوَّرُ منهما إقبالٌ وإعراضٌ ، وهما لا يكتبانِ إلا الإقبالَ والإعراضَ مِنَ القادرينَ على الإقبالِ والإعراضِ .

ولعمري ؛ إنَّهُ قدْ تظهرُ مبادي إشراقِ نورِ الهدايةِ عندَ سنِّ التمييزِ ، وتنمو على التدريجِ إلىٰ سنِّ البلوغِ ؛ كما يبدو نورُ الصبحِ إلىٰ أنْ يطلعَ قرصُ الشمسِ ، ولكنَّها هدايةٌ قاصرةٌ لا ترشدُ إلىٰ مضارِّ الآخرةِ ، بلْ إلىٰ مضارِّ الدنيا ، فلذلكَ يُضربُ علىٰ تركِ الصلواتِ ناجزاً ولا يُعاقبُ في الآخرةِ ، ولا يُكتبُ عليهِ مِنَ الصحائفِ ما يُنشرُ في الآخرةِ ، بلْ على القيِّمِ العدْلِ ، والوليِّ البرِّ الشفيقِ ، إنْ كانَ مِنَ الأبرارِ ، وكانَ علىٰ سمتِ الكرامِ البررةِ الأخيارِ . أنْ يكتبَ على الصبيِّ سيئتَهُ وحسنتَهُ علىٰ صحيفةِ قلبِهِ ، فيكتبُهُ عليهِ بالحفظِ ، ثمَّ ينشرُهُ عليهِ بالتعريفِ ، ثمَّ يعذِّبُهُ عليهِ بالضربِ ، فكلُّ وليٍّ هـٰذا سمتُهُ في حقِّ الصبيِّ فقدْ ورثَ أخلاقَ الملائكةِ ، واستعملَها في حقِّ الصبيِّ ، فينالُ بها درجةَ القرْبِ مِنْ ربِّ العالمينَ كما نالَتْهُ الملائكةُ ، فيكونُ معَ النبيِّينَ والمقرَّبينَ والصدِّيقينَ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا وكافلُ اليتيمِ كهاتينِ في الجنَّةِ » وأشارَ إلىٰ إصبعيهِ الكريمتينِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

* * *

(١) رواه البخاري (٥٣٠٤) ، والترمذي (١٩١٨) بنحوه .

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلمْ : أنَّ الإيمانَ تارةً يختصُّ في إطلاقِهِ بالتصديقاتِ بأصولِ الدينِ ، وتارةً يُخصُّ بالأعمالِ الصالحةِ الصادرةِ منها ، وتارةً يُطلقُ عليهما جميعاً .

وللمعارفِ أبوابٌ ، وللأعمالِ أبوابٌ ، ولاشتمالِ لفظِ الإيمانِ علىٰ جميعِها كانَ الإيمانُ نيِّفاً وسبعينَ باباً ، واختلافُ هٰذهِ الإطلاقاتِ ذكرناهُ في كتابِ قواعدِ العقائدِ مِنْ ربعِ العباداتِ ، **ولكنَّ الصبرَ نصفُ الإيمانِ باعتبارينِ ، وعلىٰ مقتضىٰ إطلاقينِ** :

أحدُهُما : أنْ يُطلقَ على التصديقاتِ والأعمالِ جميعاً ، فيكونَ للإيمانِ ركنانِ : أحدُهُما اليقينُ ، والآخرُ الصبرُ ، والمرادُ باليقينِ : المعارفُ القطعيَّةُ الحاصلةُ بهدايةِ اللهِ تعالىٰ عبدَهُ إلىٰ أصولِ الدينِ ، والمرادُ بالصبرِ : العملُ بمقتضى اليقينِ ؛ إذِ اليقينُ يعرِّفُهُ أنَّ المعصيةَ ضارَّةٌ ، والطاعةَ نافعةٌ ، ولا يمكنُ تركُ المعصيةِ والمواظبةُ على الطاعةِ إلا بالصبرِ ، وهوَ استعمالُ باعثِ الدينِ في قهرِ باعثِ الهوىٰ والكسلِ ، فيكونُ الصبرُ نصفَ الإيمانِ بهٰذا الاعتبارِ .

ولهٰذا جمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَهُما فقالَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ . . . » الحديثَ إلىٰ آخرِهِ[1] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٩٤) .

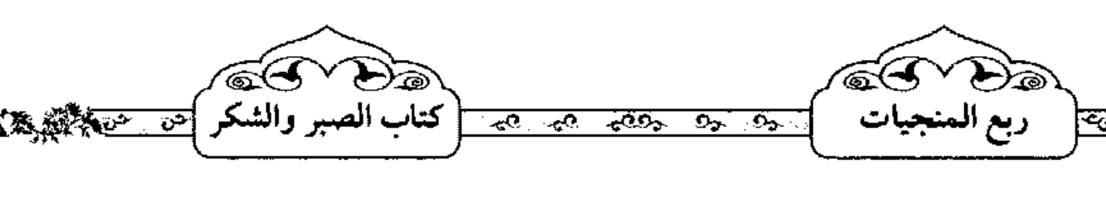
الاعتبارُ الثاني : أنْ يُطلقَ على الأحوالِ المثمرةِ للأعمالِ لا على المعارفِ ، وعندَ ذلكَ ينقسمُ جميعُ ما يلاقيهِ العبدُ إلىٰ ما ينفعُهُ في الدنيا والآخرةِ أوْ يضرُّهُ فيهما ، ولهُ بالإضافةِ إلىٰ ما يضرُّهُ حالُ الصبرِ ، وبالإضافةِ إلىٰ ما ينفعُهُ حالُ الشكرِ ، فيكونُ الشكرُ أحدَ شطريِ الإيمانِ بهٰذا الاعتبارِ كما كانَ اليقينُ أحدَ الشطرينِ بالاعتبارِ الأوَّلِ .

وبهٰذا النظرِ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (الإيمانُ نصفانِ : نصفٌ صبرٌ ، ونصفٌ شكرٌ) ، وقدْ يُرفعُ أيضاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

ولمَّا كانَ الصبرُ صبراً عنْ بواعثِ الهوىٰ بثباتِ باعثِ الدينِ ، وكانَ باعثُ الهوىٰ قسمينِ ؛ باعثٌ مِنْ جهةِ الشهوةِ ، وباعثٌ مِنْ جهةِ الغضبِ ، فالشهوةُ لطلبِ اللذيذِ ، والغضبُ للهربِ مِنَ المؤلمِ ، وكانَ الصومُ صبراً عنْ مقتضى الشهوةِ فقطْ ، وهيَ شهوةُ البطنِ والفرْجِ دونَ مقتضى الغضبِ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بهٰذا الاعتبارِ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »[2] ؛ لأنَّ كمالَ الصبرِ بالصبرِ عنْ دواعي الشهوةِ ودواعي الغضبِ جميعاً ، فيكونُ الصومُ بهٰذا الاعتبارِ ربعَ الإيمانِ .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٤) بنحوه .
(٢) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .



فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ تقديراتِ الشرعِ بحدودِ الأعمالِ والأحوالِ ونسبتِها إلى الإيمانِ ، **والأصلُ فيهِ** : أنْ تعرفَ كثرةَ أبوابِ الإيمانِ ، وأنَّ اسمَ الإيمانِ يُطلقُ علىٰ وجوهٍ مختلفةٍ .

* * *

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلمْ : أنَّ الصبرَ ضربانِ :

أحدهما : ضربٌ بدنيٌّ ؛ كتحمُّلِ المشاقِّ بالبدنِ والثباتِ عليها ، وهوَ إمَّا بالفعلِ ؛ كتعاطي الأعمالِ الشاقَّةِ إمَّا مِنَ العباداتِ أوْ مِنْ غيرِها ، وإمَّا بالاحتمالِ ؛ كالصبرِ على الضربِ الشديدِ والمرضِ العظيمِ والجراحاتِ الهائلةِ ، وذلكَ قدْ يكونُ محموداً إذا وافقَ الشرعَ .

ولكنَّ المحمودَ التامَّ هوَ :

الضربُ الآخرُ : وهوَ **الصبرُ النفسيُّ** عنْ مشتهياتِ الطبعِ ومقتضياتِ الهوىٰ .

ثمَّ هٰذا الضربُ إنْ كانَ صبراً عنْ شهوةِ البطنِ والفرجِ . . سُمِّيَ **عفةً** ، وإنْ كانَ عنِ احتمالِ مكروهٍ . . اختلفَتْ أساميهِ عندَ الناسِ باختلافِ المكروهِ الذي عليهِ الصبرُ .

فإنْ كانَ في مصيبةٍ . . اقتصرَ على اسمِ **الصبرِ** ، وتضادُّهُ حالةٌ تُسمَّى **الجزعَ والهلعَ** ؛ وهوَ إطلاقُ داعي الهوىٰ ليسترسلَ في رفعِ الصوتِ وضربِ الخدودِ وشقِّ الجيوبِ وغيرِها .

وإنْ كانَ في احتمالِ الغنىٰ . . سُمِّيَ **ضبطَ النفسِ** ، وتضادُّهُ حالةٌ تُسمَّى **البطرَ** .

وإنْ كانَ في حربٍ ومقاتلةٍ . . سُمِّيَ **شجاعةً** ، ويضادُّهُ **الجبنُ** .

وإنْ كانَ في كظمِ الغيظِ والغضبِ سُمِّيَ **حلماً** ، ويضادُّهُ **التذمُّرُ** .

وإنْ كانَ في نائبةٍ مِنْ نوائبِ الزمانِ مضجرةٍ . . سُمِّيَ **سعةَ الصدرِ** ، ويضادُّهُ **الضجرُ والتبرُّمُ وضيقُ الصدرِ** .

وإنْ كانَ في إخفاءِ كلامٍ . . سُمِّي **كتمانَ السرِّ** ، وسُمِّي صاحبُهُ كَتُوماً .

وإنْ كانَ عنْ فضولِ العيشِ . . سُمِّيَ **زهداً** ، ويضادُّهُ **الحرصُ** .

وإنْ كانَ صبراً علىٰ قدْرٍ يسيرٍ مِنَ الحظوظِ . . سُمِّي **قناعةً** ، ويضادُّهُ **الشرهُ** .

فأكثرُ أخلاقِ الإيمانِ داخلٌ في الصبرِ ، ولذلكَ لمَّا سُئِلَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مرَّةً عنِ الإيمانِ . . قالَ : « هوَ الصبرُ »[1] ؛ لأنَّهُ أكثرُ أعمالِهِ وأعزُّها ؛ كما قالَ : « الحجُّ عرفةُ »[2] .

وقدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ أقسامَ ذلكَ وسمَّى الكلَّ صبراً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ ﴾ أيِ : المصيبةِ ، ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أيِ : الفقرِ ، ﴿ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ أيِ : المحاربةِ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ .

فإذاً ؛ هٰذهِ أقسامُ الصبرِ باختلافِ متعلَّقاتِها ، ومَنْ يأخذُ المعانيَ مِنَ

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٨٥٤) ، والطبراني في « مكارم الأخلاق » (٣١) .

(٢) رواه أبو داوود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٥/٢٥٦) .

الأسامي يظنُّ أنَّ هـٰذهِ أحوالٌ مختلفةٌ في ذواتِها وحقائقِها مِنْ حيثُ رأى الأساميَ مختلفةً ، والذي يسلكُ الطريقَ المستقيمَ وينظرُ بنورِ اللهِ . . يلحظُ المعانيَ أوَّلاً ، فيطلعُ علىٰ حقائقِها ، ثمَّ يلاحظُ الأساميَ ؛ فإنَّها وُضعَتْ دلالةً على المعاني ، فالمعاني هيَ الأصولُ ، والألفاظُ هيَ التوابعُ ، ومَنْ يطلبُ الأصولَ مِنَ التوابعِ . . لا بدَّ وأنْ يزلَّ ، وإلى الفريقينِ الإشارةُ بقولهِ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فإنَّ الكفارَ لمْ يغلطوا فيما غلطوا فيهِ إلا بمثلِ هـٰذهِ الانعكاساتِ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بكرمِهِ ولطفِهِ .

* * *

بيان انقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلمْ : أنَّ باعثَ الدينِ بالإضافةِ إلىٰ باعثِ الهوىٰ لهُ ثلاثةُ أحوالٍ :

أحدُها : أنْ يقهرَ داعيَ الهوىٰ فلا تبقىٰ لهُ قوَّةُ المنازعةِ :

ويتوصَّلُ إليهِ بدوامِ الصبرِ ، وعندَ هـٰذا يقالُ : (مَنْ صبرَ . ظفرَ) ، والواصلونَ إلىٰ هـٰذهِ الرتبةِ همُ الأقلُّونَ ، فلا جرمَ همُ الصدِّيقونَ المقرَّبونَ ، الذينَ قالوا : (ربُّنا اللهُ) ثمَّ استقاموا ، فهؤلاءِ لازموا الطريقَ المستقيمَ ، واستوَوا على الصراطِ القويمِ ، واطمأنَّتْ نفوسُهُمْ علىٰ مقتضىٰ بواعثِ الدينِ ، وإيَّاهُمْ ينادي المنادي : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .

* * *

الحالةُ الثانيةُ : أنْ تغلبَ دواعي الهوىٰ وتسقطَ بالكليَّةِ منازعةُ باعثِ الدينِ :

فيسلِمُ نفسَهُ إلىٰ جندِ الشياطينِ ، ولا يجاهدُ ليأسِهِ منَ المجاهدةِ ، وهؤلاءِ همُ الغافلونَ ، وهمُ الأكثرونَ ، وهمُ الذينَ استرقَّتْهُمْ شهواتُهُمْ ، وغلبَتْ عليهِمْ شِقْوتُهُمْ ، فحكَّموا أعداءَ اللهِ في قلوبِهِمُ التي هيَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ تعالىٰ ، وأمرٌ مِنْ أمورِ اللهِ ، وإليهِمُ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وهؤلاءِ همُ الذينَ اشترَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ،

فخسرَتْ صفقتُهُمْ ، وقيلَ لمَنْ قصدَ إرشادَهُمْ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ .

وهـٰذهِ الحالةُ علامتُها اليأسُ والقنوطُ والغرورُ بالأمانيِّ ، وهوَ غايةُ الحمقِ ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »(١) .

وصاحبُ هـٰذهِ الحالةِ إذا وُعِظَ . . قالَ : (أنا مشتاقٌ إلى التوبةِ ، ولكنَّها قدْ تعذَّرَتْ عليَّ ، فلستُ أطمعُ فيها) ، أوْ لمْ يكنْ مشتاقاً إلى التوبةِ ، ولكنْ قالَ : (إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ كريمٌ ، فلا حاجةَ بهِ إلىٰ توبتي) .

وهـٰذا المسكينُ قدْ صار عقلُهُ رقيقاً لشهوتِهِ ، فلا يستعملُ عقلَهُ إلا في استنباطِ دقائقِ الحيلِ التي بها يتوصَّلُ إلىٰ قضاءِ شهوتِهِ ، فقدْ صارَ عقلُهُ في يدِ شهواتِهِ كمسلمٍ أسيرٍ في أيدي الكفارِ ، فهُمْ يَستَسْخِرُونَهُ في رعايةِ الخنازيرِ ، وحفظِ الخمورِ وحملِها ، ومحلُّهُ عندَ اللهِ تعالىٰ محلُّ مَنْ يقهرُ مسلماً ويسلمُهُ إلى الكفارِ ويجعلُهُ أسيراً عندَهُمْ ؛ لأنَّ تفاحشَ جنايتِهِ سببُهُ أنَّهُ سخَّرَ ما كانَ حقُّهُ ألا يستسخرَهُ(٢) وسلَّطَ ما حقُّهُ أنْ يُسلَّطَ عليهِ ، وإنَّما

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وفيهما : « العاجز » بدل « الأحمق » ، وورد لفظ (الأحمق) عند ابن سلاَّم في « غريب الحديث » (٣/ ١٣٤) ، **دان نفسه** : جعلها منقادة مطيعة لربِّها تعالىٰ ، **وتمنَّىٰ على الله** : فهو مع تقصيره في طاعة الله واتباع الشهوات . . لا يعتذر ولا يرجع ، بل يتمنىٰ على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والاستغفار . انظر « الإتحاف » (٧/ ٤٤) .

(٢) في النسخ : (أن يستسخر) بدل (ألا يستسخره) ، والمثبت من نسخة الحافظ الزبيدي .

استحقَّ المسلمُ أنْ يكونَ متسلِّطاً لما فيهِ مِنْ معرفةِ اللهِ وباعثِ الدينِ ، وإنَّما استحقَّ الكافرُ أن يكونَ متسلَّطاً عليهِ لما فيهِ مِنَ الجهلِ بالدينِ وباعثِ الشياطينِ ، وحقُّ المسلمِ علىٰ نفسِهِ أوجبُ مِنْ حقِّ غيرِهِ عليهِ ، فمهما سخَّرَ المعنى الشريفَ الذي هوَ مِنْ حزبِ اللهِ وجندِ الملائكةِ للمعنى الخسيسِ الذي هوَ مِنْ حزبِ الشياطينِ المبعدينَ عنِ اللهِ تعالىٰ . . كانَ كمَنْ أرقَّ مسلماً لكافرٍ ، بلْ هوَ كمَنْ قصدَ الملكَ المنعِمَ عليهِ فأخذَ أعزَّ أولادِهِ وسلَّمَهُ إلىٰ أبغضِ أعدائِهِ .

فانظرْ كيفَ يكونُ كفرانُهُ لنعمتِهِ ، واستيجابُهُ لنقمتِهِ ؛ لأنَّ الهوىٰ أبغضُ إلـٰهٍ عُبِدَ في الأرضِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، والعقلَ أعزُّ موجودٍ خُلِقَ علىٰ وجهِ الأرضِ .

* * *

الحالةُ الثالثةُ : أنْ تكونَ الحربُ سِجالاً بينَ الجندينِ ، فتارةً لهُ اليدُ عليها ، وتارةً لها عليهِ :

وهـٰذا مِنَ المجاهدينَ يُعدُّ مثلُهُ لا مِنَ الظافرينَ ، وأهلُ هـٰذهِ الحالةِ هُمُ الذينَ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، عسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهِمْ .

هـٰذا باعتبارِ القوَّةِ والضعفِ .

ويتطرَّقُ إليهِ أيضاً ثلاثةُ أحوالٍ باعتبارِ عددِ ما يُصبرُ عنهُ ؛ فإنَّهُ إمَّا أنْ يغلبَ جميعَ الشهواتِ ، أوْ لا يغلبَ شيئاً منها ، أوْ يغلبَ بعضَها دونَ

بعضٍ ، وتنزيلُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ علىٰ مَنْ عجزَ عنْ بعضِ الشهواتِ دونَ بعضٍ أولىٰ ، والتاركونَ للمجاهدةِ معَ الشهواتِ مطلقاً يُشبَّهون بالأنعامِ ، بلْ هُمْ أضلُّ سبيلاً ؛ إذِ البهيمةُ لمْ تُخلقْ لها المعرفةُ والقدرةُ التي بها تجاهدُ مقتضى الشهواتِ ، وهٰذا قدْ خُلِقَ ذلكَ لهُ ولكنْ عطَّلَهُ ، فهوَ الناقصُ حقّاً ، المدبرُ يقيناً ، ولذلكَ قيلَ[1] : [من الوافر]

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ ٱلنَّاسِ عَيْباً   كَنَقْصِ ٱلْقَادِرِينَ عَلَى ٱلتَّمَامِ

* * *

وينقسمُ الصبرُ أيضاً **باعتبارِ اليسرِ والعسرِ** إلىٰ ما يشقُّ على النفسِ فلا يمكنُ الدوامُ عليهِ إلا بجهدٍ جهيدٍ وتعبٍ شديدٍ ، ويُسمَّىٰ ذلك تصبُّراً ، وإلىٰ ما يكونُ مِنْ غيرِ شدَّةِ تعبٍ ، بلْ يحصلُ بأدنىٰ تحاملٍ على النفسِ ، ويُخصُّ ذلكَ باسمِ الصبرِ ، وإذا دامَ التقوىٰ وقويَ التصديقُ بما في العاقبةِ مِنَ الحسنىٰ . . تيسَّرَ الصبرُ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

ومثالُ هٰذهِ القسمةِ قدرةُ المصارعِ علىٰ غيرِهِ ؛ فإنَّ الرجلَ القويَّ يقدرُ علىٰ أنْ يصرعَ الضعيفَ بأدنىٰ حملةٍ وأيسرِ قوَّةٍ ، بحيثُ لا يلقاهُ في مصارعتِهِ إعياءٌ ولا لغوبٌ ، ولا تضطربُ فيهِ نفسُهُ ولا ينبهرُ ، ولا يقوىٰ علىٰ أنْ يصرعَ الشديدَ إلا بتعبٍ ومزيدِ جهدٍ وعرقِ جبينٍ ، فهكذا تكونُ المصارعةُ

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٤/ ١٤٥) .

بين باعثِ الدينِ وباعثِ الهوىٰ ، فإنَّه على التحقيقِ صراعٌ بينَ جنودِ الملائكةِ وجنودِ الشياطينِ ، ومهما أذعنَتِ الشهواتُ وانقمعَتْ ، وتسلَّطَ باعثُ الدينِ واستولىٰ ، وتيسَّرَ الصبرُ بطولِ المواظبةِ . . أورثَ ذلكَ مقامَ الرضا كما سيأتي في كتابِ الرضا ، فالرضا أعلىٰ مِنَ الصبرِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اعبدِ اللهَ على الرضا ، فإنْ لمْ تستطعْ . . ففي الصبرِ علىٰ ما تكرهُ خيرٌ كثيرٌ »[١] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (أهلُ الصبرِ علىٰ ثلاثِ مقاماتٍ ؛ أوَّلُها : تركُ الشكوىٰ ، وهـٰذهِ درجةُ التائبينَ ، والثانيةُ : الرضا بالمقدورِ ، وهـٰذهِ درجةُ الزاهدينَ ، والثالثةُ : المحبةُ لما يصنعُ بهِ مولاهُ ، وهـٰذهِ درجةُ الصدِّيقينَ)[٢] .

وسنبيِّنُ في كتابِ المحبَّةِ أنَّ مقامَ المحبَّةِ أعلىٰ مِنْ مقامِ الرضا ؛ كما أنَّ مقامَ الرضا أعلىٰ مِنْ مقامِ الصبرِ ، وكأنَّ هـٰذا الانقسامَ يجري في صبرٍ خاصٍّ ، وهوَ الصبرُ على المصائبِ والبلايا .

واعلمْ : أنَّ الصبرَ أيضاً ينقسمُ باعتبارِ حكمِهِ إلىٰ فرضٍ ، ونفلٍ ، ومكروهٍ ، ومحرَّمٍ .

فالصبرُ عنِ المحظوراتِ فرضٌ ، وعلى المكارهِ نفلٌ ، والصبرُ على

---

(١) رواه الضياء في « المختارة » (١٤) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٣٠٧) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٩٩) .

الأذى المحظورِ محظورٌ ؛ كمَنْ تُقطعُ يدُهُ أوْ يدُ ولدِهِ وهوَ يصبرُ عليهِ ساكتاً ، وكمَنْ يُقصدُ حريمُهُ بشهوةٍ محظورةٍ فتهيجُ غيرتُهُ ، فيصبرُ عنْ إظهارِ الغيرةِ ، ويسكتُ علىٰ ما يجري علىٰ أهلِهِ ، فهـٰذا الصبرُ محرَّمٌ ، والصبرُ المكروهُ هوَ الصبرُ علىٰ أذىً ينالُهُ بجهةٍ مكروهةٍ في الشرعِ .

فليكنِ الشرعُ محكَّ الصبرِ ، فكونُ الصبرِ نصفَ الإيمانِ لا ينبغي أنْ يُخيَّلَ إليكَ أنَّ جميعَهُ محمودٌ ، بلِ المرادُ بهِ أنواعٌ مِنَ الصبرِ مخصوصةٌ .

* * *

بيان مظانّ الحاجة إلى الصبر وأنّ العبد لا يستغني عنه في حالٍ من الأحوال

اعلمْ : أنَّ جميعَ ما يلقى العبدُ في هٰذهِ الحياةِ لا يخلو مِنْ نوعينِ :

أحدُهُما : هوَ الذي يوافقُ هواهُ .

والآخرُ : هو الذي لا يوافقُهُ بلْ يكرهُهُ .

وهوَ محتاجٌ إلى الصبرِ في كلِّ واحدٍ منهُما ، وهوَ في جميعِ الأحوالِ لا يخلو عنْ أحدِ هٰذينِ النوعينِ أوْ عنْ كليهِما ، فهو إذاً لا يستغني قطُّ عنِ الصبرِ .

* * *

النوعُ الأوّلُ : ما يوافقُ الهوىٰ :

وهوَ الصحةُ ، والسلامةُ ، والمالُ ، والجاهُ ، وكثرةُ العشيرةِ ، واتساعُ الأسبابِ ، وكثرةُ الأتباعِ والأنصارِ ، وجميعُ ملاذِّ الدنيا ، وما أحوجَ العبدَ إلى الصبرِ علىٰ هٰذهِ الأمورِ ؛ فإنَّهُ إنْ لمْ يضبطْ نفسَهُ عنِ الاسترسالِ والركونِ إليها ، والانهماكِ في ملاذِّها المباحةِ منها . . أخرجَهُ ذلكَ إلى البطرِ والطغيانِ ، فإنَّ الإنسانَ ليطغىٰ أنْ رآهُ استغنىٰ ، حتَّىٰ قالَ بعضُ العارفينَ : (البلاءُ يصبرُ عليهِ المؤمنُ ، والعوافي لا يصبرُ عليها إلا صدِّيقٌ)[1] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٩٧) ، والسياق عنده .

وقالَ سهلٌ : (الصبرُ على العافيةِ أشدُّ مِنَ الصبرِ على البلاءِ)[1] .

ولمَّا فُتحَتْ أبوابُ الدنيا على الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ . قالوا : (ابتلينا بفتنةِ الضرَّاءِ فصبرنا ، وابتلينا بفتنةِ السرَّاءِ فلمْ نصبرْ)[2] .

ولذلكَ حذَّرَ اللهُ تعالىٰ عبادَهُ مِنْ فتنةِ المالِ والزوجِ والولدِ فقالَ جلَّ ثناؤُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ محزنةٌ »[3] .

ولمَّا نظرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى ابنِهِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنهُ يتعثَّرُ في قميصِهِ . نزلَ عنِ المنبرِ واحتضنَهُ ثمَّ قالَ : « صدقَ اللهُ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ ، إنِّي لمَّا رأيتُ ابني يتعثَّرُ . لمْ أملكْ نفسي أنْ أخذتُهُ »[4] .

ففي ذلكَ عبرةٌ لأولي الأبصارِ .

فالرجلُ كلُّ الرجلِ مَنْ يصبرُ على العافيةِ ، ومعنى الصبرِ عليها : ألا

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٩٧) .

(٢) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٢١٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٠٣٢) .

(٤) رواه أبو داوود (١١٠٩) ، والترمذي (٣٧٧٤) ، والنسائي (٣/ ١٠٨) ، وابن ماجه (٣٦٠٠) ، وقالوا : (الحسن والحسين) رضي الله عنهما .

يركنَ إليها ، ويعلمَ أنَّ كلَّ ذلكَ مستودعٌ عندَهُ ، وعسىٰ أنْ يُسترجعَ على القرْبِ ، وألا يرسلَ نفسَهُ في الفرحِ بها ، ولا ينهمكَ في التنعُّمِ واللذَّةِ واللهوِ واللعبِ ، وأنْ يرعىٰ حقوقَ اللهِ في مالِهِ بالإنفاقِ ، وفي بدنِهِ ببذلِ المعونةِ للخلقِ ، وفي لسانِهِ ببذلِ الصدقِ ، وكذلكَ في سائرِ ما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ ، وهـٰذا الصبرُ متصلٌ بالشكرِ ، فلا يتمُّ إلا بالقيامِ بحقِّ الشكرِ كما سيأتي .

وإنَّما كانَ الصبرُ على السرَّاءِ أشدَّ لأنَّهُ مقرونٌ بالقدرةِ ، ومِنَ العصمةِ ألا تقدرَ ، والصبرُ على الحجامةِ والفصْدِ إذا تولاَّهُ غيرُكَ أيسرُ مِنَ الصبرِ علىٰ فصدِكَ نفسَكَ وحجامتِكَ نفسَكَ ، والجائعُ عندَ غيبةِ الطعامِ أقدرُ على الصبرِ منهُ إذا حضرَتْهُ الأطعمةُ الطيبةُ اللذيذةُ وقدرَ عليها ، فلهـٰذا عظمَتْ فتنةُ السرَّاءِ .

❊ ❊ ❊

النوعُ الثاني : ما لا يوافقُ الهوىٰ والطبعَ :

وذلكَ لا يخلو : إمَّا أنْ يرتبطَ باختيارِ العبدِ ؛ كالطاعاتِ والمعاصي ، أوْ لا يرتبطَ باختيارِهِ ؛ كالمصائبِ والنوائبِ ، أوْ لا يرتبطَ أوَّلُهُ باختيارِهِ ولكنْ لهُ اختيارٌ في إزالتِهِ ؛ كالتشفِّي مِنَ المؤذي بالانتقامِ منهُ ، فهيَ ثلاثةُ أقسامٍ .

❊ ❊ ❊

القسمُ الأوّلُ : ما يرتبطُ باختيارِهِ :

وهوَ سائرُ أفعالِهِ التي تُوصفُ بكونِها طاعةً أوْ معصيةً ، وهما ضربانِ :

الضربُ الأوّلُ : الطاعةُ : والعبدُ يحتاجُ إلى الصبرِ عليها ، فالصبرُ على الطاعةِ شديدٌ ؛ لأنَّ النفسَ بطبعِها تنفرُ عنِ العبوديةِ ، وتشتهي الربوبيةَ ، ولذلكَ قالَ بعضُ العارفينَ : ما مِنْ نفسٍ إلا وهيَ مضمرةٌ ما أظهرَهُ فرعونُ مِنْ قولِهِ : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ، ولكنْ فرعونُ وجدَ لَهُ مجالاً وقبولاً فأظهرَهُ ؛ إذِ استخفَّ قومَهُ فأطاعوهُ ، وما مِنْ أحدٍ إلا وهوَ يدَّعي ذلكَ معَ عبدِهِ وخادمِهِ وأتباعِهِ وكلِّ مَنْ هوَ تحتَ قهرِهِ وطاعتِهِ وإنْ كانَ ممتنعاً مِنْ إظهارِهِ ، فإنَّ امتعاضَهُ وغيظَهُ عندَ تقصيرِهِمْ في خدمتِهِ واستبعادَهُ ذلكَ ليسَ يصدرُ إلا عنْ إضمارِ الكبرِ ومنازعةِ الربوبيةِ في رداءِ الكبرياءِ .

فإذاً ؛ العبوديةُ شاقَّةٌ على النفسِ مطلقاً ، ثمَّ مِنَ العباداتِ ما يُكرهُ بسببِ الكسلِ كالصلاةِ ، ومنها ما يُكرهُ بسببِ البخلِ كالزكاةِ ، ومنها ما يُكرهُ بسببِهِما جميعاً كالحجِّ والجهادِ ، فالصبرُ على الطاعةِ صبرٌ على الشدائدِ ، ويحتاجُ المطيعُ إلى الصبرِ علىٰ طاعتِهِ في ثلاثِ أحوالٍ :

ـ **الحالةُ الأولىٰ : قبلَ الطاعةِ** : وذلكَ في تصحيحِ النيَّةِ ، والإخلاصِ ، والصبرِ عنْ شوائبِ الرياءِ ودواعي الآفاتِ ، وعقدِ العزمِ على الإخلاصِ والوفاءِ ، وذلكَ مِنَ الصبرِ الشديدِ عندَ مَنْ يعرفُ حقيقةَ النيَّةِ والإخلاصِ وآفاتِ الرياءِ ومكايدِ النفسِ ، وقدْ نبَّهَ عليهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ :

« إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوىٰ »[1] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ .

ولهـٰذا المعنىٰ قدَّم اللهُ تعالى الصبرَ على العملِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ .

ـ **الحالةُ الثانيةُ : حالةَ العملِ** : كي لا يغفُلَ عنِ اللهِ تعالىٰ في أثناءِ عملِهِ ، ولا يتكاسلَ عنْ تحقيقِ آدابِهِ وسننِهِ ، ويدومَ علىٰ شرطِ الأدبِ إلىٰ آخرِ العملِ ، فيلازمُ الصبرَ عنْ دواعي الفتورِ إلى الفراغِ ، وهـٰذا أيضاً مِنْ شدائدِ الصبرِ ، ولعلَّهُ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَـٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أيْ : صبروا إلىٰ تمامِ العملِ .

ـ **الحالةُ الثالثةُ : بعدَ الفراغِ مِنَ العملِ** : إذْ يحتاجُ إلى الصبرِ عنْ إفشائِهِ والتظاهرِ بهِ للسمعةِ والرياءِ ، والصبرِ عنِ النظرِ إليهِ بعينِ العجْبِ ، وعنْ كلِّ ما يبطلُ عملَهُ ويحبطُ أثرَهُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَـٰلَكُمۡ ﴾ ، وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ ، فمَنْ لمْ يصبرْ بعدَ الصدقةِ عنِ المنِّ والأذىٰ . . فقدْ أبطلَ عملَهُ .

والطاعاتُ تنقسمُ إلىٰ فرضٍ ونفلٍ ، وهوَ محتاجٌ إلى الصبرِ عليهِما جميعاً ، وقدْ جمعَهما اللهُ تعالىٰ في قولِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ ، فالعدْلُ هوَ الفرضُ ، والإحسانُ هوَ النفلُ ، وإيتاءُ

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

ذي القربىٰ هوَ المروءةُ وصلةُ الرحمِ ، وكلُّ ذلكَ يحتاجُ إلىٰ صبرٍ .

الضربُ الثاني : المعاصي : فما أحوجَ العبدَ إلى الصبرِ عنها ! وقدْ جمعَ اللهُ تعالىٰ أنواعَ المعاصي في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المهاجرُ مَنْ هجرَ السوءَ ، والمجاهدُ مَنْ جاهدَ هواهُ »[1] .

والمعاصي مقتضىٰ باعثِ الهوىٰ ، وأشدُّ أنواعِ الصبرِ عنِ المعاصي الصبرُ عنِ المعاصي التي صارَتْ مألوفةً بالعادةِ ، فإنَّ العادةَ طبيعةٌ خامسةٌ ، فإذا انضافَتِ العادةُ إلى الشهوةِ . . تظاهرَ جندانِ مِنْ جنودِ الشيطانِ علىٰ جندِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يقوىٰ باعثُ الدينِ علىٰ قمعِهِما .

ثمَّ إنْ كانَ ذلكَ الفعلُ ممَّا يتيسَّرُ فعلُهُ . . كانَ الصبرُ عنهُ أثقلَ على النفسِ ؛ كالصبرِ عنْ معاصي اللسانِ ؛ مِنَ الغيبةِ ، والكذبِ ، والمراءِ ، والثناءِ على النفسِ تعريضاً وتصريحاً ، وأنواعِ المزحِ المؤذي للقلوبِ ، وضروبِ الكلماتِ التي يُقصدُ بها الإزراءُ والاستحقارُ ، وذكرِ الموتىٰ والقدحِ فيهِم وفي علومِهِمْ وسيرِهِمْ ومناصبِهِمْ ، فإنَّ ذلكَ في ظاهرِهِ غيبةٌ ،

---

(١) رواه بنحوه الحاكم في « المستدرك » (١ / ١١) ضمن خطبة له صلى الله عليه وسلم من حديث فضالة رضي الله عنه ، ولفظه : « والمجاهد من جاهد نفسه ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » .

وفي باطنِهِ ثناءٌ على النفسِ ، فللنفسِ فيهِ شهوتانِ : إحداهُما : نفيُ الغيرِ ، والأخرىٰ : إثباتُ نفسِهِ ، وبهِما تتمُّ لهُ الربوبيةُ التي في طبعِهِ ، وهيَ ضدُّ ما أُمِرَ بهِ مِنَ العبوديةِ ، ولاجتماعِ الشهوتينِ وتيسُّرِ تحريكِ اللسانِ ، ومصيرِ ذلكَ معتاداً في المحاوراتِ . . يعسرُ الصبرُ عنها، وهيَ أكبرُ الموبقاتِ، حتَّىٰ بطلَ استنكارُها واستقباحُها مِنَ القلوبِ ؛ لكثرةِ تكررِها ، وعمومِ الأنسِ بها ، فترى الإنسانَ يلبسُ حريراً مثلاً فيُستبعدُ ذلكَ منهُ غايةَ الاستبعادِ ، ويطلقُ لسانَهُ طولَ النهارِ في أعراضِ الناسِ ولا يُستنكرُ ذلكَ معَ ما وردَ في الخبرِ مِنْ أنَّ الغيبةَ أشدُّ مِنَ الزنا[1] ، ومَنْ لمْ يملكْ لسانَهُ في المحاوراتِ ، ولمْ يقدرْ على الصبرِ علىٰ ذلكَ . . فيجبُ عليهِ العزلةُ والانفرادُ ، فلا ينجيهِ غيرُهُ ، فالصبرُ على الانفرادِ أهونُ مِنَ الصبرِ على السكوتِ معَ المخالطةِ .

وتختلفُ شدَّةُ الصبرِ في آحادِ المعاصي باختلافِ داعيةِ تلكَ المعصيةِ في قوَّتِها وضعفِها ، وأيسرُ مِنْ حركةِ اللسانِ حركةُ الخواطرِ باختلاجِ الوساوسِ ، فلا جرمَ يبقىٰ حديثُ النفسِ في العزلةِ ، ولا يمكنُ الصبرُ عنهُ أصلاً ، إلا بأنْ يغلبَ على القلبِ همٌّ آخرُ في الدينِ يستغرقُهُ ؛ كمَنْ أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ ، وإلا . . فإنْ لمْ يستعملِ الفكرَ في شيءٍ معيَّنٍ . . لمْ يُتصوَّرْ فتورُ الوسواسِ عنهُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٦٤) .

القسمُ الثاني : ما لا يرتبطُ هجومُهُ باختيارِهِ ولهُ اختيارٌ في دفعِهِ :

كما لوْ أُوذيَ بفعلٍ أوْ قولٍ ، أوْ جُنِيَ عليهِ في نفسِهِ أوْ مالِهِ ، فالصبرُ علىٰ ذلكَ بتركِ المكافأةِ تارةً يكونُ واجباً ، وتارةً يكونُ فضيلةً .

قالَ بعضُ الصحابةِ : (ما كنَّا نعدُّ إيمانَ الرجلِ إيماناً إذا لمْ يصبرْ على الأذىٰ)[1] .

وقدْ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ في قولِهِ : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

وقسمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّةً مالاً ، فقالَ بعضُ الأعرابِ مِنَ المسلمينَ : هـٰذهِ قسمةٌ ما أُريدَ بها وجهُ اللهِ ، فأُخبرَ بذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فاحمرَّتْ وجنتاهُ ثمَّ قالَ : « رحمَ اللهُ أخي موسىٰ ، لقدْ أُوذيَ بأكثرَ مِنْ هـٰذا فصبرَ »[2] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ .

---

(١) هو في « القوت » (١/ ١٩٥) بلفظ : (وقال بعض العلماء : ما كنا نعد إيمان من لم يؤذ فيحتمل الأذىٰ ويصبر عليه إيماناً) .

(٢) رواه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أيْ : تصبروا عنِ المكافأةِ ، ولذلكَ مدحَ اللهُ تعالى العافينَ عنْ حقوقِهِمْ في القصاصِ وغيرِه فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلْ مَنْ قطعَكَ ، وأعطِ مَنْ حرمَكَ ، واعفُ عمَّنْ ظلمَكَ »[1] .

ورأيتُ في الإنجيلِ : قالَ عيسى ابنُ مريمَ عليهِ السلامُ : لقدْ قيلَ لكُمْ مِنْ قبلُ[2] : إنَّ السنَّ بالسنِّ والأنفَ بالأنفِ ، وأنا أقولُ لكُمْ : لا تقاوموا الشرَّ بالشرِّ ، بلْ مَنْ ضربَ خدَّكَ الأيمنَ . . فحوِّلْ إليهِ الخدَّ الأيسرَ ، ومَنْ أخذَ رداءَكَ . . فأعطِهِ إزارَكَ ، ومَنْ سخَّرَكَ لتسيرَ معهُ ميلاً . . فسرْ معهُ ميلينِ .

وكلُّ ذلكَ أمرٌ بالصبرِ على الأذىٰ ، فالصبرُ علىٰ أذى الناسِ مِنْ أعلىٰ مراتبِ الصبرِ ؛ لأنَّهُ يتعاونُ فيهِ باعثُ الدينِ وباعثُ الشهوةِ والغضبِ جميعاً .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٢٣) .

(٢) أي : في التوراة ، وذلك مصداق قول الحق جل وعلا : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ .

القسمُ الثالثُ : ما لا يدخلُ تحتَ الاختيارِ أوَّلُهُ وآخرُهُ :

كالمصائبِ ؛ مثلُ موتِ الأعزَّةِ ، وهلاكِ الأموالِ ، وزوالِ الصحَّةِ بالمرضِ ، وعمى العينِ ، وفسادِ الأعضاءِ ، وبالجملةِ سائرُ أنواعِ البلاءِ ، فالصبرُ علىٰ ذلكَ مِنْ أعلىٰ مقاماتِ الصبرِ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (الصبرُ في القرآنِ علىٰ ثلاثةِ أوجهٍ : صبرٌ علىٰ أداءِ فرائضِ اللهِ تعالىٰ ، فلهُ ثلاثُ مئةِ درجةٍ ، وصبرٌ عنْ محارمِ اللهِ تعالىٰ ، فلهُ ستُّ مئةِ درجةٍ ، وصبرٌ على المصيبةِ عندَ الصدمةِ الأولىٰ ، فلهُ تسعُ مئةِ درجةٍ)[1] .

وإنَّما فُضِّلَتْ هـٰذهِ الرتبةُ معَ أنَّها مِنَ الفضائلِ علىٰ ما قبلَها وهيَ مِنَ الفرائضِ . . لأنَّ كلَّ مؤمنٍ يقدرُ على الصبرِ عنِ المحارمِ ، فأمَّا الصبرُ علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ . . فلا يقدرُ عليهِ إلا الأنبياءُ ؛ لأنَّهُ بضاعةُ الصدِّيقينَ ، فإنَّ ذلكَ شديدٌ على النفسِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسألُكَ مِنَ اليقينِ ما تهوِّنُ بهِ عليَّ مصائبَ الدنيا »[2] ، فهـٰذا صبرٌ مستندُهُ حسنُ اليقينِ .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (واللهِ ؛ ما نصبرُ علىٰ ما نحبُّ ، فكيفَ نصبرُ علىٰ ما نكرَهُ ؟!)[3] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/١٩٨) ، وروى الديلمي نحوه مرفوعاً في « مسند الفردوس » (٣٨٤٦) من حديث علي رضي الله عنه .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٢) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠١٦١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٥٢٨) .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٢٥) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذا وجَّهتُ إلىٰ عبدٍ مِنْ عبيدي مصيبةً في بدنِهِ أوْ مالِهِ أوْ ولدِهِ ثمَّ استقبلَ ذلكَ بصبرٍ جميلٍ . . استحييتُ منهُ يومَ القيامةِ أنْ أنصبَ لهُ ميزاناً أوْ أنشرَ لهُ ديواناً »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انتظارُ الفرجِ بالصبرِ عبادةٌ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ مؤمنٍ أُصيبَ بمصيبةٍ فقالَ كما أمرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ أْجُرْني في مصيبتي وأعقبْني خيراً منها . . إلا فعلَ اللهُ ذلكَ بهِ »[3] .

وقالَ أنسٌ : حدَّثَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : « يا جبريلُ ؛ ما جزاءُ مَنْ سلبتُ كريمتيهِ ؟ قالَ : سبحانَكَ لا علمَ لنا إلا ما علمتَنا ، قالَ تعالىٰ : جزاؤُهُ الخلودُ في داري ، والنظرُ إلىٰ وجهي »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذا ابتليتُ عبدي ببلاءٍ فصبرَ ولمْ يشكُني إلىٰ عوَّادِهِ . . أبدلتُهُ لحماً خيراً مِنْ لحمِهِ ، ودماً خيراً

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢٢٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٥٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٦٢) .

(٢) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٥٣١) .

(٣) رواه مسلم (٩١٨) .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٨٥٠) ، وعند البخاري (٥٦٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر . . عوضته منهما الجنة » .

مِنْ دمِهِ، فإنْ أبرأتُهُ . . أبرأتُهُ ولا ذنبَ لهُ ، وإنْ توفَّيتُهُ . . فإلىٰ رحمتي »[١] .

وقالَ داوودُ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ ما جزاءُ الحزينِ الذي يصبرُ على المصائبِ ابتغاءَ مرضاتِكَ ؟ قالَ : جزاؤُهُ أنْ ألبسَهُ لباسَ الإيمانِ فلا أنزعَهُ عنهُ أبداً[٢] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمة اللهِ عليه في خطبتِهِ : (ما أنعمَ اللهُ علىٰ عبدٍ نعمةً فانتزعَها منهُ وعوَّضَهُ منها الصبرَ إلا كانَ ما عوَّضَهُ منها أفضلَ ممَّا انتزعَ منهُ) ، وقرأَ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٣] .

وسُئِلَ الفضيلُ عنِ الصبرِ فقالَ : هوَ الرضا بقضاءِ اللهِ ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : الراضي لا يتمنَّىٰ فوقَ منزلتِهِ[٤] .

وقيلَ : حُبسَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ في المارستانِ ، فدخلَ عليهِ جماعةٌ فقالَ: مَنْ أنتُمْ ؟ قالوا : أحباؤُكَ جاؤُوكَ زائرينَ ، فأخذَ يرميهِمْ بالحجارةِ ، فأخذوا يهربونَ منهُ ، فقالَ : لوْ كنتُمْ أحبَّائي . . لصبرتُمْ علىٰ بلائي[٥] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٤٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وهو عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٤٠) عن عطاء بن يسار مرسلاً .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٤١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٤٧) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٩٨) .

(٤) روى ابن أبي الدنيا في « الرضا عن الله بقضائه » (١٦) عن الفضيل يقول : (الراضي لا يتمنىٰ فوق منزلته) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص٣٢٨) .

وكانَ بعضُ العارفينَ في جيبِهِ رقعةٌ يخرجُها كلَّ ساعةٍ ويطالعُها ، وكانَ فيها : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[1] .

ويُقالُ : إنَّ امرأةَ فتحٍ الموصليِّ عثرَتْ ، فانقطعَ ظفرُها ، فضحكَتْ ، فقيلَ لها : أما تجدينَ الوجعَ ؟ فقالَتْ : إنَّ لذةَ ثوابِهِ أزالَتْ عنْ قلبي مرارةَ وجعِهِ[2] .

وقالَ داوودُ لسليمانَ عليهِما السلامُ : (يُستدلُّ علىٰ تقوى المؤمنِ بثلاثٍ : حسنُ التوكلِ فيما لمْ ينلْ ، وحسنُ الرضا فيما قدْ نالَ ، وحسنُ الصبرِ فيما قدْ فاتَ)[3] .

وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ إجلالِ اللهِ ومعرفةِ حقِّهِ ألا تشكوَ وجعَكَ ولا تذكرَ مصيبتَكَ »[4] .

ويُروىٰ عنْ بعضِ الصالحينَ أنَّهُ خرجَ يوماً وفي كمِّهِ صرَّةٌ ، فافتقدَها ،

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣٢٨) ولفظه : وقال بعضهم : كنت بمكة ، فرأيت فقيراً طاف بالبيت ، وأخرج من جيبه رقعة ونظر فيها ومرَّ ، فلما كان بالغد.. فعل مثل ذلك ، فترقبته أياماً وهو يفعل مثل ذلك ، فيوماً من الأيام طاف ونظر في الرقعة ، وتباعد قليلاً وسقط ميتاً ، فأخرجت الرقعة من جيبه ، فإذا فيها : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥١٩) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٦٦) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » [٢٢٣] من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال : من الصبر ألا تحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك) . « إتحاف » (٩/ ٢٩) ، وقول سفيان رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٩) أيضاً .

فإذا هيَ قدْ أُخذَتْ مِنْ كمِّهِ ، فقالَ : باركَ اللهُ لهُ فيها ، لعلَّهُ أحوجُ إليها منِّي .

ورُوِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : مررتُ علىٰ سالمٍ مولىٰ أبي حذيفةَ في القتلىٰ ـ وذلكَ باليمامةِ في ردَّةِ بني حنيفةَ ـ وبهِ رمقٌ ، فقلتُ لهُ : أسقيكَ ماءً ؟ فقالَ : جُرَّني قليلاً إلى العدوِّ واجعلِ الماءَ في الترسِ فإنِّي صائمٌ ، فإنْ عشتُ إلى الليلِ . . شربتُهُ .

فهكذا كانَ صبرُ سالكي طريقِ الآخرةِ علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ .

* * *

فإنْ قلتَ : فبماذا تُنالُ درجةُ الصبرِ في المصائبِ وليسَ الأمرُ إلى اختيارِهِ ، فهوَ مضطرٌّ شاءَ أمْ أبىٰ ، فإنْ كانَ المرادُ بهِ ألا تكونَ في نفسِهِ كراهيةٌ للمصيبةِ . . فذلكَ غيرُ داخلٍ في الاختيارِ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ إنَّما يخرجُ عنْ مقامِ الصابرينَ بالجزعِ ، وشقِّ الجيوبِ ، وضربِ الخدودِ ، والمبالغةِ في الشكوىٰ ، وإظهارِ الكآبةِ ، وتغييرِ العادةِ في الملبسِ والمفرشِ والمطعمِ ، وهـٰذهِ الأمورُ داخلةٌ تحتَ اختيارِهِ ، فينبغي أنْ يجتنبَ جميعَها ، ويظهرَ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، ويبقىٰ مستمراً علىٰ عادتِهِ ، ويعتقدَ أنَّ ذلكَ كانَ وديعةً فاسترُجعَتْ ؛ كما رُوِيَ عنِ الرُّميصاءِ أمِّ سُليمٍ رحمها اللهُ أنَّها قالَتْ : تُوفِّيَ ابنٌ لي وزوجي أبو طلحةَ غائبٌ ، فقمتُ فسجَّيتُهُ في ناحيةِ البيتِ ، فقدمَ أبو طلحةَ ، فقمتُ فهيَّأتُ لهُ إفطارَهُ ، فجعلَ

يأكلُ ، وقالَ : كيفَ الصبيُّ ؟ فقلتُ : بأحسنِ حالٍ بحمدِ اللهِ ومنِّهِ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنْ منذُ اشتكىٰ بأسكنَ منهُ الليلةَ ، ثمَّ تصنَّعتُ لهُ أحسنَ ما كنتُ أتصنَّعُ قبلَ ذلكَ ، حتَّىٰ أصابَ منِّي حاجتَهُ ، ثمَّ قلتُ : ألا تعجبُ مِنْ جيرانِنا ؟ قالَ : وما لهُمْ ؟ قلتُ : أُعيروا عاريةً ، فلمَّا طُلبَتْ منهُمْ واسترُجعتْ.. جزعوا ، فقالَ : بئسَ ما صنعوا ، فقلتُ : هٰذا ابنُكَ كانَ عاريةً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّ اللهَ قدْ قبضَهُ إليهِ ، فحمدَ اللهَ واسترجعَ ، ثمَّ غدا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأخبرَهُ ، فقالَ : « اللهمَّ ؛ باركْ لهُمْ في ليلتِهِمْ » ، قالَ الراوي[١] : فلقدْ رأيتُ لهُمْ بعدَ ذلكَ في المسجدِ سبعةً ، كلُّهُمْ قدْ قرؤوا القرآنَ[٢] .

وروىٰ جابرٌ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « رأيتُني دخلتُ الجنَّةَ ؛ فإذا أنا بالرُّميصاءِ امرأةِ أبي طلحةَ »[٣] .

وقدْ قيلَ : (الصبرُ الجميلُ هوَ ألا يُعرفَ مَنْ صاحبُ المصيبةِ إذْ يشبهُ غيرَهُ)[٤] .

ولا يخرجُهُ عنْ حدِّ الصابرينَ توجُّعُ القلبِ ، ولا فيضانُ العينِ بالدمعِ ؛

---

(١) وهو عَباية بن رِفاعة .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢٨/٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥٩/٢) ، وأصله عند البخاري (٥٤٧٠) ، ومسلم (٢١٤٤) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٧٩) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص٣٢٨) بنحوه .

إذْ يكونُ منْ جميعِ الحاضرينَ لأجلِ الموتِ سواءً ، ولأنَّ البكاءَ توجُّعُ القلبِ على الميتِ ؛ فإنَّ ذلكَ مقتضى البشريَّةِ ، ولا يفارقُ الإنسانَ إلى الموتِ ، ولذلكَ لمَّا ماتَ إبراهيمُ ولدُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فاضَتْ عيناهُ ، فقيلَ لهُ : أما نهيتَنا عنْ هـٰذا ؟ فقالَ : « إنَّ هـٰذهِ رحمةٌ ، وإنَّما يرحمُ اللهُ مِنْ عبادِهِ الرحماءَ »[1] .

بلْ ذلكَ أيضاً لا يخرجُ عنْ مقامِ الرضا ، فالمقدمُ على الفصدِ والحجامةِ راضٍ بهِ وهوَ متألِّمٌ بسببهِ لا محالةَ ، وقدْ تفيضُ عينُهُ إذا عظمَ ألمُهُ ، وسيأتي ذلكَ في كتابِ الرضا إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

وكتبَ ابنُ أبي نَجيحٍ يُعزِّي بعضَ الخلفاءِ فكتبَ : (إنَّ أحقَّ مَنْ عرفَ حقَّ اللهِ تعالىٰ فيما أُخِذَ منهُ مَنْ عظَّمَ حقَّ اللهِ تعالىٰ عندَهُ فيما أبقاهُ لهُ ، واعلمْ أنَّ الماضيَ قبلَكَ هوَ الباقي لكَ ، والباقيَ بعدكَ هوَ المأجورُ فيكَ ، واعلمْ أنَّ أجرَ الصابرينَ فيما يُصابونَ بهِ أعظمُ مِنَ النعمةِ عليهِمْ فيما يُعافَونَ فيهِ)[2] .

فإذاً ؛ مهما دفعَ الكراهةَ بالتفكُّرِ في نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالثوابِ . . نالَ درجةَ الصابرينَ .

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) ، ومسلم (٢٣١٥) بنحوه ، ووقع هـٰذا القول عندما رفع إليه عليه الصلاة والسلام ابن لابنة له كما هو عند البخاري (١٣٨٤) ، ومسلم (٩٢٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٩٥) .

نعمْ ، مِنْ كمالِ الصبرِ كتمانُ المرضِ والفقرِ وسائرِ المصائبِ ، وقدْ قيلَ : (مِنْ كنوزِ البرِّ كتمانُ المصائبِ والأوجاعِ والصدقةِ)[1] .

فقدْ ظهرَ لكَ بهٰذهِ التقسيماتِ أنَّ وجوبَ الصبرِ عامٌّ في جميعِ الأحوالِ والأفعالِ ، فإنَّ الذي كُفِيَ الشهواتِ كلَّها واعتزلَ وحدَهُ . . فلا يستغني عنِ الصبرِ على العزلةِ والانفرادِ ظاهراً ، وعنِ الصبرِ عنْ وساوسِ الشيطانِ باطناً ، فإنَّ اختلاجَ الخواطرِ لا يسكنُ ، وأكثرُ جولانِ الخاطرِ إنَّما يكونُ في فائتٍ لا تداركَ لهُ ، أوْ في مستقبلٍ لا بدَّ وأنْ يحصلَ منهُ ما هوَ مقدَّرٌ ، فهوَ كيفَما كانَ تضييعُ زمانٍ ، وآلةُ العبدِ قلبُهُ وبضاعتُهُ عمرُهُ ، فإذا غفلَ القلبُ في نَفَسٍ واحدٍ عنْ ذكرٍ يستفيدُ بهِ أنساً باللهِ تعالىٰ ، أوْ عنْ فكرٍ يستفيدُ بهِ معرفةً باللهِ تعالىٰ ليستفيدَ بالمعرفةِ محبةَ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مغبونٌ ، هٰذا إنْ كانَ فكرُهُ ووسواسُهُ في المباحاتِ مقصوراً عليهِ ، ولا يكونُ كذلكَ غالباً ، بلْ يتفكَّرُ في وجوهِ الحيلِ لقضاءِ الشهواتِ ؛ إذْ لا يزالُ ينازعُ كلَّ مَنْ تحرَّكَ علىٰ خلافِ غرضِهِ في جميعِ عمرِهِ ، أوْ مَنْ يتوهَّمُ بهِ أنَّهُ ينازعُهُ ويخالفُ أمرَهُ أوْ غرضَهُ بظهورِ أمارةٍ لهُ منهُ ، بلْ يقدِّرُ المخالفةَ مِنْ أخلصِ الناسِ في حبِّهِ ، حتَّىٰ في أهلِهِ وولدِهِ ، ويتوهَّمُ مخالفتَهُمْ لهُ ، ثمَّ يتفكَّرُ في كيفيةِ زجرِهِمْ وكيفيةِ قهرِهِمْ وجوابِهِمْ عمَّا يتعلَّلونَ بهِ في مخالفتِهِ ، ولا يزالُ في شغلٍ دائمٍ .

فللشيطانِ جندانِ ؛ جندٌ يطيرُ ، وجندٌ يسيرُ ، والوسواسُ عبارةٌ عنْ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٧٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/١٩٧) مرفوعاً .

حركةِ جندِهِ الطيَّارِ ، والشهوةُ عبارةٌ عنْ حركةِ جندِهِ السيَّارِ ، وهـٰذا لأنَّ الشيطانَ خُلِقَ مِنَ النارِ ، وخُلِقَ الإنسانُ مِنْ صلصالٍ كالفخارِ ، والفخارُ قدِ اجتمعَ فيهِ معَ النارِ الطينُ ، والطينُ طبعُهُ السكونُ ، والنارُ طبعُها الحركةُ ، فلا يُتصوَّرُ نارٌ مشتعلةٌ لا تتحرَّكُ ، بلْ لا تزالُ تتحرَّكُ بطبعِها ، وقدْ كُلِّفَ الملعونُ المخلوقُ مِنَ النارِ أنْ يطمئنَّ عنْ حركتِهِ ساجداً لما خُلِقَ مِنَ الطينِ ، فأبىٰ واستكبرَ واستعصىٰ ، وعبَّرَ عنْ سببِ استعصائِهِ بأنْ قالَ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ .

فإذاً ؛ حيثُ لمْ يسجدِ الملعونُ لأبينا آدمَ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ . . فلا ينبغي أنْ يُطمعَ في سجودِهِ لأولادِهِ ، ومهما كفَّ عنِ القلبِ وسواسَهُ وعدوانَهُ ، وطيرانَهُ وجولانَهُ . . فقدْ أظهرَ انقيادَهُ وإذعانَهُ ، وانقيادُهُ بالإذعانِ سجودٌ منهُ ، فهوَ روحُ السجودِ ، وإنَّما وضْعُ الجبهةِ على الأرضِ قالبُهُ وعلامتُهُ الدالَّةُ بالاصطلاحِ عليهِ ، ولوْ جُعلَ وضعُ الجبهةِ على الأرضِ علامةَ استخفافٍ بالاصطلاحِ . . لتُصوِّرَ ذلكَ ، كما أنَّ الانبطاحَ بينَ يديِ المعظَّمِ المحترمِ يُرى استخفافاً بالعادةِ .

فلا ينبغي أنْ يدهشَكَ صدفُ الجوهرِ عنِ الجوهرِ ، وقالبُ الروحِ عنِ الروحِ ، وقشرُ اللبِّ عنِ اللبِّ ، فتكونَ ممَّنْ قيَّدَهُ عالمُ الشهادةِ بالكليَّةِ عنْ عالمِ الغيبِ ، وتحقَّقْ أنَّ الشيطانَ مِنَ المنظرينَ ، فلا يتواضعُ لكَ بالكفِّ عنِ الوسواسِ إلىٰ يومِ الدينِ ، إلا أنْ تصبحَ وهمومُكَ همٌّ واحدٌ ، فتشغلَ قلبَكَ باللهِ وحدَهُ ، فلا يجدُ الملعونُ مجالاً فيكَ ، فعندَ ذلكَ تكونُ مِنْ عبادِ اللهِ

المخلصينَ ، الداخلينَ في الاستثناءِ عنْ سلطنةِ هٰذا اللعينِ .

ولا تظنَّنَّ أنَّهُ يخلو عنهُ قلبٌ فارغٌ ، بلْ هوَ سيَّالٌ يجري مِنِ ابنِ آدمَ مجرى الدمِ ، وسيلانُهُ مثلُ الهواءِ في القدحِ ، فإنَّكَ إنْ أردتَ أنْ يخلوَ القدحُ عنِ الهواءِ مِنْ غيرِ أنْ تشغلَهُ بالماءِ أوْ بغيرِهِ . . فقدْ طمعتَ في غيرِ مطمعٍ ، بلْ بقدْرِ ما يخلو مِنَ الماءِ يدخلُ فيهِ الهواءُ لا محالةَ ، فكذلكَ القلبُ المشغولُ بفكرٍ مهمٍّ في الدينِ يخلو عنْ جولانِ الشياطينِ ، وإلا . . فمَنْ غفلَ عنِ اللهِ تعالىٰ ولوْ في لحظةٍ فليسَ لهُ في تلكَ اللحظةِ قرينٌ إلا الشيطانُ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يبغضُ الشابَّ الفارغَ »[1] ، وهٰذا لأنَّ الشابَّ إذا تعطَّلَ عنْ عملٍ يشغلُ باطنَهُ بمباحٍ يستعينُ بهِ علىٰ دينِهِ . . كانَ ظاهرُهُ فارغاً ، ولمْ يبقَ قلبُهُ فارغاً ، بلْ يعشّشُ فيهِ الشيطانُ ويبيضُ ويفرِّخُ ، ثمَّ تزدوجُ أفراخُهُ أيضاً وتبيضُ مرَّةً أخرىٰ وتفرِّخُ ، وهٰكذا يتوالدُ نسلُ الشيطانِ توالداً أسرعَ مِنْ توالدِ سائرِ الحيواناتِ ؛ لأنَّ طبعَهُ مِنَ النارِ ، وإذا وجدَ الحَلْفاءَ اليابسةَ . . كثرَ توالدُهُ ، فلا يزالُ تتوالدُ النارُ مِنَ النارِ ، ولا تنقطعُ ألبتةَ ، بلْ تسري شيئاً فشيئاً على الاتصالِ ، فالشهوةُ في نفسِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (غريب لم أجده) . « إتحاف » (٩/ ٣٣) ، وروى الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس في أمر دنيا ولا آخرة) .

الشابِّ للشيطانِ كالحلفاءِ اليابسةِ للنارِ ، وكما لا تبقى النارُ إذا لمْ يبقَ لها قوتٌ وهوَ الحطبُ . . فلا يبقىٰ للشيطانِ مجالٌ إذا لمْ تكنْ شهوةٌ .

فإذاً ؛ إذا تأمَّلتَ . . علمتَ أنَّ أعدىٰ عدوِّكَ شهوتُكَ ، وهيَ صفةُ نفسِكَ ، ولذلكَ قالَ الحسينُ بنُ منصورٍ الحلاَّجُ حينَ كانَ يُصلبُ وقدْ سُئِلَ عنِ التصوُّفِ ما هوَ ؟ فقالَ : (هيَ نفسُكَ ، إنْ لمْ تشغلْها . . شغلَتْكَ)[1] .

فإذاً ؛ حقيقةُ الصبرِ وكمالُهُ الصبرُ عنْ كلِّ حركةٍ مذمومةٍ ، وحركةُ الباطنِ أولىٰ بالصبرِ عنْ ذلكَ ، وهـٰذا صبرٌ دائمٌ لا يقطعُهُ إلا الموتُ ، نسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بمنِّهِ وكرمِهِ .

* * *

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/١٢٨) .

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلمْ : أنَّ الذي أنزلَ الداءَ أنزلَ الدواءَ ووعدَ الشفاءَ ، فالصبرُ وإنْ كانَ شاقّاً أوْ ممتنعاً فتحصيلُهُ يمكنُ بمعجونِ العلمِ والعملِ ، فالعلمُ والعملُ هما الأخلاطُ التي منها تُركبُ الأدويةُ لأمراضِ القلوبِ كلِّها ، ولكنْ يحتاجُ كلُّ مرضٍ إلىٰ علمٍ آخرَ وعملٍ آخرَ .

وكما أنَّ أقسامَ الصبرِ مختلفةٌ فأقسامُ العللِ المانعةِ منهُ مختلفةٌ ، وإذا اختلفَتِ العللُ . . اختلفَ العلاجُ ؛ إذْ معنى العلاجِ مضادَّةُ العلَّةِ وقمعُها ، واستيفاءُ ذلكَ ممَّا يطولُ ، ولكنَّا نعرِّفُ الطريقَ في بعضِ الأمثلةِ فنقولُ :

إذا افتقرَ إلى الصبرِ عنْ شهوةِ الوقاعِ مثلاً وقدْ غلبَتْ عليهِ الشهوةُ بحيثُ ليسَ يملكُ معَها فرجَهُ ، أوْ يملكُ فرجَهُ ولكنْ ليسَ يملكُ عينَهُ ، أوْ يملكُ عينَهُ ولكنْ ليسَ يملكُ قلبَهُ ونفسَهُ ؛ إذْ لا تزالُ تحدِّثُهُ بمقتضياتِ الشهوةِ ، ويصرفُهُ ذلكَ عنِ المواظبةِ على الذكرِ والفكرِ والأعمالِ الصالحةِ . . فنقولُ :

قدْ قدَّمنا أنَّ الصبرَ عبارةٌ عنْ مصارعةِ باعثِ الدينِ معَ باعثِ الهوىٰ ، وكلُّ متصارعينِ أردنا أنْ يغلبَ أحدُهُما الآخرَ فلا طريقَ لنا فيهِ إلا بتقويةِ مَنْ أردنا أنْ تكونَ لهُ اليدُ العليا وتضعيفِ الآخرِ ، فلزمَنا هٰهنا تقويةُ باعثِ الدينِ وتضعيفُ باعثِ الشهوةِ .

❊ ❊ ❊

فأمّا باعثُ الشهوةِ . . فسبيلُ تضعيفِهِ ثلاثةُ أمورٍ :

أحدُها : أنْ ننظرَ إلىٰ مادةِ قوتِهِ ، وهيَ الأغذيةُ الطيِّبةُ المحرِّكةُ للشهوةِ مِنْ حيثُ نوعُها ومِنْ حيثُ كثرتُها ، فلا بدَّ مِنْ قطعِها بالصومِ الدائمِ معَ الاقتصارِ عندَ الإفطارِ علىٰ طعامٍ قليلٍ في نفسِهِ ، ضعيفٍ في جنسِهِ ، فيحترزُ مِنَ اللحمِ والأطعمةِ المهيِّجةِ للشهوةِ .

والثاني : قطعُ أسبابِهِ المهيِّجةِ لهُ في الحالِ ، فإنَّهُ إنَّما يهيجُ بالنظرِ إلىٰ مظانِّ الشهوةِ ؛ إذِ النظرُ يحرِّكُ القلبَ ، والقلبُ يحرِّكُ الشهوةَ ، وهـٰذا يحصلُ بالعزلةِ ، والاحترازِ عنْ مظانِّ وقوعِ البصرِ على الصورِ المشتهاةِ ، والفرارِ منها بالكليَّةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ »(١) ، وهـٰذا سهمٌ يسدِّدُهُ الملعونُ ولا ترسَ يمنعُ منهُ إلا تغميضُ الأجفانِ ، أوِ الهربُ مِنْ صوبِ رميِهِ ، فإنَّهُ إنَّما يرمي هـٰذا السهمَ عنْ قوسِ الصورِ ، فإذا انفتلتَ عنْ صوْبِ الصورِ . . لمْ يصبْكَ سهمُهُ .

والثالثُ : تسليةُ النفسِ بالمباحِ مِنَ الجنسِ الذي تشتهيهِ ، وذلكَ بالنكاحِ ، فإنَّ كلَّ ما يشتهيهِ الطبعُ ففي المباحاتِ مِنْ جنسِهِ ما يغني عنِ المحظوراتِ منهُ ، وهـٰذا هوَ العلاجُ الأنفعُ في حقِّ الأكثرِ ، فإنَّ قطعَ الغذاءِ يضعفُ عنْ سائرِ الأعمالِ ، ثمَّ قدْ لا يقمعُ الشهوةَ في حقِّ أكثرِ الرجالِ ،

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٤) .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالباءةِ ، فمَنْ لمْ يستطعْ . . فعليهِ بالصومِ ؛ فإنَّ الصومَ لهُ وجاءٌ »[1] .

فهٰذهِ ثلاثةُ أسبابٍ ، فالعلاجُ الأوَّلُ ـ وهوَ قطعُ الطعامِ ـ يضاهي قطعَ العلفِ عنِ البهيمةِ الجموحِ وعنِ الكلبِ الضاري ليضعفَ فتسقطَ قوَّتُهُ ، والثاني يضاهي تغييبَ اللحمِ عن الكلبِ وتغييبَ الشعيرِ عنِ البهيمةِ حتَّىٰ لا تتحرَّكَ بواطنُها بسببِ مشاهدتِها ، والثالثُ يضاهي تسليتَها بشيءٍ قليلٍ ممَّا يميلُ إليهِ طبعُها حتَّىٰ يبقىٰ معَها مِنَ القوَّةِ ما تصبرُ بهِ على التأديبِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا تقويةُ باعثِ الدينِ . . فإنَّما تكونُ بطريقينِ :

أحدُهُما : إطماعُهُ في فوائدِ المجاهدةِ وثمراتِها في الدينِ والدنيا ، وذلكَ بأنْ يكثرَ فكرُهُ في الأخبارِ التي أوردناها في فضلِ الصبرِ ، وفي حسنِ عواقبِهِ في الدنيا والآخرةِ ، وفي الأثرِ أنَّ ثوابَ الصبرِ على المصيبةِ أكثرُ ممَّا فاتَ[2] ، وأنَّهُ بسببِ ذلكَ مغبوطٌ بالمصيبةِ ؛ إذْ فاتَهُ ما لا يبقىٰ معَهُ إلا مدَّةَ الحياةِ ، وحصلَ لهُ ما يبقىٰ بعدَ موتِهِ أبدَ الآبادِ ، ومَنْ أسلمَ خسيساً في نفيسٍ . . فلا ينبغي أنْ يحزنَ لفواتِ الخسيسِ في الحالِ .

وهٰذا مِنْ بابِ المعارفِ ، وهوَ مِنَ الإيمانِ ، فتارةً يضعفُ وتارةً

---

(١) رواه الضياء في « المختارة » (١٨٥٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٨١٩٩) .

(٢) لعله يشير إلىٰ قول ابن عباس رضي الله عنهما : (. . . ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولىٰ ، فله تسع مئة درجة) ، وهو مروي في « القوت » (١ / ١٩٨) .

يقوىٰ ، فإنْ قويَ . . قويَ باعثُ الدينِ ، وهيَّجَهُ تهييجاً شديداً ، وإنْ ضعفَ . . ضعَّفَهُ ، وإنَّما قوَّةُ الإيمانِ يُعبَّرُ عنها باليقينِ ، وهوَ المحرِّكُ لعزيمةِ الصبرِ ، وأقلُّ ما أُوتيَ الناسُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ(١) .

والثاني : أنْ يعوِّدَ هـٰذا الباعثَ مصارعةَ باعثِ الهوىٰ تدريجاً ، قليلاً قليلاً ، حتَّىٰ يدركَ لذَّةَ الظفرِ بها ، فيستجرىءَ عليها ، وتقوىٰ مُنَّتُهُ في مصارعتِها ؛ فإنَّ الاعتيادَ والممارسةَ للأعمالِ الشاقَّةِ تؤكِّدُ القوى التي تصدرُ منها تلكَ الأعمالُ ، ولذلكَ تزيدُ قوَّةُ الحمَّالينَ والفلاَّحينَ والمقاتلينَ وبالجملةِ : فقوةُ الممارسينَ للأعمالِ الشاقَّةِ تزيدُ علىٰ قوَّةِ الخيَّاطينَ والعطَّارينَ والفقهاءِ والصالحينَ ، وذلكَ لأنَّ قواهُمْ لمْ تتأكَّدْ بالممارسةِ .

فالعلاجُ الأوَّلُ يضاهي إطماعَ المصارعِ في الخلعةِ عندَ الغلبةِ ، ووعدَهُ بأنواعِ الكرامةِ ؛ كما وعدَ فرعونُ سحرتَهُ عندَ إغرائِهِ إيَّاهُمْ بموسىٰ عليهِ السلامُ حيثُ قالَ : ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

والثاني يضاهي تعويدَ الصبيِّ الذي يُرادُ منهُ المصارعةُ والمقاتلةُ بمباشرةِ أسبابِ ذلكَ منذُ الصبا حتَّىٰ يأنسَ بهِ ، ويستجرىءَ عليهِ ، وتقوىٰ فيهِ مُنَّتُهُ ، فمَنْ تركَ بالكليَّةِ المجاهدةَ بالصبرِ . . ضعفَ فيهِ باعثُ الدينِ ، ولا يقوىٰ على الشهوةِ وإنْ ضعفَتْ ، ومَنْ عوَّدَ نفسَهُ مخالفةَ الهوىٰ . . غلبَها مهما أرادَ .

فهـٰذا منهاجُ العلاجِ في جميعِ أنواعِ الصبرِ ، ولا يمكنُ استيفاؤُهُ ، وإنَّما

---

(١) قوت القلوب (١/ ٩٤) .

أشدُّها كفُّ الباطنِ عنْ حديثِ النفسِ ، وإنَّما يشتدُّ ذلكَ علىٰ مَنْ تفرَّغَ لهُ ؛ بأنْ قمعَ الشهواتِ الظاهرةَ والباطنةَ كلَّها ، وآثرَ العزلةَ ، وجلسَ للمراقبةِ والذكرِ والفكرِ ، فإنَّ الوسواسَ لا يزالُ يجاذبُهُ مِنْ جانبٍ إلىٰ جانبٍ ، وهـٰذا لا علاجَ لهُ ألبتةَ إلا قطعُ العلائقِ كلِّها ظاهراً وباطناً ؛ بالفرارِ عنِ الأهلِ والولدِ ، والمالِ والجاهِ ، والرفقاءِ والأصدقاءِ ، والاعتزالِ إلىٰ زاويةٍ بعدَ إحرازِ قدْرٍ يسيرٍ مِنَ القوتِ ، وبعدَ القناعةِ بهِ .

ثمَّ كلُّ ذلكَ لا يكفي ما لمْ تصرِ الهمومُ همّاً واحداً ، وهوَ اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ إذا غلبَ ذلكَ على القلبِ . . فلا يكفي ذلكَ ما لمْ يكنْ لهُ مجالٌ في الفكرِ ، وسيرٌ بالباطنِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وعجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وسائرِ أبوابِ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ إذا استولىٰ ذلكَ علىٰ قلبهِ . . دفعَ اشتغالُهُ بذلكَ محادثةَ[1] الشيطانِ ووسواسَهُ .

وإنْ لمْ يكنْ لهُ سيرٌ بالباطنِ . . فلا ينجيهِ إلا الأورادُ المتواصلةُ المترتبةُ في كلِّ لحظةٍ ؛ مِنَ القراءةِ ، والأذكارِ ، والصلواتِ ، ويحتاجُ معَ ذلكَ إلىٰ تكليفِ القلبِ الحضورَ ، فإنَّ الفكرَ بالباطنِ هوَ الذي يستغرقُ القلبَ دونَ الأورادِ الظاهرةِ .

ثمَّ إذا فعلَ كلَّ ذلكَ . . لمْ يسلمْ لهُ مِنَ الأوقاتِ إلا بعضُها ؛ إذْ لا يخلو في جميعِ أوقاتِهِ عنْ حوادثَ تتجدَّدُ فتشغلُهُ عنِ الفكرِ والذكرِ ؛ مِنْ مرضٍ ،

(١) في (ن) : (بذلك مجاذبة) بدل (بذلك محادثة) .

وخوفٍ ، وإيذاءٍ مِنْ إنسانٍ ، وطغيانٍ مِنْ مخالطٍ ؛ إذْ لا يستغني عنْ مخالطةِ مَنْ يعينُهُ في بعضِ أسبابِ المعيشةِ .

فهـٰذا أحدُ الأنواعِ الشاغلةِ .

وأمَّا النوعُ الثاني فهوَ ضروريٌّ أشدُّ ضرورةً مِنَ الأولِ ، وهوَ اشتغالُهُ بالمطعمِ والملبسِ وأسبابِ المعاشِ ، فإنَّ تهيئةَ ذلكَ أيضاً تحوجُ إلىٰ شغلٍ إنْ تولاَّهُ بنفسِهِ ، وإنْ تولاَّهُ غيرُهُ.. فلا يخلو عنْ شغلِ قلبٍ بمَنْ يتولاهُ ، ولكنْ بعدَ قطعِ العلائقِ كلِّها تسلمُ لهُ أكثرَ الأوقاتِ إنْ لمْ تهجمْ عليهِ ملمَّةٌ أوْ واقعةٌ ، وفي تلكَ الأوقاتِ يصفو القلبُ ، ويتيسَّرُ لهُ الفكرُ ، وينكشفُ فيهِ مِنْ أسرارِ اللهِ تعالىٰ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ما لا يقدرُ علىٰ عُشْرِ عَشيرِهِ في زمانٍ طويلٍ لوْ كانَ مشغولَ القلبِ بالعلائقِ ، والانتهاءُ إلىٰ هـٰذا هوَ أقصى المقاماتِ التي يمكنُ أنْ تُنالَ بالاكتسابِ والجهدِ .

فأمَّا مقاديرُ ما ينكشفُ ، ومبالغُ ما يردُ مِنْ لطفِ اللهِ تعالىٰ في الأحوالِ والأعمالِ.. فذلكَ يجري مَجرى الصيدِ ، وهوَ بحسبِ الرزقِ ، فقدْ يقلُّ الجهدُ ويجلُّ الصيدُ ، وقدْ يطولُ الجهدُ ويقلُّ الحظُّ ، والمعوَّلُ وراءَ هـٰذا الاجتهادِ علىٰ جذبةٍ مِنْ جذباتِ الرحمـٰنِ ، فإنَّها توازي أعمالَ الثقلينِ ، وليسَ ذلكَ باختيارِ العبدِ .

نعمِ ، اختيارُ العبدِ في أنْ يتعرَّضَ لتلكَ الجذبةِ ؛ بأنْ يقطعَ عنْ قلبِهِ جواذبَ الدنيا ، فإنَّ المجذوبَ إلىٰ أسفلِ سافلينَ لا ينجذبُ إلىٰ أعلىٰ

علِّيينَ ، وكلُّ منهومٍ بالدنيا فهوَ منجذبٌ إليها ، فقطعُ العلائقِ الجاذبةِ هوَ المرادُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ لربِّكُمْ في أيامِ دهرِكُمْ نفحاتٍ ، ألا فتعرَّضوا لها »[1] ، وذلكَ لأنَّ تلكَ النفحاتِ والجذباتِ لها أسبابٌ سماويَّةٌ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وهـٰذا مِنْ أعلىٰ أنواعِ الرزقِ ، والأمورُ السماويَّةُ غائبةٌ عنَّا ، فلا ندري متىٰ ييسِّرُ اللهُ أسبابَ الرزقِ ، فما علينا إلا تفريغُ المحلِّ والانتظارُ لنزولِ الرحمةِ وبلوغِ الكتابِ أجلَهُ ؛ كالذي يصلحُ الأرضَ وينقِّيها مِنَ الحشيشِ ، ويبثُّ البذرَ فيها ، وكلُّ ذلكَ لا ينفعُهُ إلا بمطرٍ ، ولا يدري متىٰ يقدِّرُ اللهُ أسبابَ المطرِ ، إلا أنَّهُ يثقُ بفضلِ اللهِ تعالىٰ ورحمتِهِ أنَّهُ لا يخلي سنةً عنْ مطرٍ ، فكذلكَ قلَّما تخلو سنةٌ وشهرٌ ويومٌ عنْ جذبةٍ مِنَ الجذباتِ ونفحةٍ مِنَ النفحاتِ .

فينبغي أنْ يكونَ العبدُ قدْ طهَّرَ القلبَ مِنْ حشيشِ الشهواتِ ، وبذرَ فيهِ بذرَ الإرادةِ والإخلاصِ ، وعرضَهُ لمهابِّ رياحِ الرحمةِ ، وكما يقوى انتظارُ الأمطارِ في أوقاتِ الربيعِ وعندَ ظهورِ الغيمِ . . فيقوى انتظارُ تلكَ النفحاتِ في الأوقاتِ الشريفةِ وعند اجتماعِ الهممِ وتساعدِ القلوبِ ؛ كما في يومِ عرفةَ ، ويومِ الجمعةِ ، وأيامِ رمضانَ ؛ فإنَّ الهممَ والأنفاسَ أسبابٌ بحكْمِ تقديرِ اللهِ تعالىٰ لاستدرارِ رحمتِهِ ، حتَّىٰ تستدرُّ بها الأمطارُ في أوقاتِ الاستسقاءِ ، وهي لاستدرارِ أمطارِ المكاشفاتِ ولطائفِ المعارفِ مِنْ خزائنِ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٩/ ٢٣٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٥/ ٣٣٩) بنحوه .

الملكوتِ أشدُّ مناسبةً منها لاستدرارِ قطراتِ الماءِ واستجرارِ الغيومِ مِنْ أقطارِ الجبالِ والبحارِ .

بلِ الأحوالُ والمكاشفاتُ حاضرةٌ معَكَ في قلبِكَ ، وإنَّما أنتَ مشغولٌ عنها بعلائقِكَ وشهواتِكَ ، فصارَ ذلكَ حجاباً بينَكَ وبينَها ، فلا تحتاجُ إلا إلىٰ أنْ تكسرَ البثقَ[1] ، ويُرفعَ الحجابُ ، فتُشرقُ أنوارُ المعارفِ مِنْ باطنِ القلبِ ، وإظهارُ ماءِ الأرضِ بحفرِ القُنىٰ أسهلُ وأقربُ مِنِ استنزالِ الماءِ إليها مِنْ مكانٍ بعيدٍ منخفضٍ عنها ، ولكونِهِ حاضراً في القلبِ ومنسيّاً بالشغلِ عنهُ سمَّى اللهُ تعالىٰ جميعَ معارفِ الإيمانِ تذكُّراً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

فهـٰذا هوَ علاجُ الصبرِ عنِ الوساوسِ والشواغلِ ، وهوَ آخرُ درجاتِ الصبرِ .

وإنَّما الصبرُ عنِ العلائقِ كلِّها مقدَّمٌ على الصبرِ عنِ الخواطرِ ، قالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (المسيرُ مِنَ الدنيا إلى الآخرةِ سهلٌ على المؤمنِ ، وهجرانُ الخلقِ في جنبِ الحقِّ شديدٌ ، والمسيرُ مِنَ النفسِ إلى اللهِ تعالىٰ صعبٌ شديدٌ ، والصبرُ معَ اللهِ أشدُّ)[2] .

---

(١) البثق : اسم الموضع الذي حفره الماء ، واسم للمكان المكسور ، واستعمال هـٰذه اللفظة يناسب قوله : (بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك) ، وفي (ب) : (تكسر النفس) .

(٢) رواه القشيري في « رسالته » (ص٣٢٤) .

فذكرَ شدةَ الصبرِ عنْ شواغلِ القلبِ ، ثمَّ شدةَ هجرانِ الخلقِ ، وأشدُّ العلائقِ على النفسِ علاقةُ الخلقِ وحبُّ الجاهِ ؛ فإنَّ لذةَ الرئاسةِ والغلبةِ والاستعلاءِ والاستتباعِ أغلبُ اللذاتِ في الدنيا علىٰ نفوسِ العقلاءِ ، وكيفَ لا تكونُ أغلبَ اللذاتِ ومطلوبُها صفةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالى وهيَ الربوبيةُ ؟! والربوبيةُ محبوبةٌ ومطلوبةٌ بالطبعِ للقلبِ ؛ لما فيهِ مِنَ المناسبةِ للأمورِ الربوبيةِ ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ .

وليسَ القلبُ مذموماً علىٰ حبِّهِ ذلكَ ، وإنَّما هوَ مذمومٌ علىٰ غلطٍ وقعَ لهُ بسببِ تغريرِ الشيطانِ اللعينِ المبعدِ عنْ عالمِ الأمرِ ، إذْ حسدَهُ علىٰ كونِهِ مِنْ عالمِ الأمرِ ، فأضلَّهُ وأغواهُ ، وكيفَ يكونُ مذموماً عليهِ وهوَ يطلبُ سعادةَ الآخرةِ ؟! ليسَ يطلبُ إلا بقاءً لا فناءَ فيهِ ، وعزّاً لا ذلَّ فيهِ ، وأمناً لا خوفَ فيهِ ، وغنىً لا فقرَ فيهِ ، وكمالاً لا نقصانَ فيهِ ، وهـٰذهِ كلُّها مِنْ أوصافِ الربوبيَّةِ ، وليسَ مذموماً علىٰ طلبِ ذلكَ ، بلْ حقُّ كلِّ عبدٍ أنْ يطلبَ ملكاً عظيماً لا آخرَ لهُ ، وطالبُ الملكِ طالبٌ للعلوِّ والعزِّ والكمالِ لا محالةَ ، ولكنِ الملكُ ملكانِ :

ملكٌ مشوبٌ بأنواعِ الآلامِ ، وملحوقٌ بسرعةِ الانصرامِ ، ولكنَّهُ عاجلٌ ، وهوَ في الدنيا .

وملكٌ مخلَّدٌ دائمٌ لا يشوبُهُ كدرٌ ولا ألمٌ ، ولا يقطعُهُ قاطعٌ ، ولكنَّهُ آجلٌ .

وقدْ خُلقَ الإنسانُ عجولاً راغباً في العاجلةِ ، فجاءَ الشيطانُ وتوسَّلَ إليهِ بواسطةِ العجلةِ التي في طبعِهِ ، فاستغواهُ بالعاجلةِ ، وزيَّنَ لهُ الحاضرةَ ، وتوسَّلَ إليهِ بواسطةِ الحمقِ ، فوعدَهُ بالغرورِ في الآخرةِ ، ومنَّاهُ معَ ملكِ الدنيا ملكَ الآخرةِ ، كما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ الأمانيَّ »[1] ، فانخدعَ المخذولُ بغرورِهِ ، واشتغلَ بطلبِ عزِّ الدنيا وملكِها علىٰ قدْرِ إمكانِهِ ، ولمْ يتدلَّ الموفَّقُ بحبلِ غرورِهِ ؛ إذْ علمَ مداخلَ مكْرِهِ ، فأعرضَ عنِ العاجلةِ ، فعُبِّرَ عنِ المخذولينَ وقيلَ : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ .

ولمَّا استطارَ مكرُ الشيطانِ في كافَّةِ الخلقِ . . أرسلَ اللهُ الملائكةَ إلى الرسلِ ، فأوحَوا إليهِمْ ما تمَّ على الخلقِ مِنْ إهلاكِ العدوِّ وإغوائِهِ ، فاشتغلوا بدعوةِ الخلقِ إلى الملْكِ الحقيقيِّ عنِ الملْكِ المجازيِّ الذي لا أصلَ لهُ إنْ سلمَ ، ولا دوامَ لهُ أصلاً ، فنادَوا فيهِمْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

فالتوراةُ والإنجيلُ والزبورُ والفرقانُ وصحفُ موسىٰ وإبراهيمَ وكلُّ كتابٍ منزلٍ . . ما أُنزلَ إلا لدعوةِ الخلقِ إلى الملْكِ الدائمِ المخلَّدِ ، والمرادُ منهُمْ أنْ يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرةِ ، أمَّا ملكُ الدنيا . . فبالزهدِ فيها ، والقناعةِ باليسيرِ منها ، وأمَّا ملكُ الآخرةِ . . فبالقربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بدرْكِ بقاءٍ لا فناءَ فيهِ ، وعزٍّ لا ذلَّ فيهِ ، وقرَّةِ عينٍ أُخفيَتْ في هٰذا العالمِ لا تعلمُها نفسٌ مِنَ النفوسِ .

والشيطانُ يدعوهُمْ إلىٰ ملكِ الدنيا لعلمِهِ بأنَّ ملكَ الآخرةِ يفوتُ بهِ ؛ إذِ الدنيا والآخرةُ ضرَّتانِ ، ولعلمِهِ بأنَّ الدنيا لا تسلمُ لهُ أيضاً ، ولوْ كانَتْ تسلمُ لهُ . . لكانَ يحسدُهُ أيضاً ، ولكنْ ملكُ الدنيا لا يخلو عنِ المنازعاتِ والمكدِّراتِ وطولِ الهمومِ في التدبيراتِ ، وكذا سائرُ أسبابِ الجاهِ ، ثمَّ كما تسلمُ وتتمُّ الأسبابُ ينقضي العمرُ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ ، فضربَ اللهُ تعالىٰ لها مثلاً فقالَ : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ .

والزهدُ في الدنيا لمَّا أنْ كانَ ملكاً حاضراً . . حسدَهُ الشيطانُ عليهِ ، فصدَّهُ عنهُ ، ومعنى الزهدِ : أنْ يملكَ العبدُ شهوتَهُ وغضبَهُ ، فينقادانِ لباعثِ الدينِ وإشارةِ الإيمانِ ، وهٰذا ملكٌ بالاستحقاقِ ؛ إذْ بهِ يصيرُ صاحبُهُ حرّاً ، وباستيلاءِ الشهوةِ عليهِ يصيرُ عبداً لفرجِهِ وبطنِهِ وسائرِ أغراضِهِ ، فيكونُ

مسخَّراً مثلَ البهيمةِ ، مملوكاً يستجرُّهُ زمامُ الشهوةِ آخذاً بمُخَنَّقِهِ إلىٰ حيثُ يريدُ ويهوىٰ .

فما أعظمَ اغترارَ الإنسانِ ! إذْ ظنَّ أنَّهُ ينالُ الملكَ بأنْ يصيرَ مملوكاً ، وينالُ الربوبيَّةَ بأنْ يصيرَ عبداً ! ومثلُ هـٰذا هلْ يكونُ إلا معكوساً في الدنيا ، منكوساً في الآخرةِ ؟!

ولهـٰذا قالَ بعضُ الملوكِ لبعضِ الزهَّادِ : هلْ مِنْ حاجةٍ ؟ فقالَ : كيفَ أطلبُ منكَ حاجةً وملكي أعظمُ مِنْ ملكِكَ ، فقالَ : كيفَ ؟ قالَ : مَنْ أنتَ عبدُهُ فهوَ عبدٌ لي ، فقالَ : كيفَ ذلكَ ؟ قالَ : أنتَ عبدُ شهوتِكَ وغضبِكَ وفرجِكَ وبطنِكَ ، وقدْ ملكتُ هؤلاءِ كلَّهُمْ فهُمْ عبيدٌ لي (١) .

فهـٰذا إذاً هوَ الملكُ في الدنيا ، وهوَ الذي يسوقُ إلى الملكِ في الآخرةِ ، فالمنخدعونَ بغرورِ الشيطانِ خسروا الدنيا والآخرةَ جميعاً ، والذين وُفِّقوا للاشتدادِ على الصراطِ المستقيمِ فازوا بالدنيا والآخرةِ جميعاً .

فإذا عرفتَ الآنَ معنى الملْكِ والربوبيَّةِ ، ومعنى التسخيرِ والعبوديةِ ، ومدخلَ الغلطِ في ذلكَ ، وكيفَ تعميةُ الشيطانِ وتلبيسُهُ . . يسهلُ عليكَ النزوعُ عنِ الملكِ والجاهِ والإعراضُ عنهما ، والصبرُ عندَ فواتِهما ؛ إذْ تصيرُ بتركِهما ملكاً في الحالِ ، وترجو بهِ ملْكاً في الآخرةِ .

---

(١) ومن حكي عنه هـٰذا بعد عصر المصنف الشيخُ الجليل أبو الغيث بن جميل ، انظر « الإرشاد والتطريز » (ص ١٤٢) .

ومَنْ كُوشفَ بهـٰذهِ الأمورِ بعدَ أنْ ألفَ الجاهَ وأنسَ بهِ ورسخَتْ فيهِ بالعادةِ مباشرةُ أسبابِهِ . . فلا يكفيهِ في العلاجِ مجرَّدُ العلمِ والكشفِ ، بلْ لا بدَّ وأنْ يضيفَ إليهِ العملَ ، وعملُهُ في ثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : أنْ يهربَ عنْ موضعِ الجاهِ كي لا يشاهدَ أسبابَهُ ، فيعسرَ عليهِ الصبرُ معَ الأسبابِ ؛ كما يهربُ مَنْ غلبَتْهُ الشهوةُ عنْ مشاهدةِ الصورِ المحرِّكةِ ، ومَنْ لمْ يفعلْ هـٰذا . . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ في سعةِ الأرضِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ .

الثاني : أنْ يكلِّفَ نفسَهُ في أعمالِهِ أفعالاً تخالفُ ما اعتادَهُ ، فيبدِّلُ التكلُّفَ بالتبذُّلِ ، وزيَّ الحشمةِ بزيِّ التواضعِ ، وكذلكَ كلُّ هيئةٍ وحالٍ وفعلٍ في مسكنٍ وملبسٍ ومطعمٍ وقيامٍ وقعودٍ كانَ يعتادُهُ وفاءً بمقتضىٰ جاهِهِ ، فينبغي أنْ يبدِّلَها بنقائضِها ، حتَّىٰ يرسخَ باعتيادِ ذلكَ ضدُّ ما رسخَ فيهِ مِنْ قبلُ باعتيادِ ضدِّهِ ، فلا معنىً للمعالجةِ إلا المضادَّةُ .

الثالثُ : أنْ يراعيَ في ذلكَ التلطُّفَ والتدريجَ ، فلا ينتقلَ دفعةً واحدةً إلى الطرفِ الأقصىٰ مِنَ التبذُّلِ ، فإنَّ الطبعَ نفورٌ ، ولا يمكنُ نقلُهُ عنْ أخلاقِهِ إلا بالتدريجِ ، فيتركُ البعضَ ويسلِّي نفسَهُ بالبعضِ ، ثمَّ إذا قنعَتْ نفسُهُ بذلكَ البعضِ . . ابتدأَ بتركِ البعضِ مِنْ ذلكَ البعضِ ، إلىٰ أنْ يقنعَ بالبقيَّةِ ، وهـٰكذا يفعلُ شيئاً فشيئاً ، إلىٰ أنْ يقمعَ تلكَ الصفاتِ التي رسخَتْ فيهِ .

وإلىٰ هـٰذا التدريجِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ هـٰذا الدِّينَ

متينٌ ، فأوغلْ فيهِ برفقٍ ، ولا تبغِّضْ إلىٰ نفسِكَ عبادةَ اللهِ ؛ فإنَّ المنبتَّ لا أرضاً قطعَ ولا ظهراً أبقىٰ »[1] .

وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا تشاذُّوا هٰذا الدينَ ؛ فإنَّ مَنْ يشادُّهُ يغلبْهُ »[2] .

فإذاً ؛ ما ذكرناهُ في علاجِ الصبرِ عنِ الوسواسِ وعنِ الشهوةِ وعنِ الجاهِ . . أضفْهُ إلىٰ ما ذكرناهُ مِنْ قوانينِ طرقِ المجاهدةِ في كتابِ رياضةِ النفسِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ واتخذْهُ دستورَكَ ؛ لتعرفَ بهِ علاجَ الصبرِ في جميعِ الأقسامِ التي فصلناها مِنْ قبلُ ؛ فإنَّ تفصيلَ الآحادِ يطولُ ، ومَنْ راعى التدريجَ . . ترقَّىٰ بهِ الصبرُ إلىٰ حالةٍ يشقُّ عليهِ الصبرُ دونَهُ كما كانَ يشقُّ عليهِ الصبرُ معَهُ ، فتنعكسُ أمورُهُ ، فيصيرُ ما كانَ محبوباً عندَهُ ممقوتاً ، وما كانَ مكروهاً عندَهُ مشرباً هنيئاً لا يصبرُ عنهُ ، وهٰذا لا يُعرفُ إلا بالتجربةِ والذوقِ ، ولهُ نظيرٌ في العاداتِ ، فإنَّ الصبيَّ يُحملُ على التعلُّمِ في الابتداءِ قهراً ، فيشقُّ عليهِ الصبرُ عنِ اللعبِ والصبرُ معَ العلمِ ، حتَّىٰ إذا انفتحَتْ بصيرتُهُ وأنسَ بالعلمِ . . انقلبَ الأمرُ ، فصارَ يشقُّ عليهِ الصبرُ عنِ العلمِ والصبرُ على اللعبِ .

وإلىٰ هٰذا يشيرُ ما حُكِيَ عنْ بعضِ العارفينَ أنَّهُ سألَ الشبليَّ عنِ الصبرِ :

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٦٠٢) .
(٢) رواه البخاري (٣٩) بنحوه .

أيُّهُ أشدُّ ؟ فقالَ : الصبرُ في اللهِ تعالىٰ ، فقالَ : لا ، فقالَ : الصبرُ للهِ ، قالَ : لا ، قالَ : الصبرُ معَ اللهِ ، قالَ : لا ، قالَ : فأيشٍ ؟ قالَ : الصبرُ عنِ اللهِ ، فصرخَ الشبليُّ صرخةً كادَتْ روحُهُ تتلفُ(١) .

وقدْ قيلَ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ : (اصبروا في اللهِ ، وصابروا باللهِ ، ورابطوا معَ اللهِ)(٢) .

وقيلَ : (الصبرُ للهِ عناءٌ(٣) ، والصبرُ باللهِ بقاءٌ ، والصبرُ معَ اللهِ وفاءٌ ، والصبرُ عنِ اللهِ جفاءٌ)(٤) .

وقدْ قيلَ في معناهُ(٥) : [من البسيط]

وَٱلصَّبْرُ عَنْكَ فَمَذْمُومٌ عَواقِبُهُ ... وَٱلصَّبْرُ فِي سائِرِ ٱلأَشْياءِ مَحْمُودُ

وقيلَ أيضاً(٦) : [من الرجز]

اَلصَّبْرُ يَجْمُلُ فِي ٱلْمَواطِنِ كُلِّها ... إلاَّ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لا يَجْمُلُ

هـٰذا آخرُ ما أردنا شرحَهُ مِنْ علومِ الصبرِ وأسرارِهِ .

* * *

---

(١) الخبر عند الطوسي في « اللمع » (ص٧٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٢٦) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص٣٢٧) .
(٣) في غير (ب ، د) : (غنىً) بدل (عناء) .
(٤) الرسالة القشيرية (ص٣٢٧) .
(٥) البيت للحلاج . انظر « ذيل تاريخ بغداد » لابن النجار (١٩/ ٨٩) .
(٦) البيت للشبلي في « ديوانه » (ص١١٩) .

الشَّطرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب
في الشّكر

ولهُ ثلاثةُ أركانٍ :

الركنُ الأوَّلُ : في فضيلةِ الشكرِ وحقيقتِهِ ، وأقسامِهِ وأحكامِهِ .

الركنُ الثاني : في حقيقةِ النعمةِ ، وأقسامِها الخاصَّةِ والعامَّةِ .

الركنُ الثالثُ : في بيانِ الأفضلِ مِنَ الصبرِ والشكرِ .

الرّكن الأوّل : في نفس الشّكر

بيان فضيلة الشّكر

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ قرنَ الشكرَ بالذكرِ في كتابِهِ معَ أنَّه قالَ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ إخباراً عنْ إبليسَ اللعينِ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، قيلَ : هوَ طريقُ الشكرِ[1] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠٣) .

ولعلوِّ رتبةِ الشكرِ طعنَ اللعينُ في الخلقِ فقالَ : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

وقدْ قطعَ اللهُ تعالىٰ بالمزيدِ معَ الشكرِ ولمْ يستثنِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ، واستثنىٰ في خمسةِ أشياءَ ؛ في الإغناءِ ، والإجابةِ ، والرزقِ ، والمغفرةِ ، والتوبةِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ .

وهوَ خلقٌ مِنْ أخلاقِ الربوبيّةِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وقدْ جعلَ اللهُ الشكرَ مفتاحَ كلامِ أهلِ الجنةِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

❁ ❁ ❁

وأمّا الأخبار :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الطاعمُ الشاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصابرِ »[1] .

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (١٧٦٤) .

ورُوِيَ عنْ عطاءٍ أنَّهُ قالَ : دخلتُ علىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها فقلتُ : أخبرينا بأعجبِ ما رأيتِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبكَتْ وقالَتْ : وأيُّ شأنِهِ لمْ يكنْ عجباً ؟! إنَّهُ أتاني ليلةً فدخلَ معي في فراشي ـ أوْ قالَتْ : في لحافي ـ حتَّىٰ مسَّ جلدُهُ جلدِي ، ثمَّ قالَ : « يا بنةَ أبي بكرٍ ؛ ذريني أتعبَّدُ لربِّي ؟ » ، قالَتْ : قلتُ : إنِّي أحبُّ قربَكَ لكنِّي أوثرُ هواكَ ، فأذنتُ لهُ ، فقامَ إلىٰ قربةِ ماءٍ ، فتوضَّأَ فلمْ يكثرْ صبَّ الماءِ ، ثمَّ قامَ يصلِّي ، فبكىٰ حتَّىٰ سالَتْ دموعُهُ علىٰ صدرِهِ ، ثمَّ ركعَ فبكىٰ ، ثمَّ سجدَ فبكىٰ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ فبكىٰ ، فلمْ يزلْ كذلكَ حتَّىٰ جاءَ بلالٌ فآذنَهُ بالصلاةِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما يبكيكَ وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ؟ قالَ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً ، ولمَ لا أفعلُ وقدْ أنزلَ اللهُ تعالىٰ عليَّ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . . ﴾ الآياتِ ؟! »[1] .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ البكاءَ ينبغي ألا ينقطعَ أبداً ، وإلىٰ هـٰذا السرِّ يشيرُ ما رُوِيَ أنَّهُ مرَّ بعضُ الأنبياءِ بحجرٍ صغيرٍ يخرجُ منهُ ماءٌ كثيرٌ ، فتعجَّبَ منهُ ، فأنطقَهُ اللهُ تعالىٰ فقالَ : منذُ سمعتُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ فأنا أبكي مِنْ خوفِهِ ، فسألَهُ أنْ يجيرَهُ مِنَ النارِ ، فأجارَهُ ، ثمَّ رآهُ بعدَ مدَّةٍ

---

(١) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٥٢١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣١٠) ، عن عطاء ومعه عبيد بن عمير رحمهما الله تعالىٰ ، ورواه مختصراً من حديثها رضي الله عنها مسلم (٢٨٢٠) .

مثلَ ذلكَ ، فقالَ : لِمَ تبكي الآنَ ؟ فقالَ : ذلكَ بكاءُ الخوفِ ، وهٰذا بكاءُ الشكرِ والسرورِ[1] .

وقلبُ العبدِ كالحجارةِ أوْ أشدُّ قسوةً ، ولا تزولُ قسوتُهُ إلا بالبكاءِ في حالِ الخوفِ والشكرِ جميعاً .

ورُوِيَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُنادىٰ يومَ القيامةِ : ليقمِ الحمَّادونَ ، فتقومُ زمرةٌ ، فيُنصبُ لهُمْ لواءٌ فيدخلونَ الجنَّةَ » ، قيلَ : ومَنِ الحمَّادونَ ؟ قالَ : « الذينَ يشكرونَ اللهَ تعالىٰ علىٰ كلِّ حالٍ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « على السرَّاءِ والضرَّاءِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحمدُ رداءُ الرحمٰنِ »[3] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ أيوبَ عليهِ السلامُ : (إنِّي رضيتُ بالشكرِ مكافأةً مِنْ أوليائي) في كلامٍ طويلٍ[4] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ أيضاً في صفةِ الصابرينَ : (دارُهُمْ دارُ السلامِ ،

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣١٤) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٦) بالروايتين ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٦٩) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٥) حيث قال : (وفي الخبر . . .) ، ورواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١/ ٢٦) عن الضحاك ولم يرفعه ، وتقدم : « الكبرياء رداؤه » .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٠٣) .

إذا دخلوها . . ألهمتُهُمُ الشكرَ وهوَ خيرُ الكلامِ ، وعندَ الشكرِ أستزيدُهُمْ ، وبالنظرِ إليَّ أزيدُهُمْ)[1] .

ولمَّا نزلَ في الكنوزِ ما نزلَ[2] . . قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : فأيَّ المالِ نتخذُ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليتخذْ أحدُكُمْ لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً »[3] ، فأمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ باقتناءِ القلبِ الشاكرِ بدلاً مِنَ المالِ .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (الشكرُ نصفُ الإيمانِ)[4] .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠٤) .

(٢) وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . « إتحاف » (٩/ ٤٨) .

(٣) رواه الترمذي (٣٠٩٤) ، وابن ماجه (١٨٥٦) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٠٣) .

بيان حدّ الشكر وحقيقته

اعلمْ : أنَّ الشكرَ مِنْ جملةِ مقاماتِ السالكينَ ، وهوَ أيضاً ينتظمُ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، فالعلمُ هوَ الأصلُ ، فيورثُ الحالَ ، والحالُ يورثُ العملَ .

أمَّا العلمُ : فهوَ معرفةُ النعمةِ مِنَ المنعِمِ ، **والحالُ** : هوَ الفرحُ الحاصلُ بإنعامِهِ ، **والعملُ** : هوَ القيامُ بما هوَ مقصودُ المنعِمِ ومحبوبُهُ ، ويتعلَّقُ ذلكَ العملُ بالقلبِ وبالجوارحِ وباللسانِ ، ولا بدَّ مِنْ بيانِ جميعِ ذلكَ ليحصلَ بمجموعِهِ الإحاطةُ بحقيقةِ الشكرِ ، فإنَّ كلَّ ما قيلَ في حدِّ الشكرِ قاصرٌ عنِ الإحاطةِ بكمالِ معانيهِ .

❀ ❀ ❀

فالأصلُ الأوَّلُ : العلمُ :

وهوَ علمٌ بثلاثةِ أمورٍ : بعينِ النعمةِ ، ووجهِ كونِها نعمةً في حقِّهِ ، وبذاتِ المنعمِ ووجودِ صفاتِهِ التي بها يتمُّ الإنعامُ ويصدرُ الإنعامُ منهُ عليهِ ، فإنَّهُ لا بدَّ مِنْ نعمةٍ ومنعِمٍ ومنعَمٍ عليهِ تصلُ إليهِ النعمةُ مِنَ المنعِمِ بقصدٍ وإرادةٍ ، فهٰذهِ الأمورُ لا بدَّ مِنْ معرفتِها ، هٰذا في حقِّ غيرِ اللهِ تعالىٰ .

فأمَّا في حقِّ اللهِ تعالىٰ . . فلا يتمُّ الإيمانُ إلا بأنْ يعرفَ أنَّ النعمَ كلَّها مِنَ اللهِ ، وأنَّهُ هوَ المنعمُ ، والوسائطَ مسخرونَ مِنْ جهتِهِ ، وهٰذهِ المعرفةُ وراءَ التقديسِ والتوحيدِ ؛ إذْ دخلَ التقديسُ والتوحيدُ فيها ، بلِ الرتبةُ الأولىٰ

في معارفِ الإيمانِ التقديسُ ، ثمَّ إذا عرفَ ذاتاً مقدسةً .. فيعرفُ أنَّهُ لا مقدَّسَ إلا واحدٌ ، وما عداهُ غيرُ مقدَّسٍ ، وهوَ التوحيدُ ، ثمَّ يعلمُ أنَّ كلَّ ما في العالمِ فهوَ موجودٌ مِنْ ذلكَ الواحدِ فقطْ ، فالكلُّ نعمةٌ منهُ ، فتقعُ هـٰذهِ المعرفةُ في الرتبةِ الثالثةِ ؛ إذْ ينطوي فيها معَ التقديسِ والتوحيدِ كمالُ القدرةِ والانفرادُ بالفعلِ ، وعنْ هـٰذا عبَّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « مَنْ قالَ : سبحانَ اللهِ .. فلهُ عشرُ حسناتٍ ، ومَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ .. فلهُ عشرونَ حسنةً ، ومَنْ قالَ : الحمدُ للهِ .. فلهُ ثلاثونَ حسنةً »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفضلُ الذكرِ لا إلـٰه إلا اللهُ ، وأفضلُ الدعاءِ الحمدُ للهِ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليسَ شيءٌ مِنَ الأذكارِ يُضاعفُ كما يُضاعفُ الحمدُ للهِ »[3] .

ولا تظنَّنَّ أنَّ هـٰذهِ الحسناتِ بإزاءِ تحريكِ اللسانِ بهـٰذهِ الكلماتِ مِنْ غيرِ حصولِ معانيها في القلبِ ، فسبحانَ اللهِ كلمةٌ تدلُّ على التقديسِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ كلمةٌ تدلُّ على التوحيدِ ، والحمدُ للهِ كلمةٌ تدلُّ على معرفةِ النعمةِ مِنَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠٥) .
(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٣) ، وابن ماجه (٣٨٠٠) .
(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٥) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٨٣) من كلام إبراهيم النخعي بلفظ : (إن الحمد لله أكثر الكلام تضعيفاً) .

الواحدِ الحقِّ ، فالحسناتُ بإزاءِ هـٰذهِ المعارفِ التي هيَ مِنْ أبوابِ الإيمانِ واليقينِ .

واعلمْ : أنَّ تمامَ هـٰذهِ المعرفةِ ينفي الشركَ في الأفعالِ ، فمَنْ أنعمَ عليهِ ملكٌ مِنَ الملوكِ بشيءٍ ؛ فإنْ رأىٰ لوزيرِهِ أوْ لوكيلِهِ دخلاً في تيسيرِ ذلكَ وإيصالِهِ إليهِ . . فهوَ إشراكٌ بهِ في النعمةِ ، فلا يرى النعمةَ مِنَ الملكِ مِنْ كلِّ وجهٍ ، بلْ منهُ بوجهٍ ، ومنْ غيرِهِ بوجهٍ ، فيتوزَّعُ فرحُهُ عليهما ، فلا يكونُ موحداً في حقِّ الملكِ .

نعمْ ، لا يغضُّ مِنْ توحيدِهِ في حقِّ الملكِ وكمالِ شكرِهِ أنْ يرى النعمةَ الواصلةَ إليهِ بتوقيعِهِ الذي كتبَهُ بقلمِهِ ، وبالكاغدِ الذي كتبَهُ عليهِ ، فإنَّهُ لا يفرحُ بالقلمِ والكاغدِ ولا يشكرُهُما ؛ لأنَّهُ لا يثبتُ لهما دخلاً مِنْ حيثُ هما موجودانِ بأنفسِهِما ، بلْ مِنْ حيثُ هما مسخَّرانِ تحتَ قدرةِ الملكِ ، وقدْ يعلمُ أنَّ الوكيلَ الموصلَ والخازنَ أيضاً مضطرانِ مِنْ جهةِ الملكِ في الإيصالِ ، وأنَّهُ لوْ ردَّ الأمرَ إليهِ ولمْ يكنْ مِنْ جهةِ الملكِ إرهاقٌ وأمرٌ جزْمٌ يخافُ عاقبتَهُ . . لما سلَّمَ إليهِ شيئاً ، فإذا عرفَ ذلكَ . . كانَ نظرُهُ إلى الخازنِ الموصلِ كنظرِهِ إلى القلمِ والكاغدِ ، فلا يورثُ ذلكَ شركاً في توحيدِهِ مِنْ إضافةِ النعمةِ إلى الملكِ .

وكذلكَ مَنْ عرفَ اللهَ سبحانَهُ وعرفَ أفعالَهُ . . علمَ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخَّراتٌ بأمرِهِ كالقلمِ مثلاً في يدِ الكاتبِ ، وأنَّ الحيواناتِ التي لها

اختيارٌ مسخَّراتٌ في نفسِ اختيارِها ، فإنَّ اللهَ هوَ المسلِّطُ للدواعي عليها لتفعلَ شاءَتْ أمْ أبتْ ؛ كالخازنِ المضطرِّ الذي لا يجدُ سبيلاً إلىٰ مخالفةِ الملكِ ، ولوْ خُلِّيَ ونفسَهُ . . لما أعطاكَ ذرَّةً ممَّا في يدِهِ ، فكلُّ مَنْ وصلَ إليكَ نعمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ علىٰ يدِهِ فهوَ مضطرٌّ ؛ إذْ سلَّطَ اللهُ تعالىٰ عليهِ الإرادةَ وهيَّجَ عليهِ الدواعيَ ، وألقىٰ في نفسِهِ أنَّ خيرَهُ في الدنيا والآخرةِ في أنْ يعطيَكَ ما أعطاكَ ، وأنَّ غرضَهُ المقصودَ عندَهُ في الحالِ والمآلِ لا يحصلُ إلا بهِ ، وبعدَ أنْ خلقَ اللهُ لهُ هـٰذا الاعتقادَ . . فلا يجدُ سبيلاً إلىٰ تركِهِ ، فهوَ إذاً إنَّما يعطيكَ لغرضِ نفسِهِ لا لغرضِكَ ، ولوْ لمْ يكنْ غرضُهُ في العطاءِ . . لما أعطاكَ ، ولوْ لمْ يعلمْ أنَّ منفعتَهُ في منفعتِكَ . . لما نفعَكَ ، فهوَ إذاً إنَّما يطلبُ نفعَ نفسِهِ بنفعِكَ ، فليسَ منعماً عليكَ ، بلِ اتخذَكَ وسيلةً إلىٰ نعمةٍ أخرىٰ هوَ يرجوها ، وإنَّما الذي أنعمَ عليكَ هوَ الذي سخَّرَهُ لكَ ، وألقىٰ في قلبِهِ مِنَ الاعتقاداتِ والإراداتِ ما صارَ بهِ مضطراً إلى الإيصالِ إليكَ .

فإنْ عرفتَ الأمورَ كذلكَ . . فقدْ عرفتَ اللهَ وعرفتَ فعلَهُ ، وكنتَ موحِّداً ، وقدرتَ علىٰ شكرِهِ ، بلْ كنتَ بهـٰذهِ المعرفةِ بمجرَّدِها شاكراً .

ولذلكَ قالَ موسىٰ عليهِ السلامُ في مناجاتِهِ : إلـٰهي ؛ خلقتَ آدمَ بيدِكَ ، وفعلتَ وفعلتَ ، فكيفَ شكرَكَ ؟ فقالَ : علمَ أنَّ كلَّ ذلكَ منِّي ، فكانَتْ معرفتُهُ شكراً[1] .

---

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص٣١٣) ، ورواه بنحوه هناد في « الزهد » (٧٧٧) .

فإذاً ؛ لا شكرَ إلا بأنْ تعرفَ أنَّ الكلَّ منهُ ، فإنْ خالجَكَ ريبٌ في هٰذا . . لمْ تكنْ عارفاً لا بالنعمةِ ولا بالمنعمِ ، فلا تفرحُ بالمنعمِ وحدَهُ بلْ بغيرِهِ ، فبنقصانِ معرفتِكَ ينقصُ حالُكَ في الفرحِ ، وبنقصانِ فرحِكَ ينقصُ عملُكَ .

فهٰذا بيانُ هٰذا الأصلِ .

❊ ❊ ❊

الأصلُ الثاني : الحالُ المستمدَّةُ مِنْ أصلِ المعرفةِ :

وهوَ الفرحُ بالمنعمِ معَ هيئةِ الخضوعِ والتواضعِ ، وهوَ أيضاً في نفسِهِ شكرٌ علىٰ تجرُّدِهِ ؛ كما أنَّ المعرفةَ شكرٌ ، ولكنْ إنَّما يكونُ شكراً إذا كانَ جامعاً شروطَهُ ، وشرطُهُ أنْ يكونَ فرحُكَ بالمنعمِ لا بالنعمةِ ولا بالإنعامِ ، ولعلَّ هٰذا ممَّا يتعذَّرُ عليكَ فهمُهُ ، فنضربُ لكَ مثلاً فنقولُ :

الملكُ الذي يريدُ الخروجَ إلىٰ سفرٍ فأنعمَ بفرسٍ علىٰ إنسانٍ يُتصوَّرُ أنْ يفرحَ المنعَمُ عليهِ بالفرسِ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنْ يفرحَ بالفرسِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فرسٌ ، وإنَّهُ مالٌ يُنتفعُ بهِ ، ومركوبٌ يوافقُ غرضَهُ ، وإنَّهُ جوادٌ نفيسٌ ، وهٰذا فرحُ مَنْ لا حظَّ لهُ في الملكِ ، بلْ غرضُهُ الفرسُ فقطْ ، ولوْ وجدَهُ في صحراءَ فأخذَهُ . . لكانَ فرحُهُ مثلَ هٰذا الفرحِ .

الوجهُ الثاني : أنْ يفرحَ بهِ لا مِنْ حيثُ إنَّهُ فرسٌ ، بلْ مِنْ حيثُ يستدلُّ بهِ علىٰ عنايةِ الملكِ بهِ وشفقتِهِ عليهِ واهتمامِهِ بجانبِهِ ، حتَّىٰ لوْ وجدَ هٰذا

الفرسَ في صحراءَ أوْ أعطاهُ إيّاهُ غيرُ الملكِ . . لكانَ لا يفرحُ بهِ أصلاً ؛ لاستغنائِهِ عنِ الفرسِ أصلاً ، واستحقارِهِ لهُ بالإضافةِ إلىٰ مطلوبِهِ مِنْ نيلِ المحلِّ في قلبِ الملكِ .

الوجهُ الثالثُ : أنْ يفرحَ بهِ ليركبَهُ فيخرجَ في خدمةِ الملكِ ويحتملَ مشقَّةَ السفرِ لينالَ بخدمتِهِ رتبةَ القرْبِ منهُ ، وربَّما يرتقي إلىٰ درجةِ الوزارةِ ، مِنْ حيثُ إنَّهُ ليسَ يقنعُ بأنْ يكونَ محلُّهُ في قلبِ الملكِ أنْ يعطيَهُ فرساً ويُعنىٰ بهِ هـٰذا القدرَ مِنَ العنايةِ ، بلْ هوَ طالبٌ لئلا ينعمَ الملكُ بشيءٍ مِنْ مالِهِ علىٰ أحدٍ إلا بواسطتِهِ ، ثمَّ إنَّهُ ليسَ يريدُ مِنَ الوزارةِ الوزارةَ أيضاً ، بلْ يريدُ مشاهدةَ الملكِ والقرْبَ منهُ ، حتَّىٰ لوْ خُيِّرَ بينَ القرْبِ دونَ الوزارةِ ، وبينَ الوزارةِ دونَ القربِ . . لاختارَ القرْبَ .

فهـٰذهِ ثلاثُ درجاتٍ .

فالأولىٰ لا يدخلُ فيها معنى الشكرِ أصلاً ؛ لأنَّ نظرَ صاحبِها مقصورٌ على الفرسِ ، ففرحُهُ بالفرسِ لا بالمعطي ، وهـٰذا حالُ كلِّ مَنْ فرحَ بنعمةٍ مِنْ حيثُ إنَّها لذيذةٌ وموافقةٌ لغرضِهِ ، فهوَ بعيدٌ عنْ معنى الشكرِ .

والثانيةُ داخلةٌ في معنى الشكرِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فرحٌ بالمنعِمِ ، ولكنْ لا مِنْ حيثُ ذاتُهُ ، بلْ مِنْ حيثُ معرفةُ عنايتِهِ التي تستحثُّهُ على الإنعامِ في المستقبلِ ، وهـٰذا حالُ الصالحينَ الذينَ يعبدونَ اللهَ ويشكرونَهُ خوفاً مِنْ عقابِهِ ورجاءً لثوابِهِ .

وإنَّما الشكرُ التامُّ في الفرحِ الثالثِ ، وهوَ أنْ يكونَ فرحُ العبدِ بنعمةِ اللهِ

مِنْ حيثُ إنَّهُ يقدرُ بها على التوصُّلِ إلى القرْبِ منهُ تعالىٰ والنزولِ في جوارِهِ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ على الدوامِ ، فهٰذا هوَ الرتبةُ العليا ، **وأمارتُهُ** : ألا يفرحَ مِنَ الدنيا إلا بما هوَ مزرعةُ الآخرةِ ويعينُهُ عليها ، ويحزنَ بكلِّ نعمةٍ تلهيهِ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وتصدُّهُ عنْ سبيلِهِ ؛ لأنَّهُ ليسَ يريدُ النعمةَ لأنَّها لذيذةٌ كما لمْ يردْ صاحبُ الفرسِ الفرسَ لأنَّهُ جوادٌ ومهملجٌ[١] ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ يحملُهُ في صحبةِ الملكِ حتَّىٰ تدومَ مشاهدتُهُ لهُ وقربُهُ منهُ ، ولذلكَ قالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ : (الشكرُ رؤيةُ المنعِمِ لا رؤيةُ النعمةِ)[٢] .

وقالَ الخوَّاصُ : (شكرُ العامَّةِ على المطعمِ والملبسِ والمشربِ ، وشكرُ الخاصَّةِ علىٰ وارداتِ القلوبِ)[٣] .

وهٰذهِ رتبةٌ لا يدركُها كلُّ مَنِ انحصرَتْ عندَهُ اللذَّاتُ في البطنِ والفرجِ ومدركاتِ الحواسِّ مِنَ الألوانِ والأصواتِ وخلا عنْ لذَّةِ القلبِ ، فإنَّ القلبَ لا يلتذُّ في حالِ الصحةِ إلا بذكرِ اللهِ تعالىٰ ومعرفتِهِ ولقائِهِ ، وإنَّما يلتذُّ بغيرِهِ إذا مرضَ بسوءِ العاداتِ كما يلتذُّ بعضُ الناسِ بأكلِ الطينِ ، وكما يستبشعُ بعضُ المرضى الأشياءَ الحلوةَ ويستحلي الأشياءَ المرَّةَ ، كما قيلَ[٤] :		[من الوافر]

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ		يَجِدْ مُرّاً بِهِ ٱلْماءَ ٱلزُّلالا

---

(١) **المهملج** : لفظة فارسية ، السريع السير في بخترة وحسن .
(٢) الرسالة القشيرية (ص٣١٢) .
(٣) الرسالة القشيرية (ص٣١٢) .
(٤) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٢٢٨) .

فإذاً ؛ هٰذا شرطُ الفرحِ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ لمْ تكنْ إبلٌ . . فمِعْزىً ، فإنْ لمْ يكنْ هٰذا . . فالدرجةُ الثانيةُ ، أمَّا الأولىٰ . . فخارجةٌ عنْ كلِّ حسابٍ ، فكمْ مِنْ فرقٍ بينَ مَنْ يريدُ الملكَ للفرسِ ، ومَنْ يريدُ الفرسَ للملكِ ، وكمْ مِنْ فرقٍ بينَ مَنْ يريدُ اللهَ لينعمَ عليهِ ، وبينَ مَنْ يريدُ نعمَ اللهِ ليصلَ بها إليهِ .

❁ ❁ ❁

الأصلُ الثالثُ : العملُ بموجَبِ الفرحِ الحاصلِ مِنْ معرفةِ المنعمِ :

وهٰذا العملُ يتعلَّقُ بالقلبِ ، وباللسانِ ، وبالجوارحِ .

أمَّا بالقلبِ . . فقصدُ الخيرِ وإضمارُهُ لكافَّةِ الخلقِ .

وأمَّا باللسانِ . . فإظهارُ الشكرِ للهِ تعالىٰ بالتحميداتِ الدالَّةِ عليهِ .

وأمَّا بالجوارحِ . . فاستعمالُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في طاعتِهِ ، والتوقي مِنَ الاستعانةِ بها علىٰ معصيتِهِ ، حتَّىٰ إنَّ شكرَ العينينِ أنْ تسترَ كلَّ عيبٍ تراهُ لمسلمٍ ، وشكرَ الأذنينِ أنْ تسترَ كلَّ عيبٍ تسمعُهُ فيهِ ، فيدخلُ هٰذا في جملةِ شكرِ النعمِ لهٰذهِ الأعضاءِ ، والشكرُ باللسانِ لإظهارِ الرضا عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ مأمورٌ بهِ ؛ فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « كيفَ أصبحتَ ؟» فقالَ : بخيرٍ ، فأعادَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ السؤالَ ، فأعادَ الرجلُ الجوابَ ، حتَّىٰ قالَ في الثالثةِ : بخيرٍ أحمدُ اللهَ وأشكرُهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : «هٰذا الذي أردتُ منكَ»[1] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٤) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٣٧) ، والطبراني في « الدعاء » (١٩٣٩) من حديث فضيل بن عمرو معضلاً بنحوه ، ورواه في =

وكانَ السلفُ يتساءلونَ ونيَّتُهُمْ استخراجُ الشكرِ للهِ تعالىٰ ؛ ليكونَ الشاكرُ مطيعاً ، والمستنطقُ لهُ بهِ مطيعاً ، وما كانَ قصدُهُمُ الرياءَ بإظهارِ الشوقِ[1] .

وكلُّ عبدٍ سُئِلَ عنْ حالٍ فهوَ بينَ أنْ يشكرَ أوْ يشكوَ أوْ يسكتَ ، فالشكرُ طاعةٌ ، والشكوىٰ معصيةٌ قبيحةٌ مِنْ أهلِ الدينِ ، وكيفَ لا تقبحُ الشكوىٰ مِنْ ملكِ الملوكِ وبيدِهِ كلُّ شيءٍ إلىٰ عبدٍ مملوكٍ لا يقدرُ علىٰ شيءٍ ؟! فالأحرىٰ بالعبدِ إنْ لمْ يحسنِ الصبرَ على البلاءِ والقضاءِ ، وأفضىٰ بهِ الضعفُ إلى الشكوىٰ . أنْ تكونَ شكواهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فهوَ المبلي وهوَ القادرُ علىٰ إزالةِ البلاءِ ، وذلُّ العبدِ لمولاهُ عزٌّ ، والشكوىٰ إلى غيرِهِ ذلٌّ ، وإظهارُ الذلِّ للعبيدِ معَ كونِهِمْ أذلاَّءَ قبيحٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ .

فالشكرُ باللسانِ مِنْ جملةِ الشكرِ .

وقدْ رُوِيَ أنَّ وفداً قدموا علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ ، فقامَ شابٌّ ليتكلَّمَ ، فقالَ عمرُ : الكبرَ الكبرَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ لوْ كانَ

= « الأوسط » (٤٣٧٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وليس فيه ذكر تكرار السؤال .

(١) فقد روىٰ مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٦١) عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب ، وسلَّمَ عليه رجل فردَّ عليه السلام ، ثم سأل عمرُ الرجلَ : كيف أنت ؟ فقال : أحمد إليك الله ، فقال عمر : ذلك الذي أردت منك .

الأمرُ بالسنِّ.. لكانَ في المسلمينَ مَنْ هوَ أسنُّ منكَ ، فقالَ : تكلَّمْ ، فقالَ : لسنا وفدَ الرغبةِ ، ولا وفدَ الرهبةِ ، أمَّا الرغبةُ.. فقدْ أوصلَها إلينا فضلُكَ ، وأمَّا الرهبةُ.. فقدْ آمَنَنا منها عدلُكَ ، وإنَّما نحنُ وفدُ الشكرِ ، جئناكَ نشكرُكَ باللسانِ وننصرفُ[1] .

فهٰذهِ هيَ أصولُ معاني الشكرِ المحيطةُ بمجموعِ حقيقتِهِ .

❁ ❁ ❁

فأمَّا قولُ مَنْ قالَ : (إنَّ الشكرَ هوَ الاعترافُ بنعمةِ المنعمِ علىٰ وجهِ الخضوعِ)[2] .. فهوَ نظرٌ إلىٰ فعلِ اللسانِ معَ بعضِ أحوالِ القلبِ .

وقولُ مَنْ قالَ : (إنَّ الشكرَ هوَ الثناءُ على المحسنِ بذكرِ إحسانِهِ)[3] نظرٌ إلىٰ مجرَّدِ عملِ اللسانِ .

وقولُ القائلِ : (إنَّ الشكرَ هوَ اعتكافٌ علىٰ بساطِ الشهودِ بإدامةِ حفظِ الحرمةِ)[4] جامعٌ لأكثرِ معاني الشكرِ ، لا يشذُّ منهُ إلا عملُ اللسانِ .

وقولُ حمدونِ القصارِ : (شكرُ النعمةِ أنْ ترىٰ نفسَكَ في الشكرِ طفيلياً)[5]

---

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (٨/ ١٣٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ١٩٤) ، وكذا أورده القشيري في « رسالته » (ص٣١٤) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص٣١١) .

(٣) هٰذا ما جعله حقيقة الشكر الإمام القشيري في تفسيره « لطائف الإشارات » (١/ ٣٨٠) ، وأورده في « رسالته » (ص٣١١) .

(٤) وهو شكر القلب كما أورده القشيري في « رسالته » (ص٣١١) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص٣١١) .

إشارةٌ إلىٰ أنَّ معنى المعرفةِ مِنْ معاني الشكرِ فقطْ .

وقولُ الجنيدِ : (الشكرُ ألاَّ ترىٰ نفسَكَ أهلاً للنعمةِ)[1] إشارةٌ إلىٰ حالٍ مِنْ أحوالِ القلبِ على الخصوصِ .

وهؤلاءِ أقوالُهُمْ تعربُ عنْ أحوالِهِمْ ، ولذلكَ تختلفُ أجوبتُهُمْ ولا تتفقُ ، ثمَّ قدْ يختلفُ جوابُ كلِّ واحدٍ في حالتينِ ؛ لأنَّهُمْ لا يتكلَّمونَ إلا عنْ حالتِهِمُ الراهنةِ الغالبةِ عليهِمُ ؛ اشتغالاً بما يهمُّهُمْ عمَّا لا يهمُّهُمْ ، أوْ يتكلَّمونَ بما يرونَهُ لائقاً بحالِ السائلِ ؛ اقتصاراً علىٰ ذكرِ القدْرِ الذي يحتاجُ إليهِ ، وإعراضاً عمَّا لا يحتاجُ إليهِ ، فلا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ ما ذكرناهُ طعنٌ عليهِمْ ، وأنَّهُ لوْ عُرِضَ عليهِمْ جميعُ المعاني التي شرحناها.. كانوا ينكرونَها ، بلْ لا يُظَنُّ ذلكَ بعاقلٍ أصلاً ، إلا أنْ تُفرضَ منازعةٌ مِنْ حيثُ اللفظُ في أنَّ اسمَ الشكرِ في وضعِ اللسانِ هلْ يشملُ جميعَ المعاني ، أمْ يتناولُ بعضَها مقصوداً وبقيةُ المعاني تكونُ مِنْ توابعِها ولوازمِها ؟

ولسنا نقصدُ في هٰذا الكتابِ شرحَ موضوعاتِ اللغاتِ ، فليسَ ذلكَ مِنْ علمِ طريقِ الآخرةِ في شيءٍ ، واللهُ الموفقُ برحمتِهِ .

* * *

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣١٢) .

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالىٰ

لعلَّهُ يخطرُ ببالِكَ : أنَّ الشكرَ إنَّما يُعقلُ في حقِّ منعِمٍ هوَ صاحبُ حظٍّ في الشكرِ ، فإنَّا نشكرُ الملوكَ إمَّا بالثناءِ ليزيدَ محلُّهُمْ في القلوبِ ، ويظهرَ كرمُهُمْ عندَ الناسِ فيزيدَ بهِ صيتُهُمْ وجاهُهُمْ ، أوْ بالخدمةِ التي هيَ إعانةٌ لهُمْ علىٰ بعضِ أغراضِهِمْ ، أوْ بالمثولِ بينَ أيديهِمْ في صورةِ الخدمِ وذلكَ تكثيرٌ لسوادِهِمْ وسببٌ لزيادةِ جاهِهِمْ ، فلا يكونُ شاكراً لهُمْ إلا بشيءٍ مِنْ ذلكَ ، وهـٰذا محالٌ في حقِّ اللهِ تعالىٰ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّ اللهَ تعالىٰ منزَّهٌ عنِ الحظوظِ والأغراضِ ، مقدَّسٌ عنِ الحاجةِ إلى الخدمةِ والإعانةِ ، وعنْ نشرِ الجاهِ والحشمةِ بالثناءِ والإطراءِ ، وعنْ تكثيرِ سوادِ الخدمِ بالمثولِ بينَ يديهِ راكعاً أوْ ساجداً ، فشكرُنا إيَّاهُ بما لا حظَّ لهُ فيهِ يضاهي شكرَنا الملكَ المنعِمَ علينا بأنْ ننامَ في بيوتِنا أوْ نسجدَ أوْ نركعَ ؛ إذْ لا حظَّ للملكِ فيهِ وهوَ غائبٌ لا علمَ لهُ ، ولا حظَّ للهِ تعالىٰ في أفعالِنا كلِّها .

والوجهُ الثاني : أنَّ جميعَ ما نتعاطاهُ باختيارِنا فهوَ نعمةٌ أخرىٰ علينا مِنْ نعمِ اللهِ ؛ إذْ جوارحُنا وقدرتُنا وإرادتُنا وداعيتُنا وسائرُ الأمورِ التي هيَ أسبابُ حركتِنا ونفْسُ حركتِنا . . مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ونعمتِهِ ، فكيفَ نشكرُ نعمتَهُ بنعمتِهِ ؟ ولوْ أعطانا الملكُ مركوباً ، فأخذنا مركوباً آخرَ لهُ وركبناهُ أوْ أعطانا الملكُ مركوباً آخرَ . . لمْ يكنِ الثاني شكراً للأوَّلِ منَّا ، بلْ كانَ الثاني يحتاجُ

إلىٰ شكرٍ كما يحتاجُ الأوَّلُ ، ثمَّ لا يمكنُ شكرُ الشكرِ إلا بنعمةٍ أخرىٰ ، فيؤدي ذلكَ إلىٰ أنْ يكونَ الشكرُ محالاً في حقِّ اللهِ تعالىٰ مِنْ هـٰذينِ الوجهينِ ، ولسنا نشكُّ في الأمرينِ جميعاً ، والشرعُ قدْ وردَ بهِ ، فكيفَ السبيلُ إلى الجمعِ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا الخاطرَ قدْ خطرَ لداوودَ عليهِ السلامُ ، وكذلكَ لموسىٰ عليهِ السلامُ ، فقالَ : يا ربِّ ، كيفَ أشكرُكَ وأنا لا أستطيعُ أنْ أشكرَكَ إلا بنعمةٍ ثانيةٍ مِنْ نعمِكَ ؟ وفي لفظٍ آخرَ : وشكري لكَ نعمةٌ أخرىٰ منكَ توجبُ عليَّ الشكرَ لكَ ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إذا عرفتَ هـٰذا . . فقدْ شكرتَني ، وفي خبرٍ آخرَ : إذا عرفتَ أنَّ النعمَ منِّي . . رضيتُ منكَ بذلكَ شكراً[1] .

* * *

فإنْ قلتَ : فقدْ فهمتُ السؤالَ وفهمي قاصرٌ عنْ إدراكِ معنىٰ ما أُوحيَ إليهِمْ ، فإنّي أعلمُ استحالةَ الشكرِ للهِ تعالىٰ ، فأمَّا كونُ العلمِ باستحالةِ الشكرِ شكراً . . فلا أفهمُهُ ، فإنَّ هـٰذا العلمَ أيضاً نعمةٌ منهُ ، فكيفَ صارَ شكراً ؟ وكأنَّ الحاصلَ يرجعُ إلىٰ أنَّ مَنْ لمْ يشكرْ فقدْ شكرَ ، وأنَّ قبولَ الخلعةِ الثانيةِ مِنَ الملكِ شكرٌ للخلعةِ الأولىٰ ، والفهمُ قاصرٌ عنْ دركِ السرِّ فيهِ ، فإنْ أمكنَ تعريفُ ذلكَ بمثالٍ ؛ فهوَ مهمٌّ في نفسِهِ .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٤) .

فاعلمْ : أنَّ هٰذا قرعُ بابٍ مِنَ المعارفِ ، وهيَ أعلىٰ مِنْ علومِ المعاملةِ ، ولكنَّا نشيرُ منها إلىٰ ملامحَ ونقولُ : هٰهنا نظرانِ :

نظرٌ بعينِ التوحيدِ المحضِ : وهٰذا النظرُ يعرِّفُكَ قطعاً أنَّهُ الشاكرُ وأنَّهُ المشكورُ ، وأنَّهُ المحبُّ وأنَّهُ المحبوبُ ، وهٰذا نظرُ مَنْ عرفَ أنْ ليسَ في الوجودِ غيرُهُ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ، وأنَّ ذلكَ صدقٌ في كلِّ حالٍ أزلاً وأبداً ؛ لأنَّ الغيرَ هوَ الذي يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ بنفسِهِ قوامٌ ، ومثلُ هٰذا الغيرِ لا وجودَ لهُ ، بلْ هوَ محالٌ أنْ يوجدَ ؛ إذِ الموجودُ المحقَّقُ هوَ القائمُ بنفسِهِ ، وما ليسَ لهُ بنفسِهِ قوامٌ فليسَ لهُ بنفسِهِ وجودٌ ، بلْ هوَ قائمٌ بغيرِهِ ، فهوَ موجودٌ بغيرِهِ ، فإنِ اعتُبِرَ ذاتُهُ ولمْ يُلتفَتْ إلىٰ غيرِهِ . . لمْ يكنْ لهُ وجودٌ ألبتةَ ، وإنَّما الموجودُ هوَ القائمُ بنفسِهِ ، والقائمُ بنفسِهِ هوَ الذي لوْ قُدِّرَ عدمُ غيرِهِ . . بقيَ موجوداً ، فإنْ كانَ معَ قيامِهِ بنفسِهِ يقومُ بوجودِهِ وجودُ غيرِهِ . . فهوَ قيُّومٌ ، ولا قيُّومَ إلا واحدٌ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ غيرُ ذلكَ .

فإذاً ؛ ليسَ في الوجودِ غيرُ الحيِّ القيُّومِ ، وهوَ الواحدُ الصمدُ ، فإنْ نظرتَ مِنْ هٰذا المقامِ . . علمتَ أنَّ الكلَّ منهُ مصدرُهُ ، وإليهِ مرجعُهُ ، فهوَ الشاكرُ وهوَ المشكورُ ، وهوَ المحبُّ وهوَ المحبوبُ .

ومِنْ هٰهنا نظرَ حبيبُ بنُ أبي حبيبٍ حيثُ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ فقالَ : (وا عجباهُ ! أعطىٰ وأثنىٰ)[1] ، أشارَ إلىٰ أنَّهُ

---

(١) أورده الطرطوشي في « سراج الملوك » (١/ ٣٩٧) .

إذا أثنىٰ علىٰ عطائِهِ . . فعلىٰ نفسِهِ أثنىٰ ، فهوَ المثني وهوَ المثنىٰ عليهِ .

ومِنْ هـٰهنا نظرَ الشيخُ أبو سعيدٍ المِيهَنِيُّ حيثُ قُرِىءَ بينَ يديهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، فقالَ : (لعمري يحبُّهُمْ ، ودعْهُ يحبُّهُمْ ، فبحقٍّ يحبُّهُمْ لأنَّهُ إنَّما يحبُّ نفسَهُ) ، أشارَ بهِ إلىٰ أنَّهُ المحبُّ وأنَّهُ المحبوبُ .

وهـٰذهِ رتبةٌ عاليةٌ لا تفهمُها إلا بمثالٍ علىٰ حدِّ عقلِكَ ، ولا يخفىٰ عليكَ أنَّ المصنِّفَ إذا أحبَّ تصنيفَهُ . . فقدْ أحبَّ نفسَهُ ، والصانعُ إذا أحبَّ صنعتَهُ . . فقدْ أحبَّ نفسَهُ ، والوالدُ إذا أحبَّ ولدَهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ ولدُهُ . . فقدْ أحبَّ نفسَهُ ، وكلُّ ما في الوجودِ سوى اللهِ فهوَ تصنيفُ اللهِ وصنعتُهُ ، فإنْ أحبَّهُ فما أحبَّ إلا نفسَهُ ، وإذا لمْ يحبَّ إلا نفسَهُ . . فبحقٍّ أحبَّ ما أحبَّ .

وهـٰذا كلُّهُ نظرٌ بعينِ التوحيدِ ، وتعبِّرُ الصوفيَّةُ عنْ هـٰذهِ الحالةِ بفناءِ النفسِ ؛ أيْ : فنيَ عنْ نفسِهِ وعنْ غيرِ اللهِ ، فلمْ يرَ إلا اللهَ ، فمَنْ لمْ يفهمْ هـٰذا . . ينكرُ عليهِمْ ويقولُ : كيفَ فنِيَ وطولُ طللِهِ أربعةُ أذرعٍ[1] ، ولعلَّهُ يأكلُ في كلِّ يومٍ أرطالاً مِنَ الخبزِ ؟! فيضحكُ عليهِمُ الجهَّالُ ؛ لجهلِهِمْ بمعاني كلامِهِمْ ، وضرورةُ العارفينَ أنْ يكونوا ضُحْكَةً للجاهلينَ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴾ ، ثمَّ بيَّنَ سبحانَهُ أنَّ ضحكَ

---

(١) **الطلل** : الشخص ، يقال : حيا الله طللك وطلالتك ؛ أي : شخصك .

العارفينَ عليهِمْ غداً أعظمُ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ ، وكذلك أمّةُ نوحٍ كانوا يضحكونَ عليهِ عندَ اشتغالِهِ بعملِ السفينةِ ، ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ .

فهٰذا أحدُ النظرينِ .

* * *

النظرُ الثاني : نظرُ مَنْ لمْ يبلغْ إلىٰ مقامِ الفناءِ عنْ نفسِهِ : وهؤلاءِ قسمانِ :

ـ قسمٌ لمْ يثبتوا إلا وجودَ أنفسِهِمْ ، وأنكروا أنْ يكونَ لهُمْ ربٌّ يُعبدُ ، وهؤلاءِ هُمُ العميانُ المنكوسونَ ، وعماهُمْ في كلتا العينينِ ؛ لأنَّهُمْ نفَوا ما هوَ الثابتُ تحقيقاً ، وهوَ القيُّومُ الذي هوَ قائمٌ بنفسِهِ ، وقائمٌ علىٰ كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ ، وكلُّ قائمٍ فقائمٌ بهِ ، ولمْ يقتصروا علىٰ هٰذا حتَّىٰ أثبتوا أنفسَهُمْ ! ولوْ عرفوا.. لعلموا أنَّهُمْ مِنْ حيثُ هُمْ هُمْ لا ثباتَ لهُمْ ، ولا وجودَ لهُمْ ، وإنَّما وجودُهُمْ مِنْ حيثُ أُوجدوا ، لا مِنْ حيثُ وُجدوا ، وفرقٌ بينَ الموجودِ وبينَ الموجَدِ ، وليسَ في الوجودِ إلا موجودٌ واحدٌ وموجَدٌ ، فالموجودُ حقٌّ ، والموجَدُ باطلٌ مِنْ حيثُ هوَ هوَ ، والموجودُ قائمٌ وقيُّومٌ ، والموجَدُ هالكٌ وفانٍ ، وإذا كانَ كلُّ مَنْ عليها فانياً.. فلا يبقىٰ إلا وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرامِ .

ـ الفريقُ الثاني ليسَ بهِم عمىً ، ولكنْ بهِمْ عَوَرٌ ، يبصرونَ بإحدى

العينينِ وجودَ الموجودِ الحقِّ فلا ينكرونَهُ ، والعينُ الأخرىٰ إنْ تمَّ عماها . . لمْ يُصرْ بها فناءُ غيرِ الموجودِ الحقِّ ، فأثبتَ موجوداً آخرَ معَ اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذا مشركٌ تحقيقاً ، كما كانَ الذي قبلَهُ جاحداً تحقيقاً ، فإنْ جاوزَ حدَّ العمىٰ إلى العمشِ . . أدركَ تفاوتاً بينَ الموجودينِ ، فأثبتَ عبداً وربّاً ، فبهـٰذا القدْرِ مِنْ إثباتِ التفاوتِ والنقصِ مِنَ الموجودِ الآخرِ دخلَ في حدِّ التوحيدِ .

ثمَّ إنْ كُحِلَ بصرُهُ بما يزيدُ في أنوارِهِ . . فيقلُّ عمشُهُ ، وبقدْرِ ما يزيدُ في بصرِهِ يظهرُ لهُ نقصانُ ما أثبتَهُ سوى اللهِ تعالىٰ ، فإنْ بقيَ في سلوكِهِ كذلكَ . . فلا يزالُ يفضي بهِ النقصانُ إلى المحوِ ، فينمحي عنْ رؤيةِ ما سوى اللهِ ، فلا يرىٰ إلا اللهَ ، فيكونُ قدْ بلغَ كمالَ التوحيدِ .

وحيثُ أدركَ نقصاً في وجودِ ما سوى اللهِ تعالىٰ . . دخلَ في أوائلِ التوحيدِ ، وبينَهُما درجاتٌ لا تُحصىٰ ، فيها تتفاوتُ درجاتُ الموحِّدينَ .

وكتبُ اللهِ المنزَّلةُ علىٰ ألسنةِ رسلِهِ هيَ الكحْلُ الذي بِهِ يحصلُ أنوارُ الأبصارِ ، والأنبياءُ هُمُ الكحَّالونَ ، وقد جاؤوا داعينَ إلى التوحيدِ المحضِ ، وترجمتُهُ قولُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، ومعناهُ : ألا يرىٰ إلا الواحدَ الحقَّ ، والواصلونَ إلىٰ كمالِ التوحيدِ هُمُ الأقلُّونَ ، والجاحدونَ والمشركونَ أيضاً قليلونَ ، وهُمْ على الطرفِ الأقصى المقابلِ لطرفِ التوحيدِ ؛ إذْ عبدةُ الأوثانِ قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ، فكانوا داخلين في أوائلِ أبوابِ التوحيدِ دخولاً ضعيفاً ، والمتوسطونَ هُمُ

الأكثرونَ ، وفيهِمْ مَنْ تنفتحُ بصيرتُهُ في بعضِ الأحوالِ ، فتلوحُ لهُ حقائقُ التوحيدِ ولكنْ كالبرقِ الخاطفِ لا يثبتُ ، وفيهِمْ مَنْ يلوحُ لهُ ذلكَ ويثبتُ زماناً ولكنْ لا يدومُ ، والدوامُ فيهِ عزيزٌ .

لِكُلٍّ إِلَىٰ شَأْوِ ٱلْعَلا حَرَكَاتُ وَلَكِنْ عَزِيزٌ فِي ٱلرِّجالِ ثَبَاتُ[1]

ولمَّا أُمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بطلبِ القرْبِ ، فقيلَ لهُ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ . . قالَ في سجودِهِ : « أعوذُ بعفوِكَ مِنْ عقابِكَ ، وأعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وأعوذُ بكَ منكَ ، لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »[2] ، فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعوذُ بعفوِكَ مِنْ عقابِكَ » كلامٌ عنْ مشاهدةِ فعلِ اللهِ فقطْ ، فكأنَّهُ لمْ يرَ إلا اللهَ وأفعالَهُ ، فاستعاذَ بفعلِهِ مِنْ فعلِهِ ، ثمَّ اقتربَ ففنيَ عنْ مشاهدةِ الأفعالِ ، وترقَّىٰ إلىٰ مصادرِ الأفعالِ وهيَ الصفاتُ فقالَ : « أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ » ، وهما صفتانِ ، ثمَّ رأىٰ ذلكَ نقصاناً في التوحيدِ ، فاقتربَ ورقيَ مِنْ مقامِ مشاهدةِ الصفاتِ إلىٰ مشاهدةِ الذاتِ فقالَ : « أعوذُ بكَ منكَ » ، وهـٰذا فرارٌ منهُ إليهِ مِنْ غيرِ رؤيةِ فعلٍ وصفةٍ ، ولكنَّهُ رأىٰ نفسَهُ فارّاً منهُ إليهِ ، ومستعيذاً ومثنياً ، ففنيَ عنْ مشاهدةِ نفسِهِ ؛ إذْ رأىٰ ذلكَ نقصاناً ، واقتربَ فقالَ : أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ لا أحصي ثناءً عليكَ ، فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أحصي » خبرٌ عنْ فناءِ نفسِهِ وخروجِهِ

---

(١) البيت من الطويل ، وهو لابن الحَريش الأصبهاني . انظر « تتمة يتيمة الدهر » (١٣٦/٥) .

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) ، والنسائي (٢٨٣/٨) .

عنْ مشاهدَتِها[١] ، وقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ » بيانٌ أنَّهُ المثني وهوَ المثنىٰ عليهِ ، وأنَّ الكلَّ منهُ بدأَ وإليهِ يعودُ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ، فكانَ أوَّلُ مقاماتِهِ نهايةَ مقاماتِ الموحِّدينَ ، وهوَ ألا يرىٰ إلا اللهَ تعالىٰ وأفعالَهُ ، فيستعيذُ بفعلٍ مِنْ فعلٍ ، فانظرْ إلىٰ ماذا انتهتْ نهايتُهُ إذِ انتهىٰ إلى الواحدِ الحقِّ ، حتَّى ارتفعَ مِنْ نظرِهِ ومشاهدتِهِ سوى الذاتِ الحقِّ .

ولقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يرقىٰ مِنْ رتبةٍ إلىٰ أخرىٰ إلا ويرى الأولىٰ بعداً بالإضافةِ إلى الثانيةِ ، فكانَ يستغفرُ اللهَ مِنَ الأولىٰ ، ويرىٰ ذلكَ نقصاناً في سلوكِهِ وتقصيراً في مقامِهِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليُغانُ علىٰ قلبي حتَّىٰ أستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلةِ سبعينَ مرّةً »[٢] ، فكأنَّ ذلكَ لترقيهِ إلىٰ سبعينَ مقاماً بعضُها فوقَ البعضِ ، أوائلُها وإنْ كانَ مجاوزاً أقصىٰ غاياتِ الخلقِ ، ولكنْ كانَ نقصاناً بالإضافةِ إلىٰ أواخرِها ، فكانَ استغفارُهُ لذلكَ .

ولمَّا قالَتْ لهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أليسَ قدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ فما هٰذا البكاءُ في السجودِ ، وما هٰذا الجهدُ الشديدُ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً »[٣] ، معناهُ : أفلا أكونُ

---

(١) في غير (د) : (عن مشاهدته) بدل (عن مشاهدتها) .
(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داوود (١٥١٥) بلفظ : « مئة مرة » بدل « سبعين مرة » ، وعند البخاري (٦٣٠٧) : « والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة» .
(٣) رواه مسلم (٢٨٢٠) .

طالباً للمزيدِ في المقاماتِ ، فإنَّ الشكرَ سببُ الزيادةِ ، حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وإذْ تغلغلنا في بحارِ علومِ المكاشفةِ . . فلنقبضِ العِنانَ ، ولنرجعْ إلىٰ ما يليقُ بعلومِ المعاملةِ ، فنقولُ :

الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ بُعثوا لدعوةِ الخلقِ إلىٰ كمالِ التوحيدِ الذي وصفناهُ ، ولكنْ بينَهُمْ وبينَ الوصولِ إليهِ مسافةٌ بعيدةٌ ، وعقباتٌ شديدةٌ ، وإنَّما الشرعُ كلُّهُ تعريفُ طريقِ سلوكِ تلكَ المسافةِ ، وقطعِ تلكَ العقباتِ ، وعندَ ذلكَ يكونُ النظرُ عنْ مشاهدةٍ أخرىٰ ومقامٍ آخرَ ، فيظهرُ في ذلكَ المقامِ وبالإضافةِ إلىٰ تلكَ المشاهدةِ الشكرُ والشاكرُ والمشكورُ ، ولا يُعرفُ ذلكَ إلا بمثالٍ ، فأقولُ :

يمكنُكَ أنْ تفهمَ أنَّ ملكاً مِنَ الملوكِ أرسلَ إلىٰ عبدٍ قدْ بعُدَ منهُ مركوباً وملبوساً ونقداً ؛ لأجلِ زادِهِ في الطريقِ حتَّىٰ يقطعَ بهِ مسافةَ البعدِ ويقربَ مِنْ حضرةِ الملكِ ، ثمَّ يكونُ لهُ حالتانِ :

إحداهما : أنْ يكونَ قصدُهُ مِنْ وصولِ العبدِ إلىٰ حضرتِهِ أنْ يقومَ ببعضِ مهمَّاتِهِ ، ويكونَ لهُ عنايةٌ في خدمتِهِ .

والثانيةُ : ألا يكونَ للملكِ حظٌّ في العبدِ ، ولا حاجةَ بهِ إليهِ ، بلْ حضورُهُ لا يزيدُ في ملكِهِ ؛ لأنَّهُ لا يقوىٰ على القيامِ بخدمةٍ تغني منهُ غَناءً[1]، وغيبتُهُ

---

(١) الغَناء : النفع .

لا تنقصُ مِنْ ملكِهِ ، فيكونُ قصدُهُ مِنَ الإنعامِ عليهِ بالمركوبِ والزادِ أنْ يحظى العبدُ بالقربِ منهُ ، وينالَ سعادةَ حضرتِهِ ؛ لينتفعَ هوَ في نفسِهِ ، لا لينتفعَ الملكُ بهِ وبانتفاعِهِ . فينزلُ العبادُ مِنَ اللهِ تعالىٰ في المنزلةِ الثانيةِ ، لا في المنزلةِ الأولىٰ ، فإنَّ الأولىٰ محالٌ على اللهِ ، والثانيةَ غيرُ محالٍ .

ثمَّ اعلمْ أنَّ العبدَ لا يكونُ شاكراً في الحالةِ الأولىٰ بمجرَّدِ الركوبِ والوصولِ إلىٰ حضرتِهِ ما لمْ يقمْ بخدمتِهِ التي أرادَها الملكُ منهُ ، وأمَّا في الحالةِ الثانيةِ . . فلا يحتاجُ إلى الخدمةِ أصلاً ، ومعَ ذلكَ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ شاكراً وكافراً ، ويكونُ شكرُهُ بأنْ يستعملَ ما أنفذَهُ إليهِ مولاهُ فيما أحبَّهُ لأجلِهِ لا لأجلِ نفسِهِ ، وكفرُهُ ألا يستعملَ ذلكَ فيهِ بأنْ يعطِّلَهُ أوْ يستعملَهُ فيما يزيدُ في بعدِهِ منهُ .

فمهما لبسَ العبدُ الثوبَ وركبَ المركوبَ ولمْ ينفقِ الزادَ إلا في الطريقِ . . فقدْ شكرَ مولاهُ ؛ إذِ استعملَ نعمتَهُ في محبَّتِهِ ؛ أيْ : فيما أحبَّهُ لعبدِهِ لا لنفسِهِ .

وإنْ ركبَهُ واستدبرَ حضرتَهُ ، وأخذَ يبعدُ منهُ . . فقدْ كفرَ نعمتَهُ ؛ أيِ : استعملَها فيما كرهَهُ مولاهُ لعبدِهِ لا لنفسِهِ .

وإنْ جلسَ ولمْ يركبْ لا في طلبِ القربِ ولا في طلبِ البعدِ . . فقدْ كفرَ أيضاً نعمتَهُ ؛ إذْ أهملَها وعطَّلَها ، وإنْ كانَ هـٰذا دونَ ما لوْ بعدَ منهُ .

فكذلكَ خلقَ اللهُ سبحانَهُ الخلقَ ، وهُمْ في ابتداءِ فطرتِهِمْ يحتاجونَ إلى

استعمالِ الشهواتِ ؛ لتكملَ بها أبدانُهُمْ ، فيبعدونَ بها عنْ حضرتِهِ ، وإنَّما سعادتُهُمْ في القرْبِ منهُ ، فأعدَّ لهُمْ مِنَ النعمِ ما يقدرونَ على استعمالِها في نيلِ درجةِ القرْبِ ، وعنْ بعدِهِمْ وقربِهِمْ عبَّرَ اللهُ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . ﴾ الآيةَ .

فإذاً ؛ نعمُ اللهِ تعالىٰ آلاتٌ يترقَّى العبدُ بها عنْ أسفلِ السافلينَ ، خلقَها اللهُ تعالىٰ لأجلِ العبدِ حتَّىٰ ينالَ بها سعادةَ القربِ ، واللهُ تعالىٰ غنيٌّ عنهُ قرُبَ أمْ بعُدَ ، والعبدُ فيها بينَ أنْ يستعملَها في الطاعةِ فيكونَ قدْ شكرَ لموافقتِهِ محبَّةَ مولاهُ ، وبينَ أنْ يستعملَها في معصيتِهِ فقدْ كفرَ لاقتحامِهِ ما يكرهُهُ مولاهُ ولا يرضاهُ لهُ ، فإنَّ اللهَ لا يرضىٰ لعبادِهِ الكفرَ والمعصيةَ ، وإنْ عطَّلَها ولمْ يستعملْها في طاعةٍ ولا معصيةٍ . . فهوَ أيضاً كفرانٌ للنعمةِ بالتضييعِ ، وكلُّ ما خُلقَ في الدنيا إنَّما خُلقَ آلةً للعبدِ ليتوصَّلَ بهِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ونيلِ القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ مطيعٍ فهوَ بقدْرِ طاعتِهِ شاكرٌ نعمةَ اللهِ في الأسبابِ التي استعملَها في الطاعةِ ، وكلُّ كسلانَ تركَ الاستعمالَ أوْ عاصٍ استعملَها في طريقِ البعدِ . . فهوَ كافرٌ جارٍ في غيرِ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ ، فالمعصيةُ والطاعةُ تشملُهما المشيئةُ ، ولكنْ لا تشملُهُما المحبَّةُ والكراهةُ ، بلْ رُبَّ مرادٍ محبوبٌ ، ورُبَّ مرادٍ مكروهٌ ، ووراءَ بيانِ هـٰذهِ الدقيقةِ سرُّ القدرِ الذي مُنعَ مِنْ إفشائِهِ ، وقدِ انحلَّ بهـٰذا الإشكالُ الأوَّلُ ، وهوَ أنَّهُ إذا لمْ يكنْ للمشكورِ حظٌّ فكيفَ يكونُ الشكرُ .

وبهـٰذا أيضاً ينحلُّ الإشكالُ الثاني ، فإنَّا لمْ نعنِ بالشكرِ إلا انصرافَ

نعمةِ اللهِ في جهةِ محبَّةِ اللهِ ، فإذا انصرفَتِ النعمةُ في جهةِ المحبَّةِ بفعلِ اللهِ تعالىٰ . . فقدْ حصلَ المرادُ ، وفعلُكَ عطاءٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ومِنْ حيثُ أنتَ محلُّهُ فقدْ أثنىٰ عليكَ ، وثناؤُهُ نعمةٌ أخرىٰ منهُ إليكَ ، فهوَ الذي أعطىٰ ، وهوَ الذي أثنىٰ ، فصارَ أحدُ فعليهِ سبباً لانصرافِ فعلِهِ الثاني إلىٰ جهةِ محبَّتِهِ ، فلهُ الشكرُ علىٰ كلِّ حالٍ ، وأنتَ موصوفٌ بأنَّكَ شاكرٌ ؛ بمعنىٰ أنَّكَ محلُّ المعنى الذي الشكرُ عبارةٌ عنهُ ، لا بمعنىٰ أنَّكَ موجدٌ لهُ ؛ كما أنَّكَ موصوفٌ بأنَّكَ عارفٌ وعالمٌ لا بمعنىٰ أنَّكَ خالقُ العلمِ وموجدُهُ ولكنْ بمعنىٰ أنَّكَ محلٌّ لهُ ، وقدْ وُجِدَ بالقدرةِ الأزليَّةِ فيكَ ، فوصفُكَ بأنَّكَ شاكرٌ إثباتُ شيئيَّةٍ لكَ ، وأنتَ شيءٌ إذْ جعلَكَ خالقُ الأشياءِ شيئاً ، وإنَّما أنتَ لا شيءَ إذا كنتَ أنتَ ظاناً لنفسِكَ شيئيَّةً مِنْ ذاتِكَ ، فأمَّا باعتبارِ النظرِ إلى الذي جعلَ الأشياءَ أشياءَ . . فأنتَ شيءٌ إذْ جعلَكَ شيئاً ، فإنْ قُطِعَ النظرُ عنْ جعلِهِ . . كنتَ لا شيءَ تحقيقاً .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « اعملوا ؛ فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ » لمَّا قيلَ لهُ : ففيمَ العملُ إذا كانتِ الأشياءُ قدْ فُرِغَ منها مِنْ قبلُ ؟[1] .

فبيَّنَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ الخلقَ مجاري قدرةِ اللهِ تعالىٰ ومحلُّ أفعالِهِ وإنْ كانوا همْ أيضاً مِنْ أفعالِهِ ، ولكنْ بعضُ أفعالِهِ محلٌّ للبعضِ ، وقولُهُ :

---

(1) رواه البخاري (٤٩٤٩) ، ومسلم (٢٦٤٧) .

« اعملوا » وإنْ كانَ جارياً علىٰ لسانِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فهوَ فعلٌ مِنْ أفعالِهِ ، وهوَ سببٌ لعلمِ الخلقِ بأنَّ العملَ نافعٌ ، وعلمُهُمْ فعلٌ مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، والعلمُ سببٌ لانبعاثِ داعيةٍ جازمةٍ إلى الحركةِ والطاعةِ ، وانبعاثُ الداعيةِ أيضاً مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ سببٌ لحركةِ الأعضاءِ ، وهيَ أيضاً مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ بعضُ أفعالِهِ سببٌ لبعضٍ ؛ أي : الأوَّلُ شرطٌ للثاني ؛ كما كانَ خلقُ الجسمِ سبباً لخلْقِ العرضِ ؛ إذْ لا يُخلَقُ العرضُ قبلَهُ ، وخلْقُ الحياةِ شرطٌ لخلْقِ العلمِ ، وخلْقُ العلمِ شرطٌ لخلْقِ الإرادةِ ، والكلُّ مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ، وبعضُها سببٌ للبعضِ ؛ أي : هوَ شرطٌ ، ومعنىٰ كونِهِ شرطاً : أنَّهُ لا يستعدُّ لقبولِ فعلِ الحياةِ إلا جوهرٌ ، ولا يستعدُّ لقبولِ العلمِ إلا ذو حياةٍ ، ولا لقبولِ الإرادةِ إلا ذو علمٍ ، فيكونُ بعضُ أفعالِهِ سبباً للبعضِ بهٰذا المعنىٰ ، لا بمعنىٰ أنَّ بعضَ أفعالِهِ موجِدٌ لغيرِهِ ، بلْ ممهِّدٌ شرطَ الحصولِ لغيرِهِ ، وهٰذا إذا حُقِّقَ . . ارتقىٰ إلىٰ درجةِ التوحيدِ الذي ذكرناهُ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلِمَ قالَ اللهُ تعالىٰ : اعملوا، وإلا . . فأنتم معاقبونَ ومذمومونَ على العصيانِ ، وما إلينا شيءٌ ، فكيفَ نُذمُّ وإنَّما الكلُّ إلى اللهِ تعالىٰ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا القولَ مِنَ اللهِ تعالىٰ سببٌ لحصولِ اعتقادٍ فينا ، والاعتقادُ سببٌ لهيجانِ الخوفِ ، وهيجانُ الخوفِ سببٌ لتركِ الشهواتِ

والتجافي عنْ دارِ الغرورِ ، وذلكَ سببٌ للوصولِ إلىٰ جوارِ اللهِ ، واللهُ تعالىٰ مسبِّبُ الأسبابِ ومرتِّبُها ، فمَنْ سبقَ لهُ في الأزلِ السعادةُ . . يسَّرَ لهُ هٰذهِ الأسبابَ حتَّىٰ يقودَهُ بسلسلتِها إلى الجنةِ ، ويُعبَّرُ عنْ مثلِهِ بأنَّ كُلاًّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ ، ومَنْ لمْ يسبقْ لهُ مِنَ اللهِ الحسنىٰ . . بعُدَ عنْ سماعِ كلامِ اللهِ تعالىٰ وكلامِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكلامِ العلماءِ ، فإذا لمْ يسمعْ . . لمْ يعلمْ ، وإذا لمْ يعلمْ . . لمْ يخفْ ، وإذا لمْ يخفْ . . لمْ يتركِ الركونَ إلى الدنيا ، وإذا لمْ يتركِ الركونَ إلى الدنيا . . بقيَ في حزْبِ الشيطانِ ، وإنَّ جهنَّمَ لموعدُهُمْ أجمعينَ .

فإذا عرفتَ هٰذا . . تعجبتَ مِنْ قومٍ يُقادونَ إلى الجنَّةِ بالسلاسلِ ، فما مِنْ أحدٍ إلا وهوَ مقودٌ إلى الجنَّةِ بسلاسلِ الأسبابِ ، وهوَ تسليطُ العلمِ والخوفِ عليهِ ، وما مِنْ مخذولٍ إلا وهوَ مقودٌ إلى النارِ بالسلاسلِ ، وهوَ تسليطُ الغفلةِ والأمنِ والغرورِ عليهِ ، فالمتقونَ يُساقونَ إلى الجنَّةِ قهراً ، والمجرمونَ يُقادونَ إلى النارِ قهراً ، ولا قاهرَ إلا اللهُ الواحدُ القهَّارُ ، ولا قادرَ إلا الملكُ الجبَّارُ ، وإذا انكشفَ الغطاءُ عنْ أعينِ الغافلينَ فشاهدوا الأمرَ كذلكَ . . سمعوا عندَ ذلكَ نداءَ المنادي : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ، ولقدْ كانَ الملكُ للهِ الواحدِ القهَّارِ كلَّ يومٍ لا ذلكَ اليومَ على الخصوصِ ، ولكنِ الغافلونَ لا يسمعونَ هٰذا النداءَ إلا ذلكَ اليومَ ، فهوَ نبأٌ عمَّا يتجدَّدُ للغافلينَ مِنْ كشفِ الأحوالِ ، حيثُ لا ينفعُهُمُ الكشفُ ، فنعوذُ باللهِ الحليمِ الكريمِ مِنَ الجهلِ والعمىٰ ، فإنَّهُ أصلُ أسبابِ الهلاكِ .

* * *

بيان تمييز ما يحبه الله تعالىٰ عما يكرهه

اعلمْ : أنَّ فعلَ الشكرِ وتركَ الكفرانِ لا يتمُّ إلا بمعرفةِ ما يحبُّهُ اللهُ تعالىٰ عمَّا يكرهُهُ ؛ إذْ معنى الشكرِ استعمالُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في محابِّهِ ، ومعنى الكفرِ نقيضُ ذلكَ ؛ إمَّا بتركِ الاستعمالِ ، أوْ باستعمالِها في مكارهِهِ ، ولتمييزِ ما يحبُّهُ اللهُ تعالىٰ عمَّا يكرهُهُ مدركانِ :

أحدُهُما : السمعُ ، ومستندُهُ الآياتُ والأخبارُ .

والثاني : بصيرةُ القلبِ ، وهوَ النظرُ بعينِ الاعتبارِ .

وهٰذا الأخيرُ عسيرٌ ، وهوَ لأجلِ ذلكَ عزيزٌ ، فلذلكَ أرسلَ اللهُ تعالىٰ الرسلَ ، وسهَّلَ بهِمُ الطريقَ على الخلقِ ، ومعرفةُ ذلكَ تنبني علىٰ معرفةِ جميعِ أحكامِ الشرعِ في أفعالِ العبادِ ، فمَنْ لا يطلعُ علىٰ أحكامِ الشرعِ في جميعِ أفعالِهِ . . لمْ يمكنْهُ القيامُ بحقِّ الشكرِ أصلاً .

وأمَّا الثاني ـ وهوَ النظرُ بعينِ الاعتبارِ ـ فهوَ إدراكُ حكمةِ اللهِ تعالىٰ في كلِّ موجودٍ خلقَهُ ؛ إذْ ما خلقَ شيئاً في العالمِ إلا وفيهِ حكمةٌ ، وتحتَ الحكمةِ مقصودٌ ، وذلكَ المقصودُ هوَ المحبوبُ ، وتلكَ الحكمةُ منقسمةٌ إلىٰ جليَّةٍ وخفيَّةٍ .

أمَّا الجليَّةُ . . فكالعلمِ بأنَّ مِنَ الحكمةِ في خلقِ الشمسِ أنْ يحصلَ بها الفرقُ بينَ الليلِ والنهارِ ، فيكونَ النهارُ معاشاً ، والليلُ لباساً ، فتتيسَّرَ

الحركةُ عندَ الإبصارِ ، والسكونُ عندَ الاستتارِ ، فهٰذا مِنْ جملةِ حِكَمِ الشمسِ لا كلِّ الحِكَمِ فيها ، بلْ فيها حكمٌ أخرىٰ كثيرةٌ دقيقةٌ .

وكذلكَ معرفةُ الحكمةِ في الغيمِ ونزولِ الأمطارِ ، وذلكَ لانشقاقِ الأرضِ بأنواعِ النباتِ مطعماً للخلْقِ ومرعىً للأنعامِ ، وقدِ انطوى القرآنُ علىٰ جملةٍ مِنَ الحكمِ الجليّةِ التي تحتملُها أفهامُ الخلقِ دونَ الدقيقِ الذي يقصرونَ عنْ فهمِهِ ، إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا. . .﴾ الآياتِ .

وأمَّا الحكمةُ في سائرِ الكواكبِ السيَّارةِ منها والثوابتِ . . فخفيَّةٌ ، لا يطلعُ عليها أكثرُ الخلقِ ، والقدْرُ الذي يحتملُهُ فهْمُ الخلقِ أنَّها زينةٌ للسماءِ ؛ لتستلذَّ العينُ بالنظرِ إليها ، وأشارَ إليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ ، فجميعُ أجزاءِ العالمِ ؛ سماؤُهُ وكواكبُهُ ، ورياحُهُ وبحارُهُ ، وجبالُهُ ومعادنُهُ ، ونباتُهُ وحيواناتُهُ وأعضاءُ حيواناتِهِ . . لا تخلو ذرَّةٌ مِنْ ذرَّاتِهِ عنْ حِكَمٍ كثيرةٍ ، مِنْ حكمةٍ واحدةٍ إلىٰ عشرةٍ إلىٰ ألفٍ إلى عشرةِ آلافٍ .

وكذلكَ أعضاءُ الحيوانِ تنقسمُ إلىٰ ما يُعرفُ حكمتُها ؛ كالعلمِ بأنَّ العينَ للإبصارِ لا للبطشِ ، واليدَ للبطشِ لا للمشيِ ، والرجْلَ للمشيِ لا للشمِّ ، فأمَّا الأعضاءُ الباطنةُ مِنَ الأمعاءِ والمرارةِ والكليةِ والكبدِ ، وآحادِ العروقِ والأعصابِ والعضلاتِ ، وما فيها مِنَ التجاويفِ والالتفافِ والاشتباكِ والانحرافِ والدقَّةِ والغلظِ ، وسائرِ الصفاتِ . . فلا يعرفُ الحكمةَ فيها كافَّةُ الناسِ ، والذينَ يعرفونَها لا يعرفونَ منها إلا قدراً يسيراً بالإضافةِ إلىٰ

ما في علمِ اللهِ تعالىٰ ، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

فإذاً ؛ كلُّ مَنِ استعملَ شيئاً في جهةٍ غيرِ الجهةِ التي خُلِقَ لها ، ولا على الوجهِ الذي أُريدَ بهِ . . فقدْ كفرَ فيهِ نعمةَ اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ ضربَ غيرَهُ بيدِهِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ اليدِ ؛ إذْ خُلقَتْ لهُ اليدُ ليدفعَ بها عَنْ نفسِهِ ما يهلكُهُ ويأخذَ ما ينفعُهُ ، لا ليهلكَ بها غيرَهُ ، ومَنْ نظرَ إلىٰ وجهِ غيرِ المَحْرمِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ العينِ ونعمةَ الشمسِ ؛ إذِ الإبصارُ يتمُّ بهما ، وإنَّما خُلقَتا ليبصرَ بهِما ما ينفعُهُ في دينِهِ ودنياهُ ، ويتقيَ بهِما ما يضرُّهُ فيهِما ، فقدِ استعملَهُما في غيرِ ما أُريدَتا بهِ ، وهٰذا لأنَّ المرادَ مِنْ خلقِ الخلْقِ وخلْقِ الدنيا وأسبابِها أنْ يستعينَ الخلْقُ بهِما على الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولا وصولَ إليهِ إلا بمحبَّتِهِ والأنسِ بهِ في الدنيا ، والتجافي عنْ غرورِ الدنيا ، ولا أنسَ إلا بدوامِ الذكرِ ، ولا محبَّةَ إلا بالمعرفةِ الحاصلةِ بدوامِ الفكرِ ، ولا يمكنُ الدوامُ على الذكرِ والفكرِ إلا بدوامِ البدنِ ، ولا يبقى البدنُ إلا بالغذاءِ ، ولا يتمُّ الغذاءُ إلا بالأرضِ والماءِ والهواءِ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بخلْقِ السماءِ والأرضِ ، وخلْقِ سائرِ الأعضاءِ ظاهراً وباطناً ، فكلُّ ذلكَ لأجلِ البدنِ ، والبدنُ مطيَّةُ النفسِ ، والراجعُ إلى اللهِ تعالىٰ هيَ النفسُ المطمئنَّةُ بطولِ العبادةِ والمعرفةِ ، فلذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ .

فكلُّ مَنِ استعملَ شيئاً في غيرِ طاعةِ اللهِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ في جميعِ الأسبابِ التي لا بدَّ منها لإقدامِهِ علىٰ تلكَ المعصيةِ ، ولنذكرْ مثالاً واحداً للحِكَمِ الخفيَّةِ التي ليسَتْ في غايةِ الخفاءِ حتَّىٰ تعتبرَ بها ،

وتعلمَ طريقةَ الشكرِ والكفرانِ على النعمِ ، فنقولُ :

مِنْ نعمِ اللهِ تعالىٰ خلْقُ الدراهمِ والدنانيرِ ، وبهما قوامُ الدنيا ، وهما حجرانِ لا منفعةَ في أعيانِهما ، ولكنْ يُضطرُّ الخلقُ إليهما مِنْ حيثُ إنَّ كلَّ إنسانٍ محتاجٌ إلىٰ أعيانٍ كثيرةٍ في مطعمِهِ وملبسِهِ وسائرِ حاجاتِهِ ، وقدْ يعجزُ عمَّا يحتاجُ إليهِ ، ويملكُ ما يستغني عنهُ ؛ كمَنْ يملكُ الزعفرانَ مثلاً وهوَ محتاجٌ إلىٰ جَمَلٍ يركبُهُ ، ومَنْ يملكُ الجمَلَ ربَّما يستغني عنهُ ويحتاجُ إلى الزعفرانِ ، فلا بدَّ بينَهُما مِنْ معاوضةٍ ، ولا بدَّ في مقدارِ العوضِ مِنْ تقديرٍ ؛ إذْ لا يبذُلُ صاحبُ الجَمَلِ جَمَلَهُ بكلِّ مقدارٍ مِنَ الزعفرانِ ، ولا مناسبةَ بينَ الزعفرانِ والجملِ حتَّىٰ يُقالَ : يُعطىٰ منهُ مثلَهُ في الوزنِ أوِ الصورةِ ، وكذا مَنْ يشتري داراً بثيابٍ ، أوْ عبداً بخفٍّ ، أوْ دقيقاً بحمارٍ ، فهاذهِ الأشياءُ لا تناسبَ فيها ، فلا يدري أنَّ الجملَ كمْ يساوي بالزعفرانِ ، فتتعذَّرُ المعاملاتُ جداً ، فافتقرَتْ هاذهِ الأعيانُ المتنافرةُ المتباعدةُ إلىٰ متوسِّطٍ بينَها يحكمُ فيها بحكمٍ عدلٍ ، فيعرفُ مِنْ كلِّ واحدٍ رتبتَهُ ومنزلتَهُ ، حتَّىٰ إذا تقرَّرَتِ المنازلُ ، وترتبَتِ الرتبُ.. علمَ بعدَ ذلكَ المساويَ مِنْ غيرِ المساوي ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ الدنانيرَ والدراهمَ حاكمينِ ومتوسطينِ بينَ سائرِ الأموالِ ، حتَّىٰ تُقدَّرَ الأموالُ بهما ، فيُقالُ : هاذا الجملُ يساوي مئةَ دينارٍ ، وهاذا القدْرُ مِنَ الزعفرانِ يساوي مئةً ، فهما مِنْ حيثُ إنَّهُما متساويانِ بشيءٍ واحدٍ إذاً متساويانِ ، وإنَّما أمكنَ التعديلُ بالنقدينِ إذْ لا غرضَ في أعيانِهما ، ولوْ كانَ في أعيانِهما غرضٌ.. ربَّما اقتضىٰ خصوصُ ذلكَ الغرضِ في حقِّ

صاحبِ الغرضِ ترجيحاً ولمْ يقتضِ ذلكَ في حقِّ مَنْ لا غرضَ لهُ ، فلا ينتظمُ الأمرُ ، فإذاً ؛ خلقَهُما اللهُ تعالىٰ لتتداولَهُما الأيدي ، ويكونا حاكمينِ بينَ الأموالِ بالعدْلِ .

ولحكمةٍ أخرىٰ ؛ وهيَ التوسُّلُ بهِما إلىٰ سائرِ الأشياءِ ؛ لأنَّهُما عزيزانِ في أنفسِهِما ، ولا غرضَ في أعيانِهِما ، ونسبتُهُما إلىٰ سائرِ الأموالِ نسبةٌ واحدةٌ ، فمَنْ ملكَهُما فكأنَّهُ ملكَ كلَّ شيءٍ ، لا كمَنْ ملكَ ثوباً ، فإنَّهُ لمْ يملكْ إلا الثوبَ ، فلوِ احتاجَ إلىٰ طعامٍ . . ربَّما لمْ يرغبْ صاحبُ الطعامِ في الثوبِ ؛ لأنَّ غرضَهُ في دابَّةٍ مثلاً ، فاحتيجَ إلىٰ شيءٍ هوَ في صورتِهِ كأنَّهُ ليسَ بشيءٍ ، وهوَ في معناهُ كأنَّهُ كلُّ الأشياءِ ، والشيءُ إنَّما تستوي نسبتُهُ إلى المختلفاتِ إذا لمْ تكنْ لهُ صورةٌ خاصَّةٌ يفيدُها بخصوصِها ؛ كالمرآةِ لا لونَ لها وتحكي كلَّ لونٍ ، فكذلكَ النقدُ لا غرضَ فيهِ وهوَ وسيلةٌ إلىٰ كلِّ غرضٍ ، وكالحرفِ لا معنىً لهُ في نفسِهِ وتظهرُ بهِ المعاني في غيرِهِ ، فهٰذهِ هيَ الحكمةُ الثانيةُ .

وفيهِما أيضاً حِكَمٌ يطولُ ذكرُها ، فكلُّ مَنْ عملَ فيهِما عملاً لا يليقُ بالحِكَمِ بلْ يخالفُ الغرضَ المقصودَ بالحِكَمِ . . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ فيهِما ، فإذاً ؛ مَنْ كنزَهُما . . فقدْ ظلمَهُما وأبطلَ الحكمةَ فيهِما ، وكانَ كمَنْ حبسَ حاكمَ المسلمينَ في سجْنٍ يمتنعُ عليهِ الحكْمُ بسببِهِ ؛ لأنَّهُ إذا كُنِزَ . . فقدْ ضُيِّعَ ، ولا يحصلُ الغرضُ المقصودُ بهِ ، وما خُلقَتِ الدراهمُ والدنانيرُ لزيدٍ خاصَّةً ولا لعمرٍو خاصَّةً ؛ إذْ لا غرضَ للآحادِ في أعيانِهِما ، فإنَّهُما

حجرانِ ، وإنَّما خُلقا لتتداولَهُما الأيدي فيكونا حاكمينِ بينَ الناسِ ، وعلامةً معرِّفةً للمقاديرِ مقوِّمةً للمراتبِ ، فأخبرَ اللهُ الذينَ يعجزونَ عنْ قراءةِ الأسطرِ الإلـٰهيةِ المكتوبةِ علىٰ صفحاتِ الموجوداتِ بخطٍّ إلـٰهيٍّ لا حرفَ فيهِ ولا صوتَ ، الذي لا يُدركُ بعينِ البصرِ بلْ بعينِ البصيرةِ . . أخبرَ هؤلاءِ العاجزينَ بكلامٍ سمعوهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ وصلَ إليهِمْ بواسطةِ الحرفِ والصوتِ المعنى الذي عجزوا عنْ إدراكِهِ فقالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ .

وكلُّ مَنِ اتخذَ مِنَ الدراهمِ والدنانيرِ آنيةً مِنْ ذهبٍ أوْ فضَّةٍ . . فقدْ كفرَ النعمةَ ، وكانَ أسوأَ حالاً ممَّنْ كنزَ ؛ لأنَّ مثالَ هـٰذا مثالُ مَنِ استسخرَ حاكمَ البلدِ في الحياكةِ والكنْسِ والأعمالِ التي يقومُ بها أخسَّاءُ الناسِ ، والحبسُ أهونُ منهُ ، وذلكَ أنَّ الخزفَ والحديدَ والرصاصَ والنحاسَ تنوبُ منابَ الذهبِ والفضَّةِ في حفظِ المائعاتِ عنْ أنْ تتبدَّدَ ، وإنَّما الأواني لحفظِ المائعاتِ ، ولا يكفي الخزفُ والحديدُ في المقصودِ الذي أُريدَ بهِ النقودُ ، فمَنْ لمْ ينكشفْ لهُ هـٰذا . . انكشفَ لهُ بالترجمةِ الإلـٰهيةِ وقيلَ لهُ : « مَنْ شربَ في آنيةٍ مِنْ ذهبٍ أوْ فضةٍ . . فكأنَّما يجرجرُ في بطنِهِ نارَ جهنَّمَ »[1] .

وكلُّ مَنْ عاملَ معاملةَ الربا على الدراهمِ والدنانيرِ . . فقدْ كفرَ النعمةَ وظلمَ ؛ لأنَّهُما خُلقا لغيرِهِما لا لأنفسِهِما ؛ إذْ لا غرضَ في عينِهِما ، فإذا

---

(١) كما روىٰ ذلك البخاري (٥٦٣٤) ، ومسلم (٢٠٦٥) .

اتَّجرَ في عينِهما . . فقدْ اتخذَهُما مقصوداً علىٰ خلافِ وضْعِ الحكمةِ ؛ إذْ طلبُ النقدِ لغيرِ ما وُضِعَ لهُ ظلمٌ ، ومَنْ معَهُ ثوبٌ ولا نقدَ معَهُ فقدْ لا يقدرُ علىٰ أنْ يشتريَ بهِ طعاماً ودابّةً ؛ إذْ ربما لا يُباعُ الطعامُ والدابّةُ بالثوبِ ، فهوَ معذورٌ في بيعِهِ بنقدٍ ليحصِّلَ النقدَ فيتوصَّلَ بهِ إلىٰ مقصودِهِ ، فإنَّهُما وسيلتانِ إلى الغيرِ ، لا غرضَ في أعيانِهما ، ووقْعُهُما مِنَ الأموالِ كوقْعِ الحرفِ مِنَ الكلامِ ؛ كما قالَ النحويونَ : (إنَّ الحرفَ هوَ الذي جاءَ لمعنىً في غيرِهِ) ، وكموقعِ المرآةِ مِنَ الألوانِ ، فأمَّا مَنْ مَعَهُ نقدٌ فلوْ جازَ لهُ أنْ يبيعَ بالنقدِ ، فيتخذَ التعاملَ على النقدِ غايةَ عملِهِ . . فيبقى النقدُ متقيِّداً عندَهُ ، وينزلُ منزلةَ المكنوزِ ، وتقييدُ الحاكمِ والبريدِ الموصلِ إلى الغيرِ ظلمٌ ؛ كما أنَّ حبسَهُ ظلمٌ ، فلا معنىٰ لبيعِ النقدِ بالنقدِ إلا باتخاذِ النقدِ مقصوداً للادِّخارِ ، وهوَ ظلمٌ .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فلِمَ جازَ بيعُ أحدِ النقدينِ بالآخرِ ؟ ولِمَ جازَ بيعُ الدرهمِ بمثلِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ أحدَ النقدينِ يخالفُ الآخرَ في مقصودِ التوسُّلِ ؛ إذْ قدْ يتيسَّرُ التوصُّلُ بأحدِهِما مِنْ حيثُ كثرتُهُ كالدراهمِ ، فتتفرَّقُ في الحاجاتِ قليلاً قليلاً ، ففي المنعِ منهُ ما يشوِّشُ المقصودَ الخاصَّ بهِ ، وهوَ تيسُّرُ التوصُّلِ بهِ إلىٰ غيرِهِ .

وأمَّا بيعُ الدرهمِ بدرهمٍ يماثلُهُ . . فجائزٌ مِنْ حيثُ إنَّ ذلكَ لا يرغبُ فيهِ عاقلٌ مهما تساويا ، ولا يشتغلُ بهِ تاجرٌ ؛ فإنَّهُ عبثٌ يجري مَجرىٰ وضعِ الدرهمِ على الأرضِ وأخذِهِ بعينِهِ ، ونحنُ لا نخافُ على العقلاءِ أنْ يصرفوا أوقاتَهُمْ إلىٰ وضعِ الدرهمِ على الأرضِ وأخذِهِ بعينِهِ ، فلا نمنعُ ممَّا لا تتشوَّفُ النفوسُ إليهِ ، إلا أنْ يكونَ أحدُهُما أجودَ مِنَ الآخرِ ، وذلكَ أيضاً لا يُتصوَّرُ جريانُهُ ؛ إذْ صاحبُ الجيِّدِ لا يرضىٰ بمثلِهِ مِنَ الرديءِ ، فلا ينتظمُ العقدُ ، وإنْ طلبَ زيادةً في الرديءِ . . فذلكَ ممَّا قدْ يقصدُهُ ، فلا جرمَ نمنعُهُ منهُ ، ونحكمُ بأنَّ جيِّدَها ورديئَها سواءٌ ؛ لأنَّ الجودةَ والرداءةَ ينبغي أنْ يُنظرَ إليهِما فيما يُقصدُ في عينِهِ ، وما لا غرضَ في عينِهِ فلا ينبغي أنْ يُنظرَ إلىٰ مصارفاتٍ دقيقةٍ في صفاتِهِ ، وإنَّما الذي ظلمَ هوَ الذي ضربَ النقودَ مختلفةً في الجودةِ والرداءةِ حتَّىٰ صارَتْ مقصودةً في أعيانِها ، وحقُّها ألا تُقصدَ .

وأمَّا إذا باعَ درهماً بدرهمٍ مثلِهِ نسيئةً . . فإنَّما لمْ يجزْ ذلكَ لأنَّهُ لا يقدِمُ علىٰ هٰذا إلا مسامحٌ قاصدٌ للإحسانِ ، ففي القرْضِ ـ وهوَ مكرمةٌ ـ مندوحةٌ عنهُ ؛ لتبقىٰ صورةُ المسامحةِ ، فيكونَ لهُ حمدٌ وأجرٌ ، والمعاوضةُ لا حمدَ فيها ولا أجرَ ، فهوَ أيضاً ظلمٌ ؛ لأنَّهُ إضاعةُ خصوصِ المسامحةِ وإخراجُها في معرضِ المعاوضةِ .

وكذلكَ الأطعمةُ خُلقَتْ ليُتغذَّىٰ بها ، أوْ يُتداوىٰ بها ، فلا ينبغي أنْ تُصرفَ عنْ جهتِها ، فإنَّ فتحَ بابِ المعاملةِ فيها يوجبُ تقييدَها في الأيدي ، ويؤخِّرُ عنها الأكلَ الذي أُريدَتْ لهُ ، فما خُلِقَ الطعامُ إلا ليُؤكلَ ، والحاجةُ

إلى الأطعمةِ شديدةٌ ، فينبغي أنْ تُخرجَ عنْ يدِ المستغني عنها إلى المحتاجِ ، ولا يتعاملُ على الأطعمةِ إلا مستغنٍ عنها ؛ إذْ مَنْ معَهُ طعامٌ فلِمَ لا يأكلُهُ إنْ كانَ محتاجاً ، ولِمَ يجعلهُ بضاعةَ تجارةٍ ؟ وإنْ جعلَهُ بضاعةَ تجارةٍ . . فليبعْهُ ممَّنْ يطلبُهُ بعوضٍ غيرِ الطعامِ ليكونَ محتاجاً إليهِ ، فأمَّا مَنْ يطلبُهُ بعينِ ذلكَ الطعامِ . . فهوَ أيضاً مستغنٍ عنهُ ، ولهـٰذا وردَ في الشرعِ لعْنُ المحتكرِ ، ووردَ فيهِ مِنَ التشديداتِ ما ذكرناهُ في كتابِ آدابِ الكسبِ .

نعمْ ، بائعُ البُرِّ بالتمرِ معذورٌ ؛ إذْ أحدُهُما لا يسدُّ مسدَّ الآخرِ في الغرضِ ، وبائعُ صاعٍ مِنَ البُرِّ بصاعٍ منهُ غيرُ معذورٍ ، ولكنَّهُ عابثٌ ، فلا يحتاجُ إلىٰ منعٍ ؛ لأنَّ النفوسَ لا تسمحُ بهِ إلا عندَ التفاوتِ في الجودةِ ، ومقابلةُ الجيِّدِ بمثلِهِ مِنَ الرديءِ لا يرضىٰ بها صاحبُ الجيِّدِ ، وأمَّا جيِّدٌ برديئينِ . . فقدْ يُقصدُ ، ولكنْ لمَّا كانتِ الأطعمةُ مِنَ الضرورياتِ ، والجيِّدُ يساوي الرديءَ في أصلِ الفائدةِ ، ويخالفُهُ في وجوهِ التنعُّمِ . . أسقطَ الشرعُ غرضَ التنعُّمِ فيما هوَ القوامُ .

فهـٰذهِ حكمةُ الشرعِ في تحريمِ الربا ، وقدِ انكشفَ لنا هـٰذا بعدَ الإعراضِ عنْ فنِّ الفقهِ[1] ، فليُلحقْ هـٰذا بفنِّ الفقهياتِ ؛ فإنَّهُ أقوىٰ مِنْ جميعِ ما أوردناهُ في الخلافياتِ .

وبهـٰذا يتضحُ رجحانُ مذهبِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ في التخصيصِ

---

(١) وذلك عند خروجه من دار السلام ببغداد . « إتحاف » (٩/ ٦٨) .

بالأطعمةِ دونَ المكيلاتِ ، إذْ لوْ دخلَ الجصُّ فيهِ . . لكانتِ الثيابُ والدوابُّ أولىٰ بالدخولِ ، ولولا الملحُ . . لكانَ مذهبُ مالكٍ رحمةُ اللهِ عليهِ أقومَ المذاهبِ فيهِ ؛ إذْ خصَّصَهُ بالأقواتِ ، ولكنْ كلُّ معنىً يرعاهُ الشرعُ فلا بدَّ أنْ يُضبطَ بحدٍّ ، وتحديدُ هـٰذا كانَ ممكناً بالقوتِ ، وكانَ ممكناً بالمطعومِ ، فرأى الشرعُ التحديدَ بجنسِ المطعومِ أحرىٰ لكلِّ ما هوَ ضرورةُ البقاءِ ، وتحديداتُ الشرعِ قدْ تحيطُ بأطرافٍ لا يقوىٰ فيها أصلُ المعنى الباعثِ على الحكمِ ، ولكنَّ التحديدَ يقعُ كذلكَ بالضرورةِ ، ولوْ لمْ يُحدَّ . . لتحيَّرَ الخلقُ في تتبُّعِ جوهرِ المعنىٰ معَ اختلافِهِ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فعينُ المعنىٰ بكمالِ قوَّتِهِ يختلفُ باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ ، فيكونُ الحدُّ ضرورياً ، فلذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ ، ولأنَّ أصولَ هـٰذهِ المعاني لا تختلفُ فيها الشرائعُ ، وإنَّما تختلفُ في وجوهِ التحديدِ ؛ كما يحدُّ شرعُ عيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ تحريمَ الخمرِ بالسكْرِ ، وقدْ حدَّهُ شرعُنا بكونِهِ مِنْ جنسِ المسكرِ ؛ لأنَّ قليلَهُ يدعو إلىٰ كثيرِهِ ، والداخلُ في الحدودِ داخلٌ في التحريمِ بحكمِ الحسمِ[1] ، كما دخل أصلُ المعنىٰ بالحكمةِ الأصليَّةِ .

فهـٰذا مثالٌ واحدٌ لحكمةٍ خفيَّةٍ مِنْ حِكَمِ النقدينِ ، فينبغي أنْ يعتبرَ شكرَ النعمةِ وكفرانَها بهـٰذا المثالِ ، فكلُّ ما خُلِقَ لحكمةٍ . . فلا ينبغي أنْ يُصرفَ عنها ، ولا يعرفُ هـٰذا إلا مَنْ قدْ عرفَ الحكمةَ ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ، ولكنْ لا تُصادفُ جواهرُ الحِكَمِ في قلوبٍ هيَ مزابلُ

---

(١) وفي بعض النسخ : (بحكمة الحسم) بدل (بحكم الحسم) .

الشهواتِ وملاعبُ الشياطينِ ، بلْ لا يتذكَّرُ إلا أولو الألبابِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماءِ »[1] .

وإذا عرفتَ هٰذا المثالَ . . فقسْ عليهِ حركتَكَ وسكونَكَ ، ونطقَكَ وسكوتَكَ ، وكلَّ فعلٍ صادرٍ منكَ ؛ فإنَّهُ إمَّا شكرٌ وإمَّا كفرٌ ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ عنهُما ، وبعضُ ذلكَ نصفُهُ في لسانِ الفقهِ الذي تناطقَ بهِ عوامُّ الناسِ بالكراهةِ وبعضُهُ بالحظْرِ ، وكلُّ ذلكَ عندَ أربابِ القلوبِ موصوفٌ بالحظْرِ ، فأقولُ مثلاً :

لو استنجيتَ باليمينِ . . فقدْ كفرتَ نعمةَ اليدينِ ؛ إذْ خلقَ اللهُ لكَ اليدينِ ، وجعلَ إحداهُما أقوىٰ مِنَ الأخرىٰ ، فاستحقَّ الأقوىٰ بمزيدِ رجحانِهِ في الغالبِ التشريفَ والتفضيلَ ؛ إذْ تفضيلُ الناقصِ عدولٌ عنِ العدْلِ ، واللهُ لا يأمرُ إلا بالعدلِ ، ثمَّ أحوجَكَ مَنْ أعطاكَ اليدينِ إلىٰ أعمالٍ بعضُها شريفةٌ كأخذِ المصحفِ ، وبعضُها خسيسةٌ كإزالةِ النجاسةِ ، فإذا أخذتَ المصحفَ باليسارِ وأزلتَ النجاسةَ باليمينِ . . فقدْ خصصتَ الشريفَ بما هوَ خسيسٌ ، فغضضتَ مِنْ حقِّه وظلمتَهُ وعدلتَ عنِ العدْلِ .

وكذلكَ إذا بصقتَ مثلاً في جهةِ القبلةِ أوِ استقبلتَها في قضاءِ الحاجةِ . . فقدْ كفرتَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ في خلْقِ الجهاتِ وخلْقِ سعةِ العالمِ ؛ لأنَّهُ خلقَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٣٥٣) .

الجهاتِ لتكونَ متسعَكَ في حركتِكَ ، وقسمَ الجهاتِ إلىٰ ما لمْ يشرِّفْها ، وإلىٰ ما شرَّفَها بأنْ وضعَ فيها بيتاً أضافَهُ إلىٰ نفسِهِ استمالةً لقلبِكَ إليهِ ؛ ليتقيَّدَ بهِ قلبُكَ ، فيتقيَّدَ بسببِهِ بدنُكَ في تلكَ الجهةِ علىٰ هيئةِ الثباتِ والوقارِ إذا عبدتَ ربَّكَ ، وكذلكَ انقسمَتْ أفعالُكَ إلىٰ ما هيَ شريفةٌ كالطاعاتِ ، وإلىٰ ما هيَ خسيسةٌ كقضاءِ الحاجةِ ورمي البصاقِ ، فإذا رميتَ بصاقَكَ إلىٰ جهةِ القبلةِ . . فقدْ ظلمتَها وكفرتَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ عليكَ بوضعِ القبلةِ التي بوضعِها كمالُ عبادتِكَ .

وكذلكَ إذا لبستَ خفَّكَ فابتدأتَ باليسرىٰ . . فقدْ ظلمتَ ؛ لأنَّ الخفَّ وقايةٌ للرجْلِ ، فللرجْلِ فيهِ حظٌّ ، والبدايةُ في الحظوظِ ينبغي أنْ تكونَ بالأشرفِ ، فهوَ العدْلُ والوفاءُ بالحكمةِ ، ونقيضُهُ ظلمٌ وكفرانٌ لنعمةِ الرجْلِ والخفِّ ، وهـٰذا عندَ العارفينَ كبيرةٌ وإنْ سمَّاهُ الفقيهُ مكروهاً ، حتىٰ إنَّ بعضَهُمْ كانَ قدْ جمعَ أكراراً مِنَ الحنطةِ ، وكانَ يتصدَّقُ بها ، فسُئِل عنْ سببِهِ فقالَ : لبستُ المداسَ مرَّةً فابتدأتُ بالرجلِ اليسرىٰ سهواً ، فأريدُ أنْ أكفِّرَهُ بالصدقةِ .

نعم ، الفقيهُ لا يقدرُ علىٰ تفخيمِ الأمرِ في هـٰذهِ الأمورِ ؛ لأنَّهُ مسكينٌ ، بُلِيَ بإصلاحِ العوامِّ الذينَ تقربُ درجتُهُمْ مِنْ درجةِ الأنعامِ وهُمْ منغمسونَ في ظلماتٍ أطمَّ وأعظمَ مِنْ أنْ تظهرَ أمثالُ هـٰذهِ الظلماتِ بالإضافةِ إليها ، فقبيحٌ أنْ يُقالَ : الذي شربَ الخمرَ وأخذَ القدحَ بيسارِهِ فقدْ تعدَّىٰ مِنْ وجهينِ : أحدُهُما : الشربُ ، والآخرُ : الأخذُ باليسارِ ، ومَنْ باعَ خمراً في وقتِ

النداءِ يومَ الجمعةِ فقبيحٌ أنْ يُقالَ : خالفَ مِنْ وجهينِ : أحدُهُما : بيعُ الخمرِ ، والآخرُ : البيعُ في وقتِ النداءِ ، ومَنْ قضىٰ حاجتَهُ في محرابِ المسجدِ مستدبرَ القبلةِ فقبيحٌ أنْ يُذكرَ تركُهُ الأدبَ في قضاءِ الحاجةِ مِنْ حيثُ إنَّهُ لـمْ يجعلِ القبلةَ عنْ يمينِهِ !

فالمعاصي كلُّها ظلماتٌ ، وبعضُها فوقَ بعضٍ ، فينمحقُ بعضُها في جنْبِ البعضِ ، فالسيِّدُ قدْ يعاقبُ عبدَهُ إذا استعملَ سكينَهُ بغيرِ إذنِهِ ، ولكنْ لوْ قتلَ بتلكَ السكينِ أعزَّ أولادِهِ . . لمْ يبقَ لاستعمالِ السكينِ بغيرِ إذنِهِ حكْمٌ ونكايةٌ في نفسِهِ ، فكلُّ ما راعاهُ الأنبياءُ والأولياءُ مِنَ الآدابِ وتسامحنا فيهِ في الفقهِ معَ العوامِّ . . فسببُهُ هـٰذهِ الضرورةُ ، وإلا . . فكلُّ هـٰذهِ المكارهِ عدولٌ عنِ العدْلِ ، وكفرانٌ للنعمةِ ، ونقصانٌ عنِ الدرجةِ المبلغةِ للعبدِ إلىٰ درجاتِ القرْبِ .

نعمْ ، بعضُها يؤثِّرُ في العبدِ بنقصانِ القربِ وانحطاطِ المنزلةِ ، وبعضُها يخرجُ بالكليَّةِ عنْ حدودِ القرْبِ إلىٰ عالمِ البعدِ الذي هوَ مستقرُّ الشياطينِ .

وكذلكَ مَنْ كسَرَ غصناً مِنْ شجرةٍ مِنْ غيرِ حاجةٍ ناجزةٍ مهمةٍ ومِنْ غيرِ غرضٍ صحيحٍ . فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ تعالىٰ في خلقِ الأشجارِ وخلْقِ اليدِ .

أمَّا اليدُ . . فإنَّها لـمْ تُخلقْ للعبثِ ، بلْ للطاعةِ والأعمالِ المعينةِ على الطاعةِ .

وأمَّا الشجرُ . . فإنَّما خلقَهُ اللهُ تعالىٰ ، وخلقَ لهُ العروقَ ، وساقَ إليهِ

الماءَ ، وخلقَ فيهِ قوَّةَ الاغتذاءِ والنماءِ.. ليبلغَ منتهىٰ نشوئِهِ فينتفعَ بهِ عبادُهُ ، فكسرُهُ قبلَ منتهىٰ نشوئِهِ لا علىٰ وجهٍ ينتفعُ بهِ عبادُهُ مخالفةٌ لمقصودِ الحكمةِ ، وعدولٌ عنِ العدْلِ ، فإنْ كانَ لهُ غرضٌ صحيحٌ.. فلهُ ذلكَ ؛ إذِ الشجرُ والحيوانُ جُعِلاَ فداءً لأغراضِ الإنسانِ ؛ فإنَّهُما جميعاً فانيانِ هالكانِ ، فإفناءُ الأخسِّ في بقاءِ الأشرفِ مدَّةً ما أقربُ إلى العدْلِ مِنْ تضييعِهِما جميعاً ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ .

نعمْ ، إنْ كسرَ ذلكَ مِنْ ملكِ غيرِهِ.. فهوَ ظالمٌ أيضاً وإنْ كانَ محتاجاً ؛ لأنَّ كلَّ شجرةٍ بعينِها لا تفي بحاجاتِ عبادِ اللهِ كلِّهِمْ ، بلْ تفي بحاجةٍ واحدةٍ ، ولوْ خُصِّصَ واحدٌ بها مِنْ غيرِ رجحانٍ واختصاصٍ.. كانَ ظلماً ، وصاحبُ الاختصاصِ هوَ الذي حصَّلَ البذرَ ووضعَهُ في الأرضِ وساقَ إليهِ الماءَ وقامَ بالتعهُّدِ ، فهوَ أولىٰ بهِ مِنْ غيرِهِ ، فيرجحُ جانبُهُ بذلكَ ، فإنْ نبتَ ذلكَ في مواتِ الأرضِ لا بسعيِ آدميٍّ اختصَّ بمغرسِهِ أوْ بغرسِهِ.. فلا بدَّ مِنْ طلبِ اختصاصٍ آخرَ ، وهوَ السبْقُ إلىٰ أخذِهِ ، فللسابقِ خاصِّيَّةُ السبقِ ، فالعدْلُ أنْ يكونَ هوَ أولىٰ بهِ ، وعبَّرَ الفقهاءُ عنْ هٰذا الترجيحِ بالملكِ ، وهوَ مجازٌ محضٌ ؛ إذْ لا ملكَ إلا لملكِ الملوكِ الذي لهُ ما في السماواتِ والأرضِ ، وكيفَ يكونُ العبدُ مالكاً وهوَ في نفسِهِ ليسَ يملكُ نفسَهُ بلْ هوَ ملكُ غيرِهِ ؟!

نعمِ ، الخلقُ عبادُ اللهِ ، والأرضُ مائدةُ اللهِ ، وقدْ أذنَ لهُمْ في الأكلِ مِنْ مائدتِهِ بقدْرِ حاجتِهِمْ ؛ كالملكِ ينصبُ مائدةً لعبيدِهِ ، فمَنْ أخذَ لقمةً بيمينِهِ

واحتوتْ عليها براجمُهُ ، فجاءَ عبدٌ آخرُ وأرادَ انتزاعَها مِنْ يدِهِ . . لمْ يُمكَّنْ منهُ ، لا لأنَّ اللقمةَ صارَتْ ملكاً لهُ بالأخذِ باليدِ ؛ فإنَّ اليدَ وصاحبَ اليدِ أيضاً مملوكٌ ، ولكنْ إذا كانَتْ كلُّ لقمةٍ بعينِها لا تفي بحاجةِ كلِّ العبيدِ . . فالعدْلُ في التخصيصِ عندَ حصولِ ضربٍ مِنَ الترجيحِ والاختصاصِ والأخذِ . . اختصاصٌ ينفردُ بهِ العبدُ ، فمنعُ مَنْ لا يدلي بذلكَ الاختصاصِ عنْ مزاحمتِهِ . . عدْلٌ .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ أمرَ اللهِ في عبادِهِ ، ولذلكَ نقولُ : مَنْ أخذَ مِنْ أموالِ الدنيا أكثرَ مِنْ حاجتِهِ وكنزَهُ وأمسكَهُ وفي عبادِ اللهِ مَنْ يحتاجُ إليهِ . . فهوَ ظالمٌ ، وهوَ منَ الذينَ يكنزونَ الذهبَ والفضَّةَ ولا ينفقونَها في سبيلِ اللهِ ، وإنَّما سبيلُ اللهِ طاعتُهُ ، وزادُ الخلقِ في طاعتِهِ أموالُ الدنيا ؛ إذْ بها تندفعُ ضروراتُهُمْ وترتفعُ حاجاتُهُمْ .

نعمْ ، لا يدخلُ هـٰذا في حدِّ فتاوى الفقهِ ؛ لأنَّ مقاديرَ الحاجاتِ خفيَّةٌ ، والنفوسُ في استشعارِ الفقرِ في الاستقبالِ مختلفةٌ ، وأواخرُ الأعمارِ غيرُ معلومةٍ ، فتكليفُ العوامِّ ذلكَ يجري مَجرىٰ تكليفِ الصبيانِ الوقارَ والتؤدةَ والسكوتَ عنْ كلِّ كلامٍ غيرِ مهمٍّ ، وهُمْ بحكْمِ نقصانِهِمْ لا يطيقونَهُ ، فتركنا الاعتراضَ عليهِمْ في اللعبِ واللهوِ ، وإباحتُنا إيَّاهُمْ ذلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّ اللهوَ واللعبَ حقٌّ ؛ فكذلكَ إباحتُنا للعوامِّ حفْظَ الأموالِ والاقتصارَ في الإنفاقِ علىٰ قدْرِ الزكواتِ لضرورةِ ما جُبلوا عليهِ مِنَ البخلِ . . لا يدلُّ علىٰ أنَّهُ غايةُ الحقِّ .

وقدْ أشارَ القرآنُ إليهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾[1] ، بلِ الحقُّ الذي لا كدورةَ فيهِ والعدْلُ الذي لا ظلمَ فيهِ ألا يأخذ أحدٌ مِنْ عبادِ اللهِ مِنْ مالِ اللهِ إلا بقدْرِ زادِ الراكبِ ، وكلُّ عبادِ اللهِ ركَّابٌ لمطايا الأبدانِ إلىٰ حضرةِ الملكِ الديَّانِ ، فمتىٰ أخذَ زيادةً عليهِ ، ومنعَهُ عنْ راكبٍ آخرَ محتاجٍ إليهِ . . فهوَ ظالمٌ تاركٌ للعدْلِ ، وخارجٌ عنْ مقصودِ الحكمةِ ، وكافرٌ نعمةَ اللهِ تعالىٰ عليهِ بالقرآنِ والرسولِ والعقلِ وسائرِ الأسبابِ التي بها عرفَ أنَّ ما سوىٰ زادِ الراكبِ وبالٌ عليهِ في الدنيا والآخرة .

فمَنْ فهمَ حكمةَ اللهِ تعالىٰ في جميعِ أنواعِ الموجوداتِ . . قدرَ على القيامِ بوظيفةِ الشكرِ ، واستقصاءُ ذلكَ يحتاجُ إلىٰ مجلداتٍ ، ثمَّ لا يفي إلا بالقليلِ ، وإنَّما أوردنا هـٰذا القدْرَ ليُعلمَ علَّةُ الصدقِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ ، وفرحِ إبليسَ لعنَهُ اللهُ بقولِهِ : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ ، فلا يعرفُ معنىٰ هـٰذهِ الآيةِ مَنْ لمْ يعرفْ هـٰذا كلَّهُ وأموراً أخرَ وراءَ هـٰذا تنقضي الأعمارُ دونَ استقصاءِ مباديها ، فأمَّا تفسيرُ الآيةِ ومعنىٰ لفظِها . . فيعرفُهُ كلُّ مَنْ يعرفُ اللغةَ ، وبهـٰذا يتبيَّنُ لكَ الفرقُ بينَ المعنىٰ والتفسيرِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) أي : متىٰ يبالغ في سؤالكم حتىٰ لا تبقوا منها شيئاً إلا وقد صرفتموه في سبيل الحق . . تبخلوا ، وذلك مقتضى الجبلية . « إتحاف » (٩/ ٧١) .

فإنْ قلتَ : فقدْ رجعَ حاصلُ هٰذا الكلامِ إلىٰ أنَّ للهِ تعالىٰ حكمةً في كلِّ شيءٍ ، وأنَّهُ جعلَ بعضَ أفعالِ العبادِ سبباً لتمامِ تلكَ الحكمةِ وبلوغِها غايةَ المرادِ منها ، وجعلَ بعضَ أفعالِهِمْ مانعاً مِنْ تمامِ الحكمةِ ، فكلُّ فعلٍ وافقَ مقتضى الحكمةِ حتَّى انساقَتِ الحكمةُ إلىٰ غايتِها . . فهوَ شكرٌ ، وكلُّ ما خالفَ ومنعَ الأسبابَ مِنْ أنْ تنساقَ إلى الغايةِ المرادةِ بها . . فهوَ كفرانٌ ، وهٰذا كلُّهُ مفهومٌ ، ولكنَّ الإشكالَ باقٍ ، وهوَ أنَّ فعلَ العبدِ المنقسمَ إلىٰ ما يتمِّمُ الحكمةَ وإلىٰ ما يدفعُها . . هوَ أيضاً مِنْ فعلِ اللهِ تعالىٰ ، فأينَ العبدُ في البينِ حتَّىٰ يكونَ شاكراً مرَّةً وكافراً أخرى ؟

فاعلمْ : أنَّ تمامَ التحقيقِ في هٰذا يُستمدُّ مِنْ تيارِ بحرٍ عظيمٍ مِنْ علومِ المكاشفاتِ ، وقدْ رمزنا فيما سبقَ إلىٰ تلويحاتٍ بمباديها ، ونحنُ الآنَ نعبِّرُ بعبارةٍ وجيزةٍ عنْ آخرِها وغايتِها ، يفهمُها مَنْ عرفَ منطقَ الطيرِ ، ويجحدُها مَنْ عجزَ عنِ الإيضاعِ في السيرِ[1] ، فضلاً عنْ أنْ يجولَ في جوِّ الملكوتِ جولانَ الطيرِ ، فنقولُ :

إنَّ للهِ سبحانَهُ في جلالِهِ وكبريائِهِ صفةً عنها يصدرُ الخلقُ والاختراعُ ، وتلكَ الصفةُ أعلىٰ وأجلُّ مِنْ أنْ تلمحَها عينُ واضعِ اللغةِ حتَّىٰ يعبِّرَ عنها بعبارةٍ تدلُّ علىٰ كنْهِ جلالِها وخصوصِ حقيقتِها ، فلمْ يكنْ لها في العالمِ عبارةٌ لعلوِّ شأنِها وانحطاطِ رتبةِ واضعي اللغاتِ عنْ أنْ يمتدَّ طرفُهُمْ إلىٰ

(١) أي : الإسراع في السير .

مبادي إشراقِها ، فانخفضَتْ عنْ ذروتِها أبصارُهُمْ كما تنخفضُ أبصارُ الخفافيشِ عنْ نورِ الشمسِ ، لا لغموضٍ في نورِ الشمسِ ، ولكنْ لضعفٍ في أبصارِ الخفافيشِ ، فاضطرَّ الذينَ فُتحَتْ أبصارُهُمْ لملاحظةِ جلالِها إلىٰ أنْ يستعيروا مِنْ حضيضِ عالمِ المتناطقينَ باللغاتِ عبارةً تفهمُ مِنْ مبادي حقائقِها شيئاً ضعيفاً جداً ، فاستعاروا لها اسمَ القدرةِ ، فتجاسرنا بسببِ استعارتِهِمْ على النطقِ فقلنا : للهِ تعالىٰ صفةٌ هيَ القدرةُ ، عنها يصدرُ الخلْقُ والاختراعُ .

ثمَّ الخلْقُ ينقسمُ في الوجودِ إلىٰ أقسامٍ وخصوصِ صفاتٍ ، ومصدرُ انقسامِ هـٰذهِ الأقسامِ واختصاصُها بخصوصِ صفاتِها صفةٌ أخرى استُعيرَ لها بمثلِ الضرورةِ التي سبقَتْ عبارةُ المشيئةِ ، فهيَ توهمُ منها أمراً مجملاً عندَ المتناطقينَ باللغاتِ التي هيَ حروفٌ وأصواتُ المتفاهمينَ بها ، وقصورُ لفظِ المشيئةِ عنِ الدلالةِ علىٰ كنهِ تلكَ الصفةِ وحقيقتِها كقصورِ لفظِ القدرةِ .

ثمَّ انقسمَتِ الأفعالُ الصادرةُ مِنَ القدرةِ إلىٰ ما ينساقُ إلى المنتهى الذي هوَ غايةُ حكمتِها وإلىٰ ما يقفُ دونَ الغايةِ ، وكانَ لكلٍّ واحدٍ نسبةٌ إلىٰ صفةِ المشيئةِ ؛ لرجوعِها إلى الاختصاصاتِ التي بها تتمُّ القسمةُ والاختلافُ ، فاستُعيرَ لنسبةِ البالغِ غايتَهُ عبارةُ المحبَّةِ ، واستُعيرَ لنسبةِ الواقفِ دونَ غايتِهِ عبارةُ الكراهةِ ، وقيلَ : إنَّهُما جميعاً داخلانِ في وصفِ المشيئةِ ، ولكنْ لكلٍّ واحدٍ خاصِّيَّةٌ أخرىٰ في النسبةِ ، يوهمُ لفظُ المحبَّةِ والكراهةِ منهُما أمراً مجملاً عندَ طالبي الفهمِ مِنَ الألفاظِ واللغاتِ .

ثمَّ انقسمَ عبادُهُ الذينَ هُمْ أيضاً مِنْ خلقِهِ واختراعِهِ إلىٰ مَنْ سبقَتْ لهُ في المشيئةِ الأزليَّةِ أنْ يستعملَهُ لاستيقافِ حكمتِهِ دونَ غايتِها ، ويكونُ ذلكَ قهراً في حقِّهِمْ بتسليطِ الدواعي والبواعثِ عليهِمْ ، وإلىٰ مَنْ سبقَتْ لهُمْ في الأزلِ أنْ يستعملَهُمْ لسياقةِ حكمتِهِ إلىٰ غايتِها في بعضِ الأمورِ ، فكانَ لكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقينِ نسبةٌ إلى المشيئةِ خاصَّةٌ ، فاستُعيرَ لنسبةِ المستعمَلينَ في إتمامِ الحكمةِ بهِمْ عبارةُ الرضا ، واستُعيرَ للذينَ استوقفَ بهِمْ أسبابَ الحكمةِ دونَ غايتِها عبارةُ الغضبِ ، فظهرَ علىٰ مَنْ غضبَ عليهِ في الأزلِ فعلٌ وقفَتِ الحكمةُ بهِ دونَ غايتِها ، فاستُعيرَ لهُ الكفرانُ ، وأُردفَ ذلكَ بنقمةِ اللعنِ والمذمَّةِ زيادةً في النكالِ ، وظهرَ علىٰ مَنِ ارتضاهُ في الأزلِ فعلٌ انساقَتْ بسببِهِ الحكمةُ إلىٰ غايتِها ، فاستُعيرَ لهُ عبارةُ الشكرِ ، وأُردفَ بخلعةِ الثناءِ والإطراءِ زيادةً في الرضا والقبولِ والإقبالِ .

فكانَ الحاصلُ أنَّهُ تعالىٰ أعطى الجمالَ ثمَّ أثنىٰ ، وأعطى النكالَ ثمَّ قبَّحَ وأردىٰ ، وكانَ مثالُهُ أنْ ينظِّفَ الملكُ عبدَهُ الوسِخَ عنْ أوساخِهِ ، ثمَّ يلبسَهُ مِنْ محاسنِ ثيابِهِ ، فإذا تمَّمَ زينتَهُ . . قالَ : يا جميلُ ؛ ما أجملَكَ وأجملَ ثيابَكَ وأنظفَ وجهَكَ ! فيكونُ بالحقيقةِ هوَ المجمِّلَ وهوَ المثنيَ على الجمالِ ، فهو المُثنىٰ عليهِ بكلِّ حالٍ ، وكأنَّهُ لمْ يثنِ مِنْ حيثُ المعنىٰ إلا علىٰ نفسِهِ ، وإنَّما العبدُ هدفُ الثناءِ مِنْ حيثُ الظاهرُ والصورةُ .

فهكذا كانتِ الأمورُ في أزلِ الآزالِ ، وهكذا تسلسلتِ الأسبابُ والمسبَّباتُ بتقديرِ ربِّ الأربابِ ومسبِّبِ الأسبابِ ، ولمْ يكنْ ذلكَ عنِ اتفاقٍ

وبحثٍ ، بلْ عنْ إرادةٍ وحكمةٍ ، وحكمٍ حقٍّ وأمرٍ جزْمٍ استُعيرَ لهُ لفظُ القضاءِ ، وقيلَ : إنَّهُ كلمحٍ بالبصرِ أوْ هوَ أقربُ ، ففاضَتْ بحارُ المقاديرِ بحكْمِ ذلكَ القضاءِ الجزْمِ بما سبقَ بهِ التقديرُ ، فاستُعيرَ لترتُّبِ آحادِ المقدوراتِ بعضِها علىٰ بعضٍ لفظُ القَدَرِ ، فكانَ لفظُ القضاءِ بإزاءِ الأمرِ الواحدِ الكلِّيِّ ، ولفظُ القَدَرِ بإزاءِ التفصيلِ المتمادي إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وقيلَ : إنَّ شيئاً مِنْ ذلكَ ليسَ خارجاً عنِ القضاءِ والقدَرِ ، فخطرَ لبعضِ العبادِ أنَّ القسمةَ لماذا اقتضتْ هـٰذا التفصيلَ ؟ وكيفَ انتظمَ العدْلُ معَ هـٰذا التفاوتِ والتفضيلِ ؟ وكانَ بعضُهُمْ لقصورِهِ لا يطيقُ ملاحظةَ كنْهِ هـٰذا الأمرِ والاحتواءِ علىٰ مجامعِهِ ، فأُلجموا عمَّا لمْ يطيقوا خوضَ غمرتِهِ بلجامِ المنعِ ، وقيلَ لهُمُ : اسكتوا ، فما لهـٰذا خلقتُمْ ، لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهُمْ يُسألونَ .

وامتلأَتْ مشكاةُ بعضِهِمْ نوراً مقتبَساً مِنْ نورِ اللهِ تعالىٰ في السماواتِ والأرضِ ، وكانَ زيتُهُمْ أوَّلاً صافياً يكادُ يضيءُ ولوْ لمْ تمسسْهُ نارٌ ، فمسَّتْهُ نارٌ ، فاشتعلَ نوراً علىٰ نورٍ ، فأشرقَتْ أقطارُ الملكوتِ بينَ أيديهِمْ بنورِ ربِّها ، فأدركوا الأمورَ كلَّها علىٰ ما هيَ عليهِ ، فقيلَ لهُمْ : تأدَّبوا بآدابِ اللهِ تعالىٰ واسكتوا ، وإذا ذُكِرَ القَدَرُ . فأمسكوا ؛ فإنَّ للحيطانِ آذاناً ، وحوالَيْكُمْ ضعفاءُ الأبصارِ ، فسيروا بسيرِ أضعفِكُمْ ، ولا تكشفوا حجابَ الشمسِ لأبصارِ الخفافيشِ ، فيكونَ ذلكَ سببَ هلاكِهِمْ ، فتخلَّقوا بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ ، وانزلوا إلىٰ سماءِ الدنيا مِنْ منتهىٰ علوِّكُمْ ليأنسَ بكُمُ الضعفاءُ ، ويقتبسوا مِنْ بقايا أنوارِكُمُ المشرقةِ مِنْ وراءِ حجابِكُمْ ؛ كما

يقتبسُ الخفافيشُ مِنْ بقايا نورِ الشمسِ والكواكبِ في جنحِ الليلِ ، فيحيا بهِ حياةً يحتملُها شخصُهُ وحالُهُ ، وإنْ كانَ لا يحيا بهِ حياةَ المتردِّدينَ في كمالِ نورِ الشمسِ ، وكونوا كمَنْ قيلَ فيهِمْ[1] : [من الطويل]

شَرِبْنا شَراباً طَيِّباً عِنْدَ طَيِّبٍ ... كَذاكَ شَرابُ ٱلطَّيِّبينَ يَطيبُ

شَرِبْنا وَأَهْرَقْنا عَلى ٱلأَرْضِ فَضْلَةً ... وَلِلْأَرْضِ مِنْ كَأْسِ ٱلْكِرامِ نَصيبُ

فهكذا كانَ أوَّلُ هٰذا الأمرِ وآخرُهُ ، ولا تفهمُهُ إلا إذا كنتَ أهلاً لهُ ، وإذا كنتَ أهلاً لهُ.. فتحتَ العينَ وأبصرتَ ، فلا تحتاجُ إلىٰ قائدٍ يقودُكَ ، والأعمىٰ يمكنُ أنْ يُقادَ ، ولكنْ إلىٰ حدٍّ ما ، فإذا ضاقَ الطريقُ وصارَ أحدَّ مِنَ السيفِ وأدقَّ مِنَ الشعرِ.. قدرَ الطائرُ علىٰ أنْ يطيرَ عليهِ ، ولمْ يقدرْ علىٰ أنْ يستجرَّ وراءَهُ أعمىٰ ، وإذا دقَّ المجالُ ولطُفَ لطْفَ الماءِ مثلاً ، ولمْ يمكنِ العبورُ إلا بالسباحةِ.. فقدْ يقدرُ الماهرُ بصنعةِ السباحةِ أنْ يعبرَ بنفسِهِ ، وربَّما لمْ يقدرْ علىٰ أنْ يستجرَّ وراءَهُ آخرَ .

فهٰذهِ أمورٌ نسبةُ السيرِ عليها إلى السيرِ علىٰ ما هوَ مجالُ جماهيرِ الخلْقِ كنسبةِ المشيِ على الماءِ إلى المشيِ على الأرضِ ، والسباحةُ يمكنُ أنْ تُتعلَّمَ ، فأمَّا المشيُ على الماءِ.. فلا يُكتسبُ بالتعلُّمِ ، بلْ يُنالُ بقوَّةِ اليقينِ ، ولذلكَ قيلَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ عيسىٰ عليهِ السلامُ

---

(١) انظر « زهر الأكم » (١/ ٢٦٥) .

يُقالُ : إنَّهُ مشىٰ على الماءِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لو ازدادَ يقيناً . . لمشىٰ على الهواءِ »[1] .

فهٰذهِ رموزٌ وإشاراتٌ إلىٰ معنى الكراهةِ والمحبَّةِ ، والرضا والغضبِ ، والشكرِ والكفرانِ ، لا يليقُ بعلمِ المعاملةِ أكثرُ منها .

وقدْ ضربَ اللهُ مثلاً لذلكَ تقريباً إلىٰ أفهامِ الخلْقِ ؛ إذْ عرَّفَ أنَّهُ ما خلقَ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدوهُ ، فكانَتْ عبادتُهُمْ غايةَ الحكمةِ في حقِّهِمْ ، ثمَّ أخبرَ أنَّ لهُ عبدينِ ؛ يحبُّ أحدَهُما ، واسمُهُ جبريلُ وروحُ القدُسِ والأمينُ ، وهوَ عندَهُ محبوبٌ مطاعٌ أمينٌ مكينٌ ، ويبغضُ الآخرَ ، واسمُهُ إبليسُ ، وهوَ اللعينُ ، المُنْظَرُ إلىٰ يومِ الدينِ .

ثمَّ أحالَ الإرشادَ إلىٰ جبريلَ فقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ، وأحالَ الإغواءَ علىٰ إبليسَ فقالَ تعالىٰ : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ، والإغواءُ : هوَ استيقافُ العبادِ دونَ بلوغِ غايةِ الحكمةِ ، فانظرْ كيفَ نسبَهُ إلى العبدِ الذي غضبَ عليهِ ، والإرشادُ : سياقةٌ لهُمْ إلى الغايةِ ، فانظرْ كيفَ نسبَهُ إلى العبدِ الذي أحبَّهُ .

وعندَكَ في العادةِ لهُ مثالٌ ؛ فالملكُ إذا كانَ محتاجاً إلىٰ مَنْ يسقيهِ

---

(١) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (ص٤٨٧) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وهو كذلك عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٣٠٣) ، وانظر « الإتحاف » (٩/ ٧٥) .

الشرابَ وإلىٰ مَنْ يحجمُهُ وينظِّفُ فِناءَ منزلِهِ عنِ القاذوراتِ وكانَ لهُ عبدانِ . . فلا يعيِّنُ للحجامةِ والتنظيفِ إلا أقبحَهُما وأخسَّهُما ، ولا يفوِّضُ حملَ الشرابِ الطيِّبِ إلا إلىٰ أحسنِهما وأكملِهما وأحبِّهما إليهِ .

ولا ينبغي أنْ تقولَ : هـٰذا فعلي ، فلِمَ يكونُ فعلُهُ علىٰ وِزانِ فعلي ؟ فإنَّكَ أخطأتَ إذْ أضفتَ ذلكَ إلىٰ نفسِكَ ، بلْ هوَ الذي صرفَ داعيتَكَ لتخصيصِ الفعلِ المكروهِ بالشخصِ المكروهِ والفعلِ المحبوبِ بالشخصِ المحبوبِ ؛ إتماماً للعدْلِ ، فإنَّ عدْلَهُ تارةً يتمُّ بأمورٍ لا مدخلَ لكَ فيها ، وتارةً يتمُّ فيكَ ، فإنَّكَ أيضاً مِنْ أفعالِهِ ، فداعيتُكَ وقدرتُكَ ، وعلمُكَ وعملُكَ ، وسائرُ أسبابِ حركاتِكَ في التعيينِ . . هوَ فعلُهُ الذي رتَّبَهُ بالعدلِ ترتيباً تصدرُ منهُ الأفعالُ المعتدلةُ ، إلا أنَّكَ لا ترىٰ إلا نفسَكَ ، فتظنُّ أنَّ ما يظهرُ عليكَ في عالمِ الشهادةِ ليسَ لهُ سببٌ مِنْ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، فلذلكَ تضيفُهُ إلىٰ نفسِكَ .

وإنَّما أنتَ مثلُ الصبيِّ الذي ينظرُ ليلاً إلىٰ لعبِ المشعوذِ الذي يخرجُ صوراً مِنْ وراءِ حجابٍ ترقصُ وتزعقُ وتقومُ وتقعدُ ، وهيَ مؤلَّفةٌ مِنْ خرقٍ لا تتحرَّكُ بأنفسِها ، وإنَّما تحرِّكُها خيوطٌ شعريَّةٌ دقيقةٌ لا تظهرُ في ظلامِ الليلِ ، ورؤوسُها في يدِ المشعوذِ ، وهوَ محتجبٌ عنْ أبصارِ الصبيانِ ، فيفرحونَ ويتعجَّبونَ ؛ لظنِّهِمْ أنَّ تلكَ الخرقَ ترقصُ وتلعبُ وتقومُ وتقعدُ ، وأمَّا العقلاءُ . . فإنَّهُمْ يعلمونَ أنَّ ذلكَ تحريكٌ وليسَ بتحرُّكٍ ، ولكنَّهُمْ ربَّما لا يعلمونَ كيفَ تفصيلُهُ ، والذي يعلمُ بعضَ تفصيلِهِ لا يعلمُهُ كما

يعلمُهُ المشعوذُ الذي الأمرُ إليهِ والجاذبةُ بيدِهِ .

فكذلكَ صبيانُ أهلِ الدنيا ، والخلقُ كلُّهُمْ صبيانٌ بالنسبةِ إلى العلماءِ ، ينظرونَ إلىٰ هـٰذهِ الأشخاصِ فيظنُّونَ أنَّها المتحرِّكةُ ، فيحيلونَ عليها ، والعلماءُ يعلمونَ أنَّهُمْ محرَّكونَ إلا أنَّهُمْ لا يعرفونَ كيفيَّةَ التحريكِ وهُمُ الأكثرونَ ، إلا العارفونَ والعلماءُ الراسخونَ ، فإنَّهُمْ أدركوا بحدَّةِ أبصارِهِمْ خيوطاً دقيقةً عنكبوتيَّةً ، بلْ أدقُّ منها بكثيرٍ ، معلَّقةً مِنَ السماءِ متشبثةَ الأطرافِ بأشخاصِ أهلِ الأرضِ ، لا تُدركُ تلكَ الخيوطُ لدقَّتِها بهـٰذهِ الأبصارِ الظاهرةِ ، ثمَّ شاهدوا رؤوسَ تلكَ الخيوطِ في مناطاتٍ لها هيَ معلَّقةٌ بها ، وشاهدوا لتلكَ المناطاتِ مقابضَ هيَ في أيدي الملائكةِ المحرِّكينَ للسماواتِ ، وشاهدوا أبصارَ ملائكةِ السماواتِ مصروفةً إلىٰ حملةِ العرشِ ، ينتظرونَ منهُم ما ينزلُ عليهِمْ مِنَ الأمرِ مِنْ حضرةِ الربوبيَّةِ كيْ لا يعصوا اللهَ ما أمرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمرونَ .

وعُبِّرَ عنْ هـٰذهِ المكاشفاتِ في القرآنِ فقيلَ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وعُبِّرَ عنِ انتظارِ ملائكةِ السماواتِ لما ينزلُ إليهِمْ مِنَ الأمرِ والقدرِ فقيلَ : ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

وهـٰذهِ أمورٌ لا يعلمُ تأويلَها إلا اللهُ والراسخونَ في العلمِ ، وعبَّرَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عنِ اختصاصِ الراسخينَ في العلمِ بعلومٍ لا تحتملُها

أفهامُ الخلقِ حيثُ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ فقالَ : (لوْ ذكرتُ ما أعرفُهُ مِنْ معنىٰ هـٰذهِ الآيةِ . . لرجمتُموني) ، وفي لفظٍ آخرَ : (لقلتُمْ : إنَّهُ كافرٌ)[1] .

ولنقتصرْ علىٰ هـٰذا القدْرِ ، فقدْ خرجَ عِنانُ الكلامِ عنْ قبضةِ الاختيارِ ، وامتزجَ بعلمِ المعاملةِ ما ليسَ منهُ ، فلنرجعْ إلىٰ مقاصدِ الشكرِ ، فنقولُ :

إذا رجعَ حقيقةُ الشكرِ إلىٰ كونِ العبدِ مستعملاً في إتمامِ حكمةِ اللهِ تعالىٰ . . فأشكرُ العبادِ أحبُّهُمْ إلى اللهِ وأقربُهُمْ إليهِ ، وأقربُهُمْ إلى اللهِ الملائكةُ ، ولهُمْ أيضاً ترتيبٌ ، وما منهُمْ إلا لهُ مقامٌ معلومٌ ، وأعلاهُمْ في رتبةِ القرْبِ ملكٌ اسمُهُ إسرافيلُ عليهِ السلامُ ، وإنَّما علوُّ درجتِهِمْ لأنَّهُمْ في أنفسِهِمْ كرامٌ بررةٌ ، وقدْ أصلحَ اللهُ تعالىٰ بهِمُ الأنبياءَ عليهِمُ السلامُ وهُمْ أشرفُ مخلوقٍ علىٰ وجهِ الأرضِ ، وتلي درجتَهُمْ درجةُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ، فإنَّهُمْ في أنفسِهِمْ أخيارٌ ، وقدْ هدى اللهُ بهِمْ سائرَ الخلْقِ ، وتمَّمَ بهِمْ حكمتَهُ ، وأعلاهُمْ رتبةً نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ أكملَ اللهُ بهِ الدينَ ، وختمَ بهِ النبيِّينَ ، ويليهِمُ العلماءُ الذينَ هُمْ ورثةُ الأنبياءِ ، فإنَّهُمْ في أنفسِهِمْ صالحونَ ، وقدْ أصلحَ اللهُ بهِمْ سائرَ الخلقِ ، ودرجةُ كلِّ واحدٍ منهُمْ بقدْرِ ما أصلحَ مِنْ نفسهِ ومِنْ غيرِهِ ، ثمَّ يليهِمُ السلاطينُ بالعدْلِ ؛ لأنَّهُمْ أصلحوا دنيا الخلْقِ كما أصلحَ العلماءُ دينَهُمْ ، ولأجلِ اجتماعِ الدينِ والملكِ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥٣) ، وبنحوه رواه الطبري في « تفسيره » (١٤/٢٨/١٨٨) .

والسلطنةِ لنبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. . كانَ أفضلَ مِنْ سائرِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ؛ فإنَّهُ أكملَ اللهُ بهِ صلاحَ دينِهِمْ ودنياهُمْ ، ولمْ يكنِ السيفُ والملكُ لغيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ، ثمَّ يلي العلماءَ والسلاطينَ الصالحونَ الذينَ أصلحوا نفوسَهُمْ فقطْ ، فلمْ تتمَّ حكمةُ اللهِ بهِمْ إلا فيهِمْ ، ومَنْ عدا هؤلاءِ. . فهمَجٌ رَعاعٌ .

واعلمْ : أنَّ السلطانَ بهِ قوامُ الدينِ ، فلا ينبغي أنْ يُستحقرَ وإنْ كانَ ظالماً فاسقاً ، قال عمرُو بنُ العاصِ : (إمامٌ غشومٌ خيرٌ مِنْ فتنةٍ تدومُ)[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ عليكُمْ أمراءُ يفسدونَ وما يصلحُ اللهُ بهِمْ أكثرُ ، فإنْ أحسنوا. . فلهُمُ الأجرُ وعليكُمُ الشكرُ ، وإنْ أساؤوا. . فعليهِمُ الوزرُ وعليكُمُ الصبرُ »[2] .

وقالَ سهلٌ : (مَنْ أنكرَ إمامةَ السلطانِ. . فهوَ زنديقٌ ، ومَنْ دعاهُ السلطانُ فلمْ يجبْ. . فهوَ مبتدعٌ ، ومَنْ أتاهُ مِنْ غيرِ دعوةٍ. . فهوَ جاهلٌ)[3] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٥) ، والغشوم : الظالم .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٢٥) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٢٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٩٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ، وروى الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٣٢) من حديثه رضي الله عنه : اصبروا ؛ فإن جور إمام خمسين عاماً خير من هرج شهر ، وذلك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا بد للناس من إمارة برة أو فاجرة ، فأما البرة. . فتعدل في القسم ، ويقسم بينكم فيئكم بالسوية ، وأما الفاجرة. . فيبتلىٰ فيها المؤمن ، والإمارة الفاجرة خير من الهرج » ، قيل : يا رسول الله ؛ وما الهرج ؟ قال : « القتل والكذب » .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٥) .

وسُئِلَ : أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ فقالَ : السلطانُ ، فقيلَ : كنَّا نرىٰ أنَّ شرَّ الناسِ السلطانُ ! فقالَ : مهلاً ، إنَّ للهِ تعالىٰ كلَّ يومٍ نظرتينِ ، نظرةٌ إلىٰ سلامةِ أموالِ المسلمينَ ، ونظرةٌ إلىٰ سلامةِ أبكارِهِمْ ، فيطلعُ في صحيفتِهِ ، فيغفرُ لهُ جميعَ ذنوبِهِ[1] .

وكانَ يقولُ : (الخشباتُ السودُ المعلَّقةُ علىٰ أبوابِهِمْ خيرٌ مِنْ سبعينَ قاصّاً يقصُّونَ)[2] .

❋ ❋ ❋

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٥) . وفي (أ) : (أبصارهم) ، وفي (د) : (أبدانهم) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢٥) .

الرّكن الثّاني من أركان الشّكر : ما عليه الشّكر

وهوَ النعمةُ ، ولنذكرْ فيهِ حقيقةَ النعمةِ ، وأقسامَها ، ودرجاتِها ، وأصنافَها ، ومجامعَها فيما يخصُّ ويعمُّ ، فإنَّ إحصاءَ نعمِ اللهِ علىٰ عبادِهِ خارجٌ عنْ مقدورِ البشرِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ .

فنقدِّمُ أموراً كليَّةً تجري مَجرى القوانينِ في معرفةِ النعَمِ ، ثمَّ نشتغلُ بذكرِ الآحادِ ، واللهُ الموفقُ للصوابِ .

بيان حقيقة النّعمة وأقسامها

اعلمْ : أنَّ كلَّ خيرٍ ولذَّةٍ وسعادةٍ ، بلْ كلَّ مطلوبٍ ومؤْثَرٍ فإنَّهُ يُسمَّىٰ نعمةً ، ولكنَّ النعمةَ بالحقيقةِ هيَ السعادةُ الأخرويَّةُ ، وتسميةُ ما عداها نعمةً وسعادةً إمَّا غلطٌ وإمَّا مجازٌ ؛ كتسميةِ السعادةِ الدنيويةِ التي لا تعينُ على الآخرةِ نعمةً ، فإنَّ ذلكَ غلطٌ محضٌ ، وقدْ يكونُ اسمُ النعمةِ للشيءِ صدقاً ، ولكنْ يكونُ إطلاقُهُ على السعادةِ الأخرويَّةِ أصدقَ ؛ ككلِّ سببٍ يوصلُ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ويعينُ عليها ، إمَّا بواسطةٍ واحدةٍ أوْ بوسائطَ ، فإنَّ تسميتَهُ نعمةً صحيحٌ وصدقٌ ؛ لأجلِ أنَّهُ يفضي إلى النعمةِ الحقيقيةِ .

❊ ❊ ❊

والأسبابُ المعينةُ واللذَّاتُ المسمَّاةُ نعمةً نشرحُها بتقسيماتٍ :

القسمةُ الأولىٰ :

أنَّ الأمورَ كلَّها بالإضافةِ إلينا تنقسمُ إلىٰ ما هوَ نافعٌ في الدنيا والآخرةِ جميعاً ؛ كالعلمِ وحسْنِ الخلُقِ ، وإلىٰ ما هوَ ضارٌّ فيهما جميعاً ؛ كالجهلِ وسوءِ الخلُقِ ، وإلىٰ ما ينفعُ في الحالِ ويضرُّ في المآلِ ؛ كالتلذُّذِ باتباعِ الشهواتِ ، وإلىٰ ما يضرُّ في الحالِ ويؤلمُ ولكنْ ينفعُ في المآلِ ؛ كقمعِ الشهواتِ ومخالفةِ النفسِ .

فالنافعُ في الحالِ والمآلِ هوَ النعمةُ تحقيقاً ؛ كالعلمِ وحسْنِ الخلقِ ، والضارُّ فيهما هوَ البلاءُ تحقيقاً ؛ وهوَ ضدُّهُما .

والنافعُ في الحالِ المضرُّ في المآلِ بلاءٌ محضٌ عندَ ذوي الأبصارِ وتظنُّهُ الجهَّالُ نعمةً ، ومثالُهُ : الجائعُ إذا وجدَ عسلاً فيهِ سمٌّ ، فإنَّهُ يعدُّهُ نعمةً إنْ كانَ جاهلاً ، وإذا علمَهُ . . علمَ أنَّ ذلكَ بلاءٌ سيقَ إليهِ .

والضارُّ في الحالِ النافعُ في المآلِ نعمةٌ عندَ ذوي الألبابِ ، بلاءٌ عندَ الجهَّالِ ، ومثالُهُ : الدواءُ البشعُ في الحالِ مذاقُهُ ، إلا أنَّهُ شافٍ مِنَ الأمراضِ والأسقامِ وجالبٌ للصحَّةِ والسلامةِ ، فالصبيُّ الجاهلُ إذا كُلِّفَ شربَهُ . . ظنَّهُ بلاءً ، والعاقلُ يعدُّهُ نعمةً ويتقلَّدُ المنَّةَ ممَّنْ يهديهِ إليهِ ويقربُهُ منهُ ويهيِّئُ لهُ أسبابَهُ ، فلذلكَ تمنعُ الأمُّ ولدَها مِنَ الحجامةِ والأبُ يدعوهُ إليها ، فإنَّ الأبَ بكمالِ عقلِهِ يلحظُ العاقبةَ ، والأمَّ لقصورِها وفرْطِ حبِّها تلحظُ الحالَ ،

والصبيَّ لجهلِهِ يتقلَّدُ منَّةً مِنْ أمِّهِ دونَ أبيهِ ، ويأنسُ إليها وإلىٰ شفقتِها ، ويقدِّرُ الأبَ عدواً لهُ ، ولوْ عقلَ . . لعلمَ أنَّ الأمَّ عدوٌّ باطنٌ في صورةِ صديقٍ ؛ لأنَّ منعَها إيَّاهُ مِنَ الحجامةِ يسوقُهُ إلىٰ أمراضٍ وآلامٍ أشدَّ مِنَ الحجامةِ ، ولكنَّ الصديقَ الجاهلَ شرٌّ مِنَ العدوِّ العاقلِ ، وكلُّ إنسانٍ فإنَّهُ صديقُ نفسِهِ ، ولكنَّهُ صديقٌ جاهلٌ ، فلذلكَ تعملُ بهِ ما لا يعملُ بهِ العدوُّ .

* * *

قسمةٌ ثانيةٌ :

اعلمْ : أنَّ الأسبابَ الدنيويَّةَ مختلطةٌ ، قدِ امتزجَ خيرُها بشرِّها ، فقلَّما يصفو خيرُها ؛ كالمالِ والأهلِ والولدِ والأقاربِ والجاهِ وسائرِ الأسبابِ ، ولكنْ تنقسمُ إلىٰ ما نفعُهُ أكثرُ مِنْ ضرِّهِ ؛ كقدْرِ الكفايةِ مِنَ المالِ والجاهِ وسائرِ الأسبابِ ، وإلىٰ ما ضرُّهُ أكثرُ مِنْ نفعِهِ في حقِّ أكثرِ الأشخاصِ ؛ كالمالِ الكثيرِ والجاهِ الواسعِ ، وإلىٰ ما يكافِئُ ضررُهُ نفعَهُ ، وهـٰذهِ أمورٌ تختلفُ بالأشخاصِ ، فربَّ إنسانٍ صالحٍ ينتفعُ بالمالِ الصالحِ وإنْ كثرَ ، فينفقُهُ في سبيلِ اللهِ ، ويصرفُهُ إلى الخيراتِ ، فهوَ معَ هـٰذا التوفيقِ نعمةٌ في حقِّهِ ، وربَّ إنسانٍ يستضرُّ بالقليلِ أيضاً ؛ إذْ لا يزالُ مستصغراً لهُ شاكياً مِنْ ربِّهِ ، طالباً للزيادةِ عليهِ ، فيكونُ ذلكَ معَ هـٰذا الخذلانِ بلاءً في حقِّهِ .

* * *

قسمةٌ ثالثةٌ :

اعلمْ : أنَّ الخيراتِ باعتبارٍ آخرَ تنقسمُ إلىٰ ما هوَ مؤثَرٌ لذاتِهِ لا لغيرِهِ ، وإلىٰ مؤثَرٍ لغيرِهِ ، وإلىٰ مؤثَرٍ لذاتِهِ ولغيرِهِ .

فالأوَّلُ : ما يُؤثَرُ لذاتِهِ لا لغيرِهِ ؛ كلذَّةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، وسعادةِ لقائِهِ ، وبالجملةِ سعادةُ الآخرةِ التي لا انقضاءَ لها ؛ فإنَّها لا تُطلبُ ليُتوصَّلَ بها إلىٰ غايةٍ أخرىٰ مقصودةٍ وراءَها ، بلْ تُطلبُ لذاتِها .

الثاني : ما يُقصدُ لغيرِهِ ولا غرضَ أصلاً في ذاتِهِ ؛ كالدراهمِ والدنانيرِ ، فإنَّ الحاجاتِ لوْ كانَتْ لا تنقضي بها .. لكانَتْ هيَ والحصباءُ بمثابةٍ واحدةٍ ، ولكنْ لمَّا كانَتْ وسيلةً إلى اللذَّاتِ سريعةَ الإيصالِ إليها .. صارَتْ عندَ الجهَّالِ محبوبةً في أنفسِها ، حتَّىٰ يجمعونَها ويكنزونَها ويتصارفونَ عليها بالربا ، ويظنُّونَ أنَّها مقصودةٌ ، ومثالُ هؤلاءِ مثالُ مَنْ يحبُّ شخصاً ، فيحبُّ بسببِهِ رسولَهُ الذي يجمعُ بينَهُ وبينَهُ ، ثمَّ ينسىٰ في محبَّةِ الرسولِ محبَّةَ الأصلِ ، فيعرضُ عنهُ طولَ عمرِهِ ولا يزالُ مشغولاً بتعهُّدِ الرسولِ ومراعاتِهِ وتفقُّدِهِ ، وهوَ غايةُ الجهلِ والضلالِ .

الثالثُ : ما يُقصدُ لذاتِهِ ولغيرِهِ ؛ كالصحَّةِ والسلامةِ ، فإنَّها تُقصدُ ليقدرَ بسببِها على الفكرِ والذكرِ الموصلينِ إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ، أوْ ليتوصَّلَ بها إلى استيفاءِ لذَّاتِ الدنيا، وتُقصدُ أيضاً لذاتِها ، فإنَّ الإنسانَ وإنِ استغنىٰ عنِ المشي الذي تُرادُ سلامةُ الرجْلِ لأجلِهِ فيريدُ أيضاً سلامةَ الرجْلِ مِنْ حيثُ إنَّها سلامةٌ .

فإذاً ؛ المؤثَرُ لذاتِهِ فقطْ هوَ الخيرُ والنعمةُ تحقيقاً ، وما يُؤثرُ لذاتِهِ ولغيرِهِ أيضاً فهو نعمةٌ ، ولكنْ دونَ الأوَّلِ ، فأمَّا ما لا يُؤثرُ إلا لغيرِهِ ؛ كالنقدينِ . . فلا يُوصفانِ في أنفسِهِما مِنْ حيثُ إنَّهُما جوهرانِ بأنَّهُما نعمةٌ ، بلْ مِنْ حيثُ هما وسيلتانِ ، فيكونانِ نعمةً في حقِّ مَنْ يقصدُ أمراً ليسَ يمكنُهُ أنْ يتوصَّلَ إليهِ إلا بهِما ، فلوْ كانَ مقصدُهُ العلمَ والعبادةَ ومعَهُ الكفايةُ التي هيَ ضرورةُ حياتِهِ . . استوىٰ عندَهُ الذهبُ والمدرُ ، فكانَ وجودُهُما وعدمُهُما عندَهُ بمثابةٍ واحدةٍ ، بلْ ربما شغلَهُ وجودُهُما عنِ الفكرِ والعبادةِ ، فيكونانِ بلاءً في حقِّهِ ولا يكونانِ نعمةً .

* * *

قسمةٌ رابعةٌ :

اعلمْ : أنَّ الخيراتِ باعتبارٍ آخرَ تنقسمُ إلىٰ نافعٍ ، وجميلٍ ، ولذيذٍ ؛ فاللذيذُ : هوَ الذي تُدركُ راحتُهُ في الحالِ ، والنافعُ : هوَ الذي يفيدُ في المآلِ ، والجميلُ : هوَ الذي يُستحسنُ في سائرِ الأحوالِ .

والشرورُ أيضاً تنقسمُ إلىٰ ضارٍّ ، وقبيحٍ ، ومؤلمٍ .

وكلُّ واحدٍ من القسمينِ ضربانِ : مطلقٌ ومقيَّدٌ .

فالمطلقُ : هوَ الذي اجتمعَ فيهِ الأوصافُ الثلاثةُ ؛ أمَّا في الخيرِ . . فكالعلمِ والحكمةِ ؛ فإنَّها نافعةٌ وجميلةٌ ولذيذةٌ عندَ أهلِ العلمِ والحكمةِ ، وأمَّا في الشرِّ . . فكالجهلِ ، فإنَّهُ ضارٌّ وقبيحٌ ومؤلمٌ ، وإنَّما يحسُّ الجاهلُ

بألمِ جهلِهِ إذا عرفَ أنَّهُ جاهلٌ ؛ بأنْ يرىٰ غيرَهُ عالماً ، ويرىٰ نفسَهُ جاهلاً ، فيدركَ ألمَ النقصِ ، فتنبعثَ منهُ شهوةُ العلمِ اللذيذةُ ، ثمَّ قدْ يمنعُهُ الحسدُ والكبْرُ والشهواتُ البدنيَّةُ عنِ التعلُّمِ ، فيتجاذبُهُ متضادَّانِ ، فيعظمُ ألمُهُ ، فإنَّهُ إنْ تركَ التعلُّمَ . . تألَّمَ بالجهلِ ودرْكِ النقصانِ ، وإنِ اشتغلَ بالتعلُّمِ . . تألَّمَ بتركِ الشهواتِ أوْ بتركِ الكبْرِ وذلِّ التعلُّمِ ، ومثلُ هـٰذا الشخصِ لا يزالُ في عذابٍ دائمٍ لا محالةَ .

والضربُ الثاني : مقيَّدٌ : وهوَ الذي جمعَ بعضَ هـٰذهِ الأوصافِ دونَ بعضٍ ، فربَّ نافعٍ مؤلمٌ ؛ كقطْعِ الإصبعِ المتآكلةِ والسِّلعةِ الخارجةِ مِنَ البدنِ[1] ، وربَّ نافعٍ قبيحٌ ؛ كالحمقِ ، فإنَّهُ بالإضافةِ إلىٰ بعضِ الأحوالِ نافعٌ ، وقدْ قيلَ : (استراحَ مَنْ لا عقلَ لهُ) ، فإنَّهُ لا يهتمُّ بالعاقبةِ ، فيستريحُ في الحالِ إلىٰ أنْ يحينَ وقتُ هلاكِهِ ، وربَّ نافعٍ مِنْ وجهٍ ضارٌّ مِنْ وجهٍ ؛ كإلقاءِ المالِ في البحرِ عندَ خوفِ الغرقِ ، فإنَّهُ ضارٌّ للمالِ ، ونافعٌ للنفْسِ في نجاتِها .

والنافعُ قسمانِ : ضروريٌّ ؛ كالإيمانِ وحسْنِ الخلقِ في الإيصالِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ، وأعني بهِما العلمَ والعملَ ؛ إذْ لا يقومُ مقامَهُما ألبتةَ غيرُهُما ، وإلىٰ ما لا يكونُ ضرورياً ؛ كالسكنجبينِ مثلاً في تسكينِ الصفراءِ ، فإنَّهُ قدْ يمكنُ تسكينُها بما يقومُ مقامَهُ .

❁ ❁ ❁

(١) السلعة : زيادة تحدث في الجسد ؛ كالغدة والخرَّاج .

قسمةٌ خامسةٌ :

اعلمْ : أنَّ النعمةَ يُعبَّرُ بها عنْ كلِّ لذيذٍ ، واللذَّاتُ بالإضافةِ إلى الإنسانِ مِنْ حيثُ اختصاصُهُ بها أوْ مشاركتُهُ لغيرِهِ ثلاثةُ أنواعٍ : عقليَّةٌ ، وبدنيَّةٌ مشتركةٌ معَ بعضِ الحيواناتِ ، وبدنيَّةٌ مشتركةٌ معَ جميعِ الحيواناتِ .

أمَّا العقليَّةُ . . فكلذَّةِ العلمِ والحكمةِ ؛ إذْ ليسَ يستلذُّها السمعُ والبصرُ والشمُّ ، ولا البطنُ ولا الفرجُ ، وإنَّما يستلذُّها القلبُ ؛ لاختصاصِهِ بصفةٍ يُعبَّرُ عنها بالعقلِ ، وهـٰذهِ أقلُّ اللذاتِ وجوداً ، وهيَ أشرفُها .

أمَّا قلَّتُها . . فلأنَّ العلمَ لا يستلذُّهُ إلا عالمٌ ، والحكمةَ لا يستلذُّها إلا حكيمٌ ، وما أقلَّ أهلَ العلمِ والحكمةِ ، وما أكثرَ المتسمِّينَ باسمِهِمْ والمترسِّمينَ برسومِهِمْ .

وأمَّا شرفُها . . فلأنَّها لازمةٌ لا تزولُ أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرةِ ، ودائمةٌ لا تُملُّ ، فالطعامُ يُشبعُ منهُ فيُملُّ ، وشهوةُ الوقاعِ يُفرغُ منها فتُستثقلُ ، والعلمُ والحكمةُ قطُّ لا يُتصوَّرُ أنْ تُملَّ وتُستثقلَ .

ومَنْ قدرَ على الشريفِ الباقي أبدَ الآبادِ إذا رضيَ بالخسيسِ الفاني في أقربِ الآمادِ . . فهوَ مصابٌ في عقلِهِ ، محرومٌ لشقاوتِهِ وإدبارِهِ ، وأقلُّ أمرٍ فيهِ أنَّ العلمَ والعقلَ لا يحتاجُ إلىٰ أعوانٍ وحفظةٍ بخلافِ المالِ ؛ إذِ العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ ، والعلمُ يزيدُ بالإنفاقِ والمالُ ينقصُ بالإنفاقِ ، والمالُ يُسرقُ والولايةُ يُعزلُ عنها والعلمُ لا تمتدُّ إليهِ أيدي السرَّاقِ

بالأخذِ ، ولا أيدي السلاطينِ بالعزْلِ ، فيكونُ صاحبُهُ في رَوْحِ الأمنِ أبداً ، وصاحبُ المالِ والجاهِ في كَرْبِ الخوفِ أبداً .

ثمَّ العلمُ نافعٌ ولذيذٌ وجميلٌ في كلِّ حالٍ أبداً ، والمالُ تارةً يجذبُ إلى الهلاكِ ، وتارةً يجذبُ إلى النجاةِ ، ولذلكَ ذمَّ اللهُ تعالى المالَ في القرآنِ في مواضعَ وإنْ سمَّاهُ خيراً في مواضعَ .

وأمَّا قصورُ أكثرِ الخلقِ عنْ إدراكِ لذَّةِ العلمِ . . فإمَّا لعدمِ الذوْقِ ، فمَنْ لمْ يذقْ . . لمْ يعرفْ ولمْ يشتقْ ؛ إذِ الشوقُ تبعُ الذوقِ ، وإمَّا لفسادِ أمزجتِهِمْ ومرضِ قلوبِهِمْ بسببِ اتباعِ الشهواتِ ؛ كالمريضِ الذي لا يدركُ حلاوةَ العسلِ ويراهُ مرّاً ، وإمَّا لقصورِ فطرتِهِمْ ؛ إذْ لمْ تُخلقْ لهُمْ بعدُ الصفةُ التي بها يُستلذُّ العلمُ ؛ كالطفلِ الرضيعِ الذي لا يدركُ لذَّةَ العسلِ والطيورِ السمانِ ، ولا يستلذُّ إلا اللبنَ ، وذلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّها ليسَتْ لذيذةً ، ولا استطابتُهُ للبنِ تدلُّ علىٰ أنَّهُ ألذُّ الأشياءِ .

فالقاصرونَ عنْ دركِ لذَّةِ العلمِ والحكمةِ ثلاثةٌ : إمَّا مَنْ لمْ يحيَ بعدُ باطنُهُ كالطفلِ ، وإمَّا مَنْ ماتَ بعدَ الحياةِ باتباعِ الشهواتِ ، وإمَّا مَنْ مرضَ بسببِ اتباعِ الشهواتِ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ إشارةٌ إلىٰ مرضِ العقولِ ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ إشارةٌ إلىٰ مَنْ لمْ يحيَ حياةً باطنةً ، وكلُّ حيٍّ بالبدنِ ميِّتٍ بالقلبِ فهوَ عندَ اللهِ مِنَ الموتىٰ وإنْ كانَ عندَ الجهَّالِ مِنَ

الأحياءِ ، ولذلكَ كانَ الشهداءُ أحياءً عندَ ربِّهِمْ يُرزقونَ فرحينَ وإنْ كانوا موتىٰ بالأبدانِ .

الثانيةُ : لذةٌ يشاركُ الإنسانُ فيها بعضَ الحيواناتِ : كلذَّةِ الرئاسةِ والغلبةِ والاستيلاءِ ، وذلكَ موجودٌ في الأسدِ والنمرِ وبعضِ الحيواناتِ .

الثالثةُ : ما يشاركُ الإنسانُ بها سائرَ الحيواناتِ : كلذةِ البطْنِ والفرْجِ ، وهـٰذهِ أكثرُها وجوداً ، وهي أخسُّها ، ولذلكَ اشتركَ فيها كلُّ ما دبَّ ودرجَ حتَّى الديدانُ والحشراتُ .

ومَنْ جاوزَ هـٰذهِ الرتبةَ . . تشبثَتْ بهِ لذَّةُ الغلبةِ ، وهيَ أشدُّها التصاقاً بالمتعاقلينَ[1] ، فإنْ جاوزَ ذلكَ . . ارتقىٰ إلى الثالثةِ ، فصارَ أغلبُ اللذَّاتِ عليهِ لذةَ العلمِ والحكمةِ ، لا سيما لذَّةُ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وهـٰذهِ رتبةُ الصدِّيقينَ ، ولا يُنالُ تمامُها إلا بخروجِ استيلاءِ حبِّ الرئاسةِ مِنَ القلبِ ، وآخرُ ما يخرجُ مِنْ رؤوسِ الصدِّيقينَ حبُّ الرئاسةِ ، وأمَّا شرهُ البطْنِ والفرْجِ . . فكسرُهُ ممَّا يقوىٰ عليهِ الصالحونَ ، وشهوةُ الرئاسةِ لا يقوىٰ علىٰ قهرِها إلا الصدِّيقونَ ، فأمَّا قمعُها بالكليَّةِ حتَّىٰ لا يقعَ بها الإحساسُ على الدوامِ وفي اختلافِ الأحوالِ . . فيشبهُ أنْ يكونَ خارجاً عنْ مقدورِ البشرِ .

---

(١) في (د) : (المتغافلين) .

نعمْ ، تغلبُ لذَّةُ معرفةِ اللهِ في أحوالٍ لا يقعُ معَها الإحساسُ بلذَّةِ الرئاسةِ والغلبةِ ، ولكنْ ذلكَ لا يدومُ طولَ العمرِ ، بلْ تعتريهِ الفتراتُ ، فتعودُ إليهِ الصفاتُ البشريَّةُ ، فتكونُ موجودةً ولكنْ تكونُ مقهورةً لا تقوىٰ علىٰ حمْلِ النفسِ على العدولِ عنِ العدْلِ .

وعندَ هـٰذا تنقسمُ القلوبُ إلىٰ أربعةِ أقسامٍ :

قلبٌ لا يحبُّ إلا اللهَ تعالىٰ ، ولا يستريحُ إلا بزيادةِ المعرفةِ بهِ والفكرِ فيهِ ، وقلبٌ لا يدري ما لذَّةُ المعرفةِ ، وما معنى الأنسِ باللهِ ، وإنَّما لذتُهُ بالجاهِ والرئاسةِ والمالِ وسائرِ الشهواتِ البدنيَّةِ ، وقلبٌ أغلبُ أحوالِهِ الأنسُ باللهِ سبحانَهُ والتلذُّذُ بمعرفتِهِ والفكرِ فيهِ ، ولكنْ قدْ يعتريهِ في بعضِ الأحوالِ الرجوعُ إلىٰ أوصافِ البشريَّةِ ، وقلبٌ أغلبُ أحوالِهِ التلذُّذُ بالصفاتِ البشريةِ ويعتريهِ في بعضِ الأحوالِ تلذُّذٌ بالعلمِ والمعرفةِ .

أمَّا الأوَّلُ . . فإنْ كانَ ممكناً في الوجودِ فهوَ في غايةِ البعدِ .

وأمَّا الثاني . . فالدنيا طافحةٌ بهِ .

وأمَّا الثالثُ والرابعُ . . فموجودانِ ولكنْ علىٰ غايةِ الندورِ ، ولا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ ذلكَ إلا نادراً شاذّاً ، وهوَ معَ الندورِ يتفاوتُ في القلَّةِ والكثرةِ ، وإنَّما تكونُ كثرتُهُ في الأعصارِ القريبةِ مِنْ أعصارِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، فلا يزالُ يزدادُ العهدُ طولاً وتزدادُ مثلُ هـٰذهِ القلوبِ قلَّةً إلىٰ أنْ تقربَ الساعةُ ، ويقضيَ اللهُ أمراً كانَ مفعولاً .

وإنَّما وجبَ أنْ يكونَ هـٰذا نادراً ؛ لأنَّهُ مبادي ملكِ الآخرةِ ، والملكُ عزيزٌ ، والملوكُ لا يكثرونَ ، فكما لا يكونُ الفائقُ في الملكِ والجمالِ إلا نادراً وأكثرُ الناسِ مِنْ دونِهِمْ . . فكذا في ملكِ الآخرةِ ، فإنَّ الدنيا مرآةُ الآخرةِ ، فإنَّها عبارةٌ عنْ عالمِ الشهادةِ ، والآخرةُ عبارةٌ عنْ عالمِ الغيبِ ، وعالمُ الشهادةِ تابعٌ لعالمِ الغيبِ ؛ كما أنَّ الصورةَ في المرآةِ تابعةٌ لصورةِ الناظرِ في المرآةِ ، والصورةُ في المرآةِ وإنْ كانَتْ هيَ الثانيةَ في رتبةِ الوجودِ فإنَّها أولىٰ في حقِّ رؤيتِكَ ، فإنَّكَ لا ترىٰ نفسَكَ ، وترىٰ صورتَكَ في المرآةِ أوَّلاً ، فتعرفُ بها صورتَكَ التي هيَ قائمةٌ بكَ ثانياً علىٰ سبيلِ المحاكاةِ ، فانقلبَ التابعُ في الوجودِ متبوعاً في حقِّ المعرفةِ ، وانقلبَ المتأخِّرُ متقدماً ، وهـٰذا نوعٌ مِنَ الانعكاسِ ، ولكنَّ الانعكاسَ والانتكاسَ ضرورةُ هـٰذا العالمِ ، فكذلكَ عالمُ الملكِ والشهادةِ محاكٍ لعالمِ الغيبِ والملكوتِ .

فمِنَ الناسِ مَنْ يُسِّرَ لهُ نظرُ الاعتبارِ ، فلا ينظرُ في شيءٍ مِنْ عالمِ الملكِ إلا ويعبرُ بهِ إلىٰ عالمِ الملكوتِ ، فيُسمَّىٰ عبورُهُ عبرةً ، وقدْ أُمرَ الخلقُ بهِ ، فقيلَ : ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ .

ومنهُمْ مَنْ عميَتْ بصيرتُهُ فلمْ يعبرْ ، فاحتُبِسَ في عالمِ الملكِ والشهادةِ ، وستُفتحُ إلىٰ حبسِهِ أبوابُ جهنَّمَ ، وهـٰذا الحبسُ مملوءٌ ناراً منْ شأنِها أنْ تطلعَ على الأفئدةِ ، إلا أنَّ بينَهُ وبينَ إدراكِ ألمِها حجاباً ، فإذا رُفِعَ ذلكَ الحجابُ بالموتِ . . أدركَ .

وعنْ هـٰذا أظهرَ اللهُ الحقَّ علىٰ لسانِ قومٍ استنطقَهُمْ بالحقِّ[1] ، فقالوا : (الجنَّةُ والنارُ مخلوقتانِ) ، ولكنِ الجحيمُ تُدركُ مرَّةً بإدراكٍ يُسمَّىٰ علمَ اليقينِ ، ومرَّةً بإدراكٍ آخرَ يُسمَّىٰ عينَ اليقينِ ، وعينُ اليقينِ لا يكونُ إلا في الآخرةِ ، وعلمُ اليقينِ قدْ يكونُ في الدنيا ، ولكنْ للذينَ وفرَ حظُّهُمْ مِنْ نورِ اليقينِ ، فلذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ أيْ : في الدنيا ، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أيْ : في الآخرةِ .

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ القلبَ الصالحَ لملكِ الآخرةِ لا يكونُ إلا عزيزاً كالشخصِ الصالحِ لملكِ الدنيا .

* * *

قسمةٌ سادسةٌ حاويةٌ لمجامعِ النعَمِ :

اعلمْ : أنَّ النعمَ تنقسمُ إلىٰ ما هيَ غايةٌ مطلوبةٌ لذاتِها ، وإلىٰ ما هيَ مطلوبةٌ لأجلِ الغايةِ .

أمَّا الغايةُ . . فإنَّها سعادةُ الآخرةِ ، ويرجعُ حاصلُها إلىٰ أربعةِ أمورٍ : بقاءٌ لا فناءَ لهُ ، وسرورٌ لا غمَّ فيهِ ، وعلمٌ لا جهلَ معَهُ ، وغنىً لا فقرَ بعدَهُ ، وهيَ النعمةُ الحقيقيَّةُ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا عيشَ إلا عيشُ الآخرةِ » ، وقالَ ذلكَ مرَّةً في الشدَّةِ تسليةً للنفسِ ، وذلكَ في وقتِ حفرِ

---

(١) قوله : (وعن هـٰذا) أي : بسبب ما ذكر ، فعنْ هنا للتسبب ، والمراد بالقوم : أهل السنة والجماعة .

الخندقِ في شدَّةِ الضرِّ ، وقالَ ذلكَ مرَّةً في السرورِ منعاً للنفسِ مِنَ الركونِ إلىٰ سرورِ الدنيا ، وذلكَ عندَ إحداقِ الناسِ بهِ في حجَّةِ الوداعِ[1] .

وقالَ رجلٌ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ تمامَ النعمةِ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وهلْ تعلمُ ما تمامُ النعمةِ ؟ » ، قالَ : لا ، قالَ : « تمامُ النعمةِ دخولُ الجنةِ »[2] .

وأمَّا الوسائلُ . . فتنقسمُ إلى الأقربِ الأخصِّ ؛ كفضائلِ النفسِ ، وإلىٰ ما يليهِ في القرْبِ ؛ كفضائلِ البدنِ ، وهوَ الثاني ، وإلىٰ ما يليهِ في القربِ ويجاوزُ إلىٰ غيرِ البدنِ ؛ كالأسبابِ المطيفةِ بالبدنِ مِنَ المالِ والأهلِ والعشيرةِ ، وإلىٰ ما يجمعُ بينَ هـٰذهِ الأسبابِ الخارجةِ عنِ النفسِ وبينَ الحاصلةِ للنفسِ ؛ كالتوفيقِ والهدايةِ ، فهيَ إذاً أربعةُ أنواعٍ .

النوعُ الأوَّلُ وهوَ الأخصُّ : الفضائلُ النفسيَّةُ : ويرجعُ حاصلُها معَ انشعابِ أطرافِها إلى الإيمانِ وحسْنِ الخلقِ ، وينقسمُ الإيمانُ إلىٰ علمِ المكاشفةِ ؛ وهوَ العلمُ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وملائكتِهِ ورسلِهِ ، وإلىٰ علومِ المعاملةِ .

وحسْنُ الخلقِ ينقسمُ إلىٰ قسمينِ : تركُ مقتضى الشهوةِ والغضبِ واسمُهُ العفَّةُ ، ومراعاةُ العدْلِ في الكفِّ عنْ مقتضى الشهواتِ والإقدامِ حتَّىٰ

---

(1) رواه الشافعي كما في « الأم » (٣/ ٣٩١) عن مجاهد مرسلاً .

(2) رواه الترمذي (٣٥٢٧) .

لا يمتنعَ أصلاً ولا يقدمَ كيفَ شاءَ ، بلْ يكونُ إقدامُهُ وإحجامُهُ بالميزانِ العدْلِ الذي أنزلَهُ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ علىٰ لسانِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ .

فمَنْ خصىٰ نفسَهُ ليزيلَ شهوةَ النكاحِ ، أوْ تركَ النكاحَ معَ القدرةِ والأمنِ مِنَ الآفاتِ ، أوْ تركَ الأكلَ حتَّىٰ ضعفَ عنِ العبادةِ والذكرِ والفكرِ . . فقدْ أخسرَ الميزانَ ، ومَنِ انهمَكَ في شهوةِ البطنِ والفرجِ . . فقدْ طغىٰ في الميزانِ ، وإنَّما العدْلُ أنْ يخلوَ وزنُهُ وتقديرُهُ عنِ الطغيانِ والخسرانِ ، فتعتدلَ بهِ كفتا الميزانِ .

فإذاً ؛ الفضائلُ الخاصَّةُ بالنفسِ المقربةُ إلى اللهِ تعالىٰ أربعةٌ : علمُ مكاشفةٍ ، وعلمُ معاملةٍ ، وعفةٌ ، وعدالةٌ ، ولا يتمُّ هٰذا في غالبِ الأمرِ إلا بالنوعِ الثاني ، وهيَ الفضائلُ البدنيَّةُ ، وهيَ أربعةٌ : الصحةُ ، والقوَّةُ ، والجمالُ ، وطولُ العمرِ ، ولا تتهيَّأُ هٰذهِ الأمورُ الأربعةُ إلا بالنوعِ الثالثِ ، وهيَ النعَمُ الخارجةُ المطيفةُ بالبدنِ ، وهيَ أربعةٌ : المالُ ، والأهلُ ، والجاهُ ، وكرمُ العشيرةِ ، ولا ينتفعُ بشيءٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ الخارجةِ والبدنيَّةِ إلا بالنوعِ الرابعِ ، وهيَ الأسبابُ التي تجمعُ بينَها وبينَ ما يناسبُ الفضائلَ النفسيَّةَ الداخلةَ ، وهيَ أربعةٌ : هدايةُ اللهِ ، ورشدُهُ ، وتسديدُهُ ، وتأييدُهُ .

فمجموعُ هٰذهِ النعَمِ ستَّ عشرةَ ؛ إذْ قسمناها إلىٰ أربعةٍ وقسمنا كلَّ واحدةٍ منَ الأربعةِ إلىٰ أربعةٍ .

وهٰذهِ الجملةُ يحتاجُ البعضُ منها إلى البعضِ ؛ إمَّا حاجةً ضروريَّةً ، أوْ نافعةً .

أمَّا الحاجةُ الضروريَّةُ . . فكحاجةِ سعادةِ الآخرةِ إلى الإيمانِ وحسْنِ الخلقِ ؛ إذْ لا سبيلَ إلى الوصولِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ألبتةَ إلا بهِما ، فليسَ للإنسانِ إلا ما سعىٰ ، وليسَ لأحدٍ في الآخرةِ إلا ما تزوَّدَ مِنَ الدنيا ، وكذلكَ حاجةُ الفضائلِ النفسيَّةِ بكسبِ العلومِ وتهذيبِ الأخلاقِ إلىٰ صحَّةِ البدنِ ضروريٌّ .

وأمَّا الحاجةُ النافعةُ على الجملةِ . . فكحاجةِ هٰذهِ النعمِ النفسيَّةِ والبدنيَّةِ إلى النعمِ الخارجةِ ؛ مثلُ المالِ والعزِّ والأهلِ ؛ فإنَّ ذلكَ لوْ عُدِمَ . . ربما تطرَّقَ الخللُ إلىٰ بعضِ النعمِ الداخلةِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما وجهُ الحاجةِ لطريقِ الآخرةِ إلى النعمِ الخارجةِ مِنَ المالِ والأهلِ والجاهِ والعشيرةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذهِ الأسبابَ جاريةٌ مجرى الجناحِ المبلِّغِ والآلةِ المسهِّلةِ للمقصودِ .

أمَّا المالُ : فالفقيرُ في طلبِ العلمِ والكمالِ وليسَ معَهُ كفايةٌ كساعٍ إلى

الهيجا بغيرِ سلاحٍ ، وكبازٍ يرومُ الصيدَ بلا جناحٍ[1] .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعْمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعْمَ العونُ علىٰ تقوى اللهِ المالُ »[3] .

وكيفَ لا ومَنْ عدمَ المالَ . . صارَ مستغرقَ الأوقاتِ في طلبِ الأقواتِ ، وفي تهيئةِ اللباسِ والمسكنِ وضروراتِ المعيشةِ ؟!

ثمَّ يتعرَّضُ لأنواعٍ مِنَ الأذىٰ تشغلُهُ عنِ الذكرِ والفكرِ ، ولا تندفعُ إلا بسلاحِ المالِ ، ثمَّ معَ ذلكَ يُحرمُ عنْ فضيلةِ الحجِّ والزكاةِ والصدقاتِ وإفاضةِ الخيراتِ !

وقالَ بعضُ الحكماءِ وقدْ قيلَ لهُ : ما النعيمُ ؟ فقالَ : الغنىٰ ؛ فإنِّي رأيتُ الفقيرَ لا عيشَ لهُ ، قيلَ : زدْنا ، قالَ : الأمنُ ؛ فإنِّي رأيتُ الخائفَ لا عيشَ لهُ ، قيلَ : زدْنا ، قالَ : العافيةُ ؛ فإنِّي رأيتُ المريضَ لا عيشَ لهُ ، قيلَ : زدْنا ، قالَ : الشبابُ ؛ فإنِّي رأيتُ الهرِمَ لا عيشَ لهُ[4] .

---

(١) **الهيجا** : الحرب .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٩٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٢١٠) .

(٣) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٣١٧) من حديث محمد بن المنكدر مرسلاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٢٢٤) من كلام محمد بن المنكدر .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٠٩) .

وكأنَّ ما ذكرَهُ إشارةٌ إلىٰ نعيمِ الدنيا ، ولكنَّهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ معينٌ على الآخرةِ فهوَ نعمةٌ ، ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ أصبحَ معافىً في بدنِهِ ، آمناً في سربِهِ ، عندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حِيزَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها »[1] .

وأمَّا الأهلُ والولدُ الصالحُ : فلا يخفىٰ وجهُ الحاجةِ إليهما ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعْمَ العونُ على الدينِ المرأةُ الصالحةُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الولدِ : « إذا ماتَ العبدُ . . انقطعَ عملُهُ إلا مِنْ ثلاثٍ : ولدٌ صالحٌ يدعو لهُ . . . » الحديثَ[3] ، وقدْ ذكرنا فوائدَ الأهلِ والولدِ في كتابِ النكاحِ .

وأمَّا الأقاربُ : فمهما كثرَ أولادُ الرجلِ وأقاربُهُ . . كانوا لهُ مثلَ الأعينِ والأيدي ، فيتيسَّرُ لهُ بسببِهِمْ مِنَ الأمورِ الدنيويَّةِ المهمَّةِ في دينِهِ ما لوِ انفردَ بهِ . . لطالَ شغلُهُ ، وكلُّ ما يفرغُ قلبَكَ عنْ ضروراتِ الدنيا فهوَ معينٌ لكَ على الدينِ ، فهوَ إذاً نعمةٌ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد بن محصن رضي الله عنه مرفوعاً ، وليس عندهما : (بحذافيرها) ، وهي عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٤٩) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه مسلم (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » .

(٣) رواه مسلم (١٦٣١) .

وأمَّا العزُّ والجاهُ : فبهِ يدفعُ الإنسانُ عنْ نفسهِ الذلَّ والضيمَ ، ولا يستغني عنهُ مسلمٌ ، فإنَّهُ لا ينفكُّ عنْ عدوٍّ يؤذيهِ ، وظالمٍ يشوِّشُ عليهِ علمَهُ وعملَهُ وفراغَهُ ، ويشغلُ قلبَهُ ، وقلبُهُ رأسُ مالِهِ ، وإنَّما تندفعُ هٰذهِ الشواغلُ بالعزِّ والجاهِ ، ولذلكَ قيلَ : (الدينُ والسلطانُ توءمانِ) .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ .

ولا معنىٰ للجاه إلا ملكُ القلوبِ ؛ كما لا معنىٰ للغنىٰ إلا ملكُ الدراهمِ ، ومَنْ ملكَ القلوبَ . . تسخَّرَتْ لهُ أربابُ القلوبِ لدفعِ الأذىٰ عنهُ ، فكما يحتاجُ الإنسانُ إلىٰ سقفٍ يدفعُ عنهُ المطرَ ، وجبَّةٍ تدفعُ عنهُ البردَ ، وكلبٍ يدفعُ الذئبَ عنْ ماشيتِهِ . . فيحتاجُ أيضاً إلىٰ مَنْ يدفعُ الشرَّ بهِ عنْ نفسِهِ .

وعلىٰ هٰذا القصدِ كانَ الأنبياءُ الذينَ لا ملكَ لهُمْ ولا سلطنةَ يراعونَ السلاطينَ ويطلبونَ عندَهُمُ الجاهَ ، وكذلكَ علماءُ الدينِ ، لا علىٰ قصدِ التناولِ مِنْ خزائنِهِمْ أوِ الاستئثارِ والاستكثارِ في الدنيا بمتابعتِهِمْ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ نعمةَ اللهِ تعالىٰ علىٰ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ نصرَهُ وأكملَ دينَهُ وأظهرَهُ علىٰ جميعِ أعدائِهِ ومكَّنَ لهُ في القلوبِ حبَّهُ حتَّى اتسعَ بهِ عزُّهُ وجاهُهُ . . كانَتْ أقلَّ مِنْ نعمتِهِ عليهِ حيثُ كانَ يُؤذىٰ ويُضربُ حتَّى افتقرَ إلى الهربِ والهجرةِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : كرمُ العشيرةِ وشرفُ الأهلِ هوَ مِنَ النعمِ أمْ لا ؟

فأقولُ : نعمْ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأئمَّةُ مِنْ قريشٍ »[1] .

ولذلكَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أكرمِ الناسِ أَرُومةً في نسبِ آدمَ عليهِ السلامُ[2] .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تخيَّروا لنطفِكُمْ الأكفاءَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكُمْ وخضراءَ الدِّمَنِ » ، فقيلَ : وما خضراءُ الدمنِ ؟ قالَ : « المرأةُ الحسناءُ في المنبتِ السوءِ »[4] .

فهٰذا أيضاً مِنَ النعمِ ، ولستُ أعني بهِ الانتسابَ إلى الظلمةِ وأربابِ الدنيا ، بلِ الانتسابَ إلىٰ شجرةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإلىٰ أئمةِ العلماءِ ، وإلى الصالحينَ والأبرارِ المتزيِّنينَ بالعلمِ والعملِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٩٠٩) .

(٢) **الأرومة** : الأصل ، وروىٰ مسلم (٢٢٧٦) عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفىٰ قريشاً من كنانة ، واصطفىٰ من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

(٣) رواه ابن ماجه (١٩٦٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٦٣) .

(٤) رواه الرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٨٤) ، والشهاب في « مسنده » (٩٥٧) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (١٥٣٧) .

فإنْ قلتَ : فما غناءُ الفضائلِ البدنيّةِ ؟

فأقولُ : لا خفاءَ بشدَّةِ الحاجةِ إلى الصحةِ وإلى القوّةِ وإلىٰ طولِ العمرِ ؛ إذْ لا يتمُّ علمٌ وعملٌ إلا بهِما ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ »(1) .

وإنَّما يُستحقرُ مِنْ جملتِهِ أمرُ الجمالِ ، فيُقالُ : يكفي أنْ يكونَ البدنُ سليماً مِنَ الأمراضِ الشاغلةِ عنْ تحرِّي الخيراتِ ، ولعمري ؛ الجمالُ قليلُ الغَناءِ ، ولكنَّهُ مِنَ الخيراتِ أيضاً ، أمَّا في الدنيا . . فلا يخفىٰ نفعُهُ فيها ، وأمَّا في الآخرةِ . . فمِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّ القبيحَ مذمومٌ ، والطباعُ عنهُ نافرةٌ ، وحاجاتُ الجميلِ إلى الإجابةِ أقربُ ، وجاهُهُ في الصدورِ أوسعُ ، فكأنَّهُ مِنْ هٰذا الوجهِ جناحٌ مبلغٌ كالمالِ والجاهِ ؛ إذْ هوَ نوعُ قدرةٍ ، إذْ يقدرُ الجميلُ الوجهِ علىٰ تنجيزِ حاجاتٍ لا يقدرُ عليها القبيحُ ، وكلُّ معينٍ علىٰ قضاءِ حاجاتِ الدنيا فمعينٌ على الآخرةِ بواسطتِها .

---

(1) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (٣١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/١٦) من حديث عبد الله بن حنطب ، وبلفظ : « إن السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله عز وجل » ، وروى الترمذي (٢٣٢٩) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » .

والثاني : أنَّ الجمالَ في الأكثرِ يدلُّ علىٰ فضيلةِ النفسِ ؛ لأنَّ نورَ النفسِ إذا تمَّ إشراقُهُ . . تأدَّىٰ إلى البدنِ[1] ، فالمنظرُ والمخبرُ كثيراً ما يتلازمانِ .

ولذلكَ عوَّلَ أصحابُ الفراسةِ في معرفةِ مكارمِ النفسِ علىٰ هيئاتِ البدنِ وقالوا : الوجهُ والعينُ مرآةُ الباطنِ ، ولذلكَ يظهرُ فيهِ أثرُ الغضبِ والسرورِ والغمِّ .

ولذلكَ قيلَ : (طلاقةُ الوجهِ عنوانُ ما في النفسِ) .

وقيلَ : (ما في الأرضِ قبيحٌ إلا ووجهُهُ أحسنُ ما فيهِ) .

واستعرضَ المأمونُ جيشاً ، فعُرِضَ عليهِ رجلٌ قبيحٌ ، فاستنطقَهُ ، فإذا هوَ ألكنُ ، فأسقطَ اسمَهُ مِنَ الديوانِ وقالَ : الروحُ إذا أشرقَتْ على الظاهرِ . . فصباحَةٌ ، أوْ على الباطنِ . . ففصاحةٌ ، وهـٰذا ليسَ لهُ ظاهرٌ ولا باطنٌ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلبوا الخيرَ عند حسانِ الوجوهِ »[2] .

---

(١) وكلُّ شخص فله حكمان : أحدهما من قبل جسمه وهو منظره ، والآخر من قبل نفسه وهو مخبره . « إتحاف » (٩/ ٩٠) .

(٢) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١٢٤٦) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٧٥٩) ، والخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٤٢) من حديث جبرة بنت محمد بن ثابت عن أبيها عن عائشة مرفوعاً ، ورواه عبد بن حميد في « مسنده » (٧٥٢) من حديث ابن عمر مرفوعاً ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (إذا بعثتُمْ رسولاً . . فاطلبوا حسنَ الوجهِ ، حسنَ الاسمِ)[١] .

وقالَ الفقهاءُ : إذا تساوتْ درجاتُ المصلِّينَ . . فأحسنُهُمْ وجهاً أولاهُمْ بالإمامةِ[٢] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ ممتناً بذلك : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ .

ولسنا نعني بالجمالِ ما يحرِّكُ الشهوةَ ؛ فإنَّ ذلكَ أنوثةٌ ، وإنَّما نعني بهِ ارتفاعَ القامةِ على الاستقامةِ ، معَ الاعتدالِ في اللحمِ ، وتناسبِ الأعضاءِ ، وتناصفِ خلقةِ الوجهِ ، بحيث لا تنبو الطباعُ عنِ النظرِ إليهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فقدْ أدخلتَ المالَ والجاهَ والنسبَ والأهلَ والولدَ في حيِّزِ النعمِ وقدْ ذمَّ اللهُ تعالى المالَ والجاهَ ، وكذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٣] ، وكذا العلماءُ ؛ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، وقالَ

---

(١) روىٰ هٰذا مرفوعاً أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) وروىٰ فيه البيهقي حديثاً مرفوعاً في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ١٢١) .

(٣) روى الترمذي (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » .

عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في ذمِّ النسبِ : (الناسُ أبناءُ ما يحسنونَ)[1] ، و(قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يحسنُهُ)[2] ، وقيلَ : (المرءُ بنفسِهِ لا بأبيهِ) ، فما معنىٰ كونِها نعمةً معَ كونِها مذمومةً شرعاً ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ يأخذُ العلومَ مِنَ الألفاظِ المنقولةِ المؤولةِ والعموماتِ المخصصَّةِ . . كانَ الضلالُ عليهِ أغلبَ ما لمْ يهتدِ بنورِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ إدراكِ العلومِ علىٰ ما هيَ عليهِ ، ثمَّ ينزِّلُ النقلَ علىٰ وفْقِ ما ظهرَ لهُ منها ؛ بالتأويلِ مرَّةً ، وبالتخصيصِ أخرىٰ ، فهٰذهِ نعمٌ معينةٌ علىٰ أمرِ الآخرةِ لا سبيلَ إلىٰ جحدِها ، إلا أنَّ فيها فتناً ومخاوفَ .

فمثالُ المالِ مثالُ الحيَّةِ التي فيها ترياقٌ نافعٌ وسمٌّ ناقعٌ ، فإنْ أصابَها المعزِّمُ الذي يعرفُ وجهَ الاحترازِ عنْ سمِّها وطريقَ استخراجِ ترياقِها النافعِ . . كانَتْ نعمةً ، وإنْ أصابَها السوادِيُّ الغرُّ . . فهيَ عليهِ بلاءٌ وهلاكٌ .

وهوَ مثلُ البحرِ الذي تحتَهُ أصنافُ الجواهرِ واللآلىءِ ، فمَنْ ظفرَ بالبحرِ ؛ فإنْ كانَ عالماً بالسباحةِ وطريقِ الغوْصِ وطريقِ الاحترازِ عنْ مهلكاتِ البحرِ . . فقدْ ظفرَ بنعمِهِ ، وإنْ خاضَهُ جاهلاً بذلكَ . . فقدْ هلكَ .

فلذلكَ مدحَ اللهُ تعالى المالَ وسمَّاهُ خيراً ، ومدحَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) كذا أورده الماوردي في « أدب الدنيا والدين » (ص٤٨) .
(٢) كذا أورده العسكري في « ديوان المعاني » (١/ ١٤٦) .

عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « نعمَ العونُ علىٰ تقوى اللهِ تعالى المالُ »[1] .

وكذلكَ مدحَ الجاهَ والعزَّ ؛ إذْ منَّ اللهُ تعالىٰ علىٰ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنْ أظهرَهُ على الدينِ كلِّهِ ، وحبَّبَهُ في قلوبِ الخلقِ ، وهوَ المعنيُّ بالجاهِ ، ولكنِ المنقولُ في مدحِهِما قليلٌ ، والمنقولُ في ذمِّ المالِ والجاهِ كثيرٌ ، وحيثُ ذُمَّ الرياءُ فهوَ ذمُّ الجاهِ ، إذِ الرياءُ مقصودُهُ اجتلابُ القلوبِ ، ومعنى الجاهِ ملكُ القلوبِ ، وإنَّما كثرَ هـٰذا وقلَّ ذاكَ لأنَّ الناسَ أكثرُهُمْ جهَّالٌ بطريقِ الرقيةِ لحيَّةِ المالِ ، وطريقِ الغوْصِ في بحرِ الجاهِ ، فوجبَ تحذيرُهُمْ ؛ فإنَّهُمْ يهلكونَ بِسُمِّ المالِ قبلَ الوصولِ إلىٰ ترياقِهِ ، ويهلكُهُمْ تمساحُ بحرِ الجاهِ قبلَ العثورِ علىٰ جواهرِهِ ، ولوْ كانا في أعيانِهِما مذمومينِ بالإضافةِ إلىٰ كلِّ أحدٍ . لما تُصوِّرَ أنْ ينضافَ إلى النبوَّةِ الملْكُ ؛ كما كانَ لرسولِنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا أنْ ينضافَ إليها الغنىٰ ؛ كما كانَ لسليمانَ عليهِ السلامُ .

فالناسُ كلُّهُمْ صبيانٌ ، والأموالُ حيَّاتٌ ، والأنبياءُ والعارفونَ معزِّمونَ ، فقدْ يضرُّ الصبيَّ ما لا يضرُّ المعزِّمَ .

نعم ، المعزِّمُ لوْ كانَ لهُ ولدٌ يريدُ بقاءَهُ وإصلاحَهُ وقدْ وجدَ حيَّةً وعلمَ أنَّهُ لوْ أخذَها لأجلِ ترياقِها لاقتدىٰ بهِ ولدُهُ وأخذَ الحيَّةَ إذا رآها ليلعبَ بها

---

(1) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٣١٧) من حديث محمد بن المنكدر مرسلاً ، ورواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص٢٢٤) من كلام محمد بن المنكدر .

فيهلَكَ . . فلهُ غرضٌ في الترياقِ ، ولهُ غرضٌ في حفْظِ الولدِ ، فواجبٌ عليهِ أنْ يزنَ غرضَهُ في الترياقِ بغرضِهِ في حفْظِ الولدِ ، فإذا كانَ يقدرُ على الصبرِ عنِ الترياقِ ولا يستضرُّ بهِ ضرراً كثيراً ، ولوْ أخذَها لأخذها الصبيُّ ، ويعظمُ ضررُهُ بهلاكِهِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يهربَ عنِ الحيَّةِ إذا رآها ويشيرُ على الصبيِّ بالهربِ ، ويقبِّحُ صورتَها في عينِهِ ، ويعرِّفُهُ أنَّ فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منهُ أحدٌ ، ولا يحدِّثُهُ أصلاً بما فيها مِنْ نفعِ الترياقِ ؛ فإنَّ ذلكَ ربما يغرُّهُ فيقدمُ عليهِ مِنْ غيرِ تمامِ المعرفةِ .

وكذلكَ الغوَّاصُ إذا علمَ أنَّهُ لوْ غاصَ في البحرِ بمرأىً مِنْ ولدِهِ لاتبعَهُ وهلكَ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يحذِّرَ الصبيَّ ساحلَ البحرِ والنهرِ ، فإنْ كانَ لا ينزجرُ الصبيُّ بمجرَّدِ الزجرِ مهما رأىٰ أباهُ يحومُ حولَ الساحلِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يبعُدَ مِنَ الساحلِ معَ الصبيِّ ولا يقربَ منهُ بينَ يديهِ .

فكذلكَ الأمَّةُ في حجرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ كالصبيانِ الأغبياءِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا لكُمْ مثلُ الوالدِ لولدِهِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّكُمْ تتهافتونَ على النارِ تهافتَ الفراشِ وأنا آخذٌ بحُجزِكُمْ »[2] .

وحظُّهُمُ الأوفرُ في حفْظِ أولادِهِمْ عنِ المهالكِ ، فإنَّهُمْ لمْ يُبعثوا إلا

(١) رواه أبو داوود (٨) ، والنسائي (١/ ٣٨) ، وابن ماجه (٣١٣) .
(٢) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

لذلكَ ، وليسَ لهُمْ في المالِ حظٌّ إلا بقدْرِ القوتِ ، فلا جرمَ اقتصروا علىٰ قدْرِ القوتِ ، وما فضلَ فلمْ يمسكوهُ ، بلْ أنفقوهُ ؛ فإنَّ الإنفاقَ فيهِ الترياقُ ، وفي الإمساكِ السمُّ ، ولوْ فُتِحَ للناسِ بابُ كسبِ المالِ ورُغِّبوا فيهِ . . لمالوا إلىٰ سمِّ الإمساكِ ، ورغبوا عنْ ترياقِ الإنفاقِ ، فلذلكَ قُبِّحَتِ الأموالُ ، والمعنيُّ بهِ تقبيحُ إمساكِها ، والحرصِ عليها للاستكثارِ منها ، والتوسعِ في نعيمِها بما يوجبُ الركونَ إلى الدنيا ولذَّاتِها ، فأمَّا أخذُها بقدْرِ الكفايةِ ، وصرْفُ الفاضلِ إلى الخيراتِ . . فليسَ بمذمومٍ .

وحقُّ كلِّ مسافرٍ ألا يحملَ إلا بقدْرِ زادِهِ في السفرِ إذا صمَّمَ العزمَ علىٰ أنْ يختصَّ بما يحملُهُ ، فأمَّا إنْ سمحَتْ نفسُهُ بإطعامِ الطعامِ وتوسيعِ الزادِ على الرفقاءِ . . فلا بأسَ بالاستكثارِ ، وقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليكنْ بلاغُ أحدِكُمْ مِنَ الدنيا كزادِ الراكبِ »[١] معناهُ : لأنفسِكُمْ خاصَّةً ، وإلا . . فقدْ كانَ فيمَنْ يروي هٰذا الحديثَ ويعملُ بهِ مَنْ يأخذُ مئةَ ألفِ درهمٍ في موضعٍ واحدٍ ويفرِّقُها في موضعِهِ ، ولا يمسكُ منها حبَّةً[٢] .

---

(١) رواه الترمذي (١٧٨٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أردتِ اللحوق بي . . فليكفكِ من الدنيا كزاد الراكب . . . » ، ورواه ابن ماجه (٤١٠٤) عن سلمان رضي الله عنه قال : (عهد إليَّ ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أنه يكفي أحدكم مثل زاد الراكب . . .) .

(٢) منهم السيدة المبجلة عائشة رضي الله عنها ، كما سبق ذكر ذلك عنها في كتاب (ذم البخل) عند بدء الكلام علىٰ حكايات الأسخياء وكذا سلمان رضي الله عنه ، فقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/١٩٨) : (أن عطاءه كان خمسة آلاف درهم ، وكان أميراً =

ولمَّا ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ الأغنياءَ يدخلونَ الجنَّةَ بشدَّةٍ . . استأذنَهُ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ في أنْ يخرجَ عنْ جميعِ ما يملكُهُ ، فأذنَ لهُ ، فنزلَ جبريلُ عليهِ السلامُ وقالَ : مُرْهُ بأنْ يطعمَ المسكينَ ، ويكسوَ العاريَ ، ويقريَ الضيفَ . . . الحديثَ[1] .

فإذاً ؛ النعمُ الدنيويَّةُ مشوبةٌ ، قدِ امتزجَ داؤُها بدوائِها ، ومرجوُّها بمَخُوفِها ، ونفعُها بضرِّها ، فمَنْ وثقَ ببصيرتِهِ وكمالِ معرفتِهِ . . فلهُ أنْ يقرُبَ منها متقياً داءَها ومستخرجاً دواءَها ، ومَنْ لا يقدرُ علىٰ ذلكَ . . فالبعدَ البعدَ ، والفرارَ الفرارَ عنْ مظانِّ الأخطارِ ، فلا تعدلْ بالسلامةِ شيئاً في حقِّ هؤلاءِ ، وهُمُ الخلْقُ كلُّهُمْ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ وهداهُ لطريقِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما معنى النعَمِ التوفيقيَّةِ الراجعةِ إلى الهدايةِ والرشدِ والتأييدِ والتسديدِ ؟

فاعلمْ : أنَّ التوفيقَ لا يستغني عنهُ أحدٌ ، **وهوَ عبارةٌ عنِ التأليفِ والتلفيقِ بينَ إرادةِ العبدِ وبينَ قضاءِ اللهِ وقدَرِهِ** ، وهـٰذا يشملُ الشرَّ والخيرَ ، وما هوَ سعادةٌ وما هوَ شقاوةٌ ، ولكنْ جرتِ العادةُ بتخصيصِ اسمِ التوفيقِ بما يوافقُ

= علىٰ زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين ، وكان يخطب الناس في عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها ، وإذا خرج عطاؤه . . أمضاه ويأكل من سفيف يده) .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٩٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٠٦٤) .

السعادةَ مِنْ جملةِ قضاءِ اللهِ تعالىٰ وقدَرِهِ ، كما أنَّ الإلحادَ عبارةٌ عنِ الميلِ ، فخُصِّصَ بمَنْ يميلُ إلى الباطلِ عنِ الحقِ ، وكذا الارتدادُ .

ولا خفاءَ بالحاجةِ إلى التوفيقِ ، ولذلكَ قيلَ[1] : [من الطويل]

إذا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ ٱللهِ لِلْفَتَى فَـأَكْثَرُ ما يَجْنِي عَلَيْهِ ٱجْتِهـادُهُ

فأمَّا الهدايةُ :

فلا سبيلَ لأحدٍ إلىٰ طلبِ السعادةِ إلا بها ؛ لأنَّ داعيةَ الإنسانِ قدْ تكونُ مائلةً إلىٰ ما فيهِ صلاحُ آخرتِهِ ، ولكنْ إذا لَمْ يعلمْ ما فيهِ صلاحُ آخرتِهِ حتَّىٰ يظنُّ الفسادَ صلاحاً . فمِنْ أينَ ينفعُهُ مجرَّدُ الإرادةِ ؟! فلا فائدةَ في الإرادةِ والقدرةِ والأسبابِ إلا بعدَ الهدايةِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ أحدٍ يدخلُ الجنَّةَ إلا برحمةِ اللهِ تعالىٰ » أيْ : بهدايتِـهِ ، فقيلَ : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ولا أنا »[2] .

---

(١) البيت لسيدنا علي في « ديوانه » الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص٢٦٤) .

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) بنحوه .

وللهدايةِ ثلاثُ منازلَ :

الأولىٰ : معرفةُ طريقِ الخيرِ والشرِّ المشارِ إليهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ ، وقدْ أنعمَ اللهُ تعالىٰ بهِ علىٰ كافَّةِ عبادِهِ ، بعضُهُ بالعقلِ ، وبعضُهُ علىٰ لسانِ الرسلِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ، فأسبابُ الهدىٰ هيَ الكتبُ والرسلُ وبصائرُ العقولِ ، وهيَ مبذولةٌ ، ولا يمنعُ منها إلا الحسدُ ، والكبرُ ، وحبُّ الدنيا ، والأسبابُ التي تعمي القلوبَ وإنْ كانَتْ لا تعمي الأبصارَ .

قالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

ومِنْ جملةِ المعمياتِ الإلْفُ والعادةُ وحبُّ استصحابِهِما ، وعنهُ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ . . . ﴾ الآيةَ .

وعنِ الكبرِ والحسدِ العبارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ ﴾ .

فهٰذهِ المعمياتُ هيَ التي منعَتِ الاهتداءَ .

والهدايةُ الثانيةُ : وراءَ هٰذهِ الهدايةِ العامَّةِ ، وهيَ التي يمدُّ اللهُ تعالىٰ بها العبدَ حالاً بعدَ حالٍ ، وهيَ ثمرةُ المجاهدةِ ، حيث قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ .

والهدايةُ الثالثةُ : وراءَ الثانيةِ ، وهوَ النورُ الذي يشرقُ في عالمِ النبوَّةِ

والولايةِ بعدَ كمالِ المجاهدةِ ، فيهتدي بها إلىٰ ما لا يهتدي إليهِ بالعقلِ الذي يحصلُ التكليفُ وإمكانُ تعلُّمِ العلومِ بهِ ، وهوَ الهدى المطلقُ ، وما عداهُ حجابٌ لهُ ومقدماتٌ ، وهوَ الذي شرَّفَهُ اللهُ تعالىٰ بتخصيصِ الإضافةِ إليهِ وإنْ كانَ الكلُّ مِنْ جهتِهِ تعالىٰ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ .

وهوَ المسمَّىٰ حياةً في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ ، والمعنيُّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

وأمَّا الرشدُ :

فنعني بهِ العنايةَ الإلـٰهيَّةَ التي تعينُ الإنسانَ عندَ توجُّهِهِ إلىٰ مقاصدِهِ ، فتقوِّيهِ علىٰ ما فيهِ صلاحُهُ ، وتفتِّرُهُ عمَّا فيهِ فسادُهُ ، ويكونُ ذلكَ مِنَ الباطنِ ، كما قالَ تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ ، **فالرشدُ** : عبارةٌ عنْ هدايةٍ باعثةٍ إلىٰ جهةِ السعادةِ ، محرِّكةٍ إليها ، فالصبيُّ إذا بلغَ خبيراً بحفْظِ المالِ وطرقِ التجارةِ والاستنماءِ ولكنَّهُ معَ ذلكَ يبذِّرُ ولا يريدُ الاستنماءَ . . لا يُسمَّىٰ رشيداً ، لا لعدمِ هدايتِهِ ، بلْ لقصورِ هدايتِهِ عنْ تحريكِ داعيتِهِ ، فكَمْ مِنْ شخصٍ يقدمُ علىٰ ما يعلمُ أنَّهُ يضرُّهُ ، فقدْ أُعطيَ الهدايةَ ومُيِّزَ بها عنِ الجاهلِ الذي لا يدري أنَّهُ يضرُّهُ ، ولكنْ ما أُعطيَ الرشدَ ، فالرشدُ بهـٰذا الاعتبارِ أكملُ مِنْ مجرَّدِ الهدايةِ إلىٰ وجوهِ الأعمالِ ، وهيَ نعمةٌ عظيمةٌ .

وأمَّا التسديدُ :

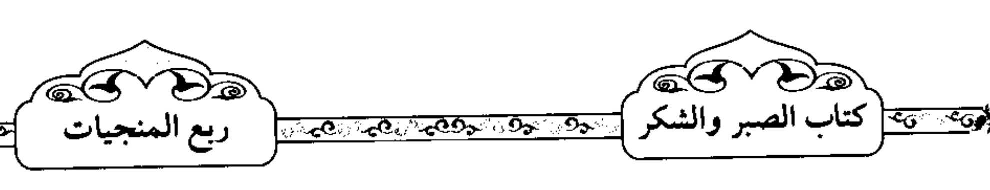
فهوَ توجيهُ حركاتِهِ إلىٰ صوبِ المطلوبِ ، وتيسُّرُها عليهِ ليستدَّ في صوبِ الصوابِ في أسرعِ وقتٍ ، فإنَّ الهدايةَ بمجرَّدِها لا تكفي ، بلْ لا بدَّ مِنْ هدايةٍ محرِّكةٍ للداعيةِ وهيَ الرشدُ ، والرشدُ لا يكفي ، بل لا بدَّ مِنْ تيسيرِ الحركاتِ بمساعدةِ الأعضاءِ والآلاتِ حتَّىٰ يتمَّ المرادُ ممَّا انبعثَتِ الداعيةُ إليهِ .

فالهدايةُ : محضُ التعريفِ ، والرشدُ : هوَ تنبيهُ الداعيةِ لتستيقظَ وتتحرَّكَ ، والتسديدُ : إعانةٌ ونصرةٌ بتحريكِ الأعضاءِ في صوبِ السدادِ .

وأمَّا التأييدُ :

فكأنَّهُ جامعٌ للكلِّ ، وهوَ عبارةٌ عنْ تقويةِ أمرِهِ بالبصيرةِ مِنْ داخلٍ وتقويةِ البطشِ ومساعدةِ الأسبابِ مِنْ خارجٍ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ ، وتقربُ منهُ العصمةُ ، وهيَ عبارةٌ عنْ جودٍ إلـٰهيٍّ يسبحُ في الباطنِ يقوىٰ بهِ الإنسانُ علىٰ تحرِّي الخيرِ وتجنُّبِ الشرِّ ، حتَّىٰ يصيرَ كمانعٍ مِنْ باطنِهِ غيرِ محسوسٍ ، وإيَّاهُ عُنيَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ .

فهـٰذهِ هيَ مجامعُ النعمِ ، ولنْ تتثبَّتَ إلا بما يخوِّلُهُ اللهُ مِنَ الفهمِ الصافي الثاقبِ ، والسمعِ الواعي ، والقلبِ البصيرِ المتواضعِ المراعي ، والمعلِّمِ الناصحِ ، والمالِ الزائدِ علىٰ ما يقصرُ عنِ المهمَّاتِ بقلَّتِهِ ، القاصرِ عمَّا



يشغلُ عنِ الدينِ بكثرتِهِ ، والعزِّ الذي يصونُهُ عنْ سفهِ السفهاءِ وظلْمِ الأعداءِ .

ويستدعي كلُّ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ الستةَ عشرَ أسباباً ، وتستدعي تلكَ الأسبابُ أسباباً ، إلىٰ أنْ تنتهيَ بالآخرةِ إلىٰ دليلِ المتحيِّرينَ وملجأِ المضطرينَ ، وذلكَ ربُّ الأربابِ ومسبِّبُ الأسبابِ .

وإذا كانَتْ تلكَ الأسبابُ طويلةً لا يحتملُ مثلُ هٰذا الكتابِ استقصاءَها .. فلنذكرْ منها أنموذجاً ؛ ليُعلمَ بهِ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ ، وباللهِ التوفيقُ .

❋ ❋ ❋

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالىٰ وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلمْ : أنَّا جمعنا النعَمَ في ستةَ عشرَ ضرباً ، وجعلنا صحَّةَ البدنِ نعمةً مِنَ النعمِ الواقعةِ في الرتبةِ المتأخرةِ .

فهٰذهِ النعمةُ الواحدةُ لوْ أردنا أنْ نستقصيَ الأسبابَ التي بها تمَّتْ هٰذهِ النعمةُ . . لمْ نقدرْ عليها ، ولكنِ الأكلُ أحدُ أسبابِ الصحَّةِ .

فلنذكرْ نبذةً مِنْ جملةِ الأسبابِ التي بها تتمُّ نعمةُ الأكلِ .

ولا يخفىٰ أنَّ الأكلَ فعلٌ ، وكلُّ فعلٍ مِنْ هٰذا النوعِ فهوَ حركةٌ ، وكلُّ حركةٍ فلا بدَّ لها مِنْ جسمٍ متحرِّكٍ هوَ آلتُها ، ولا بدَّ لها مِنْ قدرةٍ على الحركةِ ، ولا بدَّ مِنْ إرادةٍ للحركةِ ، ولا بدَّ مِنْ علمٍ بالمرادِ وإدراكٍ لهُ ، ولا بدَّ للآكلِ مِنْ مأكولٍ ، ولا بدَّ للمأكولِ مِنْ أصلٍ منهُ يحصلُ ، ولا بدَّ لهُ مِنْ صانعٍ يصلحُهُ .

فلنذكرْ أسبابَ الإدراكِ ، ثمَّ أسبابَ الإراداتِ ، ثمَّ أسبابَ القدرةِ ، ثمَّ أسبابَ المأكولِ علىٰ سبيلِ التلويحِ لا علىٰ سبيلِ الاستقصاءِ .

* * *

الطرف الأول : في نعم الله تعالىٰ في خلق أسباب الإدراك

اعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ النباتَ ، وهوَ أكملُ وجوداً مِنَ الحجرِ والمدرِ ، والحديدِ والنحاسِ ، وسائرِ الجواهرِ التي لا تنمو ولا تغتذي ، فإنَّ النباتَ خُلِقَ فيهِ قوَّةٌ بها يجتذبُ الغذاءَ إلىٰ نفسِهِ مِنْ جهةِ أصلِهِ وعروقِهِ التي في الأرضِ ، وهيَ لهُ آلاتٌ فيها يجتذبُ الغذاءَ ، وهيَ العروقُ الدقيقةُ التي تراها في كلِّ ورقةٍ ، ثمَّ تغلظُ أصولُها ثمَّ تتشعَّبُ ، ولا تزالُ تستدقُّ وتتشعَّبُ إلىٰ عروقٍ شعريَّةٍ تنبسطُ في أجزاءِ الورقةِ حتَّىٰ تغيبَ عنِ البصرِ .

إلا أنَّ النباتَ معَ هٰذا الكمالِ ناقصٌ ، فإنَّهُ لوْ أعوزَهُ غذاءٌ يُساقُ إليهِ ويماسُّ أصلَهُ . . جفَّ ويبسَ ، ولمْ يمكنْهُ طلبُ الغذاءِ مِنْ موضعٍ آخرَ ، فإنَّ الطلبَ إنَّما يكونُ بمعرفةِ المطلوبِ وبالانتقالِ إليهِ ، والنباتُ عاجزٌ عنْ ذلكَ ، فمِنْ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليكَ أنْ خلقَ لكَ آلةَ الإحساسِ ، وآلةَ الحركةِ في طلبِ الغذاءِ ، فانظرْ إلىٰ ترتيبِ حكمةِ اللهِ تعالىٰ في خلْقِ الحواسِّ الخمسِ التي هي آلةُ الإدراكِ .

فأولُها حاسَّةُ اللمْسِ ، وإنَّما خُلقَتْ لكَ حتَّىٰ إذا مسَّتْكَ نارٌ محرقةٌ أوْ سيفٌ جارحٌ . . تحسُّ بهِ فتهربُ منهُ ، وهٰذا أوَّلُ حسٍّ يُخلقُ للحيوانِ ، ولا يُتصوَّرُ حيوانٌ إلا ويكونُ لهُ هٰذا الحسُّ ؛ لأنَّهُ إنْ لمْ يحسَّ أصلاً . . فليسَ بحيوانٍ ، وأنقصُ درجاتِ الحسِّ أنْ يحسَّ بما يلاصقُهُ ويماسُّهُ ، فإنَّ

الإحساسَ بما يبعدُ منهُ إحساسٌ أتمُّ لا محالةَ ، وهـٰذا الحسُّ موجودٌ لكلِّ حيوانٍ ، حتَّى الدودةُ التي في الطينِ ، فإنَّها إذا غُرِزَ فيها إبرةٌ . . انقبضَتْ للهربِ ، لا كالنباتِ ؛ فإنَّ النباتَ يُقطعُ فلا ينقبضُ ؛ إذْ لا يحسُّ بالقطعِ .

إلا أنَّكَ لوْ لمْ يُخلقْ لكَ إلا هـٰذا الحسُّ . . لكنتَ ناقصاً كالدودِ لا تقدرُ علىٰ طلبِ الغذاءِ مِنْ حيثُ يبعدُ عنكَ ، بلْ ما يمسُّ بدنَكَ فتحسُّ بهِ ، فتجذبُهُ إلىٰ نفسِكَ فقطْ ، فافتقرتَ إلىٰ حسٍّ تدركُ بهِ ما بعُدَ عنكَ ، فخلقَ لكَ الشمَّ .

إلا أنَّكَ تدركُ بهِ الرائحةَ ، ولا تدري أنَّها جاءَتْ مِنْ أيِّ ناحيةٍ ، فتحتاجُ إلىٰ أنْ تطوفَ كثيراً مِنَ الجوانبِ ، فربَّما تعثرُ على الغذاءِ الذي شممتَ ريحَهُ وربَّما لمْ تعثرْ ، فتكونُ في غايةِ النقصانِ لوْ لمْ يخلقْ لكَ إلا هـٰذا ، فخلقَ لكَ البصرَ لتدركَ بهِ ما بعُدَ عنكَ ، وتدركَ جهتَهُ ، فتقصدَ تلكَ الجهةَ بعينِها .

إلا أنَّهُ لوْ لمْ يخلقْ لكَ إلا هـٰذا . . لكنتَ ناقصاً ؛ إذْ لا تدركُ بهـٰذا ما وراءَ الجدرانِ والحجبِ ، فتبصرُ غذاءً ليسَ بينَكَ وبينَهُ حجابٌ ، وتبصرُ عدوّاً لا حجابَ بينَكَ وبينَهُ ، وأمّا ما بينكَ وبينَهُ حجابٌ فلا تبصرُهُ وقدْ لا ينكشفُ الحجابُ إلا بعدَ قربِ العدوِّ فتعجزُ عنِ الهربِ ، فخلقَ لكَ السمعَ حتَّىٰ تدركَ بهِ الأصواتَ مِنْ وراءِ الجدرانِ والحجبِ عندَ جريانِ الحركاتِ ، ولأنَّكَ لا تدركُ بالبصرِ إلا شيئاً حاضراً ، وأمَّا الغائبُ . . فلا يمكنُكَ معرفتُهُ إلا بكلامٍ

ينتظمُ مِنْ حروفٍ وأصواتٍ تُدركُ بحسِّ السمعِ ، فاشتدَّتْ إليهِ حاجتُكَ ؛ فخلقَ لكَ ذلكَ ، ومُيِّزتَ بفهمِ الكلامِ عنْ سائرِ الحيواناتِ .

وكلُّ ذلكَ ما كانَ يغنيكَ لوْ لمْ يكنْ لكَ حسُّ الذوقِ ؛ إذْ يصلُ الغذاءُ إليكَ فلا تدري أنَّهُ موافقٌ لكَ أوْ مخالفٌ ، فتأكلُهُ فتهلكُ ؛ كالشجرةِ يُصبُّ في أصلِها كلُّ مائعٍ ولا ذوقَ لها ، فتجذبُهُ وربَّما يكونُ ذلكَ سببَ جفافِها .

ثمَّ كلُّ ذلكَ لا يكفيكَ لوْ لمْ يُخلقْ في مقدِّمةِ دماغِكَ إدراكٌ آخرُ يُسمَّىٰ حسّاً مشتركاً تتأدَّىٰ إليهِ هـٰذهِ المحسوساتُ الخمسُ وتجتمعُ فيهِ ، ولولاهُ . . لطالَ الأمرُ عليكَ ، فإنَّكَ إذا أكلتَ شيئاً أصفرَ مثلاً ، فوجدتَهُ مرّاً مخالفاً لكَ فتركتَهُ ؛ فإذا رأيتَهُ مرَّةً أخرىٰ . . فلا تعرفُ أنَّهُ مضرٌّ ما لمْ تذقْهُ ثانياً لولا الحسُّ المشتركُ ؛ إذِ العينُ تبصرُ الصفرةَ ولا تدركُ المرارةَ ، فكيفَ تمتنعُ عنهُ والذوقُ يدركُ المرارةَ ولا يدركُ الصفرةَ ، فلا بدَّ مِنْ حاكمٍ تجتمعُ عندَهُ الصفرةُ والمرارةُ جميعاً ، حتَّىٰ إذا أدركَ الصفرةَ . . حكمَ بأنَّهُ مرٌّ ، فيمتنعُ عنْ تناولِهِ ثانياً .

وهـٰذا كلُّهُ تشاركُكَ فيهِ الحيواناتُ ؛ إذْ للشاةِ هـٰذهِ الحواسُّ كلُّها ، فلوْ لمْ يكنْ لكَ إلا هـٰذا . . لكنتَ ناقصاً ، فإنَّ البهيمةَ يُحتالُ عليها فتُؤخذُ ، فلا تدري كيفَ تدفعُ الحيلةَ عنْ نفسِها وكيفَ تتخلَّصُ إذا قُيِّدَتْ ، وقدْ تلقي نفسَها في البئرِ ولا تدري أنَّ ذلكَ يهلكُها ، وكذلكَ قدْ تأكلُ البهيمةُ ما تستلذُّهُ في الحالِ ويضرُّها في ثاني الحالِ ، فتمرضُ وتموتُ ؛ إذْ ليسَ لها

إلا الإحساسُ بالحاضرِ ، فأمَّا إدراكُ العواقبِ . . فلا ، فميَّزَكَ اللهُ تعالىٰ وأكرمَكَ بصفةٍ أخرىٰ هيَ أشرفُ مِنَ الكلِّ ، وهيَ العقلُ ، فبهِ تدركُ مضرَّةَ الأطعمةِ ومنفعتَها في الحالِ والمآلِ ، وبهِ تدركُ كيفيَّةَ طبخِ الأطعمةِ وتأليفِها وإعدادِ أسبابِها ، فتنتفعُ بعقلِكَ في الأكلِ الذي هوَ سببُ صحَّتِكَ ، وهوَ أخسُّ فوائدِ العقلِ وأقلُّ الحِكَمِ فيهِ ، بلِ الحكمةُ الكبرىٰ فيهِ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ومعرفةُ أفعالِهِ ومعرفةُ الحكمةِ في عالمِهِ .

وعندَ ذلكَ تنقلبُ فائدةُ الحواسِّ الخمسِ في حقِّكَ ، فتكونُ الحواسُّ الخمسُ كالجواسيسِ وأصحابِ الأخبارِ الموكَّلينَ بنواحي المملكةِ ، وقدْ وُكِّلَتْ كلُّ واحدةٍ منها بأمرٍ تختصُّ بهِ ، فواحدةٌ منها بأخبارِ الألوانِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الأصواتِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الروائحِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الطعومِ ، والأخرىٰ بأخبارِ الحرِّ والبردِ ، والخشونةِ والملاسةِ ، واللينِ والصلابةِ ، وغيرِها .

وهٰذهِ البُرُدُ والجواسيسُ يقتنصونَ الأخبارَ مِنْ أقطارِ المملكةِ ، ويسلمونَها إلى الحسِّ المشتركِ ، والحسُّ المشتركُ قاعدٌ في مقدمةِ الدماغِ ، مثلُ صاحبِ القصصِ والكتبِ علىٰ بابِ الملكِ ، يجمعُ القصصَ والكتبَ الواردةَ مِنْ نواحي العالمِ ، فيأخذُها وهيَ مختومةٌ ؛ ويسلِّمُها إذْ ليسَ لهُ إلا أخذُها وجمعُها وحفظُها ، فأمَّا معرفةُ حقائقِ ما فيها . . فلا ، ولكنْ إذا صادفَ القلبَ العاقلَ الذي هوَ الأميرُ والملكُ . . سلَّمَ الإنهاءاتِ المختومةَ إليهِ ، فيفتشُها الملكُ ويطلعُ منها علىٰ أسرارِ المملكةِ ، ويحكمُ فيها بأحكامٍ

عجيبةٍ لا يمكنُ استقصاؤُها في هـٰذا المقامِ ، وبحسَبِ ما يلوحُ لهُ مِنَ الأحكامِ والمصالحِ يحرِّكُ الجنودَ ، وهيَ الأعضاءُ ، مرَّةً في الطلبِ ، ومرَّةً في الهربِ ، ومرَّةً في إتمامِ التدبيراتِ التي تعنُّ لهُ .

فهـٰذهِ سياقةُ نعمةِ اللهِ عليكَ في الإدراكاتِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّا استوفيناها ؛ فإنَّ الحواسَّ الظاهرةَ هيَ بعضُ الإدراكاتِ ، والبصرُ واحدٌ مِنْ جملةِ الحواسِّ ، والعينُ آلةٌ واحدةٌ لهُ ، وقدْ رُكبَتِ العينُ مِنْ عشرِ طبقاتٍ مختلفةٍ ، بعضُها رطوباتٌ وبعضُها أغشيةٌ ، وبعضُ الأغشيةِ كأنَّها نسجُ العنكبوتِ ، وبعضُها كالمشيمةِ ، وبعضُ تلكَ الرطوباتِ كأنَّهُ بياضُ البيضِ ، وبعضُها كأنَّهُ الجمْدُ ، ولكلِّ واحدةٍ منْ هـٰذهِ الطبقاتِ العشرِ صفةٌ وصورةٌ ، وشكلٌ وهيئةٌ ، وعرْضٌ وتدويرٌ وتركيبٌ ، لوِ اختلَّتْ طبقةٌ واحدةٌ مِنْ جملةِ العشرِ ، أوْ صفةٌ واحدةٌ مِنْ صفاتِ كلِّ طبقةٍ.. لاختلَّ البصرُ ، وعجزَ عنهُ الأطباءُ والكحَّالونَ كلُّهُمْ .

فهـٰذا في حسٍّ واحدٍ ، فقسْ بهِ حاسَّةَ السمعِ وسائرَ الحواسِّ ، بلْ لا يمكنُ أنْ تُستوفىٰ حِكَمُ اللهِ تعالىٰ وأنواعُ نِعَمِهِ في جسمِ البصرِ وطبقاتِهِ في مجلَّداتٍ كثيرةٍ ، معَ أنَّ جملتَهُ لا تزيدُ علىٰ جوزةٍ صغيرةٍ ، فكيفَ ظنُّكَ بجميعِ البدنِ وسائرِ أعضائِهِ وعجائبِهِ ؟!

فهـٰذهِ مرامزُ إلىٰ نعمِ اللهِ تعالىٰ بخلْقِ الإدراكاتِ .

* * *

الطرف الثاني : في أصناف النعم في خلق الإرادات

اعلمْ : أنَّهُ لوْ خُلِقَ لكَ البصرُ حتَّىٰ تدركَ بهِ الغذاءَ مِنْ بعْدٍ ولمْ يُخلقْ لكَ ميلٌ في الطبعِ وشوقٌ إليهِ وشهوةٌ لهُ تستحثُّكَ على الحركةِ . . لكانَ البصرُ معطَّلاً ، فكَمْ مِنْ مريضٍ يرى الطعامَ وهوَ أنفعُ الأشياءِ لهُ وقدْ سقطَتْ شهوتُهُ ، فلا يتناولُهُ ، فيبقى البصرُ والإدراكُ معطَّلاً في حقِّهِ .

فاضطررتَ إلىٰ أنْ يكونَ لكَ ميلٌ إلىٰ ما يوافقُكَ يُسمَّىٰ شهوةً ، ونفرةٌ عمَّا يخالفُكَ تُسمَّىٰ كراهةً ؛ لتطلبَ بالشهوةِ ، وتهربَ بالكراهةِ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ فيكَ شهوةَ الطعامِ ، وسلَّطَها عليكَ ، ووكلَها بكَ ؛ كالمتقاضي الذي يضطرُّكَ إلى التناولِ ، حتَّىٰ تتناولَ وتتغذَّىٰ ، فتبقىٰ بالغذاءِ ، وهـٰذا ممَّا يشاركُكَ فيهِ الحيوانُ دونَ النباتِ .

ثمَّ هـٰذهِ الشهوةُ لوْ لمْ تسكنْ إذا أخذتَ مقدارَ الحاجةِ . . أسرفتَ وأهلكتَ نفسَكَ ، فخلقَ اللهُ لكَ الكراهةَ عندَ الشبعِ ؛ لتتركَ الأكلَ بها ، لا كالزرعِ ، فإنَّهُ لا يزالُ يجتذبُ الماءَ إذا انصبَّ في أسافلِهِ حتَّىٰ يفسدَ ، فيحتاجُ إلىٰ آدميٍّ يقدِّرُ غذاءَهُ بقدْرِ الحاجةِ ، فيسقيهِ مرَّةً ويقطعُ عنهُ الماءَ أخرىٰ .

وكما خُلقَتْ لكَ هـٰذهِ الشهوةُ حتَّىٰ تأكلَ فيبقىٰ بهِ بدنُكَ . . خلقَ لكَ شهوةَ الوقاعِ حتَّىٰ تجامعَ فيبقىٰ بهِ نسلُكَ .

ولوْ قصصنا عليكَ عجائبَ صنعِ اللهِ تعالىٰ في خلْقِ الرحمِ ، وخلْقِ دمِ الحيضِ ، وتأليفِ الجنينِ مِنَ المنيِّ ودمِ الحيضِ ، وكيفيَّةِ خلْقِ الأنثيينِ والعروقِ السالكةِ إليها مِنَ الفقارِ الذي هوَ مستقرُّ النطفةِ ، وكيفيَّةِ انصبابِ ماءِ المرأةِ مِنَ الترائبِ بواسطةِ العروقِ ، وكيفيَّةِ انقسامِ مقعَّرِ الرحمِ إلىٰ قوالبَ تقعُ النطفةُ في بعضِها فتتشكَّلُ بشكلِ الذكورِ ، وتقعُ في بعضِها فتتشكَّلُ بشكلِ الإناثِ ، وكيفيَّةِ إدارتِها في أطوارِ خلقِها مضغةً وعلقةً ، ثمَّ عظماً ولحماً ودماً ، وكيفيَّةِ قسمةِ أجزائِها إلىٰ رأسٍ ورجْلٍ وبطنٍ وظهرٍ ويدٍ وسائرِ الأعضاءِ . . لقضيتَ منْ أنواعِ نعَمِ اللهِ تعالىٰ عليكَ في مبدأِ خلقِكَ كلَّ العجبِ فضلاً عمَّا تراهُ الآنَ ، ولكنَّا لسنا نريدُ أنْ نتعرَّضَ إلا لنعَمِ اللهِ تعالىٰ في الأكلِ وحدَهُ كي لا يطولَ الكلامُ .

فإذاً ؛ شهوةُ الطعامِ أحدُ ضروبِ الإراداتِ ، وذلكَ لا يكفيكَ ، فإنَّهُ تأتيكَ المهلكاتُ مِنَ الجوانبِ ، فلوْ لمْ يُخلقْ فيكَ الغضبُ الذي بهِ تدفعُ كلَّ ما يضادُّكَ ولا يوافقُكَ . . لبقيتَ عرضةً للآفاتِ ، ولأُخِذَ منكَ كلُّ ما حصَّلتَهُ مِنَ الغذاءِ ، فإنَّ كلَّ واحدٍ يشتهي ما في يديكَ ، فتحتاجُ إلىٰ داعيةٍ في دفعِهِ ومقاتلتِهِ ، وهيَ داعيةُ الغضبِ الذي بهِ تدفعُ كلَّ ما يضادُّكَ ولا يوافقُكَ .

ثمَّ هـٰذا لا يكفيكَ ؛ إذِ الشهوةُ والغضبُ لا يدعوانِ إلا إلىٰ ما يضرُّ وينفعُ في الحالِ ، وأمَّا في المآلِ . . فلا تكفي فيهِ هـٰذهِ الإرادةُ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ لكَ إرادةً أخرىٰ مسخَّرةً تحتَ إشارةِ العقلِ المعرِّفِ للعواقبِ ؛ كما خلقَ

الشهوةَ والغضبَ مسخَّرةً تحتَ إدراكِ الحسِّ المدرِكِ للحالةِ الحاضرةِ ، فتمَّ بها انتفاعُكَ بالعقلِ ؛ إذْ كانَ مجرَّدُ المعرفةِ بأنَّ هـٰذهِ الشهوةَ مثلاً تضرُّكَ لا يغنيكَ في الاحترازِ عنها ما لم يكنْ لكَ ميلٌ إلى العملِ بموجَبِ المعرفةِ ، وهـٰذهِ الإرادةُ أفردتَ بها عنِ البهائمِ إكراماً لبني آدمَ ، كما أفردتَ بمعرفةِ العواقبِ ، وقدْ سمَّينا هـٰذهِ الإرادةَ باعثاً دينياً ، وفصلناهُ في كتابِ الصبرِ تفصيلاً أوفىٰ مِنْ هـٰذا .

* * *

الطّرف الثّالث : في نعم الله تعالىٰ في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلمْ : أنَّ الحسَّ لا يفيدُ إلا الإدراكَ ، والإرادةُ لا معنىً لها إلا الميلُ إلى الطلبِ أوِ الهربِ ، وهـٰذا لا كفايةَ فيهِ ما لمْ تكنْ فيكَ آلةُ الطلبِ والهربِ ، فكَمْ مِنْ زَمِنٍ مشتاقٍ إلىٰ شيءٍ بعيدٍ عنهُ مدركٍ لهُ ، ولكنَّهُ لا يمكنُهُ أنْ يمشيَ إليهِ لفقدِ رجْلِهِ ، أوْ لا يمكنُهُ أنْ يتناولَهُ لفقدِ يدِهِ ، أوْ لفلجٍ وخَدَرٍ فيهما ، فلا بدَّ مِنْ آلاتٍ للحركةِ ، وقدرةٍ في تلكَ الآلاتِ على الحركةِ ؛ لتكونَ حركتُها بمقتضى الشهوةِ طلباً ، وبمقتضى الكراهةِ هرباً ، فلذلكَ خلقَ اللهُ تعالىٰ لكَ الأعضاءَ التي تنظرُ إلىٰ ظاهرِها ولا تعرفُ أسرارَها ، فمنها ما هوَ للطلبِ والهربِ ؛ كالرجْلِ للإنسانِ ، والجناحِ للطيرِ ، والقوائمِ للدوابِّ ، ومنها ما هوَ للدفعِ ؛ كالأسلحةِ للإنسانِ ، والقرونِ للحيواناتِ ، وفي هـٰذا تختلفُ الحيواناتُ اختلافاً كثيراً ؛ فمنها ما يكثرُ أعداؤُهُ ويبعدُ غذاؤُهُ ، فيحتاجُ إلىٰ سرعةِ الحركةِ ، فخُلِقَ لهُ الجناحُ ليطيرَ بسرعةٍ ، ومنها ما خُلِقَ لهُ أربعُ قوائمَ ، ومنها ما له رجْلانِ ، ومنها ما يدبُّ ، وذكرُ ذلكَ يطولُ .

فلنذكرِ الأعضاءَ التي بها يتمُّ الأكلُ فقطْ ؛ ليقاسَ عليها غيرُها ، فنقولُ :

رؤيتُكَ الطعامَ مِنْ بعدٍ وحركتُكَ إليهِ لا تكفي ما لمْ تتمكَّنْ منْ أنْ تأخذَهُ، فافتقرتَ إلىٰ آلةٍ باطشةٍ ، فأنعمَ اللهُ تعالىٰ عليكَ بخلْقِ اليدينِ ، وهما طويلتانِ ممتدَّتانِ إلى الأشياءِ ، ومشتملتانِ علىٰ مفاصلَ كثيرةٍ لتتحرَّكَ في الجهاتِ ،

فتمتدُّ وتنثني إليكَ ، فلا تكونُ كخشبةٍ منصوبةٍ ، ثمَّ جعلَ رأسَ اليدِ عريضاً بخلْقِ الكفِّ ، ثمَّ قسَّمَ رأسَ الكفِّ بخمسةِ أقسامٍ هيَ الأصابعُ ، وجعلَها في صفَّينِ بحيثُ يكونُ الإبهامُ في جانبٍ ويدورُ على الأربعةِ الباقيةِ ، ولوْ كانَتْ مجتمعةً أوْ متراكمةً . . لمْ يحصلْ بها تمامُ غرضِكَ ، فوضعَها وضعاً إنْ بسطتَها . . كانَتْ لكَ مجرفةً ، وإنْ ضممتَها . . كانَتْ لكَ مغرفةً ، وإنْ جمعتَها . . كانَتْ لكَ آلةً للضربِ ، وإنْ نشرتَها ثمَّ قبضتَها . . كانَتْ لكَ آلةً في القبضِ ، ثمَّ خلقَ لها أظفاراً ، وأسندَ إليها رؤوسَ الأصابعِ حتَّىٰ لا تتفتَّتَ ، وحتَّىٰ تلتقطَ بها الأشياءَ الدقيقةَ التي لا تحويها الأصابعُ ، فتأخذَها برؤوسِ أظفارِكَ .

ثمَّ هبْ أنَّكَ أخذتَ الطعامَ باليدِ . . فمِنْ أينَ يكفيكَ هـٰذا ما لمْ يصلْ إلى المعدةِ وهيَ في الباطنِ ، فلا بدَّ وأنْ يكونَ مِنَ الظاهرِ دهليزٌ إليها ؛ حتَّىٰ يدخلَ الطعامُ منهُ ، فجعلَ الفمَ منفذاً إلى المعدةِ معَ ما فيهِ مِنَ الحِكَمِ الكثيرةِ سوىٰ كونِهِ منفذاً للطعامِ إلى المعدةِ .

ثمَّ إنْ وضعتَ الطعامَ في الفمِ وهوَ قطعةٌ واحدةٌ . . فلا يتيسَّرُ ابتلاعُهُ ، فتحتاجُ إلىٰ طاحونةٍ تطحنُ بها الطعامَ ، فخلقَ لكَ اللحيينِ مِنْ عظمينِ ، وركَّبَ فيهِما الأسنانَ ، وطبَّقَ الأضراسَ مِنَ العليا على السفلىٰ لتطحنَ بهِما الطعامَ طحناً .

ثمَّ الطعامُ تارةً يحتاجُ إلى الكسرِ ، وتارةً إلى القطعِ ، ثمَّ يحتاجُ إلىٰ طحنٍ بعدَ ذلكَ ، فقسَّمَ الأسنانَ إلىٰ عريضةٍ طواحنَ كالأضراسِ ، وإلىٰ حادَّةٍ قواطعَ كالرَّباعِياتِ ، وإلىٰ ما يصلحُ للكسرِ كالأنيابِ .

ثمَّ جعلَ مفصِلَ اللحيينِ متخلخلاً بحيثُ يتقدَّمُ الفكُّ الأسفلُ ويتأخَّرُ ؛ حتَّىٰ يدورَ على الفكِّ الأعلىٰ دورانَ الرحىٰ ، ولولا ذلكَ . . لما تيسَّرَ إلا ضربُ أحدِهما على الآخرِ ؛ مثلَ تصفيقِ اليدينِ مثلاً ، وبذلكَ لا يتمُّ الطحنُ ، فجعلَ اللحيَ الأسفلَ متحرِّكاً حركةً دوريَّةً ، واللحيَ الأعلىٰ ثابتاً لا يتحرَّكَ ، فانظرْ إلىٰ عجيبِ صنعِ اللهِ تعالى ! فإنَّ كلَّ رحىً صنعَهُ الخلْقُ فيثبتُ منهُ الحجرُ الأسفلُ ويدورُ الأعلىٰ إلا هـٰذا الرحى الذي صنعَهُ اللهُ تعالىٰ ؛ إذْ يدورُ منهُ الأسفلُ على الأعلىٰ ، فسبحانَهُ ما أعظمَ شانَهُ وأعزَّ سلطانَهُ وأتمَّ برهانَهُ وأوسعَ امتنانَهُ !

ثمَّ هبْ أنَّكَ وضعتَ الطعامَ في فضاءِ الفمِ . . فكيفَ يتحرَّكُ الطعامُ إلىٰ ما تحتَ الأسنانِ ؟ أوْ كيفَ تستجرُّهُ الأسنانُ إلىٰ نفسِها ؟ أوْ كيفَ يتصرَّفُ باليدِ في داخلِ الفمِ ؟ فانظرْ كيفَ أنعمَ اللهُ تعالىٰ عليكَ بخلْقِ اللسانِ ، فإنَّهُ يطوفُ في جوانبِ الفمِ ويردُّ الطعامَ مِنَ الوسطِ إلى الأسنان بحسَبِ الحاجةِ كالمجرفةِ التي تردُّ الطعامَ إلى الرحىٰ ، هـٰذا معَ ما فيهِ مِنْ فائدةِ الذوْقِ ، وعجائبِ قوَّةِ النطْقِ التي لسنا نطنبُ بذكرِها .

ثمَّ هبْ أنَّكَ قطعتَ الطعامَ وطحنتَهُ وهوَ يابسٌ . . فلا تقدرُ على الابتلاعِ إلا بأنْ ينزلقَ إلى الحلقِ بنوعِ رطوبةٍ ، فانظرْ كيفَ خلقَ اللهُ تعالىٰ تحتَ اللسانِ عيناً يفيضُ اللعابُ منها وينصبُّ بقدْرِ الحاجةِ ؛ حتَّىٰ ينعجنَ بهِ الطعامُ ، فانظرْ كيفَ سخَّرَها لهـٰذا الأمرِ ، فإنَّكَ ترى الطعامَ مِنْ بعدٍ ، فتثورُ

المسكينةُ للخدمةِ[1] ، وينصبُّ اللعابُ حتَّىٰ تتحلَّبَ أشداقُكَ والطعامُ بعدُ بعيدٌ عنكَ .

ثمَّ هٰذا الطعامُ المطحونُ المنعجنُ مَنْ يوصلُهُ إلى المعدةِ وهوَ في الفمِ ولا تقدرُ علىٰ أنْ تدفعَهُ باليدِ ، ولا في المعدةِ يدٌ حتَّىٰ تمتدَّ فتجذبَ الطعامَ ؟ فانظرْ كيفَ هيَّأَ اللهُ تعالى المريءَ والحَنْجَرةَ ، وجعلَ علىٰ رأسِها طبقاتٍ تنفتحُ لأخذِ الطعامِ ، ثمَّ تنطبقُ وتنضغطُ حتَّىٰ يتقلَّبَ الطعامُ بضغطِهِ ، فيهويَ إلى المعدةِ في دهليزِ المريءِ .

فإذا وردَ الطعامُ على المعدةِ وهوَ خبزٌ وفاكهةٌ مقطعةٌ . . فلا يصلحُ لأنْ يصيرَ لحماً وعظماً ودماً علىٰ هٰذهِ الهيئةِ ، بل لا بدَّ وأنْ يُطبخَ طبخاً تامّاً حتىٰ تتشابَهُ أجزاؤُهُ ، فخلقَ اللهُ تعالى المعدةَ علىٰ هيئةِ قدْرٍ ، فيقعُ فيها الطعامُ ، فتحتوي عليهِ ، وتنغلقُ عليهِ الأبوابُ ، فلا يزالُ لابثاً فيها حتَّىٰ يتمَّ الهضمُ والنضْجُ بالحرارةِ التي تحيطُ بالمعدةِ مِنَ الأعضاءِ الباطنةِ ؛ إذْ مِنْ جانبِها الأيمنِ الكبدُ ، ومِنَ الأيسرِ الطحالُ ، ومِنْ قدَّامِ الثَّرْبُ[2] ، ومِنْ خلفٍ لحمُ الصلْبِ ، فتتعدَّى الحرارةُ إليها مِنْ تسخينِ هٰذهِ الأعضاءِ مِنَ الجوانبِ ، حتَّىٰ ينطبخَ الطعامُ ويصيرَ مائعاً متشابهاً ، يصلحُ للنفوذِ في تجاويفِ العروقِ ، وعندَ ذلكَ يشبهُ ماءَ الشعيرِ في تشابهِ أجزائِهِ ورقَّتِهِ ، وهوَ

---

(١) في نسخة الحافظ الزبيدي (٨/ ١٠٨) : (فيثور الحنكان للخدمة) .

(٢) الثرب : شحم رقيق يغشّي الكرش والأمعاء .

بعدُ لا يصلحُ للتغذيةِ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ بينَها وبينَ الكبدِ مجاريَ مِنَ العروقِ ، وجعلَ لها فوهاتٍ كثيرةً حتَّىٰ ينصبَّ الطعامُ فيها ، فينتهيَ إلى الكبدِ .

والكبدُ معجونٌ مِنْ طينةِ الدمِ حتَّىٰ كأنَّهُ دمٌ ، وفيهِ عروقٌ كثيرةٌ شعريَّةٌ منتشرةٌ في أجزاءِ الكبدِ ، فينصبُّ الطعامُ الرقيقُ النافذُ فيها ، وينتشرُ في أجزائِها ، حتَّىٰ تستوليَ عليهِ قوَّةُ الكبدِ ، فتصبغُهُ بلونِ الدمِ ، فيستقرُّ فيها ريثما يحصلُ لهُ نضجٌ آخرُ ، ويحصلُ لهُ هيئةُ الدمِ الصافي الصالحِ لغذاءِ الأعضاءِ ، إلا أنَّ حرارةَ الكبدِ هيَ التي تنضجُ هـٰذا الدمَ ، فيتولَّدُ مِنْ هـٰذا الدمِ فضلتانِ كما يتولَّدُ في جميعِ ما يُطبخُ : إحداهُما : شبيهةٌ بالدرديِّ والعكرِ[1] ، وهوَ الخلطُ السوداويُّ ، والأخرىٰ : شبيهةٌ بالرغوةِ ، وهيَ الصفراءُ ، ولوْ لمْ تُفصلْ عنهُما هاتانِ الفضلتانِ.. فسدَ مزاجُ الأعضاءِ ، فخلقَ اللهُ تعالى المرارةَ والطحالَ ، وجعلَ لكلِّ واحدٍ منهُما عنقاً ممدوداً إلى الكبدِ داخلاً في تجويفِهِ ، فتجذبُ المرارةُ الفضلةَ الصفراويَّةَ ، ويجذبُ الطحالُ العكرَ السوداويَّ ، فيبقى الدمُ صافياً ليسَ فيهِ إلا زيادةُ رقَّةٍ ورطوبةٍ لما فيهِ مِنَ المائيَّةِ ، ولولاها.. لما انتشرَ في تلكَ العروقِ الشعريَّةِ ، ولا خرجَ منها متصاعداً إلى الأعضاءِ ، فخلقَ اللهُ تعالى الكليتينِ ، وأخرجَ مِنْ كلِّ واحدةٍ منهُما عنقاً طويلاً إلى الكبدِ ، ومِنْ عجائبِ حكمةِ اللهِ تعالىٰ أنَّ عنقَهُما ليسَ داخلاً في تجويفِ الكبدِ ، بلْ متصلٌ بالعروقِ الطالعةِ مِنْ

(١) **الدردي والعكر** : ما يركد في أسفل كل مائع كالأشربة والأدهان .

حدبةِ الكبدِ ، حتَّىٰ يجذبَ مائيتَها بعدَ الطلوعِ مِنَ العروقِ الدقيقةِ التي في الكبدِ ، إذْ لوِ اجتُذبَ قبلَ ذلكَ . . لغلظَ ولمْ يخرجْ مِنَ العروقِ ، فإذا انفصلَتْ منهُ المائيَّةُ . . فقدْ صارَ الدمُ صافياً مِنَ الفضلاتِ الثلاثِ ، نقيّاً مِنْ كلِّ ما يفسدُ الغذاءَ .

ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ أطلعَ مِنَ الكبدِ عروقاً ، ثمَّ قسمَها بعدَ الطلوعِ أقساماً ، وشعبَ كلَّ قسمٍ بشعبٍ ، وانتشرَ ذلكَ في البدنِ كلِّهِ مِنَ الفَرْقِ إلى القدمِ ظاهراً وباطناً ، فيجري الدمُ الصافي فيها ، ويصلُ إلىٰ سائرِ الأعضاءِ ، حتَّىٰ تصيرَ العروقُ المنقسمةُ شعريَّةً كعروقِ الأوراقِ في الأشجارِ ، بحيثُ لا تدركُ بالأبصارِ ، فيصلُ منها الغذاءُ بالرشحِ إلىٰ سائرِ الأعضاءِ .

ولوْ حلَّتْ بالمرارةِ آفةٌ فلمْ تجذبْ الفضلةَ الصفراويةَ . . فسدَ الدمُ ، وحصلَ منهُ الأمراضُ الصفراويَّةُ ؛ كاليرقانِ والبثورِ والحمرةِ ، وإنْ حلَّتْ بالطحالِ آفةٌ فلمْ يجذبِ الخلطَ السوداويَّ . . حدثَتِ الأمراضُ السوداويَّةُ ؛ كالبهقِ والجذامِ والماليخوليا وغيرِها[1] ، وإنْ لمْ تندفعِ المائيةُ نحوَ الكلىٰ . . حدثَ منهُ الاستسقاءُ وغيرُهُ[2] .

ثمَّ انظرْ إلىٰ حكمةِ الفاطرِ الحكيمِ كيفَ رتَّبَ منافعَ علىٰ هـٰذهِ الفضلاتِ الثلاثِ الخسيسةِ :

---

(١) **الماليخوليا** : مرض يثوِّر الوساوس والظنون والخوف .

(٢) **الاستسقاء** : مرض احتباس السوائل في الجسم .

أمَّا المرارةُ . . فإنَّها تجذبُ بأحدِ عنقيها وتقذفُ بعنقٍ آخرَ إلى الأمعاءِ ؛ ليحصلَ بهِ في ثفلِ الطعامِ رطوبةٌ مزلقةٌ ، ويحدثَ في الأمعاءِ لذعٌ يحرِّكُها للدفعِ ، فتنضغطَ حتَّىٰ يندفعَ الثفلُ وينزلقَ ، وتكونُ صفرتُهُ لذلكَ .

وأمَّا الطحالُ . . فإنَّهُ يحيلُ تلكَ الفضلةَ إحالةً يحصلُ بها فيهِ حموضةٌ وقبضٌ ، ثمَّ يرسلُ منها في كلِّ يومٍ شيئاً إلىٰ فمِ المعدةِ ، فيحرِّكُ الشهوةَ بحموضتِهِ ، وينبهها ويثيرُها ، ويخرجُ الباقيَ معَ الثفلِ .

وأمَّا الكليةُ . . فإنَّها تغتذي بما في تلكَ المائيَّةِ مِنْ دمٍ ، وترسلُ الباقيَ إلى المثانةِ .

ولنقتصرْ علىٰ هـٰذا القدْرِ مِنْ بيانِ نعَمِ اللهِ تعالىٰ في الأسبابِ التي أُعدَّتْ للأكلِ ، ولوْ ذكرنا كيفيَّةَ احتياجِ الكبدِ إلى القلبِ والدماغِ ، واحتياجِ كلِّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الأَعضاءِ الرئيسةِ إلىٰ صاحبِهِ ، وكيفيَّةَ انشعابِ العروقِ الضواربِ مِنَ القلبِ إلىٰ سائرِ البدنِ التي بواسطتِها تصلُ الروحُ(١) ، وكيفيَّةَ انشعابِ الأعصابِ مِنَ الدماغِ إلىٰ سائرِ البدنِ وبواسطتِها يصلُ الحسُّ ، وكيفيَّةَ انشعابِ العروقِ السواكنِ مِنَ الكبدِ إلىٰ سائرِ البدنِ وبواسطتِها يصلُ الغذاءُ ، ثمَّ كيفيَّةَ تركيبِ الأعضاءِ ، وعددَ عظامِها وعضلاتِها وعروقِها ، وأوتارِها ورباطاتِها ، وغضاريفِها ورطوباتِها . . لطالَ الكلامُ ، وكلُّ ذلك محتاجٌ إليهِ للأكلِ ولأمورٍ أُخرَ سواهُ .

---

(١) **والمراد بالروح هنا** : البخار اللطيف الذي محلّه القلب ، كما سيبينه المصنف قريباً .

بلْ في الآدميِّ آلافٌ مِنَ العضلاتِ والعروقِ والأعصابِ ، مختلفةٌ بالصغرِ والكبرِ ، والدقَّةِ والغلظِ ، وكثرةِ الانقسامِ وقلَّتِهِ ، ولا شيءَ منها إلا وفيهِ حكمةٌ أو اثنتانِ أوْ ثلاثٌ أوْ أربعٌ إلىٰ عشرٍ وزيادةٍ ، وكلُّ ذلكَ نعَمٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ عليكَ ، لوْ سكنَ مِنْ جملتِها عرقٌ متحرِّكٌ ، أوْ تحرَّكَ عرقٌ ساكنٌ . . لهلكتَ يا مسكينُ .

فانظرْ إلىٰ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليكَ أوَّلاً ؛ لتقوىٰ بعدَها على الشكرِ ، فإنَّكَ لا تعرفُ مِنْ نعمةِ اللهِ تعالىٰ إلا الأكلَ وهوَ أخسُّها ، ثمَّ لا تعرفُ منها إلا أنَّكَ تجوعُ فتأكلُ ، والحمارُ أيضاً يعلمُ أنَّهُ يجوعُ فيأكلُ ، ويتعبُ فينامُ ، ويشتهي فيجامعُ ، ويستريحُ فيُشْمَصُ ويُرمَحُ[1] ، فإذا لمْ تعرفْ أنتَ مِنْ نفسِكَ إلا ما يعرفُهُ الحمارُ . . فكيفَ تقومُ بشكرِ نعَمِ اللهِ عليكَ ؟!

وهـٰذا الذي رمزنا إليهِ على الإيجازِ قطرةٌ مِنْ بحرٍ واحدٍ مِنْ بحارِ نعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ فقطْ ، فقسْ على الإجمالِ ما أهملناهُ مِنْ جملةِ ما عرفناهُ حذراً مِنَ التطويلِ .

وجملةُ ما عرفناهُ وعرفَهُ الخلقُ كلُّهُمْ بالإضافةِ إلىٰ ما لمْ يعرفوهُ مِنْ نعمِ اللهِ تعالىٰ أقلُّ مِنْ قطرةٍ مِنْ بحرٍ ، إلا أنَّ مَنْ علمَ شيئاً مِنْ هـٰذا . . أدركَ شمَّةً مِنْ معاني قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ .

ثمَّ انظرْ كيفَ ربطَ اللهُ تعالىٰ قوامَ هـٰذهِ الأعضاءِ وقوامَ منافعِها وإدراكاتِها

(١) الشمص : ضرب الدابة وطردها لاستنهاضها ، والرَّمْح مثله ، أو هو وصف للدابة إن رفست .

وقوَّاها ببخارٍ لطيفٍ يتصاعدُ مِنَ الأخلاطِ الأربعةِ ، ومستقرُّهُ القلبُ ، ويسري في جميعِ البدنِ بواسطةِ العروقِ الضواربِ ، فلا ينتهي إلىٰ جزءٍ مِنْ أجزاءِ البدنِ إلا ويحدثُ عندَ وصولِهِ في تلكَ الأجزاءِ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ قوَّةِ حسٍّ وإدراكٍ ، وقوَّةِ حركةٍ وغيرِها ؛ كالسراجِ الذي يُدارُ في أطرافِ البيتِ ، فلا يصلُ إلىٰ جزءٍ إلا ويحصلُ بسببِ وصولِهِ ضوءٌ علىٰ أجزاءِ البيتِ مِنْ خلْقِ اللهِ تعالىٰ واختراعِهِ ، ولكنَّهُ جعلَ السراجَ سبباً لهُ بحكمتِهِ .

وهٰذا البخارُ اللطيفُ هوَ الذي تسمِّيهِ الأطباءُ الروحَ ، ومحلُّهُ القلبُ ، ومثالُهُ جرمُ نارِ السراجِ ، والقلبُ لهُ كالمَسْرَجةِ[1] ، والدمُ الأسودُ الذي في باطنِ القلبِ لهُ كالفتيلةِ ، والغذاءُ لهُ كالزيتِ ، والحياةُ الظاهرةُ في سائرِ أعضاءِ البدنِ بسببِهِ كالضوءِ للسراجِ في جملةِ البيتِ ، وكما أنَّ السراجَ إذا انقطعَ زيتُهُ انطفأَ . . فسراجُ الروحِ أيضاً ينطفىءُ مهما انقطعَ غذاؤُهُ .

وكما أنَّ الفتيلةَ قدْ تحترقُ وتصيرُ رماداً ، بحيثُ لا تقبلُ الزيتَ ، فينطفىءُ السراجُ معَ كثرةِ الزيتِ . . فكذلكَ الدمُ الذي تشبَّثَ بهِ هٰذا البخارُ في القلبِ قدْ يحترقُ بفرْطِ حرارةِ القلبِ ، فينطفىءُ معَ وجودِ الغذاءِ ، فإنَّهُ لا يقبلُ الغذاءَ الذي يبقىٰ بهِ الروحُ كما لا يقبلُ الرمادُ الزيتَ قبولاً تتشبَّثُ النارُ بهِ .

وكما أنَّ السراجَ تارةً ينطفىءُ بسببٍ مِنْ داخلٍ كما ذكرناهُ ، وتارةً بسببٍ

(١) المسرجة : التي فيها الفتيلة والزيت .

مِنْ خارجٍ كريحٍ عاصفٍ . . فكذلكَ الروحُ تارةً تنطفىءُ بسببٍ مِنْ داخلٍ ، وتارةً بسببٍ مِنْ خارجٍ وهوَ القتلُ ، وكما أنَّ انطفاءَ السراجِ بفناءِ الزيتِ ، أوْ بفسادِ الفتيلةِ ، أوْ بريحٍ عاصفٍ ، أوْ بإطفاءِ إنسانٍ لا يكونُ إلا بأسبابٍ مقدَّرةٍ في علمِ اللهِ تعالىٰ مرتبةٍ ، ويكونُ كلُّ ذلكَ بقدَرٍ . . فكذلكَ انطفاءُ الروحِ ، وكما أنَّ انطفاءَ السراجِ هوَ منتهىٰ وقتِ وجودِهِ ، فيكونُ ذلكَ أجلَهُ الذي أُجِّلَ لهُ في أمِّ الكتابِ . . فكذلكَ انطفاءُ الروحِ .

وكما أنَّ السراجَ إذا انطفأَ أظلمَ البيتُ كلُّهُ . . فالروحُ إذا انطفأَ أظلمَ البدنُ كلُّهُ ، وفارقَتْهُ أنوارُهُ التي كانَ يستفيدُها مِنَ الروحِ ، وهيَ أنوارُ الإحساساتِ والقُدَرِ والإراداتِ وسائرِ ما يجمعُها معنىٰ لفظِ الحياةِ .

فهٰذا أيضاً رمزٌ وجيزٌ إلىٰ عالمٍ آخرَ مِنْ عوالمِ نعمِ اللهِ تعالىٰ وعجائبِ صنعِهِ وحكمتِهِ ؛ ليعلمَ أنَّهُ لوْ كانَ البحرُ مداداً لكلماتِ ربِّي . . لنفدَ البحرُ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ ربِّي ، فتَعْساً لمَنْ كفرَ باللهِ تَعْساً ، وسُحْقاً لمَنْ كفرَ نعمتَهُ سُحقاً .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فقدْ وصفتَ الروحَ ومثَّلتَهُ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سُئِلَ عنِ الروحِ فلمْ يزدْ علىٰ أنْ قالَ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، فلِمَ لمْ يصفْهُ لهُمْ علىٰ هٰذا الوجهِ ؟[1] .

---

(١) أي : علىٰ أنه بخار لطيف محلّه القلب ، وحديث السؤال عن الروح رواه البخاري (٤٧٢١) ، ومسلم (٢٧٩٤) .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذهِ غفلةٌ عنِ الاشتراكِ الواقعِ في لفظِ الروحِ ، فإنَّ الروحَ يُطلقُ لمعانٍ كثيرةٍ لا نطوِّلُ بذكرِها ، ونحنُ إنَّما وصفنا مِنْ جملتِها جسماً لطيفاً تسمِّيهِ الأطباءُ روحاً ، وقدْ عرفوا صفتَهُ ووجودَهُ ، وكيفيَّةَ سريانِهِ في الأعضاءِ ، وكيفيَّةَ حصولِ الإحساسِ والقوىٰ في الأعضاءِ بهِ ، حتَّىٰ إذا خدِرَ بعضُ الأعضاءِ . . علموا أنَّ ذلكَ لوقوعِ سدَّةٍ في مجَرىٰ هـٰذا الروحِ ، فلا يعالجونَ موضعَ الخدَرِ ، بلْ منابتَ الأعصابِ ومواقعَ السدةِ فيها ، ويعالجونَها بما يفتحُ السدةَ ، فإنَّ هـٰذا الجسمَ بلطفِهِ ينفذُ في شباكِ العصبِ ، وبواسطتِهِ يتأدَّىٰ مِنَ القلبِ إلىٰ سائرِ الأعضاءِ ، وما ترتقي إليهِ معرفةُ الأطباءِ فأمرُهُ سهلٌ نازلٌ .

وأمَّا الروحُ التي هيَ الأصلُ ، وهيَ التي إذا فسدَتْ فسدَ لها سائرُ البدنِ . . فذلكَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ لمْ نصفْهُ ، ولا رخصةَ في وصفِهِ إلا بأنْ يُقالَ : هوَ أمرٌ ربَّانيٌّ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ ، والأمورُ الربَّانيَّةُ لا تحتملُ العقولُ وصفَها ، بل تتحيَّرُ فيها عقولُ أكثرِ الخلقِ ، وأمَّا الأوهامُ والخيالاتُ . . فقاصرةٌ عنها بالضرورةِ قصورَ البصرِ عنْ إدراكِ الأصواتِ ، وتتزلزلُ في ذكرِ مبادي وصفِها معاقدُ العقولِ المقيدةِ بالجوهرِ والعرضِ ، المحبوسةِ في مضيقِها ، فلا يُدركُ بالعقلِ شيءٌ مِنْ وصفِهِ ، بلْ بنورٍ آخرَ أعلىٰ وأشرفَ مِنَ العقلِ ، يشرقُ ذلكَ النورُ في عالمِ النبوَّةِ والولايةِ ، نسبتُهُ إلى العقلِ نسبةُ العقلِ إلى الوهمِ والخيالِ .

وقدْ خلقَ اللهُ تعالى الخلْقَ أطواراً ، فكما يدركُ الصبيُّ المحسوساتِ

ولا يدركُ المعقولاتِ ؛ لأنَّ ذلكَ طورٌ لمْ يبلغْهُ بعدُ . . فكذلكَ يدركُ البالغُ المعقولاتِ ولا يدركُ ما وراءَها ؛ لأنَّ ذلكَ طورٌ لمْ يبلغْهُ بعدُ ، وإنَّهُ لمقامٌ شريفٌ ، ومشربٌ عذبٌ ، ورتبةٌ عاليةٌ ، فيها يُلحظُ جنابُ الحقِّ بنورِ الإيمانِ واليقينِ ، وذلكَ المشربُ أعزُّ مِنْ أنْ يكونَ شريعةً لكلِّ واردٍ ، بلْ لا يطلعُ عليهِ إلا واحدٌ بعدَ واحدٍ ، ولجنابِ الحقِّ صدرٌ ، وفي مقدمةِ الصدرِ مجالٌ وميدانٌ رحبٌ ، وعلىٰ أوَّلِ الميدانِ عتبةٌ هيَ مستقرُّ ذلكَ الأمرِ الربَّانيِّ ، فمَنْ لمْ يكنْ لهُ علىٰ هـٰذهِ العتبةِ جوازٌ ، ولا لحافظِ العتبةِ مشاهدةٌ . . استحالَ أنْ يصلَ إلى الميدانِ ، فكيفَ بالانتهاءِ إلىٰ ما وراءَهُ مِنَ المشاهداتِ العاليةِ ؟!

ولذلكَ قيلَ : (مَنْ لمْ يعرفْ نفسَهُ . . لمْ يعرفْ ربَّهُ)[1] ، وأنَّىٰ يُصادفُ هـٰذا في خزانةِ الأطباءِ ؟! ومِنْ أينَ للطبيبِ أنْ يلاحظَهُ ؟ بلِ المعنى المسمَّىٰ روحاً عندَ الطبيبِ بالإضافةِ إلىٰ هـٰذا الأمرِ الربَّانيِّ كالكرةِ التي يحرِّكُها صولجانُ الملكِ بالإضافةِ إلى الملكِ ، فمَنْ عرفَ الروحَ الطبِّيَّ فظنَّ أنَّهُ أدركَ الأمرَ الربَّانيَّ . . كانَ كمَنْ رأى الكرةَ التي يحرِّكُها صولجانُ الملكِ فظنَّ أنَّهُ رأى الملكَ ، ولا يُشكُّ في أنَّ خطأَهُ فاحشٌ ، وهـٰذا الخطأُ أفحشُ منهُ جداً .

ولمَّا كانتِ العقولُ التي بها يحصلُ التكليفُ وبها تُدركُ مصالحُ الدنيا

---

(1) أورده ابن عطية في « المحرر الوجيز » (٥/ ٢٩١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

عقولاً قاصرةً عنْ ملاحظةِ كنْهِ هـٰذا الأمرِ . . لمْ يأذنِ اللهُ تعالىٰ لرسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يتحدَّثَ عنهُ ، بلْ أمرَهُ أنْ يكلِّمَ الناسَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، ولمْ يذكرِ اللهُ تعالىٰ في كتابهِ مِنْ حقيقةِ هـٰذا الأمرِ شيئاً ، لكنْ ذكرَ نسبتَهُ وفعلَهُ ، ولمْ يذكرْ ذاتَهُ ؛ أمَّا نسبتُهُ . . ففي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، وأمَّا فعلُهُ . . فقدْ ذُكِرَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ .

ولنرجعِ الآنَ إلى الغرضِ ، فإنَّ المقصودَ ذكْرُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في الأكلِ ، فقدْ ذكرنا بعضَ نعمِ اللهِ تعالىٰ في آلاتِ الأكلِ .

❀ ❀ ❀

الطّرف الرّابع : في نعم الله تعالىٰ في الأصول التي منها تحصل الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته

اعلمْ : أنَّ الأطعمةَ كثيرةٌ ، ولله تعالىٰ في خلقِها عجائبُ كثيرةٌ لا تُحصىٰ ، وأسبابٌ متواليةٌ لا تتناهىٰ ، وذكرُ ذلكَ في كلِّ طعامٍ ممَّا يطولُ ، فإنَّ الأطعمةَ إمَّا أدويةٌ ، وإمَّا فواكهُ ، وإمَّا أغذيةٌ ، فلنأخذِ الأغذيةَ ؛ فإنَّها الأصلُ ، ولنأخذْ مِنْ جملتِها حبَّةً مِنَ البُرِّ ، ولندعْ سائرَ الأغذيةِ ، فنقولُ :

إذا وجدتَ حبَّةً أوْ حبَّاتٍ ، فلوْ أكلتَها . . فنيَتْ وبقيتَ جائعاً ، فما أحوجَكَ إلىٰ أنْ تنموَ الحبَّةُ في نفسِها ، وتزيدَ وتتضاعفَ حتَّىٰ تفيَ بتمامِ حاجتِكَ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ في حبَّةِ الحنطةِ مِنَ القوىٰ ما تغتذي بهِ كما خلقَ فيكَ ؛ فإنَّ النباتَ إنَّما يفارقُكَ في الحسِّ والحركةِ ، ولا يخالفُكَ في الاغتذاءِ ؛ لأنَّهُ يغتذي بالماءِ ويجتذبُ إلىٰ باطنِهِ بواسطةِ العروقِ كما تغتذي أنتَ وتجتذبُ ، ولسنا نطنبُ في ذكرِ آلاتِ النباتِ في اجتذابِ الغذاءِ إلىٰ نفسِهِ ، ولكنْ نشيرُ إلىٰ غذائِهِ فنقولُ :

كما أنَّ الخشبَ والترابَ لا يغذِّيكَ ، بلْ تحتاجُ إلىٰ طعامٍ مخصوصٍ . . فكذلكَ الحبَّةُ لا تغتذي بكلِّ شيءٍ ، بلْ تحتاجُ إلىٰ شيءٍ مخصوصٍ ؛ بدليلِ أنَّكَ لوْ تركتَها في البيتِ . . لمْ تزدْ ؛ لأنَّهُ ليسَ يحيطُ بها إلا الهواءُ ، ومجرَّدُ

الهواءِ لا يصلحُ لغذائِها ، ولوْ تركتَها في الماءِ . . لمْ تزدْ ، ولوْ تركتَها في أرضٍ لا ماءَ فيها . . لمْ تزدْ ، بلْ لا بدَّ مِنْ أرضٍ فيها ماءٌ يمتزجُ ماؤُها بالأرضِ فيصيرُ طيناً ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾ .

ثمَّ لا يكفي الماءُ والترابُ ؛ إذْ لوْ تُركَتْ في أرضٍ نديَّةٍ صلبةٍ متراكمةٍ . . لمْ تنبتْ ؛ لفقدِ الهواءِ ، فيحتاجُ إلىٰ تركِها في أرضٍ رَخوةٍ متخلخلةٍ ، يتغلغلُ الهواءُ إليها .

ثمَّ الهواءُ لا يتحرَّكُ إليها بنفسِهِ ، فيحتاجُ إلىٰ ريحٍ تحرِّكُ الهواءَ وتضربُهُ بقهْرٍ وعنفٍ على الأرضِ حتَّىٰ ينفذَ فيها ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ وإنَّما إلقاحُها في إيقاعِ الازدواجِ بينَ الهواءِ والماءِ والأرضِ .

ثمَّ كلُّ ذلكَ لا يغنيكَ لوْ كانَ في بردٍ مفرطٍ وشتاءٍ شاتٍ ، فتحتاجُ إلىٰ حرارةِ الربيعِ والصيفِ .

فقدْ بانَ احتياجُ غذائِهِ إلىٰ هٰذهِ الأربعةِ ، فانظرْ إلىٰ ماذا يحتاجُ كلُّ واحدٍ ؛ إذْ يحتاجُ الماءُ لينساقَ إلىٰ أرضِ الزراعةِ مِنَ البحارِ والعيونِ والأنهارِ والسواقي ، فانظرْ كيفَ خلقَ اللهُ البحارَ ، وفجَّرَ العيونَ ، وأجرىٰ منها الأنهارَ .

ثمَّ الأرضُ ربَّما تكونُ مرتفعةً والمياهُ لا ترتفعُ إليها ، فانظرْ كيفَ خلقَ

الغيومَ وكيفَ سلَّطَ الرياحَ عليها لتسوقَها بإذنِهِ إلىٰ أقطارِ الأرضِ ، وهيَ سُحُبٌ ثِقالٌ حواملُ بالماءِ ، ثمَّ انظرْ كيفَ يرسلُهُ مدراراً على الأراضي في وقتِ الربيعِ والخريفِ علىٰ حسبِ الحاجةِ .

وانظرْ كيفَ خلقَ الجبالَ حافظةً للمياهِ ، تتفجَّرُ منها العيونُ تدريجاً ، فلوْ خرجَتْ دفعةً . . لغرقتِ البلادُ ، وهلكَ الزرعُ والمواشي ، ونعمُ اللهِ تعالىٰ في الجبالِ والسحابِ والبحارِ والأمطارِ لا يمكنُ إحصاؤُها .

وأمَّا الحرارةُ . . فإنَّها لا تحصلُ بينَ الماءِ والأرضِ ، وكلاهما باردانِ ، فانظرْ كيفَ سخَّرَ الشمسَ ، وكيفَ خلقَها معَ بعدِها عنِ الأرضِ مسخِّنةً للأرضِ في وقتٍ دونَ وقتٍ ؛ ليحصلَ البردُ عندَ الحاجةِ إلى البردِ ، والحرُّ عندَ الحاجةِ إلى الحرِّ ، فهٰذهِ إحدىٰ حكَمِ الشمسِ ، والحكَمُ فيها أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ .

ثمَّ النباتُ إذا ارتفعَ عنِ الأرضِ . . كانَ في الفواكهِ انعقادٌ وصلابةٌ ، فتفتقرُ إلىٰ رطوبةٍ تنضجُها ، فانظرْ كيفَ خلقَ القمرَ وجعلَ مِنْ خاصِّيتِهِ الترطيبَ ، كما جعلَ مِنْ خاصِّيةِ الشمس التسخينَ ، فهوَ ينضجُ الفواكهَ ويصبُغُها بتقديرِ الفاطرِ الحكيمِ ، ولذلكَ لوْ كانَتِ الأشجارُ في ظلٍّ يمنعُ شروقَ الشمسِ والقمرِ وسائرِ الكواكبِ عليها . . لكانَتْ فاسدةً ناقصةً ، حتَّىٰ إنَّ الشجرةَ الصغيرةَ تفسدُ إذا أظلَّتْها شجرةٌ كبيرةٌ ، وتعرفُ ترطيبَ القمرِ بأنْ تكشفَ رأسَكَ لهُ بالليلِ ، فتغلبَ علىٰ رأسِكَ الرطوبةُ التي يُعبَّرُ عنها بالزكامِ ، فكما يرطِّبُ رأسَكَ يرطِّبُ الفواكهَ أيضاً .

ولا نطوِّلُ فيما لا مطمعَ في استقصائِهِ ، بلْ نقولُ :

كلُّ كوكبٍ في السماءِ فقدْ سُخِّرَ لنوعِ فائدةٍ كما سُخِّرَتِ الشمسُ للتسخينِ والقمرُ للترطيبِ ، فلا يخلو واحدٌ منها عنْ حكَمٍ كثيرةٍ لا تفي قوَّةُ البشرِ بإحصائِها ، ولوْ لمْ يكنْ كذلكَ . . لكانَ خلقُها عبثاً وباطلاً ، ولمْ يصحَّ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ ، وكما أنَّهُ ليسَ في أعضاءِ بدنِكَ عضوٌ إلا لفائدةٍ . . فليسَ في أعضاءِ بدنِ العالَمِ عضوٌ إلا لفائدةٍ ، والعالمُ كلُّهُ كشخصٍ واحدٍ ، وآحادُ أجسامِهِ كالأعضاءِ لهُ ، وهيَ متعاونةٌ تعاونَ أعضاءِ بدنِكَ في جملةِ بدنِكَ ، وشرحُ ذلكَ يطولُ .

ولا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ الإيمانَ بأنَّ النجومَ والشمسَ والقمرَ مسخراتٌ بأمرِ اللهِ تعالىٰ في أمورٍ جُعلَتْ أسباباً لها بحكْمِ الحكمةِ . . مخالفٌ للشرعِ ؛ لما وردَ فيهِ مِنَ النهيِ عنْ تصديقِ المنجِّمينَ وعنْ علمِ النجومِ[1] ، **بلِ المنهيُّ عنهُ في النجومِ أمرانِ** :

أحدُهُما : أنْ تصدِّقَ بأنَّها فاعلةٌ لآثارِها مستقلَّةٌ بها ، وأنَّها ليسَتْ مسخَّرةً تحتَ تدبيرِ مدبِّرٍ خلقَهَا وقهرَها ، وهٰذا كفرٌ .

---

(١) فقد روىٰ أبو داوود (٣٩٠٥) ، وابن ماجه (٣٧٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « من اقتبس علماً من النجوم . . اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد » ، وروىٰ أحمد في « المسند » (١/٧٨) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٧٧٦) مرفوعاً : « يا علي ؛ لا تجالس أصحاب النجوم » .

والثاني : تصديقُ المنجِّمينَ في تفصيلِ ما يخبرونَ عنهُ مِنَ الآثارِ التي لا يشتركُ كافَّةُ الخلقِ في دركِها ؛ لأنَّهُمْ يقولونَ ذلكَ عنْ جهلٍ ، فإنَّ علمَ أحكامِ النجومِ كانَ معجزةً لبعضِ الأنبياءِ[1] ، ثمَّ اندرسَ ذلكَ العلمُ ، فلمْ يبقَ منهُ إلا ما هوَ مختلطٌ لا يتميَّزُ فيهِ الصوابُ عنِ الخطأِ ، فاعتقادُ كونِ الكواكبِ أسباباً لآثارٍ تحصلُ بخلْقِ اللهِ تعالىٰ في الأرضِ وفي النباتِ وفي الحيوانِ . . ليسَ قادحاً في الدينِ ، بلْ هوَ حقٌّ ، ولكنْ دعوى العلمِ بتلكَ الآثارِ على التفصيلِ معَ الجهلِ قادحٌ في الدينِ ، ولذلكَ إذا كانَ معَكَ ثوبٌ غسلتَهُ وتريدُ تجفيفَهُ ، فقالَ لكَ غيرُكَ : (أخرجِ الثوبَ وابسطْهُ ؛ فإنَّ الشمسَ قدْ طلعَتْ وحميَ الهواءُ) . . لا يلزمُكَ تكذيبُهُ ، ولا يلزمُكَ الإنكارُ عليهِ بحوالتِهِ حَمْيَ الهواءِ علىٰ طلوعِ الشمسِ ، وإذا سألتَ عنْ تغيُّرِ وجهِ الإنسانِ بذلكَ ، فقالَ : (قرعَتْني الشمسُ في الطريقِ فاسودَّ وجهي) . . لمْ يلزمْكَ تكذيبُهُ بذلكَ ، وقسْ بهـٰذا سائرَ الآثارِ .

إلا أنَّ الآثارَ بعضُها معلومٌ وبعضُها مجهولٌ ، فالمجهولُ لا يجوزُ دعوى العلمِ فيهِ ، والمعلومُ بعضُهُ معلومٌ للناسِ كافَّةً ؛ كحصولِ الضياءِ والحرارةِ بطلوعِ الشمسِ ، وبعضُهُ لبعضِ الناسِ ؛ كحصولِ الزكامِ بشروقِ القمرِ .

فإذاً ؛ الكواكبُ ما خُلقَتْ عبثاً ، بلْ فيها حكَمٌ كثيرةٌ لا تُحصىٰ ، ولهـٰذا

---

(١) قيل : هو إدريس ، وقيل : هو دانيال . « إتحاف » (٩/١١٨) ، وفي (أ) : (لأنهم لا يقولون ذلك عن جهل ؛ فإن علم أحكام . . .) ، ولا يبعد .

نظرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى السماءِ وقرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ثمَّ قالَ : « ويلٌ لمَنْ قرأَ هٰذهِ الآيةَ ثمَّ مسحَ بها سَبَلَتَهُ »(١) ، ومعناهُ : أنْ يقرأَ ويتركَ التأمُّلَ ، ويقتصرَ مِنْ فهمِ ملكوتِ السماواتِ علىٰ أنْ يعرفَ لونَ السماءِ وضوءَ الكواكبِ ، وذلكَ ممَّا تعرفُهُ البهائمُ أيضاً ، فمَنْ قنعَ منهُ بمعرفةِ ذلكَ . . فهوَ الذي مسحَ بها سبلتَهُ .

فللَّهِ تعالىٰ في ملكوتِ السماواتِ والآفاقِ والأنفسِ والحيواناتِ والنباتِ عجائبُ يطلبُ معرفتَها المحبُّونَ للهِ تعالىٰ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ عالماً . . فلا يزالُ مشغوفاً بطلبِ تصانيفِهِ ؛ ليزدادَ بمزيدِ الوقوفِ علىٰ عجائبِ علمِهِ حبّاً لهُ ، فكذلكَ الأمرُ في عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ العالمَ كلَّهُ مِنْ تصنيفِهِ ، بلْ تصنيفُ المصنِّفينَ مِنْ تصنيفِهِ الذي صنَّفَهُ بواسطةِ قلوبِ عبادِهِ ، فإنْ تعجَّبتَ مِنْ تصنيفٍ . . فلا تتعجَّبْ مِنَ المصنِّفِ ، بلْ مِنَ الذي سخَّرَ المصنِّفَ لتصنيفِهِ بما أنعمَ عليهِ مِنْ هدايتِهِ وتسديدِهِ وتعريفِهِ ، كما إذا رأيتَ لُعَبَ المشعوذِ ترقصُ وتتحرَّكُ حركاتٍ موزونةً متناسبةً . . فلا تتعجَّبْ مِنَ اللعبِ ؛ فإنَّها خِرَقٌ محرَّكَةٌ لا متحرِّكةٌ ، ولكنْ تعجَّبْ مِنْ حذْقِ المشعوذِ المحرِّكِ لها بروابطَ دقيقةٍ خفيَّةٍ عنِ الأبصارِ .

فإذاً ؛ المقصودُ أنَّ غذاءَ النباتِ لا يتمُّ إلا بالماءِ والهواءِ والشمسِ والقمرِ

---

(١) كذا لفظه في « القوت » (١/ ٢٥٤) ، وروى ابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) نحوه ، والسَّبَلَة : الشارب ، أو الدائرة في وسط الشفة العليا ، أو ما على الذقن إلىٰ طرف اللحية .

والكواكبِ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بالأفلاكِ التي هيَ مركوزةٌ فيها ، ولا تتمُّ الأفلاكُ إلا بحركاتِها ، ولا تتمُّ حركاتُها إلا بملائكةٍ سماويَّةٍ يحرِّكونَها ، وكذلكَ يتمادىٰ ذلكَ إلىٰ أسبابٍ بعيدةٍ تركنا ذكرَها تنبيهاً بما ذكرناهُ علىٰ ما أهملناهُ ، ولنقتصرْ علىٰ هـٰذا مِنْ ذكرِ أسبابِ غذاءِ النباتِ .

* * *

الطرف الخامس : في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلمْ : أنَّ هٰذهِ الأطعمةَ كلَّها لا تُوجدُ في كلِّ مكانٍ ، بلْ لها شروطٌ مخصوصةٌ لأجلِها تُوجدُ في بعضِ الأماكنِ دونَ بعضٍ ، والناسُ منتشرونَ علىٰ وجهِ الأرضِ ، وقدْ تبعدُ عنهُمُ الأطعمةُ ، ويحولُ بينَهُمْ وبينَها البحارُ والبراري .

فانظرْ كيفَ سخَّرَ اللهُ تعالى التجَّارَ ، وسلَّطَ عليهِمْ حرْصَ المالِ وشرهَ الربحِ ، معَ أنَّهُ لا يغنيهِمْ في غالبِ الأمرِ شيئاً ، بلْ يجمعونَ ؛ فإمَّا أنْ تغرقَ بها السفنُ ، أوْ تنهبَها قطَّاعُ الطريقِ ، أوْ يموتوا في بعضِ البلادِ فيأخذَها السلاطينُ ، وأحسنُ أحوالِهِمْ أنْ يأخذَها ورثتُهُمْ وهُمْ أشدُّ أعدائِهِمْ لوْ عرفوا .

فانظرْ كيفَ سلَّطَ اللهُ الجهلَ والغفلةَ عليهِمْ ، حتَّىٰ يقاسونَ الشدائدَ في طلبِ الربحِ ويركبونَ الأخطارَ ، ويغررونَ بالأرواحِ في ركوبِ البحارِ ، فيحملونَ الأطعمةَ وأنواعَ الحوائجِ مِنْ أقصى الشرقِ والغربِ إليكَ .

وانظرْ كيفَ علَّمَهُمُ اللهُ تعالىٰ صناعةَ السفنِ ، وكيفيَّةَ الركوبِ فيها ، وانظرْ كيفَ خلقَ الحيواناتِ ، وسخَّرَها للركوبِ والحمْلِ في البراري ، وانظرْ إلى الإبلِ كيفَ خُلقَتْ ، وإلى الفرسِ كيفَ أُمدَّتْ بسرعةِ الحركةِ ، وإلى الحمارِ كيفَ جُعِلَ صبوراً على التعبِ ، وإلى الجمالِ كيفَ تقطعُ

البراريَ وتطوي المراحلَ تحتَ الأعباءِ الثقيلةِ على الجوعِ والعطشِ ، وانظرْ كيفَ سيَّرَهُمُ اللهُ تعالىٰ بواسطةِ السفنِ والحيواناتِ في البرِّ والبحرِ ليحملوا إليكَ الأطعمةَ وسائرَ الحوائجِ .

وتأمَّلْ ما يحتاجُ إليهِ الحيواناتُ مِنْ أسبابِها وأدواتِها وعلفِها ، وما تحتاجُ إليهِ السفنُ ، فقدْ خلقَ اللهُ تعالىٰ جميعَ ذلكَ إلىٰ حدِّ الحاجةِ وفوقَ الحاجةِ ، وإحصاءُ ذلكَ غيرُ ممكنٍ ، ويتمادىٰ هٰذا إلىٰ أمورٍ خارجةٍ عنِ الحصْرِ نرىٰ تركَها طلباً للإيجازِ .

* * *

الطّرف السّادس : في إصلاح الأطعمة

اعلمْ : أنَّ الذي ينبتُ في الأرضِ مِنَ النباتِ ، وما يُخلقُ مِنَ الحيواناتِ . . لا يمكنُ أنْ يُقضمَ ويُؤكلَ وهوَ كذلكَ ، بلْ لا بدَّ في كلِّ واحدٍ مِنْ إصلاحٍ وطبخٍ وتركيبٍ وتنظيفٍ بإلقاءِ البعضِ وإبقاءِ البعضِ ، إلىٰ أمورٍ أُخرَ لا تُحصىٰ ، واستقصاءُ ذلكَ في كلِّ طعامٍ طويلٌ ، فلنعيِّنْ رغيفاً واحداً ، ولننظرْ إلىٰ ما يحتاجُ إليهِ الرغيفُ الواحدُ حتَّىٰ يستديرَ ويصلحَ للأكلِ مِنْ بعدِ إلقاءِ البذرِ في الأرضِ .

فأوَّلُ ما يحتاجُ إليهِ الحرَّاثُ ؛ ليزرعَ ويصلحَ الأرضَ ، ثمَّ الثورُ الذي يثيرُ بهِ الأرضَ والفَدَانُ وجميعُ أسبابِهِ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ التعهُّدُ بسقيِ الماءِ مدَّةً ، ثمَّ تنقيةُ الأرضِ مِنَ الحشيشِ ، ثمَّ الحصادُ ، ثمَّ الفركُ والتنقيةُ ، ثمَّ الطحنُ ، ثمَّ العجْنُ ، ثمَّ الخبْزُ .

فتأمَّلْ عددَ هٰذهِ الأفعالِ التي ذكرناها وما لمْ نذكرْهُ ، وعددَ الأشخاصِ القائمينَ بها ، وعددَ الآلاتِ التي يُحتاجُ إليها مِنَ الحديدِ والخشبِ والحجرِ وغيرِهِ .

وانظرْ إلىٰ أعمالِ الصنَّاعِ في إصلاحِ آلاتِ الحراثةِ والطحْنِ والخبْزِ ؛ مِنْ نجَّارٍ وحدَّادٍ وغيرِهما ، وانظرْ إلىٰ حاجةِ الحدَّادِ إلى الحديدِ والرصاصِ والنحاسِ ، وانظرْ كيفَ خلقَ اللهُ تعالى الجبالَ والأحجارَ والمعادنَ ، وكيفَ جعلَ الأرضَ قطعاً متجاوراتٍ مختلفةً .

فإنْ فتشتَ.. علمتَ أنَّ رغيفاً واحداً لا يستديرُ بحيثُ يصلحُ لأكلِكَ يا مسكينُ ما لمْ يعملْ عليهِ أكثرُ مِنْ ألفِ صانعٍ ، فابتَدِئ مِنَ المَلَكِ الذي يزجي السحابَ لينزلَ الماءَ ، إلىٰ آخرِ الأعمالِ مِنْ جهةِ الملائكةِ ، حتَّىٰ تنتهيَ النوبةُ إلىٰ عملِ الإنسانِ ، فإذا استدارَ . طلبَهُ قريبٌ مِنْ سبعةِ آلافِ صانعٍ ، كلُّ صانعٍ أصلٌ مِنْ أصولِ الصنائعِ التي بها تتمُّ مصلحةُ الخلقِ .

ثمَّ تأمَّلْ كثرةَ أعمالِ الإنسانِ في تلكَ الآلاتِ ، حتَّىٰ إنَّ الإبرةَ التي هيَ آلةٌ صغيرةٌ فائدتُها خياطةُ اللباسِ الذي يمنعُ البردَ عنكَ لا تكملُ صورتُها مِنْ حديدةٍ تصلحُ للإبرةِ إلا بعدَ أنْ تمرَّ علىٰ يدِ الإِبْرِيِّ خمساً وعشرينَ مرَّةً ، يتعاطىٰ في كلِّ مرَّةٍ منها عملاً ، فلوْ لمْ يجمعِ اللهُ تعالىٰ البلادَ ، ولمْ يسخِّرِ العبادَ ، وافتقرتَ إلىٰ عملِ المِنْجلِ الذي تحصدُ بهِ البرَّ مثلاً بعدَ نباتِهِ.. لنفدَ عمرُكَ وعجزتَ عنهُ .

أفلا ترىٰ كيفَ هدى اللهُ عبدَهُ الذي خلقَهُ مِنْ نطفةٍ قذرةٍ لأَنْ يعملَ هٰذهِ الأعمالَ العجيبةَ والصنائعَ الغريبةَ ؟!

فانظرْ إلى المقراضِ مثلاً وهما جَلَمانِ متطابقانِ ، ينطبقُ أحدُهُما على الآخرِ ، فيتناولانِ الشيءَ معاً ويقطعانِهِ بسرعةٍ ، ولوْ لمْ يكشفِ اللهُ تعالىٰ طريقَ اتخاذِهِ بفضلِهِ وكرمِهِ لِمَنْ قبلَنا ، وافتقرنا إلى استنباطِ الطريقِ فيهِ بفكرنا ، ثمَّ إلى استخراجِ الحديدِ مِنَ الحجرِ ، وإلىٰ تحصيلِ الآلاتِ التي بها يُعملُ المقراضُ ، وعُمِّرَ الواحدُ منَّا عمرَ نوحٍ ، وأُوتيَ أكملَ العقولِ..

لقصرَ عمرُهُ عنِ استنباطِ الطريقِ في إصلاحِ هـٰذهِ الآلةِ وحدَها فضلاً عنْ غيرِها .

فسبحانَ مَنْ ألحقَ ذوي الأبصارِ بالعميانِ ! وسبحانَ مَنْ منعَ التبيُّنَ معَ هـٰذا البيانِ !

فانظرِ الآنَ لوْ خلا بلدُكَ عنِ الطحانِ مثلاً ، أوْ عنِ الحدَّادِ ، أوْ عنِ الحجَّامِ الذي هوَ أخسُّ العمَّالِ ، أوْ عنِ الحائكِ ، أوْ عنْ واحدٍ مِنْ جملةِ الصنَّاعِ . . ماذا يصيبُكَ مِنَ الأذىٰ ، وكيفَ تضطربُ عليكَ أمورُكَ كلُّها ، فسبحانَ مَنْ سخَّرَ بعضَ العبادِ لبعضٍ حتَّىٰ نفذَتْ بهِ مشيئتُهُ ، وتمَّتْ بهِ حكمتُهُ .

ولنوجزِ القولَ في هـٰذهِ الطبقةِ أيضاً ، فإنَّ الغرضَ التنبيهُ على النعَمِ دونَ الاستقصاءِ .

❋ ❋ ❋

الطّرف السّابع : في إصلاح المصلحين

اعلمْ : أنَّ هؤلاءِ الصنَّاعَ المصلحينَ للأطعمةِ وغيرِها لوْ تفرَّقَتْ آراؤُهُمْ وتنافرَتْ طباعُهُمْ تنافرَ طباعِ الوحشِ . . لتبدَّدوا وتباعدوا ، ولمْ ينتفعْ بعضُهُمْ ببعضٍ ، بلْ كانوا كالوحوشِ لا يحويهِمْ مكانٌ واحدٌ ، ولا يجمعُهُمْ غرضٌ واحدٌ ، فانظرْ كيفَ ألَّفَ اللهُ تعالىٰ بينَ قلوبِهِمْ ، وسلَّطَ الأنْسَ والمحبَّةَ عليهِمْ ، ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، فلأجلِ الإلْفِ وتعارفِ الأرواحِ اجتمعوا وائتلفوا ، وبنَوُا المدنَ والبلادَ ورتبوا المساكنَ والدورَ متقاربةً متجاورةً ، ورتبوا الأسواقَ والخاناتِ وسائرَ أصنافِ البقاعِ ، ممَّا يطولُ إحصاؤُهُ .

ثمَّ هٰذهِ المحبَّةُ تزولُ بأغراضٍ يتزاحمونَ عليها ، ويتنافسونَ فيها ، ففي جبلةِ الإنسانِ الغيظُ والحسدُ والمنافسةُ ، وذلكَ مما يؤدي إلى التقاتلِ والتنافرِ ، فانظرْ كيفَ سلَّطَ اللهُ تعالى السلاطينَ وأمدَّهُمْ بالقوَّةِ والعدةِ والأسبابِ ، وألقىٰ رعبَهُمْ في قلوبِ الرعايا حتَّىٰ أذعنوا لهُمْ طوعاً وكرهاً ، وكيفَ هدى السلاطينَ إلىٰ طريقِ إصلاحِ البلادِ ، حتَّىٰ رتَّبوا أجزاءَ البلدِ كأنَّها أجزاءُ شخصٍ واحدٍ ، تتعاونُ علىٰ غرضٍ واحدٍ ، ينتفعُ البعضُ منها بالبعضِ ، فرتَّبوا الرؤساءَ والقضاةَ والشِّحَنَ وزعماءَ الأسواقِ[1] ، واضطروا

---

(١) الشِّحن : جمع شِحنة ، لفظة فارسية بمعنىٰ نائب الحاكم ومسؤول الأمن .

الخلْقَ إلىٰ قانونِ العدْلِ ، وألزموهُمُ التساعدَ والتعاونَ ، حتَّىٰ صارَ الحدَّادُ ينتفعُ بالقصَّابِ والخبَّازِ وسائرِ أهلِ البلدِ ، وكلُّهُمْ ينتفعونَ بالحدَّادِ ، وصارَ الحجَّامُ ينتفعُ بالحرَّاثِ ، والحرَّاثُ بالحجَّامِ ، وينتفعُ كلُّ واحدٍ بكلِّ واحدٍ بسببِ ترتُّبِهِمْ واجتماعِهِمْ وانضباطِهِمْ تحتَ ترتيبِ السلطانِ وجمعِهِ ؛ كما يتعاونُ جميعُ أعضاءِ البدنِ وينتفعُ بعضُها ببعضٍ .

وانظرْ كيفَ بعثَ الأنبياءَ عليهمُ السلامُ حتَّىٰ أصلحوا السلاطينَ المصلحينَ للرعايا ، وعرَّفوهُمْ قوانينَ الشرعِ في حفْظِ العدْلِ بينَ الخلقِ ، وقوانينَ السياسةِ في ضبطِهِمْ ، وكشفوا مِنْ أحكامِ الإمامةِ والسلطنةِ وأحكامِ الفقهِ ما اهتدَوا بهِ إلىٰ إصلاحِ الدنيا ، فضلاً عمَّا أرشدوهُمْ إليهِ مِنْ إصلاحِ الدينِ .

وانظرْ كيفَ أصلحَ اللهُ تعالىٰ الأنبياءَ بالملائكةِ ، وكيفَ أصلحَ الملائكةَ بعضَهُمْ ببعضٍ ، إلىٰ أنْ ينتهيَ إلى الملكِ المقرَّبِ الذي لا واسطةَ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ .

فالخبَّازُ يخبزُ العجينَ ، والطحَّانُ يصلحُ الحبَّ بالطحْنِ ، والحرَّاثُ يصلحُهُ بالحصادِ ، والحدَّادُ يصلحُ آلاتِ الحراثةِ ، والنجَّارُ يصلحُ آلاتِ الحدَّادِ ، وكذا جميعُ أربابِ الصناعاتِ المصلحينَ لآلاتِ الأطعمةِ ، والسلطانُ يصلحُ الصنَّاعَ ، والأنبياءُ يصلحونَ العلماءَ الذينَ هُمْ ورثتُهُمْ ، والعلماءُ يصلحونَ السلاطينَ ، والملائكةُ يصلحونَ الأنبياءَ ، إلىٰ أنْ ينتهيَ إلىٰ حضرةِ الربوبيَّةِ التي هيَ ينبوعُ كلِّ نظامٍ ، ومطلعُ كلِّ حسنٍ وجمالٍ ،

ومنشأُ كلِّ ترتيبٍ وتأليفٍ ، وكلُّ ذلكَ نعَمٌ مِنْ ربِّ الأربابِ ومسببِّ الأسبابِ ، ولولا فضلُهُ وكرمُهُ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ . . لما اهتدينا إلىٰ معرفةِ هٰذهِ النبذةِ اليسيرةِ مِنْ نعَمِ اللهِ تعالىٰ ، ولولا عزلُهُ إيَّانا عنْ أنْ نطمحَ بعينِ الطمعِ إلى الإحاطةِ بكنْهِ نعَمِهِ . . لتشوَّفنا إلىٰ طلبِ الإحاطةِ والاستقصاءِ ، ولكنَّه تعالىٰ عزلَنا بحكْمِ القهرِ والقدرةِ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَا ﴾ .

فإنْ تكلمنا . . فبإذنِهِ انبسطنا ، وإنْ سكتنا . . فبقهرِهِ انقبضنا ؛ إذْ لا معطيَ لما منعَ ، ولا مانعَ لما أعطىٰ ؛ لأنَّا في كلِّ لحظةٍ مِنْ لحظاتِ العمرِ قبلَ الموتِ نسمعُ بسمعِ القلوبِ نداءَ الملكِ الجبَّارِ : ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ ، فالحمدُ للهِ الذي ميَّزَنا عنِ الكفَّارِ ، وأسمعَنا هٰذا النداءَ قبلَ انقضاءِ الأعمارِ .

❋ ❋ ❋

الطرف الثامن : في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام

ليسَ يخفىٰ عليكَ ما سبقَ مِنْ نعمةِ اللهِ في خلقِ الملائكةِ بإصلاحِ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ وهدايتِهِمْ ، وتبليغِ الوحيِ إليهِمْ ، ولا تظنَّنَّ أنَّهُمْ مقتصرونَ في أفعالِهِمْ علىٰ ذلكَ القدْرِ ، بلْ طبقاتُ الملائكةِ معَ كثرتِها وترتُّبِ مراتبِها تنحصرُ بالجملةِ في ثلاثِ طبقاتٍ : الملائكةُ الأرضيَّةُ ، والسماويَّةُ ، وحملةُ العرشِ .

فانظرْ كيفَ وكلَهُمُ اللهُ تعالىٰ بكَ فيما يرجعُ إلى الأكلِ والغذاءِ الذي ذكرناهُ دونَ ما يجاوزُ ذلكَ مِنَ الهدايةِ والإرشادِ وغيرِهِما .

واعلمْ : أنَّ كلَّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ بدنِكَ ، بلْ مِنْ أجزاءِ النباتِ . . لا يتغذَّىٰ إلا بأنْ يُوكلَ بهِ سبعةٌ مِنَ الملائكةِ هوَ أقلُّهُ إلىٰ عشرةٍ ، إلىٰ مئةٍ ، إلىٰ ما وراءَ ذلكَ .

وبيانُهُ : أنَّ معنى الغذاءِ أنْ يقومَ جزءٌ مِنَ الغذاءِ مقامَ جزءٍ قدْ تلفَ ، وذلكَ الغذاءُ يصيرُ دماً في آخرِ الأمرِ ، ثمَّ يصيرُ لحماً وعظماً ، فإذا صارَ لحماً وعظماً . . تمَّ اغتذاؤُكَ ، والدمُ واللحمُ أجسامٌ ليسَ لها قدرةٌ ومعرفةٌ واختيارٌ ، فهيَ لا تتحرَّكُ بأنفسِها ، ولا تتغيَّرُ بأنفسِها ، ومجرَّدُ الطبعِ لا يكفي في تردُّدِها في أطوارِها ، كما أنَّ البُرَّ بنفسِهِ لا يصيرُ طحيناً ، ثمَّ عجيناً ، ثمَّ خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصنَّاعٍ ؛ فكذلكَ الدمُ بنفسِهِ لا يصيرُ لحماً وعظماً وعرقاً وعصباً إلا بصنَّاعٍ ، والصنَّاعُ في الباطنِ هُمُ الملائكةُ ؛

كما أَنَّ الصنَّاعَ في الظاهرِ هُمْ أهلُ البلدِ ، وقدْ أسبغَ اللهُ تعالىٰ عليكَ نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً ، فلا ينبغي أنْ تغفُلَ عنْ نعمِهِ الباطنةِ ، فأقولُ :

لا بدَّ مِنْ مَلَكٍ يجذبُ الغذاءَ إلىٰ جوارِ اللحمِ والعظمِ ، فإنَّ الغذاءَ لا يتحرَّكُ بنفسِهِ ، ولا بدَّ مِنْ مَلَكٍ آخرَ يمسكُ الغذاءَ في جوارِهِ ، ولا بدَّ مِنْ ثالثٍ يخلعُ عنهُ صورةَ الدمِ ، ولا بدَّ مِنْ رابعٍ يكسوهُ صورةَ اللحمِ والعظمِ والعرقِ ، ولا بدَّ مِنْ خامسٍ يدفعُ الفضْلَ الفاضلَ عنْ حاجةِ الغذاءِ ، ولا بدَّ مِنْ سادسٍ يلصقُ ما اكتسبَ صفةَ العظمِ بالعظمِ ، وما اكتسبَ صفةَ اللحمِ باللحمِ ؛ حتَّىٰ لا يكونَ منفصلاً ، ولا بدَّ مِنْ سابعٍ يرعى المقاديرَ في الإلصاقِ ، فيلحقُ بالمستديرِ ما لا يبطلُ استدارتَهُ ، وبالعريضِ ما لا يزيلُ عرْضَهُ ، وبالمجوَّفِ ما لا يبطلُ تجويفَهُ ، ويحفظُ علىٰ كلِّ واحدٍ قدْرَ حاجتِهِ ، فإنَّهُ لوْ جُمعَ مثلاً مِنَ الغذاءِ علىٰ أنفِ الصبيِّ ما يجمعُ علىٰ فخذِهِ . . لكبرَ أنفُهُ ، وبطلَ تجويفُهُ ، وتشوَّهَتْ صورتُهُ ، بلْ ينبغي أنْ يسوقَ إلى الأجفانِ معَ رقَّتِها ، وإلى الحدقةِ معَ صفائِها ، وإلى الأفخاذِ معَ غلظِها ، وإلى العظْمِ معَ صلابتِهِ . . ما يليقُ بكلِّ واحدٍ منها مِنْ حيثُ القدْرُ والشكلُ ، وإلا . . بطلَتِ الصورةُ ، وربا بعضُ المواضعِ ، وضعفَ بعضُ المواضعِ ، بلْ لوْ لمْ يراعِ هـٰذا الملكُ العدْلَ في القسمةِ والتقسيطِ ؛ فساقَ إلىٰ رأسِ الصبيِّ وسائرِ بدنِهِ مِنَ الغذاءِ ما ينمو بهِ إلا إحدى الرجْلينِ مثلاً . . لبقيَتْ تلك الرجْلُ كما كانَتْ في حدِّ الصغرِ ، وكبرَ جميعُ البدنِ ، فكنتَ ترىٰ شخصاً في ضخامةِ رجُلٍ ولهُ رجْلٌ واحدةٌ كأنَّها رجْلُ صبيٍّ ، فلا ينتفعُ بنفسِهِ ألبتةَ .

فمراعاةُ هـٰذهِ الهندسةِ في هـٰذهِ القسمةِ مفوَّضةٌ إلىٰ ملكٍ مِنَ الملائكةِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ الدمَ بطبعِهِ يهندسُ شكْلَ نفسِهِ ، فإنَّ محيلَ هـٰذهِ الأمورِ على الطبعِ جاهلٌ لا يدري ما يقولُ .

فهـٰذهِ هيَ الملائكةُ الأرضيَّةُ .

وقدْ شُغلوا بكَ وأنتَ في النومِ تستريحُ ، وفي الغفلةِ تتردَّدُ ، وهُمْ يصلحونَ الغذاءَ في باطنِكَ ، ولا خبرَ لكَ منهُمْ ، وذلكَ في كلِّ جزءٍ مِنْ أجزائِكَ التي لا تتجزَّأُ ، حتَّىٰ يفتقرُ بعضُ الأجزاءِ كالعينِ والقلبِ إلىٰ أكثرَ مِنْ مئةِ ملكٍ ، تركنا تفصيلَ ذلكَ للإيجازِ .

والملائكةُ الأرضيَّةُ مددُهُمْ مِنَ الملائكةِ السماويَّةِ علىٰ ترتيبٍ معلومٍ ، لا يحيطُ بكنهِهِ إلا اللهُ تعالىٰ ، ومددُ الملائكةِ السماويَّةِ مِنْ حملةِ العرشِ ، والمنعِمُ علىٰ جميعِهِمْ بالتأييدِ والهدايةِ والتسديدِ المهيمنُ القدُّوسُ المنفردُ بالملْكِ والملكوتِ والعزَّةِ والجبروتِ ، جبَّارُ السماواتِ والأرضِ ، مالكُ الملكِ ذو الجلالِ والإكرامِ .

والأخبارُ الواردةُ في الملائكةِ الموكلينَ بالسماواتِ والأرضِ وأجزاءِ النباتِ والحيواناتِ حتَّىٰ كلِّ قطرةٍ مِنَ المطرِ ، وكلِّ سحابٍ ينجرُّ مِنْ جانبٍ إلىٰ جانبٍ . . أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ ، فلذلكَ تركنا الاستشهادَ بهِ[1] .

❊ ❊ ❊

---

(١) ينظر « الحبائك في أخبار الملائك » لمزيد التوسع ، ففيه ما يشفي ويكفي .

فإنْ قلتَ : فهلاَّ فوَّضتَ هٰذهِ الأفعالَ إلىٰ ملكٍ واحدٍ ، ولِمَ افتقرَ إلىٰ سبعةِ أملاكٍ ، والحنطةُ أيضاً تحتاجُ إلىٰ مَنْ يطحنُ أولاً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يميزُ عنهُ النخالةَ ويدفعُ الفضلةَ ثانياً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يصبُّ الماءَ عليهِ ثالثاً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يعجنُ رابعاً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يقطعُهُ كراتٍ مدورةً خامساً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يرقِّقُها رغفاناً عريضةً سادساً ، ثمَّ إلىٰ مَنْ يلصقُها بالتنورِ سابعاً ، ولكنْ قدْ يتولىٰ جميعَ ذلكَ رجلٌ واحدٌ يستقلُّ بهِ ، فهلاَّ كانَتْ أعمالُ الملائكةِ باطناً كأعمالِ الإنسِ ظاهراً .

فاعلمْ : أنَّ خلقةَ الملائكةِ تخالفُ خلقةَ الإنسِ ، وما مِنْ واحدٍ منهُمْ إلا وهوَ وحدانيُّ الصفةِ ، ليسَ فيهِ خلطٌ وتركيبٌ ألبتةَ ، فلا يكونُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ إلا فعلٌ واحدٌ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ، فلذلكَ ليسَ بينَهُمْ تنافسٌ وتقاتلٌ ، بلْ مثالُهُمْ في تعيُّنِ مرتبةِ كلِّ واحدٍ منهُمْ وفعلِهِ مثالُ الحواسِّ الخمسِ ، فإنَّ البصرَ لا يزاحمُ السمعَ في إدراكِ الأصواتِ ، ولا الشمُّ يزاحمُهُما ، ولا هما ينازعانِ الشمَّ ، وليسَ كاليدِ والرجْلِ ؛ فإنَّكَ قدْ تبطشُ بأصابعِ الرجْلِ بطشاً ضعيفاً ، فتزاحمُ بهِ اليدَ ، وقدْ تضربُ غيرَكَ برأسِكَ فتزاحمُ اليدَ التي هيَ آلةُ الضرْبِ ، ولا كالإنسانِ الواحدِ الذي يتولَّىٰ بنفسِهِ الطحْنَ والعجْنَ والخبْزَ ؛ فإنَّ هٰذا نوعٌ مِنَ الاعوجاجِ والعدولِ عنِ العدْلِ ، سببُهُ اختلافُ صفاتِ الإنسانِ واختلافُ دواعيهِ ، فإنَّهُ ليسَ وحدانيَّ الصفةِ ، فلمْ يكنْ وحدانيَّ الفعلِ .

ولذلكَ ترى الإنسانَ يطيعُ اللهَ مرَّةً ويعصيهِ أخرىٰ ؛ لاختلافِ دواعيهِ

وصفاتِهِ ، وذلكَ غيرُ ممكنٍ في طباعِ الملائكةِ ، بلْ هُمْ مجبولونَ على الطاعةِ ، لا مجالَ للمعصيةِ في حقِّهِمْ ، فلا جرمَ لا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ، ويفعلونَ ما يُؤمرونَ ، ويسبِّحونَ الليلَ والنهارَ لا يفترونَ ، والراكعُ منهُمْ راكعٌ أبداً ، والساجدُ منهُمْ ساجدٌ أبداً ، والقائمُ قائمٌ أبداً ، لا اختلافَ في أفعالِهِمْ ولا فتورَ ، ولكلٍّ واحدٍ مقامٌ معلومٌ لا يتعدَّاهُ[1] .

وطاعتُهُمْ للهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ لا مجالَ للمخالفةِ فيهِمْ يمكنُ أنْ تُشبَّهَ بطاعةِ أطرافِكَ لكَ ؛ فإنَّكَ مهما جزمتَ الإرادةَ بفتحِ الأجفانِ . . لمْ يكنْ للجفنِ الصحيحِ تردُّدٌ واختلافٌ في طاعتِكَ مرَّةً ومعصيتِكَ أخرىٰ ، بلْ كأنَّهُ منتظرٌ لأمرِكَ ونهيِكَ ، ينفتحُ وينطبقُ متصلاً بإشارتِكَ ، فهٰذا يشبهُهُ مِنْ وجهٍ ، لكنْ يخالفُهُ مِنْ وجهٍ ؛ إذِ الجفنُ لا علمَ لهُ بما يصدرُ منهُ مِنَ الحركةِ فتحاً وإطباقاً ، والملائكةُ أحياءٌ عالمونَ بما يفعلونَ .

فإذاً ؛ هٰذهِ نعمةُ اللهِ عليكَ في الملائكةِ الأرضيَّةِ والسماويَّةِ ، وحاجتُكَ إليهِما في غرضِ الأكلِ فقطْ دونَ ما عداها مِنَ الحركاتِ والحاجاتِ كلِّها ، فإنَّا لمْ نطوِّلْ بذكرِها .

---

(١) وقد روى المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٢٦٠) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٥١٥) مرفوعاً : « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته ، ما منهم ملك يقطر دمعة من عينه إلا وقعت ملكاً قائماً يصلي ، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السماوات والأرض ، لم يرفعوا رؤوسهم ، لا يرفعونها إلىٰ يوم القيامة ، وإن منهم ركوعاً لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلق الله السماوات والأرض ، فلا يرفعونها إلىٰ يوم القيامة ، فإذا رفعوا رؤوسهم ونظروا إلىٰ وجه الله . . قالوا : سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك » .

فهٰذهِ طبقةٌ أخرىٰ مِنْ طبقاتِ النعَمِ ، ومجامعُ الطبقاتِ لا يمكنُ إحصاؤُها ، فكيفَ آحادُ ما يدخلُ تحتَ مجامعِ الطبقاتِ ؟!

فإذاً ؛ قدْ أسبغَ اللهُ تعالىٰ عليكَ نعمَهُ ظاهرةً وباطنةً ، ثمَّ قالَ : ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ ، فتركُ باطنِ الإثمِ ممَّا لا يعرفُهُ الخلقُ مِنَ الحسدِ وسوءِ الظنِّ والبدعةِ وإضمارِ الشرِّ للناسِ إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ آثامِ القلوبِ . . هوَ الشكرُ للنعَمِ الباطنةِ ، وتركُ الإثمِ الظاهرِ بالجوارحِ شكرٌ للنعمةِ الظاهرةِ .

بلْ أقولُ : كلُّ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ ولوْ في تطريفةٍ واحدةٍ ؛ بأنْ فتحَ جفنَهُ مثلاً حيثُ يجبُ غضُّ البصرِ . . فقدْ كفرَ كلَّ نعمةٍ للهِ تعالىٰ عليهِ في السماواتِ والأرضِ وما بينَهُما ، فإنَّ كلَّ ما خلقَهُ اللهُ تعالىٰ حتَّى الملائكةِ والسماواتِ والأرضِ والحيوانِ والنباتِ بجملتِهِ نعمةٌ علىٰ كلِّ واحدٍ مِنَ العبادِ ، قدْ تمَّ بهِ انتفاعُهُ وإنِ انتفعَ غيرُهُ أيضاً بهِ ؛ فإنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ تطريفةٍ بالجفنِ نعمتينِ في نفسِ الجفنِ ؛ إذْ خلقَ تحتَ كلِّ جفنٍ عضلاتٍ ولها أوتارٌ ورباطاتٌ متصلةٌ بأعصابِ الدماغِ ، بها يتمُّ انخفاضُ الجفنِ الأعلىٰ وارتفاعُ الجفنِ الأسفلِ ، وعلىٰ كلِّ جفنٍ شعورٌ سودٌ ، ونعمةُ اللهِ في سوادِها أنَّها تجمعُ ضوءَ العينِ ؛ إذِ البياضُ يفرِّقُ الضوءَ ، والسوادُ يجمعُهُ ، ونعمةُ اللهِ تعالىٰ في ترتيبِها صفّاً واحداً أنْ يكونَ مانعاً للهوامِّ مِنَ الدبيبِ إلىٰ باطنِ العينِ ، ومتشبثاً للأقذاءِ التي تتناثرُ في الهواءِ ، ولهُ في كلِّ شعرةٍ منها نعمتانِ مِنْ حيثُ لينُ أصلِها ، ومعَ اللينِ قُوِّمَ نصبُها ، ولهُ في اشتباكِ الأهدابِ نعمةٌ أعظمُ مِنَ الكلِّ ، وهوَ أنَّ غبارَ الهواءِ قدْ يمنعُ مِنْ فتحِ العينِ ،

ولوْ طبّقَ . . لمْ يبصرْ ، فيجمعُ الأجفانَ مقدارَ ما تتشابكُ الأهدابُ ، فينظرُ مِنْ وراءِ شبّاكِ الشعرِ ، فيكونُ شبّاكُ الشعرِ مانعاً مِنْ وصولِ القذىٰ مِنْ خارجٍ ، وغيرَ مانعٍ مِنِ امتدادِ البصرِ مِنْ داخلٍ .

ثمَّ إنْ أصابَ الحدقةَ غبارٌ . . فقدْ خلقَ أطرافَ الأجفانِ حادَّةً منطبقةً على الحدقةِ ، كالمصقلةِ للمرآةِ ، فيطبقُها مرَّةً أوْ مرَّتينِ وقدِ انصقلَتِ الحدقةُ مِنَ الغبارِ ، وخرجَتِ الأقذاءُ إلىٰ زوايا العينِ والأجفانِ ، والذبابُ لما لمْ يكنْ لحدقتِهِ جفنٌ . . خلقَ لهُ يدينِ ، فتراهُ على الدوامِ يمسحُ بهِما حدقتيهِ ليصقلَهُما مِنَ الغبارِ .

وإذْ تركنا الاستقصاءَ لتفاصيلِ النعَمِ لافتقارِهِ إلىٰ تطويلٍ يزيدُ علىٰ أصلِ هـٰذا الكتابِ ، ولعلَّنا نستأنفُ لهُ كتاباً مقصوداً فيهِ إنْ أمهلَ الزمانُ وساعدَ التوفيقُ ، نسمِّيهِ : « عجائبَ صنْعِ اللهِ تعالىٰ »[1] . . فلنرجعْ إلىٰ غرضِنا ، فنقولُ :

مَنْ نظرَ إلىٰ غيرِ مَحْرمٍ . . فقدْ كفرَ بفتحِ العينِ نعمةَ اللهِ في الأجفانِ[2] ،

---

(١) ذكره ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٦/ ٢٢٧) ضمن ما سرد للمصنف رحمه الله تعالىٰ من مؤلفات ، ولعله هو كتاب « الحكمة من مخلوقات الله عز وجل » نفسه ؛ إذ يقول الإمام الغزالي في مقدمته : (إنه لما كان الطريق إلىٰ معرفة الله سبحانه التعظيم له بالنظر إلىٰ مخلوقاته ، والتفكر في عجائب مصنوعاته ، وفهم الحكمة . . .) ، والله تعالىٰ أعلم .

(٢) قوله : (من نظر إلىٰ غير محرم) سقط من جميع النسخ ، وأثبت من (ق) ونسخة الحافظ الزبيدي .

ولا تقومُ الأجفانُ إلا بعينٍ ، ولا العينُ إلا برأسٍ ، ولا الرأسُ إلا بجميعِ البدنِ ، ولا البدنُ إلا بالغذاءِ ، ولا الغذاءُ إلا بالماءِ والأرضِ والهواءِ والمطرِ والغيمِ والشمسِ والقمرِ ، ولا يقومُ شيءٌ مِنْ ذلكَ إلا بالسماواتِ ، ولا السماواتُ إلا بالملائكةِ ، فإنَّ الكلَّ كالشيءِ الواحدِ ، يرتبطُ البعضُ منهُ بالبعضِ ارتباطَ أعضاءِ البدنِ بعضِها ببعضٍ ، فإذاً ؛ قدْ كفرَ كلَّ نعمةٍ للهِ تعالىٰ في الوجودِ مِنْ منتهى الثريَّا إلىٰ منتهى الثرىٰ ، فلمْ يبقَ فلكٌ ولا ملكٌ ولا حيوانٌ ولا نباتٌ ولا جمادٌ إلا ويلعنُهُ ، ولذلكَ وردَ في الأخبارِ أنَّ البقعةَ التي يجتمعُ فيها الناسُ إمَّا أنْ تلعنَهُمْ إذا تفرَّقوا أوْ تستغفرَ لهُمْ[1] ، وكذلكَ وردَ أنَّ العالمَ يستغفرُ لهُ كلُّ شيءٍ حتَّى الحوتُ في البحرِ[2] ، وأنَّ الملائكةَ يلعنونَ العصاةَ[3] ، في ألفاظٍ كثيرةٍ لا يمكنُ إحصاؤُها ، وكلُّ ذلكَ إشارةٌ

---

(١) بهـٰذا اللفظ قد قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) ، والمعنىٰ مبثوث في كتب السنة ، روى الترمذي (٣٢٥٥) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من مؤمن إلا وله بابان ، باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات . . بكيا عليه ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ » .
وروىٰ أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٥/٢٤٦٨) عن مالك بن عتاهية رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الأرض لتستغفر للمصلي في السراويل » ، وفي خبر أيوب عليه السلام الآتي ما يفيد هـٰذا المعنىٰ كذلك .

(٢) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٣) روىٰ مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « من أشار إلىٰ أخيه بحديدة . . فإن الملائكة تلعنه حتىٰ يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه » .
وروى الطبري في « تفسيره » (٢/ ٢/ ٧٥) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾ عن قتادة : (هم الملائكة) .

إلىٰ أنَّ العاصيَ بتطريفةٍ واحدةٍ جنىٰ علىٰ جميعِ ما في الملكِ والملكوتِ ، وقدْ أهلكَ نفسَهُ ، إلا أنْ يتبعَ السيئةَ بحسنةٍ تمحوها ، فيتبدَّلُ اللعنُ بالاستغفارِ ، فعسى اللهُ أنْ يتوبَ عليهِ ويتجاوزَ عنهُ .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ أيُّوبَ عليهِ السلامُ : (يا أيوبُ ؛ ما مِنْ عبدٍ لي مِنَ الآدميينَ إلا ومعَهُ ملكانِ ، فإذا شكرني علىٰ نعمائي . . قالَ الملكانِ : اللهمَّ ؛ زدْهُ نعماً علىٰ نعمٍ ، فإنَّكَ أهلُ الحمدِ والشكرِ ، فكُنْ مِنَ الشاكرينَ قريباً ، فكفىٰ بالشاكرينَ علوَّ رتبةٍ عندي أنِّي أشكرُ شكرَهُمْ ، وملائكتي يدعونَ لهُمْ ، والبقاعُ تحبُّهُمْ ، والآثارُ تبكي عليهِمْ)[1] .

وكما عرفتَ أنَّ في كلِّ طرفةِ عينٍ نعماً كثيرةً . . فاعلمْ أنَّ في كلِّ نَفَسٍ ينبسطُ وينقبضُ نعمتينِ ؛ إذْ بانبساطِهِ يخرجُ الدخانُ المحترقُ مِنَ القلبِ ، ولوْ لمْ يخرجْ . . لهلكَ ، وبانقباضِهِ يجمعُ روحَ الهواءِ إلى القلبِ ، ولوْ سُدَّ متنفسُهُ . . لاحترقَ قلبُهُ بانقطاعِ روحِ الهواءِ وبرودتِهِ عنهُ وهلكَ .

بلِ اليومُ والليلةُ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، وفي كلِّ ساعةٍ قريبٌ مِنْ ألفِ نفسٍ ، وكلُّ نفسٍ قريبٌ مِنْ عشرِ لحظاتٍ ، فعليكَ في كلِّ لحظةٍ آلافُ آلافِ نعمةٍ في كلِّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ بدنِكَ ، بلْ في كلِّ جزءٍ مِنْ أجزاءِ العالمِ ، فانظرْ هلْ يُتصوَّرُ إحصاءُ ذلكَ أمْ لا ؟!

ولـمَّا انكشفَ لموسىٰ عليهِ السلامُ حقيقةُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١٠) .

ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَا ﴾ . . قالَ : (إلـٰهي ؛ كيفَ أشكرُكَ ولكَ في كلِّ شعرةٍ مِنْ جسدي نعمتانِ ؛ أنْ لينتَ أصلَها ، وأنْ طمستَ رأسَها ؟!)[1] .

ولذلكَ وردَ في الأثرِ : (مَنْ لمْ يعرفْ نعَمَ اللهِ إلا في مطعمِهِ ومشربِهِ . . فقدْ قلَّ علمُهُ ، وحضرَ عذابُهُ)[2] .

وجميعُ ما ذكرناهُ يرجعُ إلى المطعمِ والمشربِ ، فاعتبرْ ما سواهُ مِنَ النعمِ بهِ ، فإنَّ البصيرَ لا تقعُ عينُهُ في العالمِ علىٰ شيءٍ ولا يلمُّ خاطرُهُ بموجودٍ إلا ويتحقَّقُ أنَّ للهِ فيهِ نعمةً عليهِ .

فلنتركِ الاستقصاءَ والتفصيلَ ؛ فإنَّهُ طمعٌ في غيرِ مَطْمَعٍ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١٠) عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلمْ : أنَّهُ لمْ يقصرْ بالخلقِ عنْ شكرِ النعمةِ إلا الجهلُ والغفلةُ ، فإنَّهُمْ مُنعوا بالجهلِ والغفلةِ عنْ معرفةِ النعَمِ ، ولا يُتصوَّرُ شكرُ النعمةِ إلا بعدَ معرفتِها ، ثمَّ إنَّهُمْ إنْ عرفوا نعمةً ظنُّوا أنَّ الشكرَ عليها أنْ يقولَ بلسانِهِ : الحمدُ للهِ ، الشكرُ للهِ ، ولمْ يعرفوا أنَّ معنى الشكرِ أنْ يستعملَ النعمةَ في إتمامِ الحكمةِ التي أُريدَتْ بها ، وهيَ طاعةُ اللهِ تعالىٰ ، فلا يمنعُ مِنَ الشكرِ بعدَ حصولِ هاتينِ المعرفتينِ إلا غلبةُ الشهوةِ واستيلاءُ الشيطانِ .

أمَّا الغفلةُ عنِ النعمِ . . فلها أسبابٌ ، وأحدُ أسبابِها أنَّ الناسَ بجهلِهِمْ لا يعدُّونَ ما يعمُّ الخلقَ ويسلمُ لهُمْ في جميعِ أحوالِهِمْ نعمةً ، فلذلكَ لا يشكرونَ علىٰ جملةِ ما ذكرناهُ مِنَ النعمِ ؛ لأنَّها عامَّةٌ للخلْقِ مبذولةٌ لهُمْ في جميعِ أحوالِهِمْ ، فلا يرىٰ كلُّ واحدٍ لنفسِهِ اختصاصاً بهِ ، فلا يعدُّهُ نعمةً ، فلا تراهُمْ يشكرونَ اللهَ تعالىٰ علىٰ روحِ الهواءِ ، ولوْ أُخذَ بمُخَنَّقِهِمْ لحظةً حتَّى انقطعَ الهواءُ عنهُمْ . . ماتوا ، ولوْ حُبسوا في بيتِ حمامٍ فيهِ هواءٌ حارٌّ ، أوْ في بئرٍ فيهِ هواءٌ ثقُلَ برطوبةِ الماءِ . . ماتوا غمّاً ، فإنِ ابتليَ واحدٌ منهُمْ بشيءٍ مِنْ ذلكَ ثمَّ نجا . . ربَّما قدَّرَ ذلكَ نعمةً ، وشكرَ اللهَ عليها ، وهـٰذا غايةُ الجهلِ ؛ إذْ صارَ شكرُهُمْ موقوفاً علىٰ أنْ تُسلبَ عنهُمُ النعمةُ ثمَّ تُردُّ عليهِمْ في بعضِ الأحوالِ ، والنعمةُ في جميعِ الأحوالِ أولىٰ بأنْ تُشكرَ

مِنَ النعمةِ في بعضِها ، فلا ترى البصيرَ يشكرُ صحَّةَ بَصرِهِ إلىٰ أنْ تعمىٰ عينُهُ ، فعندَ ذلكَ لوْ أُعيدَ عليهِ بصرُهُ . . أحسَّ بهِ وشكرَهُ وعدَّهُ نعمةً .

ولمَّا كانَتْ رحمةُ اللهِ واسعةً على الخلقِ ، مبذولةً لهُمْ في جميعِ الأحوالِ[1] . . فلمْ يعدُّهُ الجاهلُ نعمةً ، وهـٰذا الجاهلُ مثلُ العبدِ السوءِ ، حقُّهُ أنْ يُضربَ دائماً ، حتَّىٰ إذا تُركَ ضربُهُ ساعةً . . تقلَّدَ بهِ منَّةً ، فإنْ تُركَ ضربُهُ على الدوامِ . . غلبَهُ البطرُ وتركَ الشكرَ ، فصارَ الناسُ لا يشكرونَ إلا المالَ الذي يتطرَّقُ الاختصاصُ إليهِ مِنْ حيثُ الكثرةُ والقلَّةُ ، وينسونَ جميعَ نعَمِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ .

كما شكا بعضُهُمْ فقرَهُ إلىٰ بعضِ أربابِ البصائرِ ، وأظهرَ شدَّةَ اغتمامِهِ بهِ ، فقالَ لهُ : أيسرُّكَ أنَّكَ أعمىٰ ولكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أيسرُّكَ أنَّكَ أخرسُ ولكَ عشرةُ آلافٍ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أيسرُّكَ أنَّكَ أقطعُ اليدينِ والرجلينِ ولكَ عشرونَ ألفاً ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أيسرُّكَ أنَّكَ مجنونٌ ولكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ ؟ فقالَ : لا ، فقالَ : أما تستحي أنْ تشكوَ مولاكَ ولهُ عندَكَ عروضٌ بخمسينَ ألفاً ؟ ![2] .

وحُكِيَ أنَّ بعضَ القرَّاءِ اشتدَّ بهِ الفقرُ حتَّىٰ ضاقَ بهِ ذرعاً ، فرأىٰ في المنامِ كأنَّ قائلاً يقولُ لهُ : تودُّ أنَّا أنسيناكَ سورةَ الأنعامِ وأنَّ لكَ ألفَ دينارٍ ؟

---

(١) والعبارة في غير (أ) : (ولما كانت رحمة الله واسعة . . عمَّمَ الخلق ، وبذل لهم في جميع الأحوال . . .) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢١٠) .

قالَ : لا ، قالَ : فسورةَ هودٍ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فسورةَ يوسفَ ؟ قالَ : لا ، فلمْ يزلْ يعدِّدُ عليهِ سوراً ، ثمَّ قالَ : فمعَكَ قيمةُ مئةِ ألفِ دينارٍ وأنتَ تشكو ؟! فأصبحَ وقدْ سُرِّيَ عنهُ[1] .

ودخلَ ابنُ السمَّاكِ علىٰ بعضِ الخلفاءِ وبيدهِ كوزُ ماءٍ يشربُهُ ، فقالَ لهُ : عظْني ، فقالَ : لوْ لمْ تُعطَ هـٰذهِ الشربةَ إلا ببذلِ جميعِ أموالِكَ وإلا . . بقيتَ عطشانَ . . فهلْ كنتَ تعطيهِ ؟ قالَ : نعمْ ، فقالَ : لوْ لمْ تُعطَ إلا بملكِكَ كلِّهِ . . فهلْ كنتَ تتركُهُ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : فلا تفرحْ بملْكٍ لا يساوي شربةَ ماءٍ[2] .

فبهـٰذا يتبيَّنُ أنَّ نعمةَ اللهِ تعالىٰ على العبدِ في شربةِ ماءٍ عندَ العطشِ أعظمُ مِنْ ملكِ الأرضِ كلِّها .

وإذا كانَتِ الطباعُ مائلةً إلى اعتدادِ النعمةِ الخاصَّةِ نعمةً دونَ العامَّةِ وقدْ ذكرنا النعَمَ العامَّةَ . . فلنذكرْ إشارةً وجيزةً إلى النعَمِ الخاصَّةِ ، فنقولُ :

ما مِنْ عبدٍ إلا ولوْ أنعمَ النظرَ في أحوالِهِ . . رأىٰ مِنَ اللهِ تعالىٰ نعمةً أو نعماً كثيرةً تخصُّهُ ، لا يشاركُهُ فيها الناسُ كافَّةً ، بلْ يشاركُهُ عددٌ يسيرٌ مِنَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١٠) .

(٢) والخبر في (أ) : (ودخل ابن السماك على الرشيد وفي يده كوز ماء ليشربه ، فقال : عظني ، قال : أرأيت لو منعت هـٰذه الشربة أكنت مفتديها بملكك ؟ قال : بلىٰ ، قال : اشرب هنيئاً ، فشرب ، ثم قال : أرأيت لو منعت إخراجها أكنت مفتديها بملكك ؟ قال : بلىٰ ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ وما قدر ملك لا يساوي شربة وبولة ؟!) ، وقد رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٣٤) .

الناسِ ، وربَّما لا يشاركُهُ فيها أحدٌ ، وذلكَ يعترفُ بهِ كلُّ عبدٍ في ثلاثةِ أمورٍ : في العقلِ ، والخُلُقِ ، والعلمِ .

أمَّا العقلُ : فما مِنْ عبدٍ للهِ تعالىٰ إلا وهوَ راضٍ عنِ اللهِ تعالىٰ في عقلِهِ ، يعتقدُ أنَّهُ أعقلُ الناسِ ، وقلَّما يسألُ اللهَ العقلَ ، وإنَّ مِنْ شرفِ العقلِ أنْ يفرحَ بهِ الخالي عنهُ كما يفرحُ بهِ المتصفُ بهِ ، فإذا كانَ اعتقادُهُ أنَّهُ أعقلُ الناسِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يشكرَهُ ؛ لأنَّهُ إنْ كانَ كذلكَ . . فالشكرُ واجبٌ عليهِ ، وإنْ لمْ يكنْ ولكنَّهُ يعتقدُ أنَّهُ كذلكَ . . فهوَ نعمةٌ في حقِّهِ ، فمَنْ وضعَ كنزاً تحتَ الأرضِ فهوَ يفرحُ بهِ ويشكرُ عليهِ ، فإنْ أُخذَ الكنزُ مِنْ حيثُ لا يدري . . فيبقىٰ فرحُهُ بحسَبِ اعتقادِهِ ، ويبقىٰ شكرُهُ ؛ لأنَّهُ في حقِّهِ كالباقي .

وأمَّا الخُلُقُ : فما مِنْ عبدٍ إلا ويرىٰ مِنْ غيرِهِ عيوباً يكرهُها وأخلاقاً يذمُّها ، وإنَّما يذمُّها مِنْ حيثُ يرىٰ نفسَهُ بريئاً عنها ، فإذا لمْ يشتغلْ بذمِّ الغيرِ . . فينبغي أنْ يشتغلَ بشكرِ اللهِ ؛ إذْ حسَّنَ خُلُقَهُ وابتلىٰ غيرَهُ بالخُلُقِ السيِّءِ .

وأمَّا العلمُ : فما مِنْ أحدٍ إلا ويعرفُ مِنْ بواطنِ أمورِ نفسِهِ وخفايا أفكارِهِ ما هوَ منفردٌ بهِ ، ولوْ كُشِفَ الغطاءُ حتَّى اطلعَ عليهِ أحدٌ مِنَ الخلقِ . . لافتضحَ ، فكيفَ لوِ اطلعَ الناسُ كافَّةً ؟!

فإذاً ؛ لكلِّ عبدٍ علمٌ بأمرٍ خاصٍّ لا يشاركُهُ فيهِ أحدٌ مِنْ عبادِ اللهِ ، فلِمَ

لا يشكرُ سترَ اللهِ الجميلَ الذي أرسلَهُ علىٰ وجهِ مساوئِهِ ، فأظهرَ الجميلَ وسترَ القبيحَ ، وأخفىٰ ذلكَ عنْ أعينِ الخلْقِ ، وخصَّصَ علمَهُ بهِ حتَّىٰ لا يطلعَ عليهِ أحدٌ ؟!

فهٰذهِ ثلاثٌ مِنَ النعَمِ خاصَّةٌ يعترفُ بها كلُّ عبدٍ ؛ إمَّا مطلقاً ، وإمَّا في بعضِ الأمورِ ، فلننزلْ عنْ هٰذهِ الطبقةِ إلىٰ طبقةٍ أخرىٰ أعمَّ منها قليلاً ، فنقولُ :

ما مِنْ عبدٍ إلا وقدْ رزقَهُ اللهُ تعالىٰ في صورتِهِ أوْ شخصِهِ ، أوْ أخلاقِهِ أوْ صفاتِهِ ، أوْ أهلِهِ أوْ ولدِهِ ، أوْ مسكنِهِ أوْ بلدِهِ ، أوْ رفيقِهِ أوْ أقاربِهِ ، أو عزِّهِ أوْ جاهِهِ ، أوْ في سائرِ محابِّهِ . . أموراً لوْ سُلبَ ذلكَ منهُ وأُعطيَ ما خُصِّصَ بهِ غيرُهُ . . لكانَ لا يرضىٰ بهِ ، وذلكَ مثلُ أنْ جعلَهُ مؤمناً لا كافراً ، وحيّاً لا جماداً ، وإنساناً لا بهيمةً ، وذكراً لا أنثىٰ ، وصحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإنَّ كلَّ هٰذهِ خصائصُ وإنْ كانَ فيها عمومٌ أيضاً ؛ فإنَّ هٰذهِ الأحوالَ لوْ بُدِّلَتْ بأضدادِها . . لمْ يرضَ بها ، بلْ لهُ أمورٌ لا يبدِّلُها بأحوالِ الآدميينَ أيضاً ، وذلكَ إمَّا أنْ يكونَ بحيثُ لا يبدِّلُهُ بما خُصَّ بهِ أحدٌ مِنَ الخلقِ ، أوْ لا يبدِّلُهُ بما خُصَّ بهِ الأكثرُ ، فإذا كانَ لا يبدِّلُ حالَ نفسِهِ بحالِ غيرِهِ . . فإذاً حالُهُ أحسنُ مِنْ حالِ غيرِهِ ، فإنْ كانَ لا يعرفُ شخصاً يرتضي لنفسِهِ حالَهُ بدلاً عنْ حالِ نفسِهِ إمَّا على الجملةِ وإمَّا في أمرٍ خاصٍّ . . فإذاً للهِ تعالىٰ عليهِ نعمٌ ليسَتْ لهُ علىٰ أحدٍ مِنْ عبادِهِ سواهُ ، وإنْ كانَ يبدِّلُ حالَ نفسِهِ بحالِ بعضِهِمْ دونَ البعضِ . . فلينظرْ إلىٰ عددِ المغبوطينَ عندَهُ ،

فإنَّهُ ـ لا محالةَ ـ يراهُمْ أقلَّ بالإضافةِ إلىٰ غيرِهِمْ ، فيكونُ مَنْ دونَهُ في الحالِ أكثرَ بكثيرٍ ممَّنْ هوَ فوقَهُ ، فما بالُهُ ينظرُ إلىٰ مَنْ فوقَهُ ليزدريَ نعَمَ اللهِ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ ولا ينظرُ إلىٰ مَنْ دونَهُ ليستعظمَ نعمَ اللهِ تعالىٰ عليهِ ؟! وما بالُهُ لا يسوِّي دنياهُ بدينِهِ ؟ أليسَ إذا لامَتْهُ نفسُهُ علىٰ سيئةٍ يقارفُها يعتذرُ إليها بأنَّ في الفسَّاقِ كثرةً ، فينظرُ أبداً في الدينِ إلىٰ مَنْ دونَهُ لا إلىٰ مَنْ فوقَهُ ؟! فلِمَ لا يكونُ نظرُهُ في الدنيا كذلكَ ؟

فإذا كانَ حالُ أكثرِ الخلقِ في الدينِ خيراً منهُ ، وحالُهُ في الدنيا خيراً مِنْ حالِ أكثرِ الخلْقِ . . فكيفَ لا يلزمُهُ الشكرُ ؟!

ولهٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ نظرَ في الدنيا إلىٰ مَنْ هوَ دونَهُ ، ونظرَ في الدينِ إلىٰ مَنْ هوَ فوقَهُ . . كتبَهُ اللهُ صابراً وشاكراً ، ومَنْ نظرَ في الدنيا إلىٰ مَنْ هوَ فوقَهُ ، وفي الدينِ إلىٰ مَنْ هوَ دونَهُ . . لمْ يكتبْهُ اللهُ صابراً ولا شاكراً »[1] .

فإذاً ؛ كلُّ مَنِ اعتبرَ حالَ نفسِهِ وفتَّشَ عمَّا خُصَّ بهِ . . وجدَ للهِ تعالىٰ علىٰ نفسِهِ نعماً كثيرةً ، لا سيَّما مَنْ خُصَّ بالسنَّةِ والإيمانِ ، والعلمِ والقرآنِ ، ثمَّ الفراغِ والصحَّةِ والأمنِ وغيرِ ذلكَ .

ولذلكَ قيلَ[2] : [من البسيط]

مَنْ شاءَ عيشاً رحيباً يستطيبُ بهِ ... في دينِهِ ثم في دنياهُ إقبالا

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٢) .
(٢) البيتان لأبي الفتح البستي في « ديوانه » (ص٢٨٤) .

فلينظرَنَّ إلىٰ مَنْ فوقَهُ ورعاً وليَنظرَنَّ إلىٰ مَنْ دونَهُ مالا

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ يستغنِ بآياتِ اللهِ . . فلا أغناهُ اللهُ »[1] ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ نعمةِ العلمِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ القرآنَ هوَ الغنى الذي لا غنىٰ بعدَهُ ولا فقرَ معَهُ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ آتاهُ اللهُ القرآنَ فظنَّ أنَّ أحداً أغنىٰ منهُ . . فقدِ استهزأَ بآياتِ اللهِ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ليسَ منَّا مَنْ لمْ يتغنَّ بالقرآنِ »[4] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كفىٰ باليقينِ غنىً »[5] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (يقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّ عبداً أغنيتُهُ عنْ ثلاثةٍ لقدْ أتممتُ عليهِ نعمتي ؛ عنْ سلطانٍ يأتيهِ ، وطبيبٍ يداويهِ ، وعمَّا في يدِ أخيهِ)[6] ،

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٠) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (٩/ ١٣٢) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٧٧٣) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٢٥٥) من حديث أنس رضي الله عنه بنحوه .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢١٠) ، وروى البخاري في « التاريخ الكبير » (٣/ ٢٦٥) نحوه .

(٤) رواه البخاري (٧٥٢٧) .

(٥) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) .

(٦) قوت القلوب (١/ ٢١٠) .

وعبَّرَ الشاعرُ عنْ هٰذا فقالَ[1] : [من الهزج]

إذا ٱلْقُوتُ تَأَتَّىٰ لَـ ... ـكَ وَٱلصِّحَّةُ وَٱلأَمْنُ

وَأَصْبَحْتَ أَخَا حُزْنٍ ... فَلا فَارَقَكَ ٱلْحُزْنُ

بلْ أرشقُ العباراتِ وأفصحُ الكلماتِ كلامُ أفصحِ مَنْ نطقَ بالضادِ ، حيثُ عبَّرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ هٰذا المعنىٰ فقالَ : « مَنْ أصبحَ آمناً في سربِهِ ، معافىً في بدنِهِ ، عندَهُ قوتُ يومِهِ . . فكأنَّما حيزَتْ لهُ الدنيا بحذافيرِها »[2] .

ومهما تأمَّلتَ الناسَ كلَّهُمْ . . وجدتَهُمْ يشكونَ ويتألَّمونَ مِنْ أمورٍ وراءَ هٰذهِ الثلاثِ معَ أنَّها وبالٌ عليهِمْ ، ولا يشكرونَ نعمةَ اللهِ في هٰذهِ الثلاثِ ، ولا يشكرونَ نعمةَ اللهِ عليهِم في الإيمانِ الذي بهِ وصولُهُمْ إلى النعيمِ المقيمِ والملكِ العظيمِ .

بلِ البصيرُ ينبغي ألا يفرحَ إلا بالمعرفةِ واليقينِ والإيمانِ ، بلْ نحنُ نعلمُ مِنَ العلماءِ مَنْ لوْ سُلِّمَ إليهِ جميعُ ما دخلَ تحتَ قدرةِ ملوكِ الأرضِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ مِنْ أموالٍ وأتباعٍ وأنصارٍ وقيلَ لهُ : خُذْ هٰذا عوضاً عنْ علمِكَ ، بلْ عنْ عُشْرِ عَشِيرِ علمِكَ . . لمْ يأخذْهُ ، وذلكَ لرجائِهِ أنَّ نعمةَ

(١) البيتان متنازع في نسبتهما ، فهما في « زهر الآداب » (٢/ ٨٢٧) لمنصور الفقيه ، وفي « محاضرات الأدباء » (٢/ ٣١٣ـ ٣١٤) لأبي العتاهية ، وفي « تاريخ دمشق » (٥١/ ٤١٦) للإمام الشافعي .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٦) ، وابن ماجه (٤١٤١) .

العلمِ تفضي بهِ إلىٰ قرْبِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ في الآخرةِ ، بلْ لوْ قيلَ لهُ : لكَ في الآخرةِ ما ترجوهُ بكمالِهِ ، فخذْ هـٰذهِ اللذَّاتِ في الدنيا بدلاً عنِ التذاذِكَ بالعلمِ في الدنيا وفرحِكَ بهِ . . لكانَ لا يأخذُهُ ؛ لعلمِهِ بأنَّ لذَّةَ العلمِ دائمةٌ لا تنقطعُ وثابتةٌ لا تُسرقُ ولا تُغصبُ ولا يُنافسُ فيها ، وأنَّها صافيةٌ لا كدورةَ فيها ، ولذَّاتُ الدنيا كلُّها ناقصةٌ ومكدَّرةٌ ومشوشةٌ لا يفي مرجوُّها بمَخُوفِها ، ولا لذَّتُها بألمِها ، ولا فرحُها بغمِّها ، هـٰكذا رُئِيَ إلى الآنَ ، وهـٰكذا تكونُ ما بقيَ الزمانُ ، إذْ ما خُلقَتْ لذَّاتُ الدنيا إلا لتُجلبَ بها العقولُ الناقصةُ وتُخدعَ ؛ حتَّىٰ إذا انخدعَتْ وتقيَّدَتْ بها . . أبتْ عليها واستعصَتْ ؛ كالمرأةِ الجميلِ ظاهرُها ، تتزيَّنُ للشابِّ الشبقِ الغبيِّ ، حتَّىٰ إذا تقيَّدَ بها قلبُهُ . . استعصَتْ عليهِ واحتجبَتْ عنهُ ، فلا يزالُ معَها في عناءٍ دائمٍ وتعبٍ قائمٍ ، وكلُّ ذلكَ باغترارِهِ بلذَّةِ النظرِ إليها في لحظةٍ ، ولوْ عقلَ وغضَّ البصرَ واستهانَ بتلكَ اللذَّةِ . . سلمَ جميعَ عمرِهِ ، فهكذا وقعَتْ أربابُ الدنيا في شباكِ الدنيا وحبائلِها .

ولا ينبغي أنْ نقولَ : إنَّ المعرضَ عنِ الدنيا متألِّمٌ بالصبرِ عنها ؛ فإنَّ المقبلَ عليها أيضاً متألِّمٌ بالصبرِ عليها وحفظِها وتحصيلِها ودفعِ القُصُودِ عنها[1] ، وتألُّمُ المعرضِ يفضي إلىٰ لذَّةٍ في الآخرةِ ، وتألُّمُ المقبلِ يفضي إلىٰ آلامٍ في الآخرةِ ، فليقرأِ المعرضُ عنِ الدنيا علىٰ نفسِهِ قولَهُ تعالىٰ :

---

(١) وفي (ق) ونسخة الحافظ الزبيدي : (اللصوص) بدل (القصود) . « إتحاف » (٩/ ١٣٣).

﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ فإذاً ؛ إنَّما انسدَّ طريقُ الشكرِ على الخلْقِ لجهلِهِمْ بضروبِ النعمِ الظاهرةِ والباطنةِ ، والخاصَّةِ والعامَّةِ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما علاجُ هـٰذهِ القلوبِ الغافلةِ حتَّىٰ تشعرَ بنعمِ اللهِ تعالىٰ فعساها تشكرُ ؟

فأقولُ : أمَّا القلوبُ البصيرةُ . . فعلاجُها التأمُّلُ فيما رمزنا إليهِ مِنْ أصنافِ نعَمِ اللهِ تعالى العامَّةِ ، وأمَّا القلوبُ البليدةُ التي لا تعُدُّ النعمةَ نعمةً إلا إذا خصَّتْها ، أوْ أُشعرَ بالبلاءِ معها . . فسبيلُهُ أنْ ينظرَ أبداً إلىٰ مَنْ دونَهُ ، ويفعلَ ما كانَ يفعلُهُ بعضُ الصوفيَّةِ ، إذْ كانَ يحضرُ كلَّ يومٍ دارَ المرضىٰ والمقابرَ والمواضعَ التي تُقامُ فيها الحدودُ ، فكانَ يحضرُ دارَ المرضىٰ ويشاهدُ أنواعَ بلاءِ اللهِ تعالىٰ عليهِمْ ، ثمَّ يتأمَّلُ في صحتِهِ وسلامتِهِ ؛ ليشعرَ قلبُهُ بنعمةِ الصحَّةِ عندَ شعورِهِ ببلاءِ الأمراضِ ويشكرَ اللهَ تعالىٰ ، ويشاهدُ الجناةَ الذينَ يُقتلونَ وتُقطعُ أطرافُهُمْ ويُعذَّبونَ بأنواعِ العذابِ ؛ ليشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ عصمتِهِ مِنَ الجناياتِ ومِنْ تلكَ العقوباتِ ، ويشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ نعمةِ الأمنِ ، ويحضرُ المقابرَ فيعلمُ أنَّ أحبَّ الأشياءِ إلى الموتىٰ أنْ يُردُّوا إلى الدنيا ولوْ يوماً واحداً ؛ أمَّا مَنْ عصىٰ اللهَ . . فليتداركَ ، وأمَّا مَنْ أطاعَ . . فليزيدَ في طاعتِهِ ، فإنَّ يومَ القيامةِ يومُ التغابنِ ، فالمطيعُ مغبونٌ ؛ إذْ يرىٰ

جزاءَ طاعتِهِ فيقولُ : كنتُ أقدرُ علىٰ أكثرَ مِنْ هـٰذهِ الطاعاتِ ، فما أعظمَ غبني إذْ ضيَّعتُ بعضَ الأوقاتِ في المباحاتِ ! وأمَّا العاصي . . فغبنُهُ ظاهرٌ ، فإذا شاهدَ المقابرَ ، وعلمَ أنَّ أحبَّ الأشياءِ إليهِمْ أنْ يكونَ قدْ بقيَ لهُمْ مِنَ العمرِ ما بقيَ لهُ . . فيصرفُ بقيَّةَ العمرِ إلىٰ ما يشتهي أهلُ القبورِ العودَ لأجلِهِ ؛ ليكونَ ذلكَ معرفةً لنعمةِ اللهِ في بقيَّةِ العمرِ ، بلْ في الإمهالِ في كلِّ نَفَسٍ مِنَ الأنفاسِ ، وإذا عرفَ تلكَ النعمةَ . . شكَرَ بأنْ يصرفَ العمرَ إلىٰ ما خُلِقَ العمرُ لأجلِهِ ، وهوَ التزوُّدُ مِنَ الدنيا للآخرةِ .

فهـٰذا علاجُ هـٰذهِ القلوبِ الغافلةِ لتشعرَ بنعمِ اللهِ تعالىٰ فعساها تشكرُ .

ولقدْ كانَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ معَ تمامِ استبصارِهِ يستعينُ بهـٰذهِ الطريقِ تأكيداً للمعرفةِ ، فكانَ قدْ حفرَ في دارِهِ قبراً ، فكانَ يضعُ غِلاًّ في عنقِهِ وينامُ في لحدِهِ ثمَّ يقولُ : ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا ﴾ ، ثمَّ يقومُ ويقولُ : يا ربيعُ ؛ قدْ أُعطيتَ ما سألتَ ، فاعملْ قبلَ أنْ تسألَ الرجوعَ فلا ترجعَ[1] .

وممَّا ينبغي أنْ تُعالجَ بهِ القلوبُ البعيدةُ عنِ الشكرِ أنْ تعرفَ أنَّ النعمةَ إذا لمْ تُشكرْ . . زالَتْ ولمْ تعدْ ، ولذلكَ كانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمَهُ اللهُ يقولُ : (عليكُمْ بمداومةِ الشكرِ على النعمِ ، فقلَّ نعمةٌ زالَتْ عنْ قومٍ فعادَتْ إليهِمْ)[2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (النعَمُ وحشيَّةٌ ، فقيِّدوها بالشكرِ)[3] .

---

(١) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١١/ ٣١١) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٠٩) ، والسياق عنده .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٠٩) .

وفي الخبرِ : (ما عظمَتْ نعمةُ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبدٍ إلا كثرَتْ حوائجُ الناسِ إليهِ ، فمَنْ تهاونَ بهِمْ . . عرَّضَ تلكَ النعمةَ للزوالِ)[1] .

وقالَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

فهـٰذا تمامُ هـٰذا الركنِ .

* * *

(١) كذا في « القوت » (١/٢٠٩) ، وأصله من كلام لسيدنا علي رضي الله عنه رواه له ابن الطيوري في « الطيوريات » (٤٦٢) .

الرّكن الثّالث من كتاب الصّبر والشّكر
فيما يشترك فيه الصّبر والشّكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصّبر والشّكر على شيءٍ واحد

لعلَّكَ تقولُ : ما ذكرتَهُ في النعمِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ موجودٍ نعمةً ، وهـٰذا يشيرُ إلىٰ أنَّ البلاءَ لا وجودَ لهُ أصلاً ، فما معنى الصبرِ إذاً ؟ وإنْ كانَ البلاءُ موجوداً . . فما معنى الشكرِ على البلاءِ وقدِ ادَّعىٰ مدَّعونَ أنَّا نشكرُ على البلاءِ فضلاً عنِ الشكرِ على النعمةِ ، فكيفَ يُتصوَّرُ الشكرُ على البلاءِ ؟ وكيفَ يُشكرُ علىٰ ما يُصبرُ عليهِ والصبرُ على البلاءِ يستدعي ألماً والشكرُ يستدعي فرحاً وهما متضادانِ ؟ وما معنىٰ ما ذكرتُموهُ مِنْ أنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ ما أوجدهُ نعمةً علىٰ عبادِهِ ؟

فاعلمْ : أنَّ البلاءَ موجودٌ كما أنَّ النعمةَ موجودةٌ ، والقولَ بإثباتِ النعمةِ يوجبُ القولَ بإثباتِ البلاءِ ؛ لأنَّهُما متضادانِ ، ففقدُ البلاءِ نعمةٌ ، وفقدُ النعمةِ بلاءٌ ، ولكنْ قدْ سبقَ أنَّ النعمةَ تنقسمُ إلىٰ نعمةٍ **مطلقةٍ مِنْ كلِّ وجهٍ** ؛ أمَّا في الآخرةِ . . فكسعادةِ العبدِ بالنزولِ في جوارِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا في الدنيا . . فكالإيمانِ وحسنِ الخلقِ وما يعينُ عليهما ، وإلىٰ نعمةٍ **مقيَّدةٍ مِنْ وجهٍ دونَ وجهٍ** ؛ كالمالِ الذي يصلحُ الدينَ مِنْ وجهٍ ويفسدُهُ مِنْ وجهٍ .

فكذلكَ البلاءُ ينقسمُ إلىٰ مطلقٍ ومقيَّدٍ ؛ أمَّا **المطلقُ** في الآخرةِ . . فالبعدُ مِنَ اللهِ تعالىٰ إمَّا مدَّةً وإمَّا أبداً ، وأمَّا في الدنيا . . فالكفرُ والمعصيةُ وسوءُ الخلقِ ، وهيَ التي تفضي إلى البلاءِ المطلقِ ، وأمَّا **المقيَّدُ** . . فكالفقرِ والمرضِ والخوفِ وسائرِ أنواعِ البلاءِ التي لا تكونُ بلاءً في الدينِ بلْ في الدنيا .

فالشكرُ المطلقُ للنعمةِ المطلقةِ ، أمَّا البلاءُ المطلقُ في الدنيا . . فقدْ لا يُؤمرُ بالصبرِ عليهِ ؛ لأنَّ الكفرَ بلاءٌ ، ولا معنىٰ للصبرِ عليهِ ، وكذا المعصيةُ ، بلْ حقُّ الكافرِ أنْ يتركَ كفرَهُ وكذا حقُّ العاصي .

نعم ، الكافرُ قدْ لا يعرفُ أنَّهُ كافرٌ ، فيكونُ كمَنْ بهِ علَّةٌ وهوَ لا يتألَّمُ بها بسببِ غَشْيةٍ أوْ غيرِها ، فلا صبرَ عليهِ ، والعاصي يعرفُ أنَّهُ عاصٍ ، فعليهِ تركُ المعصيةِ ، بلْ كلُّ بلاءٍ يقدرُ الإنسانُ علىٰ دفعِهِ فلا يُؤمرُ بالصبرِ عليهِ ، فلوْ تركَ الإنسانُ الماءَ معَ طولِ العطشِ حتَّىٰ عظمَ ألمُهُ . . فلا يُؤمرُ بالصبرِ عليهِ ، بلْ يُؤمرُ بإزالةِ الألمِ ، وإنَّما الصبرُ علىٰ ألمٍ ليسَ إلى العبدِ إزالتُهُ .

فإذاً ؛ يرجعُ الصبرُ في الدنيا إلىٰ ما ليسَ ببلاءٍ مطلقٍ ، بلْ يجوزُ أنْ يكونَ نعمةً مِنْ وجهٍ ، فلذلكَ يُتصوَّرُ أنْ تجتمعَ عليهِ وظيفةُ الصبرِ والشكرِ ، فإنَّ الغنىٰ مثلاً يجوزُ أن يصيرَ سببَ هلاكِ الإنسانِ ، حتَّىٰ يُقصدُ بسببِ مالِهِ ، فيُقتلُ وتُقتلُ أولادُهُ ، والصحةُ أيضاً كذلكَ ، فما مِنْ نعمةٍ مِنْ هٰذهِ النعمِ الدنيويةِ إلا ويجوزُ أنْ تصيرَ بلاءً ، ولكنْ بالإضافةِ إليهِ ، فكذلكَ ما مِنْ بلاءٍ

إلا ويجوزُ أنْ يصيرَ نعمةً ، ولكنْ بالإضافةِ إلىٰ حالِهِ ، فربَّ عبدٍ تكونُ الخيرةُ لهُ في الفقرِ والمرضِ ، ولوْ صحَّ بدنهُ وكثرَ مالُهُ . . لبطِرَ وبغىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ ليحمي عبدَهُ المؤمنَ مِنَ الدنيا وهوَ يحبُّهُ كما يحمي أحدُكُمْ مريضَهُ »[1] .

وكذلكَ الزوجةُ والولدُ والقريبُ وكلُّ ما ذكرناهُ في الأقسامِ الستةَ عشرَ مِنَ النعمِ سوى الإيمانِ وحسنِ الخلقِ . . فإنَّها يُتصوَّرُ أنْ تكونَ بلاءً في حقِّ بعضِ الناسِ ، فتكونَ أضدادُها إذاً نعماً في حقِّهِمْ ، إذْ قدْ سبقَ أنَّ المعرفةَ كمالٌ ونعمةٌ ، فإنَّها صفةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ قدْ تكونُ على العبدِ في بعضِ الأمورِ بلاءً ، ويكونُ فقدُها نعمةً .

مثالُهُ : جهلُ الإنسانِ بأجلِهِ ، فإنَّهُ نعمةٌ عليهِ ؛ إذْ لوْ عرفَهُ . . ربما تنغَّصَ عليهِ العيشُ ، وطالَ بذلكَ غمُّهُ .

وكذلكَ جهلُهُ بما يضمرُهُ الناسُ عليهِ مِنْ معارفِهِ وأقاربِهِ نعمةٌ عليهِ ؛ إذْ لوْ رُفعَ السترُ وأُطلعَ عليهِ . . لطالَ ألمُهُ وحقدُهُ وحسدُهُ واشتغالُهُ بالانتقامِ .

وكذلكَ جهلُهُ بالصفاتِ المذمومةِ مِنْ غيرِهِ نعمةٌ عليهِ ؛ إذْ لوْ عرفَها . . أبغضَهُ وآذاهُ ، وكانَ ذلكَ وبالاً عليهِ في الدنيا والآخرةِ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٠٩) .

بلْ جهلُهُ بالخصالِ المحمودةِ في غيرِهِ قدْ يكونُ نعمةً عليهِ ، فإنَّهُ ربما يكونُ وليّاً للهِ تعالىٰ وهوَ يُضطرُّ إلىٰ إيذائِهِ وإهانتِهِ ، ولوْ عرفَ ذلكَ وآذىٰ . . كانَ إثمُهُ أعظمَ لا محالةَ ، فليسَ مَنْ آذىٰ نبيّاً أوْ وليّاً وهوَ يعرفُ كمَنْ آذىٰ وهوَ لا يعرفُ .

ومنها إبهامُ اللهِ تعالىٰ أمرَ القيامةِ ، وإبهامُهُ ليلةَ القدرِ ، وساعةَ يومِ الجمعةِ ، وإبهامُهُ بعضَ الكبائرِ ، فكلُّ ذلكَ نعمةٌ ؛ لأنَّ هٰذا الجهلَ يوفِّرُ دواعيَكَ على الطلبِ والاجتهادِ .

فهٰذهِ وجوهُ نعمِ اللهِ تعالىٰ في الجهلِ ، فكيفَ في العلمِ ؟!

وحيثُ قلنا : إنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ موجودٍ نعمةً . . فهوَ حقٌّ ، وذلكَ مطردٌ في حقِّ كلِّ أحدٍ ، ولا يُستثنىٰ عنهُ بالظنِّ إلا الآلامُ التي يخلقُها في بعضِ الناسِ ، وهيَ أيضاً قدْ تكونُ نعمةً في حقِّ المتألِّمِ بها ، فإنْ لمْ تكنْ نعمةً في حقِّهِ ؛ كالألمِ الحاصلِ مِنَ المعصيةِ ، كقطعِهِ يدَ نفسِهِ ، ووشمِهِ بشرتَهُ ، فإنَّهُ يتألمُ بهِ وهوَ عاصٍ بهِ ، وألمِ الكفَّارِ في النارِ . . فهيَ أيضاً نعمةٌ ، ولكنْ في حقِّ غيرِهِمْ مِنَ العبادِ لا في حقِّهِمْ ، فإنَّ مصائبَ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ ، ولولا أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ العذابَ وعذَّبَ بهِ طائفةً . . لما عرفَ المتنعِّمونَ قدْرَ نعمتِهِ ، ولا كثرَ فرحُهُمْ بها ، ففرحُ أهلِ الجنَّةِ إنَّما يتضاعفُ إذا تفكَّروا في آلامِ أهلِ النارِ ، أما ترىٰ أهلَ الدنيا ليسَ يشتدُّ فرحُهُمْ بنورِ الشمسِ معَ شدَّةِ حاجتِهِمْ إليها مِنْ حيثُ إنَّها عامَّةٌ مبذولةٌ ؟

ولا يشتدُّ فرحُهُمْ بالنظرِ إلىٰ زينةِ السماءِ وهيَ أحسنُ مِنْ كلِّ بستانٍ لهُمْ في الأرضِ يجتهدونَ في عمارتِهِ ، ولكنْ زينةُ السماءِ لمَّا عمَّتْ . . لمْ يشعروا بها ، ولمْ يفرحوا بسببِها ؟

فإذاً ؛ قدْ صحَّ ما ذكرناهُ مِنْ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يخلقْ شيئاً إلا وفيهِ حكمةٌ ، ولا خلقَ شيئاً إلا وفيهِ نعمةٌ ، إمَّا علىٰ جميعِ عبادِهِ ، أوْ علىٰ بعضِهِمْ ، فإذاً في خلقِ اللهِ تعالى البلاءَ أيضاً نعمةٌ ، إمَّا على المبتلىٰ أو علىٰ غيرِ المبتلىٰ ، فإذاً كلُّ حالةٍ لا تُوصفُ بأنَّها بلاءٌ مطلقٌ ولا نعمةٌ مطلقةٌ فيجتمعُ فيها على العبدِ وظيفتانِ : الصبرُ والشكرُ جميعاً .

* * *

فإنْ قلتَ : فهما متضادانِ ، فكيفَ يجتمعانِ ؟! إذْ لا صبرَ إلا علىٰ غمٍّ ، ولا شكرَ إلا علىٰ فرحٍ .

فاعلمْ : أنَّ الشيءَ الواحدَ قدْ يُغتمُّ بهِ مِنْ وجهٍ ، ويُفرحُ بهِ مِنْ وجهٍ آخرَ ، فيكونُ الصبرُ مِنْ حيثُ الاغتمامُ ، والشكرُ مِنْ حيثُ الفرحُ .

وفي كلِّ فقرٍ ومرضٍ وخوفٍ وبلاءٍ في الدنيا خمسةُ أمورٍ ينبغي أنْ يفرحَ العاقلُ بها ويشكرَ عليها :

أحدُها : أنَّ كلَّ مصيبةٍ ومرضٍ فيُتصوَّرُ أنْ يكونَ أكبرُ منها ؛ إذْ مقدوراتُ اللهِ تعالىٰ لا تتناهىٰ ، فلوْ ضعَّفَها اللهُ تعالىٰ وزادَها . . ماذا كانَ يردُّهُ ويحجزُهُ ؟ فليشكرْ إذْ لمْ تكنْ أعظمُ منها في الدنيا .

الثاني : أنَّهُ كانَ يمكنُ أنْ تكونَ مصيبتُهُ في دينِهِ ، قالَ رجلٌ لسهلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دخلَ اللصُّ بيتي وأخذَ متاعي ، فقالَ : اشكرِ اللهَ تعالىٰ ، لوْ دخلَ الشيطانُ قلبَكَ وأفسدَ التوحيدَ . . ماذا كنتَ تصنعُ ؟[1] .

ولذلكَ استعاذَ عيسىٰ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في دعائِهِ إذْ قالَ : (اللهمَّ ؛ لا تجعلْ مصيبتي في ديني)[2] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (ما ابتليتُ ببلاءٍ إلا كانَ للهِ تعالىٰ عليَّ فيهِ أربعُ نعَمٍ ؛ إذْ لمْ يكنْ في ديني ، وإذْ لمْ يكنْ أعظمَ منهُ ، وإذْ لمْ أُحرمِ الرضا بهِ ، وإذْ أرجو الثوابَ عليهِ)[3] .

وكانَ لبعضِ أربابِ القلوبِ صديقٌ ، فحبسَهُ السلطانُ ، فأرسلَ إليهِ يعلمُهُ ويشكو إليهِ ، فقالَ لهُ : اشكرِ اللهَ ، فضربَهُ ، فأرسلَ إليهِ يعلمُهُ ويشكو إليهِ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ ، فجيءَ بمجوسيٍّ فحُبسَ عندَهُ وكانَ مبطوناً ، فقُيِّدَ ، وجُعلَ حلقةٌ مِنْ قيدِهِ في رجْلِهِ وحلقةٌ في رجْلِ المجوسيِّ ، فأرسلَ إليهِ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ ، فكانَ يحتاجُ المجوسيُّ إلىٰ أنْ يقومَ مرَّاتٍ وهوَ يحتاجُ أنْ يقومَ معَهُ ويقفَ علىٰ رأسِهِ حتَّىٰ يقضيَ حاجتَهُ ، فكتبَ إليهِ بذلكَ ، فقالَ : اشكرِ اللهَ ، فقالَ : إلىٰ متىٰ هـٰذا ؟ وأيُّ بلاءٍ أعظمُ مِنْ هـٰذا ؟! فقالَ : لوْ جُعلَ الزنَّارُ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣١٣) .
(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/٣٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٣٧) .
(٣) قوت القلوب (١/٢١١) دون نسبة بنحوه .

الذي في وسطِهِ علىٰ وسطِكَ . . ماذا كنتَ تصنعُ ؟![1] .

فإذاً ؛ ما مِنْ إنسانٍ قدْ أُصيبَ ببلاءٍ إلا ولوْ تأمَّلَ حقَّ التأمُّلِ في سوءِ أدبِهِ ظاهراً وباطناً في حقِّ مولاهُ . . لكانَ يرىٰ أنَّهُ يستحقُّ أكثرَ ممَّا أُصيبَ بِهِ عاجلاً وآجلاً ، ومَنِ استحقَّ عليكَ أنْ يضربَكَ مئةَ سوطٍ ، فاقتصرَ علىٰ عشرةٍ . . فهوَ مستحقٌّ للشكرِ ، ومَنِ استحقَّ عليكَ أنْ يقطعَ يديكَ ، فتركَ إحداهُما . . فهوَ مستحقٌّ للشكرِ .

ولذلكَ مرَّ بعضُ الشيوخِ في شارعٍ ، فصُبَّ علىٰ رأسِهِ طشتٌ مِنْ رمادٍ ، فسجدَ للهِ تعالىٰ سجدةَ الشكرِ ، فقيلَ لهُ : ما هـٰذهِ السجدةُ ؟ فقالَ : كنتُ أنتظرُ أنْ تُصبَّ عليَّ النارُ ، فالاقتصارُ على الرمادِ نعمةٌ[2] .

وقيلَ لبعضِهِمْ : ألا تخرجُ إلى الاستسقاءِ ؛ فقدِ احتبسَتِ الأمطارُ ؟ فقالَ : أنتُمْ تستبطئونَ المطرَ وأنا أستبطىءُ الحجرَ[3] .

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : كيفَ أفرحُ وأرىٰ جماعةً ممَّنْ زادَتْ معصيتُهُمْ علىٰ معصيتي ولـمْ يُصابوا بمثلِ ما أُصبتُ بِهِ حتَّى الكفارِ ؟!

فاعلمْ : أنَّ الكافرَ قدْ خُبِّىءَ لهُ ما هوَ أكثرُ ، وإنَّما أُمهلَ حتَّىٰ يستكثرَ مِنَ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣١٣) .

(٢) وهو أبو عثمان الزاهد ، وعبارته كما في « الرسالة القشيرية » (ص٤١٤) : (من استحق أن يصب عليه النار فصولح على الرماد . . لم يجز له أن يغضب) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٧٣) ، وصاحب الخبر هو مالك بن دينار .

الإثمِ ، ويطولَ عليهِ العقابُ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ .

وأمَّا العاصي . . فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّ في العالمِ مَنْ هوَ أعصىٰ منكَ ؟! وربَّ خاطرٍ بسوءِ أدبٍ في حقِّ اللهِ تعالىٰ وفي صفاتِهِ أعظمُ وأطمُّ مِنْ شربِ الخمرِ والزنا وسائرِ المعاصي بالجوارحِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ في مثلِهِ : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ، فمِنْ أينَ تعلمُ أنَّ غيرَكَ أعصىٰ منكَ ؟!

ثمَّ لعلَّهُ قدْ أُخِّرَتْ عقوبتُهُ إلى الآخرةِ وعُجِّلَتْ عقوبتُكَ في الدنيا ، فلِمَ لا تشكرُ اللهَ تعالىٰ علىٰ ذلكَ ؟

وهٰذا هوَ الوجهُ الثالثُ في الشكرِ ، وهوَ أنَّهُ ما مِنْ عقوبةٍ إلا وكانَ يُتصوَّرُ أنْ تُؤَخَّرَ إلى الآخرةِ ، ومصائبُ الدنيا يُتسلَّىٰ عنها بأسبابٍ أُخرَ تهوِّنُ المصيبةَ فيخفُّ وقعُها ، ومصيبةُ الآخرةِ تدومُ ، وإنْ لمْ تدمْ . . فلا سبيلَ إلىٰ تخفيفِها بالتسلِّي ، إذْ أسبابُ التسلِّي مقطوعةٌ بالكليّةِ في الآخرةِ عنِ المعذَّبينَ .

ومَنْ عُجِّلَتْ عقوبتُهُ في الدنيا . . فلا يُعاقبُ ثانياً ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ إذا أذنبَ ذنباً ، فأصابَتْهُ شِدَّةٌ أوْ بلاءٌ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يعذِّبَهُ ثانياً »(١) .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٦٠٤) ولفظه : « من أصاب حدّاً فعُجِّل عقوبتُه في الدنيا . . فالله أعدل من أن يثنِّيَ علىٰ عبده العقوبة في الآخرة ، ومن أصاب حدّاً فستره الله عليه وعفا عنه . . فالله أكرم من أن يعود إلىٰ شيء قد عفا عنه » .

الرابعُ : أنَّ هٰذهِ المصيبةَ والبليَّةَ كانَتْ مكتوبةً عليهِ في أمِّ الكتابِ ، وكانَ لا بدَّ مِنْ وصولِها إليهِ ، وقدْ وصلَتْ ، ووقعَ الفراغُ ، واستراحَ مِنْ بعضِها أوْ مِنْ جميعِها ، فهٰذهِ نعمةٌ .

الخامسُ : أنَّ ثوابَها أكثرُ منها ؛ فإنَّ مصائبَ الدنيا طرقٌ إلى الآخرةِ مِنْ وجهينِ :

ـ **أحدُهُما** : الوجهُ الذي يكونُ بهِ الدواءُ الكريهُ نعمةً في حقِّ المريضِ ، ويكونُ المنعُ مِنْ أسبابِ اللعبِ نعمةً في حقِّ الصبيِّ ، فإنَّهُ لوْ خُلِّيَ واللعبَ . . كانَ يمنعُهُ ذلكَ عنِ العلمِ والأدبِ ، فكانَ يخسرُ جميعَ عمرِهِ ؛ فكذلكَ المالُ والأهلُ والأقاربُ والأعضاءُ حتَّى العينُ التي هيَ أعزُّ الأشياءِ قدْ تكونُ سبباً لهلاكِ الإنسانِ في بعضِ الأحوالِ .

بلِ العقلُ الذي هوَ أعزُّ الأمورِ قدْ يكونُ سبباً لهلاكِهِ ، فالملحدةُ غداً يتمنَّونَ لوْ كانوا مجانينَ أوْ صبياناً ولمْ يتصرَّفوا بعقولِهِمْ في دينِ اللهِ تعالىٰ ، فما مِنْ شيءٍ مِنْ هٰذهِ الأسبابِ يوجدُ مِنَ العبدِ إلا ويُتصوَّرُ أنْ يكونَ لهُ فيهِ خيرةٌ دينيَّةٌ ، فعليهِ أنْ يحسنَ الظنَّ باللهِ تعالىٰ ، ويقدِّرَ فيهِ الخيرةَ ويشكرَهُ عليهِ ؛ فإنَّ حكمةَ اللهِ تعالىٰ واسعةٌ ، وهوَ بمصالحِ العبادِ أعلمُ مِنَ العبادِ ، وغداً يشكرُهُ العبادُ على البلايا إذا رأَوا ثوابَ اللهِ على البلايا كما يشكرُ الصبيُّ بعدَ العقلِ والبلوغِ أستاذَهُ وأباهُ علىٰ ضربِهِ وتأديبِهِ ؛ إذْ يدركُ ثمرةَ ما استفادَهُ مِنَ التأديبِ ، والبلاءُ تأديبٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وعنايتُهُ بعبادِهِ أتمُّ وأوفرُ مِنْ

عنايةِ الآباءِ بالأولادِ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوصني ، فقالَ : « لا تتهمِ اللهَ في شيءٍ قضاهُ عليكَ »[١] .

ونظرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى السماءِ فضحكَ ، فسُئِلَ ، فقالَ : « عجبتُ لقضاءِ اللهِ تعالىٰ للمؤمنِ ؛ إنْ قضىٰ لهُ بالسرَّاءِ . . رضيَ وكانَ خيراً لهُ ، وإنْ قضىٰ لهُ بالضرَّاءِ . . رضيَ وكانَ خيراً لهُ »[٢] .

ـ **الوجهُ الثاني** : أنَّ رأسَ الخطايا المهلكةِ حبُّ الدنيا ، ورأسَ أسبابِ النجاةِ التجافي بالقلبِ عنْ دارِ الغرورِ ، ومواتاةُ النعمِ علىٰ وَفْقِ المرادِ مِنْ غيرِ امتزاجٍ ببلاءٍ ومصيبةٍ تورثُ طمأنينةَ القلبِ إلى الدنيا وأنساً بها ، حتَّىٰ تصيرَ كالجنَّةِ في حقِّهِ ، فيعظمُ بلاؤُهُ عندَ الموتِ بسببِ مفارقتِهِ ، وإذا كثرَتْ عليهِ المصائبُ . . انزعجَ قلبُهُ عنِ الدنيا ، ولمْ يسكنْ إليها ، ولمْ يأنسْ بها ، وصارَتْ سجناً عليهِ ، وكانَتْ نجاتُهُ منها غايةَ اللذَّةِ ؛ كالخلاصِ مِنَ السجنِ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ »[٣] ، والكافرُ كلُّ مَنْ أعرضَ عنِ اللهِ تعالىٰ ولمْ يردْ إلا الحياةَ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٧) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٢٠٤) ، (٥/ ٣١٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٢٦٣) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢١٧) ، وهو عند مسلم (٢٩٩٩) دون ذكر النظر إلى السماء والضحك ، وقد ورد ذكر ذلك في أخبار مقاربة ، انظر « الإتحاف » (٩/ ١٤١) .

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٦) .

الدنيا ، ورضيَ بها ، واطمأنَّ إليها ، والمؤمنُ كلُّ منقلعٍ بقلبِهِ عنِ الدنيا ، شديدِ الحنينِ إلى الخروجِ منها ، والكفرُ بعضُهُ ظاهرٌ وبعضُهُ خفيٌّ ، وبقدْرِ حبِّ الدنيا في القلبِ يسري فيهِ الشركُ الخفيُّ ، بلِ الموحِّدُ المطلقُ هوَ الذي لا يحبُّ إلا الواحدَ الحقَّ .

فإذاً ؛ في البلاءِ نعَمٌ مِنْ هٰذا الوجهِ ، فيجبُ الفرحُ بهِ .

وأمَّا التألُّمُ . . فهوَ ضروريٌّ ، وذلكَ يضاهي فرحَكَ عندَ الحاجةِ إلى الحجامةِ بمَنْ يتولَّىٰ حجامتَكَ مجاناً ، أوْ يسقيكَ دواءً نافعاً بشعاً مجاناً ؛ فإنَّكَ تتألَّمُ وتفرحُ ، فتصبرُ على الألمِ ، وتشكرُهُ علىٰ سببِ الفرحِ ، فكلُّ بلاءٍ في الأمورِ الدنيويَّةِ مثالُهُ الدواءُ الذي يؤلمُ في الحالِ وينفعُ في المآلِ .

بلْ مَنْ دخلَ دارَ ملكٍ للنضارةِ(١) ، وعلمَ أنَّهُ يخرجُ منها لا محالةَ ، فرأىٰ وجهاً حسناً لا يخرجُ معَهُ مِنَ الدارِ . . كانَ ذلكَ وبالاً وبلاءً عليهِ ؛ لأنَّهُ يورثُهُ الأنسَ بمنزلٍ لا يمكنُهُ المُقامُ فيهِ ، ولوْ كانَ عليهِ في المُقامِ خطرٌ مِنْ أنْ يطلعَ عليهِ الملكُ فيعذِّبَهُ ، فأصابَهُ ما يكرهُ حتَّىٰ نفرَهُ عنِ المقامِ . . كانَ ذلكَ نعمةً عليهِ ، والدنيا منزلٌ ، وقدْ دخلَها الناسُ مِنْ بابِ الرحمِ ، وهُمْ خارجونَ عنها مِنْ بابِ اللحدِ ، فكلُّ ما يحقِّقُ أنسَهُمْ بالمنزلِ فهوَ بلاءٌ ، وكلُّ ما يزعجُ قلوبَهُمْ عنها ويقطعُ أنسَهُمْ بها فهوَ نعمةٌ ، فمَنْ عرفَ هٰذا . .

---

(١) أي : التفرج .

تُصوِّرَ منهُ أنْ يشكرَ على البلاءِ ، ومَنْ لمْ يعرفْ هـٰذهِ النعمةَ في البلاءِ . . لمْ يُتصوَّرْ منهُ الشكرُ ؛ لأنَّ الشكرَ يتبعُ معرفةَ النعمةِ بالضرورةِ ، ومَنْ لا يؤمنُ بأنَّ ثوابَ المصيبةِ أكبرُ مِنَ المصيبةِ . . لمْ يُتصوَّرْ منهُ الشكرُ على المصيبةِ .

وحُكِيَ أنَّ أعرابياً عزَّى ابنَ عباسٍ علىٰ أبيهِ رضي الله عنهُما فقالَ[١] : [من الكامل]

اِصْبِرْ نَكُنْ بِكَ صابِرِينَ فَإِنَّما ... صَبْرُ ٱلرَّعِيَّةِ بعَدْ صَبْرِ ٱلرَّاسِ

خَيْرٌ مِنَ ٱلْعَبَّاسِ أَجْرُكَ بَعْدَهُ ... وَٱللهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

فقالَ ابنُ عباسٍ : ما عزَّاني أحدٌ أحسنَ مِنْ تعزيتِهِ[٢] .

والأخبارُ الواردةُ في الصبرِ على المصائبِ كثيرةٌ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يردِ اللهُ بهِ خيراً . . يصبْ منهُ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : إذا وجَّهتُ إلىٰ عبدٍ مِنْ عبيدي مصيبةً في بدنِهِ أوْ مالِهِ أوْ ولدِهِ ، ثمَّ استقبلَ ذلكَ بصبرٍ جميلٍ . . استحييتُ منهُ يومَ القيامةِ أنْ أنصبَ لهُ ميزاناً أوْ أنشرَ لهُ ديواناً »[٤] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما مِنْ عبدٍ أُصيبَ بمصيبةٍ ، فقالَ كما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ أْجُرْني في مصيبتي ،

---

(١) البيتان في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ٢٤٧) بسياق مختلف .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢١١) .
(٣) رواه البخاري (٥٦٤٥) .
(٤) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢٢٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٥٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٦٢) .

وأعقبْني خيراً منها . . إلا فعلَ اللهُ ذلكَ بهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : مَنْ سلبتُ كريمتيهِ . . فجزاؤُهُ الخلودُ في داري ، والنظرُ إلىٰ وجهي »[2] .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ذهبَ مالي ، وسقمَ جسمي ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا خيرَ في عبدٍ لا يذهبُ مالُهُ ولا يسقمُ جسمُهُ ، إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً . . ابتلاهُ ، وإذا ابتلاهُ . . صبَّرَهُ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ الرَّجلَ لتكونُ لهُ الدرجةُ عندَ اللهِ تعالىٰ لا يبلغُها بعملٍ حتَّىٰ يُبتلىٰ ببلاءٍ في جسمِهِ ، فيبلغُها بذلكَ »[4] .

وعنْ خبَّابِ بنِ الأرتِّ قالَ : أتينا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ متوسِّدٌ بردائِهِ في ظلِّ الكعبةِ ، فشكونا إليهِ ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ ألا تدعو اللهَ تستنصرُهُ لنا ، فجلسَ محمرّاً لونُهُ ، ثمَّ قالَ : « إنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ

---

(١) رواه مسلم (٩١٨) ، و(أجرني) : يجوز فيه أيضاً مد الهمزة والقصر والوصل ، (آجرني ، أَجِرني ، اُجُرني) ؛ بمعنىٰ طلب الأجر على المد والوصل ، أو من الإجارة على القصر .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٨٥٠) ، وعند البخاري (٥٦٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر . . عوضته منهما الجنة » .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٢٥٤) .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٢٩٠٨) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٤٤) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ليُؤتىٰ بالرجلِ ، فيُحفرُ لهُ في الأرضِ حفيرةٌ ، ويُجاءُ بالمنشارِ ، فيوضعُ علىٰ رأسِهِ ، فيُجعلُ فرقتينِ ، ما يصرفُهُ ذلكَ عنْ دينِهِ »[1] .

وعنْ عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ قالَ : (أيُّما رجلٍ حبسَهُ السلطانُ ظلماً فماتَ . . فهوَ شهيدٌ ، وإنْ ضربَهُ فماتَ . . فهوَ شهيدٌ)[2] . وقالَ أيضاً : (مِنْ إجلالِ اللهِ ومعرفةِ حقِّهِ ألا تشكوَ وجعَكَ ، ولا تذكرَ مصيبتَكَ)[3] .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (تُولدونَ للموتِ ، وتعمرونَ للخرابِ ، وتحرصونَ علىٰ ما يفنىٰ ، وتذرون ما يبقىٰ ، ألا حبذا المكروهاتُ الثلاثُ : الفقرُ والمرضُ والموتُ)[4] .

وعنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً ، وأرادَ أنْ يصافيَهُ . . صَبَّ عليهِ البلاءَ صبّاً ، وثجَّهُ عليهِ ثجّاً ، فإذا دعاهُ . . قالَتِ الملائكةُ : صوتٌ معروفٌ ، فإنْ دعاهُ ثانياً فقالَ : يا ربِّ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : لبَّيكَ عبدي وسعديكَ ، لا تسألُني شيئاً إلاّ أعطيتُكَ أوْ دفعتُ عنكَ ما هوَ خيرٌ ، وادَّخرتُ لكَ عندي ما هوَ أفضلُ منهُ ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . جيءَ بأهلِ الأعمالِ ، فوُفُّوا أعمالَهُمْ بالميزانِ ، أهلُ

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢) ، وأبو داوود (٢٦٤٩) .

(٢) أورده الأبشيهي في « المستطرف » (٢/ ٣٣٥) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » [٢٢٣] من رواية سفيان عن بعض الفقهاء) . « الإتحاف » (٩/ ٢٩) . وقول سفيان رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٩) أيضاً .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٦٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ١٦٣) .

الصلاةِ والصيامِ والصدقةِ والحجِّ ، ثمَّ يُؤتىٰ بأهلِ البلاءِ . . فلا يُنصبُ لهُمْ ميزانٌ ، ولا ينشرُ لهُمْ ديوانٌ ، يُصبُّ عليهِمُ الأجرُ صبّاً كما كان يُصبُّ عليهِمُ البلاءُ صبّاً ، فيودُّ أهلُ العافيةِ في الدنيا لوْ أنَّهُمْ كانَتْ تُقرضُ أجسادُهُمْ بالمقاريضِ لما يرونَ ما يذهبُ بهِ أهلُ البلاءِ مِنَ الثوابِ ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ »[1] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُما قالَ : (شكا نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ إلىٰ ربِّهِ فقالَ : يا ربِّ ؛ العبدُ المؤمنُ يطيعُكَ ويجتنبُ معاصيَكَ ، تزوي عنهُ الدنيا ، وتعرضُ لهُ البلاءَ ، ويكونُ العبدُ الكافرُ لا يطيعُكَ ويجترىءُ عليكَ وعلىٰ معاصيكَ ، تزوي عنهُ البلاءَ ، وتبسطُ لهُ الدنيا ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : إنَّ العبادَ لي ، والبلاءَ لي ، وكلٌّ يسبِّحُ بحمدي ، فيكونُ المؤمنُ عليهِ مِنَ الذنوبِ ، فأزوي عنهُ الدنيا ، وأعرضُ لهُ البلاءَ ، فيكونُ كفارةً لذنوبِهِ ؛ حتَّىٰ يلقاني فأجزيَهُ بحسناتِهِ ، ويكونُ الكافرُ لهُ الحسناتُ ، فأبسطُ لهُ في الرزقِ ، وأزوي عنهُ البلاءَ ، فأجزيهِ بحسناتِهِ في الدنيا ؛ حتَّىٰ يلقاني فأجزيَهُ بسيئاتِهِ)[2] .

ورُوِيَ أنَّهُ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ . . قالَ

---

(١) رواه بتمامه التميمي في « المحن » (ص ٢٨٦) ، والترمذي (٢٤٠٢) روىٰ بعضه ، وهو قوله : « يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطىٰ أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض » .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٢٣) .

أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ : كيفَ الفرحُ بعدَ هـٰذهِ الآيةِ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « غفرَ اللهُ لكَ يا أبا بكرٍ ؛ ألستَ تمرضُ ؟ ألستَ يصيبُكَ الأذى ؟ ألستَ تحزنُ ؟ فهـٰذا ما تُجزونَ بهِ »[1] ؛ يعني : أنَّ جميعَ ما يصيبُكَ يكونُ كفارةً لذنوبِكَ .

وعنْ عقبةَ بنِ عامرٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا رأيتُمُ الرجلَ يعطيهِ اللهُ ما يحبُّ وهوَ مقيمٌ علىٰ معصيتِهِ . . فاعلموا أنَّ ذلكَ استدراجٌ ، ثمَّ قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ »[2] ، يعني : لمَّا تركوا ما أُمروا بهِ . . فتحنا عليهِمْ أبوابَ الخيراتِ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ أيْ : بما أُعطوا مِنَ الخيرِ ، ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ .

وعنِ الحسنِ البصريِّ رحمَهُ اللهُ : أنَّ رجلاً مِنَ الصحابةِ رأى امرأةً كانَ يعرفُها في الجاهليةِ ، فكلَّمَها ثمَّ تركَها ، فجعلَ الرجلُ يلتفتُ إليها وهوَ يمشي ، فصدمَهُ حائطٌ ، فأثَّرَ في وجهِهِ ، فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأخبرَهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . عجَّلَ لهُ عقوبةَ ذنبهِ في الدنيا »[3] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (١/ ١١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩١٠) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٤٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٩٢٦٨) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٨٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩١١) عن الحسن عن عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : ألا أخبرُكُمْ بأرجىٰ آيةٍ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ قالوا : بلىٰ ، فقرأَ عليهِمْ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ ، فالمصائبُ في الدنيا بكسبِ الأوزارِ ، فإذا عاقبَهُ اللهُ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يعذبَهُ ثانياً ، وإنْ عفا عنهُ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يعذِّبَهُ يومَ القيامةِ[1] .

وعنْ أنسٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ما تجرعَ عبدٌ قطُّ جرعتينِ أحبَّ إلى اللهِ مِنْ جرعةِ غيظٍ ردَّها بحلمٍ ، وجرعةِ مصيبةٍ يصبرُ الرجلُ لها ، ولا قطرَتْ قطرةٌ أحبُّ إلى اللهِ مِنْ قطرةِ دمٍ أهريقَتْ في سبيلِ اللهِ ، أوْ قطرةِ دمعٍ في سوادِ الليلِ وهوَ ساجدٌ ولا يراهُ إلا اللهُ تعالىٰ ، وما خطا عبدٌ خطوتينِ أحبَّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ خطوةٍ إلىٰ صلاةِ الفريضةِ ، وخطوةٍ إلىٰ صلةِ الرحمِ »[2] .

---

(١) رواه مرفوعاً الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٨٨) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٨٥).

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو بكر بن لال في « مكارم الأخلاق » من حديث علي بن أبي طالب ، دون ذكر القطرتين ، وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي ، منكر الحديث ، وروى ابن ماجه [٤١٨٩] من حديث ابن عمر بإسناد جيد : « ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله » ، وروى الديلمي في « مسند الفردوس » [٦٢٠٥] من حديث أبي أمامة : « ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل » ، وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي ، منكر الحديث) . « إتحاف » (٩/ ١٤٥) . وروى ابن وهب في « جامعه » (٤٧٨) حديث الجرعتين مرفوعاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وعنْ أبي الدرداءِ قالَ : تُوفي ابنٌ لسليمانَ بنِ داوودَ عليهما السلامُ ، فوجدَ عليهِ وجداً شديداً ، فأتاهُ ملكانِ ، فجلسا بينَ يديهِ في زيِّ الخصومِ ، فقالَ أحدُهُما : بذرتُ بذراً ، فلمَّا استحصدَ . . مرَّ بهِ هٰذا فأفسدَهُ ، فقالَ للآخرِ : ما تقولُ ؟ فقالَ : أخذتُ الجادةَ فأتيتُ علىٰ زرعٍ ، فنظرتُ يميناً وشمالاً فإذا الطريقُ عليهِ ، فقالَ سليمانُ عليهِ السلامُ : ولِمَ بذرتَ على الطريقِ ؟ أما علمتَ أنْ لا بدَّ للناسِ مِنَ الطريقِ ؟! قالَ : فلِمَ تحزنُ علىٰ ولدِكَ ؟ أما علمتَ أنَّ الموتَ سبيلُ الآخرةِ ؟! فتابَ سليمانُ عليهِ السلامُ إلىٰ ربِّهِ ، ولمْ يجزعْ علىٰ ولدِهِ بعدَ ذلكَ[1] .

ودخلَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ على ابنٍ لهُ مريضٍ ، فقالَ : يا بنيَّ ؛ لأنْ تكونَ في ميزاني أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أكونَ في ميزانِكَ ، فقالَ : يا أبتِ ؛ لأَنْ يكونَ ما تحبُّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يكونَ ما أحبُّ[2] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ نُعيَ إليهِ ابنةٌ لهُ ، فاسترجعَ وقالَ : عورةٌ سترَها اللهُ ، ومؤنةٌ كفاها اللهُ ، وأجرٌ قدْ ساقَهُ اللهُ ، ثمَّ نزلَ فصلَّىٰ ركعتينِ ، ثمَّ قالَ : قدْ صنعنا ما أمرَ اللهُ تعالىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[3] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤١٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٥٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٨١) .
(٣) عزاه الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص ٢١٥) لابن أبي الدنيا في «العزاء» .

وعنِ ابنِ المباركِ أنَّهُ ماتَ لهُ ابنٌ ، فعزَّاهُ مجوسيٌّ يعرفُهُ فقالَ لهُ : ينبغي للعاقلِ أنْ يفعلَ اليومَ ما يفعلُهُ الجاهلُ بعدَ خمسةِ أيامٍ ، فقالَ ابنُ المباركِ : اكتبوا عنهُ هـٰذهِ[1] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ ليبتلي العبدَ بالبلاءِ بعدَ البلاءِ ، حتَّىٰ يمشيَ على الأرضِ وما لهُ ذنبٌ)[2] .

وقالَ الفضيلُ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليتعاهدُ عبدَهُ المؤمنَ بالبلاءِ كما يتعاهدُ الرجلُ أهلَهُ بالخيرِ)[3] .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحتجُّ على الخلقِ يومَ القيامةِ بأربعةِ أنفسٍ علىٰ أربعةِ أجناسٍ : على الأغنياءِ بسليمانَ ، وعلى الفقراءِ بعيسىٰ ، وعلى العبيدِ بيوسفَ ، وعلى المرضىٰ بأيوبَ ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ) .

ورُوِيَ أنَّ زكريا عليهِ السلامُ لمَّا هربَ مِنَ الكفارِ مِنْ بني إسرائيلَ ،

---

(١) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٣٣٨) .

(٢) روى الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه نحوه مرفوعاً ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ١٢٩) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

(٣) روي هـٰذا من حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً كما هو عند البيهقي في « الشعب » (٩٦٤٨) ، وبلفظ : « إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بخير » ، قال حذيفة : وإنَّ أقرَّ أيامي لعيني يوم أدخل علىٰ أهلي فيشكون إلي الحاجة .

واختفىٰ في الشجرةِ ، فعرفوا ذلك ، فجيءَ بالمنشارِ ، فنُشرَتِ الشجرةُ حتَّىٰ بلغَ المنشارُ إلىٰ رأسِ زكريا ، فأنَّ منهُ أنَّةً ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا زكريا ؛ لئنْ صعدَتْ منكَ أنَّةٌ ثانيةٌ لأمحونَّكَ مِنْ ديوانِ النبوَّةِ ، فعضَّ زكريا عليهِ السلامُ على الصبرِ حتَّىٰ قُطعَ بشطرينِ[1] .

وقالَ أبو مسعودٍ البلخيُّ : (مَنْ أُصيبَ بمصيبةٍ فمزَّقَ ثوباً ، أوْ ضربَ صدراً . . فكأنَّما أخذَ رمحاً يريدُ أنْ يقاتلَ بهِ ربَّهَ عزَّ وجلَّ)[2] .

وقالَ لقمانُ رحمهُ اللهُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنَّ الذهبَ يُجرَّبُ بالنارِ ، والعبدُ الصالحُ يُجرَّبُ بالبلاءِ ، فإذا أحبَّ اللهُ قوماً . . ابتلاهُمْ ، فمَنْ رضيَ . . فلهُ الرضا ، ومَنْ سخطَ . . فلهُ السخطُ)[3] .

وقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : أصبحتُ يوماً أشتكي ضرسي ، فقلتُ لعمِّي : ما نمتُ البارحةَ مِنْ وجعِ الضرسِ ، حتَّىٰ قلتُها ثلاثاً ، فقالَ : لقدْ أكثرتَ مِنْ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٥) عن وهب بن منبه .

(٢) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٣٥٧) .

(٣) هـٰذا القول متوازع في المرفوع ، فقد روى الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٦٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار . . . » الحديث ، وروى الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً . . ابتلاهم ، فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط » .

شكوىٰ ضرسِكَ في ليلةٍ واحدةٍ ، وقدْ ذهبَتْ عيني هـٰذهِ منذ ثلاثينَ سنةً ما علمَ بها أحدٌ[١] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عزيرٍ عليهِ السلامُ : إذا نزلَتْ بكَ بليَّةٌ . . فلا تشكُني إلىٰ خلقي ، واشكُ إليَّ كما لا أشكوكَ إلىٰ ملائكتي إذا صعدَتْ بمساوئِكَ وفضائِحِكَ[٢] ، نسألُ اللهَ مِنْ عظيمِ لطفِهِ وكرمِهِ سترَهُ الجميلَ في الدنيا والآخرةِ .

* * *

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٥٨٣) عن ابن أخٍ للأحنف ، وصاحب القول هو الأحنف نفسه ، ورواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٢/٣٢٩) عن الأحنف وعمه المتشمس بن معاوية ولم يعيِّن الشكوىٰ .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « أوحى الله عز وجل إلىٰ أخي العزير : يا عزير . . . » الخبر .

بيان فضل النّعمة على البلاء

لعلَّكَ تقولُ : هٰذهِ الأخبارُ تدلُّ علىٰ أنَّ البلاءَ في الدنيا خيرٌ مِنَ النعَمِ ، فهلْ لنا أنْ نسألَ اللهَ البلاءَ ؟

فأقولُ : لا وجهَ لذلكَ ؛ لما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ يستعيذُ في دعائِهِ مِنْ بلاءِ الدنيا وبلاءِ الآخرةِ[(١)] ، وكانَ يقولُ هوَ والأنبياءُ عليهِمُ السلامُ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾[(٢)] ، وكانوا يستعيذونَ مِنْ شماتةِ الأعداءِ وغيرِها[(٣)] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسأَلُكَ الصبرَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ سألتَ اللهَ البلاءَ . . فاسألْهُ العافيةَ »[(٤)] .

وروى الصدِّيقُ رضوانُ اللهِ عليهِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « سلوا الله العافيةَ ، فما أُعطيَ أحدٌ أفضلَ مِنَ العافيةِ إلا اليقينَ »[(٥)] ، وأشارَ باليقينِ إلىٰ عافيةِ القلبِ عنْ مرضِ الجهلِ والشكِّ ، فعافيةُ القلبِ أعلىٰ مِنْ عافيةِ البدنِ .

---

(١) إذ روىٰ أحمد في « مسنده » (٤/١٨١) من حديث بسر بن أرطاة رضي الله عنه مرفوعاً : « وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » .

(٢) وكان هٰذا من أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام كما روىٰ ذلك مسلم (٣٦٩٠) .

(٣) رواها النسائي (٨/ ٢٦٥) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣١) .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٢٧) ولم يذكر أن القائل هو علي رضي الله عنه ، وعيَّنه (٣٥٦٤) .

(٥) رواه ابن ماجه (٣٨٤٩) بنحوه .

وقالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ : (الخيرُ الذي لا شرَّ فيهِ العافيةُ معَ الشكرِ ، فكَمْ مِنْ منعَمٍ عليهِ غيرُ شاكرٍ)[1] .

وقالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ : (لأَنْ أُعافىٰ فأشكرَ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أُبتلىٰ فأصبرَ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في دعائِهِ : « وعافيتُكَ أحبُّ إليَّ »[3] .

وهٰذا أظهرُ مِنْ أنْ يُحتاجَ فيهِ إلى استشهادٍ ، وهٰذا لأنَّ البلاءَ صارَ نعمةً باعتبارينِ :

أحدُهُما : بالإضافةِ إلىٰ ما هوَ أكثرُ منهُ ؛ إمَّا في الدنيا ، أوْ في الدينِ .

والآخرُ : بالإضافةِ إلىٰ ما يُرجىٰ مِنَ الثوابِ ، فينبغي أنْ يسألَ اللهَ تمامَ النعمةِ في الدنيا ، ودفعَ ما فوقَهُ مِنَ البلاءِ ، ويسألَهُ الثوابَ في الآخرةِ على

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٥٤) عن عون بن عبد الله .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٥٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٠٠) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٠٦) ، وهي قطعة من الدعاء المشهور له صلى الله عليه وسلم يوم خرج إلى الطائف يدعو ثقيفاً ، وأورده ابن هشام في « سيرته » (١/ ٤٢٠) ولفظه : « ولكن عافيتك هي أوسع لي » ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن الجوزي في « السيرة » . . . ، وكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الدعاء » من رواية حسان بن عطية مرسلاً ، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسنداً وفيه من يجهل) . « إتحاف » (٩/ ١٤٨) .

الشكرِ علىٰ نعمِهِ ، فإنَّهُ قادرٌ علىٰ أنْ يعطيَ على الشكرِ ما يعطيهِ على الصبرِ .

❋ ❋ ❋

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ بعضُهُمْ : (أودُّ أنْ أكونَ جسراً على النارِ يعبرُ عليَّ الخلقُ كلُّهُمْ فينجونَ ، وأكونَ أنا في النارِ) .

وقالَ سمنونٌ[1] : [من مخلع البسيط]

وَلَيْسَ لِي فِي سِواكَ حَظٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَٱخْتَبِرْنِي

فهٰذا منْ هؤلاءِ سؤالٌ للبلاءِ .

فاعلمْ : أنَّهُ حُكِيَ عنْ سمنونٍ رحمَهُ اللهُ أنَّهُ بُلِيَ بعدَ هٰذا البيتِ بعلَّةِ الحصرِ ، فكانَ بعدَ ذلكَ يدورُ علىٰ أبوابِ المكاتبِ ويقولُ للصبيانِ : (ادعوا لعمِّكُمُ الكذَّابِ) .

وأمَّا محبَّةُ الإنسانِ ليكونَ هوَ في النارِ دونَ سائرِ الخلقِ . . فغيرُ ممكنةٍ ، ولكنْ قدْ تغلبُ المحبَّةُ على القلبِ ، حتَّىٰ يظنَّ المحبُّ بنفسِهِ حبّاً لمثلِ ذلكَ ، فمَنْ شربَ بكأسِ المحبةِ . . سكرَ ، ومَنْ سكرَ . . توسَّعَ في الكلامِ ، ولوْ زايلَهُ سكرُهُ . . علمَ أنَّ ما غلبَ عليهِ كانَ حالةً لا حقيقةَ لها ، فما سمعتَهُ مِنْ هٰذا الفنِّ فهوَ كلامُ العشَّاقِ الذينَ أفرطَ حبُّهُمْ ، وكلامُ العشَّاقِ يُستلذُّ سماعُهُ ولا يُعوَّلُ عليهِ ؛ كما حُكِيَ أنَّ فاختةً كانَ يراودُها زوجُها فمنعَتْهُ ، فقالَ : ما الذي يمنعُكِ عنِّي ولوْ أردتِ أنْ أقلبَ لكِ ملكَ

---

(١) عقلاء المجانين (ص٣٣٩) ، والرسالة القشيرية (ص٨٨) .

سليمانَ ظهراً لبطنٍ . . لفعلتُهُ لأجلِكِ ، فسمعَهُ سليمانُ عليهِ السلامُ ، فاستدعاهُ وعاتبَهُ ، فقالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ كلامُ العشَّاقِ لا يُحكىٰ[1] ، وهوَ كما قالَ .

وقولُ الشاعرِ[2] : [من الوافر]

أُرِيدُ وِصالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَأَتْرُكُ ما أُرِيدُ لِما يُرِيدُ

هوَ أيضاً محالٌ ، ومعناهُ : أنِّي أريدُ ما لا أريدُ ؛ لأنَّ مَنْ أرادَ الوصالَ ما أرادَ الهجرَ ، فكيفَ أرادَ الهجرَ الذي لمْ يردْهُ ؟! بلْ لا يصدقُ هٰذا الكلامُ إلا بتأويلينِ .

أحدُهُما : أنْ يكونَ ذلكَ في بعضِ الأحوالِ حتَّىٰ يكتسبَ بهِ رضاهُ الذي يتوصَّلُ بهِ إلىٰ مرادِ الوصالِ في الاستقبالِ ، فيكونُ الهجرانُ وسيلةً إلى الرضا ، والرضا وسيلةً إلىٰ وصالِ المحبوبِ ، والوسيلةُ إلى المحبوبِ محبوبٌ ، فيكونُ مثالُهُ مثالَ محبِّ المالِ إذا أسلمَ درهماً في درهمينِ ، فهوَ بحبِّ الدرهمينِ يتركُ الدرهمَ في الحالِ .

الثاني : أنْ يصيرَ رضاهُ عندَهُ مطلوباً مِنْ حيثُ إنَّهُ رضاً فقطْ ، ويكونُ لهُ لذَّةٌ في استشعارِهِ رضا محبوبِهِ منهُ تزيدُ تلكَ اللذَّةُ علىٰ لذَّتِهِ في مشاهدتِهِ معَ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٥٣٠) بنحوه ، والفاختة : الحمامةُ المطوقة .

(٢) البيت لابن المنجم الواعظ . انظر « فوات الوفيات » (٢/٣٠١) ، و« الوافي بالوفيات » (١٨/٢٦٨) .

كراهتِهِ ، فعندَ ذلكَ يُتصوَّرُ أنْ يريدَ ما فيهِ الرضا ، فلذلكَ قدِ انتهىٰ حالُ بعضِ المحبِّينَ إلىٰ أنْ صارَتْ لذتُهُمْ في البلاءِ معَ استشعارِهِمْ رضا اللهِ عنهُمْ أكثرَ مِنْ لذَّاتِهِمْ في العافيةِ مِنْ غيرِ شعورِ الرضا ، فهؤلاءِ إذا قدَّروا رضاهُ في البلاءِ . . صارَ البلاءُ أحبَّ إليهِمْ مِنَ العافيةِ ، وهـٰذهِ حالةٌ لا يبعدُ وقوعُها في غلباتِ الحبِّ ، ولكنَّها لا تثبتُ ، وإنْ ثبتَتْ مثلاً . . فهلْ هيَ حالةٌ صحيحةٌ أمْ حالةٌ اقتضَتْها حالةٌ أخرىٰ وردَتْ على القلبِ فمالَتْ بهِ عنِ الاعتدالِ ؟ هـٰذا فيهِ نظرٌ ، وذكرُ تحقيقِهِ لا يليقُ بما نحنُ فيهِ .

وقدْ ظهرَ بما سبقَ أنَّ العافيةَ خيرٌ مِنَ البلاءِ ، فنسألُ اللهَ تعالى المنانَ بفضلِهِ علىٰ جميعِ خلقِهِ العفوَ والعافيةَ في الدينِ والدنيا والآخرةِ لنا ولجميعِ المسلمينَ .

❋ ❋ ❋

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلمْ : أنَّ الناسَ اختلفوا في ذلكَ :

فقالَ قائلونَ : الصبرُ أفضلُ مِنَ الشكرِ .

وقالَ آخرونَ : الشكرُ أفضلُ .

وقالَ آخرونَ : هما سيَّانِ .

وقالَ آخرونَ : يختلفُ ذلكَ باختلافِ الأحوالِ .

واستدلَّ كلُّ فريقٍ بكلامٍ شديدِ الاضطرابِ ، بعيدٍ عنِ التحصيلِ ، فلا معنىٰ للتطويلِ بالنقلِ ، بلِ المبادرةُ إلىٰ إظهارِ الحقِّ أولىٰ ، فنقولُ : **في بيانِ ذلكَ مقامانِ** :

المقامُ الأوَّلُ : البيانُ علىٰ سبيلِ التساهلِ :

وهوَ أنْ يُنظرَ إلىٰ ظاهرِ الأمرِ ، ولا يُطلبَ بالتفتيشِ تحقيقُهُ ، وهوَ البيانُ الذي ينبغي أنْ يُخاطبَ بهِ عوامُّ الخلقِ ؛ لقصورِ أفهامِهِمْ عنْ دركِ الحقائقِ الغامضةِ ، وهـٰذا الفنُّ مِنَ الكلامِ هوَ الذي ينبغي أنْ يعتمدَهُ الوعَّاظُ ؛ إذْ مقصودُ كلامِهِمْ مِنْ مخاطبةِ العوامِّ إصلاحُهُمْ ، والظِئْرُ المشفقةُ لا ينبغي أنْ تصلحَ الصبيَّ الطفلَ بالطيورِ السمانِ وضروبِ الحلاواتِ ، بلْ باللبنِ اللطيفِ ، وعليها أنْ تؤخِّرَ عنهُ أطايبَ الأطعمةِ إلىٰ أنْ يصيرَ محتملاً لها بقوَّتِهِ ، ويفارقَ الضعفَ الذي هوَ عليهِ في بِنْيَتِهِ ، فنقولُ :

هٰذا المقامُ في البيانِ يأبى البحثَ والتفصيلَ ، ومقتضاهُ النظرُ إلى الظاهرِ المفهومِ مِنْ مواردِ الشرعِ ، وذلكَ يقتضي **تفضيلَ الصبرِ** ؛ فإنَّ الشكرَ وإنْ وردَتْ أخبارٌ كثيرةٌ في فضلِهِ ، فإذا أُضيفَ إليهِ ما وردَ في فضيلةِ الصبرِ . . كانَتْ فضائلُ الصبرِ أكثرَ ، بلْ فيهِ ألفاظٌ صريحةٌ في التفضيلِ ؛ كقولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مِنْ أفضلِ ما أُوتيتُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ »(١) .

وفي الخبرِ : (يُؤتىٰ بأشكرِ أهلِ الأرضِ ، فيجزيهِ اللهُ جزاءَ الشاكرينَ ، ويُؤتىٰ بأصبرِ أهلِ الأرضِ ، فيُقالُ لهُ : أترضىٰ أنْ نجزيَكَ كما جزينا هٰذا الشاكرَ ، فيقولُ : نعمْ يا ربِّ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كلاَّ ، أنعمتُ عليهِ فشكرَ ، وابتليتُكَ فصبرتَ ، لأضعِّفَنَّ لكَ الأجرَ عليهِ ، فيُعطىٰ أضعافَ جزاءِ الشاكرينَ)(٢) .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وأمَّا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الطاعمُ الشاكرُ بمنزلةِ الصائمِ الصابرِ »(٣) . . فهوَ دليلٌ على الفضيلةِ في الصبرِ ؛ إذْ ذكرَ ذلكَ في معرضِ المبالغةِ لرفعِ درجةِ الشكرِ ، فألحقَهُ بالصبرِ ، فكانَ هٰذا منتهىٰ درجتِهِ ، ولولا أنَّهُ فُهِمَ مِنَ الشرعِ علوُّ درجةِ الصبرِ . . لما كانَ إلحاقُ الشكرِ بهِ مبالغةً

---

(١) أورده الإمام أبو طالب في « القوت » (١/ ١٩٤) من حديث شهر بن حوشب الأشعري عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « من أقلّ » بدل « من أفضل » .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٩٥) ، ولم يذكر رفعه .

(٣) رواه الترمذي (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (١٧٦٤) .

في الشكرِ ، وهوَ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الجمعةُ حجُّ المساكينِ »[1] ، « وجهادُ المرأةِ حسنُ التبعُّلِ »[2] ، وكقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شاربُ الخمرِ كعابدِ وثنٍ »[3] ، وأبداً المشبَّهُ بهِ ينبغي أنْ يكونَ أعلىٰ رتبةً ، فكذلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ »[4] لا يدلُّ علىٰ أنَّ الشكرَ مثلُهُ ، وهوَ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »[5] ؛ فإنَّ كلَّ ما ينقسمُ بقسمينِ يُسمَّىٰ أحدُهُما نصفاً وإنْ كانَ بينَهُما تفاوتٌ ؛ كما يُقالُ : الإيمانُ هوَ العلمُ والعملُ ، فالعملُ نصفُ الإيمانِ ، فلا يدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّ العملَ يساوي العلمَ .

وفي الخبرِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « آخرُ الأنبياءِ دخولاً الجنَّةَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهِما السلامُ ؛ لمكانِ ملكِهِ ، وآخرُ أصحابي دخولاً

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ١٦٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/ ٤٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١١٥٢) عن علي رضي الله عنه مرفوعاً ضمن خبر ، وروى ابن أبي الدنيا في « العيال » (٥٢٨) حديث وافدة النساء التي وصفت من حال الرجال ما لا يبلغ شأوه النساء وفيه : « أقرئي النساء عني وقولي لهن : إن طاعة الزوج تعدل ما هناك ، وقليل منكن تفعله . . . » الخبر .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٣٧٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٢٢٧) ، وأوقفه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٤) علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٥) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

الجنَّةَ عبدُ الرحمـٰنِ بنُ عوفٍ ؛ لمكانِ غناهُ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « يدخلُ سليمانُ بعدَ الأنبياءِ بأربعينَ خريفاً »[1] .

وفي الخبرِ : (أبوابُ الجنَّةِ كلُّها مصراعانِ إلا بابَ الصبرِ ، فإنَّهُ مصراعٌ واحدٌ ، وأوَّلُ مَنْ يدخلُهُ أهلُ البلاءِ أمامَهُمْ أيُّوبُ عليهِ السلامُ)[2] .

وكلُّ ما وردَ في فضائلِ الفقرِ يدلُّ علىٰ فضيلةِ الصبرِ ؛ لأنَّ الصبرَ حالُ الفقيرِ ، والشكرَ حالُ الغنيِّ .

فهـٰذا هوَ المقامُ الذي يقنعُ العوامَّ ، ويكفيهِمْ في الوعظِ اللائقِ بهِمْ ، والتعريفِ لما فيهِ صلاحُ دينِهِمْ .

* * *

المقامُ الثاني : هوَ البيانُ الذي نقصدُ بهِ تعريفَ أهلِ العلمِ والاستبصارِ بحقائقِ الأمورِ بطريقِ الكشفِ والإيضاحِ :

فنقولُ فيهِ : كلُّ أمرينِ مبهمينِ لا تمكنُ الموازنةُ بينَهُما معَ الإبهام ما لمْ

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٠٣) ، وقد روى الطبراني في « الأوسط » (٤١٢٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً : « الأنبياء كلهم يدخلون الجنة قبل داوود وسليمان بألفي عام . . . » الحديث ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٩٠٩) بلفظ : « يدخل الأنبياء كلهم قبل داوود وسليمان الجنة بأربعين عاماً » ، وروى البزار في « مسنده » (٧٠٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمـٰن بن عوف ، والذي نفس محمد بيده لن يدخلها إلا حبواً » .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٠٣) ، ولم يرفعه ، بل قال : (وقد جاء في الآثار . . .) .

يُكشفْ عنْ حقيقةِ كلٍّ واحدٍ منهُما ، وكلُّ مكشوفٍ يشتملُ علىٰ أقسامٍ لا تمكنُ الموازنةُ بينَ الجملةِ والجملةِ ، بلْ يجبُ أنْ تُفردَ الآحادُ بالموازنةِ حتَّىٰ يتبيَّنَ الرجحانُ ، والصبرُ والشكرُ أقسامُهُما وشعبُهُما كثيرةٌ ، فلا يتبيَّنُ حكمُهُما في الرجحانِ والنقصانِ معَ الإجمالِ ، فنقولُ :

قدْ ذكرنا أنَّ هـٰذهِ المقاماتِ تنتظمُ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ : علومٌ ، وأحوالٌ ، وأعمالٌ ، والشكرُ والصبرُ وسائرُ المقاماتِ هيَ كذلكَ ، وهـٰذهِ الثلاثةُ إذا وُزنَ البعضُ منها بالبعضِ . . لاحَ للناظرينَ إلى الظواهرِ أنَّ العلومَ تُرادُ للأحوالِ ، والأحوالُ تُرادُ للأعمالِ ، والأعمالُ هيَ الأفضلُ ، وأمَّا أربابُ البصائرِ . . فالأمرُ عندَهُمْ بالعكسِ مِنْ ذلكَ ، فإنَّ الأعمالَ تُرادُ للأحوالِ ، والأحوالُ تُرادُ للعلومِ ، فالأفضلُ العلومُ ، ثمَّ الأحوالُ ، ثمَّ الأعمالُ ؛ لأنَّ كلَّ مرادٍ لغيرِهِ فذلكَ الغيرُ ـ لا محالةَ ـ أفضلُ منهُ .

وأمَّا آحادُ هـٰذهِ الثلاثةِ . . فالأعمالُ قدْ تتساوىٰ وقدْ تتفاوتُ إذا أُضيفَ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، وكذا آحادُ الأحوالِ إذا أُضيفَ بعضُها إلىٰ بعضٍ ، وكذا آحادُ المعارفِ .

وأفضلُ المعارفِ علومُ المكاشفةِ ، وهيَ أرفعُ مِنْ علومِ المعاملةِ ، بلْ علومُ المعاملةِ دونَ المعاملةِ ؛ لأنَّها ترادُ للمعاملةِ ، ففائدتُها إصلاحُ العملِ ، وإنَّما فضلُ العالمِ بالمعاملةِ على العابدِ إذا كانَ علمُهُ ممَّا يعمُّ نفعُهُ ، فيكونُ بالإضافةِ إلىٰ عملٍ خاصٍّ أفضلَ ، وإلا . . فالعلمُ القاصرُ بالعملِ ليسَ بأفضلَ مِنَ العملِ القاصرِ ، فنقولُ :

فائدةُ إصلاحِ العملِ إصلاحُ حالِ القلبِ ، وفائدةُ إصلاحِ حالِ القلبِ أنْ ينكشفَ لهُ جلالُ اللهِ تعالىٰ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، فأرفعُ علومِ المكاشفةِ معرفةُ اللهِ سبحانه وتعالىٰ ، وهيَ الغايةُ التي تُطلبُ لذاتِها ؛ فإنَّ السعادةَ تُنالُ بها ، بلْ هيَ عينُ السعادةِ ، ولكنْ قدْ لا يشعرُ القلبُ في الدنيا بأنَّها عينُ السعادةِ ، وإنَّما يشعرُ بها في الآخرةِ ، فهيَ المعرفةُ الحرَّةُ التي لا قيدَ عليها ، فلا تتقيَّدُ بغيرِها ، وكلُّ ما عداها مِنَ المعارفِ عبيدٌ وخدمٌ بالإضافةِ إليها ، فإنَّها إنَّما تُرادُ لأجلِها ، ولما كانَتْ مرادةً لأجلِها . . كانَ تفاوتُها بحسَبِ نفعِها في الإفضاءِ إلىٰ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ بعضَ المعارفِ يفضي إلىٰ بعضٍ ؛ إمَّا بواسطةٍ وإمَّا بوسائطَ كثيرةٍ ، فكلَّما كانَتِ الوسائطُ بينَهُ وبينَ معرفةِ اللهِ تعالىٰ أقلَّ . . فهيَ أفضلُ .

وأمَّا الأحوالُ . . فنعني بها أحوالَ القلبِ في تصفيتِهِ وتطهيرِهِ عنْ شوائبِ الدنيا وشواغلِ الخلقِ ، حتَّىٰ إذا طهرَ وصفا . . اتضحَ لهُ حقيقةُ الحقِّ .

فإذاً ؛ فضائلُ الأحوالِ بقدْرِ تأثيرِها في إصلاحِ القلبِ وتطهيرِهِ وإعدادِهِ لأنْ تحصلَ لهُ علومُ المكاشفةِ ، وكما أنَّ تصقيلَ المرآةِ يحتاجُ إلىٰ أنْ يتقدَّمَ علىٰ تمامِهِ أحوالٌ للمرآةِ ، بعضُها أقربُ إلى الصقالةِ مِنْ بعضٍ . . فكذلكَ أحوالُ القلبِ ، فالحالةُ القريبةُ أو المقرِّبةُ مِنْ صفاءِ القلبِ هيَ أفضلُ ممَّا دونَها لا محالةَ ؛ بسببِ القربِ مِنَ المقصودِ .

وهكذا ترتيبُ الأعمالِ ؛ فإنَّ تأثيرَها في تأكيدِ صفاءِ القلبِ وجلبِ الأحوالِ إليهِ ، وكلُّ عملٍ إمَّا أنْ يجلبَ إليهِ حالةً مانعةً مِنَ المكاشفةِ ،

موجبةً لظلمةِ القلبِ ، جاذبةً إلىٰ زخارفِ الدنيا ، وإمَّا أنْ يجلبَ إليهِ حالةً مهيِّئةً للمكاشفةِ ، موجبةً صفاءَ القلبِ وقطعَ علائقِ الدنيا عنهُ ، واسمُ الأوَّلِ المعصيةُ ، واسمُ الثاني الطاعةُ .

والمعاصي مِنْ حيثُ التأثيرُ في ظلمةِ القلبِ وقساوتِهِ متفاوتةٌ ، وكذا الطاعاتُ في تنويرِ القلبِ وتصفيتِهِ ، فدرجاتُها بحسَبِ درجاتِ تأثيرِها ، وذلكَ يختلفُ باختلافِ الأحوالِ ، وذلكَ أنَّا بالقولِ المطلقِ ربما نقولُ : الصلاةُ النافلةُ أفضلُ مِنْ كلِّ عبادةٍ نافلةٍ ، وإنَّ الحجَّ أفضلُ مِنَ الصدقةِ ، وإنَّ قيامَ الليلِ أفضلُ مِنْ غيرِهِ .

ولكنَّ التحقيقَ فيهِ : أنَّ الغنيَّ الذي معَهُ مالٌ وقدْ غلبَهُ البخلُ وحبُّ المالِ علىٰ إمساكِهِ . . فإخراجُ درهمٍ لهُ أفضلُ مِنْ قيامِ ليالٍ وصيامِ أيامٍ ؛ لأنَّ الصيامَ يليقُ بمَنْ غلبَتْهُ شهوةُ البطنِ فأرادَ كسرَها ، أوْ منعَهُ الشبعُ عنْ صفاءِ الفكرِ في علومِ المكاشفةِ فأرادَ تصفيةَ القلبِ بالجوعِ ، فأمَّا هـٰذا المدبرُ إذا لمْ تكنْ حالُهُ هـٰذهِ الحالَ . . فليسَ يستضرُّ بشهوةِ بطنِهِ ، ولا هوَ مشتغلٌ بنوعِ فكرٍ يمنعُهُ الشبعُ منهُ ، فاشتغالُهُ بالصومِ خروجٌ منهُ عنْ حالِهِ إلىٰ حالِ غيرِهِ ، وهوَ كالمريضِ الذي يشكو وجعَ البطنِ ، إذا استعملَ دواءَ الصداعِ . . لَمْ ينتفعْ بهِ ، بلْ حقُّهُ أنْ ينظرَ في المهلكِ الذي استولىٰ عليهِ ، والشحُّ المطاعُ مِنْ جملةِ المهلكاتِ ، ولا يزيلُ صيامُ مئةِ سنةٍ وقيامُ ألفِ ليلةٍ منهُ ذرَّةً ، بلْ لا يزيلُهُ إلا إخراجُ المالِ ، فعليهِ أنْ يتصدَّقَ بما معَهُ ، وتفصيلُ هـٰذا ممَّا ذكرناهُ في ربعِ المهلكاتِ ، فليُرجعْ إليهِ .

فيهلَكَ . . فلهُ غرضٌ في الترياقِ ، ولهُ غرضٌ في حفْظِ الولدِ ، فواجبٌ عليهِ أنْ يزنَ غرضَهُ في الترياقِ بغرضِهِ في حفْظِ الولدِ ، فإذا كانَ يقدرُ على الصبرِ عنِ الترياقِ ولا يستضرُّ بهِ ضرراً كثيراً ، ولوْ أخذَها لأخذها الصبيُّ ، ويعظمُ ضررُهُ بهلاكِهِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يهربَ عنِ الحيَّةِ إذا رآها ويشيرُ على الصبيِّ بالهربِ ، ويقبِّحُ صورتَها في عينِهِ ، ويعرِّفُهُ أنَّ فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منهُ أحدٌ ، ولا يحدِّثُهُ أصلاً بما فيها مِنْ نفعِ الترياقِ ؛ فإنَّ ذلكَ ربما يغرُّهُ فيقدمُ عليهِ مِنْ غيرِ تمامِ المعرفةِ .

وكذلكَ الغوَّاصُ إذا علمَ أنَّهُ لوْ غاصَ في البحرِ بمرأىً مِنْ ولدِهِ لاتبعَهُ وهلكَ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يحذِّرَ الصبيَّ ساحلَ البحرِ والنهرِ ، فإنْ كانَ لا ينزجرُ الصبيُّ بمجرَّدِ الزجرِ مهما رأىٰ أباهُ يحومُ حولَ الساحلِ . . فواجبٌ عليهِ أنْ يبعُدَ مِنَ الساحلِ معَ الصبيِّ ولا يقربَ منهُ بينَ يديهِ .

فكذلكَ الأمَّةُ في حجرِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ كالصبيانِ الأغبياءِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا لكُمْ مثلُ الوالدِ لولدِهِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّكُمْ تتهافتونَ على النارِ تهافتَ الفراشِ وأنا آخذٌ بحُجزِكُمْ »[2] .

وحظُّهُمُ الأوفرُ في حفْظِ أولادِهِمْ عنِ المهالكِ ، فإنَّهُمْ لمْ يُبعثوا إلا

---

(١) رواه أبو داوود (٨) ، والنسائي (١/ ٣٨) ، وابن ماجه (٣١٣) .
(٢) رواه البخاري (٦٤٨٣) ، ومسلم (٢٢٨٤) .

﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ، فكيفَ لا يكونُ الفعلُ والإنفاقُ هوَ الأفضلَ ؟

فاعلمْ : أنَّ الطبيبَ إذا أثنىٰ على الدواءِ . . لمْ يدلَّ علىٰ أنَّ الدواءَ مرادٌ لعينِهِ ، أوْ علىٰ أنَّهُ أفضلُ مِنَ الصحةِ والشفاءِ الحاصلِ بهِ ، ولكنَّ الأعمالَ علاجٌ لمرضِ القلوبِ ، ومرضُ القلوبِ ممَّا لا يُشعرُ بهِ غالباً ، فهوَ كبرصٍ علىٰ وجهِ مَنْ لا مرآةَ مَعَهُ ، فإنَّهُ لا يشعرُ بهِ ، ولوْ ذكرَ لهُ لا يصدِّقُ بهِ ، فالسبيلُ معَهُ المبالغةُ في الثناءِ علىٰ غسلِ الوجهِ بماءِ الوردِ مثلاً إنْ كانَ ماءُ الورد يزيلُ البرصَ ؛ حتَّىٰ يستحثَّهُ فرطُ الثناءِ على المواظبةِ عليهِ ، فيزولَ مرضُهُ ، فإنَّهُ لوْ ذُكِرَ لهُ أنَّ المقصودَ زوالُ البرصِ عنْ وجهِكَ . . ربما تركَ العلاجَ ، وزعمَ أنَّ وجهَهُ لا عيبَ فيهِ .

❁ ❁ ❁

ولنضربْ مثلاً أقربَ مِنْ هـٰذا فنقولُ :

مَنْ لهُ ولدٌ علَّمَهُ العلمَ والقرآنَ ، وأرادَ أنْ يثبتَ ذلكَ في حفظِهِ بحيثُ لا يزولُ عنهُ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ أمرَهُ بالتكرارِ والدراسةِ ليبقىٰ لهُ محفوظاً . . لقالَ : إنَّهُ محفوظٌ ، ولا حاجةَ بي إلىٰ تكرارٍ ودراسةٍ ؛ لأنَّهُ يظنُّ أنَّ ما يحفظُهُ في الحالِ يبقىٰ كذلكَ أبداً ، وكانَ لهُ عبيدٌ ، فأمرَ الولدَ بتعليمِ العبيدِ ، ووعدَهُ علىٰ ذلكَ بالجميلِ ؛ لتتوفَّرَ داعيتُهُ علىٰ كثرةِ التكرارِ بالتعليمِ ، فربما يظنُّ الصبيُّ المسكينُ أنَّ المقصودَ تعليمُ العبيدِ القرآنَ ، وأنَّهُ قدِ استخدمَ لتعليمِهِمْ ، فيشكلُ عليهِ الأمرُ فيقولُ : ما بالي قدِ استخدمتُ

لأجلِ العبيدِ وأنا أجلُّ منهُمْ وأعزُّ عندَ الوالدِ ؟ وأعلمُ أنَّ أبي لوْ أرادَ تعليمَ العبيدِ . . لقدرَ عليهِ دونَ تكليفي ؟ وأعلمُ أنَّهُ لا نقصانَ لأبي بفقدِ هؤلاءِ العبيدِ فضلاً عنْ عدمِ علمِهِمْ بالقرآنِ ؟!

فربما يتكايسُ هٰذا المسكينُ فيتركُ تعليمَهُمُ اعتماداً على استغناءِ أبيهِ وعلىٰ كرمِهِ في العفوِ عنهُ ، فينسى العلمَ والقرآنَ ، ويبقىٰ مدبراً محروماً مِنْ حيثُ لا يدري .

وقدِ انخدعَ بمثلِ هٰذا الخيالِ طائفةٌ ، وسلكوا طريقَ الإباحةِ ، وقالوا : إنَّ اللهَ تعالىٰ غنيٌّ عنْ عبادتِنا وعنْ أنْ يستقرضَ منَّا ، فأيُّ معنىً لقولِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ولوْ شاءَ اللهُ إطعامَ المساكينِ . . لأطعمَهُمْ ؟ فلا حاجةَ بنا إلىٰ صرفِ أموالِنا إليهِمْ ، كما قالَ تعالىٰ حكايةً عنِ الكفارِ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ ، وقالوا أيضاً : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ ، فانظرْ كيفَ كانوا صادقينَ في كلامِهِمْ وكيفَ هلكوا بصدقِهِمْ .

فسبحانَ مَنْ إذا شاءَ . . أهلكَ بالصدقِ ، وإذا شاءَ أسعدَ بالجهلِ ، يضلُّ بهِ كثيراً ويهدي بهِ كثيراً !

فهؤلاءِ لمَّا ظنُّوا أنَّهُمُ استخدموا لأجلِ المساكينِ والفقراءِ ، أوْ لأجلِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ قالوا : لا حظَّ لنا في المساكينِ ، ولا حظَّ للهِ فينا وفي أموالِنا ، سواءٌ أنفقنا أوْ أمسكنا . . هلكوا كما هلكَ الصبيُّ لمَّا ظنَّ أنَّ مقصودَ الوالدِ

استخدامُهُ لأجلِ العبيدِ ، ولمْ يشعرْ بأنَّهُ كانَ المقصودُ منهُ ثباتَ صفةِ العلمِ في نفسِهِ ، وتأكدَهُ في قلبِهِ ، حتَّىٰ يكونَ ذلكَ سببَ سعادتِهِ في الدنيا ، وإنَّما كانَ ذلكَ مِنَ الوالدِ تلطُّفاً بهِ في استجرارِهِ إلىٰ ما فيهِ سعادتُهُ .

فهٰذا المثالُ يبيِّنُ لكَ ضلالَ مَنْ ضلَّ مِنْ هٰذا الطريقِ .

فإذاً ؛ المسكينُ الآخذُ لمالِكَ يستوفي بواسطةِ المالِ خبْثَ البخلِ وحبَّ الدنيا مِنْ باطنِكَ ، فإنَّهُ مهلكٌ لكَ ، فهوَ كالحجَّامِ ، يستخرجُ الدمَ منكَ ليخرجَ بخروجِ الدمِ العلَّةَ المهلكَةِ مِنْ باطنِكَ ، فالحجَّامُ خادمٌ لكَ ، لا أنتَ خادمٌ للحجَّامِ ، ولا يخرجُ الحجَّامُ عنْ كونِهِ خادماً ؛ بأنْ يكونَ لهُ غرضٌ في أنْ يصنعَ شيئاً بالدمِ ، ولمَّا كانتِ الصدقاتُ مطهرةً للبواطنِ ، ومزكيةً لها عنْ خبائثِ الصفاتِ . امتنعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أخذِها ، وانتهىٰ عنها ؛ كما نهىٰ عنْ كسبِ الحجَّامِ[1] ، وسمَّاها : أوساخَ أموالِ الناسِ ، وشرَّفَ أهلَ بيتِهِ بالصيانةِ عنها[2] .

والمقصودُ : أنَّ الأعمالَ مؤثراتٌ في القلبِ كما سبقَ في ربعِ المهلكاتِ ، والقلبُ بحسَبِ تأثيرِها يستعدُّ لقبولِ الهدايةِ ونورِ المعرفةِ ، فهٰذا هوَ القولُ الكلِّيُّ والقانونُ الأصليُّ الذي ينبغي أنْ يُرجعَ إليهِ في معرفةِ فضائلِ الأعمالِ والأحوالِ والمعارفِ .

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٣١٠) ، وابن ماجه (٢١٦٥) .

(٢) كما روىٰ ذلك مسلم (١٠٧٢) .

فلنرجعِ الآنَ إلىٰ خصوصِ ما نحنُ فيهِ مِنَ الصبرِ والشكرِ ، فنقولُ :

في كلِّ واحدٍ منهُما معرفةٌ وحالٌ وعملٌ ، فلا يجوزُ أنْ تُقابلَ المعرفةُ في أحدِهما بالحالِ أوِ العملِ في الآخرِ ، بلْ يُقابلُ كلُّ واحدٍ منها بنظيرِهِ ، حتَّىٰ يظهرَ التناسبُ ، وبعدَ التناسبِ يظهرُ الفضلُ .

ومهما قُوبلَتْ معرفةُ الشاكرِ بمعرفةِ الصابرِ ربما رجعا إلىٰ معرفةٍ واحدةٍ ؛ إذْ معرفةُ الشاكرِ أنْ يرىٰ نعمةَ العينينِ مثلاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ومعرفةُ الصابرِ أنْ يرى العمىٰ مِنَ اللهِ ، وهما معرفتانِ متلازمتانِ ومتساويتانِ ، هـٰذا إنِ اعتُبِرَ في البلاءِ والمصائبِ ، وقدْ بيَّنَّا أنَّ الصبرَ قدْ يكونُ على الطاعةِ وعنِ المعصيةِ ، وفيهِما يتَّحدُ الصبرُ والشكرُ ؛ لأنَّ الصبرَ على الطاعةِ هوَ عينُ شكرِ الطاعةِ ؛ لأنَّ الشكرَ يرجعُ إلىٰ صرْفِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ ما هوَ المقصودُ منها بالحكمةِ ، والصبرَ يرجعُ إلىٰ ثباتِ باعثِ الدينِ في مقابلةِ باعثِ الهوىٰ ، فالصبرُ والشكرُ فيهِ اسمانِ لمسمّىً واحدٍ باعتبارينِ مختلفينِ ، فثباتُ باعثِ الدينِ في مقابلةِ باعثِ الهوىٰ يُسمَّىٰ صبراً بالإضافةِ إلىٰ باعثِ الهوىٰ ، ويُسمَّىٰ شكراً بالإضافةِ إلىٰ باعثِ الدينِ ؛ إذْ باعثُ الدينِ إنَّما خُلِقَ لهـٰذهِ الحكمةِ ، وهوَ أنْ يصرعَ بهِ باعثَ الشهوةِ ، فقدْ صرفَهُ إلىٰ مقصودِ الحكمةِ ، فهُما عبارتانِ عنْ معنىً واحدٍ ، فكيفَ يفضلُ الشيءُ علىٰ نفسِهِ ؟!

فإذاً ؛ مجاري الصبرِ ثلاثةٌ : الطاعةُ ، والمعصيةُ ، والبلايا ، وقدْ ظهرَ حكمُهُما في الطاعةِ والمعصيةِ .

وأمَّا البلاءُ . . فهوَ عبارةٌ عنْ فقْدِ نعمةٍ ، والنعمةُ إمَّا أنْ تقعَ ضروريةً ؛ كالعينينِ مثلاً ، وإمَّا أنْ تقعَ في محلِّ الحاجةِ ؛ كالزيادةِ علىٰ قدْرِ الكفايةِ مِنَ المالِ .

أمَّا العينانِ . . فصبرُ الأعمىٰ عنهُما بألا يُظهرَ الشكوىٰ ، ويظهرَ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ، ولا يترخَّصَ بسببِ العمىٰ في بعضِ المعاصي ، وشكرُ البصيرِ عليهِما مِنْ حيثُ العملُ بأمرينِ :

أحدُهُما : ألا يستعينَ بهِما علىٰ معصيةٍ .

والآخرُ : أنْ يستعملَهُما في الطاعةِ .

وكلٌّ واحدٍ مِنَ الأمرينِ لا يخلو عنِ الصبرِ ؛ فإنَّ الأعمىٰ كُفِيَ الصبرَ عنِ الصورِ الجميلةِ لأنَّهُ لا يراها ، والبصيرُ إذا وقعَ بصرُهُ علىٰ جميلٍ فصبرَ . . كانَ شاكراً لنعمةِ العينينِ ، وإنْ أتبعَ النظرَ . . كفرَ نعمةَ العينينِ ، فقدْ دخلَ الصبرُ في شكرِهِ .

وكذا إذا استعانَ بالعينينِ على الطاعةِ . . فلا بدَّ أيضاً فيهِ مِنْ صبرٍ على الطاعةِ ، ثمَّ قدْ يشكرُها بالنظرِ إلىٰ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، ليتوصَّلَ بهِ إلىٰ معرفةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فيكونَ هٰذا الشكرُ أفضلَ مِنَ الصبرِ .

ولولا هٰذا . . لكانَتْ رتبةُ شعيبٍ عليهِ السلامُ مثلاً ـ وقدْ كانَ ضريراً ـ من الأنبياءِ فوقَ رتبةِ موسىٰ عليهِما السلامُ وغيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ؛ لأنَّهُ صبرَ علىٰ فقْدِ البصرِ ، وموسىٰ عليهِ السلامُ لمْ يصبرْ مثلاً ، ولكانَ الكمالُ في أنْ يُسلبَ

الإنسانُ الأطرافَ كلَّها ويُتركَ كلحمٍ علىٰ وَضَمٍ ، وذلكَ محالٌ جداً ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ هـٰذهِ الأعضاءِ آلةٌ في الدينِ ، فيفوتُ بفواتِها ذلكَ الركنُ مِنَ الدينِ ، وشكرُها استعمالُها فيما هيَ آلةٌ فيهِ مِنَ الدينِ ، وذلكَ لا يكونُ إلا بصبرٍ .

وأمَّا ما يقعُ في محلِّ الحاجةِ ؛ كالزيادةِ على الكفايةِ مِنَ المالِ . . فإنَّهُ إذا لمْ يُؤتَ إلا قدْرَ الضرورةِ وهوَ محتاجٌ إلىٰ ما وراءَهُ . . ففي الصبرِ عنهُ مجاهدةٌ ، وهوَ جهادُ الفقراءِ ، ووجودُ الزيادةِ نعمةٌ ، وشكرُها أنْ تُصرفَ إلى الخيراتِ ، أوْ ألا تُستعملَ في المعصيةِ ، فإنْ أُضيفَ الصبرُ إلى الشكرِ الذي هوَ صرْفٌ إلى الطاعةِ . . فالشكرُ أفضلُ ؛ لأنَّهُ تضمَّنَ الصبرَ أيضاً ، وفيهِ فرحٌ بنعمةِ اللهِ تعالىٰ ، وفيهِ احتمالُ ألمٍ في صرفِهِ إلى الفقراءِ ، وترْكُ صرفِهِ إلى التنعُّمِ المباحِ ، وكانَ الحاصلُ يرجعُ إلىٰ أنَّ شيئينِ أفضلُ مِنْ شيءٍ واحدٍ ، وأنَّ الجملةَ أعلىٰ رتبةً مِنَ البعضِ ، وهـٰذا فيهِ خللٌ ، إذْ لا تصحُّ الموازنةُ بينَ الجملةِ وبينَ أبعاضِها .

وأمَّا إذا كانَ شكرُهُ بألا يستعينَ بهِ علىٰ معصيةٍ ، بلْ يصرفُهُ إلى التنعُّمِ المباحِ . . فالصبرُ هـٰهنا أفضلُ مِنَ الشكرِ ، والفقيرُ الصابرُ أفضلُ مِنَ الغنيِّ الممسكِ مالَهُ الصارفِ لهُ إلى المباحاتِ ، لا مِنَ الغنيِّ الصارفِ مالَهُ إلى الخيراتِ ؛ لأنَّ الفقيرَ قدْ جاهدَ نفسَهُ وكسرَ نهمتَها ، وأحسنَ الرضا علىٰ بلاءِ اللهِ تعالىٰ ، وهـٰذهِ الحالةُ تستدعي ـ لا محالةَ ـ قوَّةً ، والغنيُّ أتبعَ نهمتَهُ وأطاعَ شهوتَهُ ، ولكنَّهُ اقتصرَ على المباحِ ، والمباحُ فيهِ مندوحةٌ عنِ الحرامِ ، ولكنْ لا بدَّ مِنْ قوَّةٍ في الصبرِ عنِ الحرامِ أيضاً ، إلا أنَّ القوَّةَ التي عنها

يصدرُ صبرُ الفقيرِ أعلىٰ وأتمُّ مِنْ هـٰذهِ القوَّةِ التي عنها يصدرُ الاقتصارُ في التنعُّمِ على المباحِ ، والشرفُ لتلكَ القوَّةِ التي يدلُّ العملُ عليها ، فإنَّ الأعمالَ لا تُرادُ إلا لأحوالِ القلوبِ ، وتلكَ القوَّةُ حالةٌ للقلبِ تختلفُ بحسَبِ قوَّةِ اليقينِ والإيمانِ ، فما دلَّ علىٰ زيادةِ قوَّةٍ في الإيمانِ فهوَ أفضلُ لا محالةَ .

وجميعُ ما وردَ مِنْ تفضيلِ أجرِ الصبرِ علىٰ أجرِ الشكرِ في الآياتِ والأخبارِ إنَّما أُريدَ بهِ هـٰذهِ الرتبةُ على الخصوصِ ؛ لأنَّ السابقَ إلىٰ أفهامِ الناسِ مِنَ النعمةِ الأموالُ والغنىٰ بها ، والسابقَ إلى الأفهامِ مِنَ الشكرِ أنْ يقولَ الإنسانُ : (الحمدُ للهِ) ، ولا يستعينَ بالنعمةِ على المعصيةِ ، لا أنْ يصرفَها إلى الطاعةِ ، فإذاً ؛ الصبرُ أفضلُ مِنَ الشكرِ ؛ أي : الصبرُ الذي تفهمُهُ العامَّةُ أفضلُ مِنَ الشكرِ الذي تفهمُهُ العامَّةُ .

وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ على الخصوصِ أشارَ الجنيدُ رحمَهُ اللهُ حيثُ سُئِلَ عنِ الصبرِ والشكرِ أيُّهُما أفضلُ ؟ فقالَ : (ليسَ مدحُ الغنيِّ بالوجودِ ، ولا مدحُ الفقيرِ بالعدمِ ، وإنَّما المدحُ في الاثنينِ قيامُهُما بشروطِ ما عليهِما ، فشرطُ الغنيِّ يصحبُهُ فيما عليهِ أشياءُ تلائمُ صفتَهُ وتمتعُها وتلذِّذُها ، والفقيرُ يصحبُهُ فيما عليهِ أشياءُ تلائمُ صفتَهُ وتقبضُها وتزعجُها ، فإذا كانَ الاثنانِ قائمينِ للهِ عزَّ وجلَّ بشرطِ ما عليهِما . . كانَ الذي آلمَ صفتَهُ وأزعجَها أتمَّ حالاً ممَّنْ متَّعَ صفتَهُ ونعَّمَها)[1] .

---

(١) قوت القلوب (١/٢٠١) .

والأمرُ علىٰ ما قالَهُ ، وهوَ صحيحٌ مِنْ جملةِ أقسامِ الصبرِ والشكرِ في القسمِ الأخيرِ الذي ذكرناهُ ، وهوَ لمْ يردْ سواهُ .

ويُقالُ : كانَ أبو العباسِ بنُ عطاءٍ قدْ خالفَهُ في ذلكَ وقالَ : (الغنيُّ الشاكرُ أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ) ، فدعا عليهِ الجنيدُ ، فأصابَهُ ما أصابَهُ مِنَ البلاءِ مِنْ قتلِ أولادِهِ وإتلافِ أموالِهِ وزوالِ عقلِهِ أربعَ عشرةَ سنةً ، فكانَ يقولُ : دعوةُ الجنيدِ أصابَتْني ، ورجعَ إلىٰ تفضيلِ الفقيرِ الصابرِ على الغنيِّ الشاكرِ[1] .

ومهما لاحظتَ المعانيَ التي ذكرناها . . علمتَ أنَّ لكلٍّ واحدٍ مِنَ القولينِ وجهاً في بعضِ الأحوالِ ، فربَّ فقيرٍ صابرٍ أفضلُ مِنْ غنيٍّ شاكرٍ كما سبقَ ، وربَّ غنيٍّ شاكرٍ أفضلُ مِنْ فقيرٍ صابرٍ ، وذلكَ هوَ الغنيُّ الذي يرىٰ نفسَهُ مثلَ الفقيرِ ، إذْ لا يمسكُ لنفسِهِ مِنَ المالِ إلا قدْرَ الضرورةِ ، والباقي يصرفُهُ إلى الخيراتِ ، أوْ يمسكُهُ على اعتقادِ أنَّهُ خازنُ المحتاجينَ والمساكينَ ، وإنَّما ينتظرُ حاجةً تسنحُ حتَّىٰ يصرفَ إليها ، ثمَّ إذا صرفَ . . لمْ يصرفْهُ لطلبِ جاهٍ وصيتٍ ، ولا لتقليدِ منَّةٍ ، بلْ أداءً لحقِّ اللهِ تعالىٰ في تفقُّدِ عبادِهِ ، فهٰذا أفضلُ مِنَ الفقيرِ الصابرِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فهٰذا لا يثقلُ على النفسِ ، والفقيرُ يثقلُ عليهِ الفقرُ ؛ لأنَّ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠١) .

هـٰذا يستشعرُ لذَّةَ القدرةِ ، وذاكَ يستشعرُ ألمَ الصبرِ ، فإنْ كانَ متألِّماً بفراقِ المالِ . . فينجبرُ ذلكَ بلذَّتِهِ في القدرةِ على الإنفاقِ .

فاعلمْ : أنَّ الذي نراهُ أنَّ مَنْ ينفقُ مالَهُ عنْ رغبةٍ وطيبِ نفسٍ أكملُ حالاً ممَّنْ ينفقُهُ وهوَ بخيلٌ بهِ ، وإنَّما يقتطعُهُ عنْ نفسِهِ قهراً ، وقدْ ذكرنا تفصيلَ هـٰذا فيما سبقَ مِنْ كتابِ التوبةِ ، فإيلامُ النفسِ ليسَ مطلوباً لعينِهِ ، بلْ لتأديبِها ، وذلكَ يضاهي ضرْبَ كلبِ الصيدِ ، والكلبُ المتأدِّبُ أكملُ مِنَ الكلبِ المحتاجِ إلى الضرْبِ وإنْ كانَ صابراً على الضربِ ، ولذلكَ يحتاجُ إلى الإيلامِ والمجاهدةِ في البدايةِ ، ولا يحتاجُ إليهِما في النهايةِ ، بلِ النهايةُ أنْ يصيرَ ما كانَ مؤلماً في حقِّهِ لذيذاً عندَهُ ، كما يصيرُ التعلُّمُ عندَ الصبيِّ العاقلِ لذيذاً وقدْ كانَ مؤلماً لهُ أوَّلاً ، ولكنْ لمَّا كانَ الناسُ كلُّهُمْ إلا الأقلينَ في البدايةِ بلْ قبلَ البدايةِ بكثيرٍ كالصبيانِ . . أطلقَ الجنيدُ القولَ بأنَّ الذي يؤلمُ صفتَهُ أفضلُ ، وهوَ كما قالَ صحيحٌ فيما أرادَهُ مِنْ عمومِ الخلقِ .

فإذاً ؛ إذا كنتَ لا تفصِّلُ الجوابَ ، وتطلقُهُ لإرادةِ الأكثرِ . . فأطلقِ القولَ بأنَّ الصبرَ أفضلُ مِنَ الشكرِ ؛ فإنَّهُ صحيحٌ بالمعنى السابقِ إلى الأفهامِ .

فأمَّا إذا أردتَ التحقيقَ . . ففصِّلْ ، فإنَّ للصبرِ درجاتٍ أقلُّها تركُ الشكوىٰ معَ الكراهةِ ، ووراءَها الرضا ، وهوَ مقامٌ وراءَ الصبرِ ، ووراءَهُ الشكرُ على البلاءِ ، وهوَ وراءَ الرضا ، إذِ الصبرُ معَ التألُّمِ والرضا يمكنُ بما لا ألمَ فيهِ ولا فرحَ ، والشكرُ لا يمكنُ إلا علىٰ محبوبٍ مفروحٍ بهِ .

وكذلكَ للشكرِ درجاتٌ كثيرةٌ ، ذكرنا أقصاها ، ويدخلُ في جملتِها أمورٌ دونَها ، فإنَّ حياءَ العبدِ مِنْ تتابع نعَمِ اللهِ عليهِ شكرٌ ، ومعرفتُهُ بتقصيرِهِ عنِ الشكرِ شكرٌ ، والاعتذارُ مِنْ قلَّةِ الشكرِ شكرٌ ، والمعرفةُ بعظيمِ حلْمِ اللهِ وكنفِ سترِهِ شكرٌ ، والاعترافُ بأنَّ النعَمَ ابتداءً مِنَ اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ استحقاقٍ شكرٌ ، والعلمُ بأنَّ الشكرَ أيضاً نعمةٌ مِنْ نعمِ اللهِ وموهبةٌ منهُ شكرٌ ، وحسنُ التواضعِ للنعَمِ والتذلُّلُ فيها شكرٌ ، وشكرُ الوسائطِ شكرٌ ؛ إذْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ لمْ يشكرِ الناسَ .. لمْ يشكرِ اللهَ »[1] ، وقدْ ذكرنا حقيقةَ ذلكَ في كتابِ أسرارِ الزكاةِ ، وقلَّةُ الاعتراضِ وحسنُ الأدبِ بينَ يديِ المنعِمِ شكرٌ ، وتلقِّي النعمِ بحسْنِ القبولِ واستعظامُ صغيرِها شكرٌ .

فما يندرجُ مِنَ الأعمالِ والأحوالِ تحتَ اسمِ الشكرِ والصبرِ لا تنحصرُ آحادُها ، وهيَ درجاتٌ مختلفةٌ ، فكيفَ يمكنُ إجمالُ القولِ بتفضيلِ أحدِهما على الآخرِ إلا علىٰ سبيلِ إرادةِ الخصوصِ باللفظِ العامِّ كما وردَ في الأخبارِ والآثارِ ؟!

وقدْ رُوِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : رأيتُ في بعضِ الأسفارِ شيخاً كبيراً قدْ طعنَ في السنِّ ، فسألتُهُ عنْ حالِهِ ، فقالَ : إنِّي كنتُ في ابتداءِ عمري أهوى ابنةَ عمٍّ لي ، وهيَ كذلكَ كانَتْ تهواني ، فاتفقَ أنَّها زُوِّجَتْ منِّي ، فليلةَ زفافِها قلتُ : تعالَيْ حتَّىٰ نحييَ هـٰذهِ الليلةَ شكراً للهِ تعالىٰ علىٰ ما جمعَنا ،

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .

فصلَّينا تلكَ الليلةَ ، ولمْ يتفرَّغْ أحدُنا إلىٰ صاحبِهِ ، فلمَّا كانَتِ الليلةُ الثانيةُ . . قلنا مثلَ ذلكَ ، فصلينا طولَ الليلِ ، فمنذُ سبعينَ أوْ ثمانينَ سنةً نحنُ علىٰ تلكَ الحالةِ كلَّ ليلةٍ ، أليسَ كذلكَ يا فلانةُ ؟ قالتِ العجوزُ : هوَ كما يقولُ الشيخُ[1] .

فانظرْ إليهِما لوْ صبرا علىٰ بلاءِ الفرقةِ أنْ لوْ لمْ يجمعِ اللهُ بينَهُما ، وانسبْ صبرَ الفرقةِ إلىٰ شكرِ الوصالِ علىٰ هـٰذا الوجهِ . . فلا يخفىٰ عليكَ أنَّ هـٰذا الشكرَ أفضلُ .

فإذاً ؛ لا وقوفَ علىٰ حقائقِ المفضلاتِ إلا بتفصيلٍ كما سبقَ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

تمّ كتاب الصبر والشكر

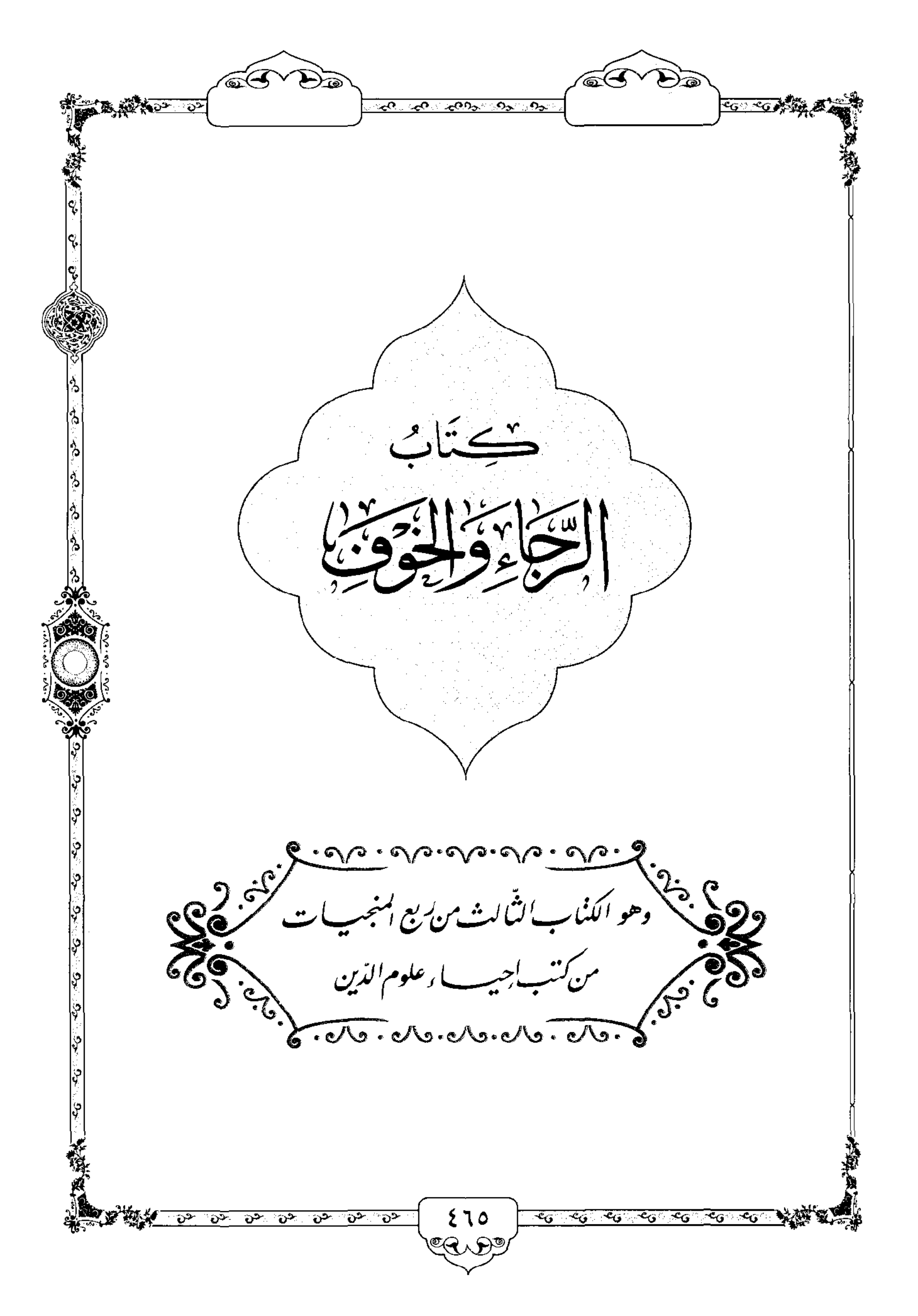
وهو الكتاب الثّاني من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله وحده ، وصلّى الله على نبيّنا محمّدٍ وآله أجمعين وسلّم

يتلوه كتاب الرّجاء والخوف

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣١٥) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ١٦٣) : (وفائدة ذكر العجوز والشيخ الإعلام بأنهما داما على الاشتغال بالله من حالة الصبا إلىٰ تلك الحالة) .



كتاب الرجاء والخوف

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب الرّجاء والخوف

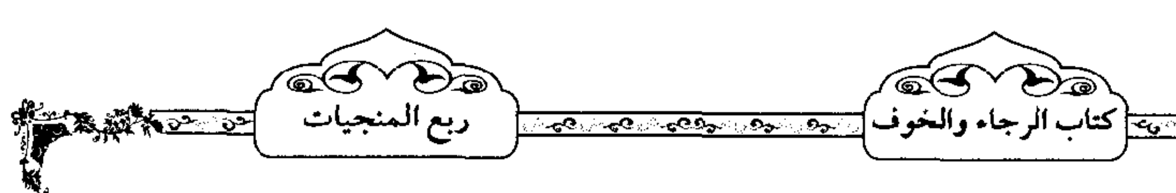
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ المرجوِّ لطفُهُ وثوابُهُ ، المَخُوفِ مكرُهُ وعقابُهُ ، الذي عَمَرَ قلوبَ أوليائِهِ برَوْحِ رجائِهِ ، حتَّىٰ ساقَهُمْ بلطائفِ آلائِهِ إلى النزولِ بفِنائِهِ ، والعدولِ عنْ دارِ بلائِهِ ، التي هيَ مستقرُّ أعدائِهِ ، وصرفَ بسياطِ التخويفِ وزجرِهِ العنيفِ وجوهَ المعرضينَ عنْ حضرتِهِ إلىٰ دارِ ثوابِهِ وكرامتِهِ ، وصدَّهُمْ عنِ التعرُّضِ لأئمَّتِهِ ، والتهدُّفِ لسخطِهِ ونقمتِهِ ، قوداً لأصنافِ الخلقِ بسلاسلِ القهرِ والعنفِ وأزمَّةِ الرفْقِ واللطفِ إلىٰ جنَّتِهِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ أنبيائِهِ وخيرِ خليقتِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ وعترتِهِ .

أما بعدُ :

فإنَّ الرجاءَ والخوفَ جناحانِ بهما يطيرُ المقرَّبونَ إلىٰ كلِّ مقامٍ محمودٍ ، ومطيَّتانِ بهما يُقطعُ مِنْ طرقِ الآخرةِ كلُّ عقبةٍ كؤودٍ ، فلا يقودُ إلىٰ قربِ الرحمٰنِ وروحِ الجنانِ معَ كونِهِ بعيدَ الأرجاءِ ، ثقيلَ الأعباءِ ، محفوفاً بمكارهِ القلوبِ ومشاقِّ الجوارحِ والأعضاءِ . . إلا أزمَّةُ الرجاءِ ، ولا يصدُّ عنْ نارِ الجحيمِ والعذابِ المقيمِ معَ كونِهِ محفوفاً بلطائفِ الشهواتِ وعجائبِ



اللذَّاتِ . . إلا سياطُ التخويفِ وسطواتُ التعنيفِ .

فلا بدَّ إذاً مِنْ بيانِ حقيقتِهِما وفضيلتِهِما ، وسبيلِ التوصُّلِ إلى الجمعِ بينَهُما معَ تضادِّهِما وتعانُدِهِما ، ونحنُ نجمعُ ذكرَهُما في كتابٍ واحدٍ مشتملٍ علىٰ شطرينِ :

الشطرُ الأوَّلُ : في الرجاءِ .

والشطرُ الثاني : في الخوفِ .

* * *

الشَّطْرُ الأَوَّلُ
في الرّجاء[1]

أمَّا الشطرُ الأوَّلُ . . فيشتملُ علىٰ بيانِ حقيقةِ الرجاءِ ، وبيانِ فضيلةِ الرجاءِ ، وبيانِ دواءِ الرجاءِ ، والطريقِ الذي يُجتلبُ بهِ الرجاءُ .

بيان حقيقة الرّجاء

اعلمْ : أنَّ الرجاءَ مِنْ جملةِ مقاماتِ السالكينَ ، وأحوالِ الطالبينَ ، وإنَّما يُسمَّى الوصفُ مقاماً إذا ثبتَ وأقامَ ، وإنَّما يُسمَّىٰ حالاً إذا كانَ عارضاً سريعَ الزوالِ ، وكما أنَّ الصفرةَ تنقسمُ إلىٰ ثابتةٍ ؛ كصفرةِ الذهبِ ، وإلىٰ سريعةِ الزوالِ ؛ كصفرةِ الوَجَلِ ، وإلىٰ ما هوَ بينَهُما ؛ كصفرةِ المريضِ . . فكذلكَ صفاتُ القلبِ تنقسمُ هـٰذهِ الأقسامَ ، فالذي هوَ غيرُ ثابتٍ يُسمَّىٰ حالاً ؛ لأنَّهُ يحولُ على القرْبِ ، وهـٰذا جارٍ في كلِّ وصفٍ مِنْ أوصافِ القلبِ[2] .

وغرضُنا الآنَ حقيقةُ الرجاءِ ، فالرجاءُ أيضاً يتمُّ مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ ، فالعلمُ سببٌ يثمرُ الحالَ ، والحالُ يقتضي العملَ ، وكأنَّ الرجاءَ اسمٌ للحالِ مِنْ جملةِ الثلاثةِ .

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) فما يعرف وصف من أوصافه إلا وفيه حال ومقام . « إتحاف » (٩/ ١٦٥) .

وبيانُهُ : أنَّ كلَّ ما يلاقيكَ مِنْ مكروهٍ ومحبوبٍ فينقسمُ إلىٰ موجودٍ في الحالِ ، وإلىٰ موجودٍ فيما مضىٰ ، وإلىٰ منتظرٍ في الاستقبالِ ، فإذا خطرَ ببالِكَ موجودٌ فيما مضىٰ . . سُمِّيَ ذكراً وتذكُّراً ، وإنْ كانَ ما خطرَ بقلبِكَ موجوداً في الحالِ . . سُمِّيَ وجداً وذوقاً وإدراكاً ، وإنَّما سُمِّيَ وجداً لأنَّها حالةٌ تجدُها مِنْ نفسِكَ[1] ، وإنْ كانَ قدْ خطرَ ببالِكَ وجودُ شيءٍ في الاستقبالِ ، وغلبَ ذلكَ علىٰ قلبِكَ . . سُمِّيَ انتظاراً وتوقُّعاً ؛ فإنْ كانَ المنتظرُ مكروهاً . . حصلَ منهُ ألمٌ في القلبِ يُسمَّىٰ خوفاً وإشفاقاً ، وإنْ كانَ محبوباً . . حصلَ مِنِ انتظارِهِ وتعلُّقِ القلبِ بهِ وإخطارِ وجودِهِ بالبالِ لذَّةٌ في القلبِ وارتياحٌ يُسمَّىٰ ذلكَ الارتياحُ رجاءً ، **فالرجاءُ** : هوَ ارتياحُ القلبِ لانتظارِ ما هوَ محبوبٌ عندَهُ .

ولكنْ ذلكَ المحبوبُ المتوقَّعُ لا بدَّ أنْ يكونَ لهُ سببٌ ، فإنْ كانَ انتظارُهُ لأجلِ حصولِ أكثرِ أسبابِهِ . . فاسمُ الرجاءِ عليهِ صادقٌ ، وإنْ كانَ ذلكَ انتظاراً معَ انخرامِ أسبابِهِ واضطرابِها . . فاسمُ الغرورِ والحمقِ عليهِ أصدقُ مِنِ اسمِ الرجاءِ ، وإنْ لمْ تكنِ الأسبابُ معلومةَ الوجودِ ولا معلومةَ الانتفاءِ . . فاسمُ التمنِّي أصدقُ على انتظارِهِ ؛ لأنَّهُ انتظارٌ مِنْ غيرِ سببٍ .

وعلىٰ كلِّ حالٍ فلا يُطلقُ اسمُ الرجاءِ والخوفِ إلا علىٰ ما يُتردَّدُ فيهِ ، أمَّا ما يُقطعُ بهِ . . فلا ؛ إذْ لا يُقالُ : أرجو طلوعَ الشمسِ وقتَ الطلوعِ ،

---

(١) وإنما سمي ذوقاً على التشبيه بالذوق الذي هو تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم ، وإنما سمي إدراكاً لأنه أحاط عليه علماً بكماله . « إتحاف » (٩/ ١٦٥) .

وأخافُ غروبَها وقتَ الغروبِ ؛ لأنَّ ذلكَ مقطوعٌ بهِ ، نعمْ ، يُقالُ : أرجو نزولَ المطرِ وأخافُ انقطاعَهُ .

وقدْ علمَ أربابُ القلوبِ أنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، والقلبُ كالأرضِ ، والإيمانُ كالبذْرِ فيهِ ، والطاعاتُ جاريةٌ مجرىٰ تقليبِ الأرضِ وتطهيرِها ، ومجرىٰ حفرِ الأنهارِ وسياقةِ الماءِ إليها ، والقلبُ المستهترُ بالدنيا المستغرقُ بها كالأرضِ السَّبخةِ التي لا ينمو فيها البذْرُ ، ويومُ القيامةِ يومُ الحصادِ ، ولا يحصدُ أحدٌ إلا ما زرعَ ، ولا ينمو زرعٌ إلا مِنْ بذْرِ الإيمانِ ، وقلَّما ينفعُ إيمانٌ معَ خبثِ القلبِ وسوءِ أخلاقِهِ ، كما لا ينمو بذرٌ في أرضٍ سَبخةٍ ، فينبغي أنْ يُقاسَ رجاءُ العبدِ المغفرةَ برجاءِ صاحبِ الزرعِ .

فكلُّ مَنْ طلبَ أرضاً طيبةً ، وألقىٰ فيها بذْراً جيداً غيرَ عفنٍ ولا مسوَّسٍ ، ثمَّ أمدَّهُ بما يحتاجُ إليهِ وهوَ سوْقُ الماءِ إليهِ في أوقاتِهِ ، ثمَّ نقَّى الأرضَ عنِ الشوكِ والحشيشِ وكلِّ ما يمنعُ نباتَ البذْرِ أوْ يفسدُهُ ، ثمَّ جلسَ منتظراً مِنْ فضْلِ اللهِ دفعَ الصواعقِ والآفاتِ المفسدةِ إلىٰ أنْ يتمَّ الزرعُ ويبلغَ غايتَهُ . . سُمِّيَ انتظارُهُ رجاءً .

وإنْ بثَّ البذْرَ في أرضٍ صلبةٍ سبخةٍ مرتفعةٍ لا ينصبُّ إليها الماءُ ، ولمْ يشتغلْ بتعهُّدِ البذْرِ أصلاً ، ثمَّ انتظرَ حصادَ الزرعِ منهُ . . سُمِّيَ انتظارُهُ حمقاً وغروراً ، لا رجاءً .

وإنْ بثَّ البذْرَ في أرضٍ طيِّبةٍ ، لكنْ لا ماءَ لها ، وأخذَ ينتظرُ مياهَ الأمطارِ حيثُ لا تغلبُ الأمطارُ ولا تمتنعُ أيضاً . . سُمِّيَ انتظارُهُ تمنِّياً ، لا رجاءً .

فإذاً ؛ اسمُ الرجاءِ إنَّما يصدقُ على انتظارِ محبوبٍ تمهَّدَتْ جميعُ أسبابِهِ الداخلةِ تحتَ اختيارِ العبدِ ، ولمْ يبقَ إلا ما ليسَ يدخلُ تحتَ اختيارِهِ ، وهوَ فضْلُ اللهِ تعالىٰ بصرْفِ القواطعِ والمفسداتِ .

فالعبدُ إذا بثَّ بذرَ الإيمانِ ، وسقاهُ بماءِ الطاعاتِ ، وطهَّرَ القلبَ عنْ شوكِ الأخلاقِ الرديئةِ ، وانتظرَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ تثبيتَهُ علىٰ ذلكَ إلى الموتِ ، وحسنَ الخاتمةِ المفضيةِ إلى المغفرةِ . . كانَ انتظارُهُ رجاءً حقيقياً ، محموداً في نفسِهِ ، باعثاً لهُ على المواظبةِ والقيامِ بمقتضى أسبابِ الإيمانِ في إتمامِ أسبابِ المغفرةِ إلى الموتِ .

وإنْ قطعَ عنْ بذْرِ الإيمانِ تعهُّدَهُ بماءِ الطاعاتِ ، أوْ تركَ القلبَ مشحوناً برذائلِ الأخلاقِ ، وانهمكَ في طلبِ لذَّاتِ الدنيا ، ثمَّ انتظرَ المغفرةَ . . فانتظارُهُ حمقٌ وغرورٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »(١) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا ﴾ .

وذمَّ اللهُ تعالىٰ صاحبَ البستانِ إذْ دخلَ جنَّتَهُ وقالَ : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[1] .

فإذاً ؛ العبدُ المجتهدُ في الطاعاتِ ، المجتنبُ للمعاصي . . حقيقٌ بأنْ ينتظرَ مِنْ فضْلِ اللهِ تمامَ النعمةِ ، وما تمامُ النعمةِ إلا بدخولِ الجنَّةِ ، وأمَّا العاصي ؛ فإذا تابَ وتداركَ جميعَ ما فرطَ منهُ مِنْ تقصيرٍ . . فحقيقٌ بأنْ يرجوَ قبولَ التوبةِ ، وأمَّا قبلَ التوبةِ إذا كانَ كارهاً للمعصيةِ ، تسوءُهُ السيئةُ وتسرُّهُ الحسنةُ ، وهوَ يذمُّ نفسَهُ ويلومُها ، ويشتهي التوبةَ ويشتاقُ إليها . . فحقيقٌ بأنْ يرجوَ مِنَ اللهِ التوفيقَ للتوبةِ ؛ لأنَّ كراهتَهُ للمعصيةِ وحرصَهُ على التوبةِ يجري مجرى السببِ الذي قدْ يفضي إلى التوبةِ ، وإنَّما الرجاءُ بعدَ تأكُّدِ الأسبابِ .

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ، معناهُ : أولئكَ يستحقُّونَ أنْ يرجوا رحمةَ اللهِ ، وما أرادَ بهِ تخصيصَ وجودِ الرجاءِ ؛ لأنَّ غيرَهُمْ أيضاً قدْ يرجو ، ولكنْ خصَّصَ بهِمُ استحقاقَ الرجاءِ .

فأمَّا مَنْ ينهمكُ فيما يكرهُهُ اللهُ تعالىٰ ، ولا يذمُّ نفسَهُ عليهِ ، ولا يعزمُ على التوبةِ والرجوعِ . . فرجاؤُهُ المغفرةَ حمقٌ ؛ كرجاءِ مَنْ بثَّ البذْرَ في أرضٍ سبخةٍ وعزمَ علىٰ ألا يتعهدَهُ بسقيٍ ولا تنقيةٍ .

قالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (مِنْ أعظمِ الاغترارِ عندي : التمادي في الذنوبِ

---

(1) وروى الطبري في « تفسيره » (٩/١٥/٣٠٢) عن قتادة في وصف صاحب البستان : (كفور لنعم ربه ، مكذب بلقائه ، متمنٍّ على الله) .

معَ رجاءِ العفوِ مِنْ غيرِ ندامةٍ ، وتوقُّعُ القربِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بغيرِ طاعةٍ ، وانتظارُ زرعِ الجنةِ ببذْرِ النارِ ، وطلبُ دارِ المطيعينَ بالمعاصي ، وانتظارُ الجزاءِ بغيرِ عملٍ ، والتمنِّي على اللهِ عزَّ وجلَّ معَ الإفراطِ) .

تَرْجو ٱلنَّجاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسالِكَها   إِنَّ ٱلسَّفينَةَ لا تَجْري عَلى ٱلْيَبَسِ[1]

فإذا عرفتَ حقيقةَ الرجاءِ ومَظِنَّتَهُ . . فقدْ علمتَ أنَّها حالةٌ أثمرَها العلمُ بجريانِ أكثرِ الأسبابِ ، وهـٰذهِ الحالةُ تثمرُ الجهدَ للقيامِ ببقيةِ الأسبابِ علىٰ حسبِ الإمكانِ ، فإنَّ مَنْ حَسُنَ بذرُهُ ، وطابَتْ أرضُهُ ، وغزرَ ماؤُهُ . . صدقَ رجاؤُهُ ، فلا يزالُ يحملُهُ صدقُ الرجاءِ علىٰ تفقُّدِ الأرضِ وتعهُّدِها ، وتنحيةِ كلِّ حشيشٍ ينبتُ فيها ، فلا يفترُ عنْ تعهُّدِها أصلاً إلىٰ وقتِ الحصادِ ، وهـٰذا لأنَّ الرجاءَ يضادُّهُ اليأسُ ، واليأسُ يمنعُ مِنَ التعهُّدِ ، فمَنْ عرفَ أنَّ الأرضَ سبخةٌ ، وأنَّ الماءَ مُعْوِزٌ[2] ، وأنَّ البذْرَ لا ينبتُ . . فيتركُ ـ لا محالةَ ـ تفقُّدَ الأرضِ والتعبَ في تعهُّدِها .

والرجاءُ محمودٌ لأنَّهُ باعثٌ ، واليأسُ مذمومٌ ـ وهوَ ضدُّهُ ـ لأنَّهُ صارفٌ عنِ العملِ ، والخوفُ ليسَ بضدٍّ للرجاءِ ، بلْ هوَ رفيقٌ لهُ كما سيأتي بيانُهُ ، بلْ هوَ باعثٌ آخرُ بطريقِ الرهبةِ ، كما أنَّ الرجاءَ باعثٌ بطريقِ الرغبةِ .

فإذاً ؛ حالُ الرجاءِ يورثُ طولَ المجاهدةِ بالأعمالِ ، والمواظبةَ على الطاعاتِ كيفما تقلَّبَتِ الأحوالُ ، ومِنْ آثارِهِ التلذُّذُ بدوامِ الإقبالِ على اللهِ

---

(١) البيت من البحر البسيط ، وهو لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٩٤) .

(٢) معوز : قليل الوجود .

تعالىٰ ، والتنعُّمُ بمناجاتِهِ ، والتلطُّفُ في التملُّقِ لهُ ، فإنَّ هـٰذهِ الأحوالَ لا بدَّ وأنْ تظهرَ علىٰ كلِّ مَنْ يرجو مَلِكاً مِنَ الملوكِ أوْ شخصاً مِنَ الأشخاصِ ، فكيفَ لا يظهرُ ذلكَ في حقِّ اللهِ تعالى ؟!

فإنْ كانَ ذلكَ لا يظهرُ . . فليستدلَّ بهِ على الحرمانِ عنْ مقامِ الرجاءِ ، والنزولِ في حضيضِ الغرورِ والتمنِّي .

فهـٰذا هوَ البيانُ لحالِ الرجاءِ ، ولما أثمرَهُ مِنَ العلمِ ، ولما استثمرَ منهُ مِنَ العملِ .

ويدلُّ علىٰ إثمارِهِ لهـٰذهِ الأعمالِ حديثُ زيدِ الخيلِ ؛ إذْ قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : جئتُ لأسألَكَ عنْ علامةِ اللهِ فيمَنْ يريدُ ، وعلامتِهِ فيمَنْ لا يريدُ ، فقالَ : « كيفَ أصبحتَ ؟ » قالَ : أصبحتُ أحبُّ الخيرَ وأهلَهُ ، وإذا قدرتُ علىٰ شيءٍ منهُ . . سارعتُ إليهِ وأيقنتُ بثوابِهِ ، وإذا فاتَني شيءٌ منهُ . . حزنتُ عليهِ وحننتُ إليهِ ، فقالَ : « هـٰذهِ علامةُ اللهِ فيمَنْ يريدُ ، ولوْ أرادَكَ بالأخرىٰ . . هيَّأَكَ لها ، ثمَّ لا يبالي في أيِّ أوديتِها هلكتَ »[1] ، فقدْ ذكرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علامةَ مَنْ أُريدَ بهِ الخيرُ ، فمَنِ ارتجىٰ أنْ يكونَ مراداً بالخيرِ مِنْ غيرِ هـٰذهِ العلاماتِ . . فهوَ مغرورٌ .

* * *

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٠٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/ ٢٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٧٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم سماه زيد الخير وغيَّر له اسمه .

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلمْ : أنَّ العملَ على الرجاءِ أعلىٰ منهُ على الخوفِ ؛ لأنَّ أقربَ العبادِ إلى اللهِ تعالىٰ أحبُّهُمْ لهُ ، والحبُّ يغلبُ بالرجاءِ .

واعتبرْ ذلكَ بمَلِكينِ ؛ يُخدمُ أحدُهُما خوفاً مِنْ عقابِهِ ، والآخرُ رجاءً لثوابِهِ .

ولذلكَ وردَ في الرجاءِ وحسنِ الظنِّ رغائبُ ، لا سيما في وقتِ الموتِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ، فحرَّمَ أصلَ اليأسِ .

وفي أخبارِ يعقوبَ عليهِ السلامُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إليهِ : أتدري لِمَ فرَّقتُ بينَكَ وبينَ يوسفَ ؟ لقولِكَ : أخافُ أنْ يأكلَهُ الذئبُ وأنتمْ عنهُ غافلونَ ، لِمَ خفتَ الذئبَ ولمْ ترجُني ؟ ولِمَ نظرتَ إلىٰ غفلةِ إخوتِهِ ولمْ تنظرْ إلىٰ حفظي لهُ ؟[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يموتَنَّ أحدُكُمْ إلا وهوَ يحسنُ الظنَّ باللهِ تعالىٰ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ »[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١٥) .
(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٣) ، وأصله في « الصحيحين » .

ودخلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ رجلٍ وهوَ في النزعِ ، فقالَ : « كيفَ تجدُكَ ؟ » فقالَ : أجدُني أخافُ ذنوبي وأرجو رحمةَ ربِّي ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اجتمعا في قلبِ عبدٍ في هٰذا الموطنِ إلا أعطاهُ اللهُ ما رجا ، وأمَّنَهُ ممَّا يخافُ »[١] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ لرجلٍ أخرجَهُ الخوفُ إلى القنوطِ لكثرةِ ذنوبِهِ : (يا هٰذا ؛ يأسُكَ مِنْ رحمةِ اللهِ أعظمُ مِنْ ذنوبِكَ)[٢] .

وقالَ سفيانُ : (مَنْ أذنبَ ذنباً فعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ قدَّرَهُ عليهِ ورجا غفرانَهُ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنبَهُ ، قالَ : لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عيَّرَ قوماً فقالَ : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾)[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للعبدِ يومَ القيامةِ : ما منعَكَ إذْ رأيتَ المنكرَ أنْ تنكرَهُ ؟ فإنْ لقَّنَهُ اللهُ حجَّتَهُ . . قالَ : يا ربِّ ؛ رجوتُكَ وخفتُ الناسَ ، قالَ : فيقولُ اللهُ تعالىٰ : قدْ غفرتُهُ لكَ »[٤] .

---

(١) رواه الترمذي (٩٨٣) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٨٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٦١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٩٤) بنحوه ، وهو بلفظه هنا في « القوت » (١/ ٢١٥) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢١٧) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤٠١٧) .

وفي الخبرِ الصحيحِ : « أنَّ رجلاً كانَ يداينُ الناسَ فيسامحُ الغنيَّ ، ويتجاوزُ عنِ المعسرِ ، فلقي اللهَ ولمْ يعملْ خيراً قطُّ ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : مَنْ أحقُّ بذلكَ منّا ؟ فعفا عنهُ لحسنِ ظنِّهِ ورجائِهِ أنَّهُ يعفو عنهُ معَ إفلاسِهِ عنِ الطاعاتِ »[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ .

ولمَّا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً ، ولخرجتُمْ إلى الصُّعُداتِ تلدمونَ صدورَكُمْ ، وتجأرونَ إلىٰ ربِّكُمْ » ، فهبطَ جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ : إنَّ ربَّكَ يقولُ لكَ : لِمَ تقنِّطُ عبادي ؟ فخرجَ عليهِمْ فرجَّاهُمْ وشوَّقَهُمْ[2] .

وفي الخبرِ : إنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : أحبَّني ، وأحبَّ مَنْ يحبُّني ، وحبِّبْني إلىٰ خلقي ، فقالَ : يا ربِّ ؛ كيفَ أحبِّبُكَ إلىٰ خلقِكَ ؟ قالَ : اذكرْني بالحسنِ الجميلِ ، واذكرْ آلائي وإحساني ، وذكِّرْهُمْ

---

(١) رواه مسلم (١٥٦٠) ولفظه : « تلقَّت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : أعملت من الخير شيئاً ؟ قال : لا ، قالوا : تذكَّرْ ، قال : كنت أداين الناس ، فآمر فتياني أن ينظروا المعسر ويتجوَّزوا عن الموسر ، قال : قال الله عز وجل : تجوَّزوا عنه » ، وهو مختصراً عند البخاري (٢٣٩١) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٠) ، ورواه ابن حبان في « صحيحه » (١١٣) ، وليس فيه ذكر الصعدات ، وهي عند أحمد في « المسند » (٥/ ١٧٣) .

ذلكَ ، فإنَّهُمْ لا يعرفونَ منِّي إلا الجميلَ[1] .

ورُئِيَ أبانُ بنُ أبي عيَّاشٍ في النومِ وكانَ يكثرُ ذكرَ أبوابِ الرجاءِ ، فقالَ : أوقفَني اللهُ تعالىٰ بينَ يديهِ ، فقالَ : ما الذي حملَكَ علىٰ ذلكَ ؟ فقلتُ : أردتُ أنْ أحبِّبَكَ إلىٰ خلقِكَ ، فقالَ : قدْ غفرتُ لكَ[2] .

ورُئِيَ يحيىٰ بنُ أكثمَ في النومِ بعدَ موتِهِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : أوقفَني بينَ يديهِ وقالَ : يا شيخَ السوءِ ؛ فعلتَ وفعلتَ ، قالَ : فأخذَني مِنَ الرعبِ ما يعلمُ اللهُ ، ثمَّ قلتُ : يا ربِّ ؛ ما هٰكذا حُدثتُ عنكَ ، فقالَ : وما حدثتَ عنِّي ؟ فقلتُ : حدثَنا عبدُ الرزاقِ ، عنْ معمرٍ ، عنِ الزهريِّ ، عنْ أنسٍ ، عنْ نبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ عنْ جبريلَ عليهِ السلامُ : أنَّكَ قلتَ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ ، وكنتُ أظنُّ بكَ ألا تعذِّبَني ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : صدقَ جبريلُ ، وصدقَ نبيِّي ، وصدقَ أنسٌ ، وصدقَ الزهريُّ ، وصدقَ معمرٌ ، وصدقَ عبدُ الرزاقِ ، وصدقتَ ، قالَ : فأُلبستُ ومشىٰ بينَ يديَّ الولدانُ إلى الجنَّةِ ، فقلتُ : يا لها مِنْ فرحةٍ[3] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٢) ، وقد رواه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً البيهقيُّ في « الشعب » (٧٢٦٢) بنحوه ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٥) عن عبد الله بن الحارث من كلامه .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٢) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٢) ، ورواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢٠٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٤/ ٩١) .

وفي الخبرِ : أنَّ رجلاً مِنْ بني إسرائيلَ كانَ يقنِّطُ الناسَ ويشدِّدُ عليهِمْ ، قالَ : فيقولُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ : اليومَ أؤيسُكَ مِنْ رحمتي كما كنتَ تقنِّطُ عبادي منها[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ رجلاً يدخلُ النارَ ، فيمكثُ فيها ألفَ سنةٍ ينادي : يا حنَّانُ ، يا منَّانُ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ لجبريلَ : اذهبْ فأتني بعبدِي ، قالَ : فيجيءُ بهِ ، فيوقفُهُ علىٰ ربِّهِ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كيفَ وجدتَ مكانَكَ ؟ فيقولُ : شرَّ مكانٍ ، قالَ : فيقولُ : ردُّوهُ إلىٰ مكانِهِ ، قالَ : فيمشي ويلتفتُ إلىٰ ورائِهِ ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إلىٰ أيِّ شيءٍ تلتفتُ ؟ فيقولُ : لقدْ رجوتُ ألا تعيدَني إليها بعدَ إذْ أخرجتَني منها ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : اذهبوا بهِ إلى الجنةِ »[2] ، فدلَّ هـٰذا علىٰ أنَّ رجاءَهُ كانَ سببَ نجاتِهِ ، نسالُ اللهَ حسنَ التوفيقِ بلطفِهِ وكرمِهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٣) ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٨٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٢٢) عن زيد بن أسلم .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣٠) ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٠٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٢١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٣١٥) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلمْ : أنَّ هـٰذا الدواءَ يحتاجُ إليهِ أحدُ رجلينِ : إمَّا رجلٌ غلبَ عليهِ اليأسُ فتركَ العبادةَ ، وإمَّا رجلٌ غلبَ عليهِ الخوفُ فأسرفَ في المواظبةِ على العبادةِ حتَّىٰ أضرَّ بنفسِهِ وأهلِهِ ، وهـٰذانِ رجلانِ مائلانِ عنِ الاعتدالِ إلىٰ طرفيِ الإفراطِ والتفريطِ ، فيحتاجانِ إلىٰ علاجٍ يردُّهُما إلى الاعتدالِ .

فأمَّا العاصي المغرورُ المتمنِّي على اللهِ معَ الإعراضِ عنِ العبادةِ واقتحامِ المعاصي . . فأدويةُ الرجاءِ تنقلبُ سموماً في حقِّهِ مهلكةً ، وتنزلُ منزلةَ العسلِ الذي هوَ شفاءٌ لمَنْ غلبَ عليهِ البردُ ، وهوَ سمٌّ مهلكٌ لمَنْ غلبَ عليهِ الحرارةُ ، بلِ المغرورُ لا يُستعملُ في حقِّهِ إلا أدويةُ الخوفِ ، والأسبابُ المهيِّجةُ لهُ .

فلهـٰذا يجبُ أنْ يكونَ واعظُ الخلْقِ متلطِّفاً ، ناظراً إلىٰ مواقعِ العللِ ، معالجاً لكلِّ علَّةٍ بما يضادُّها ، لا بما يزيدُ فيها ، فإنَّ المطلوبَ هوَ العدلُ والقصْدُ في الصفاتِ والأخلاقِ كلِّها ، وخيرُ الأمورِ أوساطُها ، فإذا جاوزَ الوسطَ إلىٰ أحدِ الطرفينِ . . عُولجَ بما يردُّهُ إلى الوسطِ ، لا بما يزيدُ في ميلِهِ عنِ الوسطِ .

وهـٰذا الزمانُ زمانٌ لا ينبغي أنْ يُستعملَ فيهِ معَ الخلق أسبابُ الرجاءِ ، بلِ المبالغةُ في التخويفِ أيضاً تكادُ ألا تردَّهُمْ إلىٰ جادَّةِ الحقِّ وسننِ

الصوابِ ، فأمَّا ذكرُ أسبابِ الرجاءِ . . فيهلكُهُمْ ويرديهِمْ بالكلِّيَّةِ ، ولكنَّها لمَّا كانَتْ أخفَّ على القلوبِ ، وألذَّ عندَ النفوسِ ، ولمْ يكنْ غرضُ الوعَّاظِ إلا استمالةَ القلوبِ ، واستنطاقَ الخلقِ بالثناءِ كيفما كانوا . . مالوا إلى الرجاءِ ، حتَّى ازدادَ الفسادُ فساداً ، وازدادَ المنهمكونَ في طغيانِهِمْ تمادياً .

قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (إنَّما العالمُ الذي لا يقنِّطُ الناسَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالىٰ ، ولا يؤمِّنُهُمْ مِنْ مكرِ اللهِ)(١) .

ونحنُ نذكرُ أسبابَ الرجاءِ لتُستعملَ في حقِّ الآيسِ ، أوْ فيمَنْ غلبَ عليهِ الخوفُ ؛ اقتداءً بكتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُما مشتملانِ على الخوفِ والرجاءِ جميعاً ؛ لأنَّهُما جامعانِ لأسبابِ الشفاءِ في حقِّ أصنافِ المرضىٰ ، ليستعملَهُ العلماءُ الذينَ هُمْ ورثةُ الأنبياءِ بحسَبِ الحاجةِ استعمالَ الطبيبِ الحاذقِ ، لا استعمالَ الأخرقِ الذي يظنُّ أنَّ كلَّ شيءٍ مِنَ الأدويةِ صالحٌ لكلِّ مريضٍ كيفما كانَ !

❊ ❊ ❊

وحالُ الرجاءِ يغلبُ بشيئينِ :

أحدُهُما : الاعتبارُ .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٧) بلفظ : (ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم من عذاب الله ، ولا يرخص لهم في معاصي الله ، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلىٰ غيره ، ولا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا خير في علم لا فهم فيه ، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها) .

والآخرُ : استقراءُ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ .

أمّا الاعتبارُ[1] : فهوَ أنْ يتأمَّلَ جميعَ ما ذكرناهُ في أصنافِ النعمِ مِنْ كتابِ الشكرِ ، حتَّىٰ إذا علمَ لطائفَ نعَمِ اللهِ تعالىٰ لعبادِهِ في الدنيا ، وعجائبَ حكمِهِ التي راعاها في فطرةِ الإنسانِ ، حتَّىٰ أعدَّ لهُ في الدنيا كلَّ ما هوَ ضروريٌّ لهُ في دوامِ الوجودِ ؛ كآلاتِ الغذاءِ ، وما هو محتاجٌ إليهِ كالأصابعِ والأظفارِ ، وما هوَ زينةٌ لهُ ؛ كاستقواسِ الحاجبينِ ، واختلافِ ألوانِ العينينِ ، وحمرةِ الشفتينِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا كانَ لا ينثلمُ بفقدِهِ غرضٌ مقصودٌ ، وإنَّما كانَ يفوتُ بهِ مزيَّةُ جمالٍ ، فالعنايةُ الإلـٰهيةُ إذاً لَمْ تقصرْ عنْ عبادِهِ في أمثالِ هـٰذهِ الدقائقِ ، حتَّىٰ لمْ يرضَ لعبادِهِ أنْ تفوتَهُمُ المزايدُ والمزايا في الزينةِ والحاجةِ . . كيفَ يرضىٰ بسياقِهِمْ إلى الهلاكِ المؤبَّدِ ؟!

---

(1) الاعتبار هنا : استقراء أول الوجود ، فإنك ترى الوجود من قمة العرش إلىٰ منتهى الفرش خيراً كله ، ولم يكن فيه من الشر إلا ما ينسب إلىٰ جنس المكلفين ، والمكلفون في جزء يسير من الأرض ، والأرض جزء يسير من الدنيا ، وما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم إصبعه في اليم ، وهـٰذا ظاهر في الاستقراء ؛ لأن عالم الآخرة أوسع من عالم الدنيا ، بل ملك من الملائكة يعدل الخلق أجمع ، فموجبات الرحمة في الوجود أكثر من موجبات الغضب ، ولذلك آثار كثيرة أثنىٰ بها علىٰ نفسه فقال : الرحمـٰن ، الرحيم ، الفتاح ، الكريم ، الجواد ، الأكرم ، التواب ، الوهاب ، العفو ، الغفور ، الشكور ، الصمد ، المجيب ، الودود ، البر ، الرزاق ، اللطيف ، الرؤوف ، المحسن ، المنعم ، المنان ، الرفيق ، الهادي ، مع ما يضاف إلىٰ هـٰذا من الرضا والمحبة والذكر والمشي والهرولة ، وما أشبه هـٰذا ، فالنظر إلىٰ آثار هـٰذه الأفعال وما ورد من الأخبار في فضائل الأعمال شفاء للإياس ، وترويح للخائف ، وترغيب للمعتدل . « إتحاف » (٩/ ١٧٣) .

بلْ إذا نظرَ الإنسانُ نظراً شافياً . . علمَ أنَّ أكثرَ الخلقِ قدْ هُيِّيءَ لهُ أسبابُ السعادةِ في الدنيا ، حتَّىٰ إنَّهُ يكرهُ الانتقالَ مِنَ الدنيا بالموتِ وإنْ أُخبرَ بأنَّهُ لا يُعذَّبُ بعدَ الموتِ مثلاً أوْ لا يُحشرُ أصلاً ، فليسَتْ كراهتُهُمْ للعدمِ إلا لأنَّ أسبابَ النعمِ أغلبُ لا محالةَ ، وإنَّما الذي يتمنَّى الموتَ نادرٌ ، ثمَّ لا يتمنَّاهُ إلا في حالةٍ نادرةٍ ، وواقعةٍ هاجمةٍ غريبةٍ .

فإذا كانَ حالُ أكثرِ الخلقِ في الدنيا الغالبُ عليهِ الخيرُ والسلامةُ ، فسنَّةُ اللهِ لا تجدُ لها تبديلاً . . فالغالبُ أنَّ أمرَ الآخرةِ هٰكذا يكونُ ؛ لأنَّ مدبِّرَ الدنيا والآخرةِ واحدٌ ، وهوَ غفورٌ رحيمٌ ، لطيفٌ بعبادِهِ ، متعطِّفٌ عليهِمْ .

فهٰذا إذا تُؤُمِّلَ حقَّ التأمُّلِ . . قويَ بهِ أسبابُ الرجاءِ .

ومِنَ الاعتبارِ أيضاً النظرُ في حكمةِ الشريعةِ وسننِها في مصالحِ الدنيا ، ووجهِ الرحمةِ للعبادِ بها ، حتَّىٰ كانَ بعضُ العارفينَ يرىٰ آيةَ المداينةِ في سورةِ البقرةِ مِنْ أقوىٰ أسبابِ الرجاءِ ، فقيلَ لهُ : وما فيها مِنَ الرجاءِ ؟ فقالَ : الدنيا كلُّها قليلٌ ، ورزقُ الإنسانِ منها قليلٌ ، والدينُ قليلٌ مِنْ رزقِهِ ، فانظرْ كيفَ أنزلَ اللهُ تعالىٰ فيهِ أطولَ آيةٍ ليهديَ عبدَهُ إلىٰ طريقِ الاحتياطِ في حفظِ دَينِهِ ، فكيفَ لا يحفظُ دِينَهُ الذي لا عوضَ لهُ منهُ ؟!

❁ ❁ ❁

الفنُّ الثاني : استقراءُ الآياتِ والأخبارِ : فما وردَ في الرجاءِ خارجٌ عنِ الحصرِ .

أمَّا الآياتُ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ، وفي قراءةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ولا يبالي » ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وأخبرَ تعالىٰ أنَّ النارَ أعدَّها لأعدائِهِ ، وإنَّما خوَّفَ بها أولياءَهُ فقالَ : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ .

ويُقالُ : إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يزلْ يسألُ في أمَّتِهِ حتَّىٰ قيلَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٣٧) عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها سمعته صلى الله عليه وسلم يقرؤها كذا .

لهُ : أما ترضىٰ وقدْ أنزلَتْ عليكَ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ ؟!(١) .

وفي تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ قالَ : « لا يرضىٰ محمدٌ وأحدٌ مِنْ أمَّتِهِ في النارِ »(٢) .

وكانَ أبو جعفرٍ محمدُ بنُ عليٍّ يقولُ : أنتُمْ ـ أهلَ العراقِ ـ تقولونَ : أرجىٰ آيةٍ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ قولُهُ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ . . . ﴾ الآيةَ ، ونحنُ ـ أهلَ البيتِ ـ نقولُ : أرجىٰ آيةٍ في كتابِ اللهِ تعالىٰ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾(٣) .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ روىٰ أبو موسىٰ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أمَّتي أمةٌ مرحومةٌ ، لا عذابَ عليها في الآخرةِ ، عُجِّلَ عقابُها في الدنيا ؛ الزلازلُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٣) ، وقد روى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٢١٤٥) عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هٰذه الآية : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عقوبة الله وتجاوزه . . ما هنأ أحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه . . لاتَّكل كل أحد » .

(٢) رواه الخطيب في « تلخيص المتشابه » (١/ ١٧٣) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٧١٧٩) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢١٣) ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٥٠٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٧٩) .

والفتنُ ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . دُفِعَ إلىٰ كلِّ رجلٍ مِنْ أمَّتي رجلٌ مِنْ أهلِ الكتابِ ، فقيلَ : هـٰذا فداؤُكَ مِنَ النارِ »(١) .

وفي لفظٍ آخرَ : « يأتي كلُّ رجلٍ مِنْ هـٰذهِ الأمَّةِ بيهوديٍّ أوْ نصرانيٍّ إلىٰ جهنَّمَ فيقولُ : هـٰذا فدائي مِنَ النارِ ، فيُلقىٰ فيها »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحمَّىٰ مِنْ فيحِ جهنَّمَ ، وهيَ حظُّ المؤمنِ مِنَ النارِ »(٣) .

ورُوِيَ في تفسيرِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ نبيِّهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنِّي أجعلُ حسابَ أمَّتِكَ إليكَ ، قالَ : « لا ياربِّ ، أنتَ خيرٌ لهُمْ منِّي » ، فقالَ : إذاً ؛ لا نخزيكَ فيهِمْ(٤) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٣) ، والحديث رواه أبو داوود (٤٢٧٨) دون قوله : (فإذا كان يوم القيامة . . .) ، وهـٰذه رواها ابن ماجه (٤٢٩٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٤٠٧) بلفظه هنا ، وبنحوه عند مسلم (٢٧٦٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٢) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « الحمىٰ من كير جهنم ، فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار » .

(٤) كذا في « القوت » (١/ ٢١٣) ، وقد رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٦٢) عن الحسين بن عبد الرحمـٰن عن شيخ من قريش وذكره ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٥/ ٣٩٣) عن حذيفة رضي الله عنه قال : غاب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فلم يخرج حتىٰ ظننا أنه لن يخرج ، فلما خرج . . سجد سجدة ، فظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال : « إن ربي تبارك وتعالى استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم ، فقلت : ما شئت أي رب ، هم خلقك وعبادك ، فاستشارني الثانية ، فقلت له كذلك ، فقال : لا أحزنك في أمتك يا محمد . . . » الحديث .

ورُوِي عنْ أنسٍ : أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألَ ربَّهُ في ذنوبِ أمَّتِهِ فقالَ : « يا ربِّ ، اجعلْ حسابَهُمْ إليَّ لئلا يطلعَ علىٰ مساوِئِهِمْ غيري » ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : همْ أمَّتُكَ ، وهمْ عبادي ، وأنا أرحمُ بهِمْ منكَ ، لا أجعلُ حسابَهُمْ إلىٰ غيري ؛ لئلا تنظرَ في مساوِئِهِمْ أنتَ ولا غيرُكَ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حياتي خيرٌ لكُمْ ، وموتي خيرٌ لكم ، أمَّا حياتي . . فأسُنُّ لكُمُ السننَ ، وأشرِّعُ لكُمُ الشرائعَ ، وأمَّا موتي . . فإنَّ أعمالَكُمْ تُعرضُ عليَّ ؛ فما رأيتُ منها حسناً . . حمدتُ اللهَ عليهِ ، وما رأيتُ منها سيئاً . . استغفرتُ اللهَ تعالىٰ لكمْ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً : « يا كريمَ العفوِ » ، فقالَ جبريلُ عليهِ السلامُ : أتدري ما تفسيرُ يا كريمَ العفوِ ؟ هوَ أنْ عفا عنِ السيئاتِ برحمتِهِ ، ثمَّ بدَّلَها حسناتٍ بكرمِهِ[3] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٣) حيث قال : (وروينا في خبر سلمة بن وردان ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله . . .) وذكره .
(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٢/ ١٧٤) ، والبزار في « مسنده » (١٩٢٥) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٨٦) بنحوه .
(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢١٣) ، وفيه : (أنَّهُ) بدل (أنْ) المخففة ، وقد رواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٨٠) عن عتبة بن الوليد قال : (سمع جبريل إبراهيم الخليل . . .) ولم يذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذا رواه البيهقي في « الشعب » (٦٦٤٣) عن بعض الرهاويين .

وسمعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلاً يقولُ : اللهمَّ ، إنِّي أسألُكَ تمامَ النعمةِ فقالَ : « هلْ تدري ما تمامُ النعمةِ ؟ » قالَ : لا ، قالَ : « دخولُ الجنَّةِ »[1] .

فقالَ العلماءُ : قدْ أتمَّ نعمتَهُ علينا برضاهُ الإسلامَ لنا ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ .

وفي الخبرِ : « إذا أذنبَ العبدُ فاستغفرَ اللهَ . . يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ لملائكتِهِ : انظروا إلىٰ عبدي ، أذنبَ ذنباً ، فعلمَ أنَّ لهُ ربّاً يغفرُ الذنوبَ ويأخذُ بالذنبِ ، أشهدُكُمْ أنِّي قدْ غفرتُ لهُ »[2] .

وفي الخبرِ : « لوْ أذنبَ العبدُ حتَّىٰ تبلغَ ذنوبُهُ عَنانَ السماءِ . . غفرتُها لهُ ما استغفرني ورجاني »[3] .

وفي الخبرِ : « لوْ لقيني عبدي بقُرابِ الأرضِ ذنوباً . . لقيتُهُ بقُرابِ الأرضِ مغفرةً »[4] .

وفي الحديثِ : « إنَّ الملكَ ليرفعُ القلمَ عنِ العبدِ إذا أذنبَ ستَّ ساعاتٍ ، فإنْ تابَ واستغفرَ . . لمْ يكتبْهُ عليهِ ، وإلا . . كتبَها سيئةً » ، وفي

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٧) ، وأحمد في « المسند » (٥/ ٢٣١) .

(٢) رواه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) بنحوه .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث أنس رضي الله عنه ، ومطلعه : « يا بن آدم ؛ إنك ما دعوتني . . . » الحديث .

(٤) رواه مسلم (٢٦٨٧) ومطلعه : (من جاء بالحسنة . . فله عشر أمثالها . . . » الحديث .

لفظٍ آخرَ : « فإذا كتبَها عليهِ وعملَ حسنةً . . قالَ صاحبُ اليمينِ لصاحبِ الشمالِ وهوَ أميرٌ عليهِ : ألقِ هٰذهِ السيئةَ حتَّىٰ ألقيَ مِنْ حسناتِهِ واحدةً مِنْ تضعيفِ العشرِ وأرفعَ لهُ تسعَ حسناتٍ ، فتُلقىٰ عنهُ هٰذه السيئةُ »[1] .

وروىٰ أنسٌ في حديثٍ : أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ : « إذا أذنبَ العبدُ ذنباً . . كُتِبَ عليهِ » ، فقالَ أعرابيٌّ : فإنْ تابَ عنهُ ؟ قالَ : « مُحِيَ عنهُ » ، قالَ : فإنْ عادَ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يكتبُ عليهِ » ، فقالَ الأعرابيُّ : فإنْ تابَ ؟ قالَ : « مُحِيَ مِنْ صحيفتِهِ » ، قالَ : إلىٰ متى ؟ قالَ : « إلىٰ أنْ يستغفرَ ويتوبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، إنَّ اللهَ لا يملُّ مِنَ المغفرةِ حتَّىٰ يملَّ العبدُ مِنَ الاستغفارِ ، فإذا همَّ العبدُ بحسنةٍ . . كتبَها صاحبُ اليمينِ حسنةً قبلَ أنْ يعملَها ، فإنْ عملَها . . كُتبَتْ عشرَ حسناتٍ ، ثمَّ يضاعفُها اللهُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٤) بروايتيه وسياقه ، وقد رواه هناد في « الزهد » (٩٢٠) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً : « الملك الذي على اليمين أمير على الملك الذي على الشمال ، فإذا عمل حسنة . . قال لصاحب الشمال : اكتبها ، وإذا عمل سيئة . . قال له : دعها ، لا تكتبها سبع ساعات ؛ لعله يستغفر » ورواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٩١) بنحوه وفيه : « وإذا عمل سيئة . . قال له صاحب اليمين : امكث ست ساعات ، فإن استغفر . . لم يكتب عليه ، وإلا . . أثبت عليه سيئة » .
ورواه مطولاً الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ١٤٧) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم مع العبد من ملك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ملك علىٰ يمينك علىٰ حسناتك ، وهو أمين على الذي على الشمال ، فإذا عملت حسنة . . كتبت عشراً ، وإذا عملت سيئة . . قال الذي على الشمال للذي على اليمين : أكتبُ ؟ قال : لا ؛ لعله يستغفر الله ويتوب . . . » الحديث .

عزَّ وجلَّ إلىٰ سبع مئةِ ضعفٍ ، وإذا همَّ بخطيئةٍ . . لمْ تُكتبْ عليهِ ؛ فإنْ عملَها . . كُتبَتْ خطيئةً واحدةً ، ووراءَها حسْنُ عفوِ اللهِ عزَّ وجلَّ »[1] .

وجاءَ رجلٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي لا أصومُ إلا الشهرَ لا أزيدُ عليهِ ، ولا أصلِّي إلا الخمسَ لا أزيدُ عليها ، وليسَ للهِ في مالي صدقةٌ ولا حجٌّ ولا تطوُّعٌ ، أينَ أنا إذا متُّ ؟ فتبسمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « نعمْ ، معي إذا حفظتَ قلبَكَ مِنِ اثنتينِ : الغلِّ والحسدِ ، ولسانَكَ مِنِ اثنتينِ : الغيبةِ والكذبِ ، وعينيكَ مِنِ اثنتينِ : النظرِ إلىٰ ما حرَّمَ اللهُ ، وأنْ تزدريَ بهما مسلماً . . دخلتَ معيَ الجنَّةَ علىٰ راحتيَّ هاتينِ »[2] .

وفي الحديثِ الطويلِ لأنسٍ : أنَّ الأعرابيَّ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ يلي حسابَ الخلقِ ؟ فقالَ : « اللهُ تباركَ وتعالىٰ » ، قالَ : هو بنفسِهِ ؟ قالَ : « نعمْ » ، فتبسَّمَ الأعرابيُّ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ممَّ ضحكتَ يا أعرابيُّ ؟ » فقالَ : إنَّ الكريمَ إذا قدر . . عفا ، وإذا حاسبَ . . سامحَ ،

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٤) ، ونعته بحديث أنس الطويل ، وستأتي قطعة منه بعد الخبر الآتي . وقد روى البيهقي في « الشعب » (٦٦٨٨) عن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ؛ إني أذنبت ، قال : « استغفر ربك » ، قال : فأستغفر ثم أعود ، قال : « فإذا عدت . . فاستغفر ربك » ثلاث مرات أو أربعاً ـ شك عمر ـ فقال : « استغفر ربك حتىٰ يكون الشيطان هو المحسور » ، والحديث عن غيره متوازع معناه في الصحيح .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢١٥) .

فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صدقَ الأعرابيُّ ، ألا ولا كريمَ أكرمُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، هوَ أكرمُ الأكرمينَ » ، ثمَّ قالَ : « فَقُهَ الأعرابيُّ »[1] ، وفيهِ أيضاً : « إنَّ اللهَ تعالىٰ شرَّفَ الكعبةَ وعظَّمَها ، ولوْ أنَّ عبداً هدمَها حجراً حجراً ثمَّ أحرقَها . . ما بلغَ جرْمَ مَنِ استخفَّ بوليٍّ مِنْ أولياءِ اللهِ تعالىٰ » ، قالَ الأعرابيُّ : ومَنْ أولياءُ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : « المؤمنونَ كلُّهُمْ أولياءُ اللهِ تعالىٰ ، أما سمعتَ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ؟ »[2] .

وفي بعضِ الأخبارِ : « المؤمنُ أفضلُ مِنَ الكعبةِ »[3] ، و« المؤمنُ طيِّبٌ طاهرٌ »[4] ، و« المؤمنُ أكرمُ على اللهِ تعالىٰ مِنَ الملائكةِ »[5] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٤) ، وهو قطعة من حديث أنس المنقول قبل الخبر السابق ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/ ١٧٩) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢١٤) .

(٣) روى ابن ماجه (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده ؛ لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه وأن نظن به إلا خيراً » .

(٤) هـٰذا الخبر والذي قبله والذي بعده في خبر مفرد عند صاحب « القوت » (١/ ٢١٥) ، وعند البخاري (٢٨٥) ، ومسلم (٣٧١) .

(٥) رواه ابن ماجه (٣٩٤٧) ولفظه : « المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته » ، وروىٰ وكيع في « الزهد » (٨٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً عليه : (المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده) .

وفي الخبرِ : (خلقَ اللهُ تعالىٰ جهنَّمَ مِنْ فضْلِ رحمتِهِ سوطاً يسوقُ اللهُ بهِ عبادَهُ إلى الجنَّةِ)[1] .

وفي خبرٍ آخرَ : (يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إنَّما خلقتُ الخلقَ ليربحوا عليَّ ، ولمْ أخلقْهُمْ لأربحَ عليهِمْ)[2] .

وفي حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما خلقَ اللهُ تعالىٰ شيئاً إلا جعلَ لهُ ما يغلبُهُ ، وجعلَ رحمتَهُ تغلبُ غضبَهُ »[3] .

وفي الخبرِ المشهورِ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ كتبَ علىٰ نفسِهِ قبلَ أنْ يخلقَ الخلقَ : إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي »[4] .

= وروى البيهقي في « الشعب » (١٥١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من شيء أكرم على الله من ابن آدم » ، قال : قيل : يا رسول الله ؛ ولا الملائكة ؟ قال : « الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » .

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢١٩) ، وعند البخاري (٣٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل » .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢١٩) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص ٢٥١) من قول داوود عليه السلام .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٤٩) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٦٢٠٧) ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٤٦٣) عن زيد بن أسلم مرسلاً .

(٤) رواه البخاري (٧٥٥٣) ، ومسلم (٢٧٥١) .

وعنْ معاذِ بنِ جبلٍ وأنسِ بنِ مالكٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ . . دخلَ الجنَّةَ »[1] ، و« مَنْ كانَ آخرُ كلامِهِ لا إلـٰهَ إلا اللهُ . . لمْ تمسَّهُ النارُ »[2] ، و« مَنْ لقيَ اللهَ لا يشركُ بهِ شيئاً . . حُرِّمَتْ عليهِ النارُ »[3] ، و« لا يدخلُها مَنْ في قلبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ إيمانٍ »[4] .

وفي خبرٍ آخرَ : « لوْ علمَ الكافرُ سعةَ رحمةِ اللهِ . . ما أيسَ مِنْ جنَّتِهِ أحدٌ »[5] .

ولمَّا تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ . . قالَ : « أتدرونَ أيَّ يومٍ هـٰذا ؟ هـٰذا يومَ يُقالُ لآدمَ عليهِ السلامُ : قمْ فابعثْ بعثَ النارِ مِنْ ذرِّيَّتِكَ ، فيقولُ : كمْ ؟ فيُقالُ : مِنْ كلِّ

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢١٩) مع الأخبار الثلاثة الآتية بألفاظها وسياقها ، وقد رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (١١٤١) من حديث معاذ : « اعلم أن من شهد أن لا إلـٰه إلا الله . . دخل الجنة » ، وعنده من حديث أنس عن معاذ مرفوعاً كذلك : « من مات يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله موقناً من قلبه . . دخل الجنة » .

(٢) رواه أبو داوود (٣١١٦) وفيه : (دخل الجنة) بدل (لم تمسه النار) .

(٣) رواه البخاري (١٢٩) عن أنس رضي الله عنه قال : ذكر لي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً . . دخل الجنة » ، وهو عند مسلم (٩٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (١/٤١٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ولفظه : « ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال ذرة من إيمان » ، وجاء عند البخاري (٧٤٤٠) ، ومسلم (١٨٣) إخراج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان أو خير من النار .

(٥) رواه البخاري (٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٥) .

ألفِ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ إلى النارِ وواحدٌ إلى الجنَّةِ » ، قالَ : فأُبلسَ القومُ ، وجعلوا يبكونَ ، وتعطَّلوا يومَهُمْ عنِ الأشغالِ والعملِ ، فخرجَ عليهِمْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : « ما لكمْ لا تعملونَ ؟ » فقالوا : ومَنْ يشتغلُ بعملٍ بعدَ ما حدثتَنا بهٰذا ؟ فقالَ : « كم أنتُمْ في الأممِ ؟ أينَ تاويلُ وتاريسُ ومنسكُ ويأجوجُ ومأجوجُ ؟ أممٌ لا يحصيها إلا اللهُ عزَّ وجلَّ ، إنَّما أنتُمْ في سائرِ الأممِ كالشعرةِ البيضاءِ في جلدِ الثورِ الأسودِ ، وكالرقمةِ في ذراعِ الدابَّةِ »[1] .

فانظرْ كيفَ كانَ يسوقُ الخلقَ بسياطِ الخوفِ ، ويقودُهُمْ بأزمَّةِ الرجاءِ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ ساقَهُمْ بسياطِ الخوفِ أوَّلاً ، فلمَّا خرجَ ذلكَ بهِمْ عنْ حدِّ الاعتدالِ إلىٰ إفراطِ اليأسِ . . داواهُمْ بدواءِ الرجاءِ ، وردَّهُمْ إلى الاعتدالِ والقصْدِ ، والآخِرُ لمْ يكنْ مناقضاً للأوَّلِ ، ولكنْ ذكرَ في الأوَّلِ ما رآهُ سبباً للشفاءِ واقتصرَ عليهِ ، فلمَّا احتاجوا إلى المعالجةِ بالرجاءِ . . ذكرَ تمامَ الأمرِ .

فعلى الواعظِ أنْ يقتديَ بسيِّدِ الوعَّاظِ ، فيتلطَّفُ في استعمالِ أخبارِ الخوفِ والرجاءِ بحسَبِ الحاجةِ ، بعدَ ملاحظةِ العللِ الباطنةِ ، وإنْ لمْ يراعِ

---

(١) رواه الترمذي (٣١٦٨) بألفاظ مقاربة ، وأصله عند البخاري (٣٣٤٨) ، ومسلم (٢٢٢) ، وليس عندهم ذكر تاويل وتاريس ومنسك ، ووقع ذكرهم عند الطبري في « تهذيب الآثار » مسند ابن عباس (٧١٤) ، **والرقمة هنا** : الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل ، وهما رقمتان في ذراعيها .

ذلكَ . . كانَ ما يفسدُهُ بوعظِهِ أكثرَ ممَّا يصلحُهُ .

وفي الخبرِ : « لوْ لمْ تذنبوا . . لخلقَ اللهُ خلقاً يذنبونَ ليغفرَ لهُمْ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « لذهبَ بكُمْ وجاءَ بخلقٍ آخرَ يذنبونَ فيغفرُ لهُمْ ، إنَّهُ هوَ الغفورُ الرحيمُ »[1] .

وفي الخبرِ : « لوْ لمْ تذنبوا . . لخشيتُ عليكُمْ ما هوَ شرٌّ مِنَ الذنوبِ » ، قيلَ : وما هوَ ؟ قالَ : « العُجبُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ للهُ أرحمُ بعبدِهِ المؤمنِ مِنَ الوالدةِ الشفيقةِ بولدِها »[3] .

وفي الخبرِ : « ليغفرنَّ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ مغفرةً ما خطرَتْ قطُّ علىٰ قلبِ أحدٍ ، حتَّىٰ إنَّ إبليسَ ليتطاولُ لها رجاءَ أنْ تصيبَهُ »[4] .

وفي الخبرِ : « إنَّ للهِ تعالىٰ مئةَ رحمةٍ ، ادَّخَرَ منها عندَهُ تسعاً وتسعينَ رحمةً ، وأظهرَ منها في الدنيا رحمةً واحدةً ، فبها يتراحمُ الخلقُ ، فتحنُّ الوالدةُ إلىٰ ولدِها ، وتعطفُ البهيمةُ علىٰ ولدِها ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . ضمَّ هـٰذهِ الرحمةَ إلى التسعِ والتسعينَ ثمَّ بسطَها علىٰ جميعِ خلقِهِ ، وكلُّ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٨ ، ٢٧٤٩) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٣٦) .

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٩٣) ، وقريب منه عند ابن المبارك في « الزهد » (١٢٧٠) .

رحمةٍ منها طباقَ السماواتِ والأرضينَ ، قالَ : فلا يهلكُ على اللهِ يومئذٍ إلا هالكٌ »[1] .

وفي الخبرِ : « ما منكُمْ مِنْ أحد يُدخلُهُ عملُهُ الجنَّةَ ، ولا ينجيهِ مِنَ النارِ » ، قالوا : ولا أنتَ ؟ قالَ : « ولا أنا ، إلا أنْ يتغمَّدنيَ اللهُ برحمتِهِ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اعملوا وأبشروا ، واعلموا أنَّ أحداً لنْ ينجيَهُ عملُهُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي اختبأتُ شفاعتي لأهلِ الكبائرِ مِنْ أمَّتي »[4]، « أترونَها للمصفَّينَ المتقينَ ؟ بلْ هيَ للمخلِّطينَ المتلوثينَ »[5] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « بُعثتُ بالحنيفيَّةِ السمحةِ السهلةِ »[6] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢١) ، ورواه بنحوه البخاري (٦٠٠٠ ، ٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٢) .
(٢) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٢١) .
(٤) كذا في « القوت » (١/ ٢٢١) ، جاء الخبر مستقلاً عما بعده ، وقد رواه البخاري (٦٣٠٤) ، ومسلم (١٩٨) بلفظ : « لكل نبي دعوة يدعوها ، فأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » .
(٥) كذا في « القوت » (١/ ٢٢١) ، ورواه ابن ماجه (٤٣١١) بنحوه ، وفي (أ) : (بل هي للمخطئين المتلوثين) .
(٦) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٦٦) ، دون قوله : (السهلة) ، وهي في « القوت » (١/ ٢٢٢) ، ووقعت برواية الشك عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢١٨) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أحبُّ أنْ يعلمَ أهلُ الكتابينِ أنَّ في دينِنا سماحةً »[1] .

ويدلُّ علىٰ معناهُ استجابةُ اللهِ تعالىٰ للمؤمنينَ في قولِهِمْ : ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وروىٰ محمدُ بنُ الحنفيَّةِ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهما أنَّهُ قالَ : لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ . . قالَ : « يا جبريلُ ؛ وما الصفحُ الجميلُ ؟ » قالَ عليهِ السلامُ : إذا عفوتَ عمَّنْ ظلمكَ . . فلا تعاتبْهُ ، فقالَ : « يا جبريلُ ؛ فاللهُ تعالىٰ أكرمُ مِنْ أنْ يعاتِبَ مَنْ عفا عنهُ » ، فبكىٰ جبريلُ وبكى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فبعثَ اللهُ تعالىٰ إليهما ميكائيلَ عليهِ السلامُ وقالَ : إنَّ ربَّكُما يقرئُكُما السلامَ ويقولُ : كيفَ أعاتبُ مَنْ عفوتُ عنهُ ؟ هـٰذا ما لا يشبهُ كرمي[2] .

والأخبارُ الواردةُ في أسبابِ الرجاءِ أكثرُ مِنْ أنْ تحصىٰ .

❁ ❁ ❁

---

(1) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٢) ، ورواه أحمد في « المسند » (٦/ ١١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « لتعلم يهود أن في ديننا فسحة ، إني أرسلت بحنيفية سمحة » .

(2) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٣) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه ابن مردويه في « التفسير » موقوفاً علىٰ علي مختصراً ، قال : الرضا بغير عتاب ، ولم يذكر بقية الحديث ، وفي إسناده نظر) . « إتحاف » (٩/ ١٨٥) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٧٩٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنْ أذنبَ ذنباً فسترَهُ اللهُ عليهِ في الدنيا . . فاللهُ أكرمُ مِنْ أنْ يكشفَ سترَهُ في الآخرةِ ، ومَنْ أذنبَ ذنباً فعوقبَ عليهِ في الدنيا . . فاللهُ تعالىٰ أعدلُ مِنْ أنْ يثنيَ عقوبتَهُ علىٰ عبدِهِ في الآخرةِ)[1] .

وقالَ الثوريُّ : (ما أحبُّ أنْ يُجعلَ حسابي إلىٰ أبويَّ ؛ لأنِّي أعلمُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أرحمُ بي منهما)[2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (المؤمنُ إذا عصى اللهَ تعالىٰ . . سترَهُ اللهُ عنْ أبصارِ الملائكةِ كي لا تراهُ فتشهدَ عليهِ)[3] .

وكتبَ محمدُ بنُ مصعبٍ إلىٰ أسودَ بنِ سالمٍ بخطِّهِ : (إنَّ العبدَ إذا كانَ مسرفاً علىٰ نفسِهِ ، فرفعَ يديهِ يدعو يقولُ : يا ربِّ . . حجبَتِ الملائكةُ صوتَهُ وكذلكَ الثانيةُ والثالثةُ ، حتىٰ إذا قالَ الرابعةَ : يا ربِّ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : حتَّىٰ متىٰ تحجبونَ عنِّي صوتَ عبدي ؟ قدْ علمَ عبدي أنَّهُ ليسَ لهُ ربٌّ يغفرُ الذنوبَ غيري ، أشهدُكُمْ أنِّي قدْ غفرتُ لهُ)[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١٤) ، ورواه الترمذي (٢٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٦٠٤) من حديثه رضي الله عنه بنحوه مرفوعاً .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢١٣) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢١٣) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢١٤) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمةُ اللهِ عليهِ : خلا ليَ الطوافُ ليلةً ، وكانَتْ ليلةً مطيرةً مظلمةً ، فوقفتُ في الملتزمِ عندَ البابِ ، فقلتُ : يا ربِّي ؛ اعصمني حتَّىٰ لا أعصيَكَ أبداً ، فهتفَ بي هاتفٌ مِنَ البيتِ : يا إبراهيمُ ؛ أنتَ تسألني العصمةَ ، وكلُّ عبادي المؤمنينَ يطلبونَ ذلكَ ، فإذا عصمتُهُمْ . . فعلىٰ مَنْ أتفضَّلُ ؟ ولِمَنْ أغفرُ ؟[1] .

وكانَ الحسنُ يقولُ : (لوْ لمْ يذنبِ المؤمنُ . . لكانَ يطيرُ في الملكوتِ ، ولكنَّ اللهَ تعالىٰ قمعَهُ بالذنوبِ)[2] .

وقالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إنْ بدَتْ عينٌ مِنَ الكرمِ . . ألحقَتِ المسيئينَ بالمحسنينَ)[3] .

ولقيَ مالكُ بنُ دينارٍ أباناً ، فقالَ لهُ : إلىٰ كمْ تحدِّثُ الناسَ بالرخصِ ؟ فقالَ : يا أبا يحيىٰ ؛ إنِّي لأرجو أنْ ترىٰ مِنْ عفوِ اللهِ يومَ القيامةِ ما تخرقُ لهُ كساءَكَ هـٰذا مِنَ الفرحِ[4] .

وفي حديثِ ربعيِّ بنِ حراشٍ عنْ أخيهِ ، وكانَ مِنْ خيارِ التابعينَ ، وهوَ ممَّنْ تكلَّمَ بعدَ الموتِ ، قالَ : لمَّا ماتَ أخي . . سُجِّيَ بثوبِهِ ، وألقيناهُ علىٰ نعشِهِ ، فكشفَ الثوبَ عنْ وجهِهِ واستوىٰ قاعداً وقالَ : إنِّي لقيتُ ربِّي عزَّ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٦٣) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٦) .

وجلَّ ، فحيَّاني بروحٍ وريحانٍ ، وربٌّ غيرِ غضبانَ ، وإنِّي رأيتُ الأمرَ أيسرَ ممَّا تظنُّونَ ، ولا تغترُّوا ، وإنَّ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينتظرُني وأصحابُهُ حتَّىٰ أرجعَ إليهِمْ ، قالَ : ثمَّ طرحَ نفسَهُ ، فكأنَّها كانَتْ حصاةً وقعَتْ في طستٍ ، فحملناهُ ودفناهُ[1] .

وفي الحديثِ : « أنَّ رجلينِ مِنْ بني إسرائيلَ تواخيا في اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكانَ أحدُهُما يسرفُ علىٰ نفسِهِ ، وكانَ الآخرُ عابداً ، وكانَ يعظُهُ ويزجرُهُ ، فكانَ يقولُ : دعْني وربِّي ، أبُعثتَ عليَّ رقيباً ، حتَّىٰ رآهُ ذاتَ يومٍ علىٰ كبيرةٍ ، فغضبَ ، فقالَ : لا يغفرُ اللهُ لكَ ، قالَ : فيقولُ اللهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ : أيستطيعُ أحدٌ أنْ يحظرَ رحمتي علىٰ عبادي ؟! اذهبْ أنتَ فقدْ غفرتُ لكَ ، ثمَّ يقولُ للعابدِ : وأنتَ فقدْ أوجبتُ لكَ النارَ » ، قالَ : فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لقدْ تكلَّمَ بكلمةٍ أهلكَتْ دنياهُ وآخرتَهُ[2] .

ورُوِيَ أيضاً أنَّ لصّاً كانَ يقطعُ الطريقَ في بني إسرائيلَ أربعينَ سنةً ، فمرَّ عليهِ عيسىٰ عليهِ السلامُ ، وخلفَهُ عابدٌ مِنْ عبَّادِ بني إسرائيلَ مِنَ الحواريينَ ، فقالَ اللصُّ في نفسِهِ : هـٰذا نبيُّ اللهِ يمرُّ وإلىٰ جنبِهِ حواريُّهُ ، لوْ نزلتُ فكنتُ معهما ثالثاً ، قالَ : فنزلَ ، فجعلَ يريدُ أنْ يدنوَ مِنَ الحواريِّ ويزدري نفسَهُ تعظيماً للحواريِّ ويقولُ في نفسِهِ : مثلي لا يمشي إلىٰ جنبِ هـٰذا العابدِ ، قالَ : وأحسَّ بهِ الحواريُّ ، فقالَ في نفسِهِ : هـٰذا يمشي إلىٰ جانبي ، فضمَّ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٢) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠١) ، والقول في آخره لأبي هريرة رضي الله عنه .

منهُ نفسَهُ وتقدَّمَ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ ، فمشىٰ إلىٰ جانبِهِ ، فبقيَ اللصُّ خلفَهُ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليه السلامُ : قلْ لهما يستأنفا العملَ[1] ، فقدْ أحبطتُ ما سلفَ مِنْ أعمالِهِما ، أمَّا الحواريُّ . . فقدْ أحبطتُ حسناتِهِ لعجْبِهِ بنفسِهِ ، وأمَّا الآخرُ . . فقدْ أحبطتُ سيئاتِهِ بما أزرىٰ علىٰ نفسِهِ ، فأخبرَهُما بذلكَ ، وضمَّ اللصَّ إليهِ في سياحتِهِ ، وجعلَهُ مِنْ حوارِيِّهِ[2] .

ورُوِيَ عنْ مسروقٍ : أنَّ نبيّاً مِنَ الأنبياءِ كانَ ساجداً ، فوطىءَ بعضُ العتاةِ عنقَهُ حتَّىٰ ألزقَ الحصىٰ بجبهتِهِ ، قالَ : فرفعَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ رأسَهُ مغضباً فقالَ : اذهبْ فلنْ يغفرَ اللهُ لكَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : تتألَّىٰ عليَّ في عبادي ؟! إنِّي قدْ غفرتُ لهُ[3] .

ويقربُ مِنْ هٰذا ما روى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقنتُ على المشركينَ ويلعنُهُمْ في صلاتِهِ ، فنزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ . . . ﴾ الآيةَ ، فتركَ الدعاءَ عليهِمْ ، وهدى اللهُ تعالىٰ عامَّةَ أولئكَ للإسلامِ[4] .

ورُوِيَ في الأثرِ : أنَّ رجلينِ كانا مِنَ العابدينَ ، متساويينِ في العبادةِ ،

---

(١) في (أ) : (ليستأنفا العمل) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٣) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٢٢٣) .
(٤) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٣) ، ورواه البخاري (٤٠٧٠) ، ومسلم (٦٧٥) من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم .

قالَ : فإذا أُدخلا الجنةَ . . رُفعَ أحدُهُما في الدرجاتِ العلا علىٰ صاحبِهِ ، فيقولُ : يا ربِّ ، ما كانَ هـٰذا في الدنيا بأكثرَ منِّي عبادةً ، فرفعتَهُ عليَّ في عليينَ ، فيقولُ اللهُ سبحانَهُ : إنَّهُ كانَ يسألني في الدنيا الدرجاتِ العلا وأنتَ كنتَ تسألني النجاةَ مِنَ النارِ ، فأعطيتُ كلَّ عبدٍ سؤلَهُ[1] .

وهـٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ العبادةَ على الرجاءِ أفضلُ ؛ لأنَّ المحبَّةَ أغلبُ على الراجي منها على الخائفِ ، فكمْ مِنْ فرْقٍ في الملوكِ بينَ مَنْ يُخدمُ اتقاءً لعقابِهِ ، وبينَ مَنْ يُخدمُ ارتجاءً لإنعامِهِ وإكرامِهِ ، ولذلكَ أمرَ اللهُ تعالىٰ بحسنِ الظنِّ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سلوا اللهَ الدرجاتِ العلا ؛ فإنَّما تسألونَ كريماً »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا سألتُمُ اللهَ . . فأعظموا الرغبةَ ، وسلوا الفردوسَ الأعلىٰ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ »[3] .

وقالَ بكرُ بنُ سليمٍ الصوافُ : دخلنا علىٰ مالكِ بنِ أنسٍ في العشيَّةِ التي

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٤) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٤) ، وروى الترمذي (٢٥٧١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « سلوا الله من فضله ؛ فإن الله عز وجل يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » .

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٩) ولفظه : « إذا دعا أحدكم . . فلا يقل : اللهم ؛ اغفر لي إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » .
وروى البخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « فإذا سألتم الله . . فاسألوه الفردوس ؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » .

قُبِضَ فيها ، فقلنا : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ كيفَ تجدُكَ ؟ قالَ : لا أدري ما أقولُ لكُمْ ، إلا أنَّكُمْ ستعاينونَ مِنْ عفوِ اللهِ ما لمْ يكنْ لكمْ في حسابٍ ، ثمَّ ما برحنا حتَّىٰ أغمضناهُ[1] .

وقال يحيىٰ بنُ معاذٍ في مناجاتِهِ : (يكادُ رجائي لكَ معَ الذنوبِ يغلبُ رجائي لكَ معَ الأعمالِ ؛ لأنِّي أعتمدُ في الأعمالِ على الإخلاصِ ، وكيفَ أحرزُها وأنا بالآفةِ معروفٌ ؟! وأجدني في الذنوبِ أعتمدُ علىٰ عفوِكَ ، وكيفَ لا تغفرُها وأنتَ بالجودِ موصوفٌ ؟!)[2] .

وقيلَ : إنَّ مجوسيّاً استضافَ إبراهيمَ الخليلَ عليهِ السلامُ ، فقالَ : إنْ أسلمتَ . . أضفتُكَ ، فمرَّ المجوسيُّ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : يا إبراهيمُ ؛ لمْ تطعمْهُ إلا بتغييرِ دينِهِ ونحنُ مِنْ سبعينَ سنةً نطعمُهُ علىٰ كفرِهِ ؟! فلوْ أضفتَهُ ليلةً ماذا كانَ عليكَ ؟ فمرَّ إبراهيمُ يسعىٰ خلفَ المجوسيِّ ، فردَّهُ وأضافَهُ ، فقالَ لهُ المجوسيُّ : ما السببُ فيما بدا لكَ ؟ فذكرَ لهُ : فقالَ لهُ المجوسيُّ : أهكذا يعاملُني ؟ ثمَّ قالَ : اعرضْ عليَّ الإسلامَ ، فأسلمَ[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٥) ، ومن طريقه رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٤٦) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٦) .

(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٧) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/١٨٩) : (وجه تعلق هـٰذا بالرجاء : أنه تعالىٰ يجعل الأسباب الضعيفة موصلة لغفران الذنوب العظيمة) .

ورأى الأستاذُ أبو سهلٍ الصُّعْلُوكيُّ أبا سهلٍ الزجَّاجيَّ في المنامِ[1] ، وكانَ يقولُ بوعيدِ الأبدِ[2] ، فقالَ لهُ : كيفَ حالُكَ ؟ فقالَ : وجدنا الأمرَ أسهلَ ممَّا توهمنا[3] .

ورأىٰ بعضُهُمْ أبا سهلٍ الصُّعْلُوكيَّ في المنامِ علىٰ هيئةٍ حسنةٍ لا تُوصفُ ، فقالَ لهُ : يا أستاذُ ؛ بمَ نلتَ هٰذا ؟ فقالَ : بحسنِ ظنِّي بربِّي[4] .

وحُكِيَ أنَّ أبا العباسِ بنَ سُريجٍ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ رأىٰ في مرضِ موتِهِ في منامِهِ كأنَّ القيامةَ قدْ قامَتْ ، وإذا الجبَّارُ سبحانَهُ يقولُ : أينَ العلماءُ ؟ قالَ : فجاؤوا ، ثمَّ قالَ : ماذا عملتُمْ فيما علمتُمْ ؟ قالَ : فقلنا : يا ربِّ ؛ قصَّرنا وأسأْنا ، قالَ : فأعادَ السؤالَ كأنَّهُ لمْ يرضَ بالجوابِ وأرادَ جواباً غيرَهُ ، فقلتُ : أمَّا أنا.. فليسَ في صحيفتي الشركُ ، وقدْ وعدتَ أنْ تغفرَ ما دونَهُ ، فقالَ : اذهبوا بهِ ، فقدْ غفرتُ لكُمْ ، وماتَ بعدَ ذلكَ بثلاثِ ليالٍ[5] .

وقيلَ : كانَ رجلٌ شِرِّيبٌ جمعَ قوماً مِنْ ندمائِهِ ، ودفعَ إلىٰ غلامٍ لهُ أربعةَ

---

(١) وضبطه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ١٨٩) فقال : (الصعلوكي : بفتح الصاد وسكون العين المهملتين) .

(٢) فسوَّىٰ بين الوعد والوعيد من حيث وجوب الإنجاز ، فلو أوعد الله بعقاب.. فعنده لا بدَّ من وقوعه .

(٣) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٤٧) .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٢٤٧) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٩) .

دراهمَ ، وأمرَهُ أنْ يشتري شيئاً مِنَ الفواكهِ للمجلسِ ، فمرَّ الغلامُ ببابِ مجلسِ منصورِ بنِ عمَّارٍ ، وهوَ يسألُ لفقيرٍ شيئاً ويقولُ : مَنْ دفعَ إليهِ أربعةَ دراهمَ . . دعوتُ لهُ أربعَ دعواتٍ ، قالَ : فدفعَ الغلامُ الدراهمَ إليهِ ، فقالَ منصورٌ : ما الذي تريدُ أنْ أدعوَ لكَ ؟ فقالَ : لي سيِّدٌ أريدُ أنْ أتخلَّصَ منهُ ، فدعا منصورٌ ، وقالَ : الأخرى ؟ فقالَ : أنْ يخلفَ اللهُ عليَّ دراهمي ، فدعا ، ثمَّ قالَ : الأخرى ؟ قالَ : أنْ يتوبَ اللهُ علىٰ سيِّدي ، فدعا ، ثمَّ قالَ : الأخرى ؟ فقالَ : أنْ يغفرَ اللهُ لي ولسيِّدي ولكَ وللقومِ ، فدعا منصورٌ .

فرجعَ الغلامُ ، فقالَ لهُ سيِّدُهُ : لِمَ أبطأتَ ؟ فقصَّ عليهِ القصَّةَ ، قالَ : وبمَ دعا ، فقالَ : سألتُ لنفسي العتقَ ، فقالَ لهُ : اذهبْ فأنتَ حرٌّ ، قالَ : وأيشِ الثاني ؟ قالَ : أنْ يُخلفَ اللهُ عليَّ الدراهمَ ، فقالَ : لكَ أربعةُ آلافِ درهم ، وأيشِ الثالثُ ؟ قالَ : أنْ يتوبَ اللهُ عليكَ ، قالَ : تبتُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وأيشِ الرابعُ ؟ قالَ : أنْ يغفرَ اللهُ لي ولكَ وللقومِ وللمذكِّرِ ، قالَ : هٰذا الواحدُ ليسَ إليَّ ، فلمَّا باتَ تلكَ الليلةَ . . رأىٰ في المنامِ كأنَّ قائلاً يقولُ لهُ : أنتَ فعلتَ ما كانَ إليكَ ، أفترىٰ أني لا أفعلُ ما إليَّ ؟! قدْ غفرتُ لكَ وللغلامِ ولمنصورِ بنِ عمارٍ وللقومِ الحاضرينَ أجمعينَ[1] .

ورُوِيَ عنْ عبدِ الوهَّابِ بنِ عبدِ المجيدِ الثقفيِّ قالَ : رأيتُ جنازةً يحملُها

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٤٩) .

ثلاثةٌ مِنَ الرجالِ وامرأةٌ ، قالَ : فأخذتُ مكانَ المرأةِ ، وذهبنا إلى المقبرةِ ، وصلَّينا عليها ، ودفنا الميِّتَ ، فقلتُ للمرأةِ : مَنْ كانَ هـٰذا الميتُ منكِ ؟ قالتِ : ابني ، قلتُ : ولمْ يكنْ لكُمْ جيرانٌ ؟ قالَتْ : بلىٰ ، ولكنْ صغَّروا أمرَهُ ، فقلتُ : وأيشٍ كانَ هـٰذا ؟ قالتْ : مخنَّثاً ، قالَ : فرحمتُها وذهبتُ بها إلىٰ منزلي ، وأعطيتُها دراهمَ وحنطةً وثياباً ، قالَ : فرأيتُ تلكَ الليلةَ كأنَّهُ أتاني آتٍ كأنَّهُ القمرُ ليلةَ البدرِ ، وعليهِ ثيابٌ بيضٌ ، فجعلَ يتشكَّرُ لي ، فقلتُ : مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : المخنَّثُ الذي دفنتموني اليومَ ، رحمَني ربِّي باحتقارِ الناسِ إيَّايَ(١) .

وقالَ إبراهيمُ الأُطْروشُ : كنَّا قعوداً ببغدادَ معَ معروفٍ الكرخيِّ علىٰ دجلةَ ، إذْ مرَّ قومٌ أحداثٌ في زورقٍ يضربونَ بالدفِّ ويشربونَ ويلعبونَ ، فقالوا لمعروفٍ : أما تراهُمْ يعصونَ اللهَ تعالىٰ مجاهرينَ ؟ ادعُ اللهَ عليهِمْ ، فرفعَ يديهِ وقالَ : إلـٰهي ؛ كما فرَّحتَهُمْ في الدنيا ففرِّحْهُمْ في الآخرةِ ، فقالَ القومُ : إنَّما سألناكَ أنْ تدعوَ عليهِمْ ، فقالَ : إذا فرَّحَهُمْ في الآخرةِ . . تابَ عليهِمْ(٢) .

وكانَ بعضُ السلفِ يقولُ في دعائِهِ : يا ربِّ ؛ وأيُّ أهلِ دهرٍ لمْ يعصوكَ ؟ ثمَّ كانَتْ نعمتُكَ عليهِمْ سابغةً ، ورزقُكَ عليهِمْ دارّاً ، سبحانَكَ ما أحلمَكَ ! وعزَّتِكَ ؛ إنَّكَ لتُعصىٰ ثمَّ تسبغُ النعمةَ وتدرُّ الرزقَ حتَّىٰ كأنَّكَ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٥٠) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٢٧٦) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٢٥١) .

يا ربَّنا إنَّما تُطاعُ ، سبحانَكَ ما أحلمَكَ ! تُعصىٰ وتدرُّ الرزقَ وتسبغُ النعمة حتىٰ لكأنَّكَ يا ربَّنا لا تغضبُ[1] .

فهٰذهِ هيَ الأسبابُ التي يُجتلبُ بها روحُ الرجاءِ إلىٰ قلوبِ الخائفينَ والآيسينَ ، فأمَّا الحمقى المغرورونَ . . فلا ينبغي أنْ يسمعوا شيئاً مِنْ ذلكَ ، بلْ يسمعونَ ما سنوردُهُ في أسبابِ الخوفِ ، فإنَّ أكثرَ الناسِ لا يصلحُ إلا على الخوفِ ؛ كالعبدِ السوءِ والصبيِّ العَرِمِ[2] ، لا يستقيمُ إلا بالسوطِ والعصا ، وإظهارِ الخشونةِ في الكلامِ ، وأمَّا ضدُّ ذلكَ . . فيُسدُّ عليهِمْ بابُ الصلاحِ في الدينِ والدنيا .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥١) .

(٢) العرم : الشرس .

الشَّطْرُ الثَّاني مِنَ الكِتَاب

في الخوف

وفيهِ بيانُ حقيقةِ الخوفِ ، وبيانُ درجاتِهِ ، وبيانُ أقسامِ المخاوفِ ، وبيانُ فضيلةِ الخوفِ ، وبيانُ الأفضلِ مِنَ الخوفِ والرجاءِ ، وبيانُ دواءِ الخوفِ ، وبيانُ معنىٰ سوءِ الخاتمةِ ، وبيانُ أحوالِ الخائفينَ مِنَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ والصالحينَ رحمةُ اللهِ عليهِمْ .

بيان حقيقة الخوف

اعلمْ : أنَّ الخوفَ عبارةٌ عنْ تألُّمِ القلبِ واحتراقِهِ بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في الاستقبالِ ، وقدْ ظهرَ هـٰذا في بيانِ حقيقةِ الرجاءِ .

ومَنْ أنسَ باللهِ ، وملكَ الحقُّ قلبَهُ ، وصارَ ابنَ وقتِهِ ، مشاهداً لجمالِ الحقِّ على الدوامِ . . لمْ يبقَ لهُ التفاتٌ إلى المستقبلِ ؛ فلمْ يكنْ لهُ خوفٌ ولا رجاءٌ ، بلْ صارَ حالُهُ أعلىٰ مِنَ الخوفِ والرجاءِ ، فإنَّهُما زمامانِ يمنعانِ النفسَ عنِ الخروجِ إلىٰ رعوناتِها .

وإلىٰ هـٰذا أشارَ الواسطيُّ حيثُ قالَ : (الخوفُ حجابٌ بينَ اللهِ وبينَ العبدِ)[1] .

---

(١) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٣٣) ، وأورده القشيري في « رسالته » =

وقالَ أيضاً : (إذا ظهرَ الحقُّ على السرائرِ . . لا يبقىٰ فيها فضلةٌ لرجاءٍ ولا خوفٍ)[1] .

وبالجملةِ : فالمحبُّ إذا شغلَ قلبَهُ في مشاهدةِ المحبوبِ بخوفِ الفراقِ . . كانَ ذلكَ نقصاً في الشهودِ ، وإنَّما دوامُ الشهودِ غايةُ المقاماتِ ، ولكنَّا الآنَ إنما نتكلَّمُ في أوائلِ المقاماتِ ، فنقولُ :

حالُ الخوفِ ينتظمُ أيضاً مِنْ علمٍ وحالٍ وعملٍ .

أمَّا العلمُ : فهوَ العلمُ بالسببِ المفضي إلى المكروهِ ، وذلكَ كمَنْ جنىٰ علىٰ ملكٍ ، ثمَّ وقعَ في يدهِ ، فيخافُ القتلَ مثلاً ، ويجوِّزُ العفوَ أوِ الإفلاتَ ، ولكنْ يكونُ تألُّمُ قلبهِ بالخوفِ بحسَبِ قوَّةِ علمِهِ بالأسبابِ المفضيةِ إلىٰ قتلِهِ ، وهوَ تفاحشُ جنايتِهِ ، وكونُ الملكِ في نفسِهِ حقوداً غضوباً منتقماً ، وكونُهُ محفوفاً بمَنْ يحثُّهُ على الانتقامِ ، خالياً عمَّنْ يتشفَّعُ إليهِ في حقِّهِ ، وكانَ هٰذا الخائفُ عاطلاً عنْ كلِّ وسيلةٍ وحسنةٍ تمحو أثرَ جنايتِهِ عندَ الملكِ . فالعلمُ بتظاهرِ هٰذهِ الأسبابِ سببٌ لقوَّةِ الخوفِ وشدَّةِ تألُّمِ القلبِ ، وبحسَبِ ضعفِ هٰذهِ الأسبابِ يضعفُ الخوفُ .

= (ص٢٣٧) ، وقال : (وهٰذا اللفظ فيه إشكال ، ومعناه : أن الخائف متطلع لوقت ثان ، وأبناء الوقت لا تطلع لهم في المستقبل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين) .

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص٢٣٩) ، وقال : (وهٰذا فيه إشكال ، ومعناه : إذا اصطلمت شواهد الحق تعالى الأسرار . . ملكتها ، فلا يبقىٰ فيها مساغ لذكر حدثان ، والخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بالأحكام البشرية) .

وقدْ يكونُ الخوفُ لا عنْ سببِ جنايةٍ قارفَها الخائفُ ، بلْ عنْ صفةِ المَخُوفِ ؛ كالذي وقَع في مخالبِ سبعٍ ؛ فإنَّهُ يخافُ السبعَ لصفةِ ذاتِ السبعِ ، وهيَ سطوتُهُ وحرصُهُ على الافتراسِ غالباً ، وإنْ كانَ افتراسُهُ بالاختيارِ .

وقدْ يكونُ مِنْ صفةٍ جبلِّيَّةٍ للمَخُوفِ منهُ ؛ كخوفِ مَنْ وقعَ في مجرىٰ سيلٍ أوْ جوارِ حريقٍ ؛ فإنَّ الماءَ يُخافُ لأنَّهُ بطبعِهِ مجبولٌ على السيلانِ والإغراقِ ، وكذا النارُ على الإحراقِ .

فالعلمُ بأسبابِ المكروهِ هوَ السببُ الباعثُ المثيرُ لاحتراقِ القلبِ وتألُّمِهِ ، وذلكَ الاحتراقُ هوَ الخوفُ ، فكذلكَ الخوفُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ تارةً يكونُ لمعرفةِ اللهِ تعالىٰ ومعرفةِ صفاتِهِ وأنَّهُ لوْ أهلكَ العالمينَ . . لمْ يبالِ ولمْ يمنعْهُ مانعٌ ، وتارةً يكونُ لكثرةِ الجنايةِ مِنَ العبدِ بمقارفةِ المعاصي ، وتارةً يكونُ بهما جميعاً .

وبحسَبِ معرفتِهِ بعيوبِ نفسِهِ ، ومعرفتِهِ بجلالِ اللهِ وتعاليهِ واستغنائِهِ ، وأنَّهُ لا يُسألُ عمَّا يفعلُ وهُمْ يُسألونَ . . تكونُ قوَّةُ خوفِهِ ، فأخوفُ الناسِ لربِّهِ أعرفُهُمْ بنفسِهِ وبربِّهِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا أخوفُكُمْ للهِ »[1] ،

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الرهط الثلاثة الذين تقالُّوا عمله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . . . » الحديث ، وعند البخاري (٦١٠١) ، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها : « فوالله ؛ إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

ولذلك قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ .

ثمَّ إذا كملَتِ المعرفةُ . . أورثَتْ حالَ الخوفِ واحتراقِ القلبِ ، ثمَّ يفيضُ أثرُ الحرقةِ مِنَ القلبِ على البدنِ ، وعلى الجوارحِ ، وعلى الصفاتِ .

أمَّا في البدنِ . . فبالنحولِ ، والصفارِ ، والغشيةِ ، والزعقةِ ، والبكاءِ ، وقدْ تنشقُّ بهِ المرارةُ فيفضي إلى الموتِ ، أوْ يصعدُ إلى الدماغِ فيفسدُ العقلَ ، أوْ يقوىٰ فيورثُ القنوطَ واليأسَ .

وأمَّا في الجوارحِ . . فبكفِّها عنِ المعاصي ، وتقييدِها بالطاعاتِ ؛ تلافياً لما فرطَ ، واستعداداً للمستقبلِ ، ولذلكَ قيلَ : (ليسَ الخائفُ مَنْ يبكي ويمسحُ عينيهِ ، بلْ مَنْ يتركُ ما يخافُ أنْ يُعاقبَ عليهِ)[1] .

وقالَ أبو القاسم الحكيمُ : (مَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ ، ومَنْ خافَ اللهَ . . هربَ إليهِ)[2] .

وقيلَ لذي النونِ : متىٰ يكونُ العبدُ خائفاً ؟ قالَ : إذا أنزلَ نفسَهُ منزلةَ السقيمِ الذي يحتمي مخافةَ طولِ السقامِ[3] .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٦) من كلام إسحاق بن خلف .
(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٣٦) ، وأبو القاسم هو إسحاق بن محمد السمرقندي ، وليس القشيري .
(٣) الرسالة القشيرية (ص ٢٣٦) .

وأمّا في الصفاتِ. . فهوَ أنْ يقمعَ الشهواتِ ، ويكدِّرَ اللذّاتِ ، فتصيرَ المعاصي المحبوبةُ عندَهُ مكروهةً كما يصيرُ العسلُ مكروهاً عندَ مَنْ يشتهيهِ إذا عرفَ أنَّ فيهِ سمّاً ، فتحترقُ الشهواتُ بالخوفِ ، وتتأدَّبُ الجوارحُ ، ويحصلُ في القلبِ الذبولُ ، والخشوعُ ، والذلَّةُ ، والاستكانةُ ، ويفارقُهُ الكبرُ ، والحقدُ ، والحسدُ ، بلْ يصيرُ مستوعبَ الهمِّ بخوفِهِ والنظرِ في خطرِ عاقبتِهِ ، فلا يتفرَّغُ لغيرِهِ ، ولا يكونُ لهُ شغلٌ إلا المراقبةُ ، والمحاسبةُ ، والمجاهدةُ ، والضنَّةُ بالأنفاسِ واللحظاتِ ، ومؤاخذةُ النفسِ في الخطراتِ والخطواتِ والكلماتِ ، ويكونُ حالُهُ حالَ مَنْ وقعَ في مخالبِ سبعٍ ضارٍ ، لا يدري أنَّهُ يغفُلُ عنهُ فيفلتُ ، أوْ يهجمُ عليهِ فيهلكُ ، فيكونُ ظاهرُهُ وباطنُهُ مشغولاً بما هوَ خائفٌ منهُ ، لا متسعَ فيهِ لغيرِهِ .

هٰذا حالُ مَنْ غلبَهُ الخوفُ واستولىٰ عليهِ ، وهٰكذا كانَ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ .

وقوَّةُ المراقبةِ والمحاسبةِ والمجاهدةِ بحسَبِ قوَّةِ الخوفِ الذي هَو تألُّمُ القلبِ واحتراقُهُ ، وقوَّةُ الخوفِ بحسَبِ قوَّةِ المعرفةِ بجلالِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وبعيوبِ النفسِ وما بينَ يديها مِنَ الأخطارِ والأهوالِ .

وأقلُّ درجاتِ الخوفِ ممَّا يظهرُ أثرُهُ في الأعمالِ أنْ يمنعَ عنِ المحظوراتِ ، ويُسمَّى الكفُّ الحاصلُ عنِ المحظوراتِ **ورعاً** ، فإنْ زادَتْ قوَّتُهُ . . كفَّ عمَّا يتطرَّقُ إليهِ إمكانُ التحريمِ ، فيكفُّ عمَّا لا يُتيقَّنُ أيضاً

تحريمَهُ ، ويُسمَّىٰ ذلكَ **تقوىٰ**[1] ؛ إذِ التقوىٰ أنْ يتركَ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، وقدْ يحملُهُ علىٰ أنْ يتركَ ما لا بأسَ بهِ مخافةَ ما بهِ بأسٌ ، وهوَ **الصدقُ في التقوىٰ** ، فإذا انضمَّ إليهِ التجرُّدُ للخدمةِ ، فصارَ لا يبني ما لا يسكنُهُ ، ولا يجمعُ ما لايأكلُهُ ، ولا يلتفتُ إلىٰ دنيا يعلمُ أنَّها تفارقُهُ ، ولا يصرفُ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ نَفَساً مِنْ أنفاسِهِ . . فهوَ **الصدْقُ** ، وصاحبُهُ جديرٌ بأنْ يُسمَّىٰ صدِّيقاً ، ويدخلُ في الصدقِ التقوىٰ ، ويدخلُ في التقوى الورعُ ، ويدخلُ في الورعِ **العفَّةُ** ؛ فإنَّها عبارةٌ عنِ الامتناعِ عنْ مقتضى الشهواتِ خاصةً .

فإذاً ؛ الخوفُ يؤثِّرُ في الجوارحِ بالكفِّ والإقدامِ ، ويتجدَّدُ لهُ بسببِ الكفِّ اسمُ العفَّةِ ، وهوَ كفٌّ عنْ مقتضى الشهوةِ ، وأعلَىٰ منهُ الورعُ ، فإنَّهُ أعمُّ ؛ لأنَّهُ كفٌّ عنْ كلِّ محظورٍ ، وأعلىٰ منهُ التقوىٰ ، فإنَّهُ اسمٌ للكفِّ عنِ المحظورِ والشبهةِ جميعاً ، ووراءَهُ اسمُ **الصدِّيقِ** والمقرَّبِ ، وتجري الرتبةُ الأخيرةُ ممَّا قبلَها مجرى الأخصِّ مِنَ الأعمِّ ، فإذا ذكرتَ الأخصَّ . . فقدْ ذكرتَ الكلَّ ، كما أنَّكَ تقولُ : الإنسانُ إمَّا عربيٌّ وإمَّا عجميٌّ ، والعربيُّ إمَّا قرشيٌّ أوْ غيرُهُ ، والقرشيُّ إمَّا هاشميٌّ أوْ غيرُهُ ، والهاشمِّيُّ إمَّا علويٌّ أوْ غيرُهُ ، والعلويُّ إمَّا حسنيٌّ أوْ حسينيٌّ ، فإذا ذكرتَ أنَّهُ حسنيٌّ مثلاً . . فقدْ

---

(١) وهـٰذه هي الدرجة الثالثة من درجات الورع ، وهي ما لا تحرمه الفتوىٰ ولا شبهة في حلِّه ، ولكن يُخاف أداؤه إلىٰ محرم ، وهو ورع المتقين . « إتحاف » (٩/ ١٩٩) .

وصفتَهُ بالجميعِ ، وإنْ وصفتَهُ بأنَّهُ علويٌّ . . وصفتَهُ بما هوَ فوقَهُ ممَّا هوَ أعمُّ منهُ ، فكذلكَ إذا قلتَ : صدِّيقٌ . . فقدْ قلتَ : إنَّهُ متقٍ وورعٌ وعفيفٌ ، فلا ينبغي أنْ تظنَّ أنَّ كثرةَ هـٰذهِ الأسامي تدلُّ علىٰ معانٍ كثيرةٍ متباينةٍ ، فيختلطَ عليكَ كما اختلطَ علىٰ كلِّ مَنْ طلبَ المعانيَ مِنَ الألفاظِ ، ولمْ يتبعِ الألفاظَ المعانيَ .

فهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ مجامعِ معاني الخوفِ ، وما يكتنفُهُ مِنْ جانبِ العلوِ ؛ كالمعرفةِ الموجبةِ لهُ ، ومن جانبِ السفلِ ؛ كالأعمالِ الصادرةِ منهُ كفّاً وإقداماً .

* * *

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلمْ : أنَّ الخوفَ محمودٌ ، وربما يُظنُّ أنَّ كلَّ ما هوَ محمودٌ فكلَّما كانَ أقوىٰ وأكثرَ . . كانَ أحمدَ ، وهوَ غلطٌ ، بلِ الخوفُ سوطُ اللهِ تعالىٰ يسوقُ بهِ عبادَهُ إلى المواظبةِ على العلمِ والعملِ ؛ لينالوا بهما رتبةَ القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، والأصلحُ للبهيمةِ ألا تخلوَ عنْ سوطٍ ، وكذا الصبيُّ ، ولكنَّ ذلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّ المبالغةَ في الضرْبِ محمودةٌ ، وكذلكَ الخوفُ لهُ قصورٌ ، ولهُ إفراطٌ ، ولهُ اعتدالٌ ، والمحمودُ هوَ الاعتدالُ والوسطُ .

فأمَّا القاصرُ منهُ . . فهوَ الذي يجري مَجرىٰ رقَّةِ النساءِ ، يخطرُ بالبالِ عندَ سماعِ آيةٍ مِنَ القرآنِ ، فيورثُ البكاءَ ، وتفيضُ الدموعُ ، وكذلكَ عندَ مشاهدةِ سببٍ هائلٍ ، فإذا غابَ ذلكَ السببُ عنِ الحسِّ . . رجعَ القلبُ إلى الغفلةِ ، فهٰذا خوفٌ قاصرٌ قليلُ الجدوىٰ ضعيفُ النفعِ ، وهوَ كالقضيبِ الضعيفِ الذي تضربُ بهِ دابّةً قويّةً لا يؤلمُها ألماً مبرحاً ، فلا يسوقُها إلى المقصدِ ، ولا يصلحُ لرياضتِها .

وهكذا خوفُ الناسِ كلِّهِمْ إلا العارفينَ والعلماءَ ، ولستُ أعني بالعلماءِ المترسمينَ برسومِ العلماءِ ، والمتسمينَ بأسمائِهِمْ ؛ فإنَّهُمْ أبعدُ الناسِ عنِ الخوفِ، بلْ أعني العلماءَ باللهِ وبأيامِهِ وبأفعالِهِ، وذلكَ ممَّا قدْ عزَّ وجودُهُ الآنَ .

ولذلكَ قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمَهُ اللهُ : (إذا قيلَ لكَ : هلْ

تخافُ اللهَ : فاسكتْ ؛ فإنَّكَ إنْ قلتَ : لا . . كفرتَ ، وإنْ قلتَ : نعمْ . . كذبتَ)[1] ، وأشارَ بهِ إلىٰ أنَّ الخوفَ هوَ الذي يكفُّ الجوارحَ عنِ المعاصي ، ويقيِّدُها بالطاعاتِ ، وما لمْ يؤثِّرْ في الجوارحِ . . فهوَ حديثُ نفْسٍ وحركةُ خاطرٍ ، لا يستحقُّ أنْ يُسمَّىٰ خوفاً .

وأمَّا المفرِطُ . . فهوَ الذي يقوىٰ ويجاوزُ حدَّ الاعتدالِ حتَّىٰ يخرجَ إلى اليأسِ والقنوطِ ، وهوَ مذمومٌ أيضاً ؛ لأنَّهُ يمنعُ مِنَ العملِ ، والمرادُ مِنَ الخوفِ ما هوَ المرادُ مِنَ السوطِ ، وهوَ الحملُ على العملِ ، ولولاهُ . . لما كانَ الخوفُ كمالاً ؛ لأنَّهُ بالحقيقةِ نقصانٌ ؛ لأنَّ منشأَهُ الجهلُ والعجزُ :

أمَّا الجهلُ . . فإنَّهُ ليسَ يدري عاقبةَ أمرِهِ ، ولوْ عرفَ . . لمْ يكنْ خائفاً ؛ لأنَّ المَخُوفَ هوَ الذي يُتردَّدُ فيهِ .

وأمَّا العجزُ . . فهوَ أنَّهُ متعرضٌ لمحذورٍ لا يقدرُ علىٰ دفعِهِ .

فإذاً ؛ هوَ محمودٌ بالإضافةِ إلىٰ نقصِ الآدميِّ ، وإنَّما المحمودُ في نفسِهِ وذاتِهِ هوَ العلمُ والقدرةُ ، وكلُّ ما يجوزُ أنْ يُوصفَ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وما لا يجوزُ وصفُ اللهِ بهِ . . فليسَ بكمالٍ في ذاتِهِ ، وإنَّما يصير محموداً بالإضافةِ إلىٰ نقْصٍ أعظمَ منهُ ، كما يكونُ احتمالُ ألمِ الدواءِ محموداً لأنَّهُ أهونُ مِنْ ألمِ المرضِ والموتِ ، فما يخرجُ إلى القنوطِ فهوَ مذمومٌ .

وقدْ يخرجُ الخوفُ أيضاً إلى المرضِ والضعفِ ، وإلى الولهِ والدهشةِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٦) .

وزوالِ العقلِ ، وقدْ يخرجُ إلى الموتِ ، وكلُّ ذلكَ مذمومٌ ، وهوَ كالضربِ الذي يقتلُ الصبيَّ ، والسوطِ الذي يهلكُ الدابّةَ أوْ يمرضُها أوْ يكسرُ عضواً مِنْ أعضائِها ، وإنَّما ذكرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسبابَ الرجاءِ وأكثرَ منها ليعالجَ بها صدمةَ الخوفِ المفرطِ المفضي إلى القنوطِ أوْ أحدِ هٰذهِ الأمورِ ، فكلُّ ما يرادُ لأمرٍ فالمحمودُ منهُ ما يفضي إلى المرادِ المقصودِ منهُ ، وما يقصرُ عنهُ أوْ يجاوزُهُ فهوَ مذمومٌ .

وفائدةُ الخوفِ : الحذرُ ، والورعُ ، والتقوىٰ ، والمجاهدةُ ، والعبادةُ ، والفكرُ ، والذكرُ ، وسائرُ الأسبابِ الموصلةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وكلُّ ذلكَ يستدعي الحياةَ معَ صحَّةِ البدنِ وسلامةِ العقلِ ، فكلُّ ما يقدحُ في هٰذهِ الأسبابِ فهوَ مذمومٌ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : مَنْ خافَ فماتَ مِنْ خوفِهِ فهوَ شهيدٌ ، فكيفَ يكونُ حالُهُ مذموماً ؟!

فاعلمْ : أنَّ معنىٰ كونِهِ شهيداً أنَّ لهُ رتبةً بسببِ موتِهِ مِنَ الخوفِ كانَ لا ينالُها لوْ ماتَ في ذلكَ الوقتِ لا بسببِ الخوفِ ، فهوَ بالإضافةِ إليهِ فضيلةٌ ، فأمَّا بالإضافةِ إلىٰ تقديرِ بقائِهِ وطولِ عمرِهِ في طاعةِ اللهِ وسلوكِ سبلِهِ . . فليسَ بفضيلةٍ ، بلْ للسالكِ سبيلَ اللهِ تعالىٰ بطريقِ الفكرِ والمشاهدةِ والترقِّي في درجاتِ المعارفِ في كلِّ لحظةٍ رتبةُ شهيدٍ وشهداءَ ، ولولا

هـٰذا . . لكانَتْ رتبةُ صبيٍّ يُقتلُ أوْ مجنونٍ يفترسُهُ سبعٌ أعلىٰ مِنْ رتبةِ نبيٍّ أوْ وليٍّ يموتُ حتفَ أنفِهِ ، وهوَ محالٌ ، فلا ينبغي أنْ يُظنَّ هـٰذا ، بلْ أفضلُ السعاداتِ طولُ العمرِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ ما أبطلَ العمرَ أوِ العقلَ أوِ الصحَّةَ التي يتعطَّلُ العمرُ بتعطُّلِها . . فهوَ خسرانٌ ونقصانٌ بالإضافةِ إلىٰ أمورٍ ، وإنْ كانَ بعضُ أقسامِها فضيلةً بالإضافةِ إلىٰ أمورٍ أخرَ ؛ كما كانَتِ الشهادةُ فضيلةً بالإضافةِ إلىٰ ما دونَها ، لا بالإضافةِ إلىٰ درجةِ النبيِّينَ والصدِّيقينَ .

فإذاً ؛ الخوفُ إنْ لمْ يؤثِّرْ في العملِ . . فوجودُهُ كعدمِهِ ؛ مثلُ السوطِ الذي لا يزيدُ في حركةِ الدابَّةِ ، وإنْ أثَّرَ . . فلهُ درجاتٌ بحسَبِ ظهورِ أثرِهِ ، فإنْ لمْ يحملْ إلا على العفَّةِ وهيَ الكفُّ عنْ مقتضى الشهواتِ . . فلهُ درجةٌ ، فإنْ أثمرَ الورعَ . . فهوَ أعلىٰ ، وأقصىٰ درجاتِهِ أنْ يثمرَ درجاتِ الصدِّيقينَ ، وهوَ أنْ يسلبَ الظاهرَ والباطنَ عمَّا سوى اللهِ حتَّىٰ لا يبقىٰ لغيرِ اللهِ فيهِ متسعٌ ، فهـٰذا أقصىٰ ما يُحمدُ منهُ ، وذلكَ معَ بقاءِ الصحَّةِ والعقلِ .

فإنْ جاوزَ هـٰذا إلىٰ إزالةِ العقلِ أوِ الصحَّةِ . . فهوَ مرضٌ يجبُ علاجُهُ إنْ قدرَ عليهِ ، ولوْ كانَ محموداً . . لما وجبَ علاجُهُ بأسبابِ الرجاءِ وبغيرِهِ حتَّىٰ يزولَ ، ولذلكَ كانَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ يقولُ للمريدينَ الملازمينَ للجوعِ أياماً كثيرةً : (احفظوا عقولَكُمْ ؛ فإنَّهُ لمْ يكنْ للهِ تعالىٰ وليٌّ ناقصُ العقلِ)[1] .

❋ ❋ ❋

(1) قوت القلوب (١/ ٢٣٨) .

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلىٰ ما يُخاف منه

اعلمْ : أنَّ الخوفَ لا يتحقَّقُ إلا بانتظارِ مكروهٍ ، والمكروهُ إمَّا أنْ يكونَ مكروهاً في ذاتِهِ كالنارِ ، وإمَّا أنْ يكونَ مكروهاً لأنَّهُ يفضي إلى المكروهِ ؛ كما تُكرهُ المعاصي لأدائِها إلىٰ مكروهٍ في الآخرةِ ، وكما يكرهُ المريضُ الفواكهَ المضرَّةَ لأدائِها إلى الموتِ ، ولا بدَّ لكلِّ خائفٍ أنْ يتمثَّلَ في نفسِهِ مكروهاً مِنْ أحدِ القسمينِ ، ويقوى انتظارُهُ في قلبِهِ حتَّىٰ يحترقَ قلبُهُ بسببِ استشعارِهِ ذلكَ المكروهَ .

ومقامُ الخائفينَ يختلفُ فيما يغلبُ علىٰ قلوبِهِمْ مِنَ المكروهاتِ المحذورةِ ، فالذينَ يغلبُ علىٰ قلوبِهِمْ ما ليسَ مكروهاً لذاتِهِ بلْ لغيرِهِ ؛ كالذينَ يغلبُ عليهِمْ خوفُ الموتِ قبلَ التوبةِ ، أوْ خوفُ نقضِ التوبةِ ونكثِ العهدِ ، أوْ خوفُ ضعفِ القوَّةِ عنِ الوفاءِ بتمامِ حقوقِ اللهِ ، أوْ خوفُ زوالِ رقَّةِ القلبِ وتبدُّلِها بالقساوةِ أوْ خوفُ الميلِ عَنِ الاستقامةِ ، أوْ خوفُ استيلاءِ العادةِ فِي اتباعِ الشهواتِ المألوفةِ ، أوْ خوفُ أنْ يكلَهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ حسناتِهِ التي اتكلَ عليها وتعزَّزَ بها في عبادِ اللهِ ، أوْ خوفُ البطرِ بكثرةِ نعَمِ اللهِ عليهِ ، أوْ خوفُ الاشتغالِ عنِ اللهِ بغيرِ اللهِ ، أوْ خوفُ الاستدراجِ بتواترِ النعَمِ ، أوْ خوفُ انكشافِ غوائلِ طاعاتِهِ حيثُ يبدو لهُ مِنَ اللهِ ما لمْ يكنْ يحتسبُ ، أوْ خوفُ تبعاتِ الناسِ عندَهُ في الغيبةِ والخيانةِ والغشِّ وإضمارِ السوءِ ، أوْ

خوفُ ما لا يدري أنَّهُ يحدثُ في بقيَّةِ عمرِهِ ، أوْ خوفُ تعجيلِ العقوبةِ في الدنيا والافتضاحِ قبلَ الموتِ ، أوْ خوفُ الاغترارِ بزخارفِ الدنيا ، أوْ خوفُ اطلاعِ اللهِ علىٰ سريرتِهِ في حالِ غفلتِهِ عنهُ ، أوْ خوفُ الختْمِ لهُ عندَ الموتِ بخاتمةِ السوءِ ، أوْ خوفُ السابقةِ التي سبقَتْ لهُ في الأزلِ . . فهـٰذِهِ كلُّها مخاوفُ العارفينَ ، ولكلِّ واحدٍ خصوصُ فائدةٍ ، وهوَ سلوكُ سبيلِ الحذرِ عمَّا يفضي إلى المَخُوفِ .

فمَنْ يخافُ استيلاءَ العادةِ عليهِ . . فيواظبُ على الفطامِ عنِ العادةِ ، والذي يخافُ مِنِ اطلاعِ اللهِ علىٰ سريرتِهِ يشتغلُ بتطهيرِ قلبِهِ عنِ الوساوسِ ، وهـٰكذا إلىٰ بقيةِ الأقسامِ .

وأغلبُ هـٰذِهِ المخاوفِ على المتقينَ خوفُ الخاتمةِ ، فإنَّ الأمرَ فيهِ مُخْطِرٌ ، وأعلى الأقسامِ وأدلُّها علىٰ كمالِ المعرفةِ خوفُ السابقةِ ؛ لأنَّ الخاتمةَ تتبعُ السابقةَ ، وفرعٌ يتفرعُ عنها بعدَ تخلُّلِ أسبابٍ كثيرةٍ ، فالخاتمةُ تُظهرُ ما سبقَ بهِ القضاءُ في أمِّ الكتابِ .

والخائفُ مِنَ الخاتمةِ بالإضافةِ إلى الخائفِ مِنَ السابقةِ كرجلينِ وقَّعَ الملكُ في حقِّهما بتوقيعٍ ، يحتملُ أنْ يكونَ فيهِ حزُّ الرقبةِ ، ويحتملُ أنْ يكونَ فيهِ تسليمُ الوزارةِ إليهِ ، ولمْ يصلِ التوقيعُ إليهما بعدُ ، فيرتبطُ قلبُ أحدِهما بحالةِ وصولِ التوقيعِ ونشرِهِ ، وأنَّهُ عمَّاذا يظهرُ ، ويرتبطُ قلبُ الآخرِ بحالةِ توقيعِ الملكِ وكيفيتِهِ وأنَّهُ ما الذي خطرَ لهُ في حالِ التوقيعِ مِنْ رحمةٍ أوْ

غضبٍ ، وهـٰذا التفاتٌ إلى السببِ ، فهوَ أعلىٰ مِنَ الالتفاتِ إلىٰ ما هوَ فرعٌ ؛ فكذلكَ الالتفاتُ إلى القضاءِ الأزليِّ الذي جرىٰ بتوقيعِهِ القلمُ أعلىٰ مِنَ الالتفاتِ إلىٰ ما يظهرُ في الأبدِ .

وإليهِ أشارَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ حيثُ كانَ على المنبرِ ، فقبضَ كفَّهُ اليمنىٰ ثمَّ قالَ : « هـٰذا كتابُ اللهِ ، كُتبَ فيهِ أهلُ الجنَّةِ بأسمائِهِمْ وأسماءِ آبائِهِمْ ، لا يُزادُ فيهِمْ ولا ينقصُ » ، ثمَّ قبضَ كفَّهُ اليسرىٰ وقالَ : « هـٰذا كتابُ اللهِ ، كُتبَ فيهِ أهلُ النارِ بأسمائِهِمْ وأسماءِ آبائِهِمْ ، لا يُزادُ فيهِمْ ولا ينقصُ ، وليعملنَّ أهلُ السعادةِ بعملِ أهلِ الشقاءِ حتَّىٰ يُقالَ كأنهُمْ منهُمْ ، بلْ هُمْ هُمْ ، ثمَّ يستنقذُهُمُ اللهُ تعالىٰ قبلَ الموتِ ولوْ بفُواقِ ناقةٍ ، وليعملنَّ أهلُ الشقاءِ بعملِ أهلِ السعادةِ حتَّىٰ يُقالَ كأنَّهُمْ منهُمْ ، بلْ هُمْ هُمْ ، ثمَّ يستخرجُهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ قبلَ الموتِ ولوْ بفُواقِ ناقةٍ ، السعيدُ مَنْ سعدَ بقضاءِ اللهِ ، والشقيُّ مَنْ شقيَ بقضاءِ اللهِ ، والأعمالُ بالخواتيمِ »[1] .

وهـٰذا كانقسامِ الخائفينَ إلىٰ مَنْ يخافُ معصيتَهُ وجنايتَهُ ، وإلىٰ مَنْ يخافُ اللهَ تعالىٰ نفسَهُ لصفتِهِ وجلالِهِ وأوصافِهِ التي تقتضي الهيبةَ لا محالةَ ، فهـٰذا أعلىٰ رتبةً ، ولذلكَ يبقىٰ خوفُهُ وإنْ كانَ في طاعةِ الصدِّيقينَ ، وأمَّا الآخَرُ . فهوَ في عرضةِ الغرورِ ، والأمنِ إنْ واظبَ على الطاعاتِ .

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ومطلعه : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان ، فقال : « أتدرون ما هـٰذان الكتابان ؟ » ثم ساقه بنحوه .

فالخوفُ مِنَ المعصيةِ خوفُ الصالحينَ ، والخوفُ مِنَ اللهِ خوفُ الموحِّدينَ والصدِّيقينَ ، وهوَ ثمرةُ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، فكلُّ مَنْ عرفَهُ وعرفَ صفاتِهِ . . علمَ مِنْ صفاتِهِ ما هوَ جديرٌ بأنْ يُخافَ مِنْ غيرِ جنايةٍ ، بلِ العاصي لوْ عرفَ اللهَ حقَّ المعرفةِ . . لخافَ اللهَ ولمْ يخفْ معصيتَهُ ، ولولا أنَّهُ مَخُوفٌ في نفسِهِ . . لما سخَّرَهُ للمعصية ، ويسَّرَ لهُ سبيلَها ، ومهَّدَ لهُ أسبابَها ، فإنَّ تيسيرَ أسبابِ المعصيةِ إبعادٌ ، ولمْ يسبقْ منهُ قبلَ المعصيةِ معصيةٌ استحقَّ بها أنْ يسخَّرَ للمعصيةِ ، وتجريَ عليهِ أسبابُها ، ولا سبقَ قبلَ الطاعةِ وسيلةٌ توسَّل بَها مَنْ يُسِّرتْ لهُ الطاعاتُ ومُهِّدَ لهُ سبيلُ القرباتِ ، فالعاصي قدْ قضىٰ عليهِ بالمعصيةِ شاءَ أمْ أبىٰ ، وكذا المطيعُ ، فالذي يرفعُ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أعلىٰ عليينَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ سبقَتْ منهُ قبلَ وجودِهِ ، ويضعُ أبا جهل في أسفلِ سافلينَ مِنْ غيرِ جنايةٍ سبقَتْ منهُ قبلَ وجودِهِ . . جديرٌ بأنْ يُخافَ لصفةِ جلالِهِ ، فإنَّ مَنْ أطاعَ اللهَ . . أطاعَ بأنْ سلَّطَ عليهِ إرادةَ الطاعةِ ، وآتاهُ القدرةَ ، وبعدَ خلقِ الإرادةِ الجازمةِ والقدرةِ التامَّةِ يصيرُ الفعلُ ضرورياً ، والذي عصىٰ . . عصىٰ لأنَّهُ سلَّطَ عليهِ إرادةً قويَّةً جازمةً ، وآتاهُ الأسبابَ والقدرةَ ، فكانَ الفعلُ بعدَ الإرادةِ والقدرةِ ضرورياً .

فليتَ شعري ؛ ما الذي أوجبَ إكرامَ هـٰذا وتخصيصَهُ بتسليطِ إرادةِ الطاعاتِ عليهِ ، وما الذي أوجبَ إهانةَ الآخرِ وإبعادَهُ بتسليطِ دواعي المعصيةِ عليهِ ؟! وكيفَ يُحالُ ذلكَ على العبدِ ؟! وإذا كانتِ الحوالةُ ترجعُ إلى القضاءِ الأزليِّ مِنْ غيرِ جنايةٍ ولا وسيلةٍ . . فالخوفُ ممَّنْ يقضي

بما يشاءُ ويحكمُ بما يريدُ حزمٌ عندَ كلِّ عاقلٍ .

ووراءَ هـٰذا المعنىٰ سرُّ القدرِ الذي لا يجوزُ إفشاؤُهُ .

ولا يمكنُ تفهيمُ الخوفِ منهُ في صفاتِهِ جلَّ جلالُهُ إلا بمثالٍ لولا إذنُ الشرعِ . . لمْ يستجرىءْ علىٰ ذكرِهِ ذو بصيرةٍ ، فقدْ جاءَ في الخبرِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ خفْني كما تخافُ السبعَ الضاريَ)(1) .

فهـٰذا المثالُ يفهمُكَ حاصلَ المعنىٰ ، وإنْ كانَ لا يقفُ بكَ علىٰ سببِهِ ، فإنَّ الوقوفَ علىٰ سببِهِ وقوفٌ علىٰ سرِّ القدرِ ، ولا يُكشفُ ذلكَ إلا لأهلِهِ .

والحاصلُ : أنَّ السبعَ يُخافُ لا لجنايةٍ سبقَتْ إليهِ منكَ، بلْ لصفتِهِ وبطشِهِ وسطوتِهِ ، وكبرِهِ وهيبتِهِ ، ولأنَّهُ يفعلُ ما يفعلُ ولا يبالي ، فإنْ قتلكَ . . لم يرقَّ قلبُهُ ولمْ يتألَّمْ بقتلِكَ ، وإن خلاَّكَ . . لمْ يخلِّكَ شفقةً عليكَ وإبقاءً علىٰ روحِكَ ، بلْ أنتَ عندَهُ أخسُّ مِنْ أنْ يلتفتَ إليكَ حيّاً كنتَ أو ميتاً ، بلْ إهلاكُ ألفِ مثلِكَ وإهلاكُ نملةٍ عندَهُ علىٰ وتيرةٍ واحدةٍ ؛ إذْ لا يقدحُ ذلكَ في عالمِ سبعيتِهِ ، وما هوَ موصوفٌ بهِ مِنْ قدرتِهِ وسطوتِهِ ، وللهِ المثلُ الأعلىٰ .

---

(1) قوت القلوب (1/ 241) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً ، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات ، فإنه عبر عنه بقوله : جاء في الخبر ، وكثيراً ما يعبر بذلك عن الإسرائيليات التي هي غير مرفوعة) . « إتحاف » (9/ 207) .
وعند السيوطي في « الدر المنثور » (3/ 270) : (وأخرج ابن المنذر عن جعفر قال : أوحى الله إلىٰ داوود : خفني علىٰ كل حال . . .) .

ولكنْ مَنْ عرفَهُ . . عرفَ بالمشاهدةِ الباطنةِ التي هيَ أقوىٰ وأوثقُ وأجلىٰ مِنَ المشاهدةِ الظاهرةِ أنَّهُ صادقٌ في قولِهِ : (هؤلاءِ في الجنَّةِ ولا أبالي ، وهؤلاءِ في النارِ ولا أبالي)[1] ، ويكفيكَ مِنْ موجباتِ الهيبةِ والخوفِ المعرفةُ بالاستغناءِ وعدمِ المبالاةِ .

الطبقةُ الثانيةُ مِنَ الخائفينَ : أن يتمثَّلَ في أنفسِهِمْ ما هوَ المكروهُ ، وذلكَ مثلُ سكراتِ الموتِ وشدَّتِهِ ، أو سؤالِ منكرٍ ونكيرٍ ، أوْ عذابِ القبرِ ، أوْ هولِ المُطَّلَعِ ، أوْ هيبةِ الموقفِ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، أوِ الحياءِ مِنْ كشفِ السترِ والسؤالِ عنِ النقيرِ والقطميرِ ، أوِ الخوفِ مِنَ الصراطِ وحدَّتِهِ ، وكيفيَّةِ العبورِ عليهِ ، أوِالخوفِ مِنَ النارِ وأغلالِها وأهوالِها ، أوِ الخوفِ مِنَ الحرمانِ عنِ الجنَّةِ دارِ النعيمِ والملكِ المقيمِ ، وعنْ نقصانِ الدرجاتِ ، أو الخوفِ مِنَ الحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ .

وكلُّ هـٰذهِ الأسبابِ مكروهةٌ في أنفسِها ، فهيَ ـ لا محالةَ ـ مَخُوفةٌ ، وتختلفُ أحوالُ الخائفينَ فيها ، وأعلاها رتبةً هوَ خوفُ الفراقِ والحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ خوفُ العارفينَ ، وما قبلَ ذلكَ خوفُ العابدينَ والصالحينَ والزاهدينَ وكافةِ العاملينَ .

ومَنْ لمْ تكملْ معرفتُهُ ، ولمْ تنفتحْ بصيرتُهُ . . لمْ يشعرْ بلذَّةِ الوصالِ ،

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٨٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨) من حديث عبد الرحمـٰن السلمي رضي الله عنه مرفوعاً .

ولا بألمِ البعدِ والفراقِ ، وإذا ذُكرَ لهُ أنَّ العارفَ لا يخافُ النارَ ، وإنَّما يخافُ الحجابَ . . وجدَ ذلكَ منكراً في باطنِهِ ، وتعجَّبَ منهُ في نفسِهِ ، وربَّما أنكرَ لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ لولا منعُ الشرعِ إيَّاهُ مِنْ إنكارِهِ ، فيكونُ اعترافُهُ بهِ باللسانِ عنْ ضرورةِ التقليدِ ، وإلا . . فباطنُهُ لا يصدِّقُ بهِ ؛ لأنَّهُ لا يعرفُ إلا لذَّةَ البطنِ والفرجِ ، والعينِ بالنظرِ إلى الألوانِ والوجوهِ الحسانِ ، وبالجملةِ : كلُّ لذَّةٍ تشاركُهُ البهائمُ فيها ، فأمَّا لذَّةُ العارفينَ . . فلا يدركُها غيرُهُمْ ، وتفصيلُ ذلكَ وشرحُهُ حرامٌ معَ مَنْ ليسَ أهلاً لهُ ، ومَنْ كانَ أهلاً لهُ . . استبصرَ بنفسِهِ واستغنىٰ عنْ أنْ يشرحَهُ لهُ غيرُهُ .

فإلىٰ هـٰذهِ الأقسامِ يرجعُ خوفُ الخائفينَ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ حسنَ التوفيقِ بكرمِهِ .

* * *

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلمْ : أنَّ فضلَ الخوفِ تارةً يُعرفُ بالتأمُّلِ والاعتبارِ ، وتارةً بالآياتِ والأخبارِ .

أمَّا الاعتبارُ : فسبيلُهُ أنَّ فضيلةَ الشيءِ بقدْرِ غنائِهِ في الإفضاءِ إلىٰ سعادةِ لقاءِ اللهِ تعالىٰ في الآخرةِ ؛ إذْ لا مقصودَ سوى السعادةِ ، ولا سعادةَ للعبدِ إلا في لقاءِ مولاهُ والقرْبِ منهُ ، فكلُّ ما أعانَ عليهِ فلهُ فضيلةٌ ، وفضيلتُهُ بقدْرِ إعانتِهِ ، وقدْ ظهرَ أنَّه لا وصولَ إلىٰ سعادةِ لقاءِ اللهِ في الآخرةِ إلاّ بتحصيلِ محبَّتِهِ والأنسِ بِهِ فِي الدنيا ، ولا تحصلُ المحبَّةُ إلا بالمعرفةِ ، ولا تحصلُ المعرفةُ إلا بدوامِ الفكرِ ، ولا يحصلُ الأنسُ إلا بالمحبةِ ودوامِ الذكرِ ، ولا تتيسَّرُ المواظبةُ على الذكرِ والفكرِ إلا بانقلاعِ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، ولا ينقلعُ ذاكَ إلا بتركِ لذَّاتِ الدنيا وشهواتِها ، ولا يمكنُ تركُ المشتهَياتِ إلا بقمعِ الشهواتِ ، ولا تنقمعُ الشهوةُ بشيءٍ كما تنقمعُ بنارِ الخوفِ ، فالخوفُ هوَ النارُ المحرقةُ للشهواتِ .

فإذاً ؛ فضيلتُهُ بقدْرِ ما يحرقُ مِنَ الشهوةِ ، وبقدْرِ ما يكفُّ عنِ المعاصي ويحثُّ على الطاعاتِ ، ويختلفُ ذلكَ باختلافِ درجاتِ الخوفِ كما سبقَ .

وكيفَ لا يكونُ الخوفُ ذا فضيلةٍ وبهِ تحصلُ العفَّةُ ، والورعُ ،

والتقوىٰ ، والمجاهدةُ ، وهيَ الأعمالُ الفاضلةُ المحمودةُ التي يُتقرَّبُ بهَا إلى اللهِ زلفى ؟!

* * *

وأمَّا بطريقِ الاقتباسِ مِنَ الآياتِ والأخبارِ : فما وردَ في فضيلةِ الخوفِ خارجٌ عنِ الحصرِ ، وناهيكَ دلالةً علىٰ فضيلتِهِ جمعُ اللهِ تعالىٰ للخائفينَ الهدىٰ والرحمةَ والعلمَ والرضوانَ ، وهيَ مجامعُ مقاماتِ أهلِ الجنانِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، فوصفَهُمْ بالعلمِ لخشيتِهِمْ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ .

وكلُّ ما دلَّ علىٰ فضيلةِ العلمِ دلَّ علىٰ فضيلةِ الخوفِ ؛ لأنَّ الخوفَ ثمرةُ العلمِ ، ولذلكَ جاءَ في خبرِ موسىٰ عليهِ السلامُ : (وأمَّا الخائفونَ . . فإنَّ لهُمُ الرفيقَ الأعلىٰ ، لا يُشاركونَ فيهِ)[1] ، فانظرْ كيفَ أفردَهُمْ بمرافقةِ الرفيقِ الأعلىٰ ، وذلكَ لأنَّهُمُ العلماءُ ، والعلماءُ لهُمْ رتبةُ مرافقةِ الأنبياءِ ؛ لأنَّهُمْ ورثةُ الأنبياءِ ، ومرافقةُ الرفيقِ الأعلىٰ للأنبياءِ ومَنْ يلحقُ بهِمْ ، ولذلكَ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٥) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ضمن خبر ، وفيه : « وأما الباكون من خشيتي . . فأولئك لهم الرفيق الأعلىٰ لا يشاركهم فيه أحد » .

لمَّا خُيِّرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مرضِ موتِهِ بينَ البقاءِ في الدنيا وبينَ القدومِ على اللهِ تعالىٰ . . كانَ يقولُ : « أسألُكَ الرفيقَ الأعلىٰ »[1] .

فإذاً ؛ إنْ نظرَ إلىٰ مُثمرِهِ . . فهوَ العلمُ ، وإنْ نظرَ إلىٰ ثمرتِهِ . . فالورعُ والتقوىٰ ، ولا يخفىٰ ما وردَ في فضائلِهما ، حتَّىٰ إنَّ العاقبةَ صارَتْ موسومةً بالتقوىٰ مخصوصةً بها كما صارَ الحمدُ مخصوصاً باللهِ تعالىٰ والصلاةُ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حتَّىٰ يُقالُ : (الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والعاقبةُ للمتقينَ ، والصلاةُ علىٰ سيِّدِنا محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ) .

وقدْ خصَّصَ اللهُ تعالىٰ التقوىٰ بالإضافةِ إلىٰ نفسِهِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ، وإنَّما التقوىٰ عبارةٌ عنْ كفٍّ بمقتضى الخوفِ كما سبقَ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، ولذلكَ وصَّى اللهُ تعالى الأولينَ والآخرينَ بالتقوىٰ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، فأمرَ بالخوفِ وأوجبَهُ وشرطَهُ في الإيمانِ ، فلذلكَ لا يُتصوَّرُ أنْ ينفكَّ مؤمنٌ عنْ خوفٍ وإنْ ضعفَ ، ويكونُ ضعْفُ خوفِهِ بحسَبِ ضعْفِ معرفتِهِ وإيمانِهِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في فضيلةِ التقوىٰ : « إذا جمعَ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ لميقاتِ يومٍ معلومٍ . . ناداهُمْ بصوتٍ يُسمِعُ أقصاهُمْ كما

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٠) ، ومسلم (٢١٩١ ، ٢٤٤٤) .

يُسمِعُ أدناهُمْ فيقولُ : يا أيُّها الناسُ ؛ إنِّي قدْ أنصتُّ لكُمْ منذُ خلقتُكُمْ إلىٰ يومِكُمْ هـٰذا ، فأنصتوا لي اليومَ ، إنَّما هيَ أعمالُكُمْ تُردُّ عليكُمْ ، أيُّها الناسُ ؛ إنِّي قدْ جعلتُ نسباً وجعلتُمْ نسباً ، فوضعتُمْ نسبي ورفعتُمْ نسبَكُمْ ، قلتُ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، وأبيتُمْ إلا أنْ تقولوا : فلانُ بنُ فلانٍ ، وفلانٌ أغنىٰ مِنْ فلانٍ ، فاليومَ أضعُ نسبَكُمْ وأرفعُ نسبي ، أينَ المتقونَ ؟ فيُنصبُ للقومِ لواءٌ ، فيتبعُ القومُ لواءَهُمْ إلىٰ منازلِهِمْ ، فيدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « رأسُ الحكمةِ مخافةُ اللهِ »[2] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لابنِ مسعودٍ : « إنْ أردتَ أنْ تلقاني . . فأكثرْ مِنَ الخوفِ بعدي »[3] .

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ خافَ اللهَ . . دلَّهُ الخوفُ علىٰ كلِّ خيرٍ)[4] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٥) ، ورواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٣٠) ، و« الأوسط » (٤٥٠٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وفي « دلائل النبوة » (٥/ ٢٤١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ضمن خبر طويل ، وفيه : « رأس الحكم . . . » ، وتقدم أنه فاتحة الزبور ، وهو ما رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٣) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٦) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٦) .

وقالَ الشبليُّ رحمهُ اللهُ : (ما خفتُ اللهَ يوماً إلا رأيتُ لهُ باباً مِنَ الحكمةِ والعبرةِ ما رأيتُهُ قطُّ)[1] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (ما مِنْ مؤمنٍ يعملُ سيئةً إلا وتلحقُهُ حسنتانِ : خوفُ العقابِ ، ورجاءُ العفوِ ، كثعلبٍ بينَ أسدينِ)[2] .

وفي خبرِ موسىٰ عليه الصلاةُ والسلامُ : (وأمَّا الورعونَ . . فإنَّهُ لا يبقىٰ أحدٌ إلا ناقشتُهُ الحسابَ ، وفتشتُ عمَّا في يديهِ إلا الورعينَ ؛ فإنِّي أستحييهِمْ وأجلُّهُمْ أنْ أوقفَهُمْ للحسابِ)[3] .

والورعُ والتقوىٰ أسامٍ اشتقَّتْ مِنْ معانٍ شرطُها الخوفُ ، فإنْ خلا شيءٌ منها عنِ الخوفِ . . لمْ تُسمَّ بهـٰذهِ الأسامي .

وكذلكَ ما وردَ في فضائلِ الذكرِ لا يخفىٰ ، وقدْ جعلَهُ اللهُ تعالىٰ مخصوصاً بالخائفينَ ، فقالَ ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : وعزَّتي ؛ لا أجمعُ علىٰ عبدي خوفينِ ، ولا أجمعُ لهُ أمنينِ ، فإذا أمنَني في الدنيا . . أخفتُهُ يومَ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٨) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٨) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٧) .

القيامةِ ، وإذا خافَني في الدنيا . . أمَّنتُهُ يومَ القيامةِ »[1] .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خافَ اللهَ تعالىٰ . . خافَهُ كلُّ شيءٍ ، ومَنْ خافَ غيرَ اللهِ . . خوَّفَهُ اللهُ مِنْ كلِّ شيءٍ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتمُّكُمْ عقلاً أشدُّكُمْ للهِ تعالىٰ خوفاً ، وأحسنُكُمْ فيما أمرَ اللهُ تعالىٰ بهِ ونهىٰ عنهُ نظراً »[3] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ رحمةُ اللهِ عليهِ : (مسكينٌ ابنُ آدمَ ، لوْ خافَ النارَ كما يخافُ الفقرَ . . دخلَ الجنةَ)[4] .

وقالَ ذو النونِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (مَنْ خافَ اللهَ تعالىٰ . . ذابَ قلبُهُ ، واشتدَّ للهِ حبُّهُ ، وصحَّ لهُ لبُّهُ)[5] .

وقالَ ذو النونِ أيضاً : (ينبغي أنْ يكونَ الخوفُ أبلغَ مِنَ الرجاءِ ،

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » بإسناد معضل) . « إتحاف » (٢١١/٩) .

(٣) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (٤٥٨/١) .

(٤) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢١٥/١٤) ، وأورده القشيري في « رسالته » (ص٢٣٦) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٩) ، وبنحوه القشيري في « رسالته » (ص٢٣٨) .

فإذا غلبَ الرجاءُ . . تشوَّشَ القلبُ)[1] .

وكانَ أبو الحسينِ الضريرُ يقولُ : (علامةُ السعادةِ خوفُ الشقاوةِ ؛ لأنَّ الخوفَ زمامٌ بينَ اللهِ تعالىٰ وبينَ عبدِهِ ، فإذا انقطعَ زمامُهُ . . هلكَ معَ الهالكينَ)[2] .

وقيلَ ليحيىٰ بنِ معاذٍ : مَنْ آمنُ الخلقِ غداً ؟ قالَ : أشدُّهُمْ خوفاً اليومَ[3] .

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (لا تجدُ الخوفَ حتَّىٰ تأكلَ الحلالَ)[4] .

وقيلَ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ : كيفَ نصنعُ بمجالسةِ أقوامٍ يخوِّفونَنا حتَّىٰ تكادُ قلوبُنا تطيرُ ؟ فقالَ : إنَّكَ واللهِ أنْ تخالطَ أقواماً يخوِّفونَكَ حتَّىٰ يدركَكَ أمنٌ . . خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تصحبَ قوماً يؤمِّنونَكَ حتَّىٰ يدركَكَ الخوفُ[5] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (ما فارقَ الخوفُ قلباً إلا خربَ)[6] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ هوَ الرجلُ يسرقُ ويزني ؟ قالَ : « لا ، بلِ الرجلُ يصومُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٩) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٣٠) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٣١) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٣٢) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٣) ، وكان السائل له المغيرة بن مخادش .
(٦) رواه القشيري في « رسالته » (ص٢٣٧) .

ويصلِّي ويتصدَّقُ ويخافُ ألا يُقبلَ منهُ »[1] .

والتشديداتُ الواردةُ في الأمنِ مِنْ مكرِ اللهِ وعذابِهِ لا تنحصرُ ، وكلُّ ذلكَ ثناءٌ على الخوفِ ؛ لأنَّ مذمَّةَ الشيءِ ثناءٌ علىٰ ضدِّهِ الذي ينفيهِ ، وضدُّ الخوفِ الأمنُ ؛ كما أنَّ ضدَّ الرجاءِ اليأسُ ، وكما دلَّتْ مذمَّةُ القنوطِ علىٰ فضيلةِ الرجاءِ فكذلكَ تدلُّ مذمَّةُ الأمنِ علىٰ فضيلةِ الخوفِ المضادِّ لهُ .

بلْ نقولُ : كلُّ ما وردَ في فضلِ الرجاءِ فهوَ دليلٌ علىٰ فضْلِ الخوفِ ؛ لأنَّهُما متلازمانِ ؛ فإنَّ كلَّ مَنْ رجا محبوباً . . فلا بدَّ وأنْ يخافَ فوتَهُ ، فإنْ كانَ لا يخافُ فوتَهُ . . فهوَ إذاً لا يحبُّهُ ، فلا يكونُ بانتظارِهِ راجياً ، فالخوفُ والرجاءُ متلازمانِ ، يستحيلُ انفكاكُ أحدِهِما عنِ الآخرِ .

نعمْ ، يجوزُ أنْ يغلبَ أحدُهُما على الآخرِ وهما مجتمعانِ ، ويجوزُ أنْ يشتغلَ القلبُ بأحدِهِما ولا يلتفتُ إلى الآخرِ في الحالِ لغفلةٍ عنهُ ، وهٰذا لأنَّ مِنْ شرطِ الرجاءِ والخوفِ تعلُّقَهُما بما هوَ مشكوكٌ فيهِ ؛ إذِ المعلومُ لا يُرجىٰ ولا يُخافُ .

فإذاً ؛ المحبوبُ الذي يجوزُ وجودُهُ يجوزُ عدمُهُ لا محالةَ ، فتقديرُ وجودِهِ يروِّحُ القلبَ ، وهوَ الرجاءُ ، وتقديرُ عدمِهِ يوجعُ القلبَ ، وهوَ الخوفُ ، والتقديرانِ يتقابلانِ ـ لا محالةَ ـ إذا كانَ ذلكَ الأمرُ المنتظرُ مشكوكاً فيهِ .

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥) ، وابن ماجه (٤١٩٨) .

نعمْ ، أحدُ طرفيِ الشكِّ قدْ يترجَّحُ على الآخرِ بحضورِ بعضِ الأسبابِ ، ويُسمَّىٰ ذلكَ ظنّاً ، فيكونُ ذلكَ سببَ غلبةِ أحدِهما على الآخرِ ، فإذا غلبَ على الظنِّ وجودُ المحبوبِ . قويَ الرجاءُ وخفيَ الخوفُ بالإضافةِ إليهِ ، وكذا بالعكسِ .

وعلىٰ كلِّ حالٍ فهما متلازمانِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ .

ولذلكَ عبَّرَ العربُ عنِ الخوفِ بالرجاءِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أيْ : لا تخافونَ[1] ، وكثيراً ما وردَ في القرآنِ الرجاءُ بمعنى الخوفِ[2] ، وذلكَ لتلازمِهما ؛ إذْ عادةُ العربِ التعبيرُ عنِ الشيءِ بما يلازمُهُ .

بلْ أقولُ : كلُّ ما وردَ في فضلِ البكاءِ مِنْ خشيةِ اللهِ فهوَ إظهارٌ لفضيلةِ

---

(١) قال الإمام الطبري في « تفسيره » (١٤/٢٩/١١٧) : (وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال : معنىٰ ذلك : ما لكم لا تخافون لله عظمة ، وذلك أن الرجاء قد تضعه العرب إذا صحبه الجحد ـ النفي ـ في موضع الخوف) ، ثم أنشد قول أبي ذؤيب :

إذا لسعته النحل لم يرجُ لسعَها ‏ ‏ ‏ ‏ وخالفها في بيت نُوبٍ عواسلِ

(٢) ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ ؛ والمعنىٰ فيها : لا يخافون .

الخشيةِ ؛ فإنَّ البكاءَ ثمرةُ الخشيةِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ مؤمنٍ تخرجُ مِنْ عينيهِ دمعةٌ وإنْ كانَتْ مثلَ رأسِ الذبابِ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ ثمَّ تصيبُ شيئاً مِنْ حُرِّ وجهِهِ . . إلا حرَّمَهُ اللهُ على النارِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا اقشعرَّ قلبُ المؤمنِ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ . . تحاتَّتْ عنهُ خطاياهُ كما يتحاتُّ مِنَ الشجرةِ ورقُها »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يلجُ النارَ أحدٌ بكىٰ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ حتَّىٰ يعودَ اللبنُ في الضَّرْعِ »[3] .

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : ما النجاةُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أمسكْ عليكَ لسانَكَ ، وليسعْكَ بيتُكَ ، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ »[4] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنْها : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيدخلُ أحدٌ مِنْ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٩٧) ، وحُرُّ الوجه : ما أقبل عليك وبدا لك منه .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (١٣٢٢) ، وابن قانع في « معجم الصحابة » (١٤٠٥) من حديث العباس رضي الله عنه ، ولفظه : « إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله عز وجل . . تحاتت خطاياه كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها » .

(٣) رواه الترمذي (١٦٣٣) ، والنسائي (٦/ ١٢) .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٠٦) .

أمَّتِكَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ؟ قالَ : « نعمْ ، مَنْ ذكرَ ذنوبَهُ فبكىٰ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ قطرةٍ أحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ قطرةِ دمعٍ مِنْ خشيةِ اللهِ ، أوْ قطرةِ دمٍ أُهريقَتْ في سبيلِ اللهِ سبحانَهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ ارزقْني عينينِ هطَّالتينِ تشفيانِ بذروفِ الدمعِ قبلَ أنْ تصيرَ الدموعُ دماً والأضراسُ جمراً »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » وذكرَ منهُمْ رجلاً ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عيناهُ[4] .

وقالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنِ استطاعَ أنْ يبكيَ . . فليبكِ ، ومَنْ لمْ يستطعْ . . فليتباكَ)[5] .

وكانَ محمدُ بنُ المنكدرِ إذا بكىٰ . . مسحَ وجهَهُ ولحيتَهُ مِنْ دموعِهِ ويقولُ : (بلغَني أنَّ النارَ لا تأكلُ موضعاً مسَّتْهُ الدموعُ)[6] .

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢١٤) : (أغفله العراقي) .

(٢) رواه الترمذي (١٦٦٩) .

(٣) رواه الطبراني في « الدعاء » (١٤٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٨٥) ، وقال : (يعني : التضرع) .

(٦) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٧١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ٥٠) ، وروى البيهقي في « الشعب » (٧٨٦ ، ٧٨٧) عن علي كرم الله =

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنهُما : (ابكوا ، فإنْ لمْ تبكوا . . فتباكَوا ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ يعلمُ العلمَ أحدُكُمْ . . لصرخَ حتَّىٰ ينقطعَ صوتُهُ ، وصلَّىٰ حتَّىٰ ينكسرَ صلبُهُ)[1] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (ما تغرغرَتْ عينٌ بمائِها إلا لمْ يرهقْ وجهَ صاحبِها قترٌ ولا ذلةٌ يومَ القيامةِ ، فإنْ سالَتْ دموعُهُ . . أطفأَ اللهُ بأوَّلِ قطرةٍ منها بحاراً مِنَ النيرانِ ، ولوْ أنَّ رجلاً بكىٰ فِي أمَّةٍ ما عُذِّبَتْ تلكَ الأمَّةُ)[2] .

وقالَ أبو سليمانَ : (البكاءُ مِنَ الخوفِ ، والرجاءُ والطربُ مِنَ الشوقِ) .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : (والذي نفسي بيدِهِ ؛ لأنْ أبكيَ مِنْ خشيةِ اللهِ حتَّىٰ تسيلَ دموعي علىٰ وجنتي . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بجبلٍ مِنْ ذهبٍ)[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمروٍ رضيَ اللهُ عنهما : (لأنْ أدمعَ دمعةً مِنْ خشيةِ اللهِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بألفِ دينارٍ)[4] .

ورُوِيَ عنْ حنظلةَ قالَ : كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ،

= وجهه قال : (إذا دمعت عيناك وسالت دموعك علىٰ خدك . . فلا تكفها بثوبك ، وامسح بها وجهك حتىٰ تلقى الله بها) .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٨) .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٢١٥) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٦٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٦٦).

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٨١٦) .

فوعظَنا موعظةً رقَّتْ منها القلوبُ ، وذرفَتْ منها العيونُ ، وعرفنا أنفسَنا ، فرجعتُ إلىٰ أهلي ، فدنَتْ منِّي المرأةُ ، وجرىٰ بينَنا مِنْ حديثِ الدنيا ، فنسيتُ ما كنَّا عليهِ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأخذنا في الدنيا ، ثمَّ تذكَّرتُ ما كنتُ فيهِ ، وقلتُ في نفسي : قدْ نافقتُ حيثُ تحوَّلَ عنِّي ما كنتُ فيهِ مِنَ الخوفِ والرقَّةِ ، فخرجتُ وجعلتُ أنادي : نافقَ حنظلةُ ، فاستقبلَني أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : كلا لمْ ينافقْ حنظلةُ ، فدخلتُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأنا أقولُ : نافقَ حنظلةُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلا ، لمْ تنافقْ » ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ كنَّا عندَكَ ، فوعظتَنا موعظةً وجلَتْ منها القلوبُ ، وذرفَتْ منها العيونُ ، وعرفنا أنفسَنا ، فرجعتُ إلىٰ أهلي ، فأخذنا في حديثِ الدنيا ، ونسيتُ ما كنَّا عندَكَ عليهِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يا حنظلةُ ؛ لوْ أنَّكُمْ كنتُمْ أبداً علىٰ تلكَ الحالةِ . . لصافحَتكُمُ الملائكةُ في الطرقِ وعلىٰ فُرُشِكُمْ ، ولكنْ يا حنظلةُ ساعةً وساعةً »[1] .

فإذاً ؛ كلُّ ما وردَ في فضْلِ الرجاءِ والبكاءِ ، وفضلِ التقوىٰ والورعِ ، وفضلِ العلمِ ومذمَّةِ الأمنِ . . فهوَ دلالةٌ علىٰ فضْلِ الخوفِ ؛ لأنَّ جملةَ ذلكَ متعلقةٌ بهِ ، إمَّا تعلُّقَ السببِ ، أوْ تعلُّقَ المسبَّبِ .

* * *

(١) رواه مسلم (٢٧٥٠) بألفاظ مقاربة .

بيان أنّ الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرّجاء أو اعتدالهما

اعلمْ : أنَّ الأخبارَ في فضْلِ الخوفِ والرجاءِ قدْ كثرَتْ ، وربما ينظرُ الناظرُ إليهما فيعتريهِ شكٌّ في أنَّ الأفضلَ أيُّهما ؟

وقولُ القائلِ : الخوفُ أفضلُ أمِ الرجاءُ . . سؤالٌ فاسدٌ ، يضاهي قولَ القائلِ : الخبزُ أفضلُ أمِ الماءُ ، وجوابُهُ أنْ يُقالَ : الخبزُ أفضلُ للجائعِ ، والماءُ أفضلُ للعطشانِ ، فإنِ اجتمعا . . نُظرَ إلى الأغلبِ ، فإنْ كانَ الجوعُ أغلبَ . . فالخبزُ أفضلُ وإنْ كانَ العطشُ أغلبَ . . فالماءُ أفضلُ وإنِ استويا . . فهما متساويانِ ، وهٰذا لأنَّ كلَّ ما يُرادُ لمقصودٍ ففضلُهُ يظهرُ بالإضافةِ إلىٰ مقصودِهِ لا إلىٰ نفسِهِ .

والخوفُ والرجاءُ دواءانِ تُداوىٰ بهما القلوبُ ، ففضلُهُما بحَسبِ الداءِ الموجودِ ، فإنْ كانَ الغالبُ على القلبِ داءَ الأمنِ مِنْ مكرِ اللهِ والاغترارِ بهِ . . فالخوفُ أفضلُ ، وإنْ كانَ الأغلبُ هوَ اليأسَ والقنوطَ مِنْ رحمةِ اللهِ . . فالرجاءُ أفضلُ ، وكذلكَ إنْ كانَ الغالبُ على العبدِ المعصيةَ . . فالخوفُ أفضلُ .

ويجوزُ أنْ يُقالَ مطلقاً : الخوفُ أفضلُ ، على التأويلِ الذي يُقالُ فيهِ : الخبزُ أفضلُ مِنَ السكنجبينِ ، إذْ يُعالجُ بالخبزِ مرضُ الجوعِ ، وبالسكنجبينِ مرضُ الصفراءِ ، ومرضُ الجوعِ أغلبُ وأكثرُ ، فالحاجةُ إلى الخبزِ أكثرُ ،

فهوَ أفضلُ ، فبهٰذا الاعتبارِ غلبةُ الخوفِ أفضلُ ؛ لأنَّ المعاصيَ والاغترارَ على الخلقِ أغلبُ .

وإنْ نظرَ إلىٰ مطلعِ الخوفِ والرجاءِ . . فالرجاءُ أفضلُ ؛ لأنَّهُ مستقىً مِنْ بحرِ الرحمةِ ، ومستقى الخوفِ مِنْ بحرِ الغضبِ ، ومَنْ لاحظَ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ ما يقتضي اللطفَ والرحمةَ . . كانَتِ المحبَّةُ عليهِ أغلبَ ، وليسَ وراءَ المحبَّةِ مقامٌ ، وأمَّا الخوفُ . . فمستندُهُ الالتفاتُ إلى الصفاتِ التي تقتضي العنفَ ، فلا تمازجُهُ المحبَّةُ ممازجتَها للرجاءِ(١) .

وعلى الجملةِ : فما يُرادُ لغيرِهِ ينبغي أنْ يُستعملَ فيهِ لفظُ الأصلحِ ، لا لفظُ الأفضلِ ، فنقولُ : أكثرُ الخلقِ الخوفُ لهُمْ أصلحُ مِنَ الرجاءِ ، وذلكَ لأجلِ غلبةِ المعاصي ، فأمَّا التقيُّ الذي تركَ ظاهرَ الإثمِ وباطنَهُ ، وخفيَّهُ وجليَّهُ . . فالأصلحُ أنْ يعتدلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، ولذلكَ قيلَ : (لوْ وُزنَ خوفُ المؤمنِ ورجاؤُهُ . . لاعتدلا)(٢) .

---

(١) وممن نظر إلى المطلع صالح بن عبد الكريم ، فقد أورد الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٣٥) أنه قال : إن الرجاء والخوف في القلب لهما نوران ، فقيل : أيهما أشد ضياء ؟ قال : الرجاء ، فبلغ ذلك أبا سليمان ، فقال أبو سليمان : يا سبحان الله ! ما أعجب هٰذا الكلام ! الخوف يتشعب منه التقوىٰ والصوم والصلاة وأعمال البر ، والرجاء لا يتشعب منه هٰذه الخصال ، فكيف يكون أشد ضياء ؟! فبلغ ذلك صالحاً ، فقال : صدق أبو سليمان ، ولكن الرجاء رجع إلىٰ كرمه ، فصار أشد ضياء .

(٢) أورده كل من أبي النصر الطوسي في « اللمع » (ص٩١) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٢٧) ، والسلمي في « درجات المعاملات » (ص١٦٨) مرفوعاً ، =

ورُوِيَ أنَّ علياً رضيَ اللهُ عنهُ قالَ لبعضِ ولدِهِ : (يا بنيَّ ؛ خفِ اللهَ خوفاً ترىٰ أنَّكَ إنْ أتيتَهُ بحسناتِ أهلِ الأرضِ . . لمْ يتقبلْها منكَ ، وارجُ اللهَ رجاءً ترىٰ أنَّكَ إنْ أتيتَهُ بسيئاتِ أهلِ الأرضِ . . غفرَها لكَ)[1] .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ نوديَ : ليدخلِ النارَ كلُّ الناسِ إلا رجلاً واحداً . . لرجوتُ أنْ أكونَ أنا ذلكَ الرجلَ ، ولوْ نوديَ : ليدخلِ الجنَّةَ كلُّ الناسِ إلا رجلاً واحداً . . لخشيتُ أنْ أكونَ أنا ذلكَ الرجلَ)[2] ، وهـٰذهِ عبارةٌ عنْ غايةِ الخوفِ والرجاءِ ، واعتدالِهما معَ الغلبةِ والاستيلاءِ ، ولكنْ علىٰ سبيلِ التقاومِ والتساوي ، فمثلُ عمرَ رضيَ اللهَ عنهُ ينبغي أنْ يساويَ خوفَهُ رجاؤُهُ ، فأمَّا العاصي إذا ظنَّ أنَّهُ الرجلُ الذي استثنيَ مِنَ الذينَ أُمروا بدخولِ النارِ . . كانَ ذلكَ دليلاً على اغترارِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : مثلُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ لا ينبغي أنْ يتساوىٰ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، بلْ ينبغي أنْ يغلبَ رجاؤُهُ كما سبقَ في أوَّلِ كتابِ الرجاءِ ، وأنَّ قوَّتَهُ ينبغي أنْ تكونَ بحسَبِ قوَّةِ أسبابِهِ كما مُثِّل بالبذرِ والزرعِ ، ومعلومٌ أنَّ مَنْ بثَّ البذرَ

= وقد رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٣٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٠٨) من كلام مطرف بن عبد الله الشخير .

(١) أورده الآبي في « نثر الدر » (٥/ ١٩٠) عن الحسن ، ورواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٣٢) عن داوود بن شابور من وصية لقمان لابنه بلفظ : (خف الله خوفاً يحول بينك وبين الرجاء ، وارجه رجاء يحول بينك وبين الخوف) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٣) .

الصحيحَ في أرضٍ نقيَّةٍ وواظبَ علىٰ تعهُّدِها ، وجاءَ بجميعِ شروطِ الزراعةِ . . غلبَ علىٰ قلبهِ رجاءُ الإدراكِ ، ولمْ يكنْ خوفُهُ مساوياً لرجائِهِ ، فهكذا ينبغي أنْ تكونَ أحوالُ المتقينَ .

فاعلمْ : أنَّ مَنْ يأخذُ المعارفَ مِنَ الألفاظِ والأمثلةِ يكثرُ زللُهُ ، وذلكَ وإنْ أوردناهُ مثالاً ، فليسَ يضاهي ما نحنُ فيهِ مِنْ كلِّ وجهٍ ؛ لأنَّ سببَ غلبةِ الرجاءِ العلمُ الحاصلُ بالتجربةِ ، إذْ علمَ بالتجربةِ صحَّةَ الأرضِ ونقاءَها ، وصحَّةَ البذْرِ ، وصحَّةَ الهواءِ ، وقلَّةَ الصواعقِ المهلكةِ في تلكَ البقاعِ وغيرِها ، وإنَّما مثالُ مسألتِنا بذرٌ لمْ يُجرَّبْ جنسُهُ ، وقدْ بُثَّ في أرضٍ غريبةٍ لمْ يعهدْها الزارعُ ولمْ يختبرْها ، وهيَ في بلادٍ ليسَ يُدرىٰ أتكثرُ الصواعقُ بها أمْ لا ، فمثلُ هـٰذا الزارعِ وإنْ أدَّىٰ كنْهَ مجهودِهِ وجاءَ بكلِّ مقدورِهِ فلا يغلبُ رجاؤُهُ علىٰ خوفِهِ .

والبذْرُ في مسألتِنا هوَ الإيمانُ ، وشروطُ صحَّتِهِ دقيقةٌ ، والأرضُ القلبُ ، وخفايا خبثِهِ وصفائِهِ مِنَ الشركِ الخفيِّ والنفاقِ والرياءِ ، وخبايا الأخلاقِ فيهِ غامضةٌ ، والآفاتُ هيَ الشهواتُ وزخارفُ الدنيا ، والتفاتُ القلبِ إليها في مستقبلِ الزمانِ وإنْ سلمَ في الحالِ ، وذلكَ ممَّا لا يُتحقَّقُ ولا يُعرفُ بالتجربةِ ؛ إذْ قدْ يعرضُ مِنَ الأسبابِ ما لا يُطاقُ مخالفتُهُ ، ولمْ يُجرَّبْ مثلُهُ ، والصواعقُ هيَ أهوالُ سكراتِ الموتِ ، واضطرابُ الاعتقادِ عندَهُ ، وذلكَ ممَّا لمْ يُجرَّبْ مثلُهُ ، ثمَّ الحصادُ والإدراكُ عندَ المنصرَفِ مِنَ القيامةِ إلى الجنَّةِ ، وذلكَ لمْ يُجرَّبْ .

فمَنْ عرفَ حقائقَ هٰذهِ الأمورِ ؛ فإنْ كانَ ضعيفَ القلبِ ، جباناً في نفسِهِ . . غلبَ خوفُهُ علىٰ رجائِهِ لا محالةَ ، كما سنحكي في أحوالِ الخائفينَ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ ، وإنْ كانَ قويَّ القلبِ ، ثابتَ الجأْشِ ، تامَّ المعرفةِ . . استوىٰ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، فأمَّا أنْ يغلبَ رجاؤُهُ . . فلا .

❊ ❊ ❊

ولقدْ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يبالغُ في تفتيشِ قلبِهِ ، حتَّىٰ كانَ يسألُ حذيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ هلْ يعرفُ بهِ مِنْ آثارِ النفاقِ شيئاً ، إذْ كانَ قدْ خصَّهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعلمِ المنافقينَ ، فمَنْ ذا الذي يقدرُ علىٰ تطهيرِ قلبهِ مِنْ خفايا النفاقِ والشركِ الخفيِّ ؟ وإنِ اعتقدَ نقاءَ قلبِهِ عنْ ذلكَ . . فمِنْ أينَ يأمنُ مكرَ اللهِ تعالىٰ بتلبيسِ حالِهِ عليهِ ، وإخفاءِ عيبِهِ عنهُ ؟ وإنْ وثقَ بهِ . . فمِنْ أينَ يثقُ ببقائِهِ علىٰ ذلكَ إلىٰ تمامِ حسنِ الخاتمةِ ؟

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجنَّةِ خمسينَ سنةً ، حتَّىٰ لا يبقىٰ بينهُ وبينَ الجنَّةِ إلا شبرٌ ـ وفي روايةٍ : إلا قدْرُ فُواقِ ناقةٍ ـ فيسبقُ عليهِ الكتابُ ، فيُختمُ لهُ بعملِ أهلِ النارِ »[1] ، وقدْرُ فواقِ

---

(1) كذا في « القوت » (١/٢٢٦) ، وهو عند مسلم (٢٦٥١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، ولفظه : « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة » .

ورواه الطبراني في « الأوسط » (٢٤٦٩) وفيه : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة =

الناقةِ لا يحتملُ عملاً بالجوارحِ ، إنَّما هوَ بمقدارِ خاطرٍ يختلجُ في القلبِ عندَ الموتِ ، فيقتضي خاتمةَ السوءِ ، فكيفَ يُؤمنُ ذلكَ ؟!

فإذاً ؛ أقصىٰ غاياتِ المؤمنِ أنْ يعتدلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ ، وأمَّا غلبةُ الرجاءِ في غالبِ الناسِ يكونُ مستندُهُ الاغترارَ وقلَّةَ المعرفةِ ، ولذلكَ جمعَ اللهُ تعالىٰ بينَهُما في وصفِ مَنْ أثنىٰ عليهِمْ ، فقالَ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ، وأينَ مثلُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ؟!

فالخلقُ الموجودونَ في هٰذا الزمانِ كلُّهُمُ الأصلحُ لهُمْ غلبةُ الخوفِ ، بشرطِ ألا يخرجَهُمْ إلى اليأسِ وتركِ العملِ ، وقطعِ الطمعِ مِنَ المغفرةِ ، فيكونُ ذلكَ سبباً للتكاسلِ عنِ العملِ ، وداعياً إلى الانهماكِ في المعاصي ، فإنَّ ذلكَ قنوطٌ وليسَ بخوفٍ ، إنَّما الخوفُ هوَ الذي يحثُّ على العملِ ، ويكدِّرُ جميعَ الشهواتِ ، ويزعجُ القلبَ عنِ الركونِ إلى الدنيا ، ويدعوهُ إلى التجافي عنْ دارِ الغرورِ ، فهوَ الخوفُ المحمودُ ، دونَ حديثِ النفسِ الذي لا يؤثِّرُ في الكفِّ والحثِّ ، ودونَ اليأسِ الموجبِ للقنوطِ .

وقدْ قالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (مَنْ عبدَ اللهَ تعالىٰ بمحضِ الخوفِ . . غرقَ في بحارِ الأفكارِ ، ومَنْ عبدَهُ بمحضِ الرجاءِ . . تاهَ في مفازةِ الاغترارِ ، ومَنْ عبدَهُ بالخوفِ والرجاءِ . . استقامَ في محجَّةِ الأذكارِ)[1] .

= سبعين سنة . . . » ، وليس فيه ذكر الشبر والفواق ، بل فيه ذكر الذراع كما هو عند البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) .

(١) قوت القلوت (١/ ٢٤٢) .

وقالَ مكحولٌ النسفيُّ : (مَنْ عبدَ اللهَ بالخوفِ . . فهوَ حروريٌّ ، ومَنْ عبدَهُ بالرجاءِ . . فهوَ مرجِئٌ ، ومَنْ عبدَهُ بالمحبَّةِ . . فهوَ زنديقٌ ، ومَنْ عبدَهُ بالخوفِ والرجاءِ والمحبةِ . . فهوَ موحِّدٌ)[1] .

فإذاً ؛ لا بدَّ مِنَ الجمعِ بينَ هٰذهِ الأمورِ ، وغلبةُ الخوفِ هوَ الأصلحُ ، ولكنْ قبلَ الإشرافِ على الموتِ ، فأمَّا عندَ الموتِ . . فالأصلحُ غلبةُ الرجاءِ وحسنُ الظنِّ ؛ لأنَّ الخوفَ جارٍ مَجرى السوطِ الباعثِ على العملِ ، وقدِ انقضىٰ وقتُ العملِ ، فالمشرفُ على الموتِ لا يقدرُ على العملِ ، ثمَّ لا يطيقُ أسبابَ الخوفِ ، فإنَّ ذلكَ يقطعُ نياطَ قلبِهِ ، ويعينُ علىٰ تعجيلِ موتِهِ ، وأمَّا رَوْحُ الرجاءِ . . فإنَّهُ يقوي قلبَهُ ، ويحبِّبُ إليهِ ربَّهُ الذي إليهِ رجاؤُهُ .

ولا ينبغي أنْ يفارقَ أحدٌ الدنيا إلا محبّاً للهِ تعالىٰ ؛ ليكونَ محبّاً للقاءِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهَ . . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ ، والرجاءُ تقارنُهُ المحبَّةُ ، فمَنِ ارتجىٰ كرمَهُ . . فهوَ محبوبٌ ، والمقصودُ مِنَ العلومِ والأعمالِ كلِّها معرفةُ اللهِ ، حتَّىٰ تثمرَ المعرفةُ المحبَّةَ ، فإنَّ المصيرَ إليهِ ،

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٤٢) حيث قال : (وقال مكحول النسفي رحمه الله تعالىٰ في معناه ـ أي : معنىٰ قول يحيى بن معاذ السابق ـ إلا أنه جاوز فيه الحد) وذكره ، ووقع في (أ) : (الشامي) ، وفي (س) : (الدمشقي) بدل (النسفي) ، وتصدىٰ لبيان هٰذه العبارة الإمام تقي الدين السبكي في « فتاويه » (٢/ ٥٥٥) ، وأورد الإمام أبو عبد الرحمٰن السلمي في « تفسيره » (٢/ ١٣٨) عن أحمد بن يسع السجزي نحوه .

والقدومَ بالموتِ عليهِ ، ومَنْ قدمَ علىٰ محبوبِهِ . . عظمَ سرورُهُ بقدْرِ محبَّتِهِ ، ومَنْ فارقَ محبوبَهُ . . اشتدَّتْ محنتُهُ وعذابُهُ .

فمهما كانَ القلبُ الغالبُ عليهِ عندَ الموتِ حبُّ الأهلِ والولدِ والمالِ والمسكنِ والعقارِ والرفقاءِ والأصحابِ . . فهٰذا رجلٌ محابُّهُ كلُّها في الدنيا ، فالدنيا جنَّتُهُ ، إذِ الجنَّةُ عبارةٌ عنِ البقعةِ الجامعةِ لجميعِ المحابِّ ، فموتُهُ خروجٌ مِنَ الجنَّةِ ، وحيلولةٌ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ ، ولا يخفىٰ حالُ مَنْ يُحالُ بينَهُ وبينَ ما يشتهيهِ .

فأمَّا إذا لمْ يكنْ لهُ محبوبٌ سوى اللهِ تعالىٰ وسوىٰ ذكرِهِ ومعرفتِهِ والفكرِ فيهِ . . فالدنيا وعلائقُها شاغلةٌ لهُ عنِ المحبوبِ ، فالدنيا إذاً سجنُهُ ؛ لأنَّ السجنَ عبارةٌ عنِ البقعةِ المانعةِ للمحبوسِ عنِ الانسراحِ إلىٰ محابِّهِ ، فموتُهُ قدومٌ علىٰ محبوبِهِ وخلاصٌ مِنَ السجنِ ، ولا يخفىٰ حالُ مَنْ أفلتَ مِنَ السجنِ وخُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ بلا مانعٍ ولا مكدِّرٍ ، فهٰذا أوَّلُ ما يلقاهُ كلُّ مَنْ فارقَ الدنيا عَقيبَ موتِهِ مِنَ الثوابِ والعقابِ ، فضلاً عمَّا أعدَّهُ اللهُ لعبادِهِ الصالحينَ ممَّا لمْ ترهُ عينٌ ولمْ تسمعْهُ أذنٌ ، ولا خطرَ عَلَىٰ قلْبِ بشرٍ ، وفضلاً عمَّا أعدَّهُ اللهُ تعالىٰ للذينَ استحبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ ورضوا بها واطمأنوا إليها ؛ مِنَ الأنكالِ ، والسلاسلِ والأغلالِ ، وضروبِ الخزيِ والنكالِ ، فنسألُ اللهُ تعالىٰ أنْ يتوفَّانا مسلمينَ ، ويلحقَنا بالصالحينَ .

ولا مطمعَ في إجابةِ هٰذا الدعاءِ إلا باكتسابِ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، ولا سبيلَ

إليهِ إلا بإخراجِ حبِّ غيرِهِ مِنَ القلبِ ، وقطعِ العلائقِ عنْ كلِّ ما سوى اللهِ تعالىٰ مِنْ جاهٍ ومالٍ ووطنٍ ، فالأولىٰ أنْ ندعوَ بما دعا بهِ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « اللهمَّ ؛ ارزقْني حبَّكَ ، وحبَّ مَنْ أحبَّكَ ، وحبَّ ما يقربُني إلىٰ حبِّكَ ، واجعلْ حبَّكَ أحبَّ إليَّ مِنَ الماءِ الباردِ »[1] .

والغرضُ أنَّ غلبةَ الرجاءِ عندَ الموتِ أصلحُ ؛ لأنَّهُ أجلبُ للمحبَّةِ ، وغلبةُ الخوفِ قبلَ الموتِ أصلحُ ؛ لأنَّهُ أحرقُ لنارِ الشهواتِ ، وأقمعُ لمحبَّةِ الدنيا عنِ القلب .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يموتنَّ أحدُكُمْ إلا وهوَ يحسنُ الظنَّ بربِّهِ »[2] .

وقالَ تعالىٰ : « أنا عند ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ »[3] .

ولمَّا حضرَتْ سليمانَ التيميَّ الوفاةُ.. قالَ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ حدِّثْني بالرُّخَصِ ، واذكرْ ليَ الرجاءَ ؛ حتَّىٰ ألقى اللهَ علىٰ حسنِ الظنِّ بهِ)[4] .

---

(١) وكان من دعاء داوود علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، كما روىٰ ذلك الترمذي (٣٤٩٠) .

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧/ ٨٢) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٣) ، وأصله في « الصحيحين » .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣١) .

وكذلكَ لمَّا حضرَتِ الثوريَّ الوفاةُ واشتدَّ جزعُهُ.. جمعَ العلماءَ حولَهُ يُرجُّونَهُ[1] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ لابنِهِ عندَ الموتِ : (اذكرْ ليَ الأخبارَ التي فيها الرجاءُ وحسنُ الظنِّ)[2] .

والمقصودُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ أنْ يحبِّبَ اللهَ إلىٰ نفسِهِ .

ولذلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : أنْ حبِّبْني إلىٰ عبادي ، فقالَ : بماذا ؟ قالَ : بأنْ تذكِّرَهُمْ آلائي ونعمائي[3] .

فإذاً ؛ غايةُ السعادةِ أنْ يموتَ العبدُ محبّاً للهِ تعالىٰ ، وإنَّما تحصلُ المحبَّةُ بالمعرفةِ ، وبإخراجِ حبِّ الدنيا مِنَ القلبِ ، حتَّىٰ تصيرَ الدنيا كالسجنِ المانعِ مِنَ المحبوبِ .

ولذلكَ رأىٰ بعضُ الصالحينَ أبا سليمانَ الدارانيَّ في المنامِ وهوَ يطيرُ ، فسألَهُ ، فقالَ : الآنَ أفلتُّ ، فلمَّا أصبحَ.. سألَ عنْ حالِهِ ، فقيلَ لهُ : إنَّهُ ماتَ البارحةَ .

❋ ❋ ❋

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١٩) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢١٩) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٢) ، ولكن عنده مما أوحى الله إلىٰ موسىٰ عليه السلام .

بيان الدواء الذي به يُستجلب حال الخوف

اعلمْ : أنَّ ما ذكرناهُ في دواءِ الصبرِ ، وشرحناهُ في كتابِ الصبرِ والشكرِ . . هوَ كافٍ في هٰذا الغرضِ ؛ لأنَّ الصبرَ لا يمكنُ إلا بعدَ حصولِ الخوفِ والرجاءِ ؛ لأنَّ أوَّلَ مقاماتِ الدينِ اليقينُ الذي هوَ عبارةٌ عنْ قوَّةِ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ والجنةِ والنارِ ، وهٰذا اليقينُ بالضرورةِ يهيِّجُ الخوفَ مِنَ النارِ ، والرجاءَ للجنَّةِ ، والخوفُ والرجاءُ يقوِّيانِ على الصبرِ ؛ فإنَّ الجنَّةَ قدْ حُفَّتْ بالمكارهِ ، فلا يُصبرُ علىٰ تحمُّلِها إلا بقوَّةِ الرجاءِ ، والنارُ قدْ حُفَّتْ بالشهواتِ ، فلا يُصبرُ علىٰ قمعِها إلا بقوَّةِ الخوفِ .

ولذلكَ قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنِ اشتاقَ إلى الجنَّةِ . . سلا عنِ الشهواتِ ، ومَنْ أشفقَ مِنَ النارِ . . رجعَ عنِ المحرَّماتِ) .

ثمَّ يؤدي مقامُ الصبرِ المستفادُ مِنَ الخوفِ والرجاءِ إلىٰ مقامِ المجاهدةِ ، والتجرُّدِ لذكرِ اللهِ تعالىٰ ، والفكرِ فيهِ على الدوامِ ، ويؤدي دوامُ الذكرِ إلى الأنسِ ، ودوامُ الفكرِ إلىٰ كمالِ المعرفةِ ، ويؤدِّي كمالُ المعرفةِ والأنسُ إلى المحبَّةِ ، ويتبعُها مقامُ الرضا والتوكُّلِ ، وسائرُ المقامات .

فهٰذا هوَ الترتيبُ في سلوكِ منازلِ الدينِ ، وليسَ بعدَ أصلِ اليقينِ مقامٌ سوى الخوفِ والرجاءِ ، ولا بعدَهُما مقامٌ سوى الصبرِ ، وبهِ المجاهدةُ والتجرُّدُ للهِ باطناً وظاهراً ، ولا مقامَ بعدَ المجاهدةِ لمَنْ فُتِحَ لهُ الطريقُ إلا

الهدايةُ والمعرفةُ ، ولا مقامَ بعدَ المعرفةِ إلا المحبةُ والأنسُ ، ومِنْ ضرورةِ المحبَّةِ الرضا بفعلِ المحبوبِ ، والثقةُ بعنايتِهِ ، وهوَ التوكُّلُ .

فإذاً ؛ فيما ذكرنا في علاجِ الصبرِ كفايةٌ ، ولكنَّا نفردُ الخوفَ بكلامٍ جُمَلِيٍّ فنقولُ :

الخوفُ يحصلُ بطريقينِ مختلفينِ ، أحدُهُما أعلىٰ مِنَ الآخرِ ، ومثالُهُ : أنَّ الصبيَّ إذا كانَ في بيتٍ ، فدخلَ عليهِ سبُعٌ أوْ حيَّةٌ . . ربما كانَ لا يخافُ ، وربما مدَّ اليدَ إلى الحيَّةِ ليأخذَها ويلعبَ بها ، ولكنْ إذا كانَ معَهُ أبوُه وهوَ عاقلٌ . . خافَ مِنَ الحيَّةِ وهربَ منها ، فإذا نظرَ الصبيُّ إلىٰ أبيهِ وهوَ ترتعدُ فرائصُهُ ، ويحتالُ في الهربِ . . قامَ معَهُ ، وغلبَ عليهِ الخوفُ ، ووافقَهُ في الهربِ ، فخوفُ الأبِ عنْ بصيرةٍ ومعرفةٍ بصفةِ الحيَّةِ وسمِّها وخاصيَّتِها ، وسطوةِ السبعِ وبطشِهِ وقلَّةِ مبالاتِهِ ، وأمَّا خوفُ الابنِ . . فإيمانٌ بمجرَّدِ التقليدِ ؛ لأنَّهُ يحسنُ الظنَّ بأبيهِ ، ويعلمُ أنَّهُ لا يخافُ إلا مِنْ سببٍ مَخُوفٍ في نفسِهِ ، فيعلمُ أنَّ السبعَ مَخُوفٌ ، ولا يعرفُ وجهَهُ .

فإذا عرفتَ هـٰذا المثالَ . . فاعلمْ أنَّ الخوفَ مِنَ اللهِ تعالىٰ علىٰ مقامينِ :

أحدُهُما : الخوفُ مِنْ عذابِهِ .

والثاني : الخوفُ منهُ في ذاتِهِ .

فأمَّا الخوفُ منهُ . . فهوَ خوفُ العلماءِ وأربابِ القلوبِ العارفينَ مِنْ صفاتِهِ ما يقتضي الهيبةَ والخوفَ والحذرَ ، المطَّلعينَ علىٰ سرِّ قولِهِ تعالىٰ :

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ .

فأمَّا الأوَّلُ : فهوَ خوفُ عمومِ الخلقِ ، وهوَ حاصلٌ بأصلِ الإيمانِ بالجنَّةِ والنارِ ، وكونِهما جزاءينِ على الطاعةِ والمعصيةِ ، وضعفُهُ بسببِ الغفلةِ ، وبسببِ ضعفِ الإيمانِ ، وإنَّما تزولُ الغفلةُ بالوعظِ والتذكيرِ ، وملازمةِ الفكرِ في أهوالِ القيامةِ وأصنافِ العذابِ في الآخرةِ ، وتزولُ أيضاً بالنظرِ إلى الخائفينَ ومجالستِهِمْ ، ومشاهدةِ أحوالِهِمْ ، فإنْ فاتَتِ المشاهدةُ .. فالسماعُ لا يخلو عنْ تأثيرٍ .

وأمَّا الثاني وهوَ الأعلىٰ : فأنْ يكونَ اللهُ تعالىٰ هوَ المَخُوفَ ؛ أعني : أنْ يخافَ البعدَ والحجابَ عنهُ ، ويرجوَ القربَ منهُ ، قالَ ذو النونِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (خوفُ النارِ عندَ خوفِ الفراقِ كقطرةٍ قُطِرَتْ في بحرٍ لجِّيٍّ)[1] ، وهٰذهِ خشيةُ العلماءِ ، حيثُ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

ولعمومِ المؤمنينَ أيضاً حظٌّ مِنْ هٰذهِ الخشيةِ ، ولكنْ هوَ بمجرَّدِ التقليدِ ، يضاهي خوفَ الصبيِّ مِنَ الحيَّةِ تقليداً لأبيهِ ، وذلكَ لا يستندُ إلىٰ بصيرةٍ ، فلا جرمَ يضعفُ ويزولُ عنْ قرْبٍ ، حتَّىٰ إنَّ الصبيَّ ربما يرى المعزِّمَ يقدمُ علىٰ أخذِ الحيَّةِ ، فينظرُ إليهِ ويغترُّ بهِ ، فيتجرأُ علىٰ أخذِها تقليداً لهُ ، كما احترزَ مِنْ أخذِها تقليداً لأبيهِ ، والعقائدُ التقليديَّةُ ضعيفةٌ في الغالبِ ،

---

(١) أورده أبو طالب في « القوت » (١/ ٢٢٥) ، والخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٣٠) وزاد : (ولا أعلم شيئاً أحمد للقلب من خوف الفراق) .

إلا إذا قويَتْ بمشاهدةِ أسبابها المؤكدةِ لها على الدوامِ ، وبالمواظبةِ علىٰ مقتضاها في تكثيرِ الطاعاتِ واجتنابِ المعاصي مدَّةً طويلةً على الاستمرارِ .

فإذاً ؛ مَنِ ارتقىٰ إلىٰ ذروةِ المعرفةِ ، وعرفَ اللهَ تعالىٰ . . خافَهُ بالضرورةِ ، فلا يحتاجُ إلىٰ علاجٍ لجلبِ الخوفِ ، كما أنَّ مَنْ عرفَ السبعَ ورأىٰ نفسَهُ واقعاً في مخالبِهِ لا يحتاجُ إلىٰ علاجٍ ليجلبَ الخوفَ إلىٰ قلبِهِ ، بلْ يخافُهُ بالضرورةِ شاءَ أمْ أبىٰ .

ولذلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : (خفْني كما تخافُ السبعَ الضاريَ)[1] ، ولا حيلةَ في جلْبِ الخوفِ مِنَ السبعِ الضاري إلا معرفةُ السبعِ ، ومعرفةُ الوقوعِ في مخالبِهِ ، فلا يحتاجُ إلىٰ حيلةٍ سواهُ ، فمَنْ عرفَ اللهَ تعالىٰ . . عرفَ أنَّهُ يفعلُ ما يشاءُ ولا يبالي ، ويحكمُ ما يريدُ ولا يخافُ[2] ، قرَّبَ الملائكةَ مِنْ غيرِ وسيلةٍ سابقةٍ ، وأبعدَ إبليسَ مِنْ غيرِ جريمةٍ سالفةٍ ، بلْ صفتُهُ ما ترجمَهُ قولُهُ تعالىٰ : « هؤلاءِ في الجنَّةِ ولا أبالي ، وهؤلاءِ في النارِ ولا أبالي »[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٤١) .

(٢) إذ قال من إليه الرهبوت والرغبوت : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٨٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨) من حديث عبد الرحمـٰن السلمي رضي الله عنه مرفوعاً ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٢٣) : (لكن يشترط في هـٰذه المعرفة أن يكون الفكر فيها بإمعان ، فإنه هو المستجلب للخوف ، وإلا . . فالفكر الخفيف لا ينضج قساوة القلب ، أرأيت لو أوقدت =

وإنْ خطرَ ببالِكَ أنَّهُ لا يعاقبُ إلا علىٰ معصيةٍ ، ولا يثيبُ إلا علىٰ طاعةٍ . . فتأمَّلْ أنَّهُ لِمَ يمدُّ المطيعَ بأسبابِ الطاعةِ حتَّىٰ يطيعَ شاءَ أم أبى ؟ ولِمَ يمدُّ العاصيَ بدواعي المعصيةِ حتَّىٰ يعصيَ شاءَ أمْ أبى ؟ فإنَّهُ مهما خلقَ الغفلةَ والشهوةَ والقدرةَ علىٰ قضاءِ الشهوةِ . . كانَ الفعلُ واقعاً بها بالضرورةِ ، فإنْ كانَ أبعدَهُ لأنَّهُ عصاهُ . . فلِمَ حملَهُ على المعصيةِ ؟

هلْ ذلكَ لمعصيةٍ سابقةٍ حتَّىٰ يتسلسلَ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ؟! أوْ يقفَ ـ لا محالةَ ـ علىٰ أوَّلَ لا علَّةَ لهُ مِنْ جهةِ العبدِ ، بلْ قُضِيَ عليهِ في الأزلِ ؟

وعنْ هـٰذا المعنىٰ عبَّرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « احتجَّ آدمُ وموسىٰ عليهِما الصلاةُ والسلامُ عندَ ربِّهِما ، فحجَّ آدمُ موسىٰ ، قالَ موسىٰ : أنتَ آدمُ الذي خلقَكَ اللهُ بيدِهِ ، ونفخَ فيكَ مِنْ روحِهِ ، وأسجدَ لكَ ملائكتَهُ ، وأسكنَكَ جنَّتَهُ ، ثمَّ أهبطتَ الناسَ بخطيئتِكَ إلى الأرضِ ؟ فقالَ آدمُ : أنتَ موسى الذي اصطفاكَ اللهُ برسالتِهِ وبكلامِهِ ، وأعطاكَ الألواحَ فيها تبيانُ كلِّ شيءٍ ، وقرَّبَكَ نجيّاً ، فبِكَمْ وجدتَ اللهَ كتبَ التوراةَ قبلَ أنْ أُخلقَ ؟ قالَ موسىٰ : بأربعينَ عاماً ، قالَ آدمُ : فهلْ وجدتَ فيها : وعصىٰ آدمُ ربَّهُ فغوىٰ ، قالَ : نعمْ ، قالَ : أفتلومُني علىٰ أنْ عملتُ عملاً كتبَهُ اللهُ عليَّ قبلَ

= ناراً تحت قدر ثم أخمدت قبل الإنضاج ، ثم أوقدت ، ثم أخمدت . . فني الوقود وما حصل الإنضاج ، فلا بد من الإقبال بكنه الهمة على الفكر المحتاج إليه حتىٰ ينضج القلب على الفور ؛ لئلا يفنى الزمان ولا يتحصل المقصود) .

أنْ أعملَهُ قبلَ أنْ يخلقَني بأربعينَ سنةً ؟! قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : فحجَّ آدمُ موسىٰ ، فحجَّ آدمُ موسىٰ »[1] .

فمَنْ عرفَ السببَ في هٰذا الأمرِ معرفةً صادرةً عنْ نورِ الهدايةِ . . فهوَ مِنْ خصوصِ العارفينَ المطلعينَ علىٰ سرِّ القدرِ ، ومَنْ سمعَ هٰذا فآمنَ بهِ وصدَّقَ بمجرَّدِ السماعِ . . فهوَ مِنْ عمومِ المؤمنينَ ، ويحصلُ لكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقينِ خوفٌ ، فإنَّ كلَّ عبدٍ فهوَ واقعٌ في قبضةِ القدرةِ وقوعَ الصبيِّ الضعيفِ في مخالبِ السبعِ ، والسبعُ قدْ يغفُلُ بالاتفاقِ فيخلِّيهِ ، وقدْ يهجمُ عليه فيفترسُهُ ، وذلك بحسَبِ ما يتفقُ ، ولذلكَ الاتفاقِ أسبابٌ مرتبةٌ بقدَرٍ معلومٍ ، لكنْ إذا أُضيفَ إلىٰ مَنْ لا يعرفُهُ . . سُمِّيَ اتفاقاً ، وإنْ أُضيفَ إلىٰ علمِ اللهِ . . لمْ يجزْ أنْ يُسمَّى اتفاقاً ، والواقعُ في مخالبِ السبعِ لوْ كملَتْ معرفتُهُ . . لكانَ لا يخافُ السبعَ ؛ لأنَّ السبعَ مسخَّرٌ ؛ إنْ سلَّطَ عليهِ الجوعَ . . افترسَ ، وإنْ سلَّطَ عليهِ الغفلةَ . . خلَّىٰ وتركَ ، فإنَّما يُخافُ خالقُ السبعِ وخالقُ صفاتِهِ ، فلستُ أقولُ : (مثالُ الخوفِ مِنَ اللهِ تعالى الخوفُ مِنَ السبعِ) ، بلْ إذا كُشفَ الغطاءُ . . عُلمَ أنَّ الخوفَ مِنَ السبعِ هوَ عينُ الخوفِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، لأنَّ المهلِكَ بواسطةِ السبعِ هوَ اللهُ تعالىٰ .

فاعلم : أنَّ سباعَ الآخرةِ مثلُ سباعِ الدنيا ، وأنْ اللهَ تعالىٰ خلقَ أسبابَ العذابِ وأسبابَ الثوابِ ، وخلقَ لكلِّ واحدٍ أهلاً ، يسوقُهُ القدرُ المتفرِّعُ عنِ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩) ، ومسلم (٢٦٥٢) واللفظ له .

القضاءِ الجزْمِ الأزليِّ إلىٰ ما خُلِقَ لهُ ، فخلقَ الجنَّةَ وخلقَ لها أهلاً سُخِّروا لأسبابِها شاؤوا أمْ أبَوا ، وخلقَ النارَ وخلقَ لها أهلاً سُخِّروا لأسبابِها شاؤوا أمْ أبَوا ، فلا يرىٰ أحدٌ نفسَهُ في ملتطمِ أمواجِ القدرِ إلا غلبَهُ الخوفُ بالضرورةِ .

فهٰذهِ مخاوفُ العارفينَ بسرِّ القدرِ .

فمَنْ قعدَ بهِ القصورُ عنِ الارتفاعِ إلىٰ يفاعِ الاستبصارِ . . فسبيلُهُ أنْ يعالجَ نفسَهُ بسماعِ الأخبارِ والآثارِ ، فيطالعُ أحوالَ الخائفينَ العارفينَ وأقوالَهُمْ ، وينسبُ عقولَهُمْ ومناصبَهُمْ إلىٰ مناصبِ الراجينَ المغرورينَ ، فلا يتمارىٰ في أنَّ الاقتداءَ بهِمْ أولىٰ ؛ لأنَّهُمُ الأنبياءُ والأولياءُ والعلماءُ ، وأمَّا الآمنونَ . . فهُمُ الفراعنةُ والجهَّالُ والأغبياءُ .

أمَّا رسولُنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فهوَ سيِّدُ الأولينَ والآخرينَ ، وكانَ أشدَّ الناسِ خوفاً ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّهُ كانَ يصلِّي علىٰ طفلٍ ، ففي روايةٍ : أنَّهُ سُمِعَ في دعائِهِ يقولُ : « اللهمَّ ؛ قهِ عذابَ القبرِ وعذابَ النارِ »[1] ، وفي

(1) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٩) وبيَّن أن الطفل كان منفوساً ، وقد روى الطبراني في « الكبير » (٤/ ١٢١) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه : أن صبياً دفن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أفلت أحد من ضمة القبر . . لأفلت هٰذا الصبي » ، وعنده في « الأوسط » (٢٧٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلىٰ علىٰ صبي أو صبية فقال : « لو كان نجا أحد من ضمة القبر . . لنجا هٰذا الصبي » .
وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٧٠٨ ، ٣٠٤٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه =

روايةٍ ثانيةٍ : أنَّهُ سمعَ قائلاً يقولُ : هنيئاً لكَ ، عصفورٌ مِنْ عصافيرِ الجنَّةِ ، فغضبَ وقالَ : « ما يدريكَ أنَّهُ كذلكَ ؟! واللهِ ؛ إنِّي رسولُ اللهِ ، وما أدري ما يُصنعُ بي ، إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ الجنةَ وخلقَ لها أهلاً ، لا يُزادُ فيهِمْ ، ولا ينقصُ منهُمْ »[1] .

ورويَ أنَّهُ قالَ ذلكَ أيضاً علىٰ جنازةِ عثمانَ بنِ مظعونٍ ـ وكانَ مِنَ المهاجرينَ والأوَّلينَ ـ لمَّا قالَتْ أمُّ سلمةَ : هنيئاً لكَ الجنَّةُ ، فكانَتْ تقولُ أمُّ سلمةَ بعدَ ذلكَ : واللهِ ؛ لا أزكِّي أحداً بعدَ عثمانَ[2] .

وقالَ محمدُ بنُ خولةَ الحنفيَّةِ : (واللهِ ، لا أزكِّي أحداً غيرَ رسولِ اللهِ

= أنه كان يقوم على المنفوس من ولده الذي لم يعمل خطيئة فيقول : (اللهم ؛ أجره من عذاب القبر) ، وفي الرواية الثانية : (اللهم ؛ أجره من عذاب النار) .

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٩) ، وروىٰ مسلم (٢٦٦٢) نحوه .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٩) ، ورواه أحمد في « المسند » (١/ ٢٣٧) ولم يعين المرأة القائلة ، وعنده في « المسند » (٦/ ٤٣٦) ، والبخاري (٧٠٠٤) والقائلة هي أم العلاء بنت الحارث الأنصارية ، قال ابن عبد البر في « الاستيعاب » (ص٥٥٣) بعد رواية الخبر : « اختلفت الروايات في المرأة التي قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ؟ » حين شهدت لعثمان بن مظعون بالجنة ، وقالت له : طبت ، هنيئاً لك الجنة أبا السائب . علىٰ ثلاث نسوة ، فقيل : كانت امرأته أم السائب ، وقيل : أم العلاء الأنصارية وكان نزل عليها ، وقيل : كانت أم خارجة بن زيد) ، وذكر في ترجمة أم العلاء أنها قد تكون أم خارجة ، بل قال ابن حجر في « الإصابة » (٤/ ٤٥٦) : (وهـٰذا ظاهر في أن أم العلاء هي والدة خارجة ـ أحد الرواة ـ المذكور) ، وقال الحافظ العراقي : (ولم أجد فيه ذكر أم سلمة) . « إتحاف » (٩/ ٢٢٥) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا أبي الذي ولدَني) ، قالَ : فثارتِ الشيعةُ عليهِ ، فأخذَ يذكرُ مِنْ فضائلِ عليٍّ ومناقبِهِ[1] .

ورُوِيَ في حديثٍ آخرَ : أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الصفَّةِ استشهدَ ، فقالَتْ أمُّهُ : هنيئاً لكَ ، عصفورٌ مِنْ عصافيرِ الجنَّةِ ، هاجرْتَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقتلتَ في سبيلِ اللهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وما يدريكِ ؟! لعلَّهُ كانَ يتكلَّمُ بما لا ينفعُهُ ويمنعُ ما لا يضرُّهُ »[2] .

وفي حديثٍ آخرَ : أنَّهُ دخلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ بعضِ أصحابِهِ وهوَ عليلٌ ، فسمعَ امرأةً تقولُ : هنيئاً لكَ الجنَّةُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ هـٰذهِ المتألِّيةُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ؟! فقالَ المريضُ : هيَ أمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ فقالَ : « وما يدريكِ ؟! لعلَّ فلاناً كانَ يتكلَّمُ بما لا يعنيهِ ، ويبخلُ بما لا يغنيهِ »[3] .

وكيفَ لا يخافُ المؤمنونَ كلُّهُمْ وهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « شيَّبَتْني (سورةُ هودٍ) وأخواتُها ؛ (سورةُ الواقعةِ) ، و(إذا الشمسُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/٢٢٩) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/٣٤٩) .

(٢) كذا في « القوت » (١/٢٢٨) ، وكان المقتول غلاماً ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١٠٩) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٠١٧) .

(٣) كذا في « القوت » (١/٢٢٨) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (١١٠) والمريض هو كعب بن عجرة رضي الله عنه .

كوِّرتْ) ، و(عمَّ يتساءلونَ) »[1] ، فقالَ العلماءُ : لعلَّ ذاكَ لما في (سورةِ هودٍ) مِنَ الإبعادِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ ، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ ، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ، معَ علمِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأنَّهُ لوْ شاءَ اللهُ . . ما أشركوا ؛ إذْ لوْ شاءَ . . لآتىٰ كلَّ نفسٍ هداها .

وفي (سورةِ الواقعةِ) : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أيْ : جفَّ القلمُ بما هوَ كائنٌ ، وتمَّتِ السابقةُ ، حتَّىٰ نزلَتِ الواقعةُ ؛ إمَّا خافضةً قوماً كانوا مرفوعينَ في الدنيا ، وإمَّا رافعةً قوماً كانوا مخفوضينَ في الدنيا .

وفي (سورةِ التكويرِ) أهوالُ القيامةِ وانكشافُ الخاتمةِ ، وهوَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ .

وفي (عمَّ يتساءلونَ) : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ .

والقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ مخاوفُ لمَنْ قرأَهُ بتدبُّرٍ ، ولوْ لمْ يكنْ فيهِ إلا قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ . . لكانَ كافياً ؛ إذْ علَّقَ المغفرةَ علىٰ أربعةِ شروطٍ يعجزُ العبدُ عنْ آحادِها .

وأشدُّ منهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ .

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣٤٣) ، وكذا وقعت الرواية هنا بإثبات كلمة (سورة) في جميع النسخ إلا (ق) .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ .

وقولُهُ : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ .

وقولُهُ : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

وقولُهُ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا . . . ﴾ الآيتينِ[1] .

وقولُهُ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ . . . ﴾ الآيتينِ[2] .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ .

وكذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ . . . ﴾ إلىٰ آخرِ السورةِ ، فهٰذهِ أربعةُ شروطٍ للخلاصِ مِنَ الخسرانِ .

وإنَّما كانَ خوفُ الأنبياءِ معَ ما فاضَ عليهِمْ مِنَ النعمِ لأنَّهُم لمْ يأمنوا مكْرَ اللهِ تعالىٰ ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ، حتَّىٰ رُوِيَ أنَّ النبيَّ

(١) إذ قال بعدها سبحانه : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ .

(٢) إذ بعدها : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وجبريلَ عليهِ السلامُ بكيا خوفاً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فأوحى اللهُ إليهما : لم تبكيانِ وقدْ أمَّنتُكُما ؟ فقالا : ومَنْ يأمنُ مكرَكَ ؟!(١) .

وكأنَّهُما إذْ علما أنَّ اللهَ تعالىٰ هوَ علاَّمُ الغيوبِ ، وأنَّهُ لا وقوفَ لهما علىٰ غايةِ الأمورِ . . لمْ يأمنا أنْ يكونَ قولُهُ : (قدْ أمَّنتكما) ابتلاءً لهما وامتحاناً ومكراً بهما ، حتَّىٰ إنْ سكنَ خوفُهُما . . ظهرَ أنَّهُما قدْ أمنا مِنَ المكرِ ، وما وفَّيا بقولِهما .

كما أنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ لمَّا وُضِعَ في المنجنيقِ . . قالَ : (حسبيَ اللهُ) ، وكانَتْ هٰذهِ مِن الدعاوي العظامِ ، فامتُحِنَ وعُورضَ بجبريلَ في الهواءِ ، حتىٰ قالَ : ألكَ حاجةٌ ؟ فقالَ : أمَّا إليك . . فلا ، فكانَ ذلكَ وفاءً بمقتضىٰ قولِهِ : (حسبيَ اللهُ) ، فأخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ فقالَ : ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أيْ : بموجَبِ قولِهِ : (حسبيَ اللهُ)(٢) .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٩) ، ورواه ضمن خبر طويل الطبراني في « الأوسط » (٢٦٠٤) ، وزاد الحافظ العراقي : (وابن شاهين في « شرح السنة » من حديث عمر ، ورويناه في مجلس من « أمالي أبي سعيد النقاش » بسند ضعيف) . « إتحاف » (٩/ ٢٢٧) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٢٩) ، وقال بعده : (ولأن الله تعالىٰ لا يدخل تحت الأحكام ، ولا يلزمه ما حكم به على الأنام ، ولا يختبر صدقه سبحانه وتعالىٰ ، ولا يجوز أن يوصف بضد الصدق وإن بدل الكلم هو بتبديل منه ؛ لأن كلامه قائم به ، فله أن يبدل ما شاء وهو الصادق في الكلامين ، العادل في الحكمين ، الحاكم في الحالين ؛ لأنه حاكم عليه ولا حكم يلزمه فيه ؛ لأنه قد جاوز العلوم والعقول التي هي =

وبمثلِ هٰذا أخبرَ عنْ موسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۞ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ ، ومع هٰذا لمَّا ألقى السحرةُ سحرَهُمْ . . أوجسَ موسىٰ في نفسِهِ خيفةً ؛ إذْ لمْ يأمنْ مكرَ اللهِ ، والتبسَ الأمرُ عليهِ ، حتَّىٰ جُدِّدَ عليهِ الأمنُ وقيلَ لهُ : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1] .

ولمَّا ضعفَتْ شوكةُ المسلمينَ يومَ بدرٍ . . قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ إنْ تهلكْ هٰذهِ العصابةَ . . لمْ يبقَ علىٰ وجهِ الأرضِ أحدٌ يعبدُكَ » ، فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دعْ عنكَ مناشدتَكَ ربَّكَ ، فإنَّهُ وافٍ لكَ بما وعدَكَ[2] ، فكانَ مقامُ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ مقامَ الثقةِ بوعدِ اللهِ ، وكانَ مقامُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مقامَ الخوفِ مِنْ مكرِ اللهِ ، وهوَ أتمُّ ؛ لأنَّهُ لا يصدرُ إلا عنْ كمالِ المعرفةِ بأسرارِ اللهِ تعالىٰ وخفايا أفعالِهِ ،

= أماكن للحدود من الأمر والنهي ، وفات الرسوم والمعقول التي هي أواسط الأحكام والأقدار) ، والخبر رواه الطبري في « تفسيره » (١٠/١٧/ ٦٠) ، وهو عند الحكيم في « نوادر الأصول » (ص٤) .

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٠) ، وقال بعده : (لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغيوب التي لا نهاية لها ، وأن القول أحكام ، والحاكم لا تحكم عليه الأحكام ، كما لا تعود عليه الأحكام ، وإنما تفصل الأحكام من الحاكم العلام ، ثم تعود على المحكومات أبداً ، ولأنه ـ جلت قدرته ـ لا يلزمه ما لزم الخلق الذين هم تحت الحكم ، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً عند من عرفه ، فأجله وعظمه عن معارف من جهله) .

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣) .

ومعاني صفاتِهِ التي يُعبَّرُ عنْ بعضِ ما يصدرُ عنها بالمكْرِ ، وما لأحدٍ مِنَ البشرِ الوقوفُ علىٰ كنْهِ صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

ومَنْ عرفَ حقيقةَ المعرفةِ قصورَ معرفتِهِ عنِ الإحاطةِ بكنْهِ الأمورِ . . عَظُمَ خوفُهُ لا محالةَ ، ولذلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ لمَّا قيلَ لهُ : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآيةَ[1] ، فوَّضَ الأمرَ إلى المشيئةِ ، وأخرجَ نفسَهُ بالكلِّيَّةِ مِنَ البينِ ؛ لعلمِهِ بأنَّهُ ليسَ لهُ مِنَ الأمرِ شيءٌ ، وأنَّ الأمورَ مرتبطةٌ بالمشيئةِ ارتباطاً يخرجُ عنْ حدِّ المعقولاتِ والمألوفاتِ ، فلا يمكنُ الحكمُ عليها بقياسٍ ، ولا حدسٍ وحسبانٍ ، فضلاً عنِ التحقيقِ والاستيقانِ .

وهٰذا هوَ الذي قطَّعَ قلوبَ العارفينَ ؛ إذِ الطامَّةُ الكبرىٰ هيَ ارتباطُ أمرِكَ بمشيئةِ مَنْ لا يبالي بكَ إنْ أهلكَكَ ، فقدْ أهلكَ مَنْ لا يحصىٰ مِنْ أمثالِكَ ، ولمْ يزلْ في الدنيا يعذِّبُهُمْ بأنواعِ الآلامِ والأمراضِ ، ويمرضُ معَ ذلكَ قلوبَهُمْ بالكفرِ والنفاقِ ، ثمَّ يخلِّدُ العقابَ عليهِمْ أبدَ الآبادِ ، ثمَّ يخبرُ عنهُ ويقولُ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . . ﴾ الآيةَ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٠) .

فكيفَ لا يُخافُ ما حُقَّ مِنَ القولِ في الأزلِ ولا مطمعَ في تداركِهِ ؟! ولوْ كانَ الأمرُ أُنُفاً . . لكانَتِ الأطماعُ تمتدُّ إلىٰ حيلةٍ فيهِ[1] ، ولكنْ ليسَ إلا التسليمُ ، واستقراءُ خفيِّ السابقةِ مِنْ جليِّ الأسبابِ الظاهرةِ على القلبِ والجوارحِ ، فمَنْ يُسِّرَتْ لهُ أسبابُ الشرِّ ، وحيلَ بينَهُ وبينَ أسبابِ الخيرِ ، وأُحكِمَتْ علاقتُهُ معَ الدنيا . . فكأنَّهُ كُشِفَ لهُ على التحقيقِ سرُّ السابقةِ التي سبقَتْ لهُ بالشقاوةِ ؛ إذْ كلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ .

وإنْ كانَتِ الخيراتُ كلُّها ميسَّرةً ، والقلبُ بالكلِّيَّةِ عنِ الدنيا منقطعاً ، وبظاهرِهِ وباطنِهِ على اللهِ تعالىٰ مقبلاً . . كانَ هـٰذا يقتضي تخفيفَ الخوفِ لوْ كانَ الدوامُ علىٰ ذلكَ موثوقاً بهِ ، ولكنَّ خطرَ الخاتمةِ وعسرَ الثباتِ يزيدُ نيرانَ الخوفِ اشتعالاً ، ولا يمكِّنُها مِنَ الانطفاءِ .

وكيفَ يُؤمنُ تغيُّرُ الحالِ وقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ؟! وإنَّ القلبَ أشدُّ تقلُّباً مِنَ القدرِ في غليانِها ، وقدْ قالَ مقلِّبُ القلوبِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ .

فأجهلُ الناسِ مَنْ أمنَهُ وهوَ يناديهِ بالتحذيرِ مِنَ الأمنِ ، ولولا أنَّ اللهَ لطفَ بعبادِهِ العارفينَ ؛ إذْ روَّحَ قلوبَهُمْ بروْحِ الرجاءِ . . لاحترقَتْ قلوبُهُمْ مِنْ نارِ الخوفِ ، فأسبابُ الرجاءِ رحمةٌ لخواصِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأسبابُ الغفلةِ

---

(١) **والأمر الأُنُف** : المبتدأ الذي لم يسبق به علم ولا قدر من الله تعالىٰ ، فلا تعلُّق للأمور بالمشيئة الأزلية ، وهو مذهب غلاة القدرية ، الذين زعموا أن لا قدر ، وأن الأمر أُنُف ، وقد تبرَّأ منهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كما جاء عند مسلم (٨) .

رحمةٌ علىٰ عوامِّ الخلقِ مِنْ وجهٍ ؛ إذْ لوِ انكشفَ الغطاءُ.. لزهقَتِ النفوسُ ، وتقطَّعَتِ القلوبُ مِنْ خوفِ مقلِّبِ القلوبِ[1] .

قالَ بعضُ العارفينَ : (لوْ حالَتْ بيني وبينَ مَنْ عرفتُهُ بالتوحيدِ خمسينَ سنةً أسطوانةٌ فماتَ.. لمْ أقطعْ لهُ بالتوحيدِ ؛ لأنِّي لا أدري ما ظهرَ لهُ مِنَ التقليبِ)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (لوْ كانَتِ الشهادةُ علىٰ بابِ الدارِ والموتُ على الإسلامِ عندَ بابِ الحجرةِ.. لاخترتُ الموتَ على الإسلامِ ؛ لأنِّي لا أدري ما يعرضُ لقلبي بينَ بابِ الحجرةِ وبابِ الدارِ)[3] .

وكانَ أبو الدرداءِ يحلفُ باللهِ ما أحدٌ أمِنَ علىٰ إيمانِهِ أنْ يُسلبَهُ عندَ الموتِ إلا سُلِبَهُ[4] .

وكانَ سهلٌ يقولُ : (خوفُ الصديقينَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ عندَ كلِّ خطرةٍ وكلِّ حركةٍ ، وهُمُ الذينَ وصفَهُمُ اللهُ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾)[5] .

ولمَّا احتضرَ سفيانُ.. جعلَ يبكي ويجزعُ ، فقيلَ لهُ : يا أبا عبدِ اللهِ ، عليكَ بالرجاءِ ؛ فإنَّ عفوَ اللهِ أعظمُ مِنْ ذنوبِكَ ، فقالَ : أوَعلىٰ ذنوبي

---

(١) السياق بنحوه في « القوت » (١/ ٢٣٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٣٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٣٧) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٤٧) عن محمد بن مسلم أنه بلغه عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قاله .
(٥) قوت القلوب (١/ ٢٣٢) .

أبكي ؟! لوْ علمتُ أنِّي أموتُ على التوحيدِ . . لمْ أبالِ أنْ ألقى اللهَ بأمثالِ الجبالِ مِنَ الخطايا[1] .

وحُكِيَ عنْ بعضِ الخائفينَ أنَّهُ أوصىٰ بعضَ إخوانِهِ فقالَ : إذا حضرَتْني الوفاةُ . . فاقعدْ عندَ رأسي ، فإنْ رأيتَني متُّ على التوحيدِ . . فخذْ جميعَ ما أملكُهُ واشترِ بهِ لوزاً وسكراً وانثرْهُ علىٰ صبيانِ أهلِ البلدِ ، وقلْ : هـٰذا عرسُ المنفلتِ ، وإنْ متُّ علىٰ غيرِ التوحيدِ . . فأعلمِ الناسَ بذلكَ حتَّىٰ لا يغترُّوا بشهودِ جنازتي ليحضرَ جنازتي مَنْ أحبَّ علىٰ بصيرةٍ ؛ لئلا يلحقَني الرياءُ بعدَ الوفاةِ ، قالَ : وبِمَ أعلمُ ذلكَ ؟ فذكرَ لهُ علامةً ، فرأىٰ علامةَ التوحيدِ عندَ موتِهِ ، فاشترى السكَّرَ واللوزَ وفرَّقَهُ[2] .

وكانَ سهلٌ يقولُ : (المريدُ يخافُ أنْ يُبتلىٰ بالمعاصي ، والعارفُ يخافُ أنْ يُبتلىٰ بالكفرِ)[3] .

وكانَ أبو يزيدَ يقولُ : (إذا توجهتُ إلى المسجدِ كأنَّ في وسطي زناراً ، أخافُ أنْ يذهبَ بي إلى البيعةِ وبيتِ النارِ ، حتَّىٰ أدخلَ المسجدَ ، فينقطعُ عنِّي الزنَّارُ ، فهـٰذا لي في كلِّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ)[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٣٣) ، رواه عن بعض إخوانه .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٢٧) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٢٧) ، وقال : (لعلمهم بسرعة تقلب القلوب في قدرة علام الغيوب) ، وقريب من هـٰذا رواه عنه القشيري في « رسالته » (ص١٨٨) .

ورُوِيَ عنْ عيسىٰ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ أنتمْ تخافونَ المعاصيَ ، ونحنُ ـ معاشرَ الأنبياءِ ـ نخافُ الكفرَ)[1] .

ورُوِيَ في أخبارِ الأنبياءِ : أنَّ نبياً شكا إلى اللهِ تعالى الجوعَ والقملَ والعرْيَ سنينَ ، وكانَ لباسُهُ الصوفَ ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : عبدي ؛ أما رضيتَ أنْ عصمتُ قلبَكَ أنْ تكفرَ بي حتَّىٰ تسألَني الدنيا ؟! فأخذَ الترابَ فوضعَهُ علىٰ رأسِهِ وقالَ : بلىٰ ، قدْ رضيتُ يا ربِّ ، فاعصمْني مِنَ الكفرِ[2] .

فإذا كانَ خوفُ العارفينَ معَ رسوخِ أقدامِهِمْ وقوَّةِ إيمانِهِمْ مِنْ سوءِ الخاتمةِ . . فكيفَ لا يخافُهُ الضعفاءُ ؟!

ولسوءِ الخاتمةِ أسبابٌ تتقدَّمُ على الموتِ ، مثلُ البدعةِ ، والنفاقِ ، والكبرِ ، وجملةٍ مِنَ الصفاتِ المذمومةِ ، ولذلكَ اشتدَّ خوفُ الصحابةِ مِنَ النفاقِ ، حتَّىٰ قالَ الحسنُ : (لوْ أنِّي أعلمُ أنِّي بريءٌ مِنَ النفاقِ . . كانَ أحبَّ إليَّ ممَّا طلعَتْ عليهِ الشمسُ)[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٧) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٧) ، وقد روى الطبري في « تفسيره » (٦/ ٩/ ١٥٣) عن مجاهد وسيَّار أن بلعام أو بلعم كان قد أوتي النبوة ، ونقل عن السدي وغيره أنه كان يعلم اسم الله الأعظم ، وكان مجاب الدعوة ، قال الإمام أبو طالب في « قوته » (١/ ٢٣٠) : (قال بعض أهل التفسير في أخبار بلعم بن باعوراء : إنه أوتي النبوة ، والمشهور أنه أوتي الاسم الأكبر ، فكان سبب هلاكه) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) ، ورواه الفريابي في « صفة المنافق » (ص ٧٣) .

وما عنوا بهِ النفاقَ الذي هوَ ضدُّ أصلِ الإيمانِ ، بلِ المرادُ بهِ ما يجتمعُ معَ أصلِ الإيمانِ ، فيكونُ مسلماً منافقاً ، ولهُ علاماتٌ كثيرةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ فهوَ منافقٌ خالصٌ ، وإنْ صامَ وصلَّىٰ وزعمَ أنَّهُ مسلمٌ ، وإنْ كانَتْ فيهِ خصلةٌ منهُنَّ . . ففيهِ شعبةٌ مِنَ النفاقِ حتَّىٰ يدعهَا : مَنْ إذا حدَّثَ . . كذبَ ، وإذا وعدَ . . أخلفَ ، و إذا اؤتمنَ . . خانَ ، وإذا خاصمَ . . فجرَ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « وإذا عاهدَ . . غدرَ »[1] .

وقدْ فسَّرَ الصحابةُ والتابعونَ النفاقَ بتفاسيرَ لا يخلو عنْ شيءٍ منهُ إلا صدِّيقٌ ، إذْ قالَ الحسنُ : (إنَّ مِنَ النفاقِ اختلافَ السرِّ والعلانيةِ ، واختلافَ اللسانِ والقلبِ ، واختلافَ المدخلِ والمخرجِ)[2] ، ومَنِ الذي يخلو عنْ هـٰذهِ المعاني ؟ بلْ صارَتْ هـٰذهِ الأمورُ مألوفةً بينَ الناسِ معتادةً ، ونُسِيَ كونُها منكراً بالكلِّيَّةِ ، بلْ جرىٰ ذلكَ علىٰ قرْبِ عهدٍ بزمانِ النبوَّةِ ، فكيفَ الظنُّ بزمانِنا ؟!

حتَّىٰ قالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (إنْ كانَ الرجلُ ليتكلَّمُ بالكلمةِ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيصيرُ بها منافقاً ، إنِّي لأسمعُها مِنْ أحدِكُمْ في اليومِ عشرَ مرَّاتٍ)[3] .

---

(١) رواه البخاريُ (٣٤) ، ومسلم (٥٨) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت وآفات اللسان » (٤٨٣) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٣٩٠) .

وكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولونَ : (إنَّكُمْ لتعملونَ أعمالاً هيَ أدقُّ في أعينِكُمْ مِنَ الشعرِ ، كنَّا نعدُّها علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنَ الكبائرِ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (علامةُ النفاقِ أنْ تكرهَ مِنَ الناسِ ما تأتي مثلَهُ ، وأنْ تحبَّ علىٰ شيءٍ مِنَ الجورِ ، وأنْ تبغضَ علىٰ شيءٍ مِنَ الحقِّ)[2] .

وقيلَ : (مِنَ النفاقِ أنَّهُ إذا مُدِحَ بشيءٍ ليسَ فيهِ . . أعجبَهُ ذلكَ)[3] .

وقالَ رجلٌ لابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : إنَّا ندخلُ علىٰ هؤلاءِ الأمراءِ فنصدِّقُهُمْ فيما يقولونَ ، فإذا خرجنا . . تكلَّمنا فيهِمْ ، فقالَ : كنَّا نعدُّ هـٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[4] .

ورُوِيَ أنَّهُ سمعَ رجلاً يذمُّ الحجَّاجَ ويقعُ فيهِ ، فقالَ : أرأيتَ لوْ كانَ الحجَّاجُ حاضراً . . أكنتَ تتكلَّمُ بما تكلَّمتَ بهِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : كنَّا نعدُّ هـٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[5] .

وأشدُّ مِنْ ذلكَ ما رُوِيَ أنَّ نفراً قعدوا علىٰ بابِ حذيفةَ ينتظرونَهُ ، فكانوا

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفيه : (من الموبقات) بدل (من الكبائر) ، وعنده (٣/ ٢٨٥) بلفظه من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) ، ورواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٣٠٢) .

(٥) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٣/ ٢٤) ، وأصله في « البخاري » (٧١٧٨) .

يتكلمونَ في شيءٍ مِنْ شأنِهِ ، فلمَّا خرجَ عليهِمْ . . سكتوا حياءً منهُ ، فقالَ : تكلموا فيما كنتُمْ تقولونَ ، فسكتوا ، فقالَ : كنَّا نعدُّ هـٰذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(١)] .

وهـٰذا حذيفةُ كانَ قدْ خُصَّ بعلمِ المنافقينَ وأسبابِ النفاقِ ، وكانَ يقولُ : (إنَّهُ يأتي على القلبِ ساعةٌ يمتلىءُ بالإيمانِ حتَّىٰ لا يكونَ للنفاقِ فيهِ مغرزُ إبرةٍ ، ويأتي عليهِ ساعةٌ يمتلىءُ بالنفاقِ حتَّىٰ لا يكونَ للإيمانِ فيهِ مغرزُ إبرةٍ)[(٢)] .

فقدْ عرفتَ بهـٰذا أنَّ خوفَ العارفينَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ ، وأنَّ سببَهُ أمورٌ مقدَّمةٌ ، منها البدعُ ، ومنها المعاصي ، ومنها النفاقُ ، ومتىٰ يخلو العبدُ عنْ شيءٍ مِنْ جملةِ ذلكِ ؟! وإنْ ظنَّ أنَّهُ قدْ خلا عنهُ . . فهوَ النفاقُ ، إذْ قيلَ : (مَنْ أمنَ النفاقَ . . فهوَ منافقٌ)[(٣)] .

وقالَ بعضُهُمْ لبعضِ العارفينَ : إنِّي أخافُ علىٰ نفسي النفاقَ ، فقالَ : لوْ كنتَ منافقاً . . لما خفتَ النفاقَ[(٤)] .

فلا يزالُ العارفُ بينَ الالتفاتِ إلى السابقةِ والخاتمةِ خائفاً منهما ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢٣٤) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٣٣) عن الحسن البصري .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٤٠٤) عن حذيفة رضي الله عنه ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٨٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العبدُ المؤمنُ بينَ مخافتينِ ، بينَ أجلٍ قدْ مضىٰ لا يدري ما اللهُ صانعٌ فيهِ ، وبينَ أجلٍ قدْ بقيَ لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيهِ ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ ما بعدَ الموتِ منْ مستعتبٍ ، ولا بعدَ الدنيا مِنْ دارٍ إلا الجنةُ أوِ النارُ »[1] ، واللهُ المستعانُ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٩٠) عن الحسن مرسلاً ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٩٧) عن الحسن عن بعض الصحابة مرفوعاً ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٢٦١) من حديث جابر رضي الله عنه .

بيان معنى سوء الخاتمة

فإنْ قلتَ : إنَّ أكثرَ هؤلاءِ يرجعُ خوفُهُمْ إلىٰ سوءِ الخاتمةِ ، فما معنىٰ سوءِ الخاتمةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ سوءَ الخاتمةِ علىٰ رتبتينِ ، إحداهُما أعظمُ مِنَ الأخرىٰ .

فأمَّا الرتبةُ العظيمةُ الهائلةُ : فأنْ يغلبَ على القلبِ عندَ سكراتِ الموتِ وظهورِ أهوالِهِ إمَّا الشكُّ وإمَّا الجحودُ ، فتُقبضَ الروحُ في حالةِ غلبةِ الجحودِ أوِ الشكِّ ، فيكونَ ما غلبَ على القلبِ مِنْ عقدةِ الجحودِ حجاباً بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ أبداً ، وذلكَ يقتضي البعدَ الدائمَ والعذابَ المخلَّدَ .

والثانيةُ وهيَ دونَها : أنْ يغلبَ علىٰ قلبِهِ عندَ الموتِ حبُّ أمرٍ مِنْ أمورِ الدنيا ، وشهوةٍ مِنْ شهواتِها ، فيتمثَّلَ ذلكَ في قلبِهِ ويستغرقَهُ ، حتَّىٰ لا يبقىٰ في تلكَ الحالةِ متسعٌ لغيرِهِ ، فيتفقَ قبضُ روحِهِ في تلكَ الحالِ ، فيكونَ استغراقُ قلبِهِ بهِ منكساً رأسَهُ إلى الدنيا ، وصارفاً وجهَهُ إليها ، ومهما انصرفَ الوجهُ عنِ اللهِ تعالىٰ . . حصلَ الحجابُ ، ومهما حصلَ الحجابُ . . نزلَ العذابُ ، إذْ نارُ اللهِ الموقدةُ لا تأخذُ إلا المحجوبينَ عنهُ .

فأمَّا المؤمنُ السليمُ قلبُهُ عنْ حبِّ الدنيا ، المصروفُ همُّهُ إلى اللهِ تعالىٰ . . فتقولُ لهُ النارُ : جزْ يا مؤمنُ ؛ فإنَّ نورَكَ قدْ أطفأَ لهبي[1] .

---

(١) روي هـٰذا مرفوعاً ، رواه الطبراني في « الكبير » (٢٢/٢٥٨) ، وابن عدي في =

فمهما اتفقَ قبضُ الروحِ في حالةِ غلبةِ حبِّ الدنيا . . فالأمرُ مخطرٌ ؛ لأنَّ المرءَ يموتُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ولا يمكنُ اكتسابُ صفةٍ أخرىٰ للقلبِ بعدَ الموتِ تضادُّ الصفةَ الغالبةَ عليهِ ؛ إذ لا تصرُّفَ في القلوبِ إلا بأعمالِ الجوارحِ ، وقدْ بطلَتِ الجوارحُ بالموتِ ، فبطلَتِ الأعمالُ ، فلا مطمعَ في عملٍ ، ولا مطمَعَ في رجوعٍ إلى الدنيا ليتداركَ ، وعندَ ذلكَ تعظمُ الحسرةُ .

إلا أنَّ أصلَ الإيمانِ وحبَّ اللهِ تعالىٰ إذا كانَ قدْ رسخَ في القلبِ مدَّةً طويلةً ، وتأكَّدَ ذلكَ بالأعمالِ الصالحةِ . . فإنَّهُ يمحو عنِ القلبِ هـٰذهِ الحالةَ التي عرضَتْ لهُ عندَ الموتِ ، فإنْ كانَ إيمانُهُ في القوَّةِ إلىٰ حدِّ مثقالٍ . . أخرجَهُ مِنَ النارِ في زمانٍ أقربَ ، وإنْ كانَ أقلَّ مِنْ ذلكَ . . طالَ مكثُهُ في النارِ ، ولوْ لمْ يكنْ إلا مثقالُ حبَّةٍ . . فلا بدَّ أنْ يخرجَهُ مِنَ النارِ ولوْ بعدَ آلافِ سنينَ .

* * *

فإنْ قلتَ : فما ذكرتَهُ يقتضي أن تسرعَ النارُ إليهِ عقيبَ موتِهِ ، فما بالُهُ يُؤخَّرُ إلىٰ يومِ القيامةِ ويُمهلُ طولَ هـٰذهِ المدَّةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ أنكرَ عذابَ القبرِ . . فهوَ مبتدعٌ محجوبٌ عنْ نورِ اللهِ تعالىٰ وعنْ نورِ القرآنِ ونورِ الإيمانِ ، بلِ الصحيحُ عندَ ذوي الأبصارِ ما صحَّتْ بِهِ الأخبارُ ، وهوَ أنَّ القبرَ إمَّا حفرةٌ مِنْ حفرِ النيرانِ أوْ روضةٌ مِنْ

= « الكامل » (٦/ ٢٩٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٢٣١) عن يعلى بن منية رضي الله عنه مرفوعاً .

رياضِ الجنانِ ، وأنَّهُ قدْ يُفتحُ إلىٰ قبرِ المعذَّبِ سبعونَ باباً مِنَ الجحيمِ كما وردَتْ بِهِ الأخبارُ[1] ، فلا تفارقُهُ روحُهُ إلا وقدْ نزلَ بِهِ البلاءُ إنْ كانَ قدْ شقيَ بسوءِ الخاتمةِ ، وإنَّما تختلفُ أصنافُ العذابِ باختلافِ الأوقاتِ ، فيكونُ سؤالُ مُنكَرٍ ونكِيرٍ عندَ الوضعِ في القبرِ ، والتعذيبُ بعدَهُ ، ثمَّ المناقشةُ في الحسابِ ، والافتضاحُ علىٰ ملأٍ منَ الأشهادِ في القيامةِ[2] ، ثمَّ بعدَ ذلكَ خطرُ الصراطِ ، وهولُ الزبانيةِ[3] ، إلىٰ آخرِ ما وردَتْ بهِ الأخبارُ ، فلا يزالُ الشقيُّ مردَّداً في جميعِ أحوالِهِ بينَ أصنافِ العذابِ ، وهوَ في جملةِ الأحوالِ معذَّبٌ إلا أنْ يتغمَّدَهُ اللهُ برحمتِهِ .



---

(١) رویٰ أبو داوود (٤٧٥٣) في الحديث الذي يذكر فيه عذاب القبر : « وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرِّها وسمومها. . . » الحديث ، أما ذكر السبعين. . فقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/ ٢٣٥) .

(٢) فمن ذلك ما رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « وأما الكفار والمنافقون. . . فينادىٰ بهم علىٰ رؤوس الخلائق : هٰؤلاء الذين كذبوا على الله » .
ومن ذلك ما رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٠) عنه أيضاً مرفوعاً : « من انتفىٰ من ولده ليفضحه في الدنيا. . فضحه الله يوم القيامة علىٰ رؤوس الأشهاد ، قصاص بقصاص » .

(٣) فمن ذلك ما رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٨٦) ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٣٣٧٦) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الزبانية يوم القيامة أسرع إلىٰ فسقة حملة القرآن منها إلىٰ عبدة الأوثان والنيران ، فيقولون : ليس من علم كمن لا يعلم » .

ولا تظنَّنَّ أنَّ محلَّ الإيمانِ يأكلُهُ الترابُ ، بلِ الترابُ يأكلُ جميعَ الجوارحِ ويبدِّدُها ، إلىٰ أن يبلغَ الكتابُ أجلَهُ ، فتجتمعُ الأجزاءُ المتفرِّقَةُ ، وتُعادُ إليها الروحُ التي هيَ محلُّ الإيمانِ ، وقدْ كانَتْ مِنْ وقتِ الموتِ إلى الإعادةِ إمَّا في حواصلِ طيرٍ خضْرٍ معلَّقةٍ تحتَ العرشِ إنْ كانَتْ سعيدةً ، وإمَّا علىٰ حالةٍ تضادُّ هـٰذهِ الحالَ إنْ كانَتْ ـ والعياذُ باللهِ ـ شقيَّةً .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما السببُ الذي يفضي إلىٰ سوءِ الخاتمةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ أسبابَ هـٰذهِ الأمورِ لا يمكنُ إحصاؤُها على التفصيلِ ، ولكنْ يمكنُ الإشارةُ إلىٰ مجامعِها :

أمَّا الختمُ على الشكِّ والجحودِ . . فينحصرُ سببُهُ في شيئينِ :

أحدُهُما : يُتصوَّرُ معَ تمامِ الورعِ والزهدِ ، وتمامِ الصلاحِ في الأعمالِ ؛ كالمبتدعِ الزاهدِ ، فإنَّ عاقبتَهُ مخطرةٌ جدّاً وإنْ كانَتْ أعمالُهُ صالحةً ، ولستُ أعني مذهباً فأقولُ : (إنَّهُ بدعةٌ) ؛ فإنَّ بيانَ ذلكَ يطولُ القولُ فيهِ ، بلْ أعني بالبدعةِ : أنْ يعتقدَ الرجلُ في ذاتِ اللهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ خلافَ الحقِّ ، فيعتقدُهُ علىٰ خلافِ ما هوَ عليهِ ؛ إمَّا برأيِهِ ومعقولِهِ ونظرِهِ الذي بهِ يجادلُ الخصومَ وعليهِ يعوِّلُ وبهِ يغترُّ ، وإمَّا أخذاً بالتقليدِ ممَّنْ هـٰذا حالُهُ .

فإذا قربَ الموتُ ، وظهرَتْ لهُ ناصيةُ ملكِ الموتِ ، واضطربَ القلبُ بما فيهِ . . فربما ينكشفُ لهُ في حالِ سكراتِ الموتِ بطلانُ ما اعتقدَهُ جهلاً ؛

إذْ حالُ الموتِ حالُ كشْفِ الغطاءِ ، ومبادىءُ سكراتِهِ منهُ ، فقدْ ينكشفُ بهِ بعضُ الأمورِ ، فمهما بطلَ عندَهُ ما كانَ اعتقدَهُ ، وقدْ كانَ قاطعاً بهِ متيقناً لهُ عندَ نفسِهِ . . لمْ يظنَّ بنفسِهِ أنَّهُ أخطأَ في هـٰذا الاعتقادِ خاصةً ؛ لالتجائِهِ فيهِ إلىٰ رأيِهِ الفاسدِ وعقلِهِ الناقصِ ، بلْ ظنَّ أنَّ كلَّ ما اعتقدَهُ لا أصلَ لهُ ؛ إذْ لمْ يكنْ عندَهُ فرقٌ بينَ إيمانِهِ باللهِ ورسولِهِ وسائرِ اعتقاداتِهِ الصحيحةِ وبينَ اعتقادِهِ الفاسدِ ، فيكونُ انكشافُ بعضِ اعتقاداتِهِ عنِ الجهلِ سبباً لبطلانِ بقيَّةِ اعتقاداتِهِ أوْ لشكِّهِ فيها .

فإنِ اتفقَ زهوقُ روحِهِ في هـٰذهِ الخطرةِ قبلَ أن ينيبَ ويعودَ إلىٰ أصلِ الإيمانِ[1] . . فقدْ خُتمَ لهُ بالسوءِ ، وخرجَتْ روحُهُ على الشركِ والعياذُ باللهِ منهُ ، فهؤلاءِ هُمُ المرادونَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، وبقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وكما أنَّهُ قدْ ينكشفُ في النومِ ما سيكونُ في المستقبلِ وذلكَ بسببِ خفَّةِ أشغالِ الدنيا عنِ القلبِ . . فكذلكَ ينكشفُ في سكراتِ الموتِ بعضُ الأمورِ ، إذْ شواغلُ الدنيا وشهواتُ البدنِ هيَ المانعةُ للقلبِ مِنْ أنْ ينظرَ إلى الملكوتِ ، فيطالعَ ما في اللوحِ المحفوظِ لتنكشفَ لهُ الأمورُ علىٰ ما هيَ عليهِ ، فيكونُ مثلُ هـٰذهِ الحالِ سببَ الكشفِ ، ويكونُ الكشفُ سببَ الشكِّ في بقيَّةِ الاعتقاداتِ .

---

(١) في غير (أ) : (يثبت) بدل (ينيب) .

وكلُّ مَنِ اعتقدَ في اللهِ تعالىٰ وفي صفاتِهِ وأفعالِهِ شيئاً علىٰ خلافِ ما هوَ بهِ ؛ إمَّا تقليداً ، وإمَّا نظراً بالرأيِ والمعقولِ . . فهوَ في هٰذا الخطرِ ، والزهدُ والصلاحُ لا يكفي لدفعِ هٰذا الخطرِ ، بلْ لا ينجي منهُ إلا الاعتقادُ الحقُّ .

والبُلْهُ بمعزلٍ عنْ هٰذا الخطرِ ؛ أعني : الذينَ آمنوا باللهِ ورسولِهِ واليومِ الآخرِ إيماناً مجملاً راسخاً ؛ كالأعرابِ ، والسواديَّةِ ، وسائرِ العوامِّ الذينَ لمْ يخوضوا في البحثِ والنظرِ ، ولمْ يشرعوا في الكلامِ استقلالاً ، ولا أصغَوا إلىٰ أصنافِ المتكلمينَ في تقليدِ أقاويلِهِمُ المختلفةِ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ أهلِ الجنَّةِ البُلْهُ »[1] .

ولذلكَ منعَ السلفُ مِنَ البحثِ والنظرِ والخوضِ في الكلامِ ، والتفتيشِ عنْ هٰذهِ الأمورِ ، وأمروا الخلقَ أنْ يقتصروا علىٰ أنْ يؤمنوا بما أنزلَ اللهُ جميعاً ، وبكلِّ ما جاءَ مِنَ الظواهرِ ، معَ اعتقادِ نفيِ التشبيهِ ، ومنعوهُمْ عنِ الخوضِ في التأويلِ ؛ لأنَّ الخطرَ في البحثِ عنِ الصفاتِ عظيمٌ ، وعقباتُهُ كؤودةٌ ، ومسالكُهُ وعرةٌ ، والعقولُ عنْ دركِ جلالِ اللهِ تعالىٰ قاصرةٌ ، وهدايةُ اللهِ تعالىٰ بنورِ اليقينِ عنِ القلوبِ بما جُبلَتْ عليهِ مِنْ حبِّ الدنيا

---

(١) رواه الطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٧/ ٤٣١) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٣١٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه (١٣٠٣) من حديث جابر رضي الله عنه أيضاً مرفوعاً .

محجوبةٌ ، وما ذكرَهُ الباحثونَ ببضاعةِ عقولِهِمْ مضطربٌ ومتعارضٌ ، والقلوبُ لما أُلقيَ إليها في مبدأِ النشأةِ آلفةٌ ، وبهِ متعلِّقةٌ ، والتعصباتُ الثائرةُ بينَ الخلقِ مساميرُ مؤكدةٌ للعقائدِ الموروثةِ ، أوِ المأخوذةِ بحسنِ الظنِّ مِنَ المعلِّمينَ في أوَّلِ الأمرِ ، ثمَّ الطباعُ بحبِّ الدنيا مشغوفةٌ ، وعليها مقبلةٌ ، وشهواتُ الدنيا بمُخَنَّقِها آخذةٌ ، وعنْ تمامِ الفكرِ صارفةٌ .

فإذا فُتِحَ بابُ الكلامِ في اللهِ وفي صفاتِهِ بالرأيِ والمعقولِ ، معَ تفاوتِ الناسِ في قرائحِهِمْ ، واختلافِهِمْ في طبائعِهِمْ ، وحرصِ كلِّ جاهلٍ منهُمْ علىٰ أنْ يدَّعيَ الكمالَ أوِ الإحاطةَ بكنْهِ الحقِّ . . انطلقَتْ ألسنتُهُمْ بما يقعُ لكلِّ واحدٍ منهُمْ ، وتعلَّقَ ذلكَ بقلوبِ المصغينَ إليهِمْ ، وتأكَّدَ ذلكَ بطولِ الإلفِ فيهِمْ ، وانسدَّ بالكلِّيَّةِ طريقُ الخلاصِ عليهِمْ ، فكانَتْ سلامةُ الخلقِ في أنْ يشتغلوا بالأعمالِ الصالحةِ ، ولا يتعرَّضوا لما هوَ خارجٌ عنْ حدِّ طاقتِهِمْ .

ولكنِ الآنَ قدِ استرخى العِنانُ ، وفشا الهذيانُ ، ونزلَ كلُّ جاهلٍ علىٰ ما وافقَ طبعَهُ بظنٍّ وحسبانٍ ، وهوَ يعتقدُ أنَّ ذلكَ علمٌ واستيقانٌ ، وأنَّهُ صفوُ الإيمانِ ، ويظنُّ أنَّ ما قَنِعَ بهِ مِنْ حدسٍ وتخمينٍ علمُ اليقينِ وعينُ اليقينِ ، ولتعلمُنَّ نبأَهُ بعدَ حينٍ .

وينبغي أنْ يُنشدَ في هؤلاءِ عندَ كشْفِ الغطاءِ[1] : [من البسيط]

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِٱلأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ ٱلْقَدَرُ

---

(١) البيتان متنازع في نسبتهما ، وهما في « ديوان سيدنا علي » (ص ١٣٢) ، و« ديوان الإمام الشافعي » (ص ٦٥) ، و« ديوان أبي العتاهية » (ص ٥٣٦) .

وَسَالَمَتْكَ ٱللَّيَالِي فَٱغْتَرَرْتَ بِها   وَعِنْدَ صَفْوِ ٱللَّيَالِي يَحْدُثُ ٱلْكَدَرُ

واعلمْ يقيناً أنَّ كلَّ مَنْ فارقَ الإيمانَ الساذجَ باللهِ ورسولِهِ وكتبِهِ[1] ، وخاضَ في البحثِ . . فقدْ تعرَّضَ لهـٰذا الخطرِ ، ومثالُهُ : مَنِ انكسرَتْ سفينتُهُ وهوَ في ملتطمِ الأمواجِ ، يرميهِ موجٌ إلىٰ موجٍ ، فربما يتفقُ أنْ يلقيَهُ إلى الساحلِ ، وذلكَ بعيدٌ ، والهلاكُ أغلبُ عليهِ .

وكلُّ نازلٍ علىٰ عقيدةٍ تلقَّفَها مِنَ الباحثينَ ببضاعةِ عقولِهِمْ ؛ إمَّا معَ الأدلَّةِ التي حرَّرُوها في تعصباتِهِمْ ، أوْ دونَ الأدلَّةِ ؛ إنْ كانَ شاكّاً فيهِ . . فهوَ فاسدُ الدينِ ، وإنْ كانَ واثقاً بهِ . . فهوَ آمنٌ مِنْ مكْرِ اللهِ ، مغترٌّ بعقلِهِ الناقصِ ، وكلُّ خائضٍ في البحثِ فلا ينفكُّ عنْ هاتينِ الحالتينِ إلا إذا جاوزَ حدودَ المعقولِ[2] إلىٰ نورِ المكاشفةِ الذي يشرقُ في عالمِ الولايةِ والنبوَّةِ ، وذلكَ هوَ الكبريتُ الأحمرُ ، وأنَّىٰ يتيسَّرُ ؟! وإنَّما يسلمُ عنْ هـٰذا الخطرِ البلْهُ مِنَ العوامِّ ، أوِ الذينَ شغلَهُمْ خوفُ النارِ بطاعةِ اللهِ ، فلمْ يخوضوا في هـٰذا الفضولِ .

فهـٰذا أحدُ الأسبابِ المخطرةِ في سوءِ الخاتمةِ .

وأمَّا السببُ الثاني : فهوَ ضعْفُ الإيمانِ في الأصلِ ، ثمَّ استيلاءُ حبِّ الدنيا على القلبِ ، ومهما ضعفَ الإيمانُ . . ضعفَ حبُّ اللهِ ، وقويَ حبُّ

---

(١) الساذج : يطلقه أهل الكلام علىٰ ما ليس ببرهان قاطع .

(٢) في (أ) : (العقل) بدل (المعقول) .

الدنيا ، فيصيرُ بحيثُ لا يبقىٰ في القلبِ موضعٌ لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، إلا مِنْ حيثُ حديثُ النفسِ ، لا يظهرُ لهُ أثرٌ في مخالفةِ النفسِ والعدولِ عنْ طريقِ الشيطانِ ، فيورثُ ذلكَ الانهماكَ في اتباعِ الشهواتِ ، حتَّىٰ يظلمَ القلبُ ، ويقسوَ ويسودَّ ، وتتراكمَ ظلمةُ الذنوبِ على القلبِ ، فلا يزالُ يطفىءُ ما فيهِ مِنْ نورِ الإيمانِ علىٰ ضعفِهِ حتَّىٰ يصيرَ طبعاً ورَيْناً .

فإذا جاءَتْ سكراتُ الموتِ . . ازدادَ ذلكَ الحبُّ ـ أعني : حبَّ اللهِ ـ ضعفاً ؛ لما يبدو مِنِ استشعارِ فراقِ الدنيا ، وهيَ المحبوبُ الغالبُ على القلبِ[1] ، فيتألَّمُ القلبُ باستشعارِ فراقِ الدنيا ، ويرىٰ ذلكَ مِنَ اللهِ ، فيختلجُ ضميرُهُ بإنكارِ ما قدَّرَ عليهِ مِنَ الموتِ ، وكراهةِ ذلكَ مِنْ حيثُ إنَّهُ مِنَ اللهِ ، فيُخشىٰ أنْ يثورَ في باطنِهِ بغضٌ للهِ تعالىٰ بدلَ الحبِّ ، كما أنَّ الذي يحبُّ ولدَهُ حبّاً ضعيفاً إذا أخذَ ولدُهُ أموالَهُ التي هيَ أحبُّ إليهِ مِنْ ولدِهِ وأحرقَها . . انقلبَ ذلكَ الحبُّ الضعيفُ بغضاً ، فإنِ اتفقَ زهوقُ روحِهِ في تلكَ اللحظةِ التي خطرَتْ فيها هـٰذهِ الخطرةُ . . فقدْ خُتِمَ لهُ بالسوءِ ، وهلكَ هلاكاً مؤبَّداً .

والسببُ الذي يفضي إلىٰ مثلِ هـٰذهِ الخاتمةِ هوَ غلبةُ حبِّ الدنيا ، والركونُ إليها ، والفرحُ بأسبابِها ، معَ ضعفِ الإيمانِ الموجبِ لضعفِ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، فمَنْ وجدَ في قلبِهِ حبَّ اللهِ أغلبَ مِنْ حبِّ الدنيا ـ وإنْ

---

(١) في (أ) : (وبقي) بدل (وهي) .

كانَ يحبُّ الدنيا أيضاً ـ فهوَ أبعدُ عنْ هـٰذا الخطرِ .

وحبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ ، وهوَ الداءُ العضالُ ، وقدْ عمَّ أصنافَ الخلقِ ، وذلكَ كلُّهُ لقلَّةِ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، إذْ لا يحبُّهُ إلا مَنْ عرفَهُ ، ولهـٰذا قالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ .

فإذاً ؛ مَنْ فارقَتْهُ روحُهُ في حالةِ خَطْرةِ الإنكارِ على اللهِ تعالىٰ ببالِهِ ، وظهورِ بغضِ فعلِ اللهِ تعالىٰ بقلبِهِ في تفريقِهِ بينَهُ وبينَ أهلِهِ ومالِهِ وسائرِ محابِّهِ . . فيكونُ موتُهُ قدوماً علىٰ ما أبغضَهُ ، وفراقاً لما أحبَّهُ ، فيقدمُ على اللهِ تعالىٰ قدومَ العبدِ المبغضِ الآبقِ إذا قُدِمَ بهِ علىٰ مولاهُ قهراً ، فلا يخفىٰ ما يستحقُّهُ مِنَ الخزيِ والنَّكالِ .

وأمَّا الذي يُتوفَّىٰ على الحبِّ . . فإنَّهُ يقدمُ على اللهِ تعالىٰ قدومَ العبدِ المحسنِ المشتاقِ إلىٰ مولاهُ ، الذي تحمَّلَ مشاقَّ الأعمالِ ووعثاءَ الأسفارِ طمعاً في لقائِهِ ، فلا يخفىٰ ما يلقاهُ مِنَ الفرحِ والسرورِ بمجرَّدِ القدومِ ، فضلاً عمَّا يستحقُّهُ مِنْ لطائفِ الإكرامِ وبدائعِ الإنعامِ .

وأمَّا الخاتمةُ الثانيةُ التي هيَ دونَ الأولىٰ ، وليسَتْ مقتضيةً للخلودِ في النارِ . . فلها أيضاً سببانِ :

أحدُهُما : كثرةُ المعاصي وإنْ قويَ الإيمانُ .

والآخرُ : ضعفُ الإيمانِ وإنْ قلَّتِ المعاصي .

وذلكَ لأنَّ مقارفةَ المعاصي سببُها غلبةُ الشهواتِ ورسوخُها في القلبِ بكثرةِ الإلفِ والعادةِ ، وجميعُ ما ألفَهُ الإنسانُ في عمرِهِ يعودُ ذكرُهُ إلىٰ قلبِهِ عندَ موتِهِ ، فإنْ كانَ ميلُهُ الأكثرُ إلى الطاعاتِ . . كانَ أكثرُ ما يحضرُهُ ذكرَ طاعةِ اللهِ ، وإنْ كانَ ميلُهُ الأكثرُ إلى المعاصي . . غلبَ ذكرُها علىٰ قلبِهِ عندَ الموتِ ، فربما تُقبضُ روحُهُ عندَ غلبةِ شهوةٍ مِنْ شهواتِ الدنيا ، ومعصيةٍ مِنَ المعاصي ، فيتقيَّدُ بها قلبُهُ ، ويصيرُ محجوباً عنِ اللهِ تعالىٰ ، فالذي لا يقارفُ الذنبَ إلا الفينة بعدَ الفينةِ . . فهوَ أبعدُ عنْ هـٰذا الخطرِ ، والذي لمْ يقارفْ ذنباً أصلاً . . فهوَ بعيدٌ جداً عنْ هـٰذا الخطرِ ، والذي غلبَتْ عليهِ المعاصي ، وكانَتْ أكثرَ مِنْ طاعاتِهِ ، وقلبُهُ بها أفرحُ منهُ بالطاعاتِ . . فهـٰذا الخطرُ عظيمٌ في حقِّهِ جدّاً .

ويعرفُ هـٰذا بمثالٍ : وهوَ أنَّهُ لا يخفىٰ عليكَ أنَّ الإنسانَ يرىٰ في منامِهِ جملةً مِنَ الأحوالِ التي عهدَها طولَ عمرِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ لا يرىٰ إلا ما يماثلُ مشاهداتِهِ في اليقظةِ ، وحتَّىٰ إنَّ المراهقَ الذي يحتلمُ لا يرىٰ صورةَ الوقاعِ إذا لمْ يكنْ قدْ واقعَ في اليقظةِ ، ولوْ بقيَ كذلكَ مدةً . . لمَا رأىٰ عندَ الاحتلامِ صورةَ الوقاعِ .

ثمَّ لا يخفىٰ أنَّ الذي قضىٰ عمرَهُ في التفقُّهِ يرىٰ مِنَ الأحوالِ المتعلِّقةِ بالعلمِ والعلماءِ أكثرَ ممَّا يراهُ النجَّارُ الذي قضىٰ عمرَهُ في النجارةِ ، والنجَّارُ

يرىٰ مِنَ الأحوالِ المتعلِّقةِ بأسبابِ النجارةِ أكثرَ ممَّا يراهُ الطبيبُ والفقيهُ ؛ لأنَّهُ إنَّما يظهرُ في حالةِ النومِ ما حصلَ لهُ مناسبةٌ معَ القلبِ بطولِ الإلفِ أوْ بسببٍ آخرَ مِنَ الأسبابِ .

والموتُ شبهُ النومِ ، ولكنَّهُ فوقَهُ ، ولكنَّ سكراتِ الموتِ وما يتقدَّمُهُ مِنَ الغشيةِ قريبٌ مِنَ النومِ ، فيقتضي ذلكَ تذكُّرَ المألوفاتِ وعودَها إلى القلبِ ، وأحدُ الأسبابِ المرجِّحةِ لحصولِ ذكرِهِ في القلبِ طولُ الإلفِ ، فطولُ الإلفِ بالمعاصي والطاعاتِ أيضاً مرجِّحٌ ؛ ولذلكَ أيضاً تُخالفُ مناماتُ الصالحينَ مناماتِ الفسَّاقِ ، فتكونُ غلبةُ الإلفِ سبباً لأنْ تتمثَّلَ صورةُ فاحشةٍ في قلبِهِ وتميلَ إليها نفسُهُ ، فربَّما تُقبضُ عليها روحُهُ ، فيكونُ ذلكَ سببَ سوءِ خاتمتِهِ، وإنْ كانَ أصلُ الإيمانِ باقياً ، بحيثُ يُرجىٰ لهُ الخلاصُ منها .

وكما أنَّ ما يخطرُ في اليقظةِ إنَّما يخطرُ بسببٍ خاصٍّ يعلمُهُ اللهُ تعالىٰ . . فكذلكَ آحادُ المناماتِ لها أسبابٌ عندَ اللهِ ، نعرفُ بعضَها ولا نعرفُ بعضَها ، كما أنَّا نعلمُ أنَّ الخاطرَ ينتقلُ مِنَ الشيءِ إلىٰ ما يناسبُهُ : إمَّا بالمشابهةِ ، وإمَّا بالمضادَّةِ ، وإمَّا بالمقارنةِ ، بأنْ يكونَ قدْ وردَ على الحسِّ معَهُ .

أمَّا بالمشابهةِ : فبأنْ ينظرَ إلىٰ جميلٍ ، فيتذكَّرَ جميلاً آخرَ .

وأمَّا بالمضادَّةِ : فبأنْ ينظرَ إلىٰ جميلٍ ، فيتذكَّرَ قبيحاً ، ويتأمَّلَ في شدةِ التفاوتِ بينَهُما .

وأمَّا بالمقارنةِ : فبأنْ ينظرَ إلىٰ فرسٍ قدْ رآهُ مِنْ قبلُ معَ إنسانٍ ، فيتذكَّرَ ذلكَ الإنسانَ .

وقدْ ينتقلُ الخاطرُ مِنْ شيءٍ إلىٰ شيءٍ ولا يُدرىٰ وجهُ مناسبتِهِ لهِ ، وإنَّما يكونُ ذلكَ بواسطةٍ وواسطتينِ ، مثلَ أنْ ينتقلَ مِنْ شيءٍ إلىٰ ثانٍ ، ومنهُ إلىٰ ثالثٍ ، ثمَّ ينسى الثانيَ ولا يكونُ بينَ الثالثِ والأوَّلِ مناسبةٌ ، ولكنْ يكونُ بينَهُ وبينَ الثاني مناسبةٌ ، وبينَ الثاني والأوَّلِ مناسبةٌ ؛ فكذلكَ لانتقالاتِ الخواطرِ في المنامِ أسبابٌ مِنْ هـٰذا الجنسِ ، وكذا عندَ سكراتِ الموتِ ؛ فإنَّ الخواطرَ تنتقلُ فيها في أمورٍ بعضُها مرتبطٌ بالبعضِ بأسبابٍ مختلفةٍ .

فعلىٰ هـٰذا ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ مَنْ كانتِ الخياطةُ أكثرَ أشغالِهِ . . فإنَّكَ تراهُ يوميءُ إلىٰ رأسِهِ كأنَّهُ يأخذُ إبرتَهُ ليخيطَ بها ، ويبلُّ إصبعَهُ التي لها عادةٌ بالكشتبانِ ، ويأخذُ الإزارَ مِنْ فوقِهِ ويقدرُهُ ويشبرُهُ كأنَّهُ يتعاطىٰ تفصيلَهُ ، ثمَّ يمدُّ يدَهُ إلى المقراضِ .

ومَنْ أرادَ أنْ يكفَّ خاطرَهُ عنِ الانتقالِ إلى المعاصي والشهواتِ . . فلا طريقَ لهُ إلا المجاهدةُ طولَ العمرِ في فطامِ نفسِهِ عنها ، وفي قمعِ الشهواتِ مِنَ القلبِ ، فهـٰذا هوَ القدْرُ الذي يدخلُ تحتَ الاختيارِ ، ويكونُ طولُ المواظبةِ على الخيرِ ، وتخليةُ الفكرِ عنِ الشرِّ . . عدَّةً وذخيرةً لحالةِ سكراتِ الموتِ ، فإنَّهُ يموتُ المرءُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ويحشرُ علىٰ ما ماتَ عليهِ .

ولذلكَ نُقِلَ عنْ بقَّالٍ أنَّهُ كانَ يُلقَّنُ عندَ الموتِ كلمتَي الشهادةِ ، فيقولُ :

(خمسةٌ ، ستةٌ ، أربعةٌ) ، فكانَ مشغولَ النفسِ بالحسابِ الذي طالَ إلفُهُ لهُ قبلَ الموتِ .

وقالَ بعضُ العارفينَ مِنَ السلفِ : العرشُ جوهرةٌ تتلألأ نوراً ، فلا يكونُ العبدُ علىٰ حالٍ إلا انطبعَ مثالُهُ في العرشِ على الصورةِ التي كانَ عليها ، فإذا كانَ في سكراتِ الموتِ . . كُشفَتْ لهُ صورتُهُ مِنَ العرشِ ، فربما يرىٰ نفسَهُ علىٰ صورةِ معصيةٍ ، وكذلكَ يُكشفُ لهُ يومَ القيامةِ ، فيرىٰ أحوالَ نفسِهِ ، فيأخذُهُ مِنَ الحياءِ والخوفِ ما يجلُّ عنِ الوصفِ[1] .

وما ذكرَهُ صحيحٌ ، وسببُ الرؤيا الصادقةِ قريبٌ مِنْ ذلكَ ، فإنَّ النائمَ يدركُ ما يكونُ في المستقبلِ مِنْ مطالعةِ اللوحِ المحفوظِ ، وهيَ جزءٌ مِنْ أجزاءِ النبوَّةِ[2] .

فإذاً ؛ رجعَ سوءُ الخاتمةِ إلىٰ أحوالِ القلبِ واختلاجِ الخواطرِ ، ومقلِّبُ القلوبِ هوَ اللهُ ، والاتفاقاتُ المقتضيةُ لسوءِ الخواطرِ[3] غيرُ داخلةٍ تحتَ الاختيارِ دخولاً كلِّياً وإنْ كانَ لطولِ الإلفِ فيهِ تأثيرٌ ، فلهـٰذا عظمَ خوفُ العارفينَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ ؛ لأنَّهُ لوْ أرادَ الإنسانُ ألا يرىٰ في المنامِ إلا أحوالَ الصالحينَ وأحوالَ الطاعاتِ والعباداتِ . . عسرَ عليهِ ذلكَ ، وإنْ كانَتْ كثرةُ

(١) قوت القلوب (١/ ٢٣٣) بتصرف .
(٢) كما روى البخاري (٦٩٨٣) ، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .
(٣) في (أ ، س) : (الخاتمة) بدل (الخواطر) .

الصلاحِ والمواظبةُ عليهِ ممَّا يؤثرُ فيهِ ، ولكنَّ اضطراباتِ الخيالِ لا تدخلُ بالكلِّيَّةِ تحتَ الضبطِ ، وإنْ كانَ الغالبُ مناسبةَ ما يظهرُ في النومِ لما غلبَ في اليقظةِ .

حتَّىٰ سمعتُ الشيخَ أبا عليٍّ الفارمْذيَّ رحمةُ اللهِ عليهِ يصفُ لي وجوبَ حسْنِ أدبِ المريدِ لشيخِهِ ، وألا يكونَ في قلبِهِ إنكارٌ لكلِّ ما يقولُهُ ، ولا في لسانِهِ مجادلةٌ عليهِ ، فقالَ : حكيتُ لشيخي أبي القاسم الكُرْكانيِّ[1] مناماً لي ، وقلتُ : رأيتُكَ قلتَ لي كذا ، فقلتُ : لِمَ ذاكَ ؟ قالَ : فهجرَني شهراً ولمْ يكلِّمْني ، وقالَ : لولا أنَّهُ كانَ في باطنِكَ تجويزُ المطالبةِ وإنكارُ ما أقولُهُ لكَ . . لما جرىٰ ذلكَ علىٰ لسانِكَ في المنامِ .

وهوَ كما قالَ ؛ إذْ قلَّما يرى الإنسانُ في منامِهِ خلافَ ما يغلبُ في اليقظةِ علىٰ قلبِهِ .

فهـٰذا هوَ القدْرُ الذي نسمحُ بذكرِهِ في علمِ المعاملةِ مِنْ أسرارِ أمرِ

---

(١) وهو جدُّ أبي علي الفارمذي لأمه ، روى الحافظ السلفي في « معجم السفر » (١٣٧) عن أخي الغزالي أحمد أنه قال : (كان أبو القاسم الكركاني بطوس شيخ خراسان في عصره في التصوف . . .) ، قال العلامة ياقوت في « معجم البلدان » (٤/ ٤٥٢) : (كُركان : بالضم ، وآخره نون ، وإذا عرِّب . . قيل : جُرجان) ، قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٤١) : (وكان أبو علي الفارمذي قد صاهر أبا القاسم الكركاني هـٰذا ، والمصنف رحمه الله تعالىٰ قد أخذ عن كل من الفارمذي ويوسف النساج ، وهما جميعاً عن أبي القاسم الكركاني هـٰذا ، وقد دفن الكركاني والنساج كلاهما في قبر واحد بطوس ، وكل هـٰؤلاء الثلاثة من كبار مشايخ السلسلة النقشبندية ، وللكركاني في الأخذ طريقان) وذكرهما .

الخاتمةِ ، وما وراءَ ذلكَ فهوَ داخلٌ في علمِ المكاشفةِ .

وقدْ ظهرَ لكَ بهٰذا أنَّ الأمنَ مِنْ سوءِ الخاتمةِ بأنْ ترى الأشياءَ كما هيَ عليهِ مِنْ غيرِ جهلٍ ، وتزجِّيَ جميعَ العمرِ في طاعةِ اللهِ مِنْ غيرِ معصيةٍ[1] ، فإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ ذلكَ محالٌ أوْ عسيرٌ . . فلا بدَّ أنْ يغلبَ عليكَ مِنَ الخوفِ ما غلبَ على العارفينَ ، حتَّىٰ يطولَ بسببِهِ بكاؤُكَ ونياحتُكَ ، ويدومَ بِهِ حزنُكَ وقلقُكَ ، كما سنحكيهِ مِنْ أحوالِ الأنبياءِ والأولياءِ والسلفِ الصالحينَ ؛ ليكونَ ذلكَ أحدَ الأسبابِ المهيِّجةِ لنارِ الخوفِ مِنْ قلبِكَ .

وقدْ عرفتَ بهٰذا أنَّ أعمالَ العمرِ كلَّها ضائعةٌ إنْ لمْ يسلمْ في النفَسِ الأخيرِ الذي عليهِ خروجُ الروحِ ، وأنَّ سلامتَهُ معَ اضطرابِ أمواجِ الخواطرِ مشكلٌ جداً ، ولذلك كانَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ يقولُ : (إنِّي لا أعجبُ ممَّنْ هلكَ كيفَ هلكَ ، ولكنِّي أعجبُ ممَّن نجا كيفَ نجا ؟!!)[2] .

ولذلكَ قالَ حامدٌ اللفَّافُ : (إذا صعدَتِ الملائكةُ بروحِ العبدِ المؤمنِ وقدْ ماتَ على الخيرِ والإسلامِ . . تعجبَتِ الملائكةُ منهُ ، وقالوا : كيفَ نجا هٰذا مِنْ دنيا فسدَ فيها خيارُنا ؟!)[3] .

---

(١) تزجي : زجَّيت الشيء تزجية ؛ إذا دفعته برفق ، يقال : كيف تزجِّي الأيام ؟ أي : كيف تدفعها ؟ ودفعها يكون بالرضا بقوت قليل .

(٢) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٢٤١) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٧١) عن سليمان ينصح به ابنه .

(٣) يشيرون بذلك إلىٰ إبليس وهاروت وماروت . « إتحاف » (٩/ ٢٤١) .

وكانَ الثوريُّ يوماً يبكي ، فقيلَ لهُ : علامَ تبكي ؟ فقالَ : بكينا على الذنوبِ زماناً ، فالآنَ نبكي على الإسلامِ[1] .

وبالجملةِ : مَنْ وقعَتْ سفينتُهُ في لجَّةِ البحرِ ، وهجمَتْ عليهِ الرياحُ العاصفةُ ، واضطربَتْ الأمواجُ . . كانَتِ النجاةُ في حقِّهِ أبعدَ مِنَ الهلاكِ ، وقلبُ المؤمنِ أشدُّ اضطراباً مِنَ السفينةِ ، وأمواجُ الخواطرِ أعظمُ التطاماً مِنْ أمواجِ البحرِ ، وإنَّما المَخُوفُ عندَ الموتِ خاطرُ سوءٍ يخطرُ فقطْ ، وهوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ خمسينَ سنةً ، حتَّىٰ لا يبقىٰ بينَهُ وبينَ الجنَّةِ إلا فُواقُ ناقةٍ ، فيُختمُ لهُ بما سبقَ بهِ الكتابُ »[2] ، ولا يتسعُ فُواقُ الناقةِ لأعمالٍ توجبُ الشقاوةَ ، بلْ هيَ الخواطرُ التي تضطربُ وتخطرُ خطورَ البرقِ الخاطفِ .

وقالَ سهلٌ : (رأيتُ كأنِّي أُدخلتُ الجنَّةَ ، فرأيتُ ثلاثَ مئةِ نبيٍّ ، فسألتُهُمْ : ما أخوفُ ما كنتُمْ تخافونَ في الدنيا ؟ قالوا : سوءُ الخاتمةِ)[3] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/ ٢٤١) ، وقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٢) عن عبد الرحمـٰن بن مهدي قال : مات سفيان الثوري عندي ، فلما اشتد به . . جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ؛ أراك كثير الذنوب ! فرفع شيئاً من الأرض فقال : والله ؛ لذنوبي أهون عندي من ذا ، إني أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت .

(٢) قوت القلوب (١/ ٢٢٦) ، ورواه مسلم (٢٦٥١) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٤٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٢٩) .

ولأجلِ هٰذا الخطرِ العظيمِ كانَتِ الشهادةُ مغبوطاً عليها ، وكانَ موتُ الفجأةِ مكروهاً .

أمَّا الموتُ فجأةً. . فلأنَّهُ ربما يتفقُ عندَ غلبةِ خاطرِ سوءٍ واستيلائِهِ على القلبِ، والقلبُ لا يخلو عنْ أمثالِهِ ، إلا أنْ يُدفعَ بالكراهةِ أوْ بنورِ المعرفةِ .

وأمَّا الشهادةُ. . فلأنَّها عبارةٌ عنْ قبضِ الروحِ في حالةٍ لمْ يبقَ في القلبِ سوىٰ حبِّ اللهِ تعالىٰ ، وخرجَ حبُّ الدنيا والأهلِ والمالِ ، والولدِ وجميعِ الشهواتِ عنِ القلبِ ، إذْ لا يهجمُ علىٰ صفِّ القتالِ موطِّناً نفسَهُ على الموتِ إلا حبّاً للهِ ، وطلباً لمرضاتِهِ ، وبائعاً دنياهُ بآخرتِهِ ، وراضياً بالبيعِ الذي بايعَهُ اللهُ بهِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ ، والبائع راغبٌ عنِ المبيعِ لا محالةَ ، ومخرجٌ حبَّهُ مِنَ القلبِ ، ومجرِّدٌ حبَّ العوضِ المطلوبِ في قلبِهِ ، ومثلُ هٰذهِ الحالةِ قدْ يغلبُ على القلبِ في بعضِ الأحوالِ ، ولكنْ لا يتفقُ زهوقُ الروحِ فيها ، فصفُّ القتالِ سببٌ لزهوقِ الروحِ علىٰ مثلِ هٰذهِ الحالةِ ، هٰذا فيمَنْ ليسَ يقصدُ الغلبةَ والغنيمةَ وحسنَ الصيتِ بالشجاعةِ ، فإنَّ مَنْ هٰذا حالُهُ وإنْ قُتِلَ في المعركةِ فهوَ بعيدٌ عنْ مثلِ هٰذهِ الرتبةِ كما دلَّتْ عليهِ الأخبارُ[1] .

---

(١) إذ روى البخاري (٢٨١٠) ، ومسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرىٰ مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في سبيل الله » .

وإذْ بانَ لكَ معنىٰ سوءِ الخاتمةِ ، وما هوَ مخوفٌ فيها . . فاشتغلْ بالاستعدادِ لها ؛ فواظبْ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وأخرجْ مِنْ قلبِكَ حبَّ الدنيا ، واحرسْ عنْ فعلِ المعاصي جوارحَكَ ، وعن الفكرِ فيها قلبَكَ ، واحترزْ عنْ مشاهدةِ المعاصي ومشاهدةِ أهلِها جهدَكَ ، فإنَّ ذلكَ أيضاً يؤثِّرُ في قلبِكَ ، ويصرفُ إليهِ فكرَكَ وخواطرَكَ .

وإيَّاكَ أنْ تسوِّفَ وتقولَ : (سأستعدُّ لها إذا جاءَتِ الخاتمةُ) ، فإنَّ كلَّ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِكَ خاتمتُكَ ، إذْ يمكنُ أنْ تُختطفَ فيهِ روحُكَ ، فراقبْ قلبَكَ في كلِّ تطريفةٍ ، وإيَّاكَ أنْ تهملَهُ لحظةً ، فلعلَّ تلكَ اللحظةَ خاتمتُكَ ؛ إذْ يمكنُ أنْ تُختطفَ فيها روحُكَ ، هٰذا ما دمتَ في يقظتِكَ .

وأمَّا إذا نمتَ . . فإيَّاكَ أنْ تنامَ إلا علىٰ طهارةِ الظاهرِ والباطنِ ، وأنْ يغلبَكَ النومُ إلا بعدَ غلبةِ ذكرِ اللهِ علىٰ قلبِكَ ، لستُ أقولُ : علىٰ لسانِكَ ، فإنَّ حركةَ اللسانِ بمجرَّدِها ضعيفةُ الأثرِ .

واعلمْ قطعاً : أنَّهُ لا يغلبُ عندَ النومِ علىٰ قلبِكَ إلا ما كانَ قبلَ النومِ غالباً عليهِ ، وأنَّهُ لا يغلبُ في النومِ إلا ما كانَ غالباً قبلَ النومِ ، ولا تُبعثُ عنْ نومِكَ إلا علىٰ ما غلبَ علىٰ قلبِكَ في نومِكَ ، والموتُ والبعثُ شبهُ النومِ واليقظةِ ، فكما لا ينامُ العبدُ إلا علىٰ ما غلبَ عليهِ في يقظتِهِ ، ولا يستيقظُ إلا علىٰ ما كانَ عليهِ في نومِهِ . . فكذلكَ لا يموتُ المرءُ إلا علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ولا يُحشرُ إلا علىٰ ما ماتَ عليهِ .

وتحقَّقْ قطعاً ويقيناً أنَّ الموتَ والبعثَ حالتانِ مِنْ أحوالِكَ كما أنَّ النومَ واليقظةَ حالتانِ مِنْ أحوالِكَ ، وآمنْ بهـٰذا تصديقاً باعتقادِ القلبِ ، إنْ لَمْ تكنْ أهلاً لمشاهدةِ ذلكَ بعينِ اليقينِ ونورِ البصيرةِ ، وراقبْ أنفاسَكَ ولحظاتِكَ ، وإيَّاكَ أنْ تغفُلَ عنِ اللهِ طرفةَ عينٍ ، فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلكَ كلَّهُ[1] . . كنتَ معَ ذلكَ في خطرٍ عظيمٍ ، فكيفَ إذا لَمْ تفعلْ ؟! فالناسُ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العالمونَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العاملونَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا المخلصونَ والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ .

واعلمْ : أنَّ ذلكَ لا يتيسَّرُ لكَ ما لَمْ تقنعْ مِنَ الدنيا بقدْرِ ضرورتِكَ ، وضرورتُكَ مطعمٌ وملبسٌ ومسكنٌ ، والباقي كلُّهُ فضولٌ .

والضرورةُ مِنَ المطعمِ : ما يقيمُ صلبَكَ ويسدُّ رمقَكَ ، فينبغي أنْ يكونَ تناولُكَ تناولَ مضطرٍّ كارهٍ لهُ ، ولا تكونَ رغبتُكَ فيهِ أكثرَ مِنْ رغبتِكَ في قضاءِ حاجتِكَ ، إذْ لا فرقَ بينَ إدخالِ الطعامِ في البطنِ وبينَ إخراجِهِ ، فهما ضرورتانِ في الجبلَّةِ ، وكما لا يكونُ قضاءُ الحاجةِ مِنْ همَّتِكَ التي يشتغلُ بها قلبُكَ . . فلا ينبغي أنْ يكونَ تناولُ الطعامِ مِنْ همَّتِكَ ، واعلمْ أنَّهُ إنْ كانَ همَّتُكَ ما يدخلُ في بطنِكَ . . فقيمتُكَ ما يخرجُ مِنْ بطنِكَ .

وإذا لَمْ يكنْ قصدُكَ مِنَ الطعامِ إلا التقوِّيَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ؛ كقصدِكَ

---

(١) أي : من الإيمان القلبي ومراقبة الأنفاس واللحظات . « إتحاف » (٩/ ٢٤٣) .

مِنْ قضاءِ حاجتِكَ . . فعلامةُ ذلكَ تظهرُ في ثلاثةِ أمورٍ مِنْ مأكولِكَ : في وقتِهِ ، وقدرِهِ ، وجنسِهِ .

أمَّا الوقتُ . . فأقلُّهُ أن يكتفيَ في اليومِ والليلةِ بمرَّةٍ واحدةٍ ، فيواظبَ على الصومِ .

وأمَّا قدرُهُ . . فألا يزيدَ علىٰ ثلثِ البطنِ .

وأمَّا جنسُهُ . . فألا يطلبَ اللذائذَ مِنَ الأطعمةِ ، بلْ يقنعُ بما يتفقُ .

فإنْ قدرتَ علىٰ هٰذهِ الثلاثِ ، وسقطَتْ عنكَ مؤنةُ الشهواتِ اللذائذِ . . قدرتَ بعدَ ذلكَ علىٰ تركِ الشبهاتِ ، وأمكنكَ ألا تأكلَ إلا مِنْ حلِّهِ ، فإنَّ الحلالَ يعزُّ ولا يفي بجميعِ الشهواتِ .

وأمَّا ملبسُكَ : فليكنْ غرضُكَ منهُ دفعَ الحرِّ والبردِ وسترَ العورةِ ، فكلُّ ما دفعَ البردَ عنْ رأسِكَ ـ ولوْ قلنسوةٌ بدانقٍ ـ فطلبُكَ غيرَهُ فضولٌ منكَ ، يضيِّعُ زمانَكَ ، ويلزمُكَ الشغلَ الدائمَ والعناءَ القائمَ في تحصيلِهِ بالكسبِ مرَّةً ، وبالطمعِ أخرىٰ مِنَ الحرامِ والشبهةِ ، وقسْ بهٰذا ما تدفعُ بِهِ الحرَّ والبردَ عنْ بدنِكَ ، فكلُّ ما حصَّلَ مقصودَ اللِّباسِ إنْ لمْ تكتفِ بهِ في خساسةِ قدرِهِ وجنسِهِ . . لمْ يكنْ لكَ موقفٌ ومردٌّ بعدَهُ ، بلْ كنتَ ممَّنْ لا يملأُ بطنَهُ إلا الترابُ .

وكذلكَ المسكنُ : إنِ اكتفيتَ بمقصودِهِ . . كفتكَ السماءُ سقفاً ، والأرضُ مستقرّاً ، فإنْ غلبَكَ حرٌّ أوْ بردٌ . . فعليكَ بالمساجدِ[1] ، فإنْ طلبتَ

---

(١) في غير (ب ، ج) : (فالمساجد) بدل (فعليك بالمساجد) .

مسكناً خاصاً . . طالَ عليكَ ، وانصرفَ إليهِ أكثرُ عمرِكَ ، وعمرُكَ هوَ بضاعتُكَ ، ثمَّ إنْ تيسَّرَ لكَ فقصدتَ مِنَ الحائطِ سوىٰ كونِهِ حائلاً بينَكَ وبينَ الأبصارِ ، ومِنَ السقفِ سوىٰ كونِهِ دافعاً للأمطارِ ، فأخذتَ ترفعُ الحيطانَ ، وتزيِّنُ السقوفَ . . فقدْ تورَّطتَ في مهواةٍ يبعدُ رقيُّكَ منها .

وهكذا جميعُ ضروراتِ أمورِكَ ؛ إنِ اقتصرتَ عليها . . تفرغتَ للهِ ، وقدرتَ على التزوُّدِ لآخرتِكَ ، والاستعدادِ لخاتمتِكَ ، وإنْ جاوزتَ حدَّ الضرورةِ إلىٰ أوديةِ الأمانيِّ . . تشعبَتْ همومُكَ ، ولمْ يبالِ اللهُ في أي وادٍ أهلكَكَ .

فاقبلْ هـٰذهِ النصيحةَ ممَّنْ هوَ أحوجُ إلى النصيحةِ منكَ .

واعلمْ : أنَّ متسعَ التدبيرِ والتزوُّدِ والاحتياطِ هـٰذا العمرُ القصيرُ ، فإذا دفعتَهُ يوماً بيومٍ في تسويفِكَ أوْ غفلتِكَ . . اختُطفتَ فجأةً في غيرِ وقتِ إرادتِكَ ، ولمْ تفارقْكَ حسرتُكَ وندامتُكَ .

فإنْ كنتَ لا تقدرُ علىٰ ملازمةِ ما أرشدتُ إليهِ لضعفِ خوفِكَ ؛ إذْ لمْ يكنْ فيما وصفناهُ مِنَ أمرِ الخاتمةِ كفايةٌ في تخويفِكَ . . فإنَّا سنوردُ عليكَ مِنْ أحوالِ الخائفينَ ما نرجو أنْ يزيلَ بعضَ القساوةِ عنْ قلبِكَ ، فإنَّكَ تتحقَّقُ أنَّ عقلَ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ وعلمَهُمْ ومكانَهُمْ عندَ اللهِ لمْ يكنْ دونَ عقلِكَ وعلمِكَ ومكانِكَ[1] ، فتأمَّلْ ـ معَ كَلالِ بصيرتِكَ وعمشِ عينِ قلبِكَ ـ في

(١) في غير (أ ، ب) : (وعملهم . . . وعملك) بدل (وعلمهم . . . وعلمك) .

أحوالِهِمْ : لِمَ اشتدَّ بهِمُ الخوفُ ، وطالَ بهِمُ الحزنُ والبكاءُ ؟ حتَّىٰ كانَ بعضُهُمْ يصعقُ ، وبعضُهُمْ يدهشُ ، وبعضُهُمْ يسقطُ مغشيّاً عليهِ ، وبعضُهُمْ يخرُّ ميتاً إلى الأرضِ .

ولا غروَ إنْ كانَ ذلكَ لا يؤثِّرُ في قلبِكَ ؛ فإنَّ قلوبَ الغافلينَ مثلُ الحجارةِ أوْ أشدُّ قسوةً ، وإنَّ مِنَ الحجارةِ لما يتفجَّرُ منهُ الأنهارُ ، وإنَّ منها لما يشقَّقُ فيخرجُ منهُ الماءُ ، وإنَّ منها لما يهبطُ مِنْ خشيةِ اللهِ ، وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملونَ .

* * *

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ إذا تغيَّرَ الهواءُ ، وهبَّتْ ريحٌ عاصفةٌ . . يتغيَّرُ وجهُهُ ، ويقومُ ويتردَّدُ في الحجرةِ ، ويدخلُ ويخرجُ ، كلُّ ذلكَ خوفاً مِنْ عذابِ اللهِ عزَّ وجلَّ[1] .

وقرأ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ آيةً في (سورةِ الحاقَّةِ) فصعقَ[2] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ .

ورأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صورةَ جبريلَ عليهِ السلامُ بالأبطحِ فصعقَ[3] .

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كانَ إذا دخلَ في الصلاةِ يُسمعُ لصدرِهِ أزيزٌ كأزيزِ المرْجَلِ[4] .

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٩) ، ومسلم (٨٩٩) ، وفيه قوله لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « ما يُؤْمِنِّي أن يكون فيه عذاب ؟! عذب قوم بالريح ، وقد رأىٰ قوم العذاب فقالوا : ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ » .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٢٣٨) ، قال : (وروىٰ حمزة عن حمران بن أعين . . .) وذكره ، وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم قرأ أو قُرِىء عنده : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فصعق ، وأنها رواها ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٤٣٦) ، وهناد في « الزهد » (٢٦٧) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٣٢٢) ، والبزار في « مسنده » (٤٧١٨) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٥٧) .

(٤) رواه أبو داوود (٩٠٤) ، والنسائي (٣/ ١٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما جاءَني جبريلُ قطُّ إلا وهوَ يُرعَدُ فرقاً مِنَ الجبَّارِ »[1] .

وقيلَ : لما ظهرَ علىٰ إبليسَ ما ظهرَ . . طفقَ جبريلُ وميكائيلُ عليهما السلامُ يبكيانِ ، فأوحى اللهُ إليهما : ما لكما تبكيانِ كلَّ هٰذا البكاءِ ؟ فقالا : يا ربِّ ؛ ما نأمنُ مكرَكَ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : هٰكذا كونا ، لا تأمنا مكري[2] .

وعنْ محمدِ بنِ المنكدرِ قالَ : (لمَّا خُلقَتِ النارُ . . طارَتْ أفئدةُ الملائكةِ مِنْ أماكنِها ، فلمَّا خُلقَ بنو آدمَ . . عادَتْ)[3] .

وعنْ أنسٍ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ سألَ جبريلَ : « ما لي لا أرىٰ ميكائيلَ

---

(١) عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٣٥٧) من حديث أبي ذر : « والذي بعثني بالحق ؛ ما أتاني جبريل قط إلا رأيت بين عينيه مصوراً ، فقلت : يا جبريل ؛ ما لي أراك تأتيني وبين عينيك مصوراً ؟ قال : والذي بعثك بالحق وجعلني أميناً فيما بينه وبينك ؛ ما ضحكت منذ خلقت جهنم » ، وروىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٣٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالىٰ تُرعَدُ فرائصه فرقاً من عذاب الله تعالىٰ ، يقول : سبحانك لا إلٰه إلا أنت ، ما عبدناك حق عبادتك ، وروى البيهقي في « الشعب » (٨٨٧) عن أبي عمران الجوني قال : بلغني أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي ، فقال : « ما يبكيك ؟ » ، قال : ما جفت لي عين منذ خلق الله جهنم ؛ مخافة أن أعصيه فيلقيني فيها .

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص٢٤٠) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٣٨٣) وليس فيه ذكر إبليس .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٥) من كلام طاووس بن كيسان .

يضحكُ ؟ » فقالَ جبريلُ : ما ضحكَ ميكائيلُ منذُ خُلقَتِ النارُ[1] .

ويُقالُ : إنَّ للهِ تعالىٰ ملائكةً لمْ يضحكْ أحدٌ منهُمْ منذُ خُلقَتِ النارُ ؛ مخافةَ أنْ يغضبَ اللهُ عليهِمْ فيعذِّبَهُمْ بها[2] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : خرجتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ دخلَ بعضَ حيطانِ الأنصارِ ، فجعلَ يلتقطُ مِنَ التمرِ ويأكلُ ، قالَ : فقالَ : « يا بنَ عمرَ ؛ مالكَ لا تأكلُ ؟ » فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ لا أشتهيهِ ، فقالَ : « لكنِّي أشتهيهِ ، وهـٰذا صبحُ رابعةٍ مُذْ لمْ أذقْ طعاماً ولمْ أجدْهُ ، ولوْ سألْتُ ربِّي . . لأعطاني ملكَ كسرىٰ وقيصرَ ، فكيفَ بكَ ـ يا بنَ عمرَ ـ إذا بقيتَ في قومٍ يخبؤونَ رزقَ سنتِهِمْ ، ويضعفُ اليقينُ في قلوبِهِمْ ؟ » قالَ : فواللهِ ؛ ما برحنا ولا قمنا حتَّىٰ نزلَتْ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، قالَ : فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لمْ يأمرْكُمْ بكنزِ المالِ ، ولا باتباعِ الشهواتِ ، مَنْ كنزَ دنانيرَ يريدُ بها حياةً فانيةً . . فإنَّ الحياةَ بيدِ اللهِ ، ألا وإنِّي لا أكنزُ ديناراً ولا درهماً ، ولا أخبأُ رزقاً لغدٍ »[3] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٢٤) ، ورواه كذلك في حق إسرافيل عليه السلام البيهقي في « الشعب » (٨٨٥) .

(٢) فقد روى البيهقي في « الشعب » (٨٨٦) مرفوعاً : « إن لله عز وجل ملائكة تُرعَد فرائصهم من مخافته ، ما منهم ملك يقطر من عينيه دمعة إلا وقعت ملكاً قائماً يسبح » .

(٣) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٨٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ١٢٧) .

وقالَ أبو الدرداءِ : (كانَ يُسمعُ أزيزُ قلبِ إبراهيمَ خليلِ الرحمـٰنِ عليهِ السلامُ إذا قامَ في الصلاةِ مِنْ مسيرةِ ميلٍ ؛ خوفاً مِنْ ربِّه)[1] .

وقالَ مجاهدٌ : بكىٰ داوودُ عليهِ السلامُ أربعينَ يوماً ساجداً لا يرفعُ رأسَهُ ، حتَّىٰ نبتَ المرعىٰ مِنْ دموعِهِ ، وحتَّىٰ غطَّىٰ رأسَهُ ، فنُودِيَ : يا داوودُ ؛ أجائعٌ أنتَ فتُطعمُ ، أمْ ظمآنُ فتُسقىٰ ، أمْ عارٍ فتُكسى ؟ فنَحَبَ نحبةً هاجَ العودُ فاحترقَ مِنْ حرِّ جوفِهِ ، ثمَّ أنزلَ اللهُ تعالىٰ عليهِ التوبةَ والمغفرةَ ، فقالَ : يا ربِّ ، اجعلْ خطيئتي في كفِّي ، فصارَتْ خطيئتُهُ في كفِّهِ مكتوبةً ، فكانَ لا يبسطُ كفَّهُ لطعامٍ ولا لشرابٍ ولا لغيرِهِ إلا رآها فأبكتهُ ، قالَ : وكانَ يُؤتىٰ بالقدحِ ثلثاهُ ماءٌ ، فإذا تناولَهُ . . أبصرَ خطيئتَهُ ، فما يضعُهُ علىٰ شفتِهِ حتَّىٰ يفيضَ القدحُ مِنْ دموعِهِ[2] .

ويُروىٰ عنهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنَّهُ ما رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ حتَّىٰ ماتَ ، حياءً مِنَ اللهِ تعالىٰ[3] .

وكانَ يقولُ في مناجاتِهِ : (إلـٰهي ؛ إذا ذكرتُ خطيئتي . . ضاقَتْ عليَّ الأرضُ برُحْبِها ، وإذا ذكرتُ رحمتَكَ . . ارتدَّتْ إليَّ روحي ، سبحانَكَ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٢١٨) بنحوه .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٤) ، وهاج : يبس ، قال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٧٥) .

إلـٰهي ، أتيتُ أطباءَ عبادِكَ ليداووا خطيئتي ، فكلُّهُمْ عليكَ يدلُّني ، فبؤساً للقانطينَ مِنْ رحمتِكَ)[1] .

وقالَ الفضيلُ : بلغَني أنَّ داوودَ عليهِ السلامُ ذكرَ ذنبَهُ ذاتَ يومٍ ، فوثبَ صارخاً واضعاً يدَهُ علىٰ رأسِهِ حتَّىٰ لحقَ بالجبالِ ، فاجتمعَتْ إليهِ السباعُ ، فقالَ : ارجعوا لا أريدُكُمْ ، إنَّما أريدُ كلَّ بكَّاءٍ علىٰ خطيئتِهِ ، فلا يستقبلْني إلا بالبكاءِ ، ومَنْ لمْ يكنْ ذا خطيئةٍ . . فما يصنعُ بداوودَ الخطَّاءِ[2] .

وكانَ يُعاتبُ في كثرةِ البكاءِ فيقولُ : (دعوني أبكي قبلَ خروجِ يومِ البكاءِ ، قبلَ تخريقِ العظامِ واشتعالِ الحشا ، وقبلَ أنْ يُؤمرَ بي ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصونَ اللهَ ما أمرَهُمْ ويفعلونَ ما يُؤمرونَ)[3] .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ عميرٍ : لمَّا أصابَ داوودُ الخطيئةَ . . نقصَ صوتُهُ ، فقالَ : (إلـٰهي ؛ بُحَّ صوتي في صفاءِ أصواتِ الصدِّيقينَ)[4] .

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ السلامُ لمَّا طالَ بكاؤُهُ ولمْ ينفعْهُ ذلكَ ، فضاقَ ذرعُهُ ، واشتدَّ غمُّهُ . . قالَ : يا ربِّ ؛ أما ترحمُ بكائي ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ نسيتَ ذنبَكَ وذكرتَ بكاءَكَ ؟! فقالَ : إلـٰهي وسيِّدي ؛ كيفَ أنسىٰ ذنبي وكنتُ إذا تلوتُ الزبورَ . . كفَّ الماءُ الجاري عنْ جريِهِ ، وسكنَ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٢) عن عثمان ابن عاتكة يحكيه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٩/ ٢٤٧) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٨٣) ، وفيه : (اللحىٰ) بدل (الحشا) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٣٩٤) .

هبوبُ الريحِ ، وأظلَّني الطيرُ علىٰ رأسِي ، وأنسَتِ الوحوشُ إلىٰ محرابي ؟ إلـٰهي وسيِّدي ؛ فما هـٰذهِ الوحشةُ التي بيني وبينَكَ ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ ذاكَ أنسُ الطاعةِ ، وهـٰذهِ وحشةُ المعصيةِ ، يا داوودُ ؛ آدمُ خلقٌ مِنْ خلقي ، خلقتُهُ بيدي ، ونفختُ فيهِ مِنْ روحي ، وأسجدتُ لهُ ملائكتي ، وألبستُهُ ثوبَ كرامتي ، وتوجتُهُ بتاجِ وقاري ، وشكا إليَّ الوحدةَ ، فزوجتُهُ حوَّاءَ أَمَتي ، وأسكنتُهُ جنَّتي ، عصاني ، فطردتُهُ عنْ جواري عرياناً ذليلاً ، يا داوودُ ؛ اسمعْ منِّي والحقَّ أقولُ : أطعتَنا فأطعناكَ ، وسألتَنا فأعطيناكَ ، وعصيتَنا فأمهلناكَ ، وإنْ عدتَ إلينا علىٰ ما كانَ منكَ . . قبلناكَ[1] .

وقالَ يحيىٰ بنُ أبي كثيرٍ : بلغَنا أنَّ داوودَ عليهِ السلامُ كانَ إذا أرادَ أنْ ينوحَ . . مكثَ قبلَ ذلكَ سبعاً لا يأكلُ الطعامَ ، ولا يشربُ الشرابَ ، ولا يقربُ النساءَ ، فإذا كانَ قبلَ ذلكَ بيومٍ . . أُخرجَ لهُ منبرٌ إلى البريَّةِ ، فيأمرُ سليمانَ عليهِ السلامُ أنْ ينادِيَ بصوتٍ يستقرِىءُ البلادَ وما حولَها مِنَ الغياضِ والآكامِ والجبالِ والبراري والصوامعِ والبِيَعِ ، فينادي فيها : ألا مَنْ أرادَ أنْ يسمعَ نوحَ داوودَ علىٰ نفسِهِ . . فليأتِ ، قالَ : فتأتي الوحوشُ مِنَ البراري والآكامِ ، وتأتي السباعُ مِنَ الغياضِ ، وتأتي الهوامُّ مِنَ الجبالِ ، وتأتي الطيرُ مِنَ الأوكارِ ، وتأتي العذارَىٰ مِنْ خدورِهِنَّ ، وتجتمعُ الناسُ لذلكَ اليومِ ، ويأتي داوودُ حتَّىٰ يرقىٰ على المنبرِ ، ويحيطُ بهِ بنو إسرائيلَ ،

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٩/ ٢٤٧) .

وكلُّ صنفٍ علىٰ حدتِهِ محيطونَ بهِ ، وسليمانُ عليهِ السلامُ قائمٌ علىٰ رأسِهِ ، فيأخذُ في الثناءِ علىٰ ربِّهِ ، فيضجُّونَ بالبكاءِ والصراخِ ، ثمَّ يأخذُ في ذكرِ الجنَّةِ والنارِ ، فتموتُ الهوامُّ وطائفةٌ مِنَ الوحوشِ والسباعِ والناسِ ، ثمَّ يأخذُ في أهوالِ القيامةِ ، وفي النياحةِ علىٰ نفسِهِ ، فيموتُ مِنْ كلِّ نوعٍ طائفةٌ ، فإذا رأىٰ سليمانُ كثرةَ الموتىٰ.. قالَ : يا أبتاهُ ؛ قدْ مزَّقتَ المستمعينَ كلَّ ممزَّقٍ ، وماتَتْ طوائفُ مِنْ بني إسرائيلَ ومِنَ الوحوشِ والهوامِّ ، فيأخذُ في الدعاءِ ، فبينا هوَ كذلكَ.. إذْ ناداهُ بعضُ عبَّادِ بني إسرائيلَ : يا داوودُ ؛ عجلْتَ بطلبِ الجزاءِ علىٰ ربِّكَ ، قالَ : فيخرُّ داوودُ مغشيّاً عليهِ ، فإذا نظرَ سليمانُ إلىٰ ما أصابَهُ.. أتىٰ بسريرٍ فحملَهُ عليهِ ، ثمَّ أمرَ منادياً ينادي : ألا مَنْ كانَ لهُ معَ داوودَ حميمٌ أوْ قريبٌ.. فليأتِ بسريرٍ فليحملْهُ ، فإنَّ الذينَ كانوا معَهُ قدْ قتلَهُمْ ذكرُ الجنَّةِ والنارِ ، فكانَتِ المرأةُ تأتي بالسريرِ وتحملُ قريبَها وتقولُ : يا مَنْ قتلَهُ ذكرُ النارِ ، يا مَنْ قتلَهُ خوفُ اللهِ ، ثمَّ إذا أفاقَ داوودُ.. قامَ ووضعَ يدَهُ علىٰ رأسِهِ ، ودخلَ بيتَ عبادتِهِ ، وأغلقَ بابَهُ ، ويقولُ : يا إلـٰهَ داوودَ ؛ أغضبانُ أنتَ علىٰ داوودَ ؟ ولا يزالُ يناجي ربَّهُ ، فيأتي سليمانُ ويقعدُ على البابِ ، ويستأذنُ ، ثمَّ يدخلُ ومعَهُ قرصٌ مِنْ شعيرٍ ، فيقولُ : يا أبتاهُ ؛ تقوَّ بهـٰذا علىٰ ما تريدُ ، فيأكلُ مِنْ ذلكَ القرصِ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ يخرجُ إلىٰ بني إسرائيلَ فيكونُ بينَهُمْ[1] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٩/ ٢٤٨) ، ورواه السراج القاري في « مصارع العشاق » (١/ ٢٧٢) .

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : خرجَ داوودُ ذاتَ يومٍ بالناسِ يعظُهُمْ ويخوِّفُهُمْ ، فخرجَ في أربعينَ ألفاً ، فماتَ منهُمْ ثلاثونَ ألفاً ، وما رجعَ إلا في عشرةِ آلافٍ ، قالَ : وكانَ لهُ جاريتانِ اتخذَهُما ، حتَّىٰ إذا جاءَهُ الخوفُ ، وسقطَ فاضطربَ . . قعدتا علىٰ صدرِهِ وعلىٰ رجليهِ مخافةَ أنْ تتفرَّقَ أعضاؤُهُ ومفاصلُهُ فيموتَ[1] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : دخلَ يحيىٰ بنُ زكريا عليهما السلامُ بيتَ المقدسِ وهوَ ابنُ ثمانِ حججٍ ، فنظرَ إلىٰ عبَّادِهِمْ قدْ لبسوا مدارعَ الشعرِ والصوفِ ، ونظرَ إلىٰ مجتهديهِمْ قدْ خرقوا التراقيَ وسلكوا فيها السلاسلَ ، وشدُّوا أنفسَهُمْ إلىٰ أطرافِ بيتِ المقدسِ ، فهالَهُ ذلكَ ، فرجعَ إلىٰ أبويهِ ، فمرَّ بصبيانٍ يلعبونَ ، فقالوا لهُ : يا يحيىٰ ؛ هلمَّ بنا لنلعبَ ، فقالَ : إنِّي لمْ أُخلقْ للَّعبِ ، قالَ : فأتىٰ أبويهِ ، فسألَهُما أنْ يدرِّعاهُ الشعرَ ، ففعلا ، فرجعَ إلىٰ بيتِ المقدسِ ، وكانَ يخدمُهُ نهاراً ، ويصبحُ فيهِ ليلاً[2] ، حتَّىٰ أتَتْ عليهِ خمسَ عشرةَ سنةً ، فخرجَ ولزمَ أطوادَ الأرضِ وغيرانَ الشعابِ ، فخرجَ أبواهُ في طلبِهِ ، فأدركاهُ علىٰ بحيرةِ الأردنِّ وقدْ أنقعَ رجليهِ في الماءِ وقدْ كادَ

---

(١) وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٩) عن ثابت البناني قال : (كان داوود نبي الله عليه السلام إذا ذكر عقاب الله . . تخلعت أوصاله ، لا يشدها إلا الأسر ، فإذا ذكر رحمة الله . . تراجعت) ، **والأسر** : العصب والشد ، والمراد هنا : الأعصاب والعروق لشبهها بالحبل .

(٢) أي : يسرج السرج . « إتحاف » (٩/٢٤٨) .

العطشُ يذبحُهُ وهوَ يقولُ : وعزَّتِكَ وجلالِكَ ؛ لا أذوقُ باردَ الشرابِ حتَّىٰ أعلمَ أينَ مكاني منكَ ، فسألَهُ أبواهُ أنْ يفطرَ علىٰ قرْصٍ كانَ معهما مِنْ شعيرٍ ، ويشربَ مِنْ ذلكَ الماءِ ، ففعلَ وكفَّرَ عنْ يمينِهِ ، فمُدِحَ بالبرِّ ، فردَّهُ أبواهُ إلىٰ بيتِ المقدسِ ، فكانَ إذا قامَ يصلِّي . . بكىٰ حتَّىٰ يبكيَ معَهُ الشجرُ والمدرُ ، ويبكيَ زكريا عليهِ السلامُ لبكائِهِ ، حتَّىٰ يُغمىٰ عليهِ ، فلمْ يزلْ يبكي حتَّىٰ أحرقَتْ دموعُهُ لحمَ خدَّيهِ ، وبدَتْ أضراسُهُ للناظرينَ ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : يا بنيَّ ؛ لوْ أذنتَ لي أنْ أتخذَ لكَ شيئاً تواري بهِ أضراسَكَ عنِ الناظرينَ ، فأذنَ لها ، فعمدَتْ إلىٰ قطعتي لبودٍ فألصقَتْهُما علىٰ خدَّيهِ ، فكانَ إذا قامَ يصلِّي . . بكىٰ ، فإذا استنقعَتْ دموعُهُ في القطعتينِ . . أتتْ إليهِ أمُّهُ فعصرتهُما ، فإذا رأىٰ دموعَهُ تسيلُ علىٰ ذراعي أمِّهِ . . قالَ : اللهمَّ ؛ هـٰذهِ دموعي ، وهـٰذهِ أمِّي ، وأنا عبدُكَ ، وأنتُ أرحمُ الراحمينَ ، فقالَ لهُ زكريا يوماً : يا بنيَّ ؛ إنَّما سألتُ ربِّي أنْ يهبَكَ لي لتقرَّ عيناي بكَ ، فقالَ يحيىٰ : يا أبتِ ؛ إنَّ جبريلَ أخبرَني أنَّ بينَ الجنَّةِ والنارِ مفازةً لا يقطعُها إلا كلُّ بكَّاءٍ ، فقالَ زكريا عليهِ السلامُ : فابكِ يا بنيَّ[1] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (معاشرَ الحواريينَ ؛ خشيةُ اللهِ وحبُّ الفردوسِ يورثانِ الصبرَ على المشقَّةِ ، ويباعدانِ مِنَ الدنيا ، وبحقٍّ أقولُ

---

(١) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/ ٢٩٤) إلىٰ قوله : (وأنت أرحم الراحمين) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/ ٥٣) عن يزيد بن أبي منصور .

لكُمْ : إنَّ أكلَ الشعيرِ والنومَ على المزابلِ معَ الكلابِ في طلبِ الفردوسِ قليلٌ)[1] .

وقيلَ : كانَ الخليلُ عليهِ السلامُ إذا ذكرَ خطيئتَهُ . . يُغشىٰ عليهِ ، ويُسمعُ اضطرابُ قلبهِ ميلاً في ميلٍ ، فيأتيهِ جبريلُ فيقولُ لهُ : الجبَّارُ يقرئُكَ السلامَ ويقولُ : هلْ رأيتَ خليلاً يخافُ خليلَهُ ؟ فيقولُ : يا جبريلُ ؛ إنِّي إذا ذكرتُ خطيئَتي . . نسيتُ خلَّتي[2] .

فهٰذهِ أحوالُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، فدونَكَ والتأمُّلَ فيها ؛ فإنَّهُمْ أعرفُ خلقِ اللهِ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ ، وعلىٰ كلِّ عبادِ اللهِ المقربينَ ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/٤٢٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » . « إتحاف » (٩/٢٤٩) .

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين في شدة الخوف

رُوِيَ أنَّ أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ لطائرٍ : (ليتَني مثلُكَ يا طائرُ ولمْ أُخلقْ بشراً)[1] .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (وددتُ لوْ أنِّي شجرةٌ تُعضدُ)[2] ، وكذا قالَ طلحةُ[3] .

وقالَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ : (وددتُ أنِّي إذا متُّ لمْ أُبعثْ)[4] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (وددتُ أنِّي كنتُ نسياً منسياً)[5] .

ورُوِيَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يسقطُ مِنَ الخوفِ إذا سمعَ آيةً مِنَ القرآنِ مغشيّاً عليهِ ، فكانَ يُعادُ أيّاماً[6] .

وأخذَ يوماً تبنةً مِنَ الأرضِ فقالَ : (يا ليتَني كنتُ هـٰذهِ التبنةَ ، يا ليتَني

---

(١) رواه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٧٦٩) .
(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢) ، وذكره موقوفاً عليه رضي الله عنه .
(٣) قوت القلوب (١/٢٢٨) .
(٤) كذا في « القوت » (١/٢٢٨) ، وروى ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٧٢) عنه رضي الله عنه قال : (لو وقفت بين الجنة والنار ، فخيِّرت بين أن أصير رماداً أو أخير إلىٰ أي الدارين أصير . . لاخترت أن أكون رماداً) .
(٥) رواه البخاري (٤٧٥٣) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٥١) .

لمْ أكُ شيئاً مذكوراً ، يا ليتَني كنتُ نسياً منسيّاً ، يا ليتَني لمْ تلدْني أمِّي)[1] .

وكانَ في وجهِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ خطَّانِ أسودانِ مِنَ الدموعِ[2] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ خافَ اللهَ .. لمْ يشفِ غيظَهُ ، ومَنِ اتقى اللهَ .. لمْ يصنعْ ما يريدُ ، ولولا يومُ القيامةِ .. لكانَ غيرَ ما ترونَ)[3] .

ولمَّا قرأَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، وانتهىٰ إلىٰ قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ .. خرَّ مغشيّاً عليهِ[4] .

ومرَّ يوماً بدارِ إنسانٍ وهوَ يصلِّي ويقرأُ (سورةَ الطورِ) فوقفَ يستمعُ ، فلمَّا بلغَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ .. نزلَ عنْ حمارِهِ ، واستندَ إلىٰ حائطٍ ، ومكثَ زماناً ، ورجعَ إلىٰ منزلِهِ ، فمرضَ شهراً يعودُهُ الناسُ ولا يدرونَ ما مرضُهُ[5] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ وقدْ سلَّمَ مِنْ صلاةِ الفجرِ وقدْ علاهُ كآبةٌ وهوَ يقلِّبُ يدَهُ : (لقدْ رأيتُ أصحابَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلمْ أرَ اليومَ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٤) .
(٢) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (٣١٨) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٤٠٥) من طريق ابن أبي الدنيا ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٥٨) .
(٤) أورده المحب الطبري في « الرياض النضرة » (٢/ ٣٧٥) .
(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٣٠٨) .

شيئاً يشبهُهُمْ ، لقدْ كانوا يصبحونَ شعثاً صفراً غبراً ، بينَ أعينِهِمْ أمثالُ رُكَبِ المعزىٰ ، قدْ باتوا للهِ سجّداً وقياماً يتلونَ كتابَ اللهِ ، يراوحونَ بينَ جباهِهِمْ وأقدامِهِمْ ، فإذا أصبحوا وذكروا اللهَ . . مادوا كما يميدُ الشجرُ في يومِ الريحِ ، وهملَتْ أعينُهُمْ الدموعَ حتَّىٰ تبلَّ ثيابَهُمْ ، واللهِ ؛ كأنِّي بالقومِ باتوا غافلينَ) ، ثمَّ قامَ فما رُئِيَ بعدَ ذلكَ ضاحكاً حتَّىٰ ضربَهُ ابنُ ملجمٍ[1] .

وقالَ عمرانُ بنُ الحصينِ : (وددتُ أنِّي رمادٌ تسفيني الرياحُ في يومٍ عاصفٍ)[2] .

وقالَ أبو عبيدةَ ابنُ الجرَّاحِ رضيَ اللهُ عنهُ : (وددتُ أنِّي كبشٌ فيذبحُني أهلي ، فيأكلونَ لحمي ، ويحسونَ مرقي)[3] .

وكانَ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُ إذا توضَّأَ . . اصفرَّ لونُهُ ، فيقولُ لهُ أهلُهُ : ما هٰذا الذي يعتادُكَ عندَ الوضوءِ ؟ فيقولُ : أتدرونَ بينَ يدي مَنْ أريدُ أنْ أقومَ ؟![4] .

وقالَ موسىٰ بنُ مسعودٍ : كنَّا إذا جلسنا إلى الثوريِّ كأنَّ النارَ قدْ أحاطَتْ بنا ؛ لما نرىٰ مِنْ خوفِهِ وجزعِهِ[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٠٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٧٦) .
(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/٣٠٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٠) .
(٣) هو ضمن الخبر المروي قبله .
(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٣٨) ، وابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (١٤٨) .
(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٤٠) .

وقرأ مضرُ القارئُ يوماً : ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ . . . ﴾ الآيةَ ، فبكىٰ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ حتَّىٰ غُشِيَ عليهِ ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : وعزَّتِكَ ؛ لا عصيتُكَ جهدي أبداً ، فأعنِّي بتوفيقِكَ علىٰ طاعتِكَ[1] .

وكانَ المسورُ بنُ مخرمةَ لا يقوىٰ أنْ يسمعَ شيئاً منَ القرآنِ لشدَّةِ خوفِهِ ، ولقدْ كانَ يُقرأُ عندَهُ الحرفُ أوِ الآيةُ فيصيحُ صيحةً فما يعقلُ أياماً ، حتَّىٰ أتىٰ عليهِ رجلٌ مِنْ خثعمٍ ، فقرأَ عليهِ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ ، فقالَ : أنا مِنَ المجرمينَ ، ولستُ مِنَ المتقينَ ، أعدْ عليَّ القولَ أيُّها القارئُ ، فأعادَها عليهِ ، فشهقَ شهقةً فلحقَ بالآخرةِ[2] .

وقُرِئَ عندَ يحيى البَكَّاءِ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ، فصاحَ صيحةً مكثَ منها مريضاً أربعةَ أشهرٍ يُعادُ مِنْ أطرافِ البصرةِ[3] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : بينما أنا أطوفُ بالبيتِ إذْ أنا بجُويريةَ المتعبدةِ متعلقةً بأستارِ الكعبةِ وهيَ تقولُ : يا ربِّ ؛ كمْ مِنْ شهوةٍ ذهبَتْ لذَّاتُها وبقيَتْ

---

(١) بنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/ ٢٣٠) .

(٢) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٥٢) : (هكذا ذكره المصنف في سبب موته ، والذي ثبت من قول عمرو بن علي الفلاس أنه أصابه المنجنيق في فتنة ابن الزبير وهو يصلي في الحجر ، فمكث خمسة أيام ثم مات ، فلعل هـٰذه القصة إن صحت . . كانت في أثناء هـٰذه الأيام الخمسة ، أو حصل التصحيف من النساخ في صاحب القصة) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢١٣) .

تبعاتُها ؟! يا ربِّ ؛ أما كانَ لكَ أدبٌ وعقوبةٌ إلا النارُ ؟! وتبكي ، فما زالَ ذلكَ مقامُها حتَّىٰ طلعَ الفجرُ ، قالَ مالكٌ : فلمَّا رأيتُ ذلكَ . . وضعتُ يدي علىٰ رأسي صارخاً أقولُ : ثكلَتْ مالكاً أمُّهُ[1] .

ورُوِيَ أنَّ الفضيلَ رُئِيَ يومَ عرفةَ والناسُ يدعونَ وهوَ يبكي بكاءَ الثكلى المحترقةِ ، حتَّىٰ إذا كادَتِ الشمسُ تغربُ . . قبضَ علىٰ لحيتِهِ ، ثمَّ رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ وقالَ : وا سوءتاهُ منكَ وإنْ غفرتَ ، ثمَّ انقلبَ معَ الناسِ[2] .

وسُئِلَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عنِ الخائفينَ ، فقالَ : (قلوبُهُمْ بالخوفِ قرحةٌ ، وأعينُهُمْ باكيةٌ ، يقولونَ : كيفَ نفرحُ والموتُ مِنْ ورائِنا ، والقبرُ أمامَنا ، والقيامةُ موعدُنا ، وعلىٰ جهنَّمَ طريقُنا ، وبينَ يدي ربِّنا موقفُنا ؟!)[3] .

ومرَّ الحسنُ بشابٍّ وهوَ مستغرقٌ في ضحكِهِ وهوَ جالسٌ معَ قومٍ في مجلسٍ ، فقالَ لهُ الحسنُ : يا فتىٰ ؛ هلْ مررتَ بالصراطِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فهلْ تدري إلى الجنَّةِ تصيرُ أمْ إلى النارِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فما هـٰذا

---

(١) رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (١/ ٣١٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ٤٣١) ، وكذا وقع في النسخ : (المتعبدة) بالتعريف ، وعند الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٥٢) : (بجويريةٍ متعبدة) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٩٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٤٢٠) .

(٣) أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٣/ ١٧٧) .

الضحكُ ؟! قالَ : فما رُئِيَ ذلكَ الفتىٰ بعدَها ضاحكاً[1] .

وكانَ حمَّادُ بنُ عبدِ ربِّهِ إذا جلسَ . . جلسَ مستوفزاً علىٰ قدميهِ ، فيُقالُ لهُ : لوِ اطمأننتَ ، فيقولُ : تلكَ جلسةُ الآمنِ ، وأنا غيرُ آمنٍ ؛ إذْ عصيتُ اللهَ عزَّ وجلَّ .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : (إنَّما جعلَ اللهُ تعالىٰ هـٰذهِ الغفلةَ في قلوبِ العبادِ رحمةً ؛ كي لا يموتوا مِنْ خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ)[2] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (لقدْ هممتُ إذا أنا متُّ أنْ آمرَهُمْ أنْ يقيِّدوني ويغلُّوني ، ثمَّ ينطلقوا بي إلىٰ ربِّي كما يُنطلقُ بالعبدِ الآبقِ إلىٰ سيِّدهِ)[3] .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : (لا تغترَّ بموضعٍ صالحٍ ؛ فلا مكانَ أصلحُ مِنَ الجنَّةِ وقدْ لقيَ آدمُ عليهِ السلامُ فيها ما لقيَ ، ولا تغترَّ بكثرةِ العبادةِ ؛ فإنَّ إبليسَ بعدَ طولِ تعبُّدِهِ لقيَ ما لقيَ ، ولا تغترَّ بكثرةِ العلمِ ؛ فإنَّ بلعامَ كانَ يحسنُ اسمَ اللهِ الأعظمَ ، فانظرْ ماذا لقيَ ، ولا تغترَّ برؤيةِ الصالحينَ ؛ فلا شخصَ أكبرُ منزلةً عندَ اللهِ مِنَ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولمْ ينتفعْ بلقائِهِ أقاربُهُ وأعداؤُهُ)[4] .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٢٥٣) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/٢٥٣) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٨٠) بنحوه .

(٤) الرسالة القشيرية (ص٢٤١) .

وقالَ السريُّ : (إنِّي لأنظرُ إلىٰ أنفي كلَّ يومٍ مراتٍ ؛ مخافةَ أنْ يكونَ قدِ اسودَّ وجهي)[١] .

وقالَ أبو حفصٍ : (منذُ أربعينَ سنةً اعتقادي في نفسي أنَّ اللهَ تعالىٰ ينظرُ إليَّ نظرَ السخطِ ، وأعمالي تدلُّ علىٰ ذلكَ)[٢] .

وخرجَ ابنُ المباركِ يوماً علىٰ أصحابِهِ فقالَ : (إنِّي اجترأتُ البارحةَ على اللهِ تعالىٰ ؛ سألتُهُ الجنَّةَ)[٣] .

وقالَتْ أمُّ محمدِ بنِ كعبٍ القرظيِّ لابنِها : يا بنيَّ ؛ إنِّي أعرفُكَ صغيراً طيِّباً ، وكبيراً طيِّباً ، وكأنَّكَ أحدَثتَ حدثاً موبقاً لما أراكَ تصنعُ في ليلِكَ ونهارِكَ ![٤] فقالَ : يا أمَّاهُ ؛ ما يؤمنُني أنْ يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ قدِ اطلعَ عليَّ وأنا علىٰ بعضِ ذنوبي فمقتَني وقالَ : وعزَّتي وجلالي ؛ لا غفرتُ لكَ ؟![٥] .

وقالَ الفضيلُ : (إنِّي لا أغبطُ نبيّاً مرسلاً ، ولا ملكاً مقرباً ، ولا عبداً صالحاً ، أليسَ هؤلاءِ يعاينونَ يومَ القيامةِ ؟! إنَّما أغبطُ مَنْ لمْ يُخلقْ)[٦] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/١١٦) .
(٢) الرسالة القشيرية (ص٢٤٠) ، وأبو حفص هو عمر بن مسلمة الحداد .
(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٤١) .
(٤) أي : من الاجتهاد في العبادة ، والبكاء من الخوف . « إتحاف » (٩/٢٥٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢١٤) .
(٦) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٩) ، ويعاينون : يشاهدون أهوالها .

ورُوِيَ أنَّ فتىً مِنَ الأنصارِ دخلتهُ خشيةُ النارِ ، فكانَ يبكي حتَّىٰ حبسَهُ ذلكَ في البيتِ ، فجاءَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فدخلَ عليهِ واعتنقَهُ ، فخرَّ ميتاً ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جهِّزوا صاحبَكُمْ ؛ فإنَّ الفَرَقَ مِنَ النارِ فتَّتَ كبدَهُ »[1] .

ورُوِيَ عن أبي ميسرةَ أنَّهُ كانَ إذا أوىٰ إلىٰ فراشِهِ قالَ : يا ليتَ أمِّي لمْ تلدْني ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : يا أبا ميسرةَ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أحسنَ إليكَ ؛ هداكَ للإسلامِ ، قالَ : أجلْ ، ولكنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ بيَّنَ لنا أنَّا واردو النارِ ، ولمْ يبيِّنْ لنا أنا صادرونَ عنها[2] .

وقيلَ لفرقدٍ السَّبَخِيِّ : أخبرْنا بأعجبِ شيءٍ بلغَكَ عنْ بني إسرائيلَ ، فقالَ : بلغَني أنَّهُ دخلَ بيتَ المقدسِ خمسُ مئةِ عذراءَ ، لباسُهُنَّ الصوفُ والمسوحُ ، فتذاكرْنَ ثوابَ اللهِ وعقابَهُ ، فمتنَ جميعاً في يومٍ واحدٍ[3] .

وكانَ عطاءٌ السَّليميُّ مِنَ الخائفينَ ، ولمْ يكنْ يسألُ اللهَ الجنَّةَ أبداً ، إنَّما كانَ يسألُ اللهَ العفوَ[4] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٢٠) ، من زيادات نعيم بن حماد ، وأحمد في « الزهد » (٢٣٤٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٩٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٠٨) .

(٢) رواه النسائي في « الكبرى » (١١٨٣٧) ، وابن المبارك في « الزهد » (٣١٢) ، وفي غير (ب) : (وروي عن ابن أبي ميسرة) .

(٣) أورده ابن الجوزي في « المدهش » (٢/ ٦١٣) .

(٤) رویٰ ذلك له أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢١٧) .

وقيلَ لهُ في مرضِهِ : ألا تشتهي شيئاً ؟ فقالَ : إنَّ خوفَ جهنَّمَ لمْ يدعْ في قلبي موضعاً للشهوةِ[1] .

ويُقالُ : إنَّهُ ما رفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ولا ضحكَ أربعينَ سنةً ، وإنَّهُ رفعَ رأسَهُ يوماً ، ففزعَ ، فسقطَ ، فانفتقَ في بطنِهِ فتقٌ[2] .

وكانَ يمسُّ جسدَهُ في بعضِ الليلةِ مخافةَ أنْ يكونَ قدْ مُسِخَ[3] .

وكانَ إذا أصابَتْهُمْ ريحٌ أوْ برقٌ أوْ غلاءُ طعامٍ . . قالَ : هـٰذا مِنْ أجلي يصيبُهُمْ ، لوْ ماتَ عطاءٌ . . لاستراحَ الناسُ[4] .

وقالَ عطاءٌ : خرجنا معَ عتبةَ الغلامِ وفينا كهولٌ وشبَّانٌ يصلُّونَ صلاةَ الفجرِ بطهورِ العشاءِ ، قدْ تورَّمَتْ أقدامُهُمْ مِنْ طولِ القيامِ ، وغارَتْ أعينُهُمْ في رؤوسِهِمْ ، ولصقَتْ جلودُهُمْ علىٰ عظامِهِمْ ، وبقيَتِ العروقُ كأنَّها الأوتارُ ، يصبحونَ كأنَّ جلودَهُمْ قشورُ البطيخِ ، وكأنَّهُمْ قدْ خرجوا مِنَ القبورِ يخبرونَ كيفَ أكرمَ اللهُ المطيعينَ ، وكيفَ أهانَ العاصينَ ، فبينَما هُمْ يمشونَ . . إذْ مرَّ بمكانٍ ، فخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فجلسَ أصحابُهُ حولَهُ يبكونَ في يومٍ شديدِ البردِ ، وجبينُهُ يرشحُ عرقاً ، فجاؤوا بماءٍ فمسحوا وجهَهُ ،

---

(١) رویٰ ما يفيد هـٰذا أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢١٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢٢) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١) .

فأفاقَ ، وسألوهُ عنْ أمرِهِ ، فقالَ : إنِّي ذكرتُ أنِّي كنتُ عصيتُ اللهَ في ذلكَ المكانِ[1] .

وقالَ صالحٌ المريُّ : قرأتُ علىٰ رجلٍ مِنَ المتعبدينَ : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ ، فصعقَ ، ثمَّ أفاقَ فقالَ : زدْني يا صالحُ ؛ فإنِّي أجدُ غمّاً ، فقرأتُ : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ ، فخرَّ ميتاً .

ورُوِيَ أنَّ زرارةَ بنَ أوفىٰ صلَّىٰ بالناسِ الغداةَ ، فلمَّا قرأَ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ . . خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فحُملَ ميتاً[2] .

ودخلَ يزيدُ الرقاشيُّ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فقالَ : عظْني يا يزيدُ ؛ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ اعلمْ أنَّكَ لستَ أوَّلَ خليفةٍ يموتُ ، فبكىٰ ، ثمَّ قالَ : زدْني ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ليسَ بينَكَ وبينَ آدمَ أبٌ إلا ميِّتٌ ، فبكىٰ ، ثمَّ قالَ : زدْني يا يزيدُ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ليسَ بينَكَ وبينَ الجنَّةِ والنارِ منزلٌ ، فسقطَ مغشيّاً عليهِ[3] .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : لمَّا نزلَتْ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . . صاحَ سلمانُ الفارسيُّ ، ووضعَ يدَهُ علىٰ رأسِهِ ،

---

(١) خبر أنه مرَّ بمكان فأصابه ما أصابه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢٨) .
(٢) رواه الترمذي (٤٤٥) بنحوه .
(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥١) .

وخرجَ هارباً ثلاثةَ أيامٍ لا يقدرونَ عليهِ[1] .

ورأىٰ داوودُ الطائيُّ امرأةً تبكي علىٰ رأسِ قبرِ والدِها وهيَ تقولُ : يا أبتاهُ ؛ ليتَ شعري أيُّ خديكَ بدأَ بهِ الدودُ أوّلاً ؟ فصعقَ داوودُ وسقطَ مكانَهُ[2] .

وقيلَ : مرضَ سفيانُ الثوريُّ ، فعُرِضَ بولُهُ علىٰ طبيبٍ ذميٍّ ، فقالَ : هـٰذا رجلٌ قطعَ الخوفُ كبدَهُ ، ثمَّ جاءَ وجسَّ عروقَهُ ، ثمَّ قالَ : ما علمتُ أنَّ في الملةِ الحنيفيةِ مثلَهُ[3] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رحمَهُ اللهُ : سألتُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يفتحَ عليَّ باباً مِنَ الخوفِ ، ففتحَ ، فخفتُ علىٰ عقلي ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ علىٰ قدْرِ ما أطيقُ ، فسكنَ قلبي[4] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ : (ابكوا ، فإنْ لمْ تبكوا . . فتباكَوا ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ يعلمُ العلمَ أحدُكُمْ . . لصرخَ حتَّىٰ ينقطعَ صوتُهُ ، وصلَّىٰ حتَّىٰ ينكسرَ صلبُهُ)[5] ، وكأنَّهُ أشارَ إلىٰ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٩/ ٢٥٥) .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٢٤) ، وعند القشيري في « الرسالة » (ص٥٩) أن سبب زهد داوود رحمه الله تعالىٰ أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأيِّ خديك تبدَّى البلى ... وأي عينيك إذاً سالا

(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٤١) .

(٤) الرسالة القشيرية (ص٢٤٢) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٨) .

وسلَّمَ : « لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً »[1] .

وقالَ العنبريُّ : اجتمعَ أصحابُ الحديثِ علىٰ بابِ الفضيلِ بنِ عياضٍ ، فاطلعَ عليهِمْ مِنْ كوَّةٍ وهوَ يبكي ولحيتُهُ ترجفُ ، فقالَ : عليكمْ بالقرآنِ ، عليكُمْ بالصلاةِ ، ويحَكُمْ ، ليسَ هٰذا زمانَ حديثٍ ، إنَّما هٰذا زمانُ بكاءٍ وتضرُّعٍ واستكانةٍ ، ودعاءٍ كدعاءِ الغريقِ ، إنَّما هٰذا زمانُ : احفظْ لسانَكَ ، وأخفِ مكانَكَ ، وعالجْ قلبَكَ ، وخذْ ما تعرفُ ، ودعْ ما تنكرُ[2] .

ورُئِيَ الفضيلُ يوماً وهوَ يمشي ، فقيلَ لهُ : إلىٰ أينَ ؟ فقالَ : لا أدري ، وكانَ يمشي والهاً مِنَ الخوفِ[3] .

وقالَ ذرُّ بنُ عمرَ لأبيهِ عمرَ بنِ ذرٍّ : ما بالُ المتكلمينَ يتكلَّمونَ فلا يبكي أحدٌ ، فإذا تكلمتَ أنتَ . . سمعتُ البكاءَ مِنْ كلِّ جانبٍ ؟ فقالَ : يا بنيَّ ، ليسَتِ النائحةُ الثكلىٰ كالنائحةِ المستأجرةِ[4] .

وحُكِيَ أنَّ قوماً وقفوا بعابدٍ وهوَ يبكي ، فقالوا : ما الذي يبكيكَ يرحمُكَ اللهُ ؟ قالَ : روعةٌ يجدُها الخائفونَ في قلوبِهِمْ ، قالوا : وما هيَ ؟

---

(١) رواه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٤٢٦) .
(٢) رویٰ أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٩٤) من طريق الحسين بن زياد قال : سمعت الفضيل يقول : (احفظ لسانك ، وأقبل علىٰ شأنك ، واعرف زمانك ، وأخف مكانك) .
(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/ ٢٥٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١١٠) .

قالَ : روعةُ النداءِ بالعرضِ على اللهِ عزَّ وجلَّ[1] .

وكانَ الخوَّاصُ يبكي ويقولُ في مناجاتِهِ : (قدْ كبرتُ وضعفَ جسمي عنْ خدمتِكَ ، فأعتقْني)[2] .

وقالَ صالحٌ المرّيُّ : قدمَ علينا ابنُ السمَّاكِ مرَّةً فقالَ : أرني شيئاً مِنْ بعضِ عجائبِ عُبَّادِكُمْ ، فذهبتُ بهِ إلىٰ رجلٍ في بعضِ الأحياءِ في خُصٍّ لهُ ، فاستأذنا عليهِ ، فإذا رجلٌ يعملُ خوصاً ، فقرأتُ عليهِ : ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، فشهقَ الرجلُ شهقةً وخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فخرجنا مِنْ عندِهِ وتركناهُ علىٰ حالِهِ ، وذهبنا إلىٰ آخرَ ، فدخلنا عليهِ ، فقرأتُ هٰذهِ الآيةَ ، فشهقَ شهقةً وخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فذهبنا واستأذنا علىٰ ثالثٍ ، فقالَ : ادخلوا إنْ لمْ تشغلونا عنْ ربِّنا ، فقرأتُ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ، فشهقَ شهقةً ، فبدا الدمُ مِنْ منخريهِ ، وجعلَ يتشحَّطُ في دمِهِ حتَّىٰ يبسَ ، فتركناهُ علىٰ حالِهِ وخرجنا ، فأدرتُهُ علىٰ ستَّةِ أنفسٍ ، كلٌّ نخرجُ مِنْ عندِهِ ونتركُهُ مغشيّاً عليهِ ، ثمَّ أتيتُ بهِ السابعَ ، فاستأذنا ، فإذا امرأةٌ من وراءِ الخُصِّ تقولُ : ادخلوا ، فدخلنا ، فإذا شيخٌ فانٍ جالسٌ في مصلاَّهُ ، فسلَّمنا عليهِ ، فلمْ يشعرْ بسلامِنا ، فقلتُ بصوتٍ عالٍ ، ألا إنَّ للخلقِ غداً مقاماً ، فقالَ الشيخُ : بينَ يدي مَنْ ويحَكَ ؟ ثمَّ بقيَ مبهوتاً ، فاتحاً فاهُ ، شاخصاً بصرَهُ ، يصيحُ بصوتٍ لهُ

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/ ٢٥٧) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٢٨٢) بنحوه .

ضعيفٍ : أوْهِ أوْهِ ، حتَّى انقطعَ ذلكَ الصوتُ ، فقالَتِ امرأتُهُ : اخرجوا ، فإنَّكُمْ لا تنتفعونَ بهِ الساعةَ ، فلمَّا كانَ بعدَ ذلكَ.. سألتُ عنِ القومِ ، فإذا ثلاثةٌ قدْ أفاقوا ، وثلاثةٌ قدْ لحقوا باللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الشيخُ.. فإنَّهُ مكثَ ثلاثةَ أيامٍ علىٰ حالتِهِ مبهوتاً متحيِّراً ، لا يؤدِّي فرضاً ، فلمَّا كانَ بعدَ ثلاثٍ.. عقلَ[1] .

وكانَ يزيدُ بنُ الأسودِ يُرىٰ أنَّهُ مِنَ الأبدالِ ، وكانَ قدْ حلفَ ألا يضحكَ أبداً ، ولا ينامَ مضطجعاً ، ولا يأكلَ سميناً أبداً ، فما رُئِيَ ضاحكاً ، ولا مضطجعاً ، ولا أكلَ سميناً حتَّىٰ ماتَ رحمَهُ اللهُ[2] .

وقالَ الحجَّاجُ لسعيدِ بنِ جبيرٍ : بلغَني أنَّكَ لمْ تضحكْ قطُّ ، فقالَ : كيفَ أضحكُ وجهنَّمُ قدْ سُعرَتْ ، والأغلالُ قدْ نُصبَتْ ، والزبانيةُ قدْ أُعدَّتْ[3] .

وقالَ رجلٌ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ كيفَ أصبحتَ ؟ قالَ : بخيرٍ ، قالَ : كيفَ حالُكَ ؟ فتبسَّمَ الحسنُ وقالَ : تسألُني عنْ حالي ؟! ما ظنُّكَ بناسٍ ركبوا سفينةً حتَّىٰ توسَّطوا البحرَ فانكسرَتْ سفينتُهُمْ ، فتعلَّقَ كلُّ إنسانٍ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٦٩) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٥/ ١١١) من طريق ابن أبي الدنيا ، وصوَّب الزبيدي في « إتحافه » (٩/ ٢٥٧) أنه الأسود بن يزيد ، ولكن في النسخ والأصل المنقول عنه كما أثبت .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٩١) ضمن خبر طويل ، ولفظه : (وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين ، والطين تأكله النار) .

منهُمْ بخشيةٍ ، علىٰ أيِّ حالٍ هُمْ ؟ قالَ الرجلُ : علىٰ حالٍ شديدةٍ ، قالَ الحسنُ : حالي أشدُّ مِنْ حالِهِمْ[١] .

ودخلَتْ مولاةٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ عليهِ ، فسلَّمَتْ عليهِ ، ثمَّ قامَتْ إلىٰ مسجدٍ في بيتِهِ ، فصلَّتْ فيهِ ركعتينِ ، وغلبَتْها عيناهَا ، فرقدَتْ ، فاستبكَتْ في منامِها[٢] ، ثمَّ انتبهتْ فقالَتْ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنِّي رأيتُ ـ واللهِ ـ عجباً ، قالَ : وما ذاكِ ؟ قالَتْ : رأيتُ النارَ وهيَ تزفرُ علىٰ أهلِها ، ثمَّ جيءَ بالصراطِ فوُضعَ علىٰ متنِها ، فقالَ : هيهِ ، قالَتْ : فجيءَ بعبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، فحُملَ عليهِ ، فما مضىٰ عليهِ إلا يسيراً حتَّى انكفأَ بهِ الصراطُ ، فهوىٰ إلىٰ جهنَّمَ ، فقالَ عمرُ : هيهِ ، قالَتْ ثمَّ جِيءَ بالوليدِ بنِ عبدِ الملكِ ، فحُملَ عليهِ ، فما مضىٰ إلا يسيراً حتَّى انكفأَ بهِ الصراطُ ، فهوىٰ إلىٰ جهنَّمَ ، فقالَ عمرُ : هيهِ ، قالَتْ : ثمَّ جِيءَ بسليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، فما مضىٰ عليهِ إلا يسيراً حتَّى انكفأَ بهِ الصراطُ ، فهوىٰ كذلكَ ، فقالَ عمرُ : هيهِ ، قالَتْ : ثمَّ جيءَ بكَ ـ واللهِ ـ يا أميرَ المؤمنينَ ، فصاحَ عمرُ رحمةُ اللهِ عليهِ صيحةً خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فقامَتْ إليهِ ، فجعلَتْ تنادي في أذنِهِ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنِّي رأيتُكَ ـ واللهِ ـ حتَّىٰ نجوتَ[٣] ، قالَ : وهيَ تنادي وهوَ يصيحُ ويفحصُ برجليهِ[٤] .

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (٩/٢٥٨) .
(٢) أي : انتبهت باكية مذعورة . « إتحاف » (٩/٢٥٨) .
(٣) في (د) : (إني رأيتك والله حتىٰ نجوت ، إني رأيتك والله حتىٰ نجوت) ، وكذا في (ج) دون (حتىٰ) .
(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (٩/٢٥٨) .

ويُحكىٰ أنَّ أويساً القرنيَّ رحمَهُ اللهُ كانَ يحضرُ عندَ القاصِّ فيبكي مِنْ كلامِهِ ، فإذا ذكرَ النارَ . . صرخَ أويسٌ ، ثمَّ يقومُ منطلقاً ، فيتبعُهُ الناسُ ، فيقولونَ : مجنونٌ مجنونٌ .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ المؤمنَ لا تسكنُ روعتُهُ حتَّىٰ يخلِّفَ جسرَ جهنَّمَ وراءَهُ)(١) .

وكانَ طاووسٌ يفرشُ فراشَهُ ، ثمَّ يضطجعُ ويتقلَّىٰ كما تتقلَّى الحبَّةُ في المقلَىٰ ، ثمَّ يثبُ فيدرجُهُ(٢) ويستقبلُ القبلةَ حتَّى الصباحِ ، ويقولُ : (طيَّرَ ذكرُ جهنَّمَ نومَ الخائفينَ)(٣) .

وقالَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ : (يخرجُ مِنَ النارِ رجلٌ بعدَ ألفِ عامٍ ويا ليتَني كنتُ ذلكَ الرجلَ)(٤) ، وإنَّما قالَ ذلكَ لخوفِهِ منَ الخلودِ وسوءِ الخاتمةِ .

ورُوِيَ أنَّهُ ما ضحكَ أربعينَ سنةً ، قالَ : وكنتُ إذا رأيتُهُ قاعداً كأنَّهُ أسيرٌ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٩٢٧٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣١) من حديث معاذ رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) أي : يطوي الفراش .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩١) ، وفيه : (العابدين) بدل (الخائفين) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٠) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٣٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ولم يذكر قول الحسن ، وساق قول الحسن من رواية أبي بكر الآجري ابنُ حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص ٣٥) .

قدْ قدمَ لتُضربَ عنقُهُ ، وإذا تكلَّمَ كأنَّهُ يعاينُ الآخرةَ فيخبرُ عنْ مشاهدتِها ، فإذا سكتَ كأنَّ النارَ تُسعرُ بينَ عينيهِ ، وعُوتبَ في شدَّةِ حزنِهِ وخوفِهِ فقالَ : (ما يؤمنُني أنْ يكونَ اللهُ تعالىٰ قدِ اطلعَ عليَّ في بعضِ ما يكرهُ ، فمقتَني ، فقالَ : اذهبْ فلا غفرتُ لكَ ، فأنا أعملُ في غيرِ معملٍ ؟!)[1] .

وعنِ ابنِ السمَّاكِ قالَ : وعظتُ يوماً في مجلسٍ ، فقامَ شابٌّ مِنَ القومِ فقالَ : يا أبا العباسِ ؛ لقدْ وعظتَ اليومَ بكلمةٍ ما كنَّا نبالي ألا نسمعَ غيرَها ، قلتُ : وما هيَ رحمَكَ اللهُ ؟ قالَ : قولُكَ : لقدْ قطعَ قلوبَ الخائفينَ طولُ الخلودينِ ؛ إمَّا في الجنَّةِ أوْ في النارِ ، ثمَّ غابَ عنِّي ، فتفقدتُهُ في المجلسِ الآخرِ فلمْ أرَهُ ، فسألتُ عنهُ ، فأُخبرتُ أنَّهُ مريضٌ يُعادُ ، فأتيتُهُ أعودُهُ ، فقلتُ : يا أخي ، ما الذي أرىٰ بكَ ؟ فقالَ : يا أبا العباسِ ؛ ذلكَ مِنْ قولِكَ : لقدْ قطعَ قلوبَ الخائفينَ طولُ الخلودينِ ؛ إمَّا في الجنَّةِ أوْ في النارِ ، قالَ : ثمَّ ماتَ رحمَهُ اللهُ ، فرأيتُهُ في المنامِ ، فقلتُ : يا أخي ، ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي ورحمَني ، وأدخلَني الجنَّةَ ، قلتُ : بماذا ؟ قالَ : بالكلمةِ .

فهٰذهِ مخاوفُ الأنبياءِ والأولياءِ والعلماءِ والصالحين ، ونحنُ أجدرُ بالخوفِ منهُمْ ، لكنْ ليسَ الخوفُ بكثرةِ الذنوبِ ، بلْ بصفاءِ القلوبِ وكمالِ المعرفةِ ، وإلا . . فليسَ أمنُنا لقلَّةِ ذنوبِنا وكثرةِ طاعاتِنا ، بلْ قادَتنا شهوتُنا ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٢٨) .

وغلبَتْ علينا شقوتُنا ، وصدَّتنا عنْ ملاحظةِ أحوالِنا غفلتُنا وقسوتُنا ، فلا قرْبُ الرحيلِ ينبِّهُنا ، ولا كثرةُ الذنوبِ تحرِّكُنا ، ولا مشاهدةُ أحوالِ الخائفينَ تخوِّفُنا ، ولا خطرُ الخاتمةِ يزعجُنا ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يتداركَ بفضلِهِ وجودِهِ أحوالَنا فيصلحَنا ، إنْ كانَ تحريكُ اللسانِ بمجرَّدِ السؤالِ دونَ الاستعدادِ ينفعُنا .

ومِنَ العجائبِ أنَّا إذا أردنا المالَ في الدنيا .. زرعنا وغرسنا واتجرنا ، وركبنا البحارَ والبراريَ وخاطرنا ، وإنْ أردنا طلبَ رتبةِ العلمِ .. تفقَّهنا ، وتعبنا في حفظِهِ وتكرارِهِ وسهرنا ، ونجتهدُ في طلبِ أقواتِنا ولا نثقُ بضمانِ اللهِ لنا ، ولا نجلسُ في بيوتِنا فنقولَ : اللهمَّ ؛ ارزقْنا ، ثمَّ إذا طمحَتْ أعينُنا نحو الملكِ الدائمِ المقيمِ .. قنعنا بأنْ نقولَ بألسنتِنا : اللهمَّ ؛ اغفرْ لنا وارحمْنا ، والذي إليهِ رجاؤُنا وبهِ اعتزازُنا ينادينا ويقولُ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ ، ثمَّ كلُّ ذلكَ لا ينبهُنا ولا يخرجُنا عنْ أوديةِ غرورِنا وأمانينا ! فما هٰذهِ إلا محنةٌ هائلةٌ إنْ لمْ يتفضَّلِ اللهُ علينا بتوبةٍ نصوحٍ يتداركُنا بها ويجبرُنا .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يتوبَ علينا ، بلْ نسألُهُ أنْ يشوِّقَ إلى التوبةِ سرائرَ قلوبنا ، وألا يجعلَ حركةَ اللسانِ بسؤالِ التوبةِ غايةَ حظِّنا ، فنكونَ ممَّنْ يقولُ ولا يعملُ ، ويسمعُ ولا يقبلُ ، إذا سمعنا الوعظَ .. بكينا ، وإذا جاءَ وقتُ العملِ بما سمعناهُ .. عصينا ، فلا علامةَ للخذلانِ أعظمُ مِنْ هٰذا ،

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يمنَّ بالتوفيقِ والرشدِ علينا بمنِّه وفضلِهِ .

ولنقتصرْ مِنْ حكايةِ أحوالِ الخائفينَ علىٰ ما أوردنا ، فإنَّ القليلَ مِنْ هٰذا يصادفُ القلبَ القابلَ فيكفي ، والكثيرَ منهُ وإنْ أُفيضَ على القلبِ الغافلِ . . فلا يغني .

ولقدْ صدقَ الراهبُ الذي حكىٰ عنهُ عيسىٰ بنُ مالكٍ الخولانيُّ ـ وكانَ مِنْ خيارِ العبَّادِ ـ أنَّهُ رآهُ علىٰ بابِ بيتِ المقدسِ واقفاً كهيئةِ المحزونِ مِنْ شدَّةِ الولهِ ، ما يكادُ يرقأُ دمعُهُ مِنْ كثرةِ البكاءِ ، فقالَ عيسىٰ : لمَّا رأيتُهُ . . هالَني منظرُهُ ، فقلتُ : أيُّها الراهبُ ؛ أوصني بوصيَّةٍ أحفظُها عنكَ ، فقالَ : يا أخي ، بماذا أوصيكَ ؟ إنِ استطعتَ أنْ تكونَ بمنزلةِ رجلٍ قدِ احتوشَتْهُ السباعُ والهوامُّ فهوَ خائفٌ حَذِرٌ ، يخافُ أنْ يغفُلَ فتفترسَهُ السباعُ ، أوْ يسهوَ فتنهشَهُ الهوامُّ ، فهوَ مذعورُ القلبِ وَجِلٌ ، فهوَ في المخافةِ في ليلِهِ وإنْ أمنَ المغترُّونَ ، وفي الحزنِ في نهارِهِ وإنْ فرحَ البطَّالونَ ، ثم ولَّىٰ وتركَني ، فقلتُ : لوْ زدتَني شيئاً عسىٰ أنْ ينفعَني ، فقالَ : الظمآنُ يجزئُهُ مِنَ الماءِ أيسرُهُ[1] .

وقدْ صدقَ ، فإنَّ القلبَ الصافيَ يحرِّكُهُ أدنىٰ مخافةٍ ، والقلبَ الجامدَ تنبو عنهُ كلُّ المواعظِ .

---

(١) أورده مجير الدين الحنبلي في « الأنس الجليل » (١/ ٢٨٩) عن قاسم الزاهد بدلاً من الخولاني بنحوه .

وما ذكرَهُ مِنْ تقديرِهِ أنَّهُ احتوشَتْهُ السباعُ والهوامُّ فلا ينبغي أنْ يُظنَّ أنَّهُ تقديرٌ ، بلْ هوَ تحقيقٌ ، فإنَّكَ لوْ شاهدتَ بنورِ البصيرةِ باطنَكَ . . لرأيتَهُ مشحوناً بأصنافِ السباعِ وأنواعِ الهوامِّ ؛ مثلَ الغضبِ ، والشهوةِ ، والحقدِ ، والحسدِ ، والكبرِ ، والعجْبِ ، والرياءِ ، وغيرِها ، وهيَ التي لا تزالُ تفترسُكَ وتنهشُكَ إنْ غفلتَ عنها لحظةً ، إلا أنَّكَ محجوبُ العينِ عنْ مشاهدتِها ، فإذا انكشفَ الغطاءُ ، ووُضعتَ في قبرِكَ . . عاينتَها وقدْ تمثَّلَتْ لكَ بصورِها وأشكالِها الموافقةِ لمعانيها ، فترىٰ بعينِكَ العقاربَ والحيَّاتِ قدْ أحدقَتْ بكَ في قبرِكَ ، وإنَّما هيَ صفاتُكَ الحاضرةُ الآنَ ، قدِ انكشفَ لكَ صورُها ، فإنْ أردتَ أنْ تقتلَها وتقهرَها وأنتَ قادرٌ عليها قبلَ الموتِ . . فافعلْ ، وإلا . . فوطِّنْ نفسَكَ علىٰ لدغِها ونهشِها لصميمِ قلبِكَ فضلاً عنْ ظاهرِ بشرتِكَ وجسمِكَ ، والسلامُ .

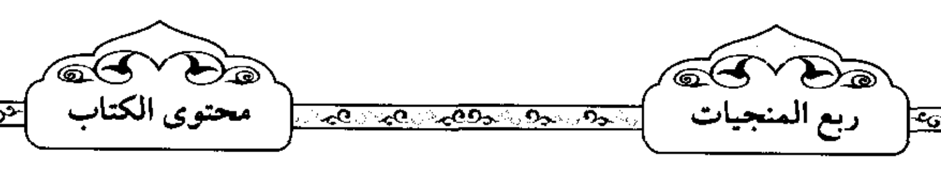
* * *

تمَّ كتابُ الرَّجاءِ والخوف

وهو الكتاب الثّالث من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وعونه وتأييده ، وصلاته على سيّدنا محمّد النّبيّ وآله وسلامه

يتلوه كتاب الفقر والزّهد



مُحتَوى الكِتَاب

رُبعُ المُنجِيَاتِ / القِسمُ الأوّل

كتاب التوبة ٧

كتاب الرجاء والخوف ٤٦٥